اللباب
في علوم الكتاب

تأليف

الإمام المفسّر أبي حفص عمر بن عليّ
ابن عادل الدّمشقي الحنبلي
المتوفى بعد سنة ٨٨٠ هـ

تحقيق وتعليق

الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ــ الشيخ علي محمّد معوّض

شارك في تحقيقه برسالته الجامعيّة

الدكتور محمّد سعد رمضان حسن / الدكتور محمّد المتولي الدسوقي حرب

الجزء التاسع عشر

المحتوى:

أول سورة الممتحنة - آخر سورة القيامة

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت

تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠

صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

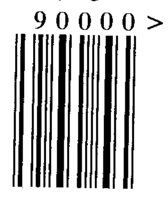
DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2298-3





http://www.al-ilmiyah.com.lb/
e-mail : baydoun@dm.net.lb

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الممتحنة

مدنيّة، وتسمى «الممتحِنة» ـ بكسر الحاء ـ أي: المختبرة، وأضيف الفعل إليها مجازاً، كما سميت سورة «براءة» المبعثرة والفاضحة والكاشفة لما كشفت من عيوب المنافقين.

ومن قال «بفتح الحاء» فإنه أضافها إلى المرأة التي نزلت فيها، وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط[(١)]، قال تعالى: ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ﴾ [الممتحنة: ١٠].

وهي ثلاث عشرة آية، وثلاث مائة وثمان وأربعون كلمة، وألف وخمسمائة وعشرة أحرف.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ الآية.

وجه تعلق أول هذه السورة بآخر ما قبلها، هو أن آخر تلك السورة تشتمل على الصفات الجميلة [اللائقة بحضرة الله ـ تعالى ـ من الوحدانية وغيرها][(٢)]، وأول هذه السورة يشتمل على حرمة الاختلاط مع من لم يعترف بتلك الصفات.

قوله: ﴿عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾.

هذان مفعولا الاتخاذ.

---

(١) ينظر القرطبي (١٨/ ٣٤).

(٢) يوجد في أ مكان هذه العبارة: التي اختص الله بها وغيرها، وما أثبتناه موافق للموجود بـ «الفخر الرازي» ٢٩/ ٢٥٧.

و «العَدو» لما كان بزنةِ المصادر وقع على الواحد فما فوق.

وأضاف العدو لنفسه تغليظاً في جرمهم(١).

روى مسلم عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: بعثنا رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: «ائتُوا روضة «خَاخٍ» فإنَّ بِهَا ظعينةً معها كتابٌ فخذُوهُ مِنْهَا» فانطلقنا تُعادي بنا خيلنَا، فإذا نحن بالمرأة، وهي امرأة عبد الرحمن بن عوف ولدت إبراهيم بن عبد الرحمن، فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتُخرجنَّ الكتاب أو لنلقينَّ الثياب فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل «مكة» يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: يا حاطب ما هذا؟ فقال: لا تَعْجَلْ عليَّ يا رسول الله، إني كنت أمرأً ملصقاً في قريش ـ قال سفيان: يقول: كنت حليفاً ـ ولم أكن من أنفسها، وكان ممن معك من المهاجرين من له قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النَّسَب أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي، ولم أفعله كفراً ولا ارتداداً عن ديني، فقال رسول الله ﷺ: «أمَا إنَّهُ قَدْ صَدقَكُمْ»، فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: إنَّهُ شهد بَدْراً، ومَا يُدْريك لعلَّ اللَّه اطلع على مَنْ شَهِدَ بَدْراً، فقال: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ إلى قوله: ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾(٢).

قيل(٣): اسم المرأة سارة من موالي قريش، وكان في الكتاب: «أما بعد، فإن رسول الله ﷺ قد توجه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل، وأقسم بالله لو لم يسر إليكم إلا وحده لأظفره الله بكم، وأنجز له وعده فيكم، فإن الله وليه وناصره».

وقيل: إن سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هاشم بن عبد مناف أتت [المدينة من مكة ورسول الله](٤) يتجهز لفتح مكة. قيل: كان هذا زمن الحديبية، فقال لها رسول

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٠١.

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٥٠٢) كتاب التفسير، باب: «لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء» حديث (٤٨٩٠) ومسلم (٤/ ١٩٤١) كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل أهل بدر وقصة حاطب بن أبي بلتعة رقم (١٦١/ ٢٣٩٤) والترمذي (٣٣٠٥) وأبو داود (٢٦٥٠) والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٤٨٧) والحميدي في «مسنده» (١/ ٢٧) رقم (٤٩) والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٦) والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ١٦ ـ ١٧) عن علي بن أبي طالب.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٠١) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وأبي عوانة وابن حبان وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم في «الدلائل».

(٣) ينظر: القرطبي ١٨/ ٣٥.

(٤) في أ: النبي ﷺ.

الله ﷺ أمهاجرةً جئت يا سارة؟ قالت: لا، قال: أمسلمة جئت؟ قالت: لا، قال: فما جاء بك؟ قالت: كنتم الأهل والموالي والأصل والعشيرة، وقد ذهبت الموالي - تعني قُتِلُوا يوم بدر - وقد احتجت حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني، فقال عليه الصلاة والسلام: فأيْنَ أنت عَن شَبابِ أهْلِ مكَّة؟ - وكانت مغنيةً نائحةً قالت: ما طلب مني شيء بعد وقعة بدرٍ، فحث رسول الله ﷺ بني عبد المطلب وبني المطلب على إعطائها، فكسوها وحملوها وأعطوها، فخرجت إلى مكة، وأتاها حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد بن عبد العزى، وقال: أعطيك عشرة دنانير، وبُرداً على أن تبلغي هذا الكتاب إلى أهل «مكَّة»، وكتب في الكتاب: إن رسول الله ﷺ يريدكم، فخذوا حذركم، فخرجت سارة، ونزل جبريل عليه السلام فأخبر النبي ﷺ بذلك، فبعث عليًا والزبير والمقداد وأبا مرثد الغنوي، وفي رواية: عليًا وعمار بن ياسر، وفي رواية: عليًا وعماراً وعمراً والزبير وطلحة والمقداد وأبا مرثد، وكانوا كلهم فرساناً، وقال لهم: انطلقوا حتى تأتوا روضة «خاخ»، فإن بها ظعينة، ومعها كتاب من حاطب إلى المشركين، فخذوه منها وخلُّوا سبيلها، فإن لم تدفعه إليكم فاضربوا عنقها، فأدركوها في ذلك المكان، فقالوا: أين الكتاب؟ فحلفت باللَّه ما معها كتاب، ففتشوا أمتعتها فلم يجدوا معها كتاباً فهموا بالرجوع، فقال علي: والله ما كذبنا ولا كذَّبنا وسلَّ سيفه، وقال أخرجي الكتاب وإلا والله لأجرّدنّكِ ولأضربن عنقك، فلما رأت الجد أخرجته من ذؤابتها قد خبأته في شعرها - وفي رواية في حُجزتِهَا - فخلُّوا سبيلها، ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ فأرسل إلى حاطب، فقال: هل تعرف هذا الكتاب؟ قال: نعم، وذكر الحديث.

فصل في النهي عن موالاة الكفار(١)

هذه السورة أصل في النهي عن موالاة الكُفَّار، وقد تقدم نظيره، كقوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ [آل عمران: ٢٨]. وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٨] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١].

روي أن حاطباً لما سمع ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ غشي من الفرح بخطاب الإيمان.

قوله: «تُلقُون». فيه أربعة أوجه(٢):

أحدها: أنه تفسير لموالاتهم إياهم.

الثاني: أنه استئناف إخبار بذلك، فلا يكون للجملة على هذين الوجهين محلّ من الإعراب.

---

(١) ينظر: القرطبي ١٨/ ٣٥.

(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٠١.

الثالث: أنها حال من فاعل «تتَّخذُوا» أي: لا تتخذوا ملقين المودّة.

الرابع: أنها صفة لأولياء.

قال الزمخشري[١]: «فإن قلت: إذا جعلته صفة وقد جرى على غير من هو له، فأين الضمير البارز، وهو قولك: تلقون إليهم أنتم بالمودّة؟.

قلت: ذاك إنما اشترطوه في الأسماء دون الأفعال ولو قيل: أولياء ملقين إليهم بالمودة على الوصف لما كان بُدّ من الضمير البارز». وقد تقدمت هذه المسألة مستوفاة، وفيها كلام مكي وغيره.

إلا أن أبا حيّان اعترض على كونها صفة أو حالاً، بأنهم نهوا عن اتخاذهم أولياء مطلقاً في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾، والتقييد بالحال والوصف يوهم جواز اتخاذهم أولياء إذا انتفى الحال أو الوصف[٢].

قال شهاب الدين[٣]: «ولا يلزم ما قال، لأنه معلوم من القواعد الشرعية، فلا مفهوم لها ألبتة».

وقال الفرَّاء: «تلقون» من صلة «أولياء».

وهذا على أصولهم من أن النكرة توصل لغيرها من الموصولات.

قوله: «بِالْمَودَّةِ». في الباء ثلاثة أوجه[٤]:

أحدها: أن الباء مزيدة في المفعول به، كقوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ﴾ [الحج: ٢٥].

والثاني: أنها غير مزيدة، والمفعول محذوف، ويكون معنى الباء: السببية، كأنه قيل: تلقون إليهم أسرار رسول الله ﷺ وأخباره بسبب المودة التي بينكم وبينهم. قاله الزجاج[٥].

الثالث: أنها متعلقةٌ بالمصدر الدال عليه «تلقون» أي: إلقاؤهم بالمودة.

نقله الحوفي عن البصريين [وجعل القول بزيادة الباء قول الكوفيين.

إلا أنَّ هذا الذي نقله عن البصريين][٦] لا يوافق أصولهم، إذ يلزم منه حذف المصدر وإبقاء معموله، وهو لا يجوز عندهم، وأيضاً فإن فيه حذف الجملة برأسها، فإن «إلقاءهم» مبتدأ، و «بالمَوَدَّةِ» متعلق به، والخبر أيضاً محذوف، وهذا إجحاف[٧].

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٥١٢.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٤/ ٥١٢.

(٣) الدر المصون ٦/ ٣٠١.

(٤) ينظر: السابق.

(٥) ينظر: معاني القرآن ٥/ ١٥٥.

(٦) سقط من أ.

(٧) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٠٢.

فصل في الكلام على الآية

قال ابن الخطيب[١]: في الآية مباحث.

الأول: اتخاذ العدو أولياء، كيف يمكن، والعداوة منافية للمحبة؟.

والجواب: لا يبعد أن تكون العداوة بالنسبة إلى أمر آخر، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

وقال عليه الصلاة والسلام: «أَوْلادُنَا أَكْبَادُنَا»[٢].

الثاني: لم قال: ﴿عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ﴾ ولم يقل بالعكس؟.

والجواب: أنَّ العداوة بين المؤمن والكافر بسبب محبّة الله ومحبَّة رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فتكون محبة العبد من أصل الإيمان بحضرة الله تعالى لعلةٍ، ومحبة حضرة الله ـ تعالى ـ للعبد لا لعلة، والذي لا لعلة مقدم على الذي لعلة؛ ولأن الشيء إذا كانت له نسبة إلى الطرفين، فالطرف الأعلى مقدم على الأدنى.

الثالث: قال: «أولياء»، ولم يقل: ولي العدو أو العدو معرفاً؟.

فالجواب: أن المعرف بحرف التعريف يتناول كل فرد، فكذلك المعرف بالإضافة.

فصل

قال القرطبي[٣]: قوله: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ يعني بالظَّاهر، لأن قلب حاطب كان سليماً بدليل أن النبي ﷺ قال لهم: «أمَّا صَاحِبُكُمْ فقدْ صَدَقَ»، وهذا نصٌّ في سلامة فؤاده، وخلوص اعتقاده.

فصل فيمن تطلع على عورات المسلمين

قال القرطبي[٤]: من كثر تطلّعه على عورات المسلمين، وينبه عليهم، ويعرف عدوهم بأخبارهم لم يكن بذلك كافراً إذا كان فعله ذلك لغرض دنيوي، واعتقاده على ذلك سليم، كما فعل حاطب حين قصد بذلك اتخاذ اليد، ولم ينو الردة عن الدين.

وإذا قيل: بأنه لا يكون كافراً بذلك فهل يقتل حدًّا أم لا؟ فقال مالك وابن القاسم وأشهب: يجتهد الحاكم الإمام في ذلك.

---

(١) التفسير الكبير ٢٩/٢٥٨.

(٢) ذكره العجلوني في «كشف الخفا» (١/٣٠٧) رقم (٨١٦) وقال: قال ابن كمال باشا في أربعينه قال عليه الصلاة والسلام حين أخذ الحسن والحسين، وأيده محمد بن الحسن الشيباني بدخول أولاد البنات في الأمان إذا قالوا أمّنُونا على أولادنا، قال ذكره شمس الأئمة السرخسي في شرح التفسير الكبير.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨/٣٦. (٤) ينظر السابق.

وقال عبد الملك: إذا كانت عادته تلك قُتِلَ لأنه جاسوس، وقد قال مالك: يقتل الجاسوس لإضراره بالمسلمين، وسعيه بالفساد في الأرض، ولعل ابن الماجشون إنما أخذ التكرار في هذا؛ لأن حاطباً أخذ في أول فعله، فإن كان الجاسوس كافراً، فقال الأوزاعي: يكون نقضاً لعهده، وقال: الجاسوس الحربي يقتل، والجاسوس المسلم والذمي يعاقبان إلا أن يظاهرا على الإسلام فيقتلان.

وقد روي عن عليٍّ بن أبي طالبٍ ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ أتي بعين للمشركين اسمه: فُرات بن حيَّان، فأمر به أن يقتل، فصاح: يا معشر الأنصار، أقتل وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله؟ فأمر به النبي ﷺ فخلي سبيله، ثم قال: «إنَّ مِنكُمْ من أكِلُهُ إلى إيمانِهِ، مِنهُمْ فُراتُ بنُ حيَّانَ»[١].

قوله: «وقَدْ كَفرُوا». فيه أوجه[٢]:

أحدها: الاستئناف.

الثاني: حال من فاعل «تتخذوا».

الثالث: حال من فاعل «تلقون»، أي: لا تتولَّوهم أو لا توادوهم وهذه حالهم.

وقرأ العامة: «بما» ـ بالباء ـ، **والجحدري وعاصم**[٣] **في رواية**: «لما» ـ باللام ـ أي: لأجل ما جاءكم من الحق، فعلى هذا الشيء المكفور به غير مذكور، وتقديره: كفروا بالله ورسوله.

قوله: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾.

يجوز أن يكون مستأنفاً، وأن يكون تفسيراً لكفرهم، فلا محلَّ لها على هذين، وأن يكون حالاً من فاعل «كَفَرُوا».

قوله: «وإيَّاكُمْ». عطف على «الرَّسُول» وقدّم عليهم تشريفاً له.

وقد استدل به من يجوز انفصال الضمير مع القدرة على اتصاله، إذ كان يجوز أن يقال: يخرجونكم والرسول، فيجوز: يخرجون إياكم والرسول في غير القرآن.

وهو ضعيف، لأن حالة تقديم الرسول دلالة على شرفه، لا نسلم أنه يقدر على اتصاله[٤].

وقد تقدم الكلام على هذه الآية عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في سورة النساء [١١١].

---

(١) أخرجه البيهقي في «سننه» (٩/ ١٤٧). (٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٠٢.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٩٤، والكشاف ٤/ ٥١٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٥١، والدر المصون ٦/ ٣٠٢.

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٠٢.

قوله: ﴿أَن تُؤْمِنُوا﴾ مفعول له، وناصبه «يخرجون» أي: يخرجونكم لإيمانكم أو كراهة إيمانكم[١].

فصل

قال القرطبي[٢]: «أن تؤمنوا بالله» تعليل لـ «يخرجون» والمعنى: يخرجون الرسول، ويخرجونكم من «مكة» لأن تؤمنوا بالله، أي: لأجل إيمانكم بالله.

قال ابن عباس: وكان حاطب ممن أخرج مع النبي ﷺ[٣].

وقيل: إن الكلام فيه تقديم وتأخير، والتقدير: لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي.

وقيل: في الكلام حذف، والمعنى: إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي، وابتغاء مرضاتي [فلا تلقوا إليهم بالمودة.

وقيل: «إن كُنتُم خَرَجْتُم جِهَاداً في سَبيلِي وابْتَغَاءَ مَرْضَاتِي»][٤] شرط وجوابه مقدم، والمعنى: إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي فلا تتَّخذوا عدوي وعدوكم أولياء.

قال أبو حيان[٥]: «إن كُنتُم خَرَجْتُمْ» جوابه محذوف عند الجمهور لتقدم «لا تتخذوا» وتقدم، وهو «لا تتخذوا» عند الكوفيين ومن تابعهم.

قال الزمخشري[٦]: و «إن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ» متعلق بـ «لا تتخذوا» يعني: لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي، وقول النحويين في مثله: هو جواب شرط، جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه انتهى.

يريد: أنه متعلق به من حيث المعنى، وأما من حيث الإعراب، فكما قال جمهور النحويين.

قوله: ﴿جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي﴾ ﴿وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي﴾ يجوز أن ينتصبا على المفعول له، أي: خرجتم لأجل هذين، أو على المصدر بفعل مقدر أي: تجاهدون وتبتغون، أو على أنهما في موضع الحال[٧].

قوله: «تُسِرُّونَ».

يجوز أن يكون مستأنفاً، ولم يذكر الزمخشري[٨] غيره.

---

(١) ينظر السابق.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٣٦.

(٣) ينظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٣٦).

(٤) سقط من أ.

(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٥١، والدر المصون ٦/ ٣٠٢.

(٦) ينظر: الكشاف ٤/ ٥١٢.

(٧) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٠٢.

(٨) ينظر: الكشاف ٤/ ٥١٢.

ويجوز أن يكون حالاً ثانية مما انتصب عنه «تلقون» حالاً.

ويجوز أن يكون بدلاً من «تلقون». قاله ابن عطية[١].

والأشبه أن يكون بدل اشتمال، لأن إلقاء المودة يكون سرًّا وجهراً، فأبدل منه هذا للبيان بأيّ نوع وقع الإلقاء[٢].

قال القرطبي[٣]: «تُسِرُّونَ» بدل من «تُلْقُونَ» ومبين عنه، والأفعال تبدل من الأفعال كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩].

وأنشد سيبويه[٤]: [الطويل]

٤٧٥٩ ـ مَتَى تَأْتِنَا تُلْمِمْ بِنَا فِي دِيَارِنَا تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً ونَاراً تَضَرَّمَا[٥]

ويجوز أن يكون خبر مبتدأ مضمر، أي: أنتم تسرون. قاله ابن عطية[٦].

ولا يخرج عن معنى الاستئناف.

وقال أبو البقاء[٧]: «هو توكيد لـ «تلقون» بتكرير معناه».

قال شهاب الدين[٨]: «وفيه نظر، لأن الإلقاء أعم من أن يكون سرًّا وجهراً».

وتقدم الكلام على الباء في قوله: «بالمودَّة».

قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ﴾.

هذه الجملة حال من فاعل «تُسِرُّونَ»، أي: وأيُّ طائلٍ لكم في إسراركم، وقد علمتم أن الإسرار والإعلان سيان في علمي.

و «أَعْلَمُ»، يجوز أن يكون أفعل تفضيل، وهو الظاهر، أي: أنا أعلم من كل أحد بما يخفون، وما يعلنون.

وأن يكون فعلاً مضارعاً.

قاله ابن عطية[٩]، وعُدِّي بالباء، لأنك تقول: علمت بكذا، وعلمت كذا فتكون زائدة.

وقيل: وأنا أعلم من كل أحد كما يقال: فلان أعلم وأفضل من غيره[١٠].

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٩٤.
(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٠٢.
(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٣٦، ٣٧.
(٤) ينظر: الكتاب ٣/ ٨٦.
(٥) تقدم.
(٦) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٩٤.
(٧) ينظر: الإملاء ٢/ ١٢١٧.
(٨) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٠٢.
(٩) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٩٤، والدر المصون ٦/ ٣٠٢.
(١٠) ينظر: القرطبي ١٨/ ٣٧.

[فإن قيل: لم قدم العلم بالإخفاء على العلم بالإعلان مع أن ذلك مستلزم لهذا من غير عكس؟.

فالجواب[١] هذا بالنسبة إلى علمنا، لا بالنسبة إلى علمه - تعالى - إذ هما سيّان في علمه تعالى؛ لأن المقصود بيان ما هو الإخفاء، وهو الكفر، فيكون مقدماً.

فإن قيل: لم لم يقل: بما أسررتم، ثم وما أعلنتم، مع أنه أليق بما سبق في قوله: «تُسِرُّونَ»؟ فالجواب: أن فيه من المبالغة ما ليس في ذلك، فإنَّ الإخفاء أبلغ من الإسرار بدليل قوله: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، أي: أخفى من السِّر][٢].

فصل في معاتبة حاطب

قال القرطبي[٣]: وهذا كله معاتبة لحاطب، وهو يدل على فضله وكرامته، ونصيحته للرسول ﷺ وصدق إيمانه؛ فإن المعاتبة لا تكون إلا من محبٌ لحبيب؛ كما قال: [الوافر]

٤٧٦٠ - إذَا ذَهَبَ العِتَابُ فَلَيْسَ وُدٌّ وَيَبْقَى الودُّ مَا بَقِيَ العِتَابُ[٤]

فصل في المراد بالمودة

والمراد بالمودّة في الآية النصيحة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: وأنا أعلم بما أخفيتم في صدوركم، وما أظهرتم بألسنتكم من الإقرار والتوحيد[٥].

﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ أي: من يسر إليهم ويكاتبهم ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: أخطأ طريق الهدى[٦].

قوله: «ومَن يفعلهُ». في الضمير وجهان[٧]:

أظهرهما: أنه يعود على الإسرار؛ لأنه أقرب مذكور.

والثاني: يعود على الاتِّخاذ. قاله ابن عطية[٨].

قوله: ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

يجوز أن يكون منصوباً على الظرف، إن قلنا: ضلَّ قاصر.

وأن يكون مفعولاً به، إن قلنا: هو متعد[٩].

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٥٩.

(٢) سقط من أ.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٣٧.

(٤) ينظر اللسان (عتب)، والقرطبي ١٨/ ٣٧.

(٥) ينظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٣٦).

(٦) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٣٧.

(٧) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٠٢.

(٨) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٩٤.

(٩) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٠٢.

[فإن قيل: ما الفائدة في قوله «مِنكُمْ»، ومن المعلوم أن من فعل هذا، فقد ضل سواء السبيل؟.

فالجواب(١): إن كان المراد من قوله: «مِنكُمْ» هم المؤمنون فظاهر، لأن من يفعل ذلك لا يلزم أن يكون مؤمناً](٢).

قوله تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢﴾

قوله: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ يلقونكم ويصادفونكم، ومنه المثاقفة، أي: طلب مصادفة [الغرة](٣) في المسايفة وشبهها.

وقيل: «يثقفوكم»: يظفروا بكم ويتمكنوا منكم ﴿يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: بالضَّرب والشَّتم(٤).

قوله: ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

في «ودوا» وجهان(٥):

أحدهما: أنه معطوفٌ على جواب الشرط، وهو قوله: «يَكُونُوا» و «يَبْسطُوا» قاله الزمخشري(٦).

ثم رتب عليه سؤالاً وجواباً، فقال: «فإن قلت: كيف أورد جواب الشَّرط مضارعاً مثله، ثم قال: «ودوا» بلفظ الماضي؟.

قلت: الماضي وإن كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب، فإن فيه نكتة، كأنه قيل: ودوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم، يعني أنهم يريدون أن يلحقوا مضار الدنيا والآخرة جميعاً».

والثاني: أنه معطوف على جملة الشَّرط والجزاء، ويكون تعالى قد أخبر بخبرين بما تضمنته الجملة الشرطية، وموادتهم كفر المؤمنين.

ورجح أبو حيان هذا، وأسقط به سؤال الزمخشري وجوابه، فقال(٧): «وكأن الزمخشري فهم من قوله: «ووَدُّوا» أنه معطوف على جواب الشرط، والذي يظهر أنه ليس معطوفاً عليه؛ لأن ودادتهم كفرهم ليست مرتبة على الظفر بهم والتسليط عليهم، بل هم

---

(١) ينظر: التفسير الكبير ٢٩/ ٢٥٩.
(٢) سقط من أ.
(٣) في أ: العشيرة.
(٤) ينظر: القرطبي ١٨/ ٣٧.
(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٠٣.
(٦) ينظر: الكشاف ٤/ ٥١٣.
(٧) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٥١، والدر المصون ٦/ ٣٠٣.

وادُّون كفرهم على كل حال سواء ظفروا بهم أم لم يظفروا» انتهى.

قال شهاب الدين[١]: «والظَّاهر أنه عطف على الجواب، وقوله: هم وادُّون ذلك مطلقاً مسلم، لكن وِدَادَتَهُم له عند الظَّفر والتسليط[٢] أقرب وأطمع لهم فيهم».

وقوله: ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

يجوز أن يكون لما سيقع لوقوع، وأن تكون المصدرية عند من يرى ذلك.

وتقدم تحريرهما في البقرة.

فصل في معنى الآية

والمعنى[٣]: ودوا لو تكفرون بمحمد ﷺ فلا تناصحوهم، فإنهم لا يناصحونكم.

قوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾

قوله: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾.

لما اعتذر حاطب بأن له أرحاماً وأولاداً فيما بينهم بيَّن الله ـ تعالى ـ أن الأهل والأولاد لا ينفعون شيئاً يوم القيامة إن عصى من أجل ذلك.

﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْۚ﴾ فيدخل المؤمنين الجنة، ويدخل الكافرين النار[٤] ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يجوز فيه وجهان[٥].

أحدهما: أن يتعلق بما قبله، أي: لن ينفعكم يوم القيامة، فيوقف عليه، ويبتدأ ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْۚ﴾.

والثاني: أن يتعلق بما بعده، أي: يفصل بينكم يوم القيامة، فيوقف على «أولادكم» ويبتدأ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

والقراء في ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْۚ﴾ على أربع مراتب:

الأولى[٦]: لابن عامر: بضم الياء وفتح الفاء والصاد مثقلة.

---

(١) الدر المصون ٦/ ٣٠٣.

(٢) زاد في أ بعد هذه الكلمة: عليهم، بل هم موادون كفرهم.

(٣) ينظر: القرطبي ١٨/ ٣٧. (٤) ينظر: السابق.

(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٠٣.

(٦) ينظر هذه القراءات الأربع في: السبعة ٦٣٣، والحجة ٦/ ٢٨٥، وإعراب القراءات ٢/ ٣٦٠، وحجة القراءات ٧٠٦، والعنوان ١٨٩، وشرح الطيبة ٦/ ٥٠، وشرح شعلة ٦٠١، وإتحاف ٢/ ٥٣٣.

الثانية: مثقلة إلا أنه بكسر الصاد للأخوين.

الثالثة: بفتح الياء وسكون الفاء وكسر الصاد مخففة لعاصم.

الرابعة: بضم الياء وسكون الفاء وفتح الصاد مخففة للباقين، وهم نافع وابن كثير، وأبو عمرو، وهذا في السبعة.

وقرأ ابن أبي عبلة وأبو حيوة: بضم الياء وكسر الصاد مخففة وسكون الفاء مخففة من «أفْصَلَ».

وأبو حيوة أيضاً: «نُفْصِلُ» بضم النون، من «أفصل».

والنخعي وطلحة: «نُفَصِّلُ» بضم النون وفتح الفاء وكسر الصَّاد مشددة.

وقرأ أيضاً وزيد بن علي[١]: «نَفْصِلُ» بفتح النون وسكون الفاء وكسر الصاد مخففة فهذه أربع، فصارت ثماني قراءات.

فمن بناه للمفعول، فالقائم مقام الفاعل إما ضمير المصدر، أي: يفصل الفصل، أو الظرف، وبني على الفتح لإضافته إلى غير متمكن، كقوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] في أحد الأوجه، أو الظرف وهو باقٍ على نصبه كقولك: جُلِسَ عندك. ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وفيه سؤال، وهو أنه لِمَ لَمْ يَقُلْ: خبير مع أنه أبلغ في العلم بالشيء[٢]؟.

والجواب: أنَّ الخبير أبلغ في العلم، والبصير أشهر منه فيه، فإنه يجعله كالمحسُوس بحس البصر.

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ (٦) ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧)﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الآية.

---

(١) ينظر في هذه القراءات: المحرر الوجيز ٥/ ٢٩٥، والبحر المحيط ٨/ ٢٥٢، والدر المصون ٦/ ٣٠٤.

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٦٠.

لما نهى عن مُوالاةِ الكُفَّار ذكر قصة إبراهيم، وأن من سيرته التَّبرؤ من الكُفَّار، أي: فاقتدوا به إلاَّ في الاستغفار لأبيه(١).

والأسْوَةُ والإسوةُ ما يتأسّى به مثل القُدوة والقِدوة، ويقال: هو أسوتك أي مثلك وأنت مثله وتقدم قراءة «أسوة» في سورة «الأحزاب» والكلام على مادتها(٢).

قوله: ﴿فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾. فيه أوجه(٣):

أحدها: أنه متعلق بـ «أسوة»، تقول: لي أسوة في فلان، ومنع أبو البقاء أن يتعلق بها لأنها قد وصفت(٤).

وهذا لا يبالى به لأنه يغتفر في الظرف ما لا يغتفر في غيره.

الثاني: أنه متعلق بـ «حسنة» تعلق الظرف بالعامل.

الثالث: أنه نعتٌ ثانٍ لـ «أسوة».

الرابع: أنه حال من الضمير المستتر في «حسنة».

الخامس: أن يكون خبر «كَانَ» و «لَكُمْ» تبيين.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ يعني أصحاب إبراهيم من المؤمنين.

وقال ابن زيدٍ: هم الأنبياء(٥).

قوله: ﴿إِذْ قَالُواْ﴾. فيه وجهان(٦):

أحدهما: أنه خبر «كان».

والثاني: أنه متعلق بخبرها.

قالهما أبو البقاء(٧).

ومن جوز في «كان» أن تعمل في الظرف علقه بها، والمراد بقومهم: الكفار.

قوله: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ﴾.

هذه قراءة العامة ـ بضم الباء وفتح الراء وألف بين همزتين ـ جمع «بريء»، نحو «كرماء» في نحو «كريم».

وعيسى أيضاً وأبو جعفر بضم الباء وهمزة بعد ألف.

وفيه أوجه(٨):

---

(١) ينظر: القرطبي ١٨/ ٣٨.

(٢) سورة الأحزاب، آية (٢١).

(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٠٤.

(٤) ينظر: الإملاء ٢/ ١٢١٨.

(٥) ينظر: القرطبي ١٨/ ٣٨.

(٦) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٠٤.

(٧) ينظر: الإملاء ٢/ ١٢١٨.

(٨) ينظر: الدر المصون السابق، وينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٩٥، والبحر المحيط ٨/ ٢٥٢.

أحدها: أنه جمع بريء أيضاً، والأصل كسر الباء، وإنما أبدل من الكسرة ضمَّة كـ «رُخَال، ورُبَاب» قاله الزمخشري[١].

الثاني: أنه جمع «بريء» أيضاً وأصله: «برآء» كالقراءة المشهورة إلاَّ أنه حذف الهمزة الأولى تخفيفاً. قاله أبو البقاء[٢].

الثالث: أنه اسم جمع لـ «بريء» نحو: «تؤام، وظؤار» اسمي جمع لـ «توأم، وظِئْر».

وقرأ عيسى أيضاً[٣] **بفتح** الباء وهمزة بعد ألف، كالتي في «الزخرف»[٤]، وصح ذلك لأنه مصدر، والمصدر يقع على الجمع كوقوعه على الواحد.

قال الزمخشري[٥]: «والبراء والبراءة كالظماء والظماءة».

وقال مكي[٦]: وأجاز أبو عمرو وعيسى بن عمر: «بِراء» ـ بكسر الباء ـ جعلاه كـ «كريم وكرام».

قال القرطبي[٧]: هو على وزن «فِعَال» مثل: «قِصَار وقصير»، و «طِوَال وطويل» و «ظراف وظريف» ويجوز ترك الهمزة حتى تقول برآ وتنون.

وأجاز الفراء: بفتح الباء، ثم قال: «وبراءُ» في الأصل مصدر.

كأنه لم يطلع على أنها قراءة منقولة.

فصل في الاقتداء بسيدنا إبراهيم

قال القرطبي[٨]: «الآية نصّ في الأمر بالاقتداء بإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ في فعله، وذلك يدلّ على أن شرع من قبلنا شرع لنا فيما أخبر الله ورسوله».

قوله: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾، أي بما آمنتم به من الأوثان.

وقيل: بأفعالكم وكذبناها وأنكرنا أن يكونوا على حق، ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾ أي: هذا دأبنا معكم ما دمتم على كفركم حتى تؤمنوا بالله وحده، فحينئذ تنقلب المعاداةُ موالاة.

فإن قيل: ما الفائدة في قوله: ﴿تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾، والإيمان إنما هو باللَّهِ وبغيره كقوله: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٥١٤. (٢) ينظر: الإملاء ٢/ ١٢١٨.
(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٩٥، والبحر المحيط ٨/ ٢٥٢، والدر المصون ٦/ ٣٠٤.
(٤) ينظر تفسير سورة الزخرف، آية (٢٦). (٥) ينظر: الكشاف ٤/ ٥١٤.
(٦) ينظر: المشكل ص ١٢١٨. (٧) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٣٨.
(٨) السابق.

فالجواب[١]: أن الإيمان بالله وحده مستلزمٌ للإيمان بالملائكة والكتب والرسل.

قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فيه أوجه[٢]:

أحدها: أنه استثناء متصل من قوله: «في إبراهيم» ولكن لا بد من حذف مضاف ليصح الكلام، تقديره: في مقالات إبراهيم إلا قوله كيت وكيت.

الثاني: أنه مستثنى من ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وجاز ذلك؛ لأن القول أيضاً من جملة الأسوة؛ لأن الأسوة الاقتداء بالشخص في أقواله وأفعاله، فكأنه قيل: لكم فيه أسوة في جميع أحواله من قول وفعل إلا قوله كذا.

وهذا واضح؛ لأنه غير مُحوج إلى تقدير مضاف وغير مخرجٍ للاستثناء من الاتصال الذي هو أصله إلى الانقطاع، ولذلكَ لم يذكر الزمخشري غيره.

قال[٣]: فإن قلت: ممَّ استثني قوله: «إلاَّ قول إبراهيمَ»؟.

قلت: من قوله «أسْوةٌ حسَنةٌ»؛ لأنه أراد بالأسوة الحسنة قولهم الذي حق عليهم أن يتأسَّوا به، ويتخذوه سنة يستنون بها.

فإن قلت: فإن كان قوله «لأسْتغفِرنَّ لَكَ» مستثنى من القول الذي هو «أسْوةٌ حَسَنةٌ» فما بال قوله: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ وهو غير حقيق بالاستثناء، ألا ترى إلى قوله: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الفتح: ١١].

قلت: أراد استثناء جملة قوله: «لأبيهِ» والقصد إلى موعد الاستغفار له، وما بعده مبني عليه وتابع له، كأنه قال: أنا أستغفر لك، وما في طاقتي إلاَّ الاستغفار.

الثالث: قال ابن عطية[٤]: «ويحتمل أن يكون الاستثناء من التَّبري والقطيعة التي ذكرت أي: لم تبق صلة إلا كذا، والله أعلم».

الرابع: أنه استثناء منقطع، أي: لكن قول إبراهيم.

وهذا بناء من قائليه على أنَّ القول لم يندرج تحت قوله: «أسْوَةٌ»، وهو ممنوع.

فصل

قال القرطبي[٥]: معنى قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ أي: فلا تتأسَّوا به في الاستغفار، فتستغفرون للمشركين، فإنه كان عن موعدة منه له.

قاله قتادة ومجاهد وغيرهما[٦].

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٦١.

(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٠٥.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٥١٤.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٩٥.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٣٨.

(٦) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٣٠) والقرطبي (١٨/ ٣٨).

وقيل: معنى الاستثناء أن إبراهيم هجر قومه وباعدهم إلا في الاستغفار لأبيه، ثم بين عذره في سورة «التوبة»، وفي هذا دلالة على تفضيل نبيِّنا ﷺ على سائر الأنبياء؛ لأنا حين أمرنا بالاقتداء به أمِرْنا أمراً مطلقاً في قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وحين أمرنا بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام استثني بعض أفعاله، وذلك إنما جرى؛ لأنه ظن أنه أسلم، فلما بان أنه لم يسلم تبرَّأ منه، وعلى هذا يجوز الاستغفار لمن يظن أنه أسلم، وأنتم لم تجدوا مثل هذا الظَّن فلم توالوهم؟.

قوله: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ هذا من قول إبراهيم لأبيه، أي: ما أدفع عنك من عذاب الله شيئاً إن أشركت به[١].

قوله: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾.

يجوز أن يكون من مقول إبراهيم والذين معه، فهو من جملة الأسوة الحسنة، وفصل بينهما بالاستثناء، ويجوز أن يكون منقطعاً مما قبله على إضمار قول، وهو تعليم من الله تعالى لعباده، كأنه قال لهم: قولوا: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: اعتمدنا ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ أي: رجعنا ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: الرجوع في الآخرة[٢].

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. أي: ولا تظهر عدوَّنا علينا، فيظنوا أنهم على حقّ، فيفتنوا بذلك وقيل: لا تسلّطهم علينا، فيقتلوننا ويعذبوننا[٣].

وقال مجاهد: لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعذاب من عندك، فيقولوا لو كان هؤلاء على الحق لما أصابهم ذلك.

وقيل: لا تبسط [عليهم][٤] الرزق دوننا، فإن ذلك فتنة لهم.

وقيل: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ أي: عذاباً أي: سبباً يعذب به الكفرة، وعلى هذا ليست الآية من قول إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام[٥]: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ﴾ أي: في إبراهيم ومن معه من الأنبياء والأولياء «أسْوةٌ حَسَنةٌ» أي: في التَّبرِّي من الكُفَّار.

وقيل: كرر للتأكيد.

وقيل: نزل الثاني بعد الأول بمدة.

قال القرطبي[٦]: وما أكثر المكررات في القرآن على هذا الوجه.

قوله: ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

---

(١) السابق ١٨/ ٣٩.

(٢) الدر المصون ٦/ ٣٠٥.

(٣) ينظر: القرطبي ١٨/ ٣٩.

(٤) في أ: لهم.

(٥) ينظر: التفسير الكبير ٢٩/ ٢٦٢.

(٦) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٣٩.

بدل من الضمير في «لَكُمْ» بدل بعض من كل، وقد تقدَّم مثله في «الأحزاب»[١].

والضمير في «فيهم» عائد على «إبراهيم» ومن معه، وكررت «الأسوة» تأكيداً[٢].

وفيه بيان أن هذه الأسوة لمن يخاف الله، ويخاف عذاب الآخرة[٣]، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: يعرض عن الإيمان ويتول الكُفَّار ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن خلقه، أي: لم يتعبدهم لحاجته إليهم ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ إلى أوليائه وأهل طاعته.

وقيل: الحميد في نفسه وصفاته[٤].

قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾.

قال المفسرون[٥]: لمَّا نزلت الآية الأولى عادى المسلمين أقرباؤهم من المشركين، فعلم الله شدّة وجد المسلمين في ذلك فنزلت: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ أي: من كفار «مكة»، وقد فعل الله ذلك؛ لأن «عَسَى» من الله وعد، ولا يخلف الله وعدهُ، وهذا بأن يسلم الكافر، وقد أسلم قوم منهم بعد فتح «مكة»، وخالطهم المسلمون كأبي سفيان بن حرب، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام.

وقيل: المودة تزويج النبي ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان فلانت عندئذ عريكة أبي سفيان.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: كانت المودّة بعد الفتح تزويج النبي ﷺ أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان قال ابن عباس: وكانت تحت عبد الله بن جحشٍ، وكانت هي وزوجها من مهاجرة الحبشة، فأما زوجها فتنصَّر، وسألها أن تتابعه على دينه، فأبت وصبرت على دينها، ومات زوجها على النصرانية، فبعث النبي ﷺ إلى النجاشي فخطبها، فقال النجاشي لأصحابه: من أولاكم بها؟ قالوا: خالد بن سعيد بن العاص، قال: فزوجها من نبيكم ففعل وأمهرها النجاشي من عنده أربعمائة دينار[٦].

وقيل: خطبها النبي ﷺ إلى عثمان بن عفَّان، فلما زوجه إياها بعث النبي ﷺ إلى النجاشي فيها، فساق عنه المهر، وبعث بها إليه، فقال أبو سفيان وهو مشرك لما بلغه تزويج النبي ﷺ ابنته: وذلك الفحل لا يقدع أنفه.

قال ابن الأثير[٧]: «يقال: قدعت الفحل وهو أن يكون غير كريم، فإذا أراد ركوب

---

(١) آية رقم (٢١).
(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٠٥.
(٣) ينظر: الرازي ٢٩/ ٢٦٢.
(٤) ينظر: القرطبي ١٨/ ٣٩.
(٥) ينظر: القرطبي السابق.
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٣٦) عن ابن عباس.
(٧) ينظر: النهاية ٤/ ٢٤.

الناقة الكريمة ضرب أنفه بالرمح وغيره حتى يرتدع وينكبّ، ويروق بالراء».

قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ الآية.

هذه الآية رخصة من الله ـ تعالى ـ في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم[١].

قال ابن زيد: كان هذا في أول الإسلام عند الموادعة وترك الأمر بالقتال ثم نسخ[٢].

قال قتادة: نسختها: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[٣] [التوبة: ٥].

وقيل: كان هذا الحكم لعلة، وهي الصلح فلما زال الصُّلح بفتح «مكة» نسخ الحكم، وبقي الرسم يتلى.

وقيل: هي مخصوصة في خلفاء النبي ﷺ ومن بينه وبينه عهد لم ينقضه. قاله الحسن.

قال الكلبي: هم خزاعة وبنو الحارث بن عبد مناف[٤]، وهو قول أبي صالح.

وقال مجاهد: هي مخصوصة في الذين آمنوا، ولم يهاجروا[٥].

وقيل: يعني به النساء والصبيان؛ لأنهم ممن لا يقاتل، فأذن الله في برهم.

وقال أكثر أهل التأويل: هي محكمة، واحتجُّوا بأن أسماء بنت أبي بكر سألت النبي ﷺ: هَلْ تَصِلُ أمَّهَا حين قدِمتْ عليْهَا مُشْرِكةٌ؟ قال: «نَعَمْ»[٦] خرجه البخاري ومسلم.

وقيل: إن الآية نزلت فيها.

وروى عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه: أن أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ طلق امرأته قتيلة في الجاهلية، وهي أم أسماء بنت أبي بكر، فقدمت عليهم في المدة التي

---

(١) ينظر: القرطبي ١٨/ ٤٠.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٣) عن ابن زيد.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٣) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٠٦) وعزاه إلى أبي داود في تاريخه وابن المنذر عن قتادة.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٤٠).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٢) عن مجاهد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٠٦) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٦) تقدم تخريجه.

كانت فيها المهادنة بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، فأهدت إلى أسماء بنت أبي بكر قرطاً وأشياء، فكرهت أن تقبل منها حتى أتت رسول الله فذكرت ذلك له، فأنزل الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾[١] ذكر هذا الخبر الماوردي[٢] وغيره، وخرجه أبو داود الطَّيالسي في مسنده.

قوله: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ وقوله: ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ بدلان من الذين قبلهما بدل اشتمال، فيكون في موضع جرّ.

والمعنى: لا ينهاكم الله عن أن تبروا هؤلاء الذين لم يقاتلوكم، إنما ينهاكم عن تولي هؤلاء وهم خزاعة، صالحوا النبي ﷺ على ألاَّ يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحداً، فأمر ببرهم والوفاء لهم إلى أجلهم. حكاه الفرَّاء[٣].

وقوله: ﴿وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾. أي: تعطوهم قسطاً من أموالكم على وجه الصلة، وليس يريد به من العدل، فإن العدل واجب فيمن قاتل وفيمن لم يقاتل، قاله ابن العربي[٤].

فصل في نفقة الابن المسلم على أبيه الكافر

نقل القرطبي عن القاضي أبي بكر في كتاب «الأحكام» له: أن بعض العلماء استدلّ بهذه الآية على وجوب نفقة الابن المسلم على أبيه الكافر، قال: وهذه وهلة عظيمة، إذ الإذن في الشيء، أو ترك النهي عنه لا يدل على وجوب، وإنما يعطي الإباحة خاصة؛ وقد بيَّنَّا أنَّ القاضي إسماعيل بن إسحاق دخل عليه ذمي فأكرمه، فأخذ عليه الحاضرون في ذلك، فتلا هذه الآية عليهم»[٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي: جاهدوكم على الدين

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٢) والحاكم (٢/ ٤٨٠ ـ ٤٨٦) وأحمد والبزار كما في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٢٦) والطيالسي وأبو يعلى كما في «المطالب العالية» (٣/ ٣٨٧) رقم (٣٧٧٨).
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
وقال الهيثمي (٧/ ١٢٦): وفيه مصعب بن ثابت وثقه ابن حبان وضعفه جماعة وبقية رجاله رجال الصحيح وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٠٥) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في «تاريخه» والطبراني وابن مردويه.

(٢) ينظر: النكت والعيون ٥/ ٥١٩ ـ ٥٢٠.

(٣) ينظر: معاني القرآن له ٣/ ١٥٠، والقرطبي ١٨/ ٤٠.

(٤) ينظر: أحكام القرآن له ٤/ ١٧٨٣.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٤٠، وأحكام القرآن للقاضي ابن العربي ٤/ ١٧٨٤.

﴿وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ وهم عتاة أهل «مكة»، ﴿وَظَٰهَرُوا۟﴾ أي: عاونوا ﴿عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾، وهم مشركو مكة ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ﴾ أي: يتخذهم أولياء وأنصاراً وأحباباً ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[١].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ الآية لما أمر المسلمين بترك موالاة [المشركين][٢] اقتضى ذلك مهاجرة المسلمين من بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام، وكان التناكح من أوكد أسباب الموالاة، فبين أحكام مهاجرة النساء[٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: جرى الصُّلح مع مشركي قريش عام الحديبية على أن من أتاه من أهل «مكة» رده إليهم، فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب، والنبي ﷺ بالحديبية بعد، فأقبل زوجها ـ وكان كافراً ـ وهو صيفي بن راهب. وقيل: مسافر المخزومي، فقال: يا محمد، اردد عليّ امرأتي فإنك شرطت ذلك، وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد، فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية[٤].

وقيل: جاءت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، فجاء أهلها يسألون رسول الله ﷺ أن يردها.

وقيل: هربت من زوجها عمرو بن العاص، ومعها أخواها عمارة والوليد، فرد رسول الله إخوتها، وحبسها فقالوا للنبيّ ﷺ ردها علينا للشرط، فقال النبي ﷺ: كان الشَّرط في الرجال لا في النساء، فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية[٥].

وعن عروة قال: كان مما اشترط سهيل بن عمرو على النبيِّ ﷺ في الحديبية ألاَّ يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، وخليت بيننا وبينه فكرهَ المؤمنون ذلك، وأبى سهيل إلا ذلك، فكاتبه النبي ﷺ على ذلك، فردّ يومئذ أبا جندل إلى أبيه

(١) ينظر: القرطبي ١٨/ ٤٠.
(٢) في أ: الكفار.
(٣) ينظر: القرطبي ١٨/ ٤١.
(٤) ينظر المصدر السابق.
(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٠٦) وعزاه إلى الطبراني وابن مردويه بسند ضعيف.

سهيل بن عمرو، ولم يأته أحد من الرجال إلا ردّه في تلك المدة وإن كان مسلماً، حتى أنزل الله في المؤمنات ما أنزل، يومىء إلى أن الشرط في رد النساء نسخ بذلك.

وقيل[١]: إن التي جاءت أميمة بنت بشر كانت عند ثابت بن الشمراخ، ففرت منه، وهو يومئذ كافرٌ، فتزوَّجها سهيل بن حنيف، فولدت له عبد الله. قاله زيد بن حبيب، نقله الماورديّ[٢].

وأكثر أهل العلم أنها أم كلثوم بنت عقبة[٣].

قوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾. تسمية للشيء بما يدلي إليه ويقاربه ويشارفه؛ أو في الظاهر[٤].

وقرىء «مُهَاجِرَاتٌ»[٥] ـ بالرفع ـ وخرجت على البدل.

فصل في دخول النساء عقد المهادنة لفظاً أو عموماً[٦]

اختلفوا هل دخل النساء في عقد المهادنة لفظاً أو عموماً؟.

فقالت طائفة: كان شرط ردهن في عقد الهُدنة صريحاً، فنسخ الله ردّهن من العقد ومنع منه، وبقاه في الرجال على ما كان، وهذا يدل على أن للنبي ﷺ أن يجتهد رأيه في الأحكام، ولكن لا يقرّه الله على خطأ.

وقالت طائفة: لم يشترط ردّهن في العقد لفظاً، وإنما أطلق العقد في ردِّهن أسلم، فكان ظاهر العموم اشتماله عليهن مع الرجال، فبين الله تعالى خروجهن عن عمومه، وفرق بينهن وبين الرجال لأمرين:

أحدهما: أنهن ذوات فروج يحرمن عليهم.

الثاني: أنهن أرقّ قلوباً، وأسرع تقلباً منهم، فأما المقيمة منهن على شركها فمردودة عليهم. ومن أسلمت فلا تردوها.

قوله: ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾.

قيل[٧]: إنه كان من أرادت منهن إضرار زوجها، قالت: سأهاجر إلى محمد ﷺ فلذلك أمر النبي ﷺ بامتحانهن، واختلفوا فيما كان يمتحنهن به.

فقال ابن عباس: كان يمتحنهن بأن يُسْتَحْلَفْنَ بالله أنها ما خرجت من بغض زوجها،

---

(١) ينظر: القرطبي ١٨/ ٤١.
(٢) ينظر: النكت والعيون ٥/ ٥٢١.
(٣) القرطبي: ١٨/ ٤١.
(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٠٦.
(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٥٤، والدر المصون ٦/ ٣٠٦.
(٦) ينظر: القرطبي ١٨/ ٤١.
(٧) السابق ١٨/ ٤٢.

ولا رغبة من أرض إلى أرض، ولا التماس دنيا، ولا عشقاً لرجل من المسلمين، ولا لحدث أحدثته، وما خرجت إلا رغبة في الإسلام، وحب الله ورسوله، فإذا حلفت بالله الذي لا إله إلا هو على ذلك أعطى النبي ﷺ زوجها مهرها، وما أنفق عليها، ولم يردها، فذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾(١).

وروي عن ابن عباس أيضاً: أن المحنة كانت أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله(٢).

وروى معمر عن الزهري عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: ما كان رسول الله ﷺ يمتحنهن إلا بالآية التي قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾(٣).

خرجه الترمذي. وقال حديث حسن صحيح.

فصل

قال أكثر العلماء على أن هذا ناسخ لما كان عليه الصلاة والسلام عاهد عليه قريشاً من أنه يرد عليهم من جاءه منهم مسلماً، فنسخ من ذلك النساء. وهذا مذهب من يرى نسخ السنة بالقرآن.

فصل

قال القرطبي(٤): ولا يجوز أن يهادن الإمام العدو على أن يرد عليهم من جاءه مسلماً؛ لأن إقامة المسلم بأرض الشرك لا تجوز، وهذا مذهب الكوفيين، وأجاز مالك عقد الصلح على ذلك.

واحتج الكوفيون بأنَّ رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى قوم خثعم، فاعتصموا بالسجود فقتلهم، فوداهم رسول الله ﷺ [بنصف الدية](٥) وقال: «أنا بَرِيءٌ مِن كُلِّ مسلمٍ

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٤) والبزار كما في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٢٦) والحارث بن أبي أسامة كما في «المطالب العالية» (٣/ ٣٨٧) رقم (٣٧٧٧) عن ابن عباس.
وقال الهيثمي (٧/ ١٢٦) رواه البزار وفيه قيس بن الربيع وثقه شعبة والثوري وضعفه غيرهما وبقية رجاله ثقات.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣١٠) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وقد حسن السيوطي سنده.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٤) ومثله ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٠٨) وعزاه إلى ابن مردويه.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٤) عن عائشة.

(٤) ينظر القرطبي ١٨/ ٤٢.

(٥) سقط من أ.

أقَامَ مع مُشرِكٍ بدارِ الحَرْبِ لا تَراءَى نَاراهُما». قالوا: فهذا ناسخ لرد المسلمين إلى المشركين، إذ كان رسول الله ﷺ قد برىء ممن أقام معهم في دار الحرب. ومذهب مالك والشافعيّ أن هذا الحكم غير منسوخ.

قال الشافعي: وليس لأحد هذا العقد إلا الخليفة أو [رجل][1] يأمره، فمن عقد غير الخليفة هذا العقد فهو مردود[2].

قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾.

هذه الجملة فائدتها بيان أنه لا سبيل لكم إلى ما تطمئن به النفس ويثلج الصدر من الإحاطة بحقيقة إيمانهن، فإن ذلك مما استأثر الله به. قاله الزمخشري[3].

أي[4]: هذا الامتحان لكم، والله أعلم بإيمانهن، لأنه متولي السرائر، وسمَّى الظن الغالب في قوله: ﴿عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾ علماً لما بينهما من القرب كما يقع الظَّن موقعه، وتقدم ذلك في البقرة[5].

قوله: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾.

أي: بما يظهرن من الإيمان.

وقيل: أي: علمتموهن مؤمنات قبل الامتحان[6] ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ تأكيد للأول لتلازمهما.

وقيل: أراد استمرار الحكم بينهم فيما يستقبل كما هو في الحال ما داموا مشركين وهن مؤمنات[7].

فصل في معنى الآية

معنى الآية[8]: لم يحل الله مؤمنة لكافر، وهذا أول دليل على أنَّ الذي أوجب فرقة المسلمة من زوجها الكافر إسلامها لا هجرتها.

وقال أبو حنيفة: الذي فرق بينهما هو اختلاف الدَّارين.

والصحيح الأول؛ لأن الله ـ تعالى ـ بين العلّة، وهو عدم الحل بالإسلام لا باختلاف الدار.

قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾.

---

(١) في أ: أحد.
(٢) زاد في أ: عليه.
(٣) ينظر: الكشاف ٤/٥١٧، والدر المصون ٦/٣٠٦.
(٤) في أ: أن.
(٥) آية رقم (٤٦).
(٦) ينظر: القرطبي ١٨/ ٤٢.
(٧) ينظر: الدر المصون ٦/٣٠٦.
(٨) ينظر: القرطبي ١٨/ ٤٣.

أمر الله - تعالى - إذا أمسكت المرأة المسلمة أن يردّ على زوجها ما أنفق، وذلك من الوفاء بالعهدِ؛ لأنه لما منع من أهله بحرمة الإسلام أمر برد المال حتى لا يقع عليهم خسران من الوجهين: الزوجة والمال[١].

فصل في استحقاق الغرم بالمنع[٢]

ولا غرم إلا إذا طالب الزوج الكافر، فإذا حضر وطالب منعناها وغرمنا، فإن كانت ماتت قبل حضور الزوج لم نغرم المهر إذ لم يتحقق المنع، وإن كان المسمى خمراً وخنزيراً لم نغرم شيئاً؛ لأنه لا قيمة له.

وللشافعي في هذه الآية قولان:

أحدهما: أن هذا منسوخ.

قال الشافعي: وإذا جاءتنا المرأة الحرة من أهل الهُدْنة مسلمة مهاجرة من الحرب إلى الإمام في دار الإسلام أو دار الحرب، فمن طلبها من ولي سوى زوجها منع منها بلا عوض، وإذا طلبها زوجها لنفسه أو غيره بوكالة، ففيه [قولان][٣]:

أحدهما: أن يعطى [زوجها][٤] العوض لهذه الآية.

والثاني: لا يعطى الزوج المشرك الذي جاءت امرأته مسلمة العوضَ، فإن شرط الإمام ردّ النساء كان الشرط باطلاً منسوخاً، وليس عليه عوض، لأنه لا عوض للباطل.

فصل

أمر الله تعالى برد مثل ما أنفقوا إلى الأزواج، وأن المخاطب بهذا الإمام، ينفذ من بيت المالِ الذي لا يتعين له مصرف[٥].

وقال مقاتل: يرد المهر الذي يتزوجها من المسلمين، وليس لزوجها الكافر شيء[٦].

وقال قتادة: الحكم في رد الصداق إنما هو في نساء أهل العهد فأما [من] لا عهد بينه وبين المسلمين، فلا يُرَدُّ عليهم الصداق[٧].

قال القرطبي[٨]: «والأمر كما قال».

قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾. أي: في أن تنكحوهن[٩].

---

(١) ينظر السابق.
(٢) السابق.
(٣) في أ: وجهان.
(٤) سقط في ب.
(٥) ينظر: القرطبي ١٨/ ٤٣.
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٤٣).
(٧) ينظر المصدر السابق.
(٨) ينظر القرطبي ١٨/ ٤٣.
(٩) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٠٦.

وقوله: ﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾.

يجوز أن يكون ظرفاً محضاً، وأن يكون شرطاً، جوابه مقدَّر، أي: فلا جناح عليكم[1].

فصل

ومعنى الآية: ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن أي: مهورهن، فأباح الله نكاحهن للمسلمين؛ وإن كان لهن أزواج في دار الكفر؛ لأن الإسلام فرق بينهن وبين أزواجهن الكُفَّار.

قال القرطبي[2]: أباح نكاحهنَّ إذا أسلمن، وانقضت عدتهن لما ثبت في تحريم نكاح المشركة المعتدة، فإن أسلمت قبل الدخول ثبت النكاح في الحال.

قوله: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾.

قرأ أبو عمرو في آخرين[3] بضم التاء وفتح الميم وتشديد السين، وباقي السبعة ـ بتخفيفها ـ من «مسَك، وأمسك» بمعنى واحد.

يقال: أمسكت الحبل إمساكاً، ومسَّكته تمسيكاً، وفي التشديد مبالغة، والمخفف صالح لها أيضاً[4].

وقرأ الحسن، وابن أبي ليلى، وأبو عمرو[5]، **وابن عامر** في رواية عنهما: «تَمَسَّكُوا» ـ بالفتح في الجميع وتشديد السين ـ والأصل: «تَتمسَّكُوا» ـ بتاءين ـ فحذفت إحداهما.

وعن الحسن[6] **أيضاً**: «تَمْسِكُوا» مضارع «مَسَك» ثلاثياً.

والعِصَم: جمع عِصْمَة، والعِصْمَة هاهنا: النِّكاح، يقول: من كانت له كافرة بمكة فلا يعقد بها فقد انقطعت عصمتها.

و «الكوافر» جمع «كافرة»، كـ «ضوارب» في «ضاربة» و «صواحب».

ويحكى عن الكرخي الفقيه المعتزلي أنه قال: «الكوافر» يشمل الرجال والنساء.

قال الفارسي: فقلت له: النحويون لا يرون هذا إلاَّ في النساء جمع كافرة.

---

(١) السابق.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٤٣.

(٣) ينظر: السبعة ٦٣٣، والحجة ٦/ ٢٨٦، وإعراب القراءات ٢/ ٣٦٠، وحجة القراءات ٧٠٧، والعنوان ١٨٩، وشرح الطيبة ٦/ ٥١، وشرح شعلة ٦٠٢، وإتحاف ٢/ ٥٣٥.

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٠٦.

(٥) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٩٨، والبحر المحيط ٨/ ٢٥٤، والدر المصون ٦/ ٣٠٦.

(٦) ينظر: إعراب القراءات ٢/ ٣٦٠، والسابق.

فقال أبو علي: أليس يقال: طائفة كافرة وفرقة كافرة؟.

قال أبو عليٍّ: فبهت، وقلت: هذا تأييد إلهي.

قال شهاب الدين[١]: وإنما أعجب بقوله لكونه معتزلياً، والحق أنه لا يجوز كافرة وصفاً للرجال إلا أن يكون الموصوف مذكوراً، نحو: هذه طائفة كافرة، أو في قوّة المذكور، أما أن يقال: طائفة باعتبار الطائفة غير المذكورة، ولا في قوة المذكورة بل لمجرد الاحتمال، ويجمع جمع «فَاعِلَة» فهذا لا يجوز، وقول الفارسي: «لا يَرَونَ هذا إلا في النِّساءِ» فهذ يصح ولكنه الغالب، وقد يجمع «فاعل» وصف المذكر العاقل على «فواعل» وهو محفوظ نحو: «فوارس ونواكس».

فصل في المراد بالآية

قال النخعي[٢]: المراد بالآية: المرأة المسلمة تلحق بدار الحرب، فتكفر، وكان الكفار يتزوجون المسلمات، والمسلمون يتزوجون المشركات، ثم نسخ ذلك بهذه الآية، فطلق عمر بن الخطاب حينئذ امرأتين بـ «مكة» مشركتين: قريبة بنت أبي أمية، فتزوجها معاوية بن أبي سفيان، وهما على شركهما بـ «مكة»، وأم كلثوم بنت عمرو الخزاعية أم عبد الله بن المغيرة، فتزوجها أبو جهم بن حذافة، وهما على شركهما، فلما ولي عمر، قال أبو سفيان لمعاوية: طلق قريبة، لئلا يرى عمر صلبه في بيتك، فأبى معاوية، وكانت عند طلحة بن عبيد الله أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، ففرق الإسلام بينهما، ثم تزوَّجها في الإسلام خالد بن سعيد بن العاص، وكانت ممن فرت إلى النبي ﷺ من نساء الكفار فحبسها، وتزوجها خالد بن سعيد بن العاص بن أمية.

وقال الشعبيُّ: كانت زينب بنت رسول الله ﷺ، امرأة أبي العاص بن الربيع، أسلمت ولحقت بالنبي ﷺ، وأقام أبو العاصِ بـ «مكة» مشركاً، ثم أتى «المدينة»، فأسلم، فردها عليه رسول الله ﷺ.

وروى أبو داود عن عكرمة عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: رد رسول الله ابنته زينب على أبي العاص بالنكاح الأول، لم يحدث شيئاً.

قال محمد بن عمر في حديثه: بعد ست سنين.

وقال الحسنُ بن عليٍّ: بعد سنتين[٣].

قال أبو عمر: فإن صح هذا، فلا يخلو من وجهين:

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/٣٠٦.
(٢) ينظر: القرطبي ١٨/ ٤٤.
(٣) أخرجه أبو داود ١/٦٨ في الطلاق، باب: إلى متى ترد عليه امرأته إذا أسلم بعدها (٢٢٤٠)، وذكره القرطبي في تفسيره ١٨/ ٤٤.

إما أنها لم تحضر حتى أسلم زوجها، وإما أن الأمر فيها منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، يعني عدتهن، وهذا مما لا خلاف فيه، إن عنى به العدة.

قال الزهريُّ في قصة زينب هذه: كانت قبل أن تنزل الفرائض.

وقال قتادةُ: كان هذا قبل أن تنزل سورة براءة، بقطع العهود بينهم وبين المشركين[١].

فصل في المراد بالكوافر

المراد بالكوافر هنا: عبدة الأوثان، ومن لا يجوز ابتداء نكاحها.

وقيل: هي عامَّة، نسخ منها نساء أهل الكتاب، فعلى الأول إذا أسلم وثَنِيّ، أو مجُوسِيّ ولم تسلم امرأته فرق بينهما، وهو قول بعض أهل العلم، منهم مالك والحسن وطاووس ومجاهد وعطاء وعكرمة وقتادة والحكم، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾.

وقال بعضهم: ينتظر بها تمام العدة، وهو قول الزهري والشافعي وأحمد، واحتجوا بأن أبا سفيان بن حرب، أسلم قبل هند بنت عتبة امرأته، وكان إسلامه بـ «مر الظهران»، ثم رجع إلى «مكة» وهند بها كافرة مقيمة على كفرها، فأخذت بلحيته، وقالت: [اقتلوا][٢] الشيخ الضَّال، ثم أسلمت بعده بأيام، فاستقر على نكاحها، لأن عدتها لم تكن انقضت.

قالوا: ومثله حكيم بن حزام أسلم قبل امرأته، ثم أسلمت بعده، فكانا على نكاحها.

قال الشافعي رحمه الله: ولا حجة لمن احتج بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾؛ لأن نساء المسلمين محرمات على الكفار، كما أن المسلمين، لا تحل لهم الكوافر والوثنيات والمجوسيات لقوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، ثم بينت السُّنَّة أن مراد الله من قوله هذا: أنه لا يحل بعضهم لبعض إلا أن يسلم الثاني منهما في العدة[٣].

وقال أبو حنيفة وأصحابه في الكافر من الذميين: إذا أسلمت المرأة، عرض على الزوج الإسلام، فإن أسلم وإلا فرق بينهما.

قالوا: ولو كانا حربيين، فهي امرأته، حتى تحيض ثلاث حيض، إذا كانا جميعاً في

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (١٨/ ٤٤).
(٢) سقط من أ.
(٣) ينظر: القرطبي ١٨/ ٤٥.

دار الحرب، أو في دار الإسلام، وإن كان أحدهما في دار الحرب، والآخر في دار الإسلام انقطعت العصمة بينهما.

وقد تقدم أن اعتبار الدار ليس بشيء، وهذ الخلاف إنما هو في المدخول بها.

وأما غير المدخول بها، فلا نعلم خلافاً في انقطاع العصمة بينهما، ولا عدة عليها، هكذا يقول مالك رحمه الله في المرأة ترتد وزوجها مسلم: تنقطع العصمة بينهما لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾، وهو قول الحسن البصري والحسن بن صالح.

وقال الشافعي وأحمد: [ينظر إلى تمام][1] العدة.

[فإن كان الزوجان نصرانيين فأسلمت الزوجة، فمذهب مالك والشافعي، وأحمد توقف إلى تمام العدة، وهو قول مجاهد][2].

وكذلك الوثني تسلم زوجته، إن أسلم في عدَّتها، فهو أحق بها، كما كان صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل أحق بزوجتيهما لما أسلما في عدتيهما، لما ذكر مالك في «الموطأ»[3].

[قال ابن شهاب: كان بين إسلام صفوان وبين إسلام امرأته نحو شهر][4].

قال ابن شهاب: ولم يبلغنا أن امرأة هاجرت إلى رسول الله ﷺ وزوجها كافر مقيم بدار الحرب، إلاَّ فرقت هِجْرتُهَا بينها وبين زوجها إلى أن يقدم زوجها مهاجراً قبل أن تنقضي عدتها، وقال بعضهم: ينفسخ النكاح بينهما، لما روى يزيد بن علقمة قال: أسلم جدي، ولم تسلم جدتي، ففرق بينهما عمر ـ رضي الله عنه ـ وهو قول طاوس والحسن وعطاء وعكرمة، قالوا: لا سبيل له عليها إلا بخطبة[5].

قوله: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾.

قال المفسرون: كان من ذهب من المسلمات مرتدات إلى الكفار من أهل العهد، يقال للكفار: هاتوا مهرها، ويقال للمسلمين، إذا جاء أحد من الكافرات معلمة مهاجرة: ردوا إلى الكفار مهرها، وكان ذلك إنصافاً وعدلاً بين الحالتين.

قال ابن العربي رحمه الله: كان هذا حكم الله، مخصوصاً بذلك الزمان في تلك النازلة خاصة[6].

قال الزهريُّ: ولولا هذه الهدنة، والعهد الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين قريش

---

(١) في أ: توقف إلى تمام.

(٢) سقط من أ.

(٣) ينظر: الموطأ ٢/ ٥٤٤ في النكاح (٤٥).

(٤) ينظر: القرطبي ١٨/ ٤٥.

(٥) ينظر: أحكام القرآن ٤/ ٧٨٨.

(٦) زاد في أ: أيها المسلمون شيء من أزواجكم إلى الكفار.

يوم الحديبية، لأمسك النساء، ولم يرد الصَّداق، وكذلك يفعل بمن جاءه من المسلمات قبل العهد، فلما نزلت هذه الآية أُخطر المؤمنون بحكم الله عزَّ وجلَّ وأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين على نسائهم، وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله، فيما أمروا به من أداء نفقات المسلمين، فأنزل الله ـ عز وجل ـ: «وإن فاتكم شيء أيها المؤمنون».

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أي بما ذكر في هذه الآية، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

قوله: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾. فيه وجهان[1]:

أحدهما: أنه مستأنف لا محلَّ له من الإعراب.

والثاني: أنه حال من: «حكم الله»، والراجع إما مستتر أي: يحكم هو، أي: الحكم على المبالغة، وإما محذوف، أي: يحكمه، وهو الظاهر.

قوله: ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾.

يجوز أن يتعلق بـ «فاتكم» أي: من جهة أزواجكم، يراد بالشيء المهر الذي غرمه الزوج، كما تقدم.

ويجوز أن يتعلق بمحذوف، على أنه صفة لـ «شيء».

ثم يجوز في «شيء»، أن يراد به: المهر، ولكن على هذا، فلا بد من حذف مضاف، أي: من مهور أزواجكم ليتطابق الموصوف وصفته.

ويجوز أن يراد بـ «شيء» [النساء، أي: بشيء من النساء، أي: نوع وصف منهن، وهو ظاهر وصفه بقوله: ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾.

وقد صرَّح الزمخشري بذلك، فإنَّه قال: وإن سبقكم وانفلت منكم شيء من أزواجكم أحد منهن إلى الكُفَّار، وفي قراء أبي مسعود: «أحد».

فهذا تصريح بأن المراد بـ «شيء»: النساء الفارات][2]، ثم قال[3]: فإن قلت: هل لإيقاع شيء في هذا الموضع فائدة؟ قلت: نعم، الفائدة فيه ألا يغادر شيء من هذا الجنس، وإن قلَّ وحقر غير معوض عنه، تغليظاً في هذا الحكم وتشديداً فيه، ولولا نصّه على أنَّ المراد بـ «شيء»: أحد، كما تقدم، لكان قوله: «إلا أن يغادر شيء من هذا الجنس وإن قل وحقر»، ظاهراً في أن المراد بـ «شيء»: المهر؛ لأنه يوصف بالقلة والحقارة وصفاً سائغاً وقوله: «تغليظاً» فيه نظر؛ لأن المسلمين ليس لهم تسبب في فرار النساء إلى الكفار، حتى يغلظ عليهم الحكم بذلك.

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٠٦. (٢) سقط من أ.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٥١٩، والدر المصون ٦/ ٣٠٧.

وعدي: «فات» بـ «إلى»؛ لأنه ضمن معنى الفرار والذهاب والسبق ونحو ذلك(١).

قوله: ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾، عطف على «فاتكم».

وقرأ العامة: «عاقبتم». وفيه وجهان(٢):

أحدهما: أنه من العقوبة، قال الزجاج(٣): «فعَاقَبْتُم» فأصبتموهم في القتال بعقوبة حتى غنمتم.

والثاني: أنَّه من العُقْبة، وهي التوبة، شبه ما حكم به على المسلمين، والكافرين من أداء هؤلاء مهور النساء أولئك تارة، وأولئك مهور نساء هؤلاء أخرى، بأمر يتعاقبون فيه، كما يتعاقب في الركوب وغيره، ومعناه: فجاءت عقبتكم من أداء المهر. انتهى.

وقرأ مجاهد والأعرج والزهري وأبو حيوة وعكرمة(٤) وحميد: بتشديد القاف دون ألف.

ففسرها الزمخشري على أصله يعقبه: إذا قفاه؛ لأن كل واحد من المتعاقبين، يقفي صاحبه، وكذلك عقبتم ـ بالتخفيف ـ يقال: عقبه يعقبه انتهى.

والذي قرأه بالتخفيف وفتح القاف: النخعي، وابن وثاب، والزهري، والأعرج أيضاً. **وبالتخفيف(٥)، وكسر القاف**: مسروق، والزهري، والنخعي أيضاً.

وعن مجاهد(٦): أعقبتم.

قال الزمخشري: معناه: دخلتم في العقبة(٧).

قال البغوي: «معناه: أي: صنعتم بهم، كما صنعوا بكم»(٨).

وفسَّر الزجاج القراءات الباقية: فكانت العقبى: أي: كانت الغلبة لكم حتى غنمتم(٩).

والظَّاهر أنه كما قال الزمخشريُّ: من المعاقبة بمعنى المناوبة.

يقال: عاقب الرجل صاحبه في كذا، أي: جاء فعل كل واحد منهما يعقب فعل الآخر، ويقال: أعقب ـ أيضاً. وأنشد بعضهم رحمه الله: [الطويل]

---

(١) الدر المصون ٦/ ٣٠٧.

(٢) ينظر السابق.

(٣) ينظر: معاني القرآن ٥/ ١٦٠.

(٤) ينظر: الكشاف ٦/ ٥١٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٢٩٨، والبحر المحيط ٨/ ٢٥٥، والدر المصون ٦/ ٣٠٧.

(٥) ينظر السابق.

(٦) السابق.

(٧) ينظر: الكشاف ٤/ ٥١٩.

(٨) ينظر: معالم التنزيل ٤/ ٣٣٤.

(٩) ينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٦٠.

٤٧٦١ ـ وحَارَدَتِ النُّكْدُ الجِلادُ ولَمْ يَكُنْ لِعُقْبَةِ قِدْرِ المُسْتَعِيرِينَ مُعْقِبُ[١]

قال البغوي[٢]: «وكلها لغات بمعنى واحد، يقال: عَاقَبَ وأعقَبَ وتعقَّب وتعَاقَبَ واعتقَبَ، إذا غنم».

وقيل: التعقيب: غزوة بعد غزوة[٣].

فصل

روي أن المسلمين قالوا: رضينا بما حكم الله، وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا[٤]، فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾.

روى الزُّهري عن عروة عن عائشة ـ رضي الله عنها وعنهم ـ قالت: حكم الله عز وجل بينهم، فقال ـ جل ثناؤه ـ: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾، فكتب إليهم المسلمون: قد حكم الله ـ عز وجل ـ بيننا بأنه إذا جاءتكم امرأة منا، أن توجهوا إلينا بصداقها، وإن جاءتنا امرأة منكم، وجهنا إليكم بصداقها، فكتبوا إليهم: أما نحن، فلا نعلم لكم عندنا شيئاً، فإن كان لنا عندكم شيء، فوجهوا به، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾[٥] الآية.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أي: بين المسلمين والكفار من أهل العهد من أهل مكة، يرد بعضهم على بعض[٦].

قال الزهريُّ: ولولا العهد، لأمسك النساء، ولم يرد إليهم صداقاً[٧].

وقال قتادة ومجاهدٌ: إنَّما أمروا أن يعطوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من الفيء والغنيمة، وقالا: هي فيما بيننا وبينه عهد وليس بيننا وبينه عهد، وقالا: ومعنى ﴿فعَاقَبْتُمْ﴾ فاقتصصتم[٨].

«فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا» يعني: الصفات، فهي عامة في جميع الكفار.

---

(١) قائله الكميت بن زيد الأسدي.

ينظر: الأمالي للقالي ١/ ٩١، وسمط اللالىء ١/ ٣٤، واللسان (عقب) و (نكد)، والكميت وقصائده الهاشميات ص ١٢٦، والبحر ٨/ ٢٥٥ والدر المصون ٦/ ٣٠٧.

(٢) ينظر: معالم التنزيل ٤/ ٣٣٤.

(٣) ينظر: تفسير الرازي ٢٩/ ٢٦٦.

(٤) ينظر القرطبي ١٨/ ٤٦.

(٥) ينظر القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٤٤).

(٦) ينظر المصدر السابق.

(٧) ينظر المصدر السابق.

(٨) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧١ ـ ٧٢) عن مجاهد.

وقيل: فعاقبتم المرتدة بالقتل.

وقال قتادة أيضاً: وإن فاتكم شيء من أزواجكم، إلى الكفار، الذين ليس بينكم وبينهم عهد، فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا، ثم نسخ هذا في سورة براءة[(١)].

وقال الزهريُّ: انقطع هذا يوم الفتح.

وقال سفيان الثوري: لا يعمل به اليوم.

وقال قوم: هو ثابت الحكم الآن أيضاً. حكاه القشيري.

فصل

قال القرطبي[(٢)]: الآية نزلت في أم الحكم بنت أبي سفيان، ارتدت وتركت زوجها عياض بن غنم الفهري، ولم ترتد امرأة من قريش غيرها، ثم عادت إلى الإسلام.

وقال البغويُّ[(٣)]: روي عن ابن عبَّاسٍ قال: لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرات، ست نسوة: أم الحكم بنت أبي سفيان، وكانت تحت عياض بن شداد الفهري، وفاطمة بنت أبي أمية بن المغيرة، كانت تحت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما أراد عمر أن يهاجر أبت وارتدت، وبروعُ بنت عقبة، كانت تحت شماس بن عثمان، وغرة بنت عبد العزيز بن نضلة، وزوجها عمرو بن عبد ودّ، وهند بنت أبي جهل بن هشام كانت تحت هشام بن العاص بن وائل، وأم كلثوم بنت جرول، وكانت تحت عمر بن الخطاب، فلما رجعن إلى الإسلام، أعطى رسول الله ﷺ أزواجهن مهور نسائهم من الغنيمة.

فصل في رد مهر من أسلمت

اختلفوا في رد مهر من أسلمت من النساء إلى أزواجهن، هل كان واجباً، أو مندوباً؟ وأصله أن الصلح هل كان قد وقع على رد النساء؟ على قولين:

أحدهما: أنه وقع على رد الرجال، والنساء جميعاً، لما روي من قولهم: لا يأتيك منا أحد، إلا رددته، ثم صار الحكم في رد النساء منسوخاً بقوله: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾، فعلى هذا كان رد المهر واجباً.

والثاني: أن الصلح لم يقع على ردّ النساء؛ لأنه روي أنه لا يأتيك منَّا رجل، وإن كان على دينك إلا رددته، وذلك؛ لأن الرجل لا يخشى عليه من الفتنة في الرد ما يخشى على المرأة من إصابة المشرك إياها، وأنه لا يؤمن عليها الردة إذا خوفت، وأكرهت

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٤٦).

(٢) ينظر: القرطبي (١٨/ ٤٧).

(٣) ينظر: معالم التنزيل ٤/ ٣٣٤.

عليها؛ لضعف قلبها، وقلة هدايتها إلى المخرج منه، بإظهار كلمة الكفر مع التورية، وإضمار الإيمان، ولا يخشى ذلك على الرجل لقوته، وهدايته إلى التقية، فعلى هذا كان رد المهر مندوباً.

واختلفوا في أنه يجب به العمل اليوم في رد المال[١] إذا اشترط في معاقدة الكفار فقال عطاء ومجاهد وقتادة: لا يجب، وزعموا أن الآية منسوخة[٢].

وقيل: هي غير منسوخة، ويرد إليهم ما أنفقوا.

فصل في معنى الآية

معنى الآية[٣]: إن لحقت امرأة مؤمنة بكفار أهل «مكة»، وليس بينكم وبينهم عهد، ولها زوج مسلم قبلكم، فغنمتم فأعطوا هذا الزَّوج المسلم مهره من الغنيمة قبل أن تخمس[٤]، [وهو قول ابن عبَّاس رضي الله عنهما][٥].

وقال الزهري: يعطى من الفيء.

وعنه: يعطى من صداق من لحق منا.

وقيل: إن امتنعوا من أن يغرموا مهر هذه المرأة التي ذهبت إليهم، فانبذوا العهد إليهم حتى إذا ظفرتم، فخذوا ذلك منهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، أي: احذروا أن تتعدوا ما أمرتم به.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ الآية.

لما فتح رسول الله ﷺ «مكة»، جاءه نساء أهل «مكة» يبايعنه، فأمر أن يأخذ عليهن أن لا يشركن[٦].

قالت عائشة رضي الله عنها: والله ما أخذ رسول الله ﷺ قط إلا بما أمر الله ـ عز وجل ـ وما مست كف رسول الله ﷺ كف امرأة قط، وكان يقول إذا أخذ عليهن: «قَدْ بايعْتُكنَّ» كلاماً[٧].

---

(١) في أ: المال الذي.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٩/ ٣١١) عن ابن جريج قال: سألت عطاء عن هذه الآية تعلمها قال: لا. وعزاه إلى أبي داود في «ناسخه» وابن المنذر.

(٣) في أ: قال ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) ينظر: القرطبي ١٨/ ٤٦.

(٥) سقط من أ.

(٦) ينظر: القرطبي ١٨/ ٤٧.

(٧) أخرجه البخاري (٨/ ٥٠٤) كتاب التفسير، باب: «إذا جاءك المؤمنات مهاجرات» رقم (٤٨٩١) عن عائشة. =

وروي أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، بايع النساء، وبين يديه وأيديهن ثوب، وكان يشترط عليهن[١].

وقيل: لما فرغ من بيعة الرجال جلس على الصفا، ومعه عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه أسفل منه، فجعل يشترط على النساء البيعة، وعمر يصافحهن.

وروي أنَّه كلف امرأة وقفت على الصفا، وكلفها أن تبايعهن، ففعلت.

قال ابن العربي[٢]: وذلك ضعيف، وإنما التعويل على ما في صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنه المتقدم. قالت: كان المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله ﷺ يمتحنهن بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ إلى آخر الآية، قالت عائشة: فمن أقر بهذا من المؤمنات، فقد أقر بالمحنة، وكان رسول الله ﷺ إذا أقررن بذلك من قولهن، قال لهن رسول الله ﷺ: «انْطَلِقْنَ فَقَدْ بَايَعْتُكُنَّ»، لا والله ما مَسَّتْ يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط، غير أنه بايعهن بالكلام.

وقالت أمُّ عطيَّة رضي الله عنها: لما قدم رسول الله المدينة جمع نساء الأنصار في بيت، ثم أرسل إلينا عمر بن الخطاب، فقام على الباب فسلَّم فرددن عليه السلام فقال: أنا رسول رسول الله ﷺ إليكن: «ألا تشركن بالله شيئاً» الآية، فقلن: نعم، فمد يده من خارج البيت، ومددنا أيدينا من داخل البيت، ثم قال: اللَّهُمَّ اشْهَدْ[٣].

وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن النبي ﷺ كان إذا بايع النساء دعا بقدح من ماء فغمس يده فيه، ثم أمر النساء فغمسن أيديهن فيه[٤].

فصل

روي أن النبي ﷺ لما فرغ من بيعة الرجال يوم فتح «مكة»، وهو على الصفا، وعمر بن الخطَّاب أسفل منه يبايع النساء بأمر رسول الله ﷺ يبلغهن عنه، على ألاَّ يشركن بالله شيئاً، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان منتقبة متنكرة مع النساء خوفاً من رسول الله

= وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣١١) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه.

(١) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٤٢) عن معقل بن يسار أن النبي ﷺ كان يصافح النساء من تحت ثوب.
وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه عتاب بن حرب وهو ضعيف.

(٢) ينظر: أحكام القرآن ٤/ ١٧٩١.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٣).

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣١٤) وعزاه إلى ابن سعد وابن مردويه من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

ﷺ أن يعرفها لما صنعته بحمزة يوم أحد، فقالت: والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيتك أخذته على الرجال، وكان بايع الرجال يومئذ على الإسلام، والجهاد فقط، فقال النبي ﷺ: «ولاَ يَسْرِقْنَ»، فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح وإني أصبت من ماله قوتنا، فلا أدري أيحلّ لي أم لا؟.

فقال أبو سفيان: ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر، فهو لك حلال، فضحك رسول الله ﷺ، فقال لها: وإنَّك لهِنْدُ بِنْتُ عتبة؟ قالت: نعم، فاعف عني ما سلف، فقال عَفَا اللَّهُ عنكِ، ثم قال: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ فقالت هند: أو تزنِي الحُرَّة؟ فقال: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾، أي: لا يئدن الموءودات ولا يسقطن الأجنة، فقالت هند: ربَّيناهُمْ صغاراً وقتلتهم كباراً يوم بدر، وأنت وهم أعلم، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان ـ وهو بكرها ـ قتل يوم بدر، فضحك عمر حتى استلقى، وتبسَّم رسول الله ﷺ، ثم قال: «ولا يَأْتينَ بِبُهتانٍ يَفْتَرِينهُ بيْنَ أيديهنَّ وأرجلهنَّ»(١).

قال أكثر المفسرين(٢): معناه لا يلحقن بأزواجهن ولداً من غيرهم، وكانت المرأة تلتقط ولداً، فتلحقه بزوجها وتقول: هذا ولدي منك، فكان هذا من البهتان والافتراء؛ لأن النهي عن الزنا قد تقدم.

وقال بعض المفسرين: المرأة إذا التقطت ولداً، كأنَّما التقطت بيدها ومشت برجلها إلى أخذه، فإذا أضافته إلى زوجها، فقد أتت ببهتان تفتريه بين يديها ورجليها.

وقيل: يفترينه على أنفسهن حيث يقلن: هذا ولدنا، وليس كذلك، إذ الولد ولد الزنا.

وقيل: ما بين يديها ورجليها كناية عن الولد؛ لأن البطن التي تحمل فيه الولد بين يديها، وفرجها الذي تلد منه بين رجليها، وهذا عام في الإتيان بولد، وإلحاقه بالزوج، وإن سبق النهي عن الزنا.

وقيل: معنى «بين أيديهن»: ألسنتهن بالنميمة، و «بين أرجلهن»: فروجهن.

وقيل: ما بين أيديهن من قبلة أو جسة، وبين أرجلهن الجماع(٣).

وروي أن هنداً لما سمعت ذلك قالت: والله إن البهتان لأمر قبيح ما تأمر إلا بالأرشد، ومكارم الأخلاق، ثم قال: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أي: في كل أمر وافق طاعة الله.

قال بكر بن عبد الله المزنيُّ: في كل أمر فيه رشدهن.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر ٦/ ٣١٢ وعزاه لابن جرير وابن مردويه.

(٢) ينظر: القرطبي ١٨/ ٤٨.

(٣) ينظر السابق.

وقال مجاهدٌ: لا تخلو المرأة بالرجال[١].

وقال سعيدُ بنُ المسيِّب والكلبيُ وعبدُ الرحمنِ بن زيدٍ: هو النهي عن النوح، والدعاء بالويلِ، وتمزيق الثوب، وحلق الشعر، ونتفه، وخمش الوجه، ولا تحدِّث المرأة الرجال إلا ذا محرم، ولا تخلو برجل غير ذي محرم، ولا تسافر إلا مع ذي محرم[٢].

وروت أم عطيّة عن النبيِّ ﷺ إن ذلك في النوح، وهو قول ابن عباس.

وروى شهر بن حوشب عن أم سلمة عن النبي ﷺ: «ولا يَعْصِينكَ فِي مَعْرُوفٍ»، قال: «هُوَ النَّوحُ»[٣].

وفي صحيح مسلم عن أمِّ عطيَّة: لما نزل قوله: «يُبَايِعْنَكَ»، إلى قوله: «ولا يَعْصينكَ في معرُوفٍ»، قالت: كان منه النياحة، قالت: فقلت: يا رسول الله، إلا آل بني فلان، فإنهم كانوا أسعدوني في الجاهلية، فلا بد لي من أن أسعدهم، فقال رسول الله ﷺ: «إلا آل بني فلان»[٤].

قوله: «يُبَايِعْنَكَ»: حال، و «شَيْئاً»: مصدر، أي شيئاً من الإشراك[٥].

وقرأ علي[٦] والسلمي والحسن: «يُقَتِّلْنَ» بالتشديد.

و «يفترينه»: صفة لـ «بهتان»، أو حال من فاعل: «يأتين».

فصل

ذكر الله ـ عز وجل ـ في هذه الآية لرسول الله ﷺ في صفة البيعة خصالاً شتى، صرح فيهن بأركان النهي في الدين، ولم يذكر أركان الأمر، وهي ستة أيضاً: الشهادة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والاغتسال من الجنابة، وذلك لأن النهي دائم في كل الأزمان، وكل الأحوال، فكان التنبيه على اشتراط الدائم آكد.

وقيل[٧]: إن هذه المناهي كان في النساء كثير من يرتكبها، ولا يحجزهن [عنها][٨] شرف النسب، فخصت بالذكر لهذا، ونحو منه قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لوفد عبد القيس: «وأنْهَاكُم عن الدُّبَّاء والحنتمِ والنَّقيرِ والمزفَّتِ»[٩].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٦). (٢) ينظر تفسير الرازي (٢٩/ ٢٦٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٠٧) وابن ماجه (١٥٧٩) من طريق شهر بن حوشب عن أم سلمة.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٤) أخرجه الإمام مسلم في «صحيحه» (٢/ ٦٤٦) من حديث أم عطية.

(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٨.

(٦) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٥٦، والدر المصون ٦/ ٣٠٨.

(٧) ينظر: القرطبي ١٨/ ٤٨. (٨) سقط من أ.

(٩) تقدم.

فنبههم على ترك المعصية في شرب الخمر دون سائر المعاصي؛ لأنها كانت شهوتهم وعادتهم، وإذا ترك المرء شهوته من المعاصي، هان عليه ترك سائرها مما لا شهوة له فيها.

فصل

لما قال النبي ﷺ في البيعة: «﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾، قالت هند: يا رسول الله إنَّ أبا سفيان رجل مسِّيك، فهل عليَّ حرج إن أخذت ما يكفيني وولدي؟ فقال: «لا، إلاَّ بالمعرُوفِ»، فخشيت هند أن تقتصر على ما يعطيها، فتضيع، أو تأخذ أكثر من ذلك، فتكون سارقة ناكثة للبيعة المذكورة، فقال لها النبي ﷺ ذلك، أي: لا حرج عليك فيما أخذت بالمعروف، يعني: من غير استطالة إلى أكثر من الحاجة.

قال ابن العربي رحمه الله: «وهذا إنما هو فيما لا يخزنه عنها في حجاب، ولا يضبط عليه بقفل، فإنه إذا هتكته الزوجة وأخذت منه [كانت][1] سارقة تعصي بها، وتقطع يدها».

فصل في الكلام على الآية

فإن قيل: هلاَّ قيل: إذا جاءك المؤمنات فامتحنوهن، كما قال في المهاجرات؟.

فالجواب من وجهين[2]: **أحدهما**: أن الامتحان حاصل بقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ﴾ إلى آخره. **وثانيهما**: أن المهاجرات يأتين من دار الحرب فلا اطلاع للمبايع على ما في قلبها، فلا بد من الامتحان، وأما المؤمنات، فهن في دار الإسلام، وعلمن الشرائع، فلا حاجة إلى الامتحان مع ظاهر حالها.

فإن قيل: ما الفائدة في تقديم البعض في الآية على البعض وترتيبها؟.

فالجواب[3]: قدم الأقبح على ما هو الأدنى منه في القبح، ثم كذلك إلى آخره، وقدم في الأشياء المذكورة على ما هو الأظهر فيما بينهم.

فصل

قال عبادةُ بن الصامت: «أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء: أنْ لا تُشرِكُوا باللَّه شَيْئاً ولا تَسْرقُوا ولا تزنُوا ولا تقتلُوا أوْلادكُمْ، ولا يعضه بعضُكُمْ بعضاً، ولا تَعصُوا في مَعْرُوفِ آمُرُكمْ بِهِ»[4].

---

(١) في أ: صارت.

(٢) ينظر: التفسير الكبير ٢٩/ ٢٦٧.

(٣) ينظر: السابق.

(٤) أخرجه البخاري ١/ ٨١ كتاب الإيمان، باب: علامة الإيمان حب الأنصار (١٨) وفي ٧/ ٢٦٠ كتاب مناقب الأنصار، باب: وفود الأنصار (٣٨٩٢ ـ ٣٨٩٣) وكتاب المغازي (٣٩٩٩) وفي ٨/ ٥٠٦ كتاب التفسير، باب: «إذا جاءك المؤمنات»: (٤٨٩٤) وفي ١٢/ ٨٥ كتاب الحدود، باب الحدود كفارة (٦٧٨٤). وفي ١٢/ ١٩٩ كتاب الديات، باب: قول النبي ﷺ «سترون بعدي أموراً...»=

معنى «يعضه»: يسحر، والعضه: السحر.

ولهذا قال ابن بحر وغيره في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَنٍ﴾ إنه: السحر.

وقال الضحاكُ: هذا نهي عن البهتان، أن لا يعضه رجل ولا امرأة «بِبُهتَانٍ»[١] أي: بسحر، والجمهور على أن معنى «ببهتان»: بولد، يفترينه «بين أيديهن»: ما أخذته لقيطاً، «وأرجلهن»: ما ولدته من زنا كما تقدم[٢].

فصل في هذا الأمر[٣]

قال المهدويُّ: أجمع المسلمون على أنه ليس للإمام أن يشترط عليهن هذا، والأمر بذلك ندب لا إلزام.

وقال بعض العلماء: إذا احتيج إلى المِحْنَةِ من أجل تباعد الدَّار كان على إمام المسلمين إقامة المحنة.

قوله: ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قالت عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يبايع النساء بالكلام بهذه الآية: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ قالت: وما مسَّتْ يَدُ رسُول الله ﷺ إلا يد امرأة يملكها[٤].

وقالت [أميمة][٥] بنت رقيقة: بايعت رسول الله ﷺ في نسوة، فقال: «فِيْمَا اسْتطعْتُنَّ وأطَعْتُنَّ»، فقلت: يا رسول الله صافحنا، فقال: «إنِّي لا أصَافِحُ النِّساءَ، إنَّما قَوْلِي لامرأةٍ كَقوْلِي لِمائةِ امرأة»[٦].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، وهم اليهود.

= (٧٠٥٥) وفي ١٣/ ٢٠٤ كتاب الأحكام، باب: كيف يبايع الإمام الناس (٧١٩٩). وفي ١٣/ ٢١٦ كتاب الأحكام، باب: بيعة النساء (٧٢١٣) وفي ١٣/ ٤٥٥ كتاب التوحيد، باب: في المشيئة والإرادة (٧٤٦٨) ومسلم (٣/ ١٣٣) كتاب الحدود، باب: الحدود كفارة لأهلها (٤١/ ١٧٠٩).

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٤٩) عن الضحاك.

(٢) ينظر: القرطبي ١٨/ ٤٩.

(٣) ينظر السابق ١٨/ ٥٠.

(٤) تقدم.

(٥) في أ: أميمة.

(٦) أخرجه أحمد (٦/ ٣٥٧) والترمذي (١٩٥٧) والنسائي (٧/ ١٤٩) وابن ماجه (٢٨٧٤) والحميدي (١/ ١٦٣) رقم (٣٤٠) وابن حبان (١٤ ـ موارد) والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٧٠) من حديث أميمة بنت رقيقة.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣١١) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن سعد وابن المنذر وابن مردويه.

فقوله: «غضب الله عليهم» صفة لـ «قوماً»، وكذلك: «قَدْ يَئِسُوا» وقوله: ﴿مِنَ ٱلْآخِرَةِ﴾.

«مِنْ» لابتداء الغاية، أيضاً كالأولى أي: أنهم لا يوقنون [بالآخرة ألبتة][١].

و ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾. فيه وجهان[٢]:

[**أحدهما**: أنها لابتداء الغاية أيضاً كالأولى، والمعنى: أنهم لا يوقنون ببعث الموتى ألبتة، فيأسهم من الآخرة من موتاهم][٣] لاعتقادهم عدم بعثهم.

والثاني: أنها لبيان الجنس، يعني: أن الكفار هم أصحاب القبور.

والمعنى: أنَّ هؤلاء يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار الذين هم أصحاب القبور من خير الآخرة، فيكون متعلق «يئس» الثاني محذوفاً[٤].

وقرأ[٥] **ابن أبي الزِّناد**: «الكافر» بـ «الإفراد».

فصل في نزول الآية[٦]

قال ابنُ زيدٍ: إنَّ ناساً من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود بأخبار المؤمنين، ويواصلونهم، فيصيبون بذلك من ثمارهم، فنهوا عن ذلك، ﴿قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْآخِرَةِ﴾ يعني: اليهود قد يئسوا من الآخرة بأن يكون لهم فيها ثواب وخير، ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ أي: يئس الكفار الذين ماتوا وصاروا إلى القبور من أن يكون لهم ثواب وحظ في الآخرة[٧].

وقال مجاهد: الكفار حين دخلوا قبورهم يئسوا من رحمة الله[٨].

وقيل: هم المنافقون.

وقال الحسن وقتادة: هم اليهود والنصارى[٩].

وقال ابن مسعودٍ: معناه: أنهم تركوا العمل للآخرة، وآثروا الدنيا[١٠].

وقال الحسنُ وقتادةُ: معناه: أن الكُفَّار الذين هم أحياء، يئسوا من الكفار ومن أصحاب القبور أن يرجعوا إليهم[١١].

وقيل: إن الله ـ تعالى ـ ختم السورة بما بدأها من ترك موالاة الكفار، وهي خطاب لحاطب بن أبي بلتعة وغيره.

---

(١) في أ: ببعث الموتى.
(٢) ينظر: الدر المصون ٦/٣٠٨.
(٣) سقط من أ.
(٤) ينظر السابق.
(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/٢٥٦، والدر المصون ٦/٣٠٨.
(٦) ينظر: القرطبي ١٨/٥٠.
(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٥٠).
(٨) ينظر تفسير البغوي (٤/ ٣٣٦).
(٩) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٥٠) عن الحسن.
(١٠) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٥٠).
(١١) تقدم.

قال ابن عباس: قوله: ﴿لَا تَتَوَلَّوْا﴾ أي: لا توالوهم، ولا تناصحوهم، رجع تعالى بطوله وفضله على حاطب بن أبي بلتعة، يريد أن كفار قريش يئسوا من خير الدنيا، كما يئس الكفار المقبورون من حظ يكون لهم في الآخرة من رحمة الله تعالى[1].

روى الثَّعلبيُّ في تفسيره عن أبيٍّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ المُمتحنةِ كَانَ المُؤمِنُونَ والمُؤمِنَاتُ لَهُ شُفَعَاء يَوْمَ القِيَامَةِ»[2]. والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٥٠).

(٢) ذكره الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» (٤/ ٥٢١) وقال: أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب.

سورة الصف

[مدنية][1] في قول الأكثرين. وذكر النحاس [عن ابن عباس][2]: أنها مكية، وهي أربع عشرة آية ومئتان وإحدى وعشرون كلمة وتسعمائة حرفٍ.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾

قال ابن الخطيب[3]: وجه تعلق هذه السورة بما قبلها، هو أن في السورة التي قبلها، بين الخروج إلى الجهاد في سبيل الله، وابتغاء مرضاته بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي﴾ [الممتحنة: ١]، وفي هذه السورة بين ما يحمل المؤمن، ويحثّه على الجهاد، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٣].

فإن قيل: ما الحكمة في أنه - تعالى - قال في بعض السور: «سبَّح للَّهِ» بلفظ الماضي، وفي بعضها: «يُسَبِّحُ» بلفظ المضارع، وفي بعضها بلفظ الأمر؟.

فالجواب: أن الحكم في ذلك تعليم العبد، أن تسبيح الله تعالى دائم لا ينقطع، كما أن الماضي يدل عليه في الماضي من الزمان، والمستقبل يدل عليه في المستقبل من الزمان والأمر يدل عليه في الحال[4].

و «العَزِيزُ»: هو الغالب على غيره أي شيءٍ كان ذلك الغير، ولا يمكن أن [يحكم][5] عليه غيره، و «الحَكِيمُ»: هو الذي يحكم على غيره، أي شيء كان ذلك الغير.

فإن قيل: هلاً قيل: سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وما فيهما وهو أكثر مبالغة؟ فالجواب[6]: إنما يكون كذلك، إذا كان المراد التَّسبيح بلسان الحال، أما إذا كان المراد من التسبيح المخصوص باللسان فالبعض بوصف معين، فلا يكون كذلك.

---

(١) في أ: مكية.
(٢) سقط من أ.
(٣) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٦٩.
(٤) في أ: المكان.
(٥) في أ: يغلب.
(٦) ينظر: السابق ٢٩/ ٢٧٠.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

روى الدَّارميُّ في مسنده قال: أنبأنا مُحمَّدُ بنُ كثيرٍ عَنِ الأوزاعيِّ عنْ يَحْيى بْنِ أبِي كثيرٍ عن أبِي سلمةَ عن عبْدِ اللَّهِ بنِ سلام، قال: قَعَدنا مع نفر من أصحاب النبي ﷺ فتذاكرنا فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملنا؟ فأنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ حتى ختمها[١]، قال عبد الله: قرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمها، قال أبو سلمة: فقرأها علينا عبد الله بن سلام حتى ختمها، قال يحيى: فقرأها علينا أبو سلمة، فقرأها علينا يحيى، فقرأها علينا الأوزاعي، فقرأها علينا محمد، فقرأها علينا الدارمي.

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: قال عبد الله بن رواحة: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله لعملناه[٢]، [فلما نزل الجهاد كرهوه][٣].

[وقال الكلبي: قال المؤمنون: يا رسول الله لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لسارعنا إليها][٤]، فنزلت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]، فمكثوا زماناً يقولون: لو نعلمها لاشتريناها بالأموال والأنفس والأهلين؟ فدلَّهم الله عليها بقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصف: ١١] الآية، فابتلوا يوم أحد، ففروا، فنزلت هذه الآية تعييراً لهم بترك الوفاء[٥].

وقال محمَّدُ بنُ كعبٍ: لما أخبر الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ بثواب شهداء «بدر»، قالت الصحابة رضي الله عنهم اللهم اشهد لئن لقينا قتالاً لنفرغنّ فيه وسعنا ففروا يوم أحد، فعيرهم الله بذلك[٦].

وقال قتادة والضحاك: نزلت في قوم كانوا يقولون: نحن جاهدنا وابتلينا، ولم يفعلوا[٧].

وقال صهيب: كان رجل قد آذى المسلمين يوم بدر، وأنكاهم، فقتله، فقال رجل: يا

(١) أخرجه الدارمي في «مسنده» (٢/ ٢٠٠).
(٢) في أ: لسارعنا إليها.
(٣) سقط من أ.
(٤) سقط من أ.
(٥) ينظر القرطبي (١٨/ ٥١).
(٦) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٣٧) والقرطبي (١٨/ ٥٢).
(٧) ينظر المصدر السابق.

نبي الله، إني قتلت فلاناً ففرح النبي ﷺ بذلك، فقال عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف: يا صُهيبُ، أما أخبرت رسول الله ﷺ أنك قتلت فلاناً، فإن فلاناً انتحل قتله، فأخبره، فقال: أكذلك يا أبا يحيى؟ قال: نعم، والله يا رسول الله، فنزلت الآية في المنتحل[١].

وقال ابن زيد: نزلت في المنافقين، كانوا يقولون «للنبي» ﷺ وأصحابه: إن خرجتم وقاتلتم خرجنا معكم، وقاتلنا، فلما خرجوا نكثوا عنهم وتخلفوا[٢].

فصل

قال القرطبي[٣]: «هذه الآية توجب على كل من ألزم نفسه عملاً فيه طاعة أن يفي بها».

وفي صحيح مسلم عن أبي موسى: أنه بعث قراء إلى أهل «البصرة»، فدخل عليه ثلاثمائة رجل، قد قرأوا القرآن، فقال أنتم خيار أهل «البصرة» وقراؤهم، فاتلوه ولا يطولن عليكم الأمدُ، فتقسو قلوبكم، كما قست قلوب من قبلكم، وإنا كنا نقرأ سورة تشبهها في الطول والشدة بـ «براءة»، فأنسيتها غير أني قد حفظت منها «لَوْ كَان لابْنِ آدَمَ وادِيَانِ مِنْ مالٍ لابْتَغَى وَادِياً ثَالثاً، ولا يَمْلأُ جَوْفَ ابنِ آدمَ إلاَّ التُّرابُ»، وكُنَّا نقرأُ سُورة تُشبهُهَا بإحْدَى المُسَبِّحاتِ، فأُنسيتُهَا غير أنِّي قد حفظت منها: «يا أيُّها الذين آمنوا لِمَ تقُولُون ما لا تفعَلُونَ، فتُكْتب شهادة في أعناقكم، فتسألون عنها يوم القيامة»[٤].

قال ابن العربي[٥]: وهذا كله ثابت في الدين، أما قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ فثابتٌ في الدين لفظاً ومعنى في هذه السورة، وأما قوله: شهادة في أعناقكم عنها يوم القيامة، فمعنى ثابت في الدين، فإن من التزم شيئاً لزمه شرعاً، والملتزم على قسمين:

[**أحدهما**: النذر، وهو][٦] على قسمين:

نذر تقرب مبتدأ، كقوله: لله عليّ صلاة أو صوم أو صدقة، ونحوه من القرب، فهذا يلزم الوفاء به إجماعاً.

ونذر مباح، وهو ما علق به شرط رغبة، كقوله: إن قدم غائبي فعلي صدقة، أو علق بشرط رهبة، كقوله: إن كفاني الله شر كذا فعليَّ صدقة، ففيه خلاف: فقال مالك وأبو حنيفة: يلزم الوفاء به.

---

(١) ذكره القرطبي (١٨/ ٥٢).

(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٣٧) والقرطبي (١٨/ ٥٢).

(٣) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٥٢.

(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢/ ٧٢٥) من حديث أبي موسى الأشعري.

(٥) انظر أحكام القرآن ٤/ ١٧٩٩.

(٦) سقط من أ.

وقال الشافعي في قول: لا يلزم الوفاء به.

وعموم الآية حجة لنا؛ لأنها بمطلقها تتناول ذم من قال ما لا يفعله على أي وجه كان من مطلق، أو مقيد بشرط.

وقد قال أصحابه: إن النذر إنَّما يكون بما يقصد منه القربة مما هو من جنس القربة، وهذا وإن كان من جنس القربة، لكنه لم يقصد منه القربة، وإنما قصد منه منع نفسه عن فعل، أو من الإقدام على فعل.

قلنا: القرب الشرعية مقتضيات وكلف وإن كانت قربات، وهذا تكلف التزام هذه القربة بمشقة كجلب نفع أو دفع ضرر، فلم يخرج عن سنن التكليف، ولا زال عن قصد التقرب.

قال ابن العربي[١]: «فإن كان المقول منه وعداً فلا يخلو أن يكون منوطاً بسبب كقوله: إن تزوجت أعنتك بدينار، أو ابتعت جارية كذا أعطيتك، فهذا لازم إجماعاً من الفقهاء، وإن كان وعداً مجرداً.

فقيل: يلزم بتعلقه، واستدلوا بسبب الآية، فإن روي أنهم كانوا يقولون: لو نعلم أي الأعمال أفضل وأحب إلى الله لعملناه، فأنزل الله هذه الآية، وهو حديث لا بأس به.

وروي عن مجاهد أن عبد الله [بن رواحة][٢] لما سمعها قال: «لا أزال حبيساً في الله حتى أقتل»[٣].

والصحيح عندي أن الوعد يجب الوفاء به على كل حال».

قال القرطبي[٤]: «قال مالك: فأما العدد مثل أن يسأل الرجل الرجل أن يهب له هبة، فيقول: نعم، ثم يبدو له ألاَّ يفعل، فلا أرى ذلك يلزمه».

فصل

قال القرطبي[٥]: ثلاث آيات منعتني أن أقضي على الناس: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

وخرج أبو نعيمٍ الحافظ من حديث مالكِ بنِ دينارٍ عَنْ ثُمامةَ عن أنس بْنِ مالكٍ،

---

(١) ينظر: أحكام القرآن ٤/ ١٨٠.

(٢) سقط من أ.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣١٦) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن عساكر.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٥٣).

(٥) ينظر السابق، والثابت في المطبوع أنه من كلام النخعي.

قال: قال رسول الله ﷺ: «أتَيْتُ لَيْلةَ أسْري بِي عَلَى قوْمٍ تُقْرَضُ شِفاهُهُمْ بِمقاريضَ مِنْ نارٍ، كُلَّما قُرِضتْ عادتْ، قُلْتُ: مَنْ هؤلاءِ يَا جِبْرِيْلُ؟.

قال: هَؤلاءِ خُطَبَاءُ أمَّتِكَ الذينَ يقُولُونَ ولا يَفْعَلُون ويقرءُونَ كِتابَ اللَّهِ ولا يعملُون بِهِ»[1].

فصل

قوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ، على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير ما لا يفعله، أما في الماضي، فيكون كذباً، وفي المستقبل، يكون خلفاً، وكلاهما مفهوم[2].

قال الزمخشري[3]: هي لام الإضافة، دخلت على «ما» الاستفهامية، كما دخل عليها غيرها من حروف الجر في قولك: «بم، وفيم، وعمَّ»، وإنما حذفت الألف؛ لأن «ما» والحرف كشيء واحد، ووقع استعمالها في كلام المستفهم»، ولو كان كذلك لكان معنى الاستفهام واقعاً في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ﴾، والاستفهام من الله تعالى مُحَال؛ لأنه عالم بجميع الأشياء، والجواب[4] هذا إذا كان المراد حقيقة الاستفهام، وأما إذا كان أراد إلزام من أعرض عن الوفاء مما وعد أو أنكر الحق وأصرَّ على الباطل فلا.

وتأول سفيانُ بنُ عيينة قوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: لم تقولون [ما ليس الأمر فيه][5] إليكم، فلا تدرون هل تفعلون، أو لا تفعلون، فعلى هذا يكون الكلام محمولاً على ظاهره في إنكار القول.

قوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾. فيه أوجه[6]:

أحدها: أن يكون من باب: «نعم وبئس»، فيكون في «كَبُر» ضمير مبهم مفسر بالنكرة بعده، و «أن تقولُوا» هو المخصوص بالذم، فيجيء فيه الخلاف المشهور: هل رفعه بالابتداء وخبره الجملة مقدمة عليه؟ أو خبره محذوف، أو هو خبر مبتدأ محذوف، كما تقدم تحريره؟.

وهذه قاعدة مطردة: كل فعل يجوز التعجّب منه، يجوز أن يبنى على «فَعُل» ـ بضم العين ـ ويجري مجرى «نعم وبئس» في جميع الأحكام.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٤٤) من حديث أنس من طريق إبراهيم بن أدهم عن مالك بن دينار عن أنس مرفوعاً وقال أبو نعيم مشهور من حديث مالك بن أنس غريب من حديث إبراهيم عنه، وذكره السيوطي في الدر المنثور» (٤/ ٢٧٨) وعزاه إلى ابن مردويه.

(٢) ينظر: القرطبي ١٨/ ٥٣.

(٣) الكشاف ٤/ ٥٢٢.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٧٠.

(٥) سقط من أ.

(٦) ينظر: الدر المصون ٦/ ٢٣٠٩.

والثاني: أنه من أمثلة التعجّب.

وقد عده ابن عصفور في «التعجب» المبوَّب له في النحو، فقال: «صيغة: ما أفعَلَهُ، وأفعِلْ به، ولَفَعُل، نحو: لرمُو الرجل».

وإليه نحا الزمخشري[١] فقال: هذا من أفصح كلام وأبلغه في معناه، قصد في «كَبُر»: التعجب من غير لفظه؛ كقوله: [الطويل]

٤٧٦٢ ـ .... غَلَتْ نَابُ كُلَيْبٍ بَوَاؤُهَا[٢]

ثم قال: وأسند إلى: «أن تقولوا»، ونصب: «مقتاً»، على تفسيره، دلالة على أن قوله: «مَا لاَ تَفْعَلُون»: مقت خالص لا شوب فيه.

الثالث: أنَّ «كَبُرَ» ليس للتعجب ولا للذم، بل هو مسند إلى «أن تقولوا» و «مقتاً»: تمييز محول من الفاعلية والأصل: كبر مقتاً أن تقولوا أي: مقت قولكم.

ويجوز أن يكون الفاعل مضمراً عائداً على المصدر المفهوم من قوله: «لِمَ تَقُولُونَ» أي: «كبر أي القول مقتاً»، و «أن تقولوا» على هذا إما بدل من ذلك الضمير، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هو أن تقولوا[٣].

قال القرطبي: و «مقتاً» نصب بالتمييز، المعنى: كبر قولهم ما لا تفعلون مقتاً.

وقيل: هو حال، والمقت والمقاتة: مصدران، يقال: رجل مقيت وممقوت إذا لم يحبّه الناس[٤].

فصل

قال القرطبيُّ: قد يحتجّ بهذه الآية في وجوب الوفاء في اللجاج والغضب على أحد قولي الشافعي[٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾

قرأ[٦] **زيد بن علي**: «يُقَاتَلُون» ـ بفتح التاء ـ على ما لم يسم فاعله.

وقرىء[٧]: «يُقَتَّلُونَ» بالتشديد.

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٢٣.

(٢) ينظر الكشاف ٣/ ٨٨، ٩٧، وشرح شواهد ص ٥٦١، والبحر المحيط ٨/ ٢٥٨.

(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٠.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٥٣.

(٥) السابق.

(٦) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٢٣، والبحر المحيط ٨/ ٢٥٩، والدر المصون ٦/ ٣١٠.

(٧) ينظر: السابق.

و «صفًّا»: نصب على الحال، أي: صافين أو مصفوفين[١].

قل القرطبي[٢]: «والمفعول مضمر، أي: يصفون أنفسهم صفًّا».

وقوله: «كأنَّهُمْ» يجوز أن يكون حالاً ثانية من فاعل: «يقاتلون»، وأن يكون حالاً من الضَّمير في «صفًّا»، فتكون حالاً متداخلة قاله الزمخشري[٣].

وأن يكون نعتاً لـ: «صفًّا»، قاله الحوفي.

وعاد الضمير على «صفًّا»، فيكون جمعاً في المعنى[٤]، كقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ [الحجرات: ٩].

فصل

فإن قيل: وجه تعلق هذه الآية بما قبلها، أن قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ في ذم المخالفين في القتال، وهم الذين وعدوا بالقتال ولم يقاتلوا، وهذه الآية مدح [للموافقين][٥] في القتال. واعلم أن المحبة على وجهين[٦].

أحدهما: الرضا عن الخلق.

وثانيهما: الثَّناء عليهم.

والمرصوص، قيل: المتلائم الأجزاء المستويها.

وقيل: المعقود بالرصاص. قاله الفراء.

وقيل: هو من التضام من تراصّ الأسنان.

وقال الراعي: [الرجز]

٤٧٦٣ ـ مَا لَقِيَ البِيضُ من الحُرْقُوصِ
يَفْتَحُ بَابَ المَغْلَقِ المَرْصُوصِ[٧]

الحرقوص: دويبة تولع بالنساء الأبكار[٨].

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٥٤.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٢٣.

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٠.

(٥) في أ: المقاتلين.

(٦) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٧١.

(٧) ونسب البيتان لأعرابية كما في اللسان، قال: قالت أعرابية:

مَا لَقِيَ البِيضُ مِنَ الحرقُوصِ
مِن مَارِدٍ لِصٍّ مِنَ اللُّصُوصِ
يَدْخُلُ تَحْتَ الغَلَقِ المَرْصُوصِ
بِمَهْرٍ لا غَالٍ وَلاَ رَخِيصِ

ينظر اللسان (حرقص)، والبحر ٨/ ٢٥٧، والدر المصون ٦/ ٣١٠.

٨) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٠.

وقال القرطبي[١]: والتَّراصُّ: التلاصق، ومنه قوله: وتراصوا في الصف، ومعنى الآية: إن الله ـ تعالى ـ يحب من يثبت في الجهاد، وفي سبيله، ويلزم مكانه، كثبوت البناء.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يوضع الحجر على الحجر، ثم يرص بأحجار صغار، ثم يوضع اللبن عليه، فيسمونه أهل مكة المرصوصُ[٢].

قال ابنُ الخطيب[٣]: ويجوز أن يكون المعنى على أن يكون ثباتهم في حرب عدوهم حتى يكونوا في اجتماع الكلمة، وموالاة بعضهم بعضاً، كالبنيان [المرصوص][٤].

وقال سعيدُ بن جبيرٍ: هذا تعليم من الله للمؤمنين، كيف يكونون عند قتال عدوهم.

فصل في أن قتال الراجل أفضل من الفارس

قال القرطبي[٥]: استدل بهذه الآية بعضهم على أن قتال الراجل أفضل من قتال الفارس؛ لأن الفرسان لا يصطفون على هذه الصفة.

قال المهدويُّ: وذلك غير مستقيم لما جاء في فضل الفارس من الأجر والغنيمة، ولا يخرج الفرسان من معنى الآية؛ لأن معناه الثبات.

فصل في الخروج من الصف

لا يجوز الخروج من الصفّ إلا لحاجة تعرض للإنسان، أو في رسالة يرسلها الإمام، أو منفعة تظهر في المقام كـ «فرصة» تنتهز ولا خلاف فيها.

وفي الخروج عن الصف للمبارزة [خلاف][٦].

فقيل: إنه لا بأس بذلك إرهاباً للعدو، وطلباً للشهادة، وتحريضاً على القتال.

وقيل: لا يبرز أحد طلباً لذلك؛ لأن فيه رياء وخروجاً إلى ما نهى الله عنه من لقاء العدو، وإنما تكون المبارزة إذا طلبها الكافر، كما كانت في حروب النبي ﷺ يوم «بدر»، وفي غزوة «خيبر»، وعليه درج السلف.

وقد تقدم الكلام في ذلك في سورة «البقرة» عند قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [الآية: ١٩٥].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٥٤.
(٢) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٩/ ٢٧٠) عن ابن عباس.
(٣) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٧١.
(٤) سقط من أ.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٥٤.
(٦) سقط من أ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ الآية.

لما ذكر الجهاد، بين أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد، وجاهدا في سبيل الله، وحل العقاب بمن خالفهما، أي: واذكر لقومك يا محمد هذه القصة[(١)].

قوله: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾.

وذلك حين رموه بالأدرة، كما تقدم في سورة الأحزاب.

ومن الأذى: ما ذكر في قصة قارون أنه دس إلى امرأة تدَّعي على موسى الفجور، ومن الأذى قولهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وقولهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ١٢٤]، وقولهم: أنت قتلت هارون.

قوله: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾. جملة حالية[(٢)].

قال ابن الخطيب[(٣)]: و «قَدْ» معناه: التوكيد، كأنه قال: وتعلمون علماً يقيناً، لا شبهة [لكم][(٤)] فيه.

وقوله: ﴿أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾.

والمعنى: أنَّ الرسول يحترم يقيناً.

قوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟﴾، أي: مالوا عن الحق، ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: أمالهم عن الهدى.

وقيل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟﴾ عن الطاعة، ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الهداية.

وقيل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟﴾ عن الإيمان، «أزاغ الله قلوبهم» عن الثواب.

وقيل: لمَّا تركُوا ما أمرُوا به من احترام الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وطاعة الرب، «خلق» الله في قلوبهم الضلالة عقوبة لهم على فعلهم.

---

(١) ينظر الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٥٤).
(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٠.
(٣) التفسير الكبير (٢٩/ ٢٧١).
(٤) سقط من أ.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

قال الزجاجُ[١]: «يعني من سبق في علمه أنه فاسق».

قال ابنُ الخطيب[٢]: «وهذه الآية تدلّ على عظم إيذاء الرسول، حتى إنه يؤدّي إلى الكفر، وزيغ القلوب عن الهدى».

قوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾.

أي اذكر لهم هذه القصة أيضاً، وقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ولم يقل: «يا قوم» كما قال موسى؛ لأنه لأنه لا نسب له فيهم، فيكونون قومه[٣]، وقوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم﴾ أي: بالإنجيل.

قوله: «مُصدِّقاً» حال، وكذلك: «مُبَشِّراً» والعامل فيه: «رسول»؛ لأنه بمعنى المرسل[٤].

قال الزمخشري[٥]: فإن قلت: بم انتصب: «مصدقاً، ومبشراً» أبما في الرسول من معنى الإرسال أم بإليكم؟ قلت: بمعنى: الإرسال؛ لأن «إليكم» صلة للرسول، فلا يجوز أن تعمل شيئاً لأن حروف الجر لا تعمل بأنفسها، ولكن بما فيها من معنى الفعل، فإذا وقعت صلات لم تتضمن معنى فعل فمن أين تعمل؟ انتهى.

يعني بقوله: صلات، أنها متعلقة بـ «رسول» صلة له، أي: متصل معناها به لا الصلة الصناعية.

قوله: «يأتي من بعدي»، وقوله: «اسمه أحمد»، جملتان في موضع جر نعتاً لرسول.

أو «اسْمهُ أحمدُ» في موضع نصب على الحال من فاعل «يأتي»[٦].

أو تكون الأولى نعتاً، والثانية حالاً، وكونهما حالين ضعيف، لإتيانهما من النكرة وإن كان سيبويه يجوزه[٧].

وقرأ نافع وابن كثير[٨] **وأبو عمرو**: «مِنْ بَعدِيَ» ـ بفتح الياء ـ وهي قراءة السلمي، وزرّ بن حبيش، وأبو بكر عن عاصم، واختاره أبو حاتم؛ لأنه اسم، مثل الكاف من «بعدك»، والتاء من «قمت»[٩].

---

(١) ينظر: معاني القرآن ٥/ ١٦٤.
(٢) ينظر: التفسير الكبير ٢٩/ ٢٧١.
(٣) ينظر: القرطبي ١٨/ ٥٥.
(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٠.
(٥) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٢٥.
(٦) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٠.
(٧) ينظر: الكتاب ١/ ١٩٩.
(٨) ينظر: السبعة ٦٣٥، والحجة ٦/ ٢٨٨، وإعراب القراءات ٢/ ٣٦٣، والعنوان ١٩٠، وشرح الطيبة ٦/ ٥٣، وشرح شعلة ٦٠٣، وإتحاف ٢/ ٥٣٦.
(٩) ينظر: القرطبي ١٨/ ٥٥.

والباقون: قرءوا بالإسكان.

وقرىء[١]: «من بعد اسمه أحمد»، فحذف الياء من اللفظ.

و «أحمدُ» اسم نبينا ﷺ هو اسم علم.

يحتمل أن يكون من صفة، وهي: «أفعل» التفضيل، وهو الظَّاهر، فمعنى «أحمد» أي: أحمدُ الحامدين لربِّه.

والأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ كلهم حمادون لله، ونبينا «أحْمَد» أكثرهم حمداً[٢].

قال البغويُّ[٣]: والألف في «أحْمَد»، للمبالغة في الحمد، وله وجهان:

أحدهما: أنه مبالغة من الفاعل، أي: الأنبياء كلهم حمادون الله ـ عز وجل ـ، وهو أكثر حمداً لله من غيره.

والثاني: أنه مبالغة في المفعول، أي: الأنبياء كلهم محمودون، لما فيهم من الخصال الحميدة، وهو أكثر مبالغة، وأجمع للفضائل والمحاسن التي يحمد بها. انتهى.

وعلى كلا الوجهين، فمنعه من الصرف للعلمية والوزن الغالب، إلاَّ أنَّهُ على الاحتمال الأول يمتنع معرفة وينصرف نكرة. وعلى الثاني يمتنع تعريفاً وتنكيراً؛ لأنه يخلف العلمية للصفة.

وإذا أنكر بعد كونه علماً جرى فيه خلاف سيبويه[٤] والأخفش، وهي مسألة مشهورة بين النحاة.

وأنشد حسان ـ رضي الله عنه ـ يمدحه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويصرفه: [الكامل]

٤٧٦٤ ـ صَلَّى الإلَهُ ومَنْ يَحُفُّ بِعرْشِهِ   والطَّيِّبُونَ على المُبَارَكِ أحْمَدِ[٥]

«أحمد»: بدل أو بيان «للمُبَارك».

وأما «مُحَمَّد» فمنقول من صفة أيضاً، وهو في معنى «محمود» ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار، فـ «محمّد» هو الذي حمد مرة بعد أخرى[٦].

قال القرطبي[٧]: «كما أن المكرَّم من الكرم مرة بعد أخرى، وكذلك المدح ونحو ذلك، فاسم «محمد» مطابق لمعناه، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ سماه قبل أن يسمي به نفسه،

---

(١) ينظر السابق.
(٢) القرطبي ١٨/ ٥٥.
(٣) ينظر: معالم التنزيل ٤/ ٣٣٧.
(٤) ينظر: الكتاب ٢/ ٥.
(٥) البيت لحسان بن ثابت ينظر ديوانه ١٥٣، والبحر ٨/ ٢٥٩، والدر المصون ٦/ ٣١٠.
(٦) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٠.
(٧) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٥٥.

فهذا علم من أعلام نبوته، إذ كان اسمه صادقاً عليه، فهو محمود في الدنيا لما هدي إليه، ونفع به من العلم والحكمة، وهو محمود في الآخرة بالشفاعة، فقد تكرر معنى الحمد، كما يقتضي اللفظ، ثم إنه لم يكن محمداً حتى كان: «أحمد» حمد ربه فنبأه وشرفه، فلذلك تقدم اسم: «أحمد» على الاسم الذي هو محمد، فذكره عيسى فقال: «اسمه أحمد»، وذكره موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين قال له ربه: تلك أمة أحمد، فقال: اللهم اجعلني من أمَّة محمد، فبأحمد ذكره قبل أن يذكره بمحمد؛ لأن حمده لربه كان قبل حمد الناس له، فلما وجد وبعث، كان محمداً بالفعل، وكذلك في الشفاعة يحمد ربه بالمحامد التي يفتحها عليه، فيكون أحمد الناس لربه، ثم يشفع فيحمد على شفاعته».

رُوِيَ أنَّ النبي ﷺ قال: «اسْمِي في التَّوراةِ أحْيَدُ؛ لأنِّي أحِيدُ أمَّتِي عن النَّارِ، واسمي في الزَّبُورِ: المَاحِي، مَحَا اللَّهُ بي عبدةَ الأوثانِ، واسْمِي في الإنْجيلِ: أحْمَدُ، وفي القُرْآنِ: مُحَمَّدٌ؛ لأنِّي محمُود فِي أهْلِ السَّماءِ والأرْضِ»[(١)].

وفي الصحيح: «لِي خَمْسَةُ أسْمَاء: أنَا مُحمَّدٌ وأحمدُ، وأنا المَاحِي الذي يَمحُو اللَّهُ بِيَ الكُفر، وأنا الحَاشِرُ الذي يُحْشَرُ النَّاسُ على قدمِي، وأنَا العَاقِبُ»[(٢)]. وقد تقدم.

قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

قيل: عِيسَى.

وقيل: مُحَمَّد ﷺ.

﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

قرأ حمزة[(٣)] والكسائي: «ساحر» نعتاً للرجل.

وروي أنها قراءة ابن مسعود.

والباقون: «سحر» نعتاً لما جاء به الرسول.

قال أبو حيان هنا[(٤)]: وقرأ الجمهور: «سحر»، وعبد الله، وطلحة والأعمش، وابن وثاب: «ساحر»، وترك ذكر الأخوين[(٥)].

---

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٥/ ٥٢٩) والقرطبي (١٨/ ٥٥).

(٢) أخرجه البخاري ٨/ ٥٠٩، كتاب التفسير، باب: «يأتي من بعدي اسمه أحمد» (٤٨٩٦)، ومسلم ٤/ ١٨٢٨، كتاب الفضائل، باب: في أسمائه ﷺ (١٢٤ ـ ٢٣٥).

(٣) ينظر: حجة القراءات ٧٠٧، والعنوان ١٩٠، وإتحاف ٢/ ٥٣٦، وينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٠٣، والبحر المحيط ٨/ ٢٥٩، والدر المصون ٦/ ٣١١.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٥٩.

(٥) الدر المصون ٦/ ٣١١.

قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب.

قوله: ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾.

جملة حالية من فاعل: «افْتَرَى»، وهذه قراءة العامة[١].

وقرأ طلحة[٢]: «يدَّعي» ـ بفتح الياء والدال مشددة ـ مبنياً للفاعل.

وفيها تأويلان[٣]:

أحدهما: قاله الزمخشري، وهو أن يكون «يفتعل» بمعنى: «يفعل» نحو: «لمسه والتمسه»[٤].

والضميران، أعني: «هو»، والمستتر في: «يدعى» لله تعالى، وحينئذ تكون القراءتان بمعنى واحد، كأنه قيل: والله يدعو إلى الإسلام.

وفي القراءة الأولى يكون الضَّميران عائدين على «من».

والثاني: أنه من ادّعى كذا دعوى، ولكنه لما ضمن يدّعي معنى ينتمي وينتسب عُدِّي باللام، وإلا فهو متعدٍّ بنفسه.

وعلى هذا الوجه فالضميران لـ «من» أيضاً، كما هما في القراءة المشهورة.

وعن طلحة: «يُدَّعىٰ»[٥] ـ مشدد الدال ـ مبنياً للمفعول.

وخرجها الزمخشري على ما تقدم من: ادَّعاه ودعاه بمعنى: لمسه والتمسه.

والضميران عائدان على «من» عكس ما تقدم عنده في تخريج القراءة الأولى، فإن الضميران لله، كما تقدم تحريره.

وهذا تعجب ممن كفر بعيسى ومحمد ﷺ بعد المعجزات التي ظهرت لهما[٦]، ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: من كان في حكمه أن يختم له بالضلالة والغي[٧].

قوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾.

الإطفاءُ هو الإخماد، يستعملان في النار، وفيما يجري مجراها من الضياء والظهور، ويفترق الإخماد والإطفاء من حيث إن الإطفاء يستعمل في القليل، فيقال: أطفأت السراج، ولا يقال: أخمدت السراج[٨].

---

(١) ينظر السابق.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٣٠٣، والبحر المحيط ٨/٢٥٩، والدر المصون ٦/٣١١.

(٣) الدر المصون ٦/٣١١. (٤) ينظر: الكشاف ٤/٥٢٥.

(٥) ينظر: الكشاف ٤/٥٢٥، والمحرر الوجيز ٥/٣٠٣، والبحر المحيط ٨/٢٥٩، والدر المصون ٦/٣١١.

(٦) ينظر: القرطبي ١٨/٥٦. (٧) السابق.

(٨) السابق نفسه.

وفي هذه اللام أوجه[١]:

أحدها: أنَّها مزيدة في مفعول الإرادة.

قال الزمخشري[٢]: أصله ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا﴾، كما في سورة التوبة [٣٢]، وكأنَّ هذه اللام، زيدت مع فعل الإرادة توكيداً له لما فيها من معنى الإرادة في قولك: جئت لإكرامك وفي قولك: «جئت لأكرمك»، كما زيدت اللام في: «لا أبا لك» توكيداً لمعنى الإضافة في: «لا أباك».

وقال ابن عطية[٣]: «واللام في: «ليطفئوا» لام العلة مؤكدة، ودخلت على المفعول؛ لأن التقدير: «يريدون أن يطفئوا نور الله»، وأكثر ما تلزم هذه اللام إذا تقدم المفعول، تقول: لزيد ضربت، ولرؤيتك قصدت انتهى.

وهذا ليس مذهب سيبويه[٤]، وجمهور النَّاس، ثم قول أبي محمد: «وأكثر ما يلزم» ليس بظاهر؛ لأنه لا قول بلزومها ألبتة، بل هي جائزة للزيادة، وليس الأكثر أيضاً زيادتها جوازاً، بل الأكثر عدمها.

الثاني: أنَّها لام العلة والمفعول محذوف، أي: يريدون إبطال القرآن، أو دفع الإسلام، أو هلاك الرسول ﷺ ليطفئوا.

الثالث: أنَّها بمعنى: «أن» الناصبة، وأنها ناصبة للفعل بنفسها.

قال الفرَّاء: العرب تجعل «لام كي» في موضع: «أن»، في «أراد وأمر»، وإليه ذهب الكسائي أيضاً.

وقد تقدم نحو من هذا في قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ في سورة النساء [الآية: ٢٦].

فصل

قال ابن عباسٍ وابن زيدٍ رضي الله عنهما: المراد بنور الله ـ هاهنا ـ القرآن، يريدون إبطاله، وتكذيبه بالقول[٥].

وقال السديُّ: الإسلام، أي: يريدون[٦] دفعه بالكلام[٧].

وقال الضحاكُ: إنَّه محمد ﷺ يريدون إهلاكه بالأراجيف[٨].

وقال ابنُ جريجٍ: حجج الله ودلائله، يريدون إبطالها بإنكارهم وتكذيبهم، وقيل:

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١١.
(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٢٥.
(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٠٣.
(٤) ينظر: الكتاب ١/ ٤١.
(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ٨٣) عن ابن زيد.
(٦) في أ: يريدون إهلاكه.
(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٥٦).
(٨) ذكره الماوردي (٥/ ٥٣٠) والقرطبي (١٨/ ٥٦) عن الضحاك.

إنه مثل مضروب، أي: من أراد إطفاء نور الشمس بفيه، وجده مستحيلاً ممتنعاً، كذلك من أراد إبطال الحق، حكاه ابنُ عيسى.

فصل في سبب نزول هذه الآية

قال الماورديُّ(١): سبب نزول هذه الآية، ما حكاه عطاء عن ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ النبي ﷺ أبطأ عليه الوحي أربعين يوماً، فقال كعب بن الأشرف: يا معشر اليهود، أبشروا فقد أطفأ الله نور محمد، فما كان ينزل عليه، وما كان ليتم أمره، فحزن رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية واتصل الوحي بعدها(٢).

قوله: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾.

قرأ الأخوان(٣) **وحفص وابن كثير**: بإضافة: «متم»، لـ: «نوره».

والباقون: بتنوينه ونصب: «نوره».

فالإضافة تخفيف، والتنوين هو الأصل.

وأبو حيَّان ينازع في كونه الأصل(٤).

وقوله: «والله متم»، جملة حالية من فاعل: «يريدون»، أو «ليطفئوا».

والمعنى: والله متم نوره، أي: بإظهاره في الآفاق(٥).

فإن قيل: الإتمام لا يكون إلاَّ عند النُّقصان، فما معنى نقصان هذا النور؟.

فالجواب(٦): إتمامه بحسب نقصان الأثر وهو الظُّهور في سائر البلاد من المشارق إلى المغارب، إذ الظهور لا يظهر إلا بالإظهار، وهو الإتمام، يؤيده قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

وعن أبي هريرة: إن ذلك عند نزول عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ قاله مجاهد.

قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ﴾.

حال من هذه الحال فهما متداخلان، وجواب: «لو» محذوف، أي: أتمه وأظهره(٧)، وكذا ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، والمعنى: ولو كره الكافرون من سائر

---

(١) ينظر: النكت والعيون ٥/ ٥٣٠ والقرطبي (١٨/ ٥٦).
(٢) ذكره الماوردي (٥/ ٥٣٠)، والقرطبي (١٨/ ٥٦) عن الضحاك.
(٣) ينظر: السبعة ٦٣٥، والحجة ٦/ ٢٨٩، وإعراب القراءات ٢/ ٣٦٤، وحجة القراءات ٧٠٧، ٧٠٨، والعنوان ١٩٠، وشرح الطيبة ٦/ ٥٢، وإتحاف ٢/ ٥٣٧.
(٤) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٦٠.
(٥) ينظر: القرطبي ١٨/ ٥٦.
(٦) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٧٣.
(٧) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٢.

الأصناف(١)، فإن قيل: قال أولاً: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وقال ثانياً: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ فما الفائدة؟.

فالجواب(٢): إذا أنكروا الرسول ﷺ وما أوحي إليه من الكتاب، وذلك من نعمة الله تعالى، والكافرون كلهم في كفران النعم سواء فلهذا قال: «ولو كره الكافرون»، ولأن لفظ الكافر أعم من لفظ المشرك، فالمراد من الكافرين هنا: اليهود والنصارى والمشركون، فلفظ الكافر أليق به، وأما قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، فذلك عند إنكارهم [التوحيد](٣) وإصرارهم عليه، فالنبي ﷺ دعاهم في ابتداء الدعوة إلى التوحيد بـ «لا إله إلا الله»، فلم يقولوا: «لا إله إلا الله»، فلهذا قال: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ يعني: محمداً «بالهُدَى» أي: بالحقِّ والرشاد، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ بالحُجَج، ومن الظهور الغلبة باليد في القتال، وليس المراد بالظهور: أن لا يبقى دين [آخر](٤) من الأديان، بل المراد: أن يكون أهل الإسلام عالين غالبين، ومن الإظهار ألا يبقى دين آخر سوى الإسلام في آخر الزمان(٥).

قال مجاهدٌ: ذلك إذا أنزل الله عيسى، لم يكن في الأرض دين إلاَّ دين الإسلام(٦).

قال أبو هريرة: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ بخروج عيسى، وحينئذ لا يبقى كافر إلا أسلم(٧).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيَنْزلنَّ ابنُ مريمَ حكماً عادلاً، فليَكسرنَّ الصَّليبَ وليقتلنَّ الخِنْزيرَ، وليضَعَنَّ الجِزيةَ، ولتتركن القِلاص فلا يسعى إليها، ولتذهبنَّ الشَّحْناءُ والتَّباغُضُ والتَّحاسُد، وليَدعُونَّ إلى المالِ فلا يقبلهُ أحدٌ»(٨).

وقيل: ليُظْهرهُ، أي: ليطلع محمداً ﷺ على سائر الأديان حتى يكون عالماً بها عارفاً بوجوه بطلانها، وبما حرفوا وغيَّروا منها «على الدِّينِ» أي: على الأديان؛ لأن الدين مصدر يعبر به عن الجميع(٩).

---

(١) ينظر: القرطبي ١٨/٥٦.
(٢) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٧٤.
(٣) في أ: النور.
(٤) سقط من أ.
(٥) ينظر: القرطبي ١٨/ ٥٦.
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٥٦).
(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٨٥) عن أبي هريرة.
(٨) تقدم.
(٩) ينظر: القرطبي ١٨/ ٥٧.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الآية.

قال مقاتلٌ: نزلت في عثمان بن مظعون، قال: يا رسول الله، لو أذنت لي فطلقت خولة، وترهبت واختصيت، وحرمت اللحم، ولا أنام بليل أبداً، ولا أفطر بنهار أبداً، فقال النبي ﷺ: «إنَّ من سُنَّتِي النِّكاحَ فلا رهْبانِيةَ في الإسْلام وإنَّما رَهْبانِيةُ أمَّتِي الجهادُ فِي سبيلِ اللَّهِ، وخصاء أمَّتِي الصَّومُ، فلا تُحرِّمُوا طَيِّباتِ مَا أحَلَّ اللَّهُ لكُم، ومِنْ سُنَّتِي أنَامُ وأقُومُ وأفطِرُ وأصُومُ، فمنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فليْسَ منِّي»، فقال عثمان: لوددت يا نبي الله، أي التجارات أحب إلى الله فأتجر فيها، فنزلت[١].

وقيل: «أدُلُّكمْ» أي: سأدلكم، والتجارة: الجهاد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]: الآية، وهذا خطاب لجميع المؤمنين.

وقيل: لأهل الكتاب.

وقيل: نزل هذا حين قالوا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملنا.

قال البغويُّ[٢]: وجعل ذلك بمنزلة التجارة؛ لأنهم يرجون بها رضا الله عز وجل، ونيل جنته والنجاة من النار.

والتجارة عبارة عن معاوضة الشيء بالشيء، كما أن التجارة تنجي التاجر من الفقر فكذا هذه التجارة، وكما أن في التجارة الربح والخسران، فكذلك هذه التجارة، فمن آمن وعمل صالحاً، فله الأجر الوافر، ومن أعرض عن الإيمان والعمل الصالح، فله الخسران المبين[٣].

قوله: ﴿تُنجِيكُم﴾. هذه الجملة صفة لـ «تجارة»[٤].

وقرأ ابن عامر[٥]: **﴿تُنجّيكُم مِن عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾** بالتشديد.

والباقون: بالتخفيف، من «أنْجَى»، وهما بمعنى واحد؛ لأن التضعيف والهمزة متعديان.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٥٧). (٢) ينظر: معالم التنزيل ٤/ ٣٣٨.
(٣) ينظر: الفخر الرازي ٢٩/ ٢٧٤. (٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٢.
(٥) ينظر: السبعة ٦٣٥، والحجة ٦/ ٢٨٩، ٢٩٠، وإعراب القراءات ٢/ ٣٦٤، وحجة القراءات ٧٠٨، والعنوان ١٩٠، وشرح شعلة ٦٠٢، وإتحاف ٢/ ٥٣٧.

والمعنى: يخلصكم من عذاب أليم، أي مؤلم(١).

قوله: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾.

لا محلّ له لأنه تفسير لـ «تجارة».

ويجوز أن يكون محلها الرفع خبراً لمبتدأ مضمر، أي تلك التجارة تؤمنون، والخبر نفس المبتدأ، فلا حاجة إلى رابط.

وأن تكون منصوبة المحل بإضمار فعل، أي «أعني تؤمنون»، وجاز ذلك على تقدير «أن» وفيه تعسف(٢).

والعامة على: «تؤمنون» خبراً لفظياً ثابت النون.

وعبد الله(٣): «آمنُوا، وجاهدُوا» أمرين.

وزيد بن علي(٤): «تؤمنوا، وتجاهدوا» بحذف نون الرفع.

فأما قراءة العامة، فالخبر بمعنى الأمر، يدل عليه القراءتان الشاذتان فإن قراءة زيد: على حذف لام الأمر، أي: «لتؤمنوا، ولتجاهدوا».

كقوله: [الوافر]

٤٧٦٥ ـ مُحَمَّدُ تَفْدِ نفسكَ كُلُّ نَفْسٍ ....(٥)

وقوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣١] في وجه، أي: لتَفْدِ ولتقيموا، ولذلك جزم الفعل في محل جوابه في قوله: «يتقي».

وكذلك قولهم: «اتقى الله امرؤ فعل خيراً يثب عليه»، تقديره: ليتق الله.

وقال الأخفش: أن «تؤمنون»: عطف بيان لـ «تجارة».

وهذا لا يتخيل إلا بتأويل أن يكون الأصل: أن تؤمنوا، فلما حذفت ارتفع الفعل كقوله: [الطويل]

٤٧٦٦ ـ ألاَ أيُّهذا الزَّاجِرِي أحْضُرَ الوَغَى(٦)

الأصل: أن أحضر الوغى.

وكأنه قيل: هل أدلّكم على تجارة منجية: إيمان وجهاد، وهو معنى حسن، لولا ما فيه من التأويل، وعلى هذا يجوز أن يكون بدلاً من «تِجارةٍ».

---

(١) ينظر: القرطبي ١٨/٥٧. (٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٢.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/٥٢٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٠٤، والدر المصون ٦/ ٣١٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٦٠.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٦٠، والدر المصون ٦/ ٣١٢.

(٥) تقدم. (٦) تقدم.

وقال الفراء[١]: هو مجزوم على جواب الاستفهام، وهو قوله: «هل أدلكم».

واختلف الناس في تصحيح هذا القول[٢]:

فبعضهم غلطه. قال الزجاج[٣]: ليسوا إذا دلهم على ما ينفعهم يغفر لهم، إنما يغفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا.

يعني: أنه ليس مرتباً على مجرد الاستفهام ولا على مجرد الدلالة.

قال القرطبي[٤]: و «تُؤمِنُونَ» عند المبرد والزجاج في معنى «آمِنُوا» ولذلك جاء «يَغْفِر لَكُمْ» مجزوماً على أنه جواب الأمر.

قال ابن الخطيب[٥]: «هَلْ أدلكُمْ» في معنى الأمر عند الفرَّاء، يقال: هل أنت ساكت أي: اسكت، وبيانه أن «هَلْ» بمعنى الاستفهام ثم يندرج إلى أن يصير عرضاً وحثًّا، والحث كالإغراء، والإغراء أمر.

وقال المهدوي: إنما يصح حمله على المعنى، وهو أن يكون «تُؤمِنُونَ، وتجاهدون»: عطف بيان على قوله: «هل أدلكم».

كأن التجارة لم يدر ما هي فبينت بالإيمان والجهاد، فهي هما في المعنى، فكأنه قيل: هل تؤمنون وتجاهدون؟.

قال[٦]: فإن لم يقدر هذا التقدير لم يصح، لأنه يصير إن دُللتم يغفر لكم والغفران إنما يجب بالقبول والإيمان لا بالدلالة.

وقال الزمخشري قريباً منه أيضاً.

وقال أيضاً[٧]: إن «تؤمنون» استئناف كأنهم قالوا: كيف نعمل؟ فقال: تؤمنون.

وقال ابن عطيّة[٨]: «تُؤمِنُونَ»: فعل مرفوع، تقديره: ذلك أنه تؤمنون.

فجعله خبراً، وهي وما في حيّزها خبر لمبتدأ محذوف، وهذا محمول على تفسير المعنى لا تفسير الإعراب فإنه لا حاجة إليه[٩].

فصل

قال ابن الخطيب[١٠]: فإن قيل: كيف أمرهم بالإيمان بعد قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؟.

---

(١) ينظر: معاني القرآن له ٣/ ١٥٤.
(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٢.
(٣) ينظر: معاني القرآن ٥/ ١٦٦.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٥٧.
(٥) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٧٤.
(٦) ينظر: القرطبي ١٨/ ٥٧.
(٧) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٢٦.
(٨) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٠٤.
(٩) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٣.
(١٠) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٧٥.

فالجواب: يمكن أن يكون المراد من هذه الآية المنافقين وهم الذين آمنوا في الظاهر، ويمكن أن يكون أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى فإنهم آمنوا بالكتب المتقدمة.

فكأنه قال: يا أيها الذين آمنوا بالكتب المتقدمة آمنوا بالله وبمحمد، ويمكن أن يكون أهل الإيمان كقوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، أو يكون المراد الأمر بالثبات على الإيمان، كقوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فإن قيل: كيف ترجى النجاة إذا آمن بالله ورسوله ولم يجاهد في سبيل الله وقد علق بالمجموع؟.

فالجواب: أن هذا المجموع هو الإيمان بالله ورسوله والجهاد بالنفس والمال في سبيل الله خير في نفس الأمر.

قوله: ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾.

قال القرطبي[١]: ذكر الأموال أولاً، لأنها التي يبدأ بها في الإنفاق، «ذَلِكُمْ» أي: هذا الفعل ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من أموالكم وأنفسكم، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير لكم.

قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ فيه أوجه[٢]:

أحدها: أنه مجزوم على جواب الخبر بمعنى الأمر، كما تقدم.

والثاني: أنه مجزوم على جواب الاستفهام، كما قاله الفراء[٣].

الثالث: أنه مجزوم بشرط مقدر، أي: إن تؤمنوا يغفر لكم.

قال القرطبي[٤]: «وأدغم بعضهم، **فقرأ**[٥]: «يَغْفِر لَّكُمْ»، والأحسن ترك الإدغام لأن الراء حرف متكرر قويّ فلا يحسن الإدغام في اللام؛ لأن الأقوى لا يدغم في الأضعف».

قوله: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾.

روى الحسنُ قال: **سألت عمران بن حصينٍ وأبا هريرة عن قوله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾، فقالا: على الخبير [سقطت][٦]، سألنا رسول الله ﷺ عنها فقال: «قَصْرٌ مِن لُؤلُؤة في الجنَّةِ، في ذلِكَ القصْرِ سَبْعُونَ داراً من ياقُوتةٍ حَمراءَ، فِي كل دَار سَبْعُونَ بيْتاً**

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٥٧. (٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٣.
(٣) ينظر: معاني القرآن ٣/ ١٥٤. (٤) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٥٨.
(٥) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٠٤، قال ابن عطية: «وروي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قرأ: «يغفلكم» بإدغام الراء في اللام، ولا يجيز ذلك سيبويه».
(٦) سقط من أ.

من زَبَرْجدة خَضْراءَ، فِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ سَرِيراً، عَلَى كُلِّ سَرير سَبْعُون فِرَاشاً من كُلِّ لَوْنٍ على كُلِّ فِراشٍ سَبعُونَ امْرَأَةً، من الحُورِ العِينِ، فِي كُلِّ بيتٍ سَبْعُونَ مَائدةً، عَلى كُلِّ مائدةٍ سَبْعُون لوْناً من الطَّعام، فِي كُلِّ بَيْتٍ سبعُون وصيفاً ووصيفَةً، فيُعْطِي اللَّهُ تعالى المُؤمِنَ القُوَّة في غَدَاةٍ واحدةٍ مَا يَأْتِي على ذَلِكَ كُلِّهِ»[١].

قوله: ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ﴾.

أي دار إقامة. «ذلك الفوزُ العظيمُ» أي: السعادة الدائمة الكبيرة، وأصل الفوز الظفر بالمطلوب[٢].

قوله: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ﴾. فيها أوجه[٣]:

أحدها: أنها في موضع رفع على الابتداء وخبرها مقدر، أي: ولكم أو وثَمَّ أو عنده خصلة أخرى أو مثوبة أخرى، و «تُحِبُّونهَا»: نعت له.

الثاني: أن الخبر جملة حذف مبتدؤها، تقديره: هي نصر، والجملة خبر «أخرى». قاله أبو البقاء[٤].

الثالث: أنها منصوبة بفعل محذوف للدلالة عليه بالسِّياق، أي: ويعطكم، أو يمنحكم مثوبة أخرى، و «تُحِبُّونهَا» نعت لها أيضاً.

الرابع: أنها منصوبة بفعل مضمر يفسره «تُحِبُّونهَا» فيكون من الاشتغال، وحينئذ لا يكون «تحبونها» نعتاً لأنه مفسر للعامل فيه.

الخامس: أنها مجرورة عطفاً على «تجارة».

وضعف هذا بأنها ليست مما دلَّ عليه إنما هي ثواب من عند الله.

قال القرطبي[٥]: «هذا الوجه منقول عن الأخفش والفراء».

قوله: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

خبر مبتدأ مضمر، أي: تلك النعمة، أو الخلة الأخرى نصر، «من الله» نعت له أو متعلق به، أي: ابتداؤه منه.

ورفع «نَصْرٌ، وفَتْحٌ» قراءة العامة.

ونصب ابن أبي عبلة الثلاثة. وفيه أوجه ذكرها الزمخشري[٦].

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ٢٥٢).

(٢) ينظر القرطبي ١٨/ ٥٨.

(٣) ينظر الدر المصون ٦/ ٣١٣.

(٤) ينظر: الإملاء ٢/ ١٢٢١.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٥٨.

(٦) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٣، والكشاف ٤/ ٥٢٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٠٤، والبحر المحيط ٨/ ٢٦١.

أحدها: أنها منصوبة على الاختصاص.

الثاني: أن ينتصبن على المصدرية، أي: ينصرون نصراً، ويفتح لهم فتحاً قريباً.

الثالث: أن ينتصبن على البدل من «أُخرَى»، و «أخرى» منصوبة بمقدر كما تقدم، أي يغفر لكم ويدخلكم جنات ويؤتكم أخرى، ثم أبدل منها نصراً وفتحاً قريباً.

فصل في معنى الآية[١]

ومعنى الآية أي: ولكم نصر من الله ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾، أي: غنيمة في عاجل الدنيا قبل فتح مكة. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يريد فتح فارس والروم ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ برضا الله عنهم[٢].

وقال البغوي: «وبشر المؤمنين» يا محمد بالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة.

ثم حضهم على نصر المؤمنين وجهاد المخالفين، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

أي: كونوا حواريِّي نبيكم ليظهركم الله على من خالفكم كما أظهر حواريِّي عيسى على من خالفهم[٣].

قوله: ﴿أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾.

قرأ نافع[٤] **وابن كثير وأبو عمرو**: «أنصاراً»، منوناً «لله» جاراً ومجروراً.

والباقون: «أنصار» غير مُنوَّنٍ، بل مضافاً للجلالة الكريمة.

والرسم يحتمل القراءتين معاً، واللام يحتمل أن تكون مزيدة في المفعول للتقوية لكون العامل فرعاً، إذ الأصل «أنصار اللَّهِ» وأن تكون غير مزيدة، ويكون الجار والمجرور نعتاً لـ «أنصار». والأول أظهر.

وأما القراءة على الإضافة ففرع الأصل المذكور، ويؤيد قراءة الإضافة الإجماع عليها في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ ولم يتصور جريان الخلاف هنا، لأنه مرسوم بالألف[٥].

---

(١) ينظر: القرطبي ١٨/٥٨. (٢) ينظر: تفسير القرطبي (١٨/٥٨).

(٣) ينظر القرطبي (١٨/٥٨).

(٤) ينظر: السبعة ٦٣٥، والحجة ٦/ ٢٩٠، وإعراب القراءات ٢/ ٣٦٥، وحجة القراءات ٧٠٨، ٧٠٩، والعنوان ١٩٠، وشرح الطيبة ٦/ ٥٣، وشرح شعلة ٦٠٢، وإتحاف ٢/ ٥٣٧.

(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٤.

قال القرطبي[١]: قيل: في الكلام إضمار، أي: قل لهم يا محمد: كونوا أنصار الله.

وقيل: هو ابتداء خطاب من الله، أي: كونوا أنصار الله كما فعل أنصار عيسى، فكانوا بحمد الله أنصاراً وكانوا حواريين.

فصل في الحواريين

قال القرطبيُّ[٢]: «الحواريون: خواص الرسل.

قال معمر: كان ذلك بحمد الله تعالى، أي نصروه سبعون رجلاً، وهم الذين بايعوه ليلة العقبة، وقيل هم من قريش، وسماهم قتادة: أبو بكر، وعمر، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وأبو عبيدة واسمه عامر، وعثمان بن مظعون، وحمزة بن عبد المطلب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، ولم يذكر سعيداً فيهم، وذكر جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين».

قوله: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾.

وهم أصفياؤه اثنا عشر رجلاً، وقد مضت أسماؤهم في «آل عمران».

وهم أول من آمن به من بني إسرائيل. قاله ابن عباس[٣].

وقال مقاتل: قال الله لعيسى: إذا دخلت القرية فأتِ النهر الذي عليه القصارون فاسألهم النصرة؛ فأتاهم عيسى وقال لهم: من أنصاري إلى الله؟ فقالوا: نحن ننصرك، فصدقوه ونصروه[٤].

قوله: «كَمَا». فيه أوجه[٥]:

أحدها: أن الكاف في موضع نصب على إضمار القول، أي: قلنا لهم ذلك كما قال عيسى.

الثاني: أنه[٦] نعت لمصدر محذوف تقدير: كونوا كوناً. قاله مكي. وفيه نظرٌ؛ إذ لا يؤمروا بأن يكونوا كوناً.

الثالث: أنه كلام محمول على معناه دون لفظه.

وإليه نحا الزمخشري[٧]، قال: «فإن قلت: ما وجه صحة التشبيه وظاهره تشبيه كونهم أنصاراً بقول عيسى ﷺ من أنصاري؟

---

(١) ينظر: القرطبي ١٨/٥٨، ٥٩.
(٢) ينظر السابق.
(٣) ينظر: القرطبي (١٨/٥٨).
(٤) ينظر تفسير القرطبي (١٨/ ٥٨).
(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٤.
(٦) في ب: إنها.
(٧) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٢٨.

قلت: التشبيه محمُول على المعنى، وعليه يصح، والمراد: كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم: مَنْ أنصَاري إلى اللَّهِ»؟.

وتقدم في «آل عمران» تعدي أنصار بـ «إلى» واختلاف الناس في ذلك.

وقال الزمخشري هنا: «فإن قيل: ما معنى قوله: «مَنْ أنصَارِي إلى اللَّهِ»؟ فالجواب: يجب أن يكون معناه مطابقاً لجواب الحواريين «نَحْنُ أنصَارُ اللَّهِ» والذي يطابقه أن يكون المعنى من جندي متوجهاً إلى نصرة الله، وإضافة أنصاري خلاف إضافة «أنصَار اللَّهِ» فإن معنى «نَحْنُ أنصَارُ اللَّهِ» نحن الذين ينصرون الله، ومعنى «مَنْ أنصَارِي» من الأنصار الذين يختصون بي ويكونون معي في نصرة الله، ولا يصح أن يكون معناه: من ينصرني مع الله لأنه لا يطابق الجواب، والدليل عليه قراءة من قرأ: مَنْ أنصارُ اللَّهِ». انتهى.

يعني: أن بعضهم يدعي أن «إلى» بمعنى «مع» أي من أنصاري مع الله؟!.

وقوله: قراءة من قرأ «أنصَار اللَّهِ»، أي: لو كانت بمعنى «مع» لما صح سقوطها في هذه القراءة.

قال شهاب الدين[(١)]: «وهذا غير لازم، لأن كل قراءة لها معنى يخصها إلا أن الأولى توافق القراءتين».

قوله: ﴿فَـَامَنَت طَّآيِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآيِفَةٌۖ﴾.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعني في زمن عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ[(٢)] وذلك أنه لما رفع تفرق قومه ثلاث فرق: فرقة قالوا كان الله فارتفع، وفرقة قالوا: كان ابن الله فرفعه الله إليه، وفرقة قالوا: كان عبد الله ورسوله فرفعه إليه، وهم المؤمنون، واتبع كل فرقة طائفة من الناس فاقتتلوا فظهرت الفرقتان الكافرتان على المؤمنين حتى بعث الله محمداً ﷺ فظهرت فرقة المؤمنين على الكافرين، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾، غالبين.

وقال مجاهد: أيدوا في زمانهم على من كفر بعيسى؛ والأول أظهر؛ لأن عيسى لم يقاتل أحداً، ولم يكن في دين أصحابه بعده قتال.

وقال زيد بن علي، وقتادة: «فأصْبَحُوا ظاهِرينَ» غالبين بالحُجَّة، والبرهان، لأنهم قالوا فيما روي: ألستم تعلمون أن عيسى كان ينام، والله لا ينام، وأن عيسى كان يأكل، والله تعالى لا يأكل[(٣)].

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٤.

(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٣٨).

(٣) ينظر تفسير القرطبي (١٨/ ٥٩).

وقيل[(١)]: نزلت هذه الآية، في رسل عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال ابن إسحاق: وكان الذي بعثهم عيسى من الحواريين والأتباع بطريس وبولس إلى «رومية»، واندراييس ومتى إلى الأرض التي يأكل أهلها الناس، وتوماس إلى أرض بابل من أرض المشرق، وفيلبس إلى «قرطاجنة»، وهي «إفريقية»، ويحنّس إلى دقسوس قرية أهل «الكهف»، ويعقوبس إلى أورشليم، وهي «بيت المقدس»، وابن تلما إلى العرابية، وهي أرض الحجاز، وسيمن إلى أرض البربر، ويهودا وبروس إلى «الإسكندرية» وما حولها فأيَّدهم الله تعالى بالحجة فأصبحوا «ظاهرين» أي: عالين، من قولك: ظهرت على الحائط أي علوت عليه.

قوله: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾.

من إيقاع الظاهر موقع المضمر مبهماً تنبيهاً على عداوة الكافر للمؤمن، إذ الأصل فأيدناهم عليهم، أي: أيدنا المؤمنين على الكافرين من الطائفتين المذكورتين[(٢)].

روى الثعلبي في تفسيره عن أبيٍّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ سُورة الصَّف كَان عيسَى مُسْتغفِراً لَهُ مَا دَامَ فِي الدُّنْيَا، ويَوْمَ القِيامَةِ هُوَ رَفِيقه»[(٣)].

---

(١) ينظر المصدر السابق.

(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٤.

(٣) تقدم تخريجه مراراً وهو حديث أبي بن كعب الموضوع في فضائل القرآن سورة سورة وقد نص غير واحد من الحفاظ ببطلانه.

سورة الجمعة

[مدنية][١] وهي إحدى عشرة آية، ومائة وثمانون كلمة، وسبعمائة وعشرون حرفاً.

روى مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «خَيْرُ يَوْم طَلَعَتْ فيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الجُمعةِ، فيه خُلِقَ آدَمُ وفيه أدخِلَ الجنَّة وفيهِ أخرِجَ مِنها، ولاَ تقُومُ السَّاعَةُ إلاَّ في يَوْمِ الجُمُعَةِ»[٢].

وعنه قال: قال ﷺ: «نَحْنُ الآخِرُونَ الأوَّلُونَ يوْمَ القِيَامَةِ ونحْنُ أوَّلُ من يَدخُلُ الجنَّة بَيْدَ أنَّهُمْ أوتُوا الكِتابَ مِن قَبْلِنَا وأوتيناهُ مِن بعدِهمْ فاخْتلَفُوا فهَدانَا اللَّهُ لِمَا اخْتلَفُوا فِيهِ مِنَ الحقِّ بإذْنِهِ، فَهَذَا يَوْمُهُمُ الذي اخْتَلفُوا فِيهِ هَدانَا اللَّهُ لَهُ، قَالَ: يَوْمُ الجُمُعَةِ، فاليَوْمُ لَنَا، وغَداً لِلْيَهُودِ وبَعْدَ غَدٍ للنَّصَارَى»[٣].

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تقدم الكلام فيه.

وقوله: ﴿ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

وجه تعلق هذه السورة بما قبلها، هو أنه تعالى قال في أول تلك السورة: «سبَّحَ للَّهِ» بلفظ الماضي وذلك لا يدل على التسبيح في المستقبل، فقال في أول هذه السورة بلفظ [المستقبل][٤] ليدل على التسبيح في الزمن الحاضر والمستقبل.

---

(١) في أ مكية.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) أخرجه مسلم (٢/ ٥٨٥) كتاب الجمعة، باب: هداية هذه الأمة ليوم الجمعة حديث (٢٠/ ٨٨٥) من حديث أبي هريرة.
(٤) في أ: المضارعة.

وأما تعلق الأول بالآخر، فلأنه تعالى ذكر في آخر تلك السورة أنه كان يؤيد أهل الإيمان حتى صاروا غالبين على الكُفَّار وذلك على وفق الحكمة لا للحاجة إليه إذ هو غني على الإطلاق ومنزه عما يخطر ببال الجهلة، وفي أول هذه السورة ذكر على ما يدل على كونه مقدساً، ومنزّهاً عما لا يليق بحضرته العليَّة ثم إذا كان خلق السماوات والأرض بأجمعهم في تسبيح حضرة الله تعالى فله الملك، ولا ملك أعظم من هذا على الإطلاق، ولما كان الملك كله له تعالى فهو الملك على الإطلاق، ولما كان الكل خلقه فهو المالك على الإطلاق[١].

قوله: ﴿ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ﴾.

قرأ العامة: بجر «الملكِ» وما بعده نعتاً لله، والبدل ضعيف لاشتقاقهما.

وقرأ أبو وائل وسلمة بن محارب ورؤبة[٢] بالرفع على إضمار مبتدأ مقتضٍ للمدح.

وقال الزمخشري[٣]: «ولو قرىء بالنصب على حدّ قولهم: الحمد لله أهل الحمد، لكان وجهاً».

وقرأ زيد[٤] بن علي: «القَدُّوس» بفتح القاف، وقد تقدم ذلك. و «يُسَبِّحُ» من جملة ما يجري فيه اللفظان، كـ «شكره وشكر له ونصحه ونصح له وسبحه وسبح له».

فإن قيل: «الحَكِيمُ» يطلق أيضاً على الغير كما يقال في لقمان: إنه حكيم.

فالجواب[٥]: أن الحكيم عند أهل التحقيق هو الذي يضع الأشياء مواضعها، والله تعالى حكيم بهذا المعنى.

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾.

تقدم الكلام في «الأميّ والأميين» جمعه.

و «يَتْلُو» وما بعده صفة لـ «رسول» ﷺ[٦].

قال ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ: «الأميّون» العرب كلهم من كتب منهم ومن لم يكتب؛ لأنهم لم يكونوا أهل كتاب[٧].

وقيل: الأميّون الذين لا يكتبون، وكذلك كانت قريش[٨].

وروى منصور عن إبراهيم قال: «الأمّي» الذي لا يقرأ ولا يكتب.

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٣.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٠٦، والبحر المحيط ٨/ ٢٦٣، والدر المصون ٦/ ٣١٥.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٢٩.

(٤) ينظر قراءات سورة الحشر آية ٢٣.

(٥) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٤.

(٦) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٥.

(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٦٠)، عن ابن عباس وكذا الرازي (٣٠/ ٤).

(٨) ينظر القرطبي (١٨/ ٦٠).

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ الأميون الذين ليس لهم كتاب ولا نبي بعث فيهم[١]، وقيل: الأميون الذين هم على ما خلقوا عليه.

وقرىء[٢]: «الأمين» بحذف ياء النَّسب.

قوله: ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾.

يعني محمداً ﷺ وما من حيّ من العرب إلا ولرسول الله ﷺ فيهم قرابة وقد ولدوه[٣].

وقال ابن إسحاق: إلا بني تغلب، فإن الله طهَّر نبيه ﷺ منهم لنصرانيتهم، فلم يجعل لهم عليه ولادة، وكان أميًّا لم يقرأ من كتاب ولم يتعلّم ﷺ.

قال الماورديُّ[٤]: فإن قيل: فما وجه الامتنان بأن بعث اللَّهُ نبيًّا أميًّا؟.

فالجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: لموافقته ما تقدم من بشارة الأنبياء.

الثاني: لمشاكلة حاله لأحوالهم فيكون أقرب لموافقتهم.

الثالث: لينفي عنه سوء الظن في تعليمه ما دعى إليه من الكتب التي قرأها والحكم التي تلاها.

قال القرطبي[٥]: «وهذا كله دليل معجزته وصدق نبوته».

قوله: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يعني القرآن «ويُزكّيهم» أي: يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان. قاله ابن عباس[٦].

وقيل: يطهرهم من دنس الكفر والذنوب. قاله ابن جريج ومقاتل[٧].

وقال السديُّ: يأخذ زكاة أموالهم، «ويُعَلِّمُهُم الكِتابَ» يعني: القرآن[٨]، «والحكمة» يعني السُّنة. قاله الحسن[٩].

وقال ابن عباس: «الكتاب» الخط بالقلم، لأن الخط إنما نشأ في العرب بالشَّرع لما أمروا بتقييده بالخط[١٠].

وقال مالك بن أنسٍ: «الحكمة» الفقه في الدين.

وقد تقدم في البقرة.

---

(١) ينظر القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٦٠) عن ابن عباس وكذا الرازي (٣٠/ ٤).

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٢٩، والرازي ٣٠/ ٤. (٣) ينظر: القرطبي ١٨/ ٦٠.

(٤) ينظر: النكت والعيون ٦/ ٦. (٥) القرطبي ١٨/ ٦١.

(٦) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٦) والقرطبي (١٨/ ٦١) عن ابن عباس.

(٧) ينظر المصدر السابق. (٨) ينظر المصدر السابق.

(٩) ينظر المصدر السابق. (١٠) ينظر المصدر السابق.

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبله وقبل أن يُرسل إليهم ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في ذهاب عن الحق(١).

فصل في الرد على بعض الشبه

قال ابن الخطيب(٢): احتج أهل الكتاب بهذه الآية، فقالوا: قوله تعالى: ﴿بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ يدل على أنه ـ عليه الصلاة والسلام كان رسولاً إلى الأميين وهم العرب خاصَّة، قال: وهذا ضعيف، فإنه [لا](٣) يلزم من تخصيص الشيء بالذكر نفي ما عداه، ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] أنه لا يفهم منه أنه لا يخطه بشماله، ولأنه لو كان رسولاً إلى العرب خاصة، كان قوله تعالى ﴿كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨] لا يناسب ذلك، وقد اتفقوا على صدق الرسالة المخصوصة فيكون قوله: ﴿كافة للناس﴾ دليلاً على أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان رسولاً إلى الكل.

قوله: ﴿وآخرين منهم﴾ فيه وجهان(٤):

أحدهما: أنه مجرور عطفاً على «الأميين»، أي: وبعث في آخرين من الأميين و «لمَّا يَلحَقُوا بِهِم» صفة لـ «آخرينَ».

والثاني: أنه منصوب عطفاً على الضَّمير المنصوب في «يُعلِّمُهُم».

أي: ويعلم آخرين لم يلحقوا بهم وسيلحقون، فكلّ من تعلم شريعة محمد ﷺ إلى آخر الزَّمان فرسول الله ﷺ معلمه بالقوة؛ لأنه أصل ذلك الخير العظيم والفضل الجسيم.

قوله: ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾.

أي: لم يكونوا في زمانهم وسيجيئون بعدهم(٥).

قال ابن عمر وسعيد بن جبير: هم العجم(٦).

وفي «صحيح البخاري» ومسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نزلت عليه سورة الجمعة، فلما قرأ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ قال رجل: من هؤلاء يا رسول الله؟ فلم يراجعه رسول الله ﷺ حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثاً قال: وفينا سلمان الفارسي قال: فوضع النبي ﷺ يده على سلمان ثم قال: «لَوْ كَانَ

(١) ينظر القرطبي ١٨/ ٦١.
(٢) ينظر: التفسير الكبير ٣٠/ ٤.
(٣) سقط من أ.
(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٥.
(٥) ينظر: القرطبي ١٨/ ٦١.
(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٩٠) عن ابن عمر ومجاهد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٢١) عن مجاهد وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

الإيمانُ عِندَ الثُّريَّا لناله رجالٌ مِنْ هؤلاءِ»، وفي رواية: «لَوْ كَانَ الدِّينُ عندَ الثُّريَّا لذهب بِهِ رجُلٌ من فارسَ، أو قال: مِنْ أبْناءِ فَارِسَ حتَّى يتناولهُ». لفظ مسلم[١].

وقال عكرمة: هم التابعون[٢].

وقال مجاهد: هم الناس كلهم، يعني من بعد العرب الذين بعث فيهم محمد ﷺ[٣].

وقاله ابن زيد ومقاتل بن حيان، قالا: هم من دخل الإسلام بعد النبي ﷺ إلى يوم القيامة[٤].

قال سهل بن سعد الساعدي: إن النبي ﷺ قال: «إنَّ في أصْلاب أمَّتِي رجالاً ونساءً يدخُلونَ الجنَّة بغيرِ حسابٍ» ثم تلا: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ والقول الأول أثبتُ[٥].

وروي عن النبي ﷺ قال: «رأيتُني أسْقِي غَنَماً سُوداً ثُمَّ أتبعتُهَا غَنَماً عُفْراً أوِّلْها يَا أبا بَكْر»، قال: يا نبيَّ الله، أما السُّودُ فالعربُ، وأمَّا العُفْرُ فالعجمُ تتبعُك بعد العربِ، فقال النبي ﷺ: «كَذلِكَ أوَّلها الملك يا أبا بكر» يعني: جبريل عليه السلام، رواه ابن أبي ليلى عن رجل من أصحاب النبي ﷺ وهو علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ[٦].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

قال ابن عباس: حيث ألحق العجم بقريش[٧].

وقيل: يعني: الإسلام فضل الله يؤتيه من يشاء. قاله الكلبي.

وقال مقاتل: يعني الوحي والنبوة[٨].

وقيل: إنه المال ينفق في الطاعة، لما روى أبو صالح عن أبي هريرة: أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: ذهب أهل الدُّثُور بالدَّرجات العلى والنعيم

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٥١٠) كتاب التفسير، باب قوله: «وآخرين منهم لما يلحقوا بهم...» رقم (٤٨٩٧، ٤٨٩٨) ومسلم (٤/ ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣) كتاب فضائل الصحابة، باب: فضل فارس، رقم (٢٣١/ ٢٥٤٦) والترمذي (٥/ ٣٨٥) رقم (٣٣١٠) والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٤٩٠) والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٩٠) من حديث أبي هريرة.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٢١) وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٢١) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٩١) عن ابن زيد.

(٥) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٤١١) وقال: رواه الطبراني وإسناده جيد. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٢١) وزاد نسبته إلى ابن مردويه.

(٦) ينظر تفسير القرطبي (١٨/ ١٦١). (٧) ينظر المصدر السابق.

(٨) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٧).

المقيم، فقال: «ومَا ذَاكَ»، فقالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، فقال رسول الله ﷺ: «أفَلاَ أعلِّمُكُمْ شَيْئاً تُدْركُونَ بِهِ من سَبَقكُمْ وتَسبقُونَ من بَعْدكُمْ ولا يكُونُ أحَدٌ أفضل مِنكُمْ إلاَّ من صَنَعَ مِثْلَ ما صَنَعْتُمْ» قالوا بلى يا رسول الله، قال: «تُسَبِّحُونَ وتُكبِّرُونَ وتحْمدُونَ دُبر كُلِّ صلاةٍ ثلاثاً وثلاثينَ مرَّةً»، قال أبو صالح: فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا من أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: «ذَلِكَ فضْلُ اللَّهِ يُؤتيهِ من يَشَاءُ»[1].

وقيل: إنه انقياد الناس إلى تصديق النبي ﷺ ودخولهم في دينه ونصرته[2].

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾

قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾.

هذه قراءة العامَّة.

وقرأ زيد بن علي ويحيى[3] **بن يعمر**: «حَمَلُوا» مخففاً مبنياً للفاعل.

قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ﴾.

هذه قراءة العامة.

وقرأ عبد[4] **الله**: «حِمَارٍ» منكراً، وهو في قوة قراءة الباقين، لأن المراد بالحمار: الجِنْس ولهذا وصف بالجملة بعده، كما سيأتي[5].

وقرأ المأمون[6] **بن هارون الرشيد**: «يُحَمَّل» مشدداً مبنيًّا للمفعول.

والجملة من «يَحْمِلُ أو يُحَمَّلُ» فيها وجهان[7]:

أشهرهما: أنه في موضع الحال من «الحمار».

---

(١) أخرجه الترمذي (٢/ ٢٦٥) رقم (٤١٠) والنسائي (٣/ ٧٨) من حديث ابن عباس.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.
وقد تقدم تخريجه عن أبي هريرة.

(٢) ينظر القرطبي ١٨/ ٦٢.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٠٧، والبحر المحيط ٨/ ٢٦٣، والدر المصون ٦/ ٣١٥.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٠٧، البحر المحيط ٨/ ٢٦٣، والدر ٦/ ٣١٥.

(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٦، والكشاف ٤/ ٥٣٠.

(٦) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٠٧، والبحر المحيط ٨/ ٢٦٣، والدر المصون ٦/ ٣١٥.

(٧) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٦.

والثاني: أنها في موضع الصفة للحمار، لجريانه مجرى النكرة، إذ المراد به الجنس.

قال الزمخشري[(١)]: أو الجر على الوصف لأن الحمار كاللئيم، في قوله: [الكامل]

٤٧٦٧ ـ وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَى اللَّئِيمِ يَسُبُّنِي ....[(٢)]

وتقدم تحرير ذلك وأن منه عند بعضهم: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ﴾ [يس: ٣٧]، وأن «نسلخ» نعت لليل، والجمهور يجعلونه حالاً للتعريف اللفظي.

وأما على قراءة عبد الله: فالجملة وصف فقط، ولا يمتنع أن تكون حالاً عند سيبويه[(٣)]. والأسفار: جمع سفر، وهو الكتاب المجتمع الأوراق.

فصل في تفسير هذا المثل[(٤)]

هذا مثل ضرب لليهود لما تركوا العمل بالتوراة، ولم يؤمنوا بمحمد ﷺ «حُمِّلُوا التَّوراةَ» أي: كلفوا العمل بها. قاله ابن عباس[(٥)].

وقال الجرجاني: هو من الحمالة بمعنى الكفالة، أي: ضمنوا أحكام التوراة.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾.

لم يعملوا بما فيها ولم يؤدّوا حقها «كَمثَلِ الحِمارِ يَحْمِلُ أسْفَاراً» أي: كتباً من العلم، واحدها سفر.

قال الفرَّاء[(٦)]: هي الكتب العظام، لأنها تسفر عما فيها من المعاني إذا قرئت، ونظيره: شبر وأشبار.

يعني كما أن الحمار يحملها ولا يدري ما فيها ولا ينتفع بها كذلك اليهود يقرأون التوراة ولا ينتفعون بها، لأنهم خالفوا ما فيها.

قال ميمون بن مهران: الحمار لا يدري أسفر على ظهره أم زبيل، كذلك اليهود، وفي هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه ويعمل به لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء[(٧)].

قال الشاعر: [الطويل]

٤٧٦٨ ـ لَعَمْرُكَ ما يَدْرِي البَعِيرُ إذَا غَدَا ... بِأوسَاقِهِ أوْ رَاحَ مَا فِي الغَرَائِرِ[(٨)]

---

(١) الكشاف ٤/ ٥٣٠.
(٢) تقدم.
(٣) ينظر: الكتاب ١/ ١٩٩.
(٤) ينظر: القرطبي ١٨/ ٦٢.
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٦٢) عن ابن عباس.
(٦) ينظر: معاني القرآن للفراء ٣/ ١٥٥.
(٧) ينظر: القرطبي ١٨/ ٦٢.
(٨) البيت لمروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة.
ينظر القرطبي ١٨/ ٩٥، والبحر ٨/ ٢٦٣.

قوله: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾ فيه أوجه[١]:

أحدها: وهو المشهور أن «مثَلُ القَوْم» فاعل «بِئْسَ» والمخصوص [بالذم الموصول بعده، وهذا مشكل؛ لأنه لا بد من تصادق فاعل «نعم وبئس» والمخصوص هنا: «المثل» ليس بالقوم المكذبين][٢].

والجواب: أنه على حذف مضاف، أي: بئس مثل القوم مثل الذين كذبوا.

الثاني: أن «الَّذينَ» صفة للقوم فيكون مجرور المحلّ، والمخصوص بالذَّم محذوف لفهم المعنى، تقديره: بئس مثل القوم المكذبين مثل هؤلاء، وهو قريب من الأول.

الثالث: أن الفاعل محذوف، وأن «مثل القوم» هو المخصوص بالذَّم، وتقديره: بئس المثل مثل القوم، ويكون الموصول نعتاً للقوم أيضاً، وإليه ينحو كلام ابن عطية فإنه قال: والتقدير «بئس المثل مثل القوم».

وهذا فاسد: لأنه لا يحذف الفاعل عند البصريين إلاَّ في مواضع ثلاثة ليس هذا منها، اللهم إلا أن يقول بقول الكوفيين.

الرابع: أن يكون التمييز محذوفاً، والفاعل المفسر به مستتر، تقديره: «بئس مثلاً مثل القوم» وإليه ينحو كلام الزمخشري فإنه قال[٣]: «بئس مثلاً مثل القوم».

فيكون الفاعل مستتراً مفسراً بـ «مَثَلاً»، و «مثلْ القَوْم» هو المخصوص بالذم، والموصول صفة له، وحذف التمييز، وهذا لا يجيزه سيبويه وأصحابه ألبتة[٤].

نصوا على امتناع حذف التمييز، وكيف يحذف وهو مبين[٥].

فصل

قال ابن الخطيب[٦]: فإن قيل: ما الحكمة في تعيين الحمار من دون سائر الحيوانات؟.

فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه تعالى خلق الخيل والبغال والحمير للركوب والزينة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨٧]، والزينة في الخيل أظهر وأكثر بالنسبة إلى الركوب والحمل عليه، وفي البغال دون الخيل، وفي الحمير دون البغال، فالحمار كالمتوسط في المعاني الثلاثة، وحينئذ يكون الحمار في معنى الحمل أظهر

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٦.
(٢) في أ هنا: بئس القوم الذين كذبوا.
(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٣٠.
(٤) ينظر: الكتاب ١/ ٣٠٠.
(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٦.
(٦) ينظر: التفسير الكبير ٣٠/ ٦.

وأغلب بالنسبة إلى الخيل والبغال وغيرهما من الحيوانات.

وثانيها: أن هذا التمثيل لإظهار الجهل والبلادة لأولئك القوم، والحمار يمثل به في الجهل والبلادة.

وثالثها: أن في الحمار من الحقارة ما ليس في غيره من الحيوانات. والغرض من الكلام هاهنا تحقير القوم وتعييرهم، فيكون تعيين الحمار أليق.

ورابعها: أن حمل الأسفار على الحمار أسهل وأعمّ وأسهل لسرعة انقياده، فإنه ينقاد للصبي الصغير من غير كلفة، وهذا من جملة ما يوجب حسن الذكر بالنسبة إلى غيره.

وخامسها: أن رعاية الألفاظ والمناسبة من لوازم الكلام [وبين][١] لفظ الأسفار والحمار مناسبة لفظية [لا توجد][٢] في غيره من الحيوانات فيكون ذكره أولى.

فصل

قال القرطبي[٣]: «معنى الكلام: بئس مثل القوم المثل الذي ضربناه لهم فحذف المضاف ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب الأنبياء يعني من سبق في علمه أنه يكون كافراً».

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾

قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾. أي: من دون محمَّد وأصحابه. لما ادعت اليهود الفضيلة، وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، قال الله تعالى: ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ فللأولياء عند الله الكرامة ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ لتصيروا إلى ما يصير إليه أولياء الله[٤].

قوله: ﴿أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ﴾.

سادّ مسد المفعولين أو المفعول على الخلاف، و «لله» متعلق بـ «أولياء» أو بمحذوف نعتاً لـ «أولياء»، و «من دون الناس» كذلك.

قوله: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾. جواب الشَّرط[٥].

---

(١) سقط من أ.
(٢) في أ: لأنه.
(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٦٣.
(٤) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٦٣.
(٥) زاد في أ: الأول.

والعامة: بضم الواو وهو في الأصل واو الضمير.

وابن السميفع وابن يعمر وابن إسحاق(١): بكسرها، وهو أصل التقاء السَّاكنين.

وابن السميفع أيضاً(٢): بفتحها وهذا طلب للتخفيف.

وتقدم نحوه في: ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ﴾ [البقرة: ١٦].

وحكى الكسائي إبدال الواو همزة.

قوله: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾، وقال في البقرة: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾ [البقرة: ٩٥].

قال الزمخشري(٣): لا فرق بين «لا» و «لن» في أنَّ كل واحد منهما نفي للمستقبل إلا أن في «لن» تأكيداً وتشديداً ليس في «لا» فأتي مرة بلفظ التأكيد «ولن يتمنوه» ومرة بغير لفظه «ولا يتمنونه».

قال أبو حيان(٤): «وهذا رجوع عن مذهبه وهو أن «لن» تقتضي النفي على التأبيد إلى مذهب الجماعة وهو أنها لا تقتضيه».

قال شهاب الدين(٥): وليس فيه رجوع، غاية ما فيه أنه سكت عنه، وتشريكه بين «لا» و «لن» في نفي المستقبل لا ينفي اختصاص «لن» بمعنى آخر.

وتقدم الكلام على هذا مشبعاً في «البقرة».

فصل

المعنى: «ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم» أي: أسلفوه من تكذيب محمد ﷺ فلو تمنوه لماتوا، فكان ذلك بطلان قولهم وما ادعوه من الولاية(٦).

قال عليه الصلاة والسلام لما نزلت هذه الآية: «والذي نفسي بيده لو تمنوا الموت ما بقي على ظهرها يهودي إلا مات»(٧).

وفي هذا إخبار عن الغيب ومعجزة للنبيّ ﷺ، وقد مضى الكلام على هذه الآية في «البقرة» عند قوله: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ [البقرة: ٩٤].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ﴾.

---

(١) ينظر المحرر الوجيز ٥/ ٣٠٨ والبحر المحيط ٨/ ٢٦٤، والدر المصون ٦/ ٣١٦.

(٢) ينظر السابق.

(٣) الكشاف ٤/ ٥٣١.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٢٦٤.

(٥) الدر المصون ٦/ ٣١٧.

(٦) ينظر: القرطبي ١٨/ ٦٣.

(٧) تقدم.

في هذه الفاء وجهان[١]:

أحدهما: أنها داخلةٌ لما تضمنه الاسم من معنى الشرط، وحكم الموصوف بالموصول حكم الموصول في ذلك.

قال الزجاج[٢]: ولا يقال: إنَّ زيداً فمنطلق، وهاهنا قال: «فإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ» لما في معنى «الذي» من الشرط والجزاء، أي: فررتم منه فإنه ملاقيكم، وتكون مبالغة في الدلالة على أنه لا ينفع الفرار منه.

الثاني: أنها مزيدة محضة لا للتضمين المذكور.

وأفسد هؤلاء القول الأول بوجهين:

أحدهما: أن ذلك إنما يجوز إذا كان المبتدأ أو اسم إن موصولاً، واسم «إن» هنا ليس بموصول، بل موصوفاً بالموصول.

والثاني: أن الفرار من الموت لا ينجي منه فلم يشبه الشرط يعني أنه متحقق فلم يشبه الشرط الذي هو من شأنه الاحتمال.

وأجيب عن الأول: بأن الموصوف مع صفته كالشيء الواحد؛ ولأن «الذي» لا يكون إلا صفة، فإذا لم يذكر الموصوف دخلت الفاء، والموصوف مراد، فكذلك إذا صرح بها.

وعن الثاني: بأن خلقاً كثيراً يظنون أن الفرار من أسباب الموت ينجيهم إلى وقت آخر.

وجوز مكي[٣]: أن يكون الخبر قوله: ﴿ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ وتكون الفاء جواب الجملة قال: كما تقول: «زيد منطلق فقم إليه».

وفيه نظر؛ لأنه لا ترتب بين قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ وبين قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ فليس نظيراً لما مثله[٤].

قال القرطبي[٥]: ويجوز أن يتم الكلام عند قوله: ﴿ٱلَّذِى تَفِرُّونَ﴾ ثم يبدأ بقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾.

وقرأ زيد بن[٦] علي: «إنَّهُ» بغير فاء.

وفيها أوجه[٧]:

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٧.
(٢) ينظر: معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٧١.
(٣) ينظر المشكل ٢/ ٧٣٤.
(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٧.
(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٦٣.
(٦) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٣١، والبحر المحيط ٨/ ٢٦٤، والدر المصون ٦/ ٣١٧.
(٧) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٧.

أحدها: أنه مستأنف، وحينئذ يكون الخبر نفس الموصول، كأنه قيل: فإن الموت هو الشيء الذي تفرّون منه. قاله الزمخشري(١).

الثاني: أن الخبر الجملة من قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ وحينئذ يكون الموصول نعتاً للموت.

الثالث: أن يكون «إنه» تأكيد، لأن الموت لما طال الكلام أكد الحرف تأكيد لفظياً، وقد عرف أنه لا يؤكد كذلك إلا بإعادة ما دخل عليه أو بإعادة ضميره، فأكد بإعادة ضمير ما دخلت عليه «إن».

وحينئذ يكون الموصول نعتاً للموت، و «ملاقيكم» خبره، كأنه قيل: إن الموت إنه ملاقيكم.

وقرأ ابن مسعود(٢): «ملاقيكم» من غير «فإنه».

فإن قيل: الموت ملاقيهم على كل حال فروا أو لم يفروا، فما معنى الشرط والجزاء؟.

فالجواب(٣): أنَّ هذا على جهة الرَّد عليهم إذ ظنوا أن الفرار ينجيهم، ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهذا وعيد بليغ وتهديد شديد(٤).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (١١)﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ الآية.

قرأ العامة: «الجُمُعَة» بضمتين.

وقرأ عبد الله(٥) بن الزبير وزيد بن علي والأعمش وأبو حيوة وأبو عمرو في رواية بسكون الميم.

فقيل: هي لغة في الأولى وسكنت تخفيفاً وهي لغة تميم.

وقيل: هو مصدر بمعنى الاجتماع.

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٣١.
(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٣١، والرازي ٣٠/ ٧.
(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٨.
(٤) ينظر السابق ٣٠/ ٧.
(٥) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٠٨، والبحر المحيط ٨/ ٢٦٤، والدر المصون ٦/ ٣١٨، والتخريجات النحوية ٣٠٥.

وقيل: لما كان فيه معنى الفعل صار «كرجل هُزَأة» أي: يُهزأ به، فلما كان في «الجمعة» معنى التجمع أسكن؛ لأنه مفعول به في المعنى أو يشبهه، فصار كـ «هزأة» الذي يهزأ به. قاله مكي[(١)].

وكذا قال أبو البقاء[(٢)]: هو بمعنى المجتمع فيه، مثل: رجل ضحكة، أي يضحك منه.

وقال مكي: يجوز إسكان الميم استخفافاً، وقيل: هي لغة.

وقد تقدم أنها قراءة وأنها لغة تميم.

وقال أبو حيان[(٣)]: «ولغة بفتحها لم يقرأ بها».

قال شهاب الدين[(٤)]: «قد نقلها أبو البقاء قراءة، فقال: ويقرأ ـ بفتح الميم ـ بمعنى الفاعل، أي: يوم المكان الجامع، مثل: رجل ضحكة، أي: كثير الضحك».

وقال مكي[(٥)]: «وفيه لغة ثالثة ـ بفتح الميم ـ على نسبة الفعل إليها كأنها تجمع الناس، كما يقال: «رجل لحنة» إذا كان يلحن الناس، وقرأة إذا كان يقرىء الناس»، ونقلها قراءة أيضاً الزمخشري، إلا أن الزمخشري[(٦)] جعل «الجمعة» ـ بالسكون ـ هو الأصل، وبالمضموم مخففاً منه يقال: يوم الجمعة، يوم الفوج المجموع، كقولهم: «ضُحَكَة» للمضحوك منه، ويوم الجمعة ـ بفتح الميم ـ يوم الوقت الجامع، كقولهم: ضحكة ولعبة، ويوم الجمعة، كما قيل: عُسَرة في عُسْرة، وقرىء بهن جميعاً.

وتقديره: يوم الوقت الجامع أحسن [من تقدير أبي البقاء يوم][(٧)] المكان الجامع؛ لأن نسبة الجمع إلى الطرفين مجاز، فالأولى إبقاؤه زماناً على حاله[(٨)].

قال القرطبي[(٩)]: «وجمعها جُمع وجُمعان».

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: نزل القرآن بالتثقيل والتفخيم، فاقرأوها «جمعة» يعني بضم الميم[(١٠)].

---

(١) ينظر: المشكل ٢/ ٧٣٤.
(٢) ينظر: الإملاء ٢/ ١٢٢٣.
(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٦٤.
(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٨.
(٥) ينظر: المشكل ٢/ ٧٣٤.
(٦) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٣٢.
(٧) سقط من أ.
(٨) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٨، وقال الزجاج: «وقرئت الجُمْعَة ـ بإسكان الميم ـ ويجوز في اللغة الجُمَعة ـ بفتح الميم ـ ولا ينبغي أن يقرأ بها إلا أن تثبت بها رواية عن إمام من القراء. فمن قرأ الجمْعَة فهو تخفيف الجُمُعَة، لثقل الضمتين، ومن قال في غير القراءة الجُمَعَةِ، فمعناه التي تجمع الناس، كما تقول: رجل لُعَنَة، أي يكثر لَعْن الناس، ورجل ضُحَكَة، يكثر الضحك». ينظر معاني القرآن ٥/ ١٧١.
(٩) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٦٤.
(١٠) ينظر القرطبي (١٨/ ٦٢).

وقال الفرَّاء وأبو عبيد: والتخفيف أحسن وأقيس، نحو: غُرْفة وغُرَف، وطُرْفة وطُرَف وحُجرة وحُجَر وفتح الميم لغة بني عقيل. وقيل: إنها لغة النبي ﷺ.

فصل في الكلام على الآية

فإن قيل: قال ابن الخطيب[1]: قوله: «للصَّلاةِ»، أي: لوقت الصلاة، بدليل قوله: ﴿مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ ولا تكون الصلاة من اليوم وإنما يكون وقتها من اليوم.

فالجواب: روى سلمان أن النبي ﷺ قال: «إنَّمَا سُمِّيتْ جُمعَةً لأنَّ اللَّهَ جَمَعَ فِيهَا خلقَ آدَمَ»[2].

وقيل: لأن الله ـ تعالى ـ فرغ فيها من خلق كل شيء فاجتمع فيها جميع المخلوقات. وقيل: لتجتمع الجماعات فيها. وقيل: لاجتماع النَّاس فيها للصلاة.

قوله: ﴿مِن يَوۡمِ﴾.

«من» هذه بيان لـ «إذا» وتفسير لها. قاله الزمخشري[3].

وقال أبو البقاء[4]: إنها بمعنى «في» أي: في يوم، كقوله تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ٤٠]، أي: في الأرض.

فصل في أول من قال أما بعد وسمى الجمعة

قال القرطبي[5] رحمه الله تعالى: قال أبو سلمة: أول من قال: أما بعد، كعب بن لؤي وكان أول من سمى الجمعة جمعة لاجتماع قريش فيه إلى كعب، وكان يقال ليوم الجمعة: العروبة.

وقيل: أول من سماها جمعة: الأنصار.

قال ابن سيرين: جمَّع أهل «المدينة» من قبل أن يقدم النبي ﷺ المدينة، وقبل أن تنزل الجمعة، وهم الذين سموها الجمعة، وذلك أنهم قالوا: إن اليهود يجتمعون فيه في كل سبعة أيام وهو يوم السَّبت، وللنصارى يوم مثل ذلك وهو الأحد، فتعالوا فلنجتمع حتى نجعل يوماً لنا نذكر الله فيه ونصلي فيه ونستذكر، فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٨.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٩) والحاكم (١/ ٢٧٧) من حديث سلمان وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٢٣) وزاد نسبته إلى النسائي وسعيد بن منصور وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٣٢.

(٤) ينظر: الإملاء ٢/ ١٢٢٣، والدر المصون ٦/ ٣١٨.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٦٤.

الأحد للنصارى، فاجعلوه يوم العروبة، فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلى بهم يومئذ ركعتين وذكّرهم، فسموه يوم الجمعة حين اجتمعوا، فذبح لهم أسعد شاةً فتعشَّوا وتغدَّوا منها لقلتهم فهذه أول جمعة في الإسلام.

وروي أنهم كانوا اثني عشر رجلاً[١].

وقال البيهقي: وروينا عن موسى بن عقبة عن الزهري أن مصعب بن عمير كان أول من جمع الجمعة للمسلمين بالمدينة قبل أن يقدمها النبي ﷺ[٢] قال البيهقي: يحتمل أن يكون مصعب جمع بهم بمعونة أسعد بن زرارة، فأضافه كعب إليه.

وروي عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه كعب: أنه كان إذا سمع النداء يوم الجمعة ترحَّم لأسعد بن زرارة، فقلت له: إذا سمعت النداء ترحمت لأسعد بن زرارة قال: لأنه أول من جمع بنا في هزم النَّبيت من حرَّة بني بياضة في بقيع يقال له: بَقِيعُ الخضمات، قلت له: كم كنتم يومئذ؟ قال: أربعين[٣].

ذكره البغوي.

وأما أول جمعة جمعها النبي ﷺ بأصحابه، [فقال أهل السير[٤]: قدم رسول الله ﷺ][٥] مهاجراً حتى نزل بـ «قباء» على بني عمرو بن عوف يوم الاثنين لاثنين عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول حين اشتد الضحى، ومن تلك السَّنة يُعَدُّ التاريخ فأقام بها إلى يوم الخميس وأسس مسجدهم، ثم خرج يوم الجمعة إلى المدينة فأدركته في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم اتخذ القوم في ذلك الموضع مسجداً، فجمع بهم

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٦٤.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٢٦ وقال: أخرجه الدارقطني عن ابن عباس قال أذن النبي ﷺ الجمعة قبل أن يهاجر، ولم يستطع أن يجمع بمكة، فكتب إلى مصعب بن عمير: أما بعد، فانظر اليوم الذي يجهر فيه اليهود بالزبور، فاجمعوا نساءكم وأبناءكم، فإذا مال النهار عن شطره عند الزوال من يوم الجمعة فتقربوا إلى الله بركعتين. فهو أول من جمع حتى قدم النبي المدينة فجمع بعد الزوال من الظهر، وأظهر ذلك.

وأخرجه ابن سعد في الطبقات ٣/ ٨٨ من طريق سفيان عن ابن جريج عن عطاء قال: أول من جمع بالمدينة رجل من بني عبد الدار. قال قلت بأمر النبي ﷺ؟ قال: الفم، فَمَهْ؟ قال سفيان: يقول: وهو مصعب بن عمير.

وذكره الهيثمي في المجمع ٢/ ١٧٩ وقال: رواه الطبراني في الأوسط والكبير، وفيه صالح بن أبي الأخضر، وفيه كلام.

وينظر طبقات ابن سعد ٣/ ٨٧، ٨٨.

(٣) أخرجه أبو داود ١/ ٣٤٨ في الصلاة، (١٠٦٩) وابن ماجه (١/ ٣٤٤) في إقامة الصلاة (١٠٨٤) والبيهقي ٣/ ١٧٦، وذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٣٤١.

(٤) ينظر: القرطبي ١٨/ ٦٥.

(٥) سقط من أ.

وخطب، وهي أول جمعة خطبها بالمدينة، وقال فيها: «الحَمْدُ لِلَّهِ، أحْمَدُهُ، وأسْتَعِينُهُ، وأسْتَغفِرُهُ وأسْتَهْدِي بِهِ، وأومِنُ بِهِ ولا أكْفُرُهُ، وأعَادِي من يَكْفُرُ بِهِ، وأشْهَدُ ألا إلهَ إلاَّ اللَّهُ وحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وأشْهَدُ أنَّ مُحَمداً عَبْدُهُ ورسُولُهُ، أرْسلَهُ اللَّهُ بالهُدَى ودَينِ الحَقِّ ليظهره على الدين كله والنُّورِ والمَوعِظَةِ والحِكْمَةِ، على فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وقلَّةِ العِلْمِ وضَلالَةٍ مِنَ النَّاسِ، وانقِطاعٍ مِنَ الزَّمانِ، ودُنُوٍّ مِنَ السَّاعةِ، وقُرْبٍ مِنَ الأجلِ؛ مَن يُطِعِ الرَّسُول فَقَدْ رَشَدَ ومن يَعْصِي اللَّهَ ورسُولَهُ فَقَدْ غَوَى وفرَّطَ وضَلَّ ضلالاً بَعِيداً. وأوصِيكُمْ بتَقْوَى اللَّهِ فإنَّهُ خَيْرُ ما أوصيكم وخير ما أوصى بِهِ المُسْلِمُ المُسْلِمَ أنْ يَحُضَّهُ على الآخِرةِ وأنْ يأمرهُ بتَقْوَى اللَّهِ، واحْذَرُوا ما حذَّرَكُمُ اللَّهُ من نَفْسِهِ، فإنَّ تَقْوَى اللَّهِ مِنْ عَمِلَ بِهِ على وجَلٍ ومخَافَةٍ من ربِّهِ عُنْوانُ صِدْقٍ عَلَى مَا تَبْغُونَ مِنَ الآخِرةِ ومَن يُصْلِح الذي بَيْنَهُ وبَيْنَ اللَّهِ مِنْ أمْرِهِ في السِّرِّ والعَلانِيَةِ لا يَنْوِي بِهِ إلاَّ وجْهَ اللَّهِ يَكُنْ لَهُ ذِكْراً في عَاجِلِ أمْرِهِ وذُخْراً فِيمَا بَعْدَ المَوْتِ حِينَ يَفْتَقِرُ المَرْءُ إلى ما قدَّم ومَا كَانَ ممَّا سِوَى ذلك ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

هُوَ الَّذي صدقَ قولَهُ، وأنجزَ وعْدَهُ، لا خُلْفَ لذَلِكَ فإنَّه يقولُ: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [سورة ق: ٢٩].

فاتَّقُوا اللَّهِ في عاجلِ أمْرِكُمْ وآجلِهِ، فِي السِّرِّ والعلانيةِ، فإنَّهُ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

ومَنْ يتَّقِ اللَّهَ فقد فَازَ فَوْزاً عَظِيماً.

وإنَّ تَقْوَى اللَّهِ تُوقِي مقْتَهُ وتُوقِي عُقوبتَهُ وتُوقِي سُخْطَهُ، وإنَّ تَقْوَى اللَّه تُبَيِّضُ الوُجُوه وتُرْضِي الرَّبَّ، وترفعُ الدَّرجة، فخُذُوا حِذْرَكُمْ ولا تُفرِّطُوا في جَنْبِ اللَّهِ فقدْ عَلَّمَكُمْ في كتابهِ ونَهجَ لَكُمْ سبيلهُ، ليَعْلَمَ الَّذينَ صَدَقُوا وليَعْلَمَ الكَاذِبِينَ، فأحْسِنُوا كَمَا أحسن اللَّهُ إليْكُمْ، وعادُوا أعْدَاءهُ، وجَاهِدُوا في اللَّهِ حقَّ جِهَادِهِ هُو اجتبَاكُمْ وسمَّاكُمْ المُسلِمينَ، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ﴾ [الأنفال: ٤٢]، ولا حَوْلَ ولا قُوَّة إلاَّ باللَّهِ العليِّ العظيم، فأكْثِرُوا من ذِكْرِ اللَّهِ تعالى واعْمَلُوا لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، فإنَّه من يُصْلِحْ ما بَيْنَهُ وبَيْنَ اللَّهِ يَكْفِهِ اللَّهِ مَا بَيْنَه وبيْنَ النَّاسِ، ذلِكَ بأنَّ اللَّهِ يَقْضِي بَيْنَ النَّاسِ ولا يَقْضُون عليْهِ، ويَمْلِكُ مِنَ النَّاسِ ولا يَمْلِكُونَ مِنْهُ، اللَّهُ أكبرُ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ باللَّهِ العَلِيِّ العَظِيم»[1].

فصل في خطاب الله للمؤمنين

خاطب اللَّهِ المؤمنين بالجمعة دون الكافرين تشريفاً لهم وتكريماً، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (١٨/ ٦٥).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، ثُمَّ خصه بالنِّداء وإن كان قد دخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٥٨] ليدلّ على وجوبه وتأكيد فرضه[١].

وقال بعض العلماء: كون الصَّلاة الجمعة ها هنا معلُوم بالإجماع لا من نفس اللفظ.

وقال ابن العربي[٢]: «وعندي أنه معلوم من نفس اللفظ بنكتة، وهي قوله: «مِن يَوْمِ الجُمعَةِ» وذلك يفيده لأن النداء الذي يختصّ بذلك اليوم هو نداء تلك الصلاة، وأما غيرها فهو عام في سائر الأيام، ولو لم يكن المراد به نداء الجمعة لما كان لتخصيصه بها وإضافته إليها معنى ولا فائدة».

فصل

كان الأذان على عهد رسول الله ﷺ كما في سائر الصلوات مؤذن واحد إذا جلس النبي ﷺ على المنبر أذن مؤذن رسول الله ﷺ، وكذلك فعل أبو بكر وعمر وعلي بـ «الكوفة» ثم زاد عثمان أذاناً ثانياً على داره التي تسمى الزوراء حين كثر الناس بالمدينة، فإذا سمعوا أقبلوا حتى إذا جلس عثمان على المنبر أذّن مؤذن رسول الله ﷺ ثم يخطب عثمان. أخرجه ابن ماجه في سننه[٣].

وقال الماوردي[٤]: فأما الأذان الأول فمحدث، فعله عثمان بن عفّان ليتأهب النّاس لحضور الخطبة عند اتساع «المدينة» وكثرة أهلها، وقد كان عمر ـ رضي الله عنه ـ أمر أن يؤذن في السوق قبل المسجد ليقوم الناس عن بيوعهم، فإذا اجتمعوا أذن في المسجد فجعله عثمان ـ رضي الله عنه ـ أذانين في المسجد.

قال ابن العربي[٥]: وفي الحديث الصحيح: أن الأذان كان على عهد رسول الله ﷺ واحداً، فلما كان زمن عثمان زاد النداء الثالث على الزوراء، وسماه في الحديث[٦]: ثالثاً، لأنه إضافة إلى الإقامة، لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ «بَيْنَ كُلِّ أذَانَينِ صلاةٌ لِمن شَاءَ» يعني الأذان والإقامة.

وتوهّم بعض الناس أنه أذان أصلي، فجعلوا المؤذنين ثلاثة، فكان وَهْماً، ثم جمعوهم في وقت واحد فكان وهماً على وهم[٧].

قوله: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) ينظر: القرطبي ١٨/ ٦٦.
(٢) ينظر: أحكام القرآن ٤/ ١٨٠٤.
(٣) أخرجه ابن ماجه (١/ ٣٥٩) كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب: ما جاء في الأذان يوم الجمعة (١١٣٥).
(٤) ينظر: النكت والعيون ٦/ ٩.
(٥) ينظر: أحكام القرآن ٤/ ١٨٠٣.
(٦) تقدم.
(٧) ينظر القرطبي ١٨/ ٦٦.

قيل: المراد بالسعي هنا القصد. قال الحسن: والله ما هو بسعي على الأقدام ولكنه سعي بالقلوب والنية.

وقال الجمهور: السعي العمل كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء: ١٩]، وقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [من سورة الليل]، وقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩].

والمعنى: فاعملوا على المضي إلى ذكر الله واشتغلوا بأسبابه من الغسل والطهر والتوجه إليه.

وقيل: المراد به السعي على الأقدام، وذلك فضل، وليس بشرط، لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مَن اغبرَّتْ قَدمَاهُ في سبيل اللَّهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلى النَّارِ»(١).

قال القرطبي(٢): «ويحتمل ظاهره وجهاً رابعاً، وهو الجري والاشتداد».

قال ابن العربي(٣): وهو الذي أنكره الصَّحابة والفقهاء الأقدمون، **فقرأها**(٤) عمر ـ رضي الله عنه ـ: «فامضُوا إلى ذِكرِ اللَّهِ» فرارا عن طريق الجري والاشتداد الذي يدل عليه الظاهر.

وقرأ ابن مسعود كذلك، وقال: لو قرأت: «فاسْعَوا» لسعيت حتى يسقط ردائي.

وقال ابن شهاب: [فامضوا](٥) إلى ذكر الله، سالكاً تلك السبيل، وهو كله تفسير منهم لا قراءة قرآن منزل، وجائز قراءة القرآن بالتفسير في معرض التفسير.

قال أبو بكر بن الأنباري: وقد احتج من خالف المصحف بقراءة عمر وابن مسعود، وأن خرشة بن الحر قال: رآني عمر ـ رضي الله عنه ـ ومعي قطعة فيها: «فاسْعَوا إلى ذِكْرِ اللَّهِ» فقال عمر: من أقرأك هذا؟ قلت: أبيٌّ، فقال: إن أبيًّا أقرؤنا للمنسوخ ثم قرأ عمر: «فامضُوا إلى ذِكْرِ اللَّهِ».

وقال الفراء وأبو عبيدة: معنى السَّعي في الآية المضي للجمعة.

واحتج الفراء بقولهم: هو يسعى في البلاد يطلب فضل الله(٦).

واحتج أبو عبيدة بقول الشاعر: [السريع]

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٤٥٣) كتاب الجمعة، باب: المشي إلى الجمعة رقم (٩٠٧) والترمذي (١٦٣٢) والنسائي(٦/ ١٤) من حديث أبي عيسى بن جبر.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٦٧.

(٣) ينظر: أحكام القرآن ٤/ ١٨٠٤.

(٤) وقرأ بها عليّ وأبيّ وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وابن الزبير، وجماعة من التابعين كما في المحرر الوجيز ٥/ ٣٠٩، والبحر المحيط ٨/ ٢٦٥، والقرطبي ١٨/ ٦٧.

(٥) في أ: فاسعوا.

(٦) ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ١٥٦.

٤٧٦٩ ـ أَسْعَىٰ عَلَىٰ جِدِّ بَنِي مَالِكٍ كُلُّ امْرِئٍ فِي شَأْنِهِ سَاعِ[(١)]

فهل يحتمل السعي في هذا البيت المضي والانكماش، ومحال أن يخفى هذا المعنى على ابن مسعود وعلى فصاحته وإتقان عربيته.

قال القرطبي[(٢)]: وما يدلّ على أن المراد هنا العدو، قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلاةُ فَلاَ تَأْتُوهَا وأنتُمْ تَسْعونَ ولكِن ائتُوهَا وعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ»[(٣)].

قال الحسنُ رضي الله عنه: أما والله ما هو بالسَّعْي على الأقدام، ولقد نهوا أن يأتوا الصَّلاة إلا وعليهم السكينة والوقار، ولكن بالقلوب والنية والخشوع.

وقال قتادة: السعي أن تسعى بقلبك وعملك[(٤)].

فصل في أن الآية خطاب للمكلفين

هذه الآية خطاب للمكلفين [بالإجماع][(٥)] ويخرج منه المرضى والزمنى والمسافرون والعبيد والنساء بالدليل والعميان والشيخ الذي لا يمشي إلا بقائد عند أبي حنيفة[(٦)].

لما روى الدارقطني عن أبي الزبير عن جابر أن رسول الله ﷺ قال «مَنْ كَانَ يُؤمِنُ باللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَعلَيْهِ الجُمُعة يَوْمُ الجُمُعَةِ إلاَّ مَرِيضٌ أو مُسافِرٌ أو امْرَأَةٌ أَوْ صَبِيٌّ أو مَمْلوكٌ، فمَن اسْتَغْنَى بِلَهْوٍ أو تجارة اسْتَغْنَى اللَّهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ عَنْهُ، واللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ»[(٧)].

قال العلماء رضي الله عنهم: لا يتخلف أحد عن الجمعة ممن عليه إتيانها إلا بعذر لا يمكنه معه الإتيان إليها كالمرض الحابس أو خوف الزيادة في المرض أو خوف جور

---

(١) يروى جل مكان جد.
ينظر: القرطبي ١٨/ ٦٧، واللسان (سعى).
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٦٧.
(٣) تقدم.
(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٢٨) وعزاه إلى عبد بن حميد والبيهقي في «شعب الإيمان» عن قتادة.
(٥) في أ: بالجمعة.
(٦) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٦٨.
(٧) أخرجه الدارقطني (٢/ ٣) كتاب الجمعة، باب: من تجب عليه الجمعة رقم (١) والبيهقي (٣/ ١٨٤) من طريق ابن لهيعة ثني معاذ بن محمد الأنصاري عن أبي الزبير عن جابر به.
قال شمس الحق آبادي في «التعليق المغني»: وفيه ابن لهيعة عن معاذ بن محمد الأنصاري وهما ضعيفان.
وللحديث شاهد من حديث طارق بن شهاب مرسلاً، أخرجه أبو داود (١٠٥٦) والدارقطني (٢/ ٣) والبيهقي (٣/ ١٨٣) وقال البيهقي: هذا الحديث وإن كان فيه إرسال فهو مرسل جيد فطارق من خيار التابعين وممن رأى النبي ﷺ وإن لم يسمع منه ولحديثه هذا شواهد.

السلطان عليه في مال أو ولد دون القضاء عليه بحق. والمطر الوابل مع الوَحْل عذر إن لم ينقطع.

وروى المهدوي عن مالك أنهما ليسا بِعُذْرٍ.

ومن له ولي حميم قد حضرته الوفاة، ولم يكن عنده من يقوم بأمره فهو معذور، وقد فعل ذلك ابن عمر رضي الله عنه، ومن تخلف عنها لغير عذر فصلى قبل الإمام أعاده ولا يجزيه أن يصلي قبله وهو عاص في تخلفه ذلك مع إمكانه.

فصل في وجوب السعي

وجوب السعي يختص بالقريب الذي يسمع النداء، فأما البعيد الذي لا يسمع النداء فلا يجب عليه السعي.

واختلف الناس في القريب والبعيد[(١)].

فقال ابن عمرو وأبو هريرة رضي الله عنهما وأنس: تجب الجمعة على من كان في المصر علىْ ستة أميال.

وقال ربيعة: أربعة أميال.

وقال مالك والليث: ثلاثة أميال.

وقال الشافعيُّ: اعتبار سماع الأذان أن يكون المؤذن صَيِّتاً، والأصوات هادئة، والريح ساكنة، وموقف المؤذن عند سور البلد.

وروت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ أن الناس كانوا ينتابُون الجمعة من منازلهم من العوالي فيأتون في الغبار ويصيبهم الغبار فيخرج منهم الريح، فقال النبي ﷺ «لو اغْتَسَلْتُم لِيَوْمِكُمْ هَذَا»[(٢)].

قال العلماء: والصوت إذا كان رفيعاً والناس في هدوء وسكون، فأقصى سماع الصوت ثلاثة أميال، والعوالي من «المدينة» أقربها على ثلاثة أميال.

وقال أحمد بن حنبل وإسحاق: تجب الجمعة على من سمع النداء لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إنَّمَا الجُمعَةُ عَلَى مَن سَمِعَ النِّداءَ»[(٣)].

وقال أبو حنيفة وأصحابه: تجب الجمعة على من في المصر سمع النداء أو لم يسمعه ولا تجب على من هو خارج المصر ولو سمع النداء، حتى سئل: وهل تجب الجمعة على أهل «زبارة» وهي بينها وبين الكوفة مجرى نهر؟ فقال: لا.

---

(١) ينظر: القرطبي ١٨/ ٦٨.

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٦٨).

(٣) أخرجه الدارقطني (٢/ ٦) والبيهقي (٢/ ١٧٣) من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً.

وروي عن ربيعة أيضاً: أنها تجب على من إذا سمع النداء وخرج من بيته ماشياً أدرك الصلاة.

فصل في وجوب الجمعة بالنداء(١)

دلّت هذه الآية على أن الجمعة لا تجب إلا بالنداء، والنداء لا يكون إلا بدخول الوقت لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إِذَا حَضرتِ الصَّلاةُ فليُؤذِّنْ أَحَدُكُمَا وليَؤُمّكما أَكْبَرُكُمَا»(٢).

وروى أنس بن مالك أن النبي ﷺ «كان يصلي الجمعة حين تميل الشمس»(٣).

وروي عن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وأحمد بن حنبل: أنها تصلى قبل الزوال، واستدل أحمد بحديث سلمة بن الأكوع: «كنا نصلّي مع النبي ﷺ ثم ننصرف وليس للحيطان ظلٌّ».

وحديث ابن عُمَر: «ما كنا نقيل ولا نتغدى إلا بعد الجمعة».

وأخرج مسلم مثله عن سهل.

قال القرطبي(٤): وحديث سلمة محمول على التكبير، لقول سلمة: «كنا نُجمِّعُ مع رسول الله ﷺ إذا زالت الشَّمس ثم نرجع ونتتبّع الفيء».

فصل

نقل عن بعض الشافعية أن الجمعة فرض على الكفاية، وجمهور الأمة على أنها فرض عين(٥) لقوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾.

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لَيَنْتَهِينَّ أقْوامٌ عَنْ ودْعِهِمُ الجُمعاتِ أو ليَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلوبِهِم ثُمَّ ليَكونُنَّ مِنَ الغَافِلِينَ»(٦).

وروى ابن ماجه في «سننه» قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن تركَ الجُمَعَة ثَلاثَ مرَّاتٍ طَبَعَ اللَّهُ على قَلْبِهِ»(٧)، إسناده صحيح.

---

(١) ينظر القرطبي ١٨/٦٨. (٢) تقدم.

(٣) أخرجه البخاري (٢/٤٤٩) كتاب الجمعة، باب: وقت الجمعة إذا زالت الشمس رقم (٩٠٤) والترمذي (٢/٣٧٧) رقم (٥٠٣، ٥٠٤) وأحمد (٣/١٢٨) من حديث أنس.

(٤) ينظر القرطبي ١٨/٦٨. (٥) ينظر السابق.

(٦) أخرجه مسلم (٢/٥٩١) كتاب الجمعة، باب: التغليظ في ترك الجمعة رقم (٤٠/٨٦٥) والدارمي (١/٣٦٨ ـ ٣٦٩) والبيهقي (٣/١٧١) من حديث أبي هريرة وابن عمر.

(٧) أخرجه ابن ماجه (١/٣٥٧) كتاب إقامة الصلاة، باب: فيمن ترك الجمعة بغير عذر رقم (١١٢٦) من حديث جابر.

=

وقال ابن العربي[١]: ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «الرَّواحُ إلى الجُمُعَةِ واجِبٌ على كُلِّ مُسْلِمٍ».

فصل في العدد الذي تنعقد به الجمعة[٢]

اختلفوا في العدد الذي تنعقد به الجمعة.

فذهب قوم إلى أن كل قرية اجتمع فيها أربعون رجلاً أحراراً عاقلين مقيمين لا يظعنون عنها شتاء ولا صيفاً إلا ظعن حاجة تجب عليهم إقامة الجمعة فيها، وهو قول عبيد الله بن عبد الله وعمر بن عبد العزيز، وبه قال الشافعي وأحمد وإسحاق، قالوا: لا تنعقد الجمعة بأقل من أربعين رجلاً على هذه الصفة، وشرط عمر بن عبد العزيز مع الأربعين أن يكون فيهم والٍ، وعند أبي حنيفة تنعقد بأربعة والوالي شرط.

وقال الأوزاعي وأبو يوسف: تنعقد بثلاثة إذا كان فيهم وال.

وقال الحسن وأبو ثور: تنعقد باثنين كسائر الصلوات.

وقال ربيعة: تنعقد باثني عشر رجلاً.

فصل في اجتماع العيد والجمعة[٣]

إذا اجتمع العيد والجمعة سقط فرض الجمعة عند أحمد لتقدم العيد عليها واشتغال الناس به عنها، ولما روي أن عثمان أذن في [يوم][٤] عيد لأهل العوالي أن يتخلفوا عن الجمعة.

وقال غيره: لا يسقط فرض الجمعة لأن الأمر بالسعي متوجه يوم العيد كتوجهه في سائر الأيام، وقول الصحابي ليس بحجة إذا خولف فيه ولم يجمع معه عليه.

وفي صحيح مسلم عن النعمان بن بشير قال: «كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] و ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١] قال وإذا اجتمع العيد والجمعة في يوم واحد يقرأ بهما أيضاً في الصَّلاتين» أخرجه أبو داود والترمذي والنَّسائي وابن ماجه.

قوله: ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

أي: الصلاة.

= وقال البوصيري في «الزوائد» (١/ ٣٧٥): هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات ورواه الحاكم من طريق ابن أبي ذئب بإسناده ومتنه.

(١) ينظر: أحكام القرآن ٤/ ١٨٠٨.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٧٣.

(٣) السابق ١٨/ ٧٠.

(٤) سقط من أ.

وقيل: الخطبة والمواعظ. قاله سعيد بن جبير.

قال ابن العربي[١]: والصحيح أنه واجب في الجميع؛ لأنها تحرم البيع، ولولا وجوبها ما حرمته؛ لأن المُستحبَّ لا يحرم المباح.

قال القرطبي[٢]: وإذا قلنا: إنَّ المراد بالذِّكر الصَّلاة فالخطبة من الصَّلاة، والعبد يكون ذاكراً لله بقلبه كما يكون مسبحاً لله بفعله.

قال الزمخشري[٣]: «فإن قلت: كيف يفسر ذكر الله بالخطبة وفيها غير ذلك؟.

قلت: ما كان من ذكر رسول الله والثناء عليه وعلى خلفائه الراشدين وأتقياء المؤمنين والموعظة والتذكير، فهو في حكم ذكر الله، فأما ما عدا ذلك من ذكر الظلمة وألقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم وهم أحقاء بعكس ذلك».

فصل في السفر يوم الجمعة

ذهب بعضهم إلى أنه إذا أصبح يوم الجمعة مقيماً فلا يسافر حتى يصلي الجمعة، وذهب بعضهم إلى الجواز، لما روى ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعث النبي ﷺ عبد الله بن رواحة في سرية فوافق ذلك يوم الجمعة، فغدا أصحابه وقال أتخلف فأصلي مع رسول الله ﷺ ثم ألحقهم، فلما صلى مع النبي ﷺ رآه فقال: «مَا مَنَعَكَ أن تَغْدُوَ مَعَ أصْحَابِك»، قال: أردت أن أصلي معك ثم ألحقهم، فقال: «لَوْ أنفقْتَ مَا فِي الأرْضِ مَا أدْرَكْتَ»[٤] فصلى غدوتهم.

وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً عليه أهبة السفر، يقول: لولا أن اليوم الجمعة لخرجت، فقال له عمر: اخرج فإن الجمعة لا تحبس عن سفرٍ[٥].

قوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾.

يدل على تحريم البيع في وقت الجمعة على من كان مخاطباً بفرضها، والبيع لا

---

(١) ينظر: أحكام القرآن ٤/ ١٨٠٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٧٠.
(٣) الكشاف ٤/ ٥٣٥.
(٤) أخرجه الترمذي ٢/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦، في كتاب الصلاة، باب: ما جاء في السفر يوم الجمعة (٥٢٧)، وقال حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ورواه أحمد مختصراً ١/ ٢٥٦، (٢٣١٧)، من طريق أبي خالد الأحمر عن حجاج عن الحكم. ورواه البيهقي في السنن الكبرى ٣/ ١٨٧ من طريق الحسن بن عياش عن الحجاج. ورواه أيضاً حماد بن سلمة وأبو معاوية عن حجاج بن أرطأة والحجاج ينفرد به وللحديث شاهد بإسناد جيد يدل على صحة رواية الحجاج والحكم عن مقسم فقد رواه ابن عبد الحكم في فتوح مصر (ص ٢٩٨)، من طريق ابن لهيعة عن زبان بن فائد عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه عن رسول الله ﷺ.
(٥) أخرجه الشافعي (١/ ١٥٤) وذكره البغوي في «شرح السنة» (٢/ ٥٦٥).

يخلو عن شراء فاكتفى بذكر أحدهما، كقوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١] وخص البيع لأنه أكثر ما يشتغل به أصحاب الأسواق، ومن لا يجب عليه حضور الجمعة، فلا ينهى عن البيع والشراء.

وفي وقت التحريم قولان[١]:

أحدهما: أنه من بعد الزَّوال إلى الفراغ منها. قاله الضحاك، والحسن، وعطاء.

الثاني: أنه من وقت أذان الخطبة إلى وقت الصَّلاة. قاله الشافعي.

قال القرطبي: «ومذهب مالك أن البيع يفسخ إذا نودي للصلاة، ولا يفسخ العتق والنكاح والطلاق وغيره، إذ ليس من عادة الناس اشتغالهم به كاشتغالهم بالبيع، قال: وكذلك الشركة والهبة والصدقة نادر لا يفسخ»[٢].

قال ابن العربي[٣]: «والصحيح فسخ الجميع؛ لأن البيع إنما منع منه للاشتغال به فكل أمر يشغل عن الجمعة من العقود كلها فهو حرام شرعاً مفسوخ».

وحمل بعضهم النهي على الندب لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، وهو مذهب الشافعي؛ فإن البيع عنده ينعقد ولا يفسخ.

وقال الزمخشري[٤]: إن عامة العلماء على أن ذلك النهي لا يؤدي إلى فساد البيع، قالوا: لأن البيع لم يحرم لعينه، ولكن لما فيه عن الذُّهول عن الواجب، فهو كالصلاة في الدار والثوب المغصوب، والوضوء بماء مغصُوب.

قال القرطبي[٥]: «والصَّحيح فساده وفسخه لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ «كُلُّ عملٍ ليْسَ عليْهِ أمْرُنَا فهُو ردٌّ»[٦] أي: مردود.

ثم قال: «ذَٰلِكُمْ» أي: ذلك الذي ذكرت من حضور الجمعة وترك البيع ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من المبايعة ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ مصالح أنفسكم.

قوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

هذا أمر إباحة كقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ [المائدة: ٢]، والمعنى: إذا فرغتم من الصلاة ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ للتجارة والتصرف في حوائجكم ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: من رزقه[٧].

وكان عراك بن مالك إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال:

---

(١) ينظر: القرطبي ١٨/ ٧٠.

(٢) القرطبي ١٨/ ٧٠.

(٣) ينظر: أحكام القرآن ٤/ ١٨٠٦.

(٤) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٣٦.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٧١.

(٦) تقدم.

(٧) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٧١.

اللهم إني أجبت دعوتك، وصلّيت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك رزقاً حلالاً وأنت خير الرازقين.

وقال جعفر بن محمد في قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾: إنه العمل في يوم السبت.

وقال سعيد بن المسيب: طلب العلم.

وقيل: صلاة التطوع[(١)].

وقال ابن عباس: لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا، إنما هي عيادة المرضى وحضور الجنائز وزيارة الأخ في الله تعالى[(٢)].

فصل

في فضل يوم الجمعة أحاديث كثيرة.

منها ما روي عن أبي هريرة قال: خرجت إلى الطور فلقيت كعب الأحبار، فجلست معه، فحدثني عن التوراة وحدثته عن رسول الله ﷺ فكان فيما حدثته أن قلت له: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ يَوْم طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الجُمُعَةِ، فيه خُلِقَ آدمُ، وفيهِ هَبَطَ من الجنة، وفيه مَاتَ، وفِيهِ تِيبَ علَيْهِ، وفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، ومَا مِن دابَّةٍ إلاَّ وهِيَ مُسَبِّحَةٌ في يَوْم الجُمُعَةِ مِنْ حِين تُصْبحُ حتَّى تطلُعَ الشَّمْسُ شفقاً من السَّاعَة إلاَّ الجِنَّ والإِنْسَ وفِيهَا سَاعَةٌ لا يُصادِفُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وهُو يُصلِّي فيسألُ اللَّهَ شَيْئاً إلاَّ أعْطَاهُ إيَّاهُ».

قال كعب: ذلك في كل سنة يوم؟ فقلت: بل في كل جمعة، قال: فقرأ كعب التوراة فقال: صدق رسول الله ﷺ، قال أبو هريرة: ثم لقيت عبد الله بن سلام فحدثته بمجلسي مع كعب الأحبار وما حدثته في يوم الجمعة، قال عبد الله بن سلام: قد علمت أية ساعة هي؟ هي في آخر ساعة من يوم الجمعة.

قال أبو هريرة: وكيف تكون آخر ساعة من يوم الجمعة، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يُصادِفُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ، وهُو يُصلِّي» وتِلْكَ السَّاعَةُ لا يُصلَّى فِيهَا؟ فقال عبد الله بن سلام: ألم يقل رسول الله ﷺ: «مَن جَلَس مَجْلِساً يَنتظِرُ الصَّلاة فَهُوَ فِي صلاةٍ حتَّى يُصلِّيهَا»؟[(٣)].

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٧١).

(٢) ورد هذا مرفوعاً من حديث أنس بن مالك وابن عباس أما حديث أنس فأخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٩٧) وحديث ابن عباس ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٣٠) وعزاه إلى ابن مردويه.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ١/ ١٠٨ ـ ١١٠، في كتاب الجمعة (١٦)، وأحمد في المسند ٢/ ٤٨٦، وأبو داود ١/ ٦٣٤ ـ ٦٣٥، في الصلاة، باب: تفريع أبواب الجمعة، باب: فضل يوم الجمعة (١٠٤٦) والترمذي ٢/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣، أبواب الصلاة، باب: ما جاء في الساعة التي ترجى في يوم=

قال أبو هريرة: بلى. قال: «فهو ذاك».

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مَن اغْتَسَلَ يَوْمَ الجُمعة واسْتَنَّ ومسَّ طِيْباً إن كان عِنْدَهُ ولبِسَ مِنْ أحْسَن ثيابهِ ثُمَّ خَرَجَ حتَّى يَأتِيَ المَسْجِدَ ولمْ يتَخَطَّ رِقَاب النَّاسِ ثُمَّ رَكَعَ ما شَاءَ اللَّهُ أن يَرْكَعَ وأنصَتَ إذا خَرَجَ الإمامُ، كَانَتْ كفَّارة لما بَيْنَهُمَا وبَيْنَ الجُمُعةِ الأخْرَى الَّتِي كَانَتْ قَبْلَهَا»[١].

وقال أبو هريرة: وزيادة ثلاثة أيام؛ لأن اللَّه تعالى يقول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وروى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذَا كَان يَوْمُ الجمعة كَانَ عَلى كُلِّ بَابٍ مِنْ أبْوابِ المَسْجدِ ملائِكةٌ يَكْتُبُونَ [النَّاسَ على مَنَازلِهِم][٢]، الأوَّل فالأوَّل، فإذا خرج الإمامُ طُويتِ الصُّحُفُ واستَمَعُوا الخُطْبَةَ»[٣].

وقال: «مَن اغْتَسَلَ يَوْمَ الجُمعَةِ، ثُمَّ رَاحَ في السَّاعةِ الأولى، فكَأنَّما قَرَّب بَدَنَةً، ومن رَاحَ فِي السَّاعةِ الثَّانيةِ فكأنَّما قرَّب بقرةً، ومَن راحَ في السَّاعةِ الثَّالثة فكأنَّما قرَّب كبْشاً، ومن رَاحَ في السَّاعةِ الرَّابعةِ فكأنَّما قرَّب دَجَاجَةً [ومن راح في الساعة الخامسة، فكأنما قرب عصفوراً][٤]، ومن رَاحَ فِي السَّاعةِ السادسة، فكَأنَّما قَرَّبَ بَيْضَةً فإذا خَرَجَ الإمامُ حَضرتِ الملائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ»[٥].

قوله: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: بالطاعة واللسان، وبالشكر على ما أنعم به عليكم من التوفيق لأداء فرائضه ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [كي تفلحوا][٦].

وقال سعيد بن جبير: الذكر طاعة الله، فمن أطاع الله فقد ذكره؛ ومن لم يطعه فليس بذاكر وإن كان كثير التسبيح[٧].

= الجمعة (٤٩١)، والنسائي ٣/ ١١٣ ـ ١١٥، في كتاب الجمعة، باب: ذكر الساعة التي يستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة وأخرجه البيهقي ٣/ ٢٥٠ في كتاب الجمعة، باب: الساعة التي في يوم الجمعة.

(١) أخرجه أبو داود ١/ ٩٤ ـ ٩٥، في كتاب الطهارة، باب: في الغسل يوم الجمعة (٣٨٣)، وأخرجه أحمد في المسند ٣/ ٨١؛ والحاكم في المستدرك ١/ ٣٨٣، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) في أ: المصلين الساعين من منازلهم إلى الجمعة.

(٣) أخرجه البخاري ٢/ ٤٧٢، في كتاب الجمعة، باب: الاستماع إلى الخطبة (٩٢٩)، (٣٢١١) وأخرجه مسلم ٢/ ٥٨٧، في كتاب الجمعة، باب: فضل التهجير يوم الجمعة ٢٤/ ٨٥٠، والشافعي ١/ ١٥٥.

(٤) هذه الزيادة عند النسائي، باب: التبكير إلى الجمعة وانظر: نصب الراية ٣/ ٩٩.

(٥) أخرجه البخاري ٢/ ٤٢٥، في كتاب الجمعة، باب: فضل الجمعة (٨٨١)، ومسلم ٢/ ٥٨٢، في الجمعة باب: الطيب والسواك (١٠/ ٨٥٠)، ومالك في الموطأ ١/ ١٠١، في الجمعة، باب: العمل في غسل يوم الجمعة (١).

(٦) سقط من أ.

(٧) ينظر: القرطبي ١٨/ ١٧.

قال ابن الخطيب[(١)]: فإن قيل: ما الفرق بين ذكر الله أولاً وذكر الله ثانياً؟.

فالجواب: أن الأول من جملة ما لا يجتمع مع التجارة أصلاً إذ المراد منه الخطبة والصلاة والثاني من جملة ما يجتمع مع التجارة كما في قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾.

روى مسلم عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ كان يخطب قائماً يوم الجمعة فجاءت عير من «الشام» فانفتل الناس إليها حتى لم يبق إلا اثني عشر رجلاً، وفي رواية: أنا فيهم، فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾[(٢)].

وذكر الكلبي: أن الذي قدم بها دحية بن خليفة الكلبي من «الشام» في مجاعةٍ وغلاء سعر[(٣)] وكان معه جميع ما يحتاج إليه الناس من برّ ودقيق وغيره فنزلت عند أحجار الزيت وضرب بالطبل ليعلم الناس بقدومه فخرج الناس إلا اثني عشر رجلاً وقيل إلا أحد عشر رجلاً وحكى البغوي قال: فلما رأوه قاموا إليه خشية أن يسبقوا إليه قال الكلبي وكانوا في خطبة الجمعة فانفضوا إليه وبقي مع رسول الله ﷺ ثمانية رجال حكاه الثعلبي عن ابن عباس وذكر الدارقطني من حديث جابر قال: بينما رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ أقبلت عير تحمل الطعام حتى نزلت بالبقيع فالتفتوا إليها وتركوا رسول الله ﷺ ليس معه إلاّ أربعين رجلاً أنا منهم قال: وأنزل الله تعالى على النبي ﷺ «وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً» قال الدارقطني لم يقل في هذا الآثار إلاّ أربعين رجلاً غير علي بن عاصم بن حصين وخالفه أصحاب حصين فقالوا لم يبق مع النبي ﷺ إلاّ اثني عشر رجلاً. واحتج بهذا الحديث من يرى أن الجمعة تنعقد باثني عشر رجلاً وليس فيه بيان أنه أقام بهم الجمعة وذكر الزمخشري أن النبي ﷺ قال: والذي نفسي بيده لو خرجوا جميعاً لأضرم الله عليهم الوادي ناراً».

وروي في حديث مرسل عن أسد بن عمرو والد أسد بن موسى بن أسد وفيه أن رسول الله ﷺ لم يبق معه إلا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة عامر بن الجراح وسعيد بن زيد وبلال وعبد الله بن مسعود في إحدى الروايتين وفي الرواية الأخرى عمار بن ياسر قال القرطبي ولم يذكر جابراً وذكر مسلم أنه كان فيهم والدارقطني أيضاً فيكونون ثلاثة عشر وإن كان عبد الله بن مسعود بينهم فهم أربعة عشر.

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١٠.

(٢) أخرجه البخاري ٢/ ٤٩٠، في كتاب الجمعة، باب: إذا نفر الناس عن الإمام (٩٣٦) و (٢٠٥٨)، (٢٠٦٤)، (٤٨٩٩)، ومسلم ٢/ ٥٩٠، في كتاب الجمعة، باب: قوله تعالى: **﴿وإذا رأوا تجارة﴾** (٨٦٣/٣٦).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٧٢) عن الكلبي.

وروى البغوي قال: وكان ذلك قبل أن يسلم دحية، قال: فخرج الناس إليه، ولم يبق في المسجد إلا اثنا عشر رجلاً وامرأة، فقال النبي ﷺ: «لو قام هؤلاء لقد سومت لهم الحجارة من السماء» فأنزل الله هذه الآية(١).

فصل

وذكر أبو داود في مراسيله: السبب الذي ترخصوا لأنفسهم في ترك سماع الخطبة، وقد كانوا خليقاً بفضلهم ألاّ يفعلوا، فقال: حدثنا محمود بن خالد، قال: حدثنا الوليد، قال: أخبرني أبو معاذ بكير بن معروف أنه سمع مقاتل بن حيان قال: كان رسول الله ﷺ يخطب وقد صلى الجمعة، فدخل رجل فقال: إن دحية بن خليفة قدم بتجارته، وكان دحية إذا قدم تلقاه أهله بالدفوف، فخرج الناس فلم يظنوا إلا أنه ليس في ترك الخطبة شيء، فأنزل الله ـ عز وجل ـ ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ فقدم النبي ﷺ الخطبة يوم الجمعة وأخر الصلاة فكان لا يخرج أحد لرعاف أو إحداث بعد النهي حتى يستأذن النبي ﷺ يشير إليه بأصبعه التي تلي الإبهام، فيأذن له النبي ﷺ ثم يشير إليه بيده، فكان في المنافقين من يثقل عليه الخطبة والجلوس في المسجد، فكان إذا استأذن رجل من المسلمين قام المنافق في جنبه مستتراً به حتى يخرج، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ [النور: ٦٣] الآية(٢).

قال السُهيلي: وهذا الخبر وإن لم ينقل من وجه ثابت فالظن الجميل بأصحاب النبي ﷺ يوجب أن يكون صحيحاً. والله أعلم.

وقال قتادة: وقد بلغنا أنهم فعلوه ثلاث مرات، كل مرة عير تقدم من «الشام» وكل ذلك يوافق يوم الجمعة(٣).

وقيل: إن خروجهم لقدوم دحية الكلبي بتجارة ونظرهم إلى العير تمر لهوٌ لا فائدة فيه، إلا أنه كان مما لا إثمَ فيه لو وقع على ذلك الوجه، ولكنه لما اتصل به الإعراض عن رسول الله ﷺ والانفضاض عن حضرته غلظ وكبر، ونزل فيه من القرآن وتهجينه باسم اللهو ما نزل. وكان معه جميع ما يحتاج إليه الناس من بر ودقيق وغيره، فنزل عند أحجار الزيت، وضرب بالطبل [ليؤذن](٤) الناس بقدومه، فخرج الناس إلا اثنا عشر رجلاً.

---

(١) ينظر تفسير البغوي (٤/ ٣٤٥).

(٢) أخرجه أبو داود في «المراسيل» (ص ١٠٥) رقم (٦٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٣١) وعزاه إلى أبي داود في مراسيله عن مقاتل بن حيان.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٧٢) عن قتادة.

(٤) في أ: ليعلم.

وقيل: أحد عشر رجلاً.

وحكى البغوي قال[١]: «فلما رأوه قاموا خشية أن يسبقوا إليه».

قال الكلبي: كانوا في خطبة الجمعة فانفضوا إليه وبقي مع رسول الله ﷺ ثمانية رجال، وحكاه الثعلبي عن ابن عباس[٢].

وذكر الدارقطني من حديث جابر قال: «بينما رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ أقبلت عير تحمل الطعام حتى نزلت بالبقيع فالتفتوا إليها، وانفضوا إليها، وتركوا رسول الله ﷺ ليس معه إلا أربعين رجلاً أنا فيهم»، قال: وأنزل الله على النبي ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ﴾.

قال الدارقطني: لم يقل في هذا الاسناد: «إلا أرْبعِينَ رَجُلاً» غير علي بن عاصم عن حصين، وخالفه أصحاب حصين، فقالوا: لم يبق مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً.

واحتج بهذا الحديث من يرى أن الجمعة تنعقد باثني عشر رجلاً، وليس فيه بيان أنه أقام بهم الجمعة. وذكر الزمخشري[٣] أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «والَّذي نَفْسِي بِيدِهِ لوْ خَرَجُوا جَمِيعاً لأضرَمَ اللَّهُ عليْهِمُ الوَادِي نَاراً».

وروي في حديث مرسل عن أسد بن عمرو والد أسد بن موسى بن أسد، وفيه: أن رسول الله ﷺ لم يبق معه إلا أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعيد بن زيد، وبلال وعبد الله بن مسعود في إحدى الروايتين، وفي الرواية الأخرى عمار بن ياسر[٤].

قال القرطبي[٥]: «لم يذكر جابراً.

وذكر مسلم: أنه كان فيهم.

والدارقطني أيضاً فيكونون ثلاثة عشر، وإن كان عبد الله بن مسعود فيهم فهم أربعة عشر».

قوله: ﴿انفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾.

أعاد الضمير على التجارة دون اللهو لأنها الأهم في السبب[٦].

قال ابن عطية[٧]: «وقال: إليها، ولم يقل: إليهما، تهمُّماً بالأهم، إذ كانت هي

---

(١) ينظر: معالم التنزيل ٤/ ٣٤٦.

(٢) ينظر القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٧٢) عن قتادة.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٣٦.

(٤) ينظر القرطبي (١٨/ ٧٢) عن قتادة.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٧٢.

(٦) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٨.

(٧) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣١٠.

سبب اللهو، ولم يكن اللَّهو سببها، وتأمل أن قدمت التجارة على اللهو في الرؤية؛ لأنها أهم، وأخرت مع التفضيل لتقع النفس أولاً على الأبْيَن» انتهى.

وفي قوله: «لم يقل: إليهما» ثم أجاب بما ذكر نظر، لأن العطف «بأو» لا يثنى معه الضمير ولا الخبر ولا الحال، ولا الوصف؛ لأنها لأحد الشيئين، ولذلك تأول الناس: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: ١٣٥] كما تقدم في موضعه.

وإنما الجواب عنه: أنه وحَّد الضمير؛ لأن العطف بـ «أو»، وإنما جيء بضمير التجارة دون ضمير اللهو، وإن كان جائزاً للاهتمام كما قاله ابن عطية وغيره.

وقال الزمخشري قريباً من ذلك فإنه قال[1]: فإن قلت: كيف قال: إليها، وقد ذكر شيئين؟ فالجواب: تقديره: إذا رأوا تجارة انفضوا إليها أو لهواً انفضوا إليه، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه، وكذلك قراءة من قرأ: انفضوا إليه. انتهى.

فقوله: «قلت: تقديره» إلى آخره، يشعر بأنه كان حق الكلام أن يثنى الضمير ولكنه حذف، وفيه ما تقدم من المانع من ذلك أمر صناعي وهو العطف بـ «أو».

وقرأ ابن أبي[2] عبلة: «إلَيْهِ».

أعاد الضمير إلى اللهو، وقد نصَّ على جواز ذلك الأخفش سماعاً من العرب، نحو: إذا جاءك زيد أو هند فأكرمه، وإن شئت فأكرمها.

وقرأ بعضهم[3]: «إليْهِمَا» بالتثنية.

وتخريجها كتخريج: «إن يَكُنْ غَنِيًّا أو فَقِيراً فالله أولى بهما» كما تقدم تحريره.

والمراد باللهو الطبل.

وقيل: كانت العير إذا قدمت «المدينة» استقبلوها بالتصفيق والصفير.

قوله: «وتَرَكُوكَ».

جملة حالية من فاعل «انفضُّوا» و «قد» مقدرة عند بعضهم[4].

فصل في أن الخطبة فريضة في صلاة الجمعة[5]

الخطبة فريضة في صلاة الجمعة، ويجب أن يخطب قائماً فإن هذه الآية تدل على أن القيام شرط، ويخطب متوكئاً على قوس أو عصا، لما روى ابن ماجه في سننه «أن

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٣٧.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٦٥، والدر المصون ٦/ ٣١٨.

(٣) السابق. (٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٨.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٧٤.

النبي ﷺ كان إذا خطب في الحرب خطب على قوس، وإذا خطب في الجمعة خطب على عصا»[١].

وأن يخطب على منبر؛ لأنه أبلغ في إعلام الحاضرين، ويسلم إذا صعد المنبر على الناس. لما روى ابن ماجه عن جابر بن عبد الله: «أن النبي ﷺ كان إذا صعد المنبر سلم»[٢].

ولم ير ذلك مالك.

وهل تشترط الطهارة في الخطبة؟

فيه قولان مبنيان على أن الجمعة ظهر مقصورة، أو فريضة مستقلة.

فإن قيل: بأنها ظهر مقصورة.

فقيل: الخطبتان عوض عن الركعتين الأخريين، وعلى هذا فيشترط لهما الطهارة.

وإن قيل: بأنها فريضة مستقلة فالخطبتان وعظ وتذكير، وذلك لا يشترط لها طهارة، وأقل ما يجزىء في الخطبة أن يحمد الله ـ تعالى ـ ويصلي على نبيه ﷺ ويوصي بتقوى الله، ويقرأ آية من القرآن، وكذلك في الخطبة الثانية إلا أن الواجب بدلاً من قراءة الآية الدعاء في قول أكثر الفقهاء.

وقال أبو حنيفة: لو اقتصر على التحميد، أو التسبيح، أو التكبير أجزأه.

وقال أبو يوسف ومحمد: الواجب ما تناوله اسم الخطبة.

قال ابن عبد البر: وهذا أصح ما قيل في ذلك.

قال القرطبي[٣]: «والسكوت للخطبة واجب على من سمعها وجوب سُنَّة».

قوله: ﴿مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾.

«ما» موصولة مبتدأ، و «خير» خبرها[٤].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١/ ٣٥٢) كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في الخطبة يوم الجمعة رقم (١١٠٧) والبيهقي (٣/ ٢٠٦) من طريق عبد الرحمن بن سعد بن عمار بن سعد ثني أبي عن أبيه عن جده به.

قال البوصيري في «الزوائد» (١/ ٣٦٩): هذا إسناد ضعيف لضعف عبد الرحمن فمن فوقه ضعفاء.

وللحديث شاهد من حديث الحكم بن حزن، أخرجه أبو داود (١/ ١٧٢) والبيهقي (٣/ ٢٠٦) وأحمد (٤/ ٢١٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١/ ٣٥٢) المصدر السابق حديث رقم (١١٠٩) والبيهقي (٣/ ٢٠٤) من حديث جابر.

قال البوصيري في «الزوائد» (١/ ٣٧٠): هذا إسناد ضعيف لضعف ابن لهيعة. وله شاهد من حديث ابن عمر ذكره الهيثمي في «المجمع» (٢/ ١٨٧) وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه عيسى بن عبد الله الأنصاري وهو ضعيف وذكره ابن حبان في الثقات.

(٣) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٧٦.

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٨.

والمعنى[١]: ما عند الله من ثواب صلاتكم خيرٌ من لذَّة لهوكم، وفائدة تجارتكم.

وقيل: ما عندكم من رزقكم الذي قسمه لكم خير مما أصبتموه من لهوكم وتجارتكم.

وقرأ أبو رجاء[٢] العطاردي: «قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة للذين آمنوا».

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

أي: خير من رَزَقَ وأعْطَى، فمنه فاطلبوا واستعينوا بطاعته على نيل ما عنده من خيْرَي الدنيا والآخرة.

قال ابن الخطيب[٣]: قوله ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ من قبيل أحكم الحاكمين وأحسن الخالقين، والمعنى: إن أمكن وجودُ الرازقين فهو خيرُ الرازقين.

وقيل: لفظ الرَّازق لا يطلقُ على غيره إلا بطريقِ المجازِ.

فإن قيل: التِّجارةُ واللَّهْوُ من قبيل ما لا يرى غالباً، فكيف يصحُ قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا﴾؟.

فالجواب: ليس المراد إلا ما يقرب منه اللهو والتجارة، كقوله: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] إذ الكلام غيرُ مسموعٍ.

وروى الثعلبي عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ سُورَةَ الجُمُعَةِ كُتِبَ لَهُ عَشْرُ حَسَناتٍ بعددِ مَنْ ذَهبَ إلى الجُمعةِ من مِصْرٍ مِنْ أمْصَارِ المُسْلمينَ ومَنْ لَمْ يَذْهَبْ»[٤].

---

(١) ينظر: القرطبي ١٨/٧٨.

(٢) ينظر: السابق.

(٣) ينظر: التفسير الكبير ٣٠/١١.

(٤) تقدم.

سورة المنافقون

مكية، وهي إحدى عشرة آية، ومائة وثمانون كلمة، وسبعمائة وستة وسبعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ (١) ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ (٦)﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾.

«إذا»: شرط، قيل: جوابه «قالوا».

وقيل: محذوف، و «قالوا»: حال أي إذا جاءوك قائلين كيت وكيت فلا تقبل منهم.

وقيل: الجواب «اتَّخَذُوا أيْمانَهُمْ جُنَّةً»، وهو بعيد، و «قالُوا» أيضاً: حال[١].

فصل في تعلق هذه السورة بالتي قبلها

قال ابنُ الخطيب[٢]: وجه تعلق هذه السورة بما قبلها هو أن تلك السورة مشتملةٌ على ذكر بعثة الرسول، وذكر من كان يُكذِّبهُ قلباً ولساناً فضرب لهم المثل بقوله: «مثلُ الذين حُمِّلوا التَّوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً».

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٩.

(٢) ينظر: التفسير الكبير ٣٠/ ١٢.

وهذه السورة مشتملةٌ على ذكر من كان يكذِّبُ قلباً دون اللسان، ويصدقه لساناً دون القلب.

وأما تعلق الأول بالآخر، فلأن في آخر تلك السُّورة تنبيه للمؤمنين على تعظيم الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ورعايةِ حقِّه بعد النداء لصلاةِ الجمعةِ، وتقديم متابعته على غيره، فإنَّ ترك التعظيم والمتابعةِ من شيمِ المنافقين، والمنافقون هم الكاذبون.

فصل في نزول السورة

روى البخاري عن زيد بن أرقم، قال: كنت مع عمي فسمعتُ عبد الله بن أبيٍّ ابْنَ سلول يقول: «لا تُنفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا»، وقال: «لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المدينةِ ليُخْرِجَنَّ الأعَزُّ مِنهَا الأذلَّ»، فذكرتُ ذلكِ لعمي، فذكر عمي لرسول الله ﷺ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فصدَّقهُمْ رسولُ الله ﷺ وكذَّبني فأصابَنِي همٌّ لمْ يُصبني مثلُه، فجلست في بيتي، فأنزل اللَّهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾، وقوله: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾، فأرسل إليَّ رسول الله ﷺ، ثم قال: «إنَّ اللَّهَ قدْ صدقَكَ»(١).

وروى الترمذي عن زيد بن أرقم، قال: «غَزوْنَا مع رسول الله ﷺ وكان معنا أناسٌ من الأعراب، فكُنَّا نبدر الماء، أي: نقسمه، وكان الأعرابُ يسبقُوننا إلى الماء، فيسبق الأعرابي أصحابه، فيملأ الحوض، ويجعلُ حوله حجارة، ويجعلُ النِّطع عليه حتى يجيء أصحابه، قال: فأتى رجلٌ من الأنصار أعرابيًا فأرخى زِمامَ ناقته لتشرب، فأبَى أن يدعهُ، فانتزع حجراً ففاض الماءُ، فرفع الأعرابيُّ خشبة، فضرب بها رأس الأنصاريِّ فشجَّهُ، فأتى عبد الله بن أبي رأس المنافقين فأخبره ـ وكان من أصحابه ـ فغضب عبد الله بن أبي، ثم قال: «لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا» من حوله، يعني: الأعراب، وكانوا يحضرون رسول الله ﷺ عند الطعام، فقال عبد الله: فإذا انفضوا من عند محمد فأتوا محمداً بالطعام فليأكل هو ومن عنده، ثم قال لأصحابه: «لَئِنْ رَجعنَا إلى المدِينةِ ليُخْرِجنَّ الأعَزُّ مِنْهَا الأذلَّ».

قال زيد: وأنا ردف عمي، فسمعت عبد الله بن أبي، فأخبرت عمي، فانطلق، فأخبر رسول الله ﷺ فأرسل إليه رسول الله ـ ﷺ ـ فحلف وجحد قال: فصدَّقه رسول الله

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٥١٢) كتاب التفسير سورة المنافقون، باب قوله: إذا جاءك المنافقون رقم (٤٩٠٠) من حديث زيد بن أرقم.

ـ ﷺ ـ وكذَّبني، قال: فجاء عمّي إليّ فقال: ما أردت إلى أن مقتك رسولُ الله ﷺ، وكذبك، والمنافقون.

قال: فوقع عليّ من جرأتهم ما لم يقع على أحدٍ.

قال: فبينما أسير مع رسول الله ﷺ قد خفقتُ برأسي من الهمّ إذ أتاني رسول الله ﷺ فعرك في أذني وضحك في وجهي، فما كان يسرّني أنَّ لي بها الخُلدَ في الدنيا، ثم إن أبا بكرٍ لحقني فقال: ما قال لك رسول الله ﷺ؟.

قلت: ما قال لي شيئاً إلا أنه عرك أذني، وضحك في وجهي، فقال: أبْشِرْ ثم لحقني عمرُ، فقلتُ له مثل قولي لأبي بكر، فلما أصبحنا قرأ رسولُ الله ﷺ سورة المنافقين»[١].

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

فصل في المنافق

سُئلَ حُذيفةُ بنُ اليمانِ عن المنافقِ، فقال: الذي يصفُ الإسلامَ ولا يعملُ به[٢].

وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «آيةُ المُنافقِ ثلاثٌ: إذا حدَّث كَذَبَ، وإذَا وعَدَ أخْلف، وإذا ائتُمِنَ خَانَ»[٣].

وروى عبدُ الله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «أربعٌ من كُنَّ فيه كانَ مُنافقاً خَالِصاً، ومَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلةٌ مِنهُنَّ كانَتْ فيه خَصْلَةٌ من النِّفاقِ حتَّى يدعها: إذا ائتُمِنَ خَانَ، وإذَا حدَّث كَذَبَ، وإذَا عَاهَدَ غَدرَ، وإذَا خَاصَمَ فَجَرَ»[٤].

وروي عن الحسن أنه ذُكِرَ له هذا الحديثُ، فقال: إن بني يعقوب حدَّثوا فكذبُوا، ووعدوا فأخلفوا وائتمنوا فخانوا. إنما هذا القول من النبي ﷺ على سبيل الإنذار للمسلمين، والتحذير لهم أن يعتادوا هذه الخصال شفقاً أن تفضي بهم إلى النفاق.

وليس المعنى: أن من بدرت منه هذه الخصالُ من غير اختيارٍ واعتيادٍ أنه منافقٌ وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ «المُؤمِنُ إذَا حدَّثَ صَدَقَ، وإذَا وَعَدَ نجَزَ، وإذا ائتُمِنَ وفَّى»[٥].

والمعنى: أن المؤمن الكامل إذا حدَّث صدق.

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨ ـ ٣٨٩) كتاب التفسير، باب: سورة المنافقون حديث (٣٣١٣) من حديث زيد بن أرقم أيضاً وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٨٠). (٣) تقدم.

(٤) تقدم. (٥) ينظر القرطبي (١٨/ ٨٠).

قوله: «نَشْهَدُ».

يجري مجرى القسم كفعلِ العلم واليقين، ولذلك تلقي بما يتلقى به القسم[1] في قوله: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾.

وفي قوله: [الكامل]

٤٧٧٠ ـ ولَقَدْ عَلِمْتُ لتَأتِيَنَّ مَنِيَّتِي إنَّ المَنَايَا لا تَطِيشُ سِهَامُهَا[2]

وقد تقدم [الخلاف][3] في الصدق والكذب، واستدلالهم بهذه الآية، والجواب عنها في أول البقرة[4].

وقال القرطبي[5] هنا: معنى «نَشْهَدُ» نحلفُ، فعبر عن الحلف بالشهادة؛ لأن كل واحدٍ من الحلف والشهادة إثباتٌ لأمر مُغَيَّب، ومنه قول قيس بن ذريح: [الطويل]

٤٧٧١ ـ وأشْهَدُ عِنْدَ اللَّهِ أني أحِبُّهَا فَهَذَا لَهَا عِنْدِي، فَمَا عِنْدَهَا لِيَا؟[6]

ونظيره قول الملاعن: أشهدُ بالله.

قال الزمخشري[7]: «والشهادة تجري مجرى الحلف في التوكيد. يقول الرجلُ: أشهدُ، وأشهدُ بالله، وأعزمُ، وأعزمُ بالله في موضع «أقْسِمُ وأولي»، وبه استشهد أبو حنيفة على أن «أشهدُ» يمين».

ويحتمل أن يكون ذلك محمولاً على ظاهره أنهم يشهدون أن محمداً رسول الله ﷺ اعترافاً بالإيمان ونفياً للنفاق عن أنفسهم وهو الأشبه.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾.

جملة معترضة بين قوله: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ وبين قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾ [لفائدة.

قال الزمخشري[8]: «ولو قال: «قالوا: نشهد إنك لرسول الله، واللَّهُ يشهدُ إنَّهم لكاذبُون» لكان يُوهِمُ أن قولهم هذا كذبٌ، فوسط بينهما قوله: واللَّهُ يعلمُ إنَّكَ لرسُولُه» ليُميطَ هذا الإبهام».

قال القرطبي[9]: «والله يعلم إنك لرسوله» كما قالوه بألسنتهم][10]، ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ بضمائرهم، فالتكذيبُ راجع إلى الضمائر، وهذا يدلُّ على أن الإيمان

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٩.
(٢) تقدم.
(٣) في أ: الكلام.
(٤) آية رقم ١٠.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٨٠.
(٦) ينظر مجنون ليلى ص ٣٠٠، والقرطبي ١٨/ ٨٠.
(٧) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٣٨.
(٨) الكشاف ٤/ ٥٣٨.
(٩) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٨٠.
(١٠) سقط في أ.

تصديقُ القلب، وعلى أنَّ الكلام الحقيقي كلامُ القلب، ومن قال شيئاً واعتقد خلافه فهو كاذبٌ، وقيل: أكذبهم الله في أيمانهم، وهو قوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦].

قال ابن الخطيب[١]: فإن قيل: لو قالوا: نعلم إنَّك لرسولُ الله مكان قولهم: نشهد إنَّكَ لرسُولُ اللَّهِ، تفيد ما أفاد قولهم: نشهد؟.

فالجواب: لا؛ لأن قولهم: «نَشهَدُ إنَّك لرسُولُ اللَّهِ» صريحٌ في الشَّهادة على إثبات الرسالة، وقولهم: نعلم ليس بصريح في ذلك.

قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾.

قد تقدم الكلام أنه يجوز أن يكون جواباً للشرط.

ويجوز أن يكون مستأنفاً جيء به لبيان كذبهم وحلفهم عليه، أي أنَّ الحامل لهُم على الأيمانِ اتقاؤهم بها عن أنفسهم[٢].

والعامة: على فتح الهمزة، جمع يمين.

والحسن[٣]: بكسرها مصدراً.

وتقدم مثله في «المجادلة»، والجُنَّةُ: التُّرس ونحوه، وكل ما يقيك سوءاً. ومن كلام الفصحاء: [جُبَّةُ البرد] جُنَّةُ البردِ.

قال أعشى همدان الشاعر: [الطويل]

٤٧٧٢ ـ إذَا أنْتَ لَمْ تَجْعَلْ لعرضِكَ جُنَّةً مِنَ المَالِ سَارَ الذَّمُّ كُلَّ مَسِيرِ[٤]

فصل

قال القرطبي[٥] وغيره: اتَّخذُوا أيمانهُم جُنَّةً، أي: سُترةً، وليس يرجع إلى قوله: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ وإنَّما يرجعُ إلى سبب الآيةِ التي نزلت عليه حسب ما ذكره البخاري والترمذي عن أبيّ أنه حلف ما قال، وقد قال، وقال الضحاك: يعني: حلفهم بالله «إنهم لمنكم».

وقيل: يعني بأيمانهم ما أخبر الرب عنهم في سورة «براءة» في قوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ [التوبة: ٧٤].

---

(١) ينظر: التفسير الكبير ٣٠/ ١٣.
(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣١٩.
(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣١١، والبحر المحيط ٨/ ٢٦٧، والدر المصون ٦/ ٣١٩.
(٤) تقدم.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٨٠.

فصل في نص اليمين

قال القرطبي[١]: «من قال: أقسمُ باللَّهِ، وأشهد بالله، أو أعزم بالله، أو أحلف بالله، أو أقسمت بالله، أو شهدت، أو عزمت، أو حلفت، وقال في ذلك كله: «بالله» فلا خلاف أنها يمينٌ، وكذلك عند مالكٍ وأصحابه أن من قال: أقسمُ، أو أشهد، أو أعزم، أو أحلف، ولم يقل «بالله» إذا أراد «بالله»، وإن لم يرد «بالله» فليس بيمين».

وقال أبو حنيفة وأصحابه: لو قال: أشهد بالله لقد كان كذا كان يميناً، ولو قال: أشهد لقد كان كذا ـ دون النية ـ كان يميناً لهذه الآية؛ لأن الله تعالى ذكر منهم الشهادة ثم قال: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾.

وعند الشافعي: لا يكون ذلك يميناً وإن نوى اليمينَ؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾ ليس يرجعُ إلى قوله: «قالوا: نَشهدُ»، وإنما يرجعُ إلى ما في براءة من قوله تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾.

قوله: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾.

أي: أعرضوا، وهو من الصُّدود، أو صرفوا المؤمنين عن إقامة حدود الله عليهم من القَتْل، والسبي، وأخذ الأموال، فهو من الصَّدِّ، أو منعوا الناس عن الجهاد بأن يتخلفوا أو يقتدي بهم غيرهم.

وقيل: فصدوا اليهود والمشركين عن الدُّخول في الإسلام بأن يقولوا: ها نحن كافرون بهم، ولو كان ما جاء به محمد حقًّا لعرف هذا منا، ولجعلنا نكالاً، فبيَّن الله أنَّ حالهم لا يخفى عليه، ولكن حكمه أن من أشهر [الإيمان][٢] أجري عليه في الظَّاهر حكم الإيمان.

قوله: ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

أي: سيئت أعمالهم الخبيثةُ في نفاقهم، وأيمانهم الكاذبةِ، وصدِّهم عن سبيل الله[٣]. و «ساء» يجوز أن تكون الجارية مجرى «بِئْسَ»، وأن تكون على بابها، والأول أظهر وقد تقدم حكم كل منهما[٤].

فإن قيل: إنه تعالى ذكر أفعال الكفرة من قبل، ولم يقل: إنَّهم ساء ما كانوا يعملون؟.

قال ابن الخطيب[٥]: والجواب أن أفعالهم مقرونة بالأيمان الكاذبة التي جعلوها

---

(١) السابق ١٨/ ٨١.
(٢) في أ: الإسلام.
(٣) ينظر: القرطبي ١٨/ ٨١.
(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٢٠.
(٥) التفسير الكبير ٣٠/ ١٣.

جُنَّة أي: سُترة لأموالهم ودمائهم عن أن يستبيحها المسلمون.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾.

هذا إعلامٌ من الله بأن المنافقين كفار، إذْ أقروا باللسان ثم كفروا بالقلب.

وقيل: نزلت الآية في قوم آمنوا ثم ارتدوا ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي ختم عليها بالكفر ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الإيمان ولا الخير[١].

وقرأ العامَّةُ: «فَطُبِعَ» مبنياً للمفعول، والقائم مقام الفاعل الجار بعده.

وزيد بن علي[٢]: «فَطَبَعَ» مبنياً للفاعل.

وفي الفاعل وجهان[٣]:

أحدهما: أنه ضمير عائد على الله تعالى، ويدل عليه قراءة الأعمشِ، وقراءته في رواية عنه: «فَطَبَعَ اللَّهُ» مُصرحاً بالجلالة الكريمة.

وكذلك نقله القرطبي[٤] عن زيد بن علي.

فإن قيل: إذا كان الطَّبْع بفعل الله ـ تعالى ـ كان ذلك حجة لهم على الله تعالى فيقولون: إعراضنا عن الحق لغفلتنا بسبب أنه ـ تعالى ـ طبع على قلوبنا؟.

فأجاب ابن الخطيب[٥]: بأن هذا الطبع من الله ـ تعالى ـ لسوء أفعالهم، وقصدهم الإعراض عن الحق فكأنه تعالى تركهم في أنفسهم الجاهلة وغوايتهم الباطلة.

والثاني: أن الفاعل ضميرٌ يعودُ على المصدر المفهوم مما قبله، أي: فطبع هو أي بلعبهم بالدين.

قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾.

أي: هيئاتهم، ومناظرهم، ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ يعني: عبد الله بن أبي وقال ابن عباس: كان عبد الله بن أبي وسيماً جسيماً صحيحاً صبيحاً ذلق اللسان، فإذا قال، سمع النبي ﷺ مقالته، وصفه الله بتمامِ الصُّورةِ وحسن الإبانةِ[٦].

وقال الكلبي: المراد ابن أبي وجدٌّ بن قيس ومعتِّب بن قشير، كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة[٧].

---

(١) ينظر: القرطبي ١٨/ ٨١.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٣٩، والبحر المحيط ٨/ ٢٦٨، والدر المصون ٦/ ٣٢٠.

(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٢٠.

(٤) وكذلك صرح به الزمخشري في الكشاف ٤/ ٥٣٩.

(٥) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١٤.

(٦) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٤٨) والدارقطني (١٨/ ٨١).

(٧) ينظر تفسير القرطبي (١٨/ ٨١).

وفي صحيح مسلم: وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾. كانوا رجالاً [أجمل][١] شيء كأنهم خشبٌ مسنَّدةٌ شبههم بخشب مسندة إلى الحائطِ لا يسمعون ولا يعقلون أشباحٌ بلا أرواحٍ، وأجسامٌ بلا أحلامٍ[٢].

وقيل: شبههم بالخشب التي قد تآكلت فهي مسندة بغيرها لا يعلم ما في بطنها[٣].

قال الزمخشري[٤]: شبهوا في استنادهم بالخشب المسندة إلى حائط؛ لأنهم أجرام خاليةٌ عن الإيمان والخير بالخشب المسندة إلى الحائط، لأن الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار، أو غيرهما من مظان الانتفاع، وما دام متروكاً فارغاً غير منتفع به فأسند إلى الحائط، فشبهوا به في عدم الانتفاع، ويجوز أن يراد بها الأصنام المنحوتة من الخشب المسندة إلى الحيطان.

فصل في قراءة خشب

قرأ قنبل وأبو عمرو والكسائي[٥]: «خُشْبٌ» بإسكان الشين. وهي قراءة البراء بن عازب، واختيارُ أبي عُبيدٍ.

لأنَّ واحدتها خشبة كما تقول: بدنة وبُدْن. قاله الزمخشري[٦].

وقال أبو البقاء[٧]: و «خُشبٌ» ـ بالإسكان والضم ـ جمع خَشَب، مثل: أَسَد وأُسْد.

قال القرطبي[٨]: وليس في اللغة: «فَعَلَة» يجمع على «فُعُل»، ويلزم من ثقلها أن تقول: «البُدُن» فتقرأ: «والبُدُنَ»، وذكر اليزيدي أنه جمع الخشباءِ، كقوله تعالى: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ [عبس: ٣٠] واحدتها: حديقة غلباء.

وقرأ الباقون من السبعة: بضمتين.

وقرأ سعيد بن جبير[٩]، وابن المسيب: بفتحتين.

ونسبها الزمخشري لابن عبَّاس، ولم يذكر غيره[١٠].

---

(١) في أ: أكمل.

(٢) أخرجه مسلم ٤/ ٢١٤ في صفات المنافقين (١ ـ ٢٧٧٢) من حديث زيد بن أرقم.

(٣) ينظر: القرطبي (١٨/ ٨٢).

(٤) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٤٠.

(٥) ينظر: السبعة ٦٣٦، والحجة ٦/ ٢٩١، وإعراب القراءات ٢/ ٣٦٧، وحجة القراءات ٧٠٩، والعنوان ١٩١، وشرح شعلة ٦٠٣، وإتحاف ٢/ ٥٣٩.

(٦) الكشاف ٤/ ٥٤٠.

(٧) ينظر: الإملاء ٢/ ١٢٢٤.

(٨) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٨٢.

(٩) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣١٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٦٨، والدر المصون ٦/ ٣٢٠.

(١٠) ينظر الكشاف ٤/ ٥٤٠.

فأما القراءة ـ بضمتين ـ فقيل: يجوز أن تكون جمع خشبة، نحو: ثمرة وثُمر. قاله الزمخشري[١].

وفيه نظر؛ لأن هذه الصيغة محفوظة في «فَعَلَة» لا ينقاس نحو: ثَمَرَة وثُمر.

ونقل الفارسي عن الزبيدي: «أنه جمع: خَشْبَاء، وأخْشِبَة» غلط عليه؛ لأنه قد يكون قال: «خُشْب» ـ بالسكون ـ جمع «خَشْبَاء» نحو: «حَمْرَاء وحُمْر» لأن «فَعْلاء» الصفة لا تجمع على «فُعُل» بضمتين، بل بضمة وسكون.

وقوله: الزبيدي، تصحيف، إما منه، وإما من الناسخ، إنما هو اليزيدي تلميذ أبي عمرو بن العلاء، ونقل ذلك الزمخشري[٢].

وأما القراءة بضمة وسكون.

فقيل: هي تخفيف الأولى.

وقيل: هي جمع خشباء، كما تقدم.

وهي الخشبة التي نُخِر جوفها، أي: فرغ، شبهوا بها لفراغ بواطنهم مما ينتفع به[٣].

وأما القراءة ـ بفتحتين ـ فهو اسم جنس، وأنّث صفته، كقوله: ﴿نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] وهو أحد الجائزين.

وقوله: «مُسَنَّدَةٌ».

تنبيه على أنه لا ينتفعُ بها كما ينتفعُ بالخشب في سقفٍ وغيره، أو شبهوا بالأصنام؛ لأنهم كانوا يسندونها إلى الحيطان شبهوا بها في حسن صورهم وقلة جدواهم[٤].

وقيل: شُبِّهُوا بالخشب المُسنَّدةِ إلى الحائط، لأن الخشبة المسنَّدة إلى الحائط أحدُ طرفيها إلى جهة، والآخرُ إلى جهة أخرى.

والمنافق كذلك لأن أحد طرفيه وهو الباطن إلى جهة أهل الكفر، والطرف الآخر وهو الظاهرُ إلى جهة أهلِ الإسلام.

ونقل القرطبي[٥] عن سيبويه أنه يقال: «خَشَبةٌ وخِشَابٌ وخُشُبٌ» مثل: ثَمَرة وثِمَار وثُمر، والإسناد: الإمالة، تقول: أسندتُ الشيء أي: أملته، و «مُسَنَّدةٌ» للتكثير، أي: استندوا إلى الإيمان لحقن دمائهم.

---

(١) السابق.
(٢) ينظر: السابق، والدر المصون ٦/ ٣٢٠.
(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٢٠.
(٤) ينظر: السابق، والكشاف ٤/ ٥٤٠.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٨٢.

قوله: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾.

فيه وجهان[١]:

أظهرهما: أن «عليهم» هو المفعول الثاني للحسبان، أي واقعة وكائنة عليهم ويكون قوله: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ جملة مستأنفة، أخبر الله عنهم بذلك.

والثاني: أن يكون «عليهم» متعلقاً بـ «صَيحةٍ» و «هُمُ العَدُوُّ» جملة في موضع المفعول الثاني للحسبان.

قال الزمخشري[٢]: «ويجوز أن يكون «هُمُ العَدُوُّ» هو المفعولُ الثَّاني كما لو طرحت الضمير.

فإن قلت: فحقه أن يقال: هي العدُوُّ، قلت: منظور فيه إلى الخبر كما في قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٧]، وأن يقدر مضافٌ محذوفٌ أي: يحسبون كل أهلِ صيحةٍ» انتهى.

وفي الثاني بعد بعيد.

فصل

وصفهم الله تعالى بالجُبْنِ والخَوَر.

قال مقاتل والسدي: إذا نادى مناد في العسكر أن انفلتت دابة، أو أنشدت ضالّة ظنوا أنهم هم المرادون، لما في قلوبهم من الرعب[٣].

كما قال الأخطل: [الكامل]

٤٧٧٣ ـ مَا زِلْتَ تَحْسَبُ كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ خَيْلاً تكرُّ عَلَيْهِمُ ورِجَالا[٤]

وقيل: «يَحْسبُونَ كُلَّ صيْحَةٍ»، أنهم قد فطن بهم وعلم بنفاقهم؛ لأن للريبة خوفاً، استأنف الله خطاب نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال: «هم العَدُوُّ» وهذا معنى قول الضحاك[٥].

وقيل: يَحْسَبُونَ كُلَّ صيحةٍ يسمعونها في المسجد أنها عليهم، وأن النبي ﷺ قد أمر فيها بقتلهم، فهم أبداً وجِلُون من أن ينزل الله فيهم أمراً يبيح به دماءهم، ويَهْتِكُ به أَسْتارهُم، ثم وصفهم الله بقوله ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ حكاه عبد الرحمن بن أبي حاتم[٦]

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٢٠، ٣٢١. (٢) الكشاف ٤/ ٥٤١.

(٣) ينظر: القرطبي ١٨/ ٨٢.

(٤) غير موجود في ديوان الأخطل وإنما هو لجرير بن عطية.
ينظر شرح ديوان جرير ص ٥٤٣، وكذا نسبه أبو حيان في البحر ٨/ ٢٦٨ ونسبه الزمخشري والقرطبي إلى الأخطل ينظر الكشاف ٤/ ١٠٩، وشرح شواهده ص ٥٠٥، والقرطبي ١٨/ ٨٢.

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٨٢). (٦) ينظر تفسير ابن أبي حاتم مخطوط.

قوله: ﴿فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾. فيه وجهان[١]:

أحدهما: فاحذر أن تثق بقولهم، أو تميل إلى كلامهم.

الثاني: فاحذرممايلتهُم لأعدائك، وتخذيلهم لأصحابك.

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾.

قال ابن عباس: أي: لعنهم الله[٢].

قال أبو مالك: هي كلمةُ ذمٍّ وتوبيخ.

وقد تقول العرب: قاتله اللَّه ما أشعرهُ، فيضعونه موضع التعجب.

وقيل: معنى ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ أي: أحلَّهُم محلَّ من قاتله عدو قاهر، لأن الله تعالى قاهرٌ لكلِّ معاندٍ. حكاه ابن عيسى[٣].

قوله: ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾.

«أنى» بمعنى: كيف.

قال ابن عطية[٤]: ويحتمل أن يكون «أنى» ظرفاً لـ «قاتلهم»، كأنه قال: قاتلهم الله كيف انصرفوا، أو صرفوا، فلا يكون في القولِ استفهام على هذا. انتهى.

قال شهاب الدين[٥]: وهذا لا يجوز؛ لأن «أنَّى» إنما تستعمل بمعنى «كيف»، أو بمعنى «أين» الشرطية أو الاستفهامية، وعلى التقادير الثلاثة فلا تتمحض للظرف، فلا يعمل فيها ما قبلها ألبتَّة كما لا يعملُ في أسماءِ الشرط والاستفهام.

فصل

قال ابن عباس: «أنَّى يؤفكُونَ» أي: يكذبون[٦].

وقال قتادة: أي يعدلون عن الحق[٧].

وقال الحسن: يُصْرفُونَ عن الرشدِ[٨].

وقيل: معناه كيف تضل عقولهم على هذا مع وضوح الدَّلائل، وهو من الإفك.

قوله: «أنَّى» بمعنى: «كيف»، وقد تقدم[٩].

---

(١) ينظر: القرطبي (١٨/ ٨٢).

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٦) وينظر المصدر السابق.

(٣) ينظر القرطبي ١٨/ ٨٢.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٣١٣.

(٥) الدر المصون ٦/ ٣٢١.

(٦) ينظر القرطبي ١٨/ ٨٢.

(٧) ينظر المصدر السابق.

(٨) ينظر المصدر السابق.

(٩) ينظر: القرطبي ١٨/ ٨٢.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾.

هذه المسألة عدها النحاة من الإعمال، وذلك أن «تعالوا» يطلب «رَسُولُ اللَّهِ» مجروراً بـ «إلى» أي: تعالوا إلى رسول الله.

و «يَستَغْفِرْ» يطلبه فاعلاً، فأعمل الثاني، ولذلك رفعه، وحذف من الأول، إذ التقديرُ: تَعَالوا إليْهِ. ولو أعمل الأول لقيل: تعالوا إلى رسول الله يستغفر، فيضمر في «يستغفر» فاعل.

ويمكن أن يقال: ليست هذه من الإعمالِ في شيء؛ لأن قوله «تعالوا» أمر بالإقبال من حيث هو، لا بالنظر إلى مقبل عليه[١].

قوله: ﴿لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾ هذا جواب «إذا».

وقرأ نافع: «لَوَوْا» مخففاً[٢]، والباقون مشدداً على التكثير.

و «يَصُدُّونَ» حالٌ؛ لأن الرؤية بصرية، وكذا قوله: «وهُمْ يَسْتَكبرُونَ» حال أيضاً، إما من أصحاب الحال الأولى، وإما من فاعل «يصدون» فتكون متداخلة.

وأتي بـ «يَصُدُّون» مضارعاً دلالة على التجدُّدِ والاستمرارِ[٣].

وقرىء[٤]: «يَصِدُّونَ» بالكسر.

وقد تقدمتا في «الزخرف»[٥].

فصل في نزول الآية[٦]

لما نزل القرآن بصفتهم مشى إليهم عشائرهم وقالوا: افتضحتم بالنفاقِ فتوبوا إلى رسول الله ﷺ من النفاق، واطلبوا أن يستغفر لكم، فلووا رءوسهم أي: حرَّكُوها استهزاء وإباء. قاله ابن عباس[٧].

وعنه أنه كان لعبد الله موقف في كل سبب يحُضُّ على طاعة الله، وطاعة رسوله، فقيل له: وما ينفعك ذلك ورسول الله ﷺ عليك غضبان، فأته يستغفر لك فأبى، وقال: لا أذهب إليه.

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٢١.

(٢) ينظر: السبعة ٦٣٦، والحجة ٦/ ٢٩٢، وإعراب القراءات ٢/ ٣٦٨، وحجة القراءات ٧٠٩، والعنوان ١٩١، وشرح الطيبة ٦/ ٥٥، وشرح شعلة ٦٠٣، وإتحاف ٢/ ٥٤٠.

(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٢١.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣١٤، والبحر المحيط ٨/ ٢٦٩، والدر المصون ٦/ ٣٢١.

(٥) آية (٥٧). (٦) ينظر: القرطبي ١٨/ ٨٣.

(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٨٣).

قال المفسِّرون: وسبب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ غزا بني المصطلق على ماء يقال له: «المُرَيْسِيعُ» من ناحية «قُدَيد» إلى السَّاحل فازدهم أجير لعمر يقال له: «جهجاه بن سعيد الغفاري» يقود له فرسه بحليف لعبد الله بن أبيٍّ، يقال له: «سِنَانُ بنُ وبرة الجهنِيُّ» حليفُ بني عوفٍ من الخزرج على ماء «بالمشلَّل» فصرخ جهجاه بالمهاجرين، وصرخ سنان بالأنصارِ فلطم جهجاه سناناً وأعان عليه جهجاه فأعان جهجاه رجل من المهاجرين يقال له: حقالٌ، وكان فقيراً، فقال عبد الله بن أبي: أوقد فعلوها؟ والله ما مثلنا ومثلهم إلاَّ كما قال الأولُ: «سَمِّنْ كلْبَكَ يأكلْكَ» أما ـ والله ـ لَئِنْ رَجَعْنَا إلى «المدينة» ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، يعني محمداً ﷺ ثم قال لقومه: كفوا طعامكم عن هذا الرجل، لا تنفقوا على من عنده حتى ينفضّوا ويتركوه، فقال زيد بن أرقم ـ وهو من رهط عبد الله ـ أنت ـ والله ـ الذليلُ المنتقص في قومك، ومحمد ﷺ في عز من الرحمن، ومودة من المسلمين، والله لا أحبّك بعد كلامك هذا أبداً، فقال عبد الله: اسكت إنما كنتُ ألعبُ، فأخبر زيد النبي ﷺ بقوله، فأقسم بالله ما فعل ولا قال، قال: فعذره النبي ﷺ قال زيد بن أرقم: فوجدت في نفسي ولامني الناسُ، فنزلت سورةُ المنافقين في تصديق زيد وتكذيب عبد الله، فقيل لعبد الله: قد نزلت فيك آياتٌ شديدة، فاذهب إلى رسول الله ﷺ ليستغفر لك، فألوى رأسه فنزلت الآيات. خرجه البخاري والترمذي بمعناه[1].

وقيل: معنى قوله: ﴿يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ﴾ يستتبكم من النِّفاق، لأن التوبة استغفارٌ ﴿ورَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ أي يعرضون عن الرسول ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي متكبرون عن الإيمان[2].

قيل: قال ابن أبيّ لما لوى رأسه: أمرتموني أن أومن فقد آمنت، وأن أعطي الزكاة من مالي فقد أعطيتُ، فما بقي إلا أن أسجدَ لمحمدٍ.

قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾.

قرأ العامَّة: «أَسْتَغْفَرْتَ» بهمزةٍ مفتوحةٍ من غير مدٍّ، وهي همزة التسوية التي أصلُها الاستفهامُ.

وقرأ يزيد[3] بن القعقاع: «آسْتَغفَرْتَ» بهمزة ثم ألف.

فاختلف الناسُ في تأويلها:

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٥٢٠) كتاب التفسير، باب قوله: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل رقم (٤٩٠٧).

(٢) ينظر: القرطبي ١٨/ ٨٣.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣١٤، والبحر المحيط ٨/ ٢٦٩، والدر المصون ٦/ ٣٢١.

فقال الزمخشري[١]: إشباعاً لهمزة الاستفهام للإظهار والبيانِ لا قلباً لهمزة الوصل كما في «آلسِّحْرُ» [يونس: ٥٩] و «آللَّهُ» [يونس: ٨١].

يعني إنما أشبع همزة التسوية فتولد منها ألف.

وقصده بذلك إظهار الهمزة وبيانها، إلا أنه قلب الوصل ألفاً كما قلبها في قوله: ﴿آلسحر، آلله أذن لكم﴾ لأنَّ هذه الهمزة للوصل، فهي تسقط في الدرج، وأيضاً فهي مكسورة فلا يلتبس معها الاستفهام بالخبر بخلاف «آلسّحر»، «آللّه أذن لكم».

وقال آخرون[٢]: هي عوض عن همزة الوصلِ، كما في ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣].

وهذا ليس بشيء؛ لأن هذه مكسُورة فكيف تبدل ألفاً.

وأيضاً فإنما قلبناها هناك ألفاً ولم نحذفها وإن كان حذفها مستحقاً لئلا يلتبس الاستفهام بالخبر، وهنا لا لبس.

وقال ابن عطية[٣]: وقرأ أبو جعفر يعني يزيد بن القعقاع: «آسْتغْفَرتَ» بمدَّةٍ على الهمزة وهي ألف التسوية. وقرأ أيضاً: بوصل الألف دون همزة على الخبر، وفي هذا كله ضعف، لأنه في الأولى أثبت همزة الوصل وقد أغنت عنها همزة الاستفهام، وفي الثانية حذف همزة الاستفهام، وهو يريدُها، وهذا مما لا يستعمل إلا في الشعر.

قال شهاب الدين[٤]: أما قراءته «استغفرت» بوصل الهمزة فرويت أيضاً عن أبي عمرو، إلا أنه يضم ميم «عَلَيْهِمُ» عند وصله الهمزة لأن أصلها الضم، وأبو عمرو يكسرها على أصل التقاءِ الساكنينِ.

وأما قوله: وهذا مما لا يستعمل إلا في الشعر، فإن أراد بهذا مدَّ هذه الهمزة في هذا المكان فصحيح، بل لا تجده أيضاً، وإن أراد حذف همزة الاستفهام، فليس بصحيح؛ لأنه يجوز حذفها إجماعاً قبل «أم» نثراً ونظماً، فأما دون «أم» ففيه خلاف.

والأخفش رحمه الله يجُوِّزه، ويجعل منه ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾ [الشعراء: ٢٢].

وقول الآخر: [الطويل]

٤٧٧٤ ـ [طَرِبْتُ ومَا شَوْقاً إلى البِيضِ أطْرَبُ ... ولا لَعِباً مِنِّي وذُو الشَّيْبِ يلعَبُ][٥]

وقول الآخر: [المنسرح]

٤٧٧٥ ـ أفْرَحُ أنْ أرْزأ الكِرَامَ وأنْ ... أورَثَ ذَوْداً شَصَائِصاً نَبَلا[٦]

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٤٣.
(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٢١.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣١٤.
(٤) الدر المصون ٦/ ٣٢٢.
(٥) تقدم.
(٦) تقدم.

وأما قبل «أم» فكثير، كقوله: [الطويل]

٤٧٧٦ ـ لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وإنْ كُنْتُ دَارِياً ... بِسَبْعٍ رَمَيْنَ الجَمْرَ أمْ بِثَمَانِ[١]

وقد تقدمت هذه المسألة مستوفاة.

فصل في نزول هذه الآية

قال قتادةُ: هذه الآية نزلت بعد قوله: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، وذلك أنَّها لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «أخبرني ربي فلأزيدنهم على السبعين»، فأنزل الله تعالى: ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] الآية.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد بالفاسِقينَ المُنافقُونَ[٢].

فصل في تفسير الآية

معنى[٣] قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾.

أي: كل ذلك سواء لا ينفع استغفارك شيئاً؛ لأن الله تعالى لا يغفر لهم، نظيره: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

قال ابن الخطيب[٤]: قال قوم: فيه بيان أن الله ـ تعالى ـ يملك هداية وراء هداية البيان، وهي خلق فعل الاهتداء فيمن علم منه ذلك.

وقيل: معناه لا يهديهم لفسقهم، وقالت المعتزلة: لا يُسمِّيهم المهتدينَ إذا فَسَقُوا وضلُّوا.

فإن قيل: لم ذكر الفاسقين ولم يقل: الكافرين أو المنافقين أو المستكبرين مع أن كلاً منهم تقدم ذكره؟.

فالجواب[٥]: أن كل واحد منهم دخل تحت الفاسقين.

قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى

---

(١) تقدم.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٠٤) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٣٧) عن ابن عباس.

(٣) ينظر: القرطبي ١٨/ ٨٤.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١٥.

(٥) السابق ٣٠/ ١٦.

ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ﴾.

قد تقدم سببُ النزول، وأن ابن أبي قال: لا تنفقوا على من عند محمد «حتى ينفضوا» أي يتفرقوا عنه، فأعلمهم الله سبحانه وتعالى أن خزائن السماوات والأرض له ينفق كيف يشاء[١].

قال رجل لحاتم الأصم: من أين تأكل؟ فقال: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وقال الحسن: «خزائنُ السماوات» الغُيوبُ، وخزائنُ الأرضِ القلوبُ، فهو علاَّمُ الغيوب ومُقلبُ القُلوبِ[٢].

قوله: ﴿يَنفَضُّوا۟ ۗ﴾.

قرأ العامَّةُ: «ينفضُّوا» من الانفضاضِ وهو التفرقُ.

وقرأ الفضلُ بن عيسى[٣] **الرقاشي**: «يُنْفِضُوا» من أنفض القوم، فني زادهم.

ويقال: نفض الرجل وعاءه من الزاد فانفضّ.

فيتعدى دون الهمزة ولا يتعدى معها، فهو من باب «كَبتهُ فانْكَبَّ».

قال الزمخشري[٤]: وحقيقته جاز لهم أن ينفضوا مزاودهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أنه إذا أراد أمراً يسره[٥].

قوله: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ﴾.

القائل ابن أبيّ، كما تقدم.

وقيل: إنه لما قال: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ﴾ ورجع إلى المدينة لم يلبث إلا أياماً يسيرة حتى مات، فاستغفر له رسول الله ﷺ وألبسه قميصه، فنزل قوله: ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ﴾.

وروي أن عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سَلُولَ قال لأبيه: والله الذي لا إله إلا هو لا تدخل المدينة حتى تقول: إن رسول الله ﷺ هو الأعزُ وأنا الأذلُّ، فقاله.

توهموا أن العزة لكثرةِ الأموال والأتباعِ فبيَّن اللَّهُ ـ تعالى ـ أنَّ العزَّة والمنَعَة والقُوَّة لله[٦].

---

(١) ينظر: القرطبي ١٨/ ٨٤. (٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٨٤).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣١٤، والبحر المحيط ٨/ ٢٧٠، والدر المصون ٦/ ٣٢٢.

(٤) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٤٣. (٥) ينظر: القرطبي ١٨/ ٨٤.

(٦) ينظر السابق.

قوله: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾.

قرأ العامَّةُ: بضم الياء وكسر الراء مسنداً إلى «الأعزّ» و «الأذلّ» مفعول به، والأعزُّ بعضُ المنافقين على زعمه.

وقرأ الحسن[1] **وابنُ أبي عبلة والمسيبي**: «لَنُخْرِجَنَّ» بنون العظمة، وبنصب «الأعزَّ» على المفعول به، ونصب «الأذَلَّ» على الحالِ.

وبه استشهد من جوز تعريفها.

والجمهور جعلوا «أل» مزيدة على حدّ «أرسلها العراك» و «ادخلوا الأول فالأول».

وجوَّز أبو البقاء[2]: أن يكون منصوباً على المفعولِ، وناصبه حال محذوفةٌ، أي: مشبهاً الأذلَّ.

وقد خرجه الزمخشري على حذف مضافٍ، أي: خروج الأول أو إخراج الأول[3].

يعني بحسب القراءتين من «خرج وأخرج» فعلى هذا ينتصب على المصدر لا على الحال.

ونقل الدَّاني عن الحسن أيضاً: «لنخرُجَنَّ» بفتح نون العظمة وضم الراء، ونصب «الأعزَّ» على الاختصاص كقولهم: «نحن العرب أقرى النَّاس للضيفِ» و «الأذلَّ» نصب على الحال أيضاً. قاله أبو حيان[4].

وفيه نظر، كيف يخبرون عن أنفسهم أنهم يخرجون في حال الذل مع قولهم: «الأعز» أي: «أخُصُّ الأعزَّ» ويعنون بـ «الأعزِّ» أنفسهُم.

وقد حكى هذه القراءة أيضاً أبو حاتم.

وحكى الكسائي والفرَّاء: أن قوماً قرأوا: «لَيَخْرُجنَّ» ـ بفتح الياء وضم الراء ـ ورفع «الأعزّ» فاعلاً ونصب «الأذل» حالاً.

وهي واضحة[5].

وقرىء[6]: «ليُخْرَجَنَّ» ـ بضم الياء ـ مبنيًا للمفعول، «الأعز» قائم مقام الفاعل «الأذلّ» حال أيضاً.

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٤٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٣١٥، والبحر المحيط ٨/ ٢٧٠، والدر المصون ٦/ ٣١٣.

(٢) ينظر: الإملاء ٢/ ١٢٢٤.

(٣) الكشاف ٤/ ٥٤٣.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٢٧٠.

(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٢٣.

(٦) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٧٠، والدر المصون ٦/ ٣٢٣.

فصل في ختم الآية بـ «لا يفقهون»

قال ابن الخطيب[١]: فإن قيل: ما الحكمةُ في أنه تعالى ختم الآية الأولى بقوله: «لا يَفْقَهُونَ» وختم الثَّانية بقوله: «لاَ يَعْلَمُونَ»؟.

فالجواب: ليعلم بالأولى قلة كياستهم وفهمهم، وبالثانية حماقتهم وجهلهم، ولا يفقهون من فِقِهَ يَفْقَهُ، كعلِمَ يَعْلَمُ، أو من فقُهَ يَفقهُ، كعَظُمَ يَعظُمُ، فالأول لحصولِ الفقه بالتكلُّفِ، والثاني لا بالتكلُّفِ، فالأول علاجيٌّ، والثاني مزاجي.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ﴾.

حذَّر المُؤمنين أخلاق المنافقين، أي: لا تشتغلوا بأموالكم كما فعل المُنافقُون إذ قالُوا ـ لأجلِ الشُّحِّ بأموالهم ـ: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾.

وقوله: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ﴾.

أي: عن الحجِّ والزكاة.

وقيل: عن قراءة القرآن.

وقيل: عن إدامة الذكر.

وقال الضحاك: عن الصلواتِ الخمس[٢].

وقال الحسنُ: عن جميعِ الفرائضِ[٣]، كأنه قال: عن طاعة الله.

وقيل: هذا خطاب للمنافقين، أي: آمنتم بالقول فآمنوا بالقلب، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ يشتغل بالمالِ والولدِ عن طاعةِ ربهِ ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾.

قوله: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم﴾.

قال ابن عباس: يُريدُ زكاة الأمْوالِ[٤].

---

(١) ينظر: التفسير الكبير ٣٠/ ١٧.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٤٠) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.
وأخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٠٩).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٨٤).

(٤) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٠/ ١٧) عن ابن عباس.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾.

قال القرطبي[١]: «هذا يدل على وجوب تعجيل إخراج الزَّكاةِ ولا يجوزُ تأخيرها أصلاً وكذلك سائر العبادات إذا دخل وقتها».

قال ابن الخطيب[٢]: وبالجملة فقوله: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ تنبيه على المحافظة على الذِّكرِ قبل المَوْتِ، وقوله: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾: تنبيه على الشكر كذلك.

قوله: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ﴾.

أي: هلاَّ أخَّرتَنِي.

وقيل: «لا» صلة، فيكونُ الكلامُ بمعنى التَّمنِّي.

أي لو أخرتني إلى أجل قريب فنسأل الرجعة إلى الدنيا لنعمل صالحاً.

روى الترمذي عن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس قال: «مَنْ كَانَ لَهُ مالٌ يُبلِّغهُ حَجَّ بَيْتِ ربِّهِ أو يَجبُ عليهِ فِيهِ زكاةٌ فَلمْ يَفْعَلْ، سَألَ الرَّجْعَةَ عِنْدَ الموْتِ، فقال رجُلٌ: يا ابْنَ عبَّاس، اتَّقِ اللَّهِ، إنَّما سأل الرَّجعة الكُفَّارُ، فقال: سأتلُو عليْكَ بذلكَ قرآناً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قال: فما يوجبُ الزَّكاة؟ قال: إذا بلغ المال مائتين فصاعداً، قال: فما يوجبُ الحجَّ؟ قال: الزادُ والراحلةُ»[٣].

قال القرطبيُّ: ذكره الحليمي في كتاب «منهاج الدين» مرفوعاً، فقال: وقال ابن عبَّاس قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ عِنْدهُ مالٌ يُبلِّغهُ الحَجَّ» الحديث[٤].

قال ابنُ العربيِّ: «أخذ ابنُ عباس بعموم الآية في إنفاق الواجب خاصة دون النفلِ، فأما تفسيره بالزَّكاةِ فصحيح كلُّه عموماً وتقديراً بالمائتين.

وأما القولُ بالحج ففيه إشكالٌ؛ لأننا إن قلنا: الحج على التراخي ففي المعصية بالموتِ قبل الحج خلافٌ بين العلماءِ، فلا تخرج الآية عليه.

وإن قلنا: الحج على الفور فالعمومُ في الآية صحيحٌ لأنَّ من وجب عليه الحج فلم

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٨٥.

(٢) ينظر: التفسير الكبير ٣٠/ ١٨.

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٩٠) رقم (٣٣١٦) والطبري في «تفسيره» (١٢/ ١١٠) عن ابن عباس موقوفاً. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٤٠) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه.

(٤) ينظر الحديث السابق.

يؤده لقي من الله ما يودُّ لو أنه رجع ليأتي بما ترك من العبادات.

وأما تقدير الأمر بالزاد والراحلة ففي ذلك خلاف مشهور بين العلماء، وليس لكلام ابن عباس فيه مدخل، لأجلِ أن الرجعة والوعيد لا يدخل في المسائل المجتهد فيها ولا المختلف عليها، وإنما تدخلُ في المتفقِ عليه.

والصحيح تناوله للواجب من الإنفاق بالإجماع أو بنصّ القرآن؛ لأن ما عدا ذلك لا يتحقق فيه الوعيدُ».

قوله: ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾.

نصب على جواب [التمني][1] في قوله: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ﴾.

وقرأ أبي وعبد الله وابن جبير[2]: «فأتَصَدَّقَ»، وهي أصل قراءة العامة ولكن أدغمت الفاء في الصاد.

قوله: «وأكُنْ».

قرأ أبو عمرو: «وأكونَ»[3] بنصب الفعل عطفاً على «فأصَّدَّقَ».

والباقون: «وأكُنْ» مجزوماً، وحذفت الواوُ لالتقاءِ الساكنين.

واختلفت عباراتُ الناس في ذلك[4].

فقال الزمخشري[5]: «عطفاً على محل «فأصَّدَّقَ» كأنَّه قيل: إنْ أخَّرتني أصَّدقْ وأكُنْ».

وقال ابن عطية[6]: عطفاً على الموضع؛ لأنَّ التقدير: إن أخرتني أصَّدقْ وأكُنْ، وهذا مذهب أبي علي الفارسي».

وقال القرطبي[7]: «عطفٌ على موضع الفاء، لأن قوله: «فأصدق» لو لم تكن الفاء لكان مجزوماً، أي «أصَّدَّقْ»، ومثله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرْهُمْ﴾ [الأعراف: ١٨٦] فيمن جزم.

فأما ما حكاه سيبويه[8] عن الخليل فهو غيرُ هذا، وهو أنه جزمٌ على توهم

(١) في أ: النهي.
(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٤٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٣١٦، والبحر المحيط ٨/ ٢٧٠.
(٣) ينظر: السبعة ٦٣٧، والحجة ٦/ ٢٩٣، وإعراب القراءات ٢/ ٣٦٩، وحجة القراءات ٧١٠، والعنوان ١٩١، وشرح الطيبة ٦/ ٥٦، وشرح شعلة ٦٠٣، وإتحاف ٢/ ٥٤٠.
(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٢٣.
(٥) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٤٤.
(٦) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣١٥.
(٧) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٨٦.
(٨) ينظر: الكتاب ١/ ٤٤٩.

الشرط الذي يدل عليه التمني، ولا موضع له هنا لأنَّ الشرط ليس بظاهر، وإنما يعطف على الموضع بحيث يظهرُ الشرطُ، كقوله: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فمن جزم عطفه على موضع «فلا هَادِي لَه»؛ لأنه لو وقع موقعه فعل لانجزم» انتهى.

وهذا الذي نقله سيبويه هو المشهور عند النحويين.

ونظَّر ذلك سيبويه بقول زهير رحم الله المؤمنين: [الطويل]

٤٧٧٧ ـ بَدَا لِيَ أنّي لَسْتُ مُدْرِكَ ما مَضَىٰ ولا سَابِقٍ شَيْئاً إذَا كَانَ جَائِيَا[١]

فخفض «ولا سابقٍ» عطفاً على «مدركٍ» الذي هو خبرُ «ليس» على توهم زيادة الباء فيه قد كثر جرّ خبرها بالباء المزيدةِ، وهو عكسُ الآية الكريمة؛ لأنه في الآيةِ جزم على توهُّم سقوطِ الفاءِ، وهنا خفض على توهُّم وجود الباء، ولكن الجامع توهم ما يقتضي جواز ذلك.

قال شهاب الدين[٢]: «ولكني لا أحب هذا اللفظ مستعملاً في القرآن الكريم، فلا يقال: جزم على التوهم لقبحه لفظاً».

وقال أبو عبيد: رأيت في مصحف عثمان «أكن» بغير واو.

وقد فرق أبو حيان بين العطف على الموضع والعطف على التوهم فقال[٣]: «الفرقُ بينهما أنَّ العامل في العطف على الموضع موجودٌ، وأثره مفقودٌ، والعامل في العطفِ على التوهم مفقود، وأثره موجود». انتهى.

قال شهاب الدين[٤]: «مثال الأول «هذا ضارب زيد وعمراً» فهذا من العطف على الموضع فالعامل وهو «ضارب» موجود، وأثره وهو النصب مفقود، ومثال الثاني ما نحن فيه، فإن العامل للجزم مفقود وأثره موجود، وأصرحُ منه بيتُ زهيرٍ، فإن الباء مفقودةٌ وأثرُها موجود، ولكن أثرها إنما ظهر في المعطوفِ لا في المعطوفِ عليه، وكذلك في الآية الكريمة، ومن ذلك أيضاً بيت امرىء القيس: [الطويل]

٤٧٧٨ ـ فَظَلَّ طُهَاةُ اللَّحْمِ مِنْ بَيْنِ مُنْضِجٍ صَفِيفِ شِوَاءٍ أو قَدِيدٍ مُعَجَّلِ[٥]

فإنهم جعلوه من العطف على التوهُّم، وذلك أنه توهّم أنه أضاف «منضجٍ» إلى «صفيف» وهو لو أضافه إليه فجره فعطف «قديدٍ» على «ضعيفٍ» بالجر توهماً لجرّه بالإضافة».

---

(١) تقدم.
(٢) الدر المصون ٦/ ٣٢٣.
(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٧١.
(٤) الدر المصون ٦/ ٣٢٣.
(٥) تقدم.

وقرأ عبيد[١] **بن عمير**: «وأكُونُ» برفع الفعل على الاستئناف، أي: «وأنَا أكُونُ»، وهذا عدةٌ منه بالصلاح.

فصل فيما تدل عليه الآية

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الآية تدل على أن القوم لم يكونوا من أهل التوحيد؛ لأنه لا يتمنى الرجوع إلى الدنيا أو التأخير فيها أحد له عند الله خير في الآخرة[٢].

قال القرطبي[٣]: «إلا الشَّهيد فإنه يتمنّى الرجوع حتى يقتل لما يرى من الكرامة».

وقال الضحاك: لم ينزل بأحد لم يحجّ ولم يؤد الزكاة الموت إلا طلب الرجعة وقرأ هذه الآية[٤] ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشرّ[٥].

قرأ أبو بكر[٦] **عن عاصم والسلمي**: بالياء من تحت على الخبر على من مات، وقال هذه المقالة.

والباقون: بالخطاب، وهما واضحتان[٧].

روى الثعلبي في تفسيره عن أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قَرَأ سُورةَ المُنافقينَ بَرِىءَ مِنَ النِّفَاقِ»[٨]. والله أعلم.

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٤٤، والبحر المحيط ٨/ ٢٧١، والدر المصون ٦/ ٣٢٤.
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٨٦).
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٨٦.
(٤) ينظر: التفسير الكبير ٣٠/ ١٨.
(٥) ذكره القرطبي في تفسيره (١٨/ ٨٦).
(٦) ينظر: السبعة ٦٣٧، والحجة ٦/ ٢٩٤، وإعراب القراءات ٢/ ٣٧٠، وحجة القراءات ٧١١، والعنوان ١٩١، وشرح الطيبة ٦/ ٥٩، وإتحاف ٢/ ٥٤١.
(٧) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٢٤.
(٨) تقدم تخريجه وهو حديث أبيّ بن كعب في فضائل القرآن سورة سورة وهو حديث موضوع.

سورة التغابن

مدنيّة في قول الأكثرين[1].

وقال الضحاك: مكيّة[2]. وقال الكلبي: هي مدنية ومكية[3].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن سورة «التغابن» نزلت بـ «مكة» إلا آيات من آخرها نزلت بـ «المدينة» في عوف بن مالك الأشجعي، شكا إلى رسول الله ﷺ جفاء أهله وولده، فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ﴾ [التغابن: ١٤] إلى آخرها[4].

وهي ثماني عشرة آية ومائتان وإحدى وأربعون كلمة، وألف وسبعون حرفاً.

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَولود يُولَدُ إلاّ وفِي تَشَابِيك رأسِهِ مكتُوبٌ خَمْسُ آياتٍ من فاتِحَةِ سُورةِ التَّغابُنِ»[5].

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ

---

(١) ينظر: القرطبي (١٨/ ٨٧).
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٨٧).
(٣) ينظر المصدر السابق.
(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثر» (٦/ ٣٤٢) وعزاه إلى النحاس.
(٥) أخرجه ابن حبان في «المجروحين» (٣/ ٨٠) ومن طريقه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٥٢) من طريق الوليد بن الوليد العنسي عن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن عطاء بن أبي رباح عن عبد الله بن عمرو به، وقال: موضوع قال ابن حبان: لا يحل الاحتجاج بالوليد وتعقبه السيوطي في «اللآلىء المصنوعة» (١/ ٩٨) وقال: قلت: قال في الميزان قال فيه أبو حاتم صدوق وقال الحافظ ابن حجر في «اللسان» ذكره ابن حبان في «الثقات» ثم غفل فذكره في «الضعفاء» فقال روى عن ابن ثوبان نسخة أكثرها مقلوبة وقال أبو نعيم روى عن ابن ثوبان موضوعات، والحديث أخرجه الطبراني في «الأوسط» وابن مردويه في التفسير وأخرجه البخاري في «تاريخه» عن ابن عمرو موقوفاً.
وله شاهد عن أبي ذر موقوفاً، أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١١٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٤٢) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. تقدم نظيره.

قال ابن الخطيب[(١)]: وجه تعلق هذه السورة بما قبلها، هو أن تلك السورة للمنافقين الكاذبين، وهذه السورة للموافقين الصادقين، وأيضاً فإن تلك السورة مشتملة على ذكر النفاق سرًّا وعلانية، وهذه السورة مشتملة على التهديد البالغ لهم عن ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، وأما تعلق هذه السورة بآخر التي قبلها فلأن في آخر تلك السورة التنبيه على الذكر والشكر كما تقدم، وفي أول هذه السورة أشار إلى أن في الناس أقواماً يواظبون على الذِّكر والشكر دائماً وهم الذين يُسَبِّحُون، كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

قوله: ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾.

مبتدأ وخبر، وقدم الخبر ليفيد اختصاص الملك والحمد لله تعالى، إذ الملك والحمد له ـ تعالى ـ حقيقة[(٢)] ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله خلق بني آدم مؤمناً وكافراً، ويعيدهم في يوم القيامة مؤمناً وكافراً[(٣)].

وروى أبو سعيد الخدري قال: خطبنا رسول الله ﷺ عشية فذكر شيئاً مما يكون، فقال: «يُولَدُ النَّاسُ على طَبقاتٍ شَتَّى: يُولَدُ الرَّجُلُ مُؤمِناً ويَعيشُ مُؤمِناً ويمُوتُ مُؤمِناً ويُولَدُ الرَّجُلُ كَافِراً ويَعيشُ كَافِراً ويمُوتُ كَافِراً، ويُولَدُ الرَّجُلُ مُؤمِناً ويَعيشُ مُؤمِناً ويَمُوتُ كَافِراً، ويُولَدُ الرَّجلُ كَافِراً ويَعيشُ كَافِراً ويَمُوتُ مُؤمِناً»[(٤)].

وقال ابن مسعود: قال النبي ﷺ: «خَلَقَ اللَّهُ فِرْعونَ في بَطْنِ أُمِّهِ كَافِراً، وخلق يَحْيَى بْنَ زكريَّا في بَطْنِ أمِّهِ مُؤمِناً»[(٥)].

---

(١) ينظر: التفسير الكبير (٣٠/ ١٩).
(٢) ينظر: الدر المصون (٦/ ٣٢٥).
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٨٧) عن ابن عباس.
(٤) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٣٢٤٣٨) من حديث ابن مسعود وله شاهد من حديث ابن عباس ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٤٣) وعزاه إلى ابن مردويه.
(٥) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢٧٦) وأبو نعيم في أخبار أصفهان (٢/ ١٩٠) وابن عدي في=

وفي الصحيح من حديث ابن مسعود: «وإنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حتَّى ما يكُونَ بَيْنَهُ وبَيْنَهَا إلاَّ ذِرَاعٌ أو باعٌ فيَسبقُ عليهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بعملِ أهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وإن كان أحَدُكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَملِ أهْلِ النَّارِ حتَّى ما يكُونَ بَيْنَهُ وبَيْنَهَا إلاَّ ذراعٌ أو باعٌ فَيَسْبِقُ عليهِ الكِتَابُ فيَعْمَلُ بِعَملِ أهْلِ الجنَّةِ فَيدخُلُهَا»(١).

وفي صحيح مسلم عن سهل بن سعد الساعدي: أن رسول الله قال: «إنَّ الرَّجُلَ ليَعملُ عَمَلَ أهْلِ الجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو للنَّاسِ وهُوَ مِنْ أهْلِ النَّارِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أهْلِ النَّارِ فيمَا يَبْدُو للنَّاسِ وهُوَ من أهْلِ الجَنَّةِ»(٢).

قال القرطبي(٣) رحمه الله: قال علماؤنا: والمعنى تعلق العلم الأزلي بكل معلوم، فيجري ما علم وأراد وحكم، فقد يريد إيمان شخص على عموم الأحوال، وقد يريده إلى وقت معلوم، وكذلك الكفر. وقيل: في الكلام محذوف تقديره: فمنكم كافر ومنكم مؤمن ومنكم فاسق، فحذف لما في الكلام من الدلالة عليه. قاله الحسن.

وقال غيره: لا حذف فيه؛ لأن المقصود ذكر الطرفين.

وقيل: إنه خلق الخلق ثم كفروا وآمنوا، والتقدير: «هُو الَّذي خَلقَكُمْ»، ثم وصفهم فقال: «فَمِنكُمْ كَافِرٌ ومِنكُمْ مُؤمِنٌ» كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ [النور: ٤٥] الآية، قالوا: فالله خلقهم مؤمنين وكافرين لما وصفهم بفعلهم في قوله ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾، واحتجوا بقوله عليه الصلاة والسلام: «كُلُّ مَولُودٍ يُولَدُ على الفِطرةِ فأبواهُ يهوِّدانهِ ويُنصِّرانهِ ويُمجِّسانِهِ»(٤).

قال البغوي(٥): وروينا عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغلامَ الذي قَتلهُ الخضِرُ طُبعَ كافراً»(٦).

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

وروى أنس عن النبي ﷺ قال: «وكل اللَّهُ بالرَّحمِ مَلكاً، فيقُولُ: أي: ربِّ نُطفَةٌ،

= «الكامل» (٦/ ٢٧٦) من طريق أبي هلال الراسبي عن قتادة عن أبي حسان الأعرج عن ناجية بن كعب عن عبد الله بن مسعود.
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٩٦) وقال: رواه الطبراني وإسناده جيد.

(١) تقدم. (٢) تقدم.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٨٨). (٤) تقدم.

(٥) ينظر: معالم التنزيل ٤/ ٣٥٢.

(٦) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٥٠) كتاب القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة حديث (٢٩/ ٢٦٦١) والخطيب (٦/ ١٤٨) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب مرفوعاً.

أي ربِّ علقةٌ، أي: ربِّ مُضغةٌ، فإذا أرادَ اللَّهُ أن يقْضِيَ خَلْقَهَا، قال: ربِّ أذكرٌ أم أنثى؟ أشقيٌّ أم سعيدٌ؟ فما الرِّزْقُ؟ فما الأجلُ؟ فيُكْتَبُ ذلِكَ في بَطْنِ أمِّهِ».

وقال الضحَّاك: فمنكم كافر في السِّر، مؤمن في العلانية كالمنافق، ومنكم مؤمن في السر، كافر في العلانية كعمّار وذويه[١].

وقال عطاء بن أبي رباح: فمنكم كافر بالله مؤمن بالكوكب، ومنكم مؤمن بالله كافر بالكوكب يعني في شأن الأنْوَاء، كما جاء في الحديث[٢].

قال القرطبي[٣]: وقال الزجاج[٤] ـ وهو أحسن الأقوال ـ: والذي عليه الأئمة أن الله خلق الكافر، وكُفره فعل له وكسبٌ، مع أن الله خالق الكفر، وخلق المؤمن، وإيمانه فعل له وكَسْب، مع أنَّ الله خالق الإيمان، والكافر يكفر، ويختار الكفر بعد خلق اللَّه تعالى إياه؛ لأن اللَّه ـ تعالى ـ قدّر ذلك عليه وعلمه منه؛ لأن وجود خلاف المقدور عجز، ووجود خلاف المعلوم جهل، ولا يليقان باللَّه تعالى، وفي هذا سلامة من الجَبْر والقدر. وروي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: فمنكم كافر حياته مؤمن في العاقبة، ومنكم مؤمن حياته كافر في العاقبة[٥].

وقيل: فمنكم كافر بأن الله خلقه، وهو مذهب الدَّهْرية، ومنكم مؤمن بأن الله خلقه.

قال ابن الخطيب[٦]: فإن قيل: إنه ـ تعالى ـ حكيم وقد سبق في علمه أنه إذا [خلقهم لم يفعلوا إلا الكفر، فأي حكمة دعته إلى خلقهم؟][٧].

فالجواب إذا علمنا أنه تعالى حكيم، علمنا أن أفعاله كلها على وفق الحكمة، ولا يلزم من عدم علمنا بذلك أن لا يكون كذلك، بل اللازم أن يكون خلقهم على وفق الحكمة.

قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: خلقها يقيناً لا ريب فيه.

وقيل: الباء بمعنى اللام، أي: خلقها للحق، وهو أن يجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى[٨].

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٨٨).
(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٥٢) وينظر أيضاً المصدر السابق.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٨٨. (٤) ينظر: معاني القرآن ٥/ ١٧٩.
(٥) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٥٢) والقرطبي (١٨/ ٨٨).
(٦) ينظر التفسير الكبير ٣٠/ ٢١. (٧) سقط من أ.
(٨) ينظر: القرطبي ١٨/ ٨٨.

قوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾.

قرأ العامة: بضم صاد «صُوركم»، وهو القياس في فعله.

وقرأ زيد[١] **بن علي والأعمش، وأبو رزين**: بكسرها، وليس بقياس وهو عكس لُحَى ـ بالضم ـ والقياس «لِحى» بالكسر.

فصل

معنى «وصَوَّرَكُمْ» يعني آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ خلقه بيده كرامة له. قاله مقاتل.

وقيل: جميع الخلائق، وقد مضى معنى التصوير، وأنه التخطيط والتشكيل.

فإن قيل: كيف أحسن صوركم؟.

قيل[٢]: بأن جعلهم أحسن الحيوان كلِّه وأبهاه صورة، بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصُّور، ومن حسن صورته أنه خلق منتصباً غير منكب كما قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ كما يأتي إن شاء الله تعالى.

قال ابن الخطيب[٣]: فإن قيل: قد كان من أفراد هذا النوع من كان مشوه الخِلقة سمج الصورة؟.

فالجواب: لا سماجة لأن الحسن في المعاني، وهو على طبقات ومراتب، فانحطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقه لا يمنع حسنه، فهو داخل في خير الحسن غير خارج عن حده. قوله ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾. أي: المرجع، فيجازي كلاً بعمله[٤].

قال ابن الخطيب[٥]: فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ يوهم الانتقال من جانب إلى جانب، وذلك على الله تعالى مُحال؟.

فالجواب: أن ذلك الوهَم بالنسبة إلينا وإلى زماننا لا بالنسبة إلى ما يكون في نفسه بمعزل عن حقيقة الانتقال إذا كان المنتقل منزهاً عن الجانب والجهة.

قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾. تقدم نظيره.

قال ابن الخطيب[٦]: إنه ـ تعالى ـ نبَّه بعلمه ما في السماوات وما في الأرض، ثم

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣١٨، والبحر المحيط ٨/ ٢٧٣، والدر المصون ٦/ ٣٢٥.
(٢) ينظر القرطبي ١٨/ ٨٨.
(٣) التفسير الكبير ٣٠/ ٢١.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٨٩.
(٥) التفسير الكبير ٣٠/ ٢١.
(٦) التفسير الكبير ٣٠/ ٢١.

بعلمه ما يسرونه وما يعلنونه ثم بعلمه ما في الصدور من الكليات والجزئيات على أنه لا يخفى عليه شيء في السماوات والأرض ألبتة.

ونظيره قوله: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: ٣].

وقرأ العامّة: بتاء الخطاب في الحرفين.

وروي عن أبي عمرو وعاصم[١]: بياء الغيبة، فيحتمل الالتفات وتحمل الإخبار عن الغائبين.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فهو عالم الغيب والشهادة لا يخفى عليه شيء[٢].

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ٦ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٠﴾

قوله: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ﴾.

الخطاب لقريش، أي: ألم يأتكم خبر كُفَّار الأمم السالفة ﴿فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾ أي: عوقبوا ﴿وَلَهُمۡ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: مُؤلم.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ﴾.

الهاء للشأن والحديث، و ﴿كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم﴾: خبرها، ومعنى الإشارة أي: هذا العذاب لهم بكفرهم بالرسل تأتيهم بالبينات، أي: بالدلائل الواضحة[٣].

قوله: ﴿أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾.

يجوز أن يرتفع «بشر» على الفاعلية، ويكون من الاشتغال، وهو الأرجح، لأن الأداة تطلب الفعل، وأن يكون مبتدأ وخبراً.

وجمع الضمير في «يَهْدُونَنَا» إذ البشر اسم جنس[٤].

أنكروا أن يكون الرسول من البشر.

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٧٤، والدر المصون ٦/ ٣٢٥.
(٢) ينظر: القرطبي ١٨/ ٨٩. (٣) السابق.
(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٢٥.

وقد يأتي الواحد بمعنى الجمع، فيكون اسماً للجنس، وقد يأتي الجمع بمعنى الواحد كقوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١].

قوله: «فَكَفَرُوا» أي: بهذا القول إذ قالوه استصغاراً، ولم يعلموا أن الله يبعث من يشاء إلى عباده[١].

فصل

فإن قيل: قوله «فَكَفَرُوا» يفهم منه التولي، فما الحاجة إلى ذكره؟ فالجواب: قال ابن الخطيب[٢]: إنهم كفروا وقالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ وهذا في معنى الإنكار والإعراض بالكلية، وهذا هو التولي، فكأنهم كفروا وقالوا قولاً يدلّ على التولي، فلهذا قال: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ﴾.

وقيل[٣]: كفروا بالرسل وتولوا عن البرهان وأعرضوا عن الإيمان والموعظة.

قوله: ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ استغنى بمعنى المجرد.

وقال الزمخشري[٤]: «ظَهَر غناه»، فالسين ليست للطلب.

قال مقاتل: استغنى الله، أي: بسلطانه عن طاعة عباده[٥].

وقيل[٦]: استغنى الله، أي: بما أظهره لهم من البرهان، وأوضحه لهم من البيان عن زيادة تدعو إلى الرشد، وتعود إلى الهداية ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ غنيٌّ عن خلقه حميد في أفعاله.

فإن قيل: قوله: ﴿وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ يوهم وجود التولّي والاستغناء معاً، والله تعالى لم يزل غنيًا؟.

فأجاب الزمخشري[٧]: بأن معناه أنه ظهر استغناء الله حيث لم يلجئهم إلى الإيمان ولم يضطرهم إليه مع قدرته على ذلك.

ثم أخبر عن إنكارهم للبعث فقال ـ عز وجل ـ:

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾ أي: ظنوا، والزعم هو القول بالظن.

وقال الزمخشري[٨]: الزعم ادّعاء العلم، ومنه قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «زَعَمُوا مطيّة الكَذِب»[٩].

---

(١) ينظر: القرطبي ١٨/ ٨٩.
(٢) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٨٩.
(٤) الكشاف ٤/ ٥٤٧.
(٥) ذكره الماوردي (٦/ ٢١) والقرطبي (١٨/ ٨٩).
(٦) القرطبي ١٨/ ٨٩.
(٧) الكشاف ٤/ ٥٤٧.
(٨) ينظر السابق.
(٩) ذكره الحافظ في «تخريج أحاديث الكشاف» (٤/ ٥٤٨) وقال: لم أجده مرفوعاً بهذا اللفظ.

وقال شريح: لكل شيء كنية وكنية الكاذب زعموا.

وقيل: نزلت في العاص بن وائل السهمي مع خباب كما تقدم في آخر سورة «مريم» ثم عمّت كل كافر[١].

قوله: ﴿أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾.

«أن» مخففة لا ناصبة لئلا يدخل ناصب على مثله، و «أن» وما في خبرها سادة مسدَّ المفعولين للزعم أو المفعول[٢].

قوله: «بَلَى» إيجاب للنفي، و «لَتُبْعثُنَّ» جواب قسم مقدر، أي: لتخرجن من قبوركم أحياء، «ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ» لتخبرن «بِمَا عَمِلْتُمْ» أي: بأعمالكم، «وذلِكَ على اللَّهِ يَسِيرٌ» إذ الإعادة أسهل من الابتداء[٣].

فإن قيل: كيف يفيد القسم في إخباره عن البعث وهم قد أنكروا الرسالة؟.

قال ابن الخطيب[٤]: والجواب: أنهم أنكروا الرسالة لكنهم يعتقدون أنه يعتقد ربه اعتقاداً جازماً لا مزيد عليه فيعلمون أنه لا يقدم على القسم بربه إلا وأن يكون صدق هذا الإخبار عنده أظهر من الشمس في اعتقاده ثم إنه أكد الخبر باللام والنون فكأنه قسم بعد قسم.

ثم إنه تعالى لما أخبر عن البعث، والاعتراف بالبعث من لوازم الإيمان، قال: «فآمنوا بالله ورسوله» وهذا يجوز أن يكون صلة لما تقدم؛ لأنه تعالى ذكر ما نزل من العقوبة بالأمم الماضية، وذلك لكفرهم بالله، وتكذيبهم للرسل فقال «فآمِنُوا» أنتم «باللَّه ورسُولِهِ» لئلا ينزل بكم ما نزل بهم من العقوبة.

وقال القرطبي: قوله: «فآمنوا بالله ورسوله» أمرهم بالإيمان بعد أن عرفهم قيام الساعة «والنور الذي أنزلنا» وهو القرآن لأنه نور يهتدى به من ظلمة الضلال كما يهتدى بالنور في الظلمات[٥].

فإن قيل: هلا قيل: ونوره بالإضافة كما قال: ورسوله؟.

فالجواب[٦]: إن الألف واللام في النور بمعنى الإضافة، فكأنه قال: ورسوله ونوره، ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: بما تسرّون وما تعلنون فراقبوه في السر والعلانية.

قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾. منصوب بقوله: «لَتُنبَّؤنَّ» عند النحاس، وبـ «خَبِير» عند

---

(١) ينظر؛ القرطبي ١٨/ ٨٩.
(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٢٦.
(٣) ينظر: القرطبي ١٨/ ٩٠.
(٤) ينظر التفسير الكبير ٣٠/ ٢٢.
(٥) ينظر: القرطبي ١٨/ ٩٠.
(٦) ينظر: التفسير الكبير ٣٠/ ٢٣.

الحوفي، لما فيه من معنى الوعيد، كأنه قال: والله يعاقبكم يوم يجمعكم[(١)].

وبـ «اذكر» مضمراً عند الزمخشري، فيكون مفعولاً به[(٢)].

أو بما دلّ عليه الكلام، أي يتفاوتون يوم يجمعكم. قاله أبو البقاء[(٣)].

وقرأ العامَّة: «يَجْمعُكُمْ» بفتح الياء وضم العين.

ورُوِي سكونُها[(٤)] وإشمامها عن أبي عمرو، وهذا منقول عنه في الراء نحو «ينصركُمْ» وبابه كما تقدم في البقرة.

وقرأ يعقوب[(٥)] وسلام وزيد بن علي والشعبي ونصر وابن أبي إسحاق والجحدري: «نَجْمعُكُمْ» بنون العظمة، اعتباراً بقوله: ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾. والمراد بـ «يَوْمِ الجَمْعِ»[(٦)] أي: يوم القيامة، يوم يجمع الله الأولين والآخرين والإنس والجن وأهل السماء وأهل الأرض.

وقيل: يوم يجمع الله بين كل عبد وعمله.

وقيل: يجمع فيه بين الظالم والمظلوم.

وقيل: يجمع فيه بين كل نبي وأمته.

وقيل: يجمع فيه ثواب أهل الطاعات وعقاب أهل المعاصي.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾.

«التَّغَابُن» تفاعل من الغبن في البيع والشراء على الاستعارة، وهو أخذ الشيء بدون قيمته.

وقيل: الغبن: الإخفاء، ومنه غبن البيع لاستخفائه، والتفاعل هنا من واحد لا من اثنين[(٧)].

ويقال: غبنت الثوب وخبنته، أي: أخذت ما طال منه من مقدارك، فهو نقص وإخفاء.

وفي التفسير: هو أن يكتسب الرجل مالاً من غير وجهه فيرثه غيره، فيعمل فيه بطاعة الله، فيدخل الأول النار، والثاني الجنة بذلك المال، فذلك هو الغَبْن البَيِّن[(٨)] والمغابن: ما انثنى من البدن نحو الإبطين والفخذين.

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٢٦. (٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٤٨.

(٣) ينظر: الإملاء ٢/ ١٦٢٦.

(٤) ينظر: السبعة ٦٣٨، والحجة ٦/ ٢٩٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٣١٩، والبحر المحيط ٨/ ٢٧٤، والدر المصون ٦/ ٣٢٦.

(٥) ينظر: شرح الطيبة ٦/ ٥٧، وإتحاف ٢/ ٥٤٢، والمحرر الوجيز ١٥/ ٣١٩، والبحر المحيط ٨/ ٢٧٤، والدر المصون ٦/ ٣٢٦، والقرطبي ١٨/ ٩٠.

(٦) ينظر: القرطبي ١٨/ ٩٠. (٧) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٢٦.

(٨) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٢٦.

والمغبون: من غبن في أهله ومنازله في الجنة، ويظهر يومئذ غَبْن كُلِّ كافر بتركه الإيمان، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان وتضييعه الأيام(١).

قال الزجاج(٢): ويغبن من ارتفعت منزلته في الجنة بالنسبة إلى من هو أعلى منزلة منه.

فإن قيل: فأيُّ معاملة وقعت بينهما حتى يقع الغبن فيها؟.

فالجواب(٣): هو تمثيل للغَبْنِ في الشِّراء والبيع كقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦]، فلما ذكر أن الكفار اشتروا الضلالة بالهدى وما ربحوا في تجارتهم بل خَسِرُوا، ذكر أيضاً أنهم غُبِنُوا، وذلك أن أهل الجنة اشتروا الآخرة بترك الدنيا، واشترى أهل النار الدنيا بترك الآخرة، وهذا نوع مبادلة اتساعاً ومجازاً، وقد فرق الله الخلق فريقين: فريقاً للجنة وفريقاً في السعير.

وقال الحسن وقتادة: بلغنا أن التغابن على ثلاثة أصناف:

رجل علم علماً فضيعه ولم يعمل به فشقي به، ورجل علم علماً وعمل به فنجا به، ورجل اكتسب مالاً من وجوه يُسَألُ عنها وشحَّ عليه وفرط في طاعة ربه بسببه، ولم يعمل فيه خيراً وتركه لوارث لا حساب عليه، فعمل ذلك الوارث فيه بطاعة ربه، ورجل كان له عبد، فعمل العبد بطاعة ربه فسعد، وعمل السيد بمعصية ربه فشقي(٤).

وروى القرطبي(٥) عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ اللَّهَ تَعالَى يُقِيمُ الرَّجُلَ والمَرْأةَ يَوْم القِيامَةِ بَيْنَ يَديْهِ، فيقُولُ اللَّهُ تَعالى لَهُمَا: قُولا مَا أنتما بِقَائِلين، فيقُولُ الرَّجُلُ: يَا ربِّ أوْجَبْتَ نَفَقَتَهَا عليَّ فتَعَسَّفْتُها من حلالٍ أو مِنْ حَرام، وهؤلاءِ الخُصُومُ يَطْلبُونَ ذلِكَ، ولَمْ يَبْقَ لي ما أوفِّي فتقُولُ المَرْأةُ: يا ربِّ، وما عَسَى أن أقُولَ، اكتسَبَهُ حَراماً وأكَلْتُهُ حلالاً، وعَصَاكَ فِي مَرْضَاتِي ولَمْ أرْضَ لَهُ بِذلِكَ، فبُعْداً لَهُ ومُحْقاً(٦)، فيقُولُ اللَّهُ تعالى: قَدْ صَدَقْتِ فيُؤمَرُ بِهِ إلى النَّارِ، ويُؤمَرُ بِهَا إلى الجَنَّةِ فتطلعُ عليْهِ من طبقَاتِ الجَنَّة، فتقُولُ لَهُ: غَبنَّاكَ غَبنَّاكَ، سَعِدْنَا بِمَا شَقِيتَ أنت؛ فذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ»(٧).

فصل

استدلّ بعض العلماء بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ على أنه لا يجوز الغبن في المعاملات الدنيوية، لأن الله تعالى خَصَّ التغابن بيوم القيامة فقال: «ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ»،

---

(١) ينظر: القرطبي ١٨/ ٩٠.

(٢) ينظر: معاني القرآن ١٨٠.

(٣) ينظر: القرطبي ١٨/ ٩٠.

(٤) السابق ١٨/ ٩١.

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٩١).

(٦) في أ: سحقاً.

(٧) ينظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٩١).

وهذا الاختصاص يفيد أنه لا غبن في الدنيا، فكل من اطلع على غبن في بيع فإنه مردود إذا زاد على الثلث. واختاره البغداديون، واحتجوا عليه بقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لحبان بن منقذ: «إذا بِعْتَ فَقُل: لا خَلابَةَ ولَكَ الخِيَارُ ثلاثاً».

ولأن الغَبْنَ في الدنيا ممنوع منه بالإجماع في حكم الدين إذ هو من باب الخِدَاع المحرم شرعاً في كل ملّة، لكن اليسير منه لا يمكن الاحتراز عنه فمضى في البيوع، إذ لو حكمنا برده ما نفذ بيع أبداً؛ لأنه لا يخلو منه، فإذا كان كثيراً أمكن الاحتراز منه فوجب الرد به، والفرق بين القليل والكثير في الشريعة معلوم فقدرناه بالثلث، وهذا الحد اعتبره الشارع في الوصية وغيرها[١].

ويكون معنى الآية على هذا: يوم التغابن الجائز مطلقاً من غير تفصيل، وذلك يوم التَّغابن الذي لا يستدرك أبداً.

قال بعض علماء الصُّوفية: إنَّ الله ـ تعالى ـ كتب الغَبْنَ على الخَلْقِ أجمعين، فلا يلقى أحد ربه إلا مغبوناً؛ لأنه لا يمكنه الاستيفاء للعمل حتى يحصل له استيفاء الثواب[٢].

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لاَ يَلْقَى اللَّهَ أحَدٌ إلاَّ نَادِماً إن كَان مُسِيئاً أن لَمْ يُحْسِنْ، وإن كَانَ مُحْسِناً أنْ لَمْ يَزْدَدْ»[٣].

قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ﴾.

قرأ نافع[٤] **وابن عامر**: بالنون، والباقون: بالياء.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يعني القرآن ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

قال ابن الخطيب[٥]: فإن قيل: قال الله تعالى في حق المؤمنين: «ومن يُؤمِن باللَّهِ» بلفظ المستقبل، وفي حق الكُفَّار قال: «والذين كفروا» بلفظ الماضي؟.

فالجواب: أن تقدير الكلام: ومن يؤمن بالله من الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ندخله جنات ومن لم يؤمن منهم أولئك أصحاب النار.

فإن قيل: قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ﴾ بلفظ الواحد و «خَالدِينَ» بلفظ الجمع؟.

فالجواب: ذلك بحسب اللفظ وهذا بحسب المعنى.

---

(١) ينظر: السابق.
(٢) القرطبي (١٨/ ٩١ ـ ٩٢).
(٣) تقدم.
(٤) ينظر: السبعة ٦٣٨، والحجة ٦/ ٢٩٥، وإعراب القراءات ٢/ ٣٧١، وحجة القراءات ٧١١، والعنوان ١٩١، وإتحاف ٢/ ٥٤٢.
(٥) ينظر: التفسير الكبير ٣٠/ ٢٣.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ وذلك بئس المصير؟.

والجواب: أن ذلك وإن كان في معناه فلا بد من التصريح [بما][١] يؤكده.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾

فصل

لما ذكر ما للمؤمنين ذكر ما للكفار فقال:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ أي: بإرادته وقضائه.

وقال الفراء: يريد إلا بأمر الله.

وقيل: إلا بعلم الله.

وقيل[٢]: سبب نزول هذه الآية: أنَّ الكُفَّار قالوا: لو كان ما عليه المسلمون حقًّا لصانهم الله عن المصائب في الدنيا فبيّن الرب تعالى أن ما أصاب من مصيبة في نفس أو مال أو قول أو فعل يقتضي همّاً أو يوجب عقاباً آجلاً أو عاجلاً فبعلم الله وقضائه.

فإن قيل: بم يتصل قوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾؟.

فالجواب[٣]: يتعلق بقوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ كما أن من يؤمن بالله يصدق بأنه لا تصيبه مصيبة إلا بإذن الله.

قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ يصدق ويعلم أنه لا تصيبه مصيبة إلا بإذن الله ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ للصبر والرضا.

وقيل: يثبته على الإيمان.

وقال أبو عثمان الجيزي: من صح إيمانه يهد الله قلبه لاتباع السنة.

وقيل: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ عند المصيبة فيقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]. قاله ابن جبير.

وقال ابن عباس: هو أن يجعل في قلبه اليقين ليعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه[٤].

---

(١) في أ: بالذي.
(٢) ينظر: القرطبي ١٨/ ٩٢.
(٣) ينظر: الرازي ٣٠/ ٢٤.
(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١١٦) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٤٤) وزاد نسبته إلى ابن المنذر عن ابن عباس.

وقال الكلبي: هو إذا ابتلي صبر وإذا أنعِمَ عليه شكر وإذا ظلم غفر[١].

وقيل: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ إلى نَيل الثَّواب في الجنَّة[٢].

قوله: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾.

قراءة العامة: بالياء مجزوماً جواباً للشرط لتقدم ذكر الله.

وابن جبير وابن[٣] هرمز وطلحة والأزرق: بالنون على التعظيم.

والضحاك وأبو حفص وأبو عبد الرحمن وقتادة: «يُهْدَ» مبنياً للمفعول «قَلْبُهُ» قائم مقام الفاعل.

ومالك بن دينارٍ، وعمرو بن دينار، وعكرمة: «يَهْدَأ» بهمزة ساكنة «قلبه» فاعل به، بمعنى يطمئن ويسكن.

وعمرو بن فائد: «يَهْدَا» بألف مبدلة من الهمزة كالتي قبلها، ولم يحذفها نظراً إلى الأصل، وهي أفصح اللغتين.

وعكرمة ومالك بن دينار أيضاً: «يَهْدَ» بحذف هذه الألف إجراء لها مُجرى الألف الأصلية، كقول زهير: [الطويل]

٤٧٧٩ ـ جَرِيءٌ مَتَى يُظْلَمْ يُعَاقِبْ بظُلْمِهِ   سريعاً، وإلاَّ يُبْدَ بالظُّلْمِ يَظْلِمِ[٤]

وقد تقدم إعراب ما قبل هذه الآية وما بعدها.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾. لا يخفى عليه تسليم من انقاد لأمره، ولا كراهة من كرهه[٥].

قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ﴾. أي: هونوا على أنفسكم المصائب واشتغلوا بطاعة الله واعملوا بكتابه، وأطيعوا الرسول في العمل بسنته ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الطاعة فليس على الرسول إلا البلاغ المبين[٦].

قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾. أي: لا معبود سواه، ولا خالق غيره.

قال ابن الخطيب[٧]: «قوله ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ يحتمل أن يكون من جملة ما تقدم من الأوصاف الجميلة بحضرة الله تعالى من قوله: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

---

(١) ذكره القرطبي ١٨/ ٩٢.
(٢) ينظر: القرطبي ١٨/ ٩٢.
(٣) ينظر في قراءات هذا الفعل: المحرر الوجيز ٥/ ٣١٩ ـ ٣٢٠، والبحر المحيط ٨/ ٢٧٥، والدر المصون ٦/ ٣٢٦، والقرطبي ١٨/ ٩٢.
كما ينظر: المحتسب ٢/ ٣٢٣، وإعراب القراءات ٢/ ٣٧٢.
(٤) تقدم.
(٥) ينظر: القرطبي ١٨/ ٩٢.
(٦) ينظر: السابق ١٨/ ٩٣.
(٧) ينظر: التفسير الكبير ٣٠/ ٢٤.

﴿قَدِيرٌ﴾، فإن من كان موصوفاً بهذه الأوصاف هو الذي لا إله إلا هو».

قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

قال الزمخشري[1]: هذا بعث لرسول الله ﷺ على التوكل عليه حتى ينصره على من كذبه وتولى عنه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾.

قال ابن عبَّاس: نزلت هذه الآية بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي شكى إلى النبي ﷺ جفاء أهله وولده[2]، فنزلت، ذكره النحاس.

وحكاه الطَّبريّ عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة التَّغابن كلها بـ «مكة» إلا هؤلاء الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، كان ذا أهل وولد وكان إذا أراد الغزو بكوه ورققوه، فقالوا: إلى من تدعنا فيَرقّ فيقيم فنزلت هذه الآية إلى آخر السورة بالمدينة[3].

روى الترمذي عن ابن عباس، وسئل عن هذه الآية قال: هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم يأتوا للنبي ﷺ فلما أتوا النبي ﷺ وإذا الناس قد تفقهوا في الدين فهموا أن يعاقبوهم، فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية[4].

حديث حسن صحيح.

فصل

قال ابن العربي: هذا يبين وجه العداوة، فإن العدو لم يكن عدواً لذاته، وإنما كان

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/٥٤٩.
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٩٣).
(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١١٧) عن عطاء بن يسار.
(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٩١) رقم (٣٣١٧) عن ابن عباس. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

عدواً بفعله، فإذا فعل الزوج والولد فعل العدو كان عدواً ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد والطاعة.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لابْنِ آدَمَ فِي طريقِ الإيمانِ، فقَال لَهُ: أتُؤمِنُ وتَذَرُ دينكَ ودينَ أهْلِكَ ومالكَ فخالفه فآمن، ثم قعد له على طريق الهجرة، فقال له: أتهاجر وتترك أهلك فَخالفَهُ وهاجَرَ، ثُمَّ قَعدَ لَهُ على طريقِ الجهادِ، فقَالَ لَهُ: أتُجَاهدُ فتَقْتُلَ نَفْسَك فتُنكَحَ نِسَاؤكَ ويُقسَّم مالك فخَالفَهُ فَجَاهَدَ فقُتِلَ فحقٌّ على اللَّهِ أن يُدْخِله الجَنَّة»[١].

وقعود الشَّيطان يكون بوجهين[٢]:

أحدهما: أن يكون بالوسوسة.

والثاني: أن يحمل على ما يريد من ذلك الزوج والولد والصاحب، فقال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥]، وفي حكمة عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: من اتخذ أهلاً ومالاً وولداً كان في الدنيا عبداً.

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «تَعِسَ عَبدُ الدِّينارِ، تَعِسَ عبدُ الدِّرهَم، تعِسَ عبْدُ الخَميصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ القَطِيفَةِ»[٣]، ولا دَناءَةَ أعْظَمُ مِنْ عبادَة الدِّينار والدِّرهم، ولا همَّة أخسُّ من همَّة تَرْتَفِعُ بثَوبٍ جَديدٍ.

واعلم أن قوله: «إنَّ مِنْ أزواجِكُم» يدخل فيه الذكر والأنثى، فكما أن الرجل تكون زوجته وولده عدوًّا له، كذلك المرأة يكون زوجها عدوًّا لها بهذا المعنى[٤].

قوله: ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾. أي: فاحذروهم على أنفسكم، والحذر على النفس يكون بوجهين: إما لضرر في البدنِ، أو لضررٍ في الدين، وضرر البدن يتعلق بالدنيا، وضرر الدين يتعلق بالآخرة، فحذر الله تعالى العبد من ذلك[٥].

قال ابن الخطيب[٦]: وقيل: أعلم الله تعالى أن الأموال والأولاد من جملة ما تقع به الفتنة، وهذا عام يعم جميع الأولاد، فإن الإنسان مفتون بولده، فإنه ربما عصى الله تعالى بسببه وباشر الفعل الحرام لأجله كغصب مال الغير وغيره.

قوله: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) ينظر: القرطبي (١٨/ ٩٣).
(٣) أخرجه البخاري (١١/ ٢٥٧) كتاب الرقاق، باب: ما يتقى من فتنة المال حديث (٦٤٣٥) من حديث أبي هريرة.
(٤) ينظر: القرطبي ١٨/ ٩٤.
(٥) ينظر: السابق.
(٦) ينظر: التفسير الكبير ٣٠/ ٢٥.

روى الطَّبري عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾. قال: كان الرجل يريد أن يأتي النبي ﷺ فيقول أهله: أين تذهب وتدعنا؟.

قال: فإذا أسلم وفَقُهَ قال: لأرجعن إلى الذين كانوا ينهون عن هذا الأمر فلأفعلن ولأفعلن. قال: فأنزل الله ـ عز وجل ـ ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(١)].

وقال مجاهد في هذه الآية: ما عادوهم في الدنيا، ولكن حملتهم مودتهم لهم على أن اتخذوا لهم الحرام فأعطوه إياهم[(٢)].

والآية عامة في كل معصية يرتكبها الإنسان بسبب الأهل والولد، وخصوص السبب لايمنع عموم الحكم[(٣)].

قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.

أي: بلاء واختبار يحملكم على كسب الحرام ومنع حق الله تعالى فلا تطيعوهم في معصية الله[(٤)].

وفي الحديث: «يُؤتى بِرَجُلٍ يوم القِيامَةِ، فيقُال: أكَلَ عياله حَسَنَاته»[(٥)].

وقال بعض السلف: العيال سوس الطاعات.

وقال ابن مسعود: لا يقولن أحدكم: اللهم اعصمني من الفتنة، فإنه ليس أحد منكم يرجع إلى مال ولا ولد إلا وهو مشتمل على فتنةٍ، ولكن ليقل: اللهم إني أعوذ بك من مُضلاّت الفتن[(٦)].

وقال الحسنُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾، أدخل «من» للتبعيض؛ لأن كلهم ليسوا بأعداء، ولم يذكر من في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾؛ لأنهما لا يخلوان من الفتنة، واشتغال القلب بهما.

روى الترمذي وغيره عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: رأيت النبي ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحُسَين ـ رضي الله عنهما ـ وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ فحملهما ووضعهما بين يديه، ثم قال: صدق الله ـ عز وجل ـ:

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١١٧) عن عكرمة.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١١٧) عن مجاهد.

(٣) لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

(٤) ينظر القرطبي ١٨/ ٩٤.

(٥) تقدم.

(٦) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٤٥) وعزاه إلى ابن المنذر والطبراني عن عبد الله بن مسعود.

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ نظرتُ إلى هذينِ الصَّبيَّيْنِ يمشيان ويعثُرانِ فلمْ أصْبِرْ حتَّى قطعتُ حديثِي ورَفعتُهُمَا ثُمَّ أخَذَ في خُطْبَتِهِ(١).

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾. يعني: الجنة، فلا أعظم أجراً منها(٢).

قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾.

قال قتادة، والربيع بن أنس، والسُّدي، وابن زيد: هذه الآية ناسخة لقوله ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

ذكر الطبري عن ابن زيد في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ قال: جاء أمر شديد، قال: ومن يعرف هذا ويبلغه، فلما عرف الله أنه اشتد ذلك عليهم نسخها عنهم، وجاء بهذه الآية الأخرى فقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾(٣).

وقال ابن عباس: هي محكمة لا نسخ فيها، ولكن حق تقاته أن تجاهد لله حق جهاده ولا تأخذهم في الله لومة لائم ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم(٤).

فإن قيل: إذا كانت الآية غير منسوخة، فكيف الجمع بين الآيتين، وما وجه الأمر باتقائه حق تقاته مطلقاً من غير تخصيص، ولا مشروط بشرط، والأمر باتقائه بشرط الاستطاعة؟.

فالجواب(٥): أن قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ معناه فاتقوا الله أيها الناس وراقبوه فيما جعله فتنة لكم من أموالكم وأولادكم أن تغلبكم فتنتهم وتصدكم عن الواجب لله عليكم من الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام فتتركوا الهجرة وأنتم مستطيعون، وذلك أن الله ـ تعالى ـ قد كان عذر من لم يقدر على الهجرة بتركها، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ إلى قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ﴾ [النساء: ٩٧]، فأخبر أنه قد عفا عمن لا يستطيعون حيلة، ولا يهتدون سبيلاً بالإقامة في دار

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٧٦) وابن أبي شيبة (١٢/ ٩٩ ـ ١٠٠) رقم (١٢٢٣٧) وأبو داود (١١٠٩) وابن ماجه (٣٦٠٠) والحاكم (٤/ ١٨٩ ـ ١٩٠) والنسائي (٣/ ١٠٨، ١٢٨) وابن حبان (٢٢٣٠ ـ موارد) والطبراني في «تفسيره» (١٢/ ١١٨) من طريق علي بن الحسين بن واقد ثني أبي ثنا عبد الله بن بريدة قال سمعت أبي بريدة فذكره مرفوعاً.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من حديث الحسين بن واقد وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٤٥) وزاد نسبته إلى ابن مردويه.
(٢) ينظر: القرطبي (١٨/ ٩٤).
(٣) تقدم تخريجه في سورة آل عمران.
(٤) تقدم.
(٥) ينظر: القرطبي ١٨/ ٩٥ ـ ٩٦.

الشرك، فكذلك معنى قوله: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ في الهجرة من دار الشِّرك إلى دار الإسلام أن تتركوها بفتنة أموالكم وأولادكم.

ويدل على صحة هذا أن قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ عقيب قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾، ولا خلاف بين علماء التأويل أن هذه الآيات نزلت بسبب قوم كانوا تأخروا عن الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام بتثبيط أولادهم إياهم عن ذلك كما تقدم، وهذا اختيار الطبري(١).

وقال ابن جبير: قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ فيما تطوع به من نافلة أو صدقة، فإنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] اشتدت على القوم فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرَّحت جباهُهُمْ، فأنزل الله تخفيفاً عنهم: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ فنسخت الأولى.

قال الماوردي(٢): ويحتمل أن يثبت هذا النَّقْل، لأن المكره على المعصية غير مؤاخذ بها، لأنه لا يستطيع اتقاءها.

قوله: ﴿وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾.

أي: اسمعوا ما توعظون به، وأطيعوا ما تؤمرون به، وتنهون عنه.

وقال مقاتل: «اسْمَعُوا» أي: أصغوا إلى ما ينزل عليكم من كتاب الله، وهو الأصل في السَّماع «وأطِيعُوا» الرسول فيما يأمركم أو ينهاكم.

وقيل: معنى «واسْمَعُوا» أي: اقبلوا ما تسمعون وعبر عنه بالسماع؛ لأنه فائدته.

قوله: ﴿وَأَنفِقُواْ﴾.

قال ابن عباس: هي الزكاة(٣).

وقيل: هي النفقة في النفل.

وقال الضحاك: هي النفقة في الجهاد(٤).

وقال الحسن: هي نفقة الرجل لنفسه(٥).

قال ابن العربي(٦): وإنما أوقع قائل هذا، قوله: «لأنفسِكُمْ» وخفي عليه قوله: إن نفقة الفرض والنَّفْل في الصَّدقة على نفسه، قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]. فكل ما يفعله الرجل من خير فإنما هو لنفسه، والصحيح أنها عامة.

---

(١) ينظر: جامع البيان ١٢/١١٧.

(٢) ينظر: النكت والعيون ٦/٢٦.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/٩٦).

(٤) ينظر: المصدر السابق.

(٥) ينظر: المصدر السابق.

(٦) ينظر: أحكام القرآن ٤/١٨٢٢.

قوله: ﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾.

في نصبه أوجه[١]:

أحدها: قال سيبويه: إنه مفعول بفعل مقدر، دلَّ عليه «وأنفقوا»، تقديره: ايتوا في الإنفاق خيراً لأنفسكم وقدموا لأنفسكم كقوله: ﴿انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾.

الثاني: تقديره: يكن الإنفاق خيراً، فهو خبر كان المضمرة، وهو قول أبي عبيدة.

الثالث: أنه نعت مصدر محذوف، وهو قول الكسائي والفراء، أي: إنفاقاً خيراً.

الرابع: أنه حال، وهو قول الكوفيين.

الخامس: أنه مفعول بقوله «أنفِقُوا»، أي: أنفقوا مالاً خيراً.

قوله: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

تقدم نظيره.

وكذا ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾.

تقدم في سورة البقرة والحديد.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾.

تقدم معنى الشكر في «البقرة». والحليم: الذي لا يعجل[٢].

قال بعضهم القَرْض الحسن: هو التصدق من الحلال.

وقيل: التصدق بطيب النفس، والقرض هو الذي يرجى بدله[٣].

قوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾.

أي: ما غاب وحضر، «وهُوَ العَزِيزُ» الغالب القاهر، فهو من صفات الأفعال، ومنه قوله ـ عز وجل ـ: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١] أي: من الله القاهر المُحْكم خالق الأشياء[٤].

وقال الخطابي[٥]: وقد يكون بمعنى نفاسة القدر، يقال منه: «عَزَّ يَعِزُّ» ـ بكسر العين ـ فيكون معنى العَزِيز على هذا أنه لا يعادله شيء وأنه لا مثل له «الحَكِيمُ» في تدبير خلقه.

وقال ابن الأنباري: «الحَكِيمُ» هو المُحْكِم الخلق للأشياء، صرف عن «مفعل» إلى «فعيل» ومنه قوله ـ عز وجل ـ: ﴿الم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ١، ٢]

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/٣٢٦، ٣٢٧.
(٢) ينظر: القرطبي ١٨/٩٧.
(٣) ينظر: التفسير الكبير ٣٠/٢٦.
(٤) ينظر: القرطبي ١٢٨/٩٧.
(٥) ينظر السابق.

فصرف عن «مفعل» إلى «فعيل» والله أعلم.

روى الثعلبي عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مولُودٍ يُولَدُ إلاَّ وهو على الفطرة فِي تَشَابِيكِ رَأسِهِ مَكتُوبٌ خَمْسُ آيَاتٍ من فَاتحةِ سُورةِ التَّغَابنِ»[١].

وعن زرّ بن حبيش قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قَرَأ سُورَةَ التَّغَابُنِ رَفَعَ اللَّهُ عَنْهُ مَوْتَ الفُجَاءَةِ»[٢]. والله أعلم.

(١) تقدم. (٢) تقدم.

سورة الطلاق

مدنيّة، وهي إحدى عشرة آية ومائتان وتسع وأربعون كلمة وألف وستون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾.

قال ابن الخطيب[1]: وجه تعلق هذه السورة بآخر ما قبلها، هو أنه تعالى أشار في آخر التي قبلها إلى كمال علمه بقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، وفي أول هذه السورة أشار إلى كمال علمه بمصالح النِّساء، والأحكام المخصوصة بطلاقهن، فكأنه بيّن ذلك الكلي بهذه الجزئيات.

فصل في هذا الخطاب

وهذا الخطاب فيه أوجه[2]:

أحدها: أنه خطاب لرسول الله ﷺ خوطب بلفظ الجمع تعظيماً له؛ كقوله: [الطويل]

٤٧٨٠ ـ فَإِنْ شِئْتُ حَرَّمْتُ النِّساءَ سِوَاكُمُ ... وإنْ شِئْتُ لَمْ أطْعَمْ نُقَاخاً ولا بَرْدَا[3]

الثاني: أنه خطاب له ولأمته، والتقدير: يا أيها النبي وأمته إذا طلقتم فحذف المعطوف لدلالة ما بعده عليه، كقوله: [الطويل]

٤٧٨١ ـ .... إذَا أنْجَلَتْهُ رِجْلُهَا ....[4]

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/٢٨.

(٢) ينظر: الدر المصون ٦/٣٢٨.

(٣) تقدم.

(٤) تقدم.

أي: ويدها.

كقوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، أي: والبرد.

الثالث: أنه خطاب لأمته فقط بعد ندائه ـ عليه الصَّلاة والسلام ـ وهو من تلوين الخطاب، خاطب أمته بعد أن خاطبه.

الرابع: أنه على إضمار قول، أي: يا أيها النبي قل لأمتك إذا طلقتم النساء.

قال القرطبي[١]: قيل: إنه خطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، وغاير بين اللفظين من حاضر وغائب، وذلك لغة فصيحة، كقوله: ﴿إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢]، والتقدير: يا أيها النبي قل لهم: إذا طلقتم النساء، فطلقوهن لعدتهن، وهذا هو قولهم: إن الخطاب له وحده، والمعنى له وللمؤمنين، وإذا أراد الله بالخطاب المؤمنين لاطفه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، وإذا كان الخطاب باللفظ والمعنى جميعاً له قال: «يا أيها الرسول».

قال القرطبي[٢]: ويدلّ على صحة هذا القول نزول العدة في أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية.

روى أبو داود: أنها طُلِّقت على عهد النبي ﷺ ولم يكن للمطلَّقة عدّة، فأنزل الله ـ تعالى ـ العِدّة للطلاق حين طُلقت أسماء، فكانت أولَّ من أُنزل فيها العدة للطلاق.

الخامس: قال الزمخشري[٣]: «خصّ النبي ﷺ بالنداء وعمّ بالخطاب؛ لأن النبي إمام أمته وقدوتهم كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان افعلوا كيت وكيت اعتباراً لتقدمه وإظهاراً لترؤسه» في كلامٍ حسنٍ.

وهذا هو معنى القول الثالث المتقدم.

قال القرطبي[٤]: وقيل: المراد به نداء النبي ﷺ تعظيماً له، ثم ابتدأ: «إذا طلّقتم النساء»، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ [المائدة: ٩٠] الآية فذكر المؤمنين تكريماً لهم، ثم افتتح فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ [المائدة: ٩٠] الآية.

وقوله: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ أي: إذا أردتم، كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٦]، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النحل: ٩٨]. وتقدم تحقيقه.

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٩٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٩٩).

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٥٢.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٩٩.

فصل في طلاق النبي ﷺ

روى ابن ماجة عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب: أن رسول الله ﷺ طلّق حفصة ثم راجعها[١].

وعن أنس قال: طلق رسول الله ﷺ حفصة ـ رضي الله عنها ـ فأتَتْ أهلها، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾[٢]، وقيل له: راجعها فإنها صوَّامة قوَّامة، وهي من أزواجك في الجنة. ذكره القشيري والماوردي والثعلبي.

زاد القُشيريّ: ونزل في خروجها إلى أهلها قوله تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾.

وقال الكلبي: سبب نزول هذه الآية غضبُ رسول الله ﷺ على حفصة لما أسر إليها حديثاً فأظهرته لعائشة، فطلقها تطليقة، فنزلت الآية[٣].

وقال السُّديُّ: نزلت في عبد الله بن عمر، طلق امرأته حائضاً تطليقة واحدة، فأمره النبي ﷺ بأن يراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر، فإن أراد أن يطلقها فليطلِّقها حين تطهر من قبل أن يجامعها فتلك العدَّة التي أمر اللَّه أن تطلق لها النساء[٤].

وقد قيل: إن رجالاً فعلوا مثل ما فعل عبد الله بن عمر، منهم عبد الله بن عمرو بن العاص، وعمرو بن سعيد بن العاص، وعتبة بن غزوان، فنزلت الآية فيهم[٥].

قال ابن العربي: وهذا كله وإن لم يكن صحيحاً فالقول الأول أمثل وأصح، والأصح فيه أنه بيان لشرع مبتدأ.

فصل في الطلاق

روى الثعلبي من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مِنْ أبْغَضِ الحَلالِ إلى اللَّهِ الطَّلاقُ»[٦].

---

(١) أخرجه ابن ماجة ١/ ٦٥٠ في الطلاق (٢٠١٦).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٤٨) وعزاه إلى ابن أبي حاتم عن أنس.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٩٨). (٤) تقدم.

(٥) ينظر: القرطبي (١٨/ ٩٨).

(٦) أخرجه أبو داود (٢١٧٨) والبيهقي (٧/ ٣٢٢) عن محمد بن خالد عن معرف بن واصل عن محارب بن دثار عن ابن عمر مرفوعاً.
وذكره ابن أبي حاتم في «العلل» (١/ ٤٣١). وقال عن أبيه: إنما هو محارب عن النبي ﷺ.
وأخرجه ابن ماجة (٢٠١٨) من طريق محمد بن خالد عن عبيد الله بن الوليد الوصافي ومعرف بن واصل عن محارب به.
وأخرجه الحاكم (٢/ ١٦٦) والبيهقي (٧/ ٣٢٢) عن محمد بن عثمان بن أبي شيبة ثنا أحمد بن يونس عن محارب بن دثار عن عبد الله بن عمر مرفوعاً.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد وزاد الذهبي: على شرط مسلم.

وعن علي عن النبي ﷺ قال: «تَزَوَّجُوا ولا تُطَلِّقُوا، فإنَّ الطَّلاقَ يَهْتَزُّ مِنه العَرْشُ»(١).

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُطلِّقُوا النِّساءَ إلاَّ مِن ريبَةٍ فإنَّ اللَّه ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يُحِبُّ الذَّوَّاقِينَ ولا الذواقات»(٢).

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا حَلَفَ بالطَّلاقِ ولا اسْتَحْلَفَ بِهِ إلاَّ مُنَافِقٌ»(٣). أسنده الثعلبي.

وروى الدارقطني عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا مُعَاذُ مَا يَخْلُقُ اللَّهُ تَعالَى شَيْئاً عَلَى وَجْهِ الأرْضِ أحَبُّ إليْهِ مِنَ العِتَاقِ، ولا خَلَقَ اللَّهُ تعَالَى شَيْئاً أبْغَضَ إليْهِ من الطَّلاقِ، فإذَا قَالَ الرَّجُلُ لِمَمْلُوكِهِ: أنتَ حُرٌّ ـ إن شَاءَ اللَّهُ ـ فَهُو حُرٌّ ولا اسْتِثْنَاءَ لَهُ، وإذَا قَالَ الرَّجلُ لامْرأتِهِ: أنت طَالِقٌ إن شَاءَ الله فَلَهُ اسْتِثْنَاؤهُ، ولا طَلاقَ عَلَيْهِ»(٤).

وعن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أحَلَّ اللَّهُ شَيْئاً أبْغَضَ إلَيْهِ مِنَ الطَّلاقِ، فَمَن طلَّقَ واسْتَثْنَى فَله ثنياه»(٥).

قال ابن المنذر: واختلفوا في الاستثناء في الطلاق والعتق: فقالت طائفة بجوازه، وهو مروي عن طاووس.

قال حماد الكوفي: والشافعي وأبو ثور وأصحاب الرأي.

وقال مالك والأوزاعي: لا يجوز الاستثناء في الطلاق خاصة(٦).

قال ابن المنذر: وبالقول الأول أقول.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١/ ١٥٧) والخطيب (١٢/ ١٩١) من طريق عمرو بن جميع عن جويبر عن الضحاك عن النزال بن سبرة عن علي مرفوعاً قال الخطيب: عمرو يروي المناكير عن المشاهير والموضوعات عن الأثبات والحديث أورده ابن الجوزي في «الموضوعات» وقال: لا يصح فيه آفات الضحاك مجروح وجويبر ليس بشيء وعمرو قال ابن عدي كان يتهم بالوضع.

(٢) ذكره ابن أبي حاتم في «العلل» (١٢٨٤).

(٣) ذكره العجلوني في «كشف الخفا» (٢/ ٥٢) وذكره أيضاً الشيخ علي القارىء في «الأسرار المرفوعة» ص ١٥٤ رقم (٥٩١) وعزاه إلى ابن عساكر.

(٤) أخرجه الدارقطني (٤/ ٣٥) وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٦٩٤) وعبد الرزاق (٧/ ٣٩٠) والبيهقي (٧/ ٣٦١) وابن راهويه وأبو يعلى كما في «المطالب العالية» (٢/ ٥٩) وابن الجوزي في «العلل» (٢/ ٦٤٣) من طريق حميد بن مالك عن مكحول عن معاذ بن جبل مرفوعاً.
قال ابن الجوزي: لا يصح حميد بن مالك قد ضعفه يحيى والرازي وقال ابن عدي ما يرويه منكر.
وقال البيهقي: حميد بن مالك مجهول ومكحول عن معاذ منقطع.

(٥) أخرجه أبو داود (٢١٧٧) والدارقطني (٤/ ٣٥) والحاكم (٢/ ١٩٦) والبيهقي (٧/ ٣٢٢) من حديث ابن عمر.

(٦) تقدم.

فصل في وجوه الطلاق[١]

روى الدارقطني عن ابن عباس أنه قال: الطلاق على أربعة وجوه وجهان حلالان، ووجهان حرامان.

فأما الحلال، فأن يطلقها [طاهراً][٢] من غير جماع، وأن يطلّقها حاملاً متبيناً حملها، وأما الحرام فأن يطلقها حائضاً، وأن يطلقها حين يجامعها لا يدري أشْتَمَلَ الرَّحِمُ على ولدٍ أمْ لا[٣].

واعلم أن الطلاق في حال الحيض والنفاس بدعة، وكذلك في الطُّهر الذي جامعها فيه لقول النبي ﷺ: «وإن شَاءَ طلَّق قَبْلَ أن يمضي».

وطلاق السُّنة: أن يُطلِّقها في طُهْرٍ لم يجامعها فيه، وهذا في حقّ المرأة يلزمها العدة بالأقراء.

وأما طلاق غير المدخول بها في حيضها، أو الصغيرة التي لم تحض، والآيسة بعدما جامعها، أو طلق الحامل بعد ما جامعها، أو في حال رؤية الدم لا يكون بدعيًا ولا سنيًا، لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «ثُمَّ ليُطلِّقْهَا طَاهِراً أو حَاملاً».

والخُلْع في حال الحيض أو في طهر جامعها فيه فلا يكون بدعياً، لأن النبي ﷺ أذن لثابت بن قيس في مخالعة زوجته من غير أن يعرف حالها، ولولا جوازه في جميع الأحوال لاستفسره.

قوله: ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾.

قال الزمخشري[٤]: «مستقبلات لعدتهن»، كقولك: أتيته لليلة بقيت من المحرم أي: مستقبلاً لها، وفي قراءة رسول الله ﷺ: «من قبل عدتهن» انتهى.

وناقشه أبو حيان في تقدير الحال التي تعلق بها الجار كوناً خاصًا.

وقال[٥]: «الجار إذا وقع حالاً إنما يتعلق بكون مطلق».

وفي مناقشته نظر، لأن الزمخشري لم يجعل الجار حالاً، بل جعله متعلقاً بمحذوف دلّ عليه معنى الكلام[٦].

وقال أبو البقاء[٧]: «لعدَّتهنَّ» أي: عندما يعتد لهن به، وهن في قبل الطهر. وهذا تفسير معنى لا تفسير إعراب.

---

(١) ينظر: القرطبي ١٨/ ١٠٠.
(٢) سقط من أ.
(٣) أخرجه الدارقطني (٤/ ٥) عن ابن عباس.
(٤) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٥٢.
(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٧٧، ٢٧٨.
(٦) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٢٩.
(٧) ينظر: الإملاء ٢/ ١٢٢٧.

وقال أبو حيان[١]: «هو على حذف مضاف، أي: لاستقبال عدتهن، واللام للتوقيت، نحو: لقيته لليلة بقيت من شهر كذا» انتهى.

فعلى هذا تتعلق اللام بـ «طلقوهن».

وقال الجرجاني: «فطلِّقُوهُنَّ لِعدَّتِهِنَّ» صفة للطَّلاق.

كيف يكون، وهذه اللام تجيء لمعان مختلفة[٢]؟

للإضافة، وهي أصلها، أو لبيان السبب والعلة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩].

أو بمعنى «عند» كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] أي: عنده.

وبمنزلة «في» كقوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢]، أي: في أول الحشر.

وهي في هذه الآية بهذا المعنى، لأن المعنى: فطلقوهن في عدتهن، أي: في الزمان الذي يصلح لعدتهن.

فصل في قوله: لعدتهن

قال القرطبي[٣]: قوله: «لعدَّتِهِنَّ» يقتضي أنهن اللاتي دخل بهن الأزواج، لأن غير المدخول بهن خرجن بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩] وحصل الإجماع على أن الطلاق في الحيض ممنوع منه، وفي الطهر مأذون فيه، وهذا يدل على أن القرء هو الطهر.

فإن قيل: معنى قوله: «فطَلِّقُوهُنَّ لعِدَّتِهِنَّ» أي: في قُبُل عدتهن، أو لقبل عدتهن وهي قراءة النبي ﷺ كما قال ابن عمر، فقبول العدة آخر الطهر حتى يكون القرء الحَيْض؟.

قيل[٤]: هذا هو الدليل الواضح لمن قال: بأن الأقْراءَ هي الأطْهَار، ولو كان كما قال الحنفي، ومن تابعه لوجب أن يقال: إن من طلق في أول الطهر لا يكون مطلقاً لقبل الحيض لأن الحيض لم يُقْبِل بعد، وأيضاً إقبال الحيض يكون بدخول الحيض، وبانقضاء الطهر لا يتحقق إقبال الحيض، ولو كان إقبال الشيء إدبار ضده لكان الصائم مفطراً قبل

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٧٧.

(٢) ينظر: التفسير الكبير ٣٠/ ٢٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٠٠.

(٤) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٠١.

انقضاء النهار ثُمَّ إذا طلق في آخر الطهر فبقيّة الطهر قرء، ولأن بعض القرء يسمى قرءاً، كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]، يعني شوال وذو القعدة وذو الحجة، وكقوله: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٠٣] وهو ينفر في بعض اليوم الثاني.

وقال البغوي(١): معنى قوله «لِعدَّتهِنَّ» أي: لطهرهن الذي يحضنه من عدتهن، وكان ابن عبَّاس وابن عمر يقرآن: «فطلقوهن في قبل عدتهن»، والآية نزلت في عبد الله بن عمر.

فصل في الطلاق في الحيض(٢)

من طلق في طهر جامع فيه أو حائضاً نفذ طلاقه، وأخطأ السُّنة.

وقال سعيد بن المسيب في آخرين: لا يقع الطلاق في الحيض لأنه خلاف السنة، وإليه ذهبت الشيعة.

فصل في طلاق السنة

قال عبد الله بن مسعود: طلاق السنة أن يطلقها في كل طُهْر تطليقة، فإذا كان آخر ذلك، فتلك العدّة التي أمر الله بها(٣).

قال القرطبي(٤): قال علماؤنا: طلاق السُّنة ما جمع شروطاً سبعة: وهو أن يطلقها واحدة، وهي ممن تحيض طاهراً، لم يمسّها في ذلك الطُّهر، ولا تقدمه طلاق في حيض ولا تبعه طلاق في طهر يتلوه، وخلا عن العوض، وهذه الشروط السبعة من حديث ابن عمرو. وقال الشافعي: طلاق السُّنة: أن يطلقها في كل طُهْرٍ خاصة، ولو طلقها ثلاثاً في طُهْر لم يكن بدعة.

قال ابن العربي(٥): «وهذه غفلة عن الحديث الصحيح، فإنه قال فيه: «مُرهُ فَلْيُرَاجِعْهَا» وهذا يدفع الثلاث».

وفي الحديث أنه قال: «أرأيْتَ لَوْ طَلقَّهَا ثلاثاً»؟ قَال: «حَرُمَتْ عليْكَ، وكَانَتْ مِنكَ بِمَعْصيَةٍ»(٦).

وقال أبو حنيفة: ظاهر الآية يدل على أن الطلاق الثلاث والواحدة سواء. وهو

---

(١) ينظر: معالم التنزيل ٤/ ٣٥٥.
(٢) ينظر: القرطبي ١٨/ ١٠٠.
(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٥٠) وعزاه إلى عبد بن حميد والطبراني وابن مردويه عن ابن مسعود.
(٤) ينظر: القرطبي ١٨/ ١٠٠.
(٥) ينظر: أحكام القرآن ٤/ ١٨٢٦.
(٦) تقدم.

مذهب الشافعي. لولا قوله بعد ذلك: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١]، وهذا يبطل دخول الثلاث تحت الآية، وبذلك قال أكثر العلماء.

قال القرطبي[١]: وأما مالك فلم يخف عليه إطلاق الآية، ولكن الحديث فسرها، وأما قول الشعبي فمردود بحديث ابن عمر.

واحتج الشافعي بأن عبد الرحمن بن عوف طلق امرأته تماضر بنت الأصبغ الكلبية وهي أم أبي سلمة ثلاث تطليقات في كلمة واحدة، ولم يبلغنا أن أحداً من الصحابة عاب ذلك عليه.

وأن حفص بن المغيرة طلق امرأته فاطمة بنت قيس على عهد رسول الله ﷺ ثلاث تطليقات في كلمة واحدة، فأبانها منه رسول الله ﷺ، ولم يبلغنا أن رسول الله ﷺ عاب ذلك عليه.

وبحديث عويمر العجلاني، لما لاعن، قال: يا رسول الله، هي طالق ثلاثة، فلم ينكر عليه النبي ﷺ.

فصل في نزول العدة للطلاق[٢]

روى أبو داود عن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية، أنها طلقت على عهد رسول الله ﷺ ولم يكُن للمطلقة عدة فأنزل الله ـ تعالى ـ حين طلقت أسماء العدّة للطلاق، فكانت أول من أنزل فيها العدة للطلاق.

قوله: ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾.

يعني في المدخول بها، أي: احفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق.

قيل: أمر بإحصاء العدة لتفريق الطلاق على الأقراء إذا أراد أن يطلق ثلاثاً، وقيل: للعلم ببقاء زمان الرجعة ومراعاة أمر النفقة والسكن.

وفي المخاطب بالإحصاء أقوال[٣].

أحدها: أنهم الأزواج.

والثاني: هم الزوجات.

والثالث: هم المسلمون.

قال ابن العربي[٤]: والصحيح أنهم الأزواج؛ لأن الضمائر كلها من «طَلَّقتُمْ»، و «أَحْصُوا العِدَّة» و «لا تُخرجُوهُنَّ» على نظام واحد، فرجع إلى الأزواج، ولكن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٠١.
(٢) ينظر: السابق ١٨/ ١٠٠.
(٣) ينظر السابق ١٨/ ١٠٢.
(٤) ينظر: أحكام القرآن ٤/ ١٨٢٦.

الزوجات داخلة فيه بالإلحاق، لأن الزوج يُحْصِي ليراجع، وينفق أو يقطع، وليسكن أو يخرج، وليلحق نسبه أو يقطع، وهذه أمور كلها مشتركة بينه وبين المرأة، وتنفرد المرأة دونه بغير ذلك وكذلك الحاكم يفتقر إلى إحصاء العدة للفَتْوَى عليها، وفصل الخصومة عند المنازعة، وهذه فوائد الأمر بإحصاء العدّة.

قوله: «واتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكم». أي: لا تعصوه.

«لا تخرجوهنَّ من بيوتهنَّ». أي: ليس للزَّوج أن يخرجها من مسكن النكاح ما دامت في العدّة، ولا يجوز لها الخروج أيضاً لحق الزوج إلا لضرورة ظاهرة، فإن خرجت أثِمَتْ، ولا تنقطع العدّة[١].

فإن قيل: ما الحِكمةُ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ ولم يقتصر على قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؟.

فالجواب[٢]: إن في هذا من المبالغة ما ليس في ذاك، فإن لفظ الرَّبِّ يفهم منه التربية، وينبه على كثرة الإنعام بوجوه كثيرة، فيبالغون في التَّقوى حينئذ خوفاً من فوت تلك التربية.

فصل في الرجعية والمبتوتة[٣]

والرجعية والمبتوتة في هذا سواء، وذلك لصيانة ماء الرجل، وهذا معنى إضافة البيوت إليهن، كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣] فهو إضافة إسكان لا إضافة تمليك، وقوله ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ يقتضي أن يكون حقًّا على الأزواج، وقوله: **﴿ولا يخرجن﴾** يقتضي أنه حق على الزوجات، فلا يجوز لها أن تخرج ما لم تنقض عدتها، فإن خرجت لغير ضرورة أو حاجة أثمت، فإن وقعت ضرورة أو خافت هدماً أو غرقاً، فلها أن تخرج إلى منزل آخر، وكذلك إن كانت لها حاجة من بيع غَزْل أو شراء قطن، فيجوز لها الخروج نهاراً ولا يجوز ليلاً؛ فإن رجالاً استشهدوا بـ «أحد»، فقالت نساؤهم: نستوحش في بيوتنا فأذِنَ لهن النبي ﷺ أن يتحدثن عند إحداهن، فإذا كان وقت الليل تأوي كل امرأة إلى بيتها.

وأذن النبي ﷺ لخالة جابر لما طلقها زوجها أن تخرج لجداد نخلها.

وإذا لزمتها العدة في السفر تعتد ذاهبة وجائية، والبدوية تَنْتَوي حيث يَنْتَوي أهلها في العدة، لأن الانتقال في حقهم كالإقامة في حق المقيم.

---

(١) ينظر: القرطبي ١٨/١٠٢.

(٢) ينظر: التفسير الكبير ٣٠/٣٠.

(٣) ينظر: القرطبي ١٨/١٠٢.

وقال أبو حنيفة: ذلك في المتوفى عنها زوجها، وأما المطلقة فلا تخرج ليلاً ولا نهاراً. وهذا مردود بحديث فاطمة بنت قيس لما قدمت أرسل زوجها أبو حفص بن عمرو بتطليقة كانت بقيت من طلاقها، وأرسل إليها وكيله بشير فسخطته، فقال لها الحارث بن هشام وعياش بن أبي ربيعة: والله ما لك من نفقة إلا أن تكوني حاملاً، فأتت النبي ﷺ فذكرت له قولهما، فقال: لا نفقة لك، وفي رواية: «ولاَ سَكَنَ»، فاستأذنت في الانتقال، فأذن لها أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم، فلما انقضت عدتها أنكحها النبي ﷺ أسامة بن زيد، فأرسل إليها مروان قبيصة بن ذؤيب يسألها عن الحديث، فحدثته، فقال مروان: لم نسمع بهذا الحديث إلا من امرأة سنأخذ بالعِصْمَةِ التي وجدنا النَّاس عليها، فقالت فاطمة حين بلغها قول مروان: فبيني وبينكم القرآن، قال الله عز وجل: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾، قالت: هذا لما كانت له رجعة، لقوله: «لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً»، فأي أمر يحدث بعد الثَّلاث؟ فكيف تقولون: «لا نَفَقَةَ لَهَا إذَا لَمْ تَكُنْ حامِلاً، فعلام تَحبسُونهَا» لفظ مسلم.

فبين أن الآية في تحريم الإخراج، والخروج إنما هو في الرجعية.

فاستدلّت فاطمة أن الآية إنما تضمنت النهي عن خروج المطلقة الرجعية لأنها بصدد أن يحدث لمطلقها رأي في ارتجاعها ما دامت في عدتها فكانت تحت تصرف الزوج في كل وقت.

وأما البائن فليس له شيء في ذلك، فيجوز أن تخرج إذا دعتها لذلك حاجة.

قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ﴾.

قال ابن عباس، وابن عمر، والحسن، والشعبي، ومجاهد: هو الزِّنا، فتخرج[١] ويقام عليها الحد.

وعن ابن عباس أيضاً: أنه البذاء على أحمائها، فيحل لهم إخراجها[٢].

وعن سعيد بن المسيب أنه قال في فاطمة: تلك امرأة استطالت على أحمائها بلسانها فأمرها النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن تنتقل[٣].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٢٥ ـ ١٢٦) عن الحسن ومجاهد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٥٢) عن ابن عباس وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.
وذكره أيضاً عن مجاهد وعزاه إلى عبد بن حميد وعبد الرزاق.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٢٦) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٥٢) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن راهويه وعبد بن حميد وابن مردويه من طرق عن ابن عباس.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٠٣).

وفي كتاب أبي داود، قال سعيد: تلك امرأة فتنت النَّاس، إنها كانت لسنةً فوضعت على يدي ابن أم مكتوم الأعمى.

قال عكرمة: في مصحف أبيٍّ «إلا أن يفحشن عليْكم»(١).

ويقوي هذا أن محمد بن إبراهيم بن الحارث روي أن عائشة قالت لفاطمة بنت قيس: اتَّقي الله، فإنك تعلمين لم أخرجت.

وعن ابن عبَّاس أيضاً: أن الفاحشة كل معصية كالزِّنا والسرقة والبذاء على الأهل(٢)، وهو اختيار الطبري.

وعن ابن عباس أيضاً والسدي: «الفاحشة خروجها من بيتها في العدة»(٣).

وتقدير الآية: إلا أن يأتين بفاحشة لخروجهن من بيوتهن بغير حق، أي: لو خرجت كانت عاصية.

وقال قتادة: «الفاحشة» النشوز، وذلك أن يطلقها على النُّشوز، فتتحول عن بيته(٤).

وقال ابن العربي(٥): أما من قال: إنه الخروج للزنا، فلا وجه له؛ لأن ذلك الخروج هو خروج القَتْل والإعدام، وليس ذلك بمستثنى في حلال ولا حرام، وأما من قال: إنه البذاء، فهو معتبر في حديث فاطمة بنت قيس، وأما من قال: إنه كل معصية فوهم، لأن الغيبة ونحوها من المعاصي لا تبيح الإخراج ولا الخروج، وأما من قال: إنه الخروج بغير حقٍّ فهو صحيح، وتقدير الكلام: لا تخرجوهن من بيوتهن، ولا يخرجن شرعاً إلا أن يخرجن تعدِّياً.

قوله: ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾.

قرىء: بكسر الياء.

ومعناه: أن الفاحشة إذا تفكَّرت فيها تبين أنها فاحشة.

وقرىء(٦): بفتح الياء المشددة.

والمعنى: أنها مبرهنة بالبراهين، ومبينة بالحُجَجِ.

قوله: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) ينظر المصدر السابق. (٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٢٦).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٢٦) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٥٢) وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد.

(٥) ينظر: القرطبي ١٨/ ١٠٣، وأحكام القرآن ٤/ ١٨٣٢.

(٦) قرأ بها عاصم كما في: المحرر الوجيز ٥/ ٣٢٣، وينظر: الكشاف ٤/ ٥٥٤، والرازي ٣٠/ ٣٠.

أي: هذه الأحكام المبينة أحكام الله على العباد، وقد منع التجاوز عنها، فمن تجاوزها فقد ظلم نفسه وأوردها مورد الهلاك[(١)].

قوله: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾.

الأمر الذي يحدث الله أن يقلب قلبه من بغضها إلى محبتها، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه فيراجعها.

وقال جميع المفسرين[(٢)]: أراد بالأمر هنا الرغبة في الرجعة، ومعنى الكلام: التحريض على طلاق الواحدة والنهي عن الثلاث، فإنه إذا طلق ثلاثاً أضر بنفسه عند الندم على الفراق والرغبة في الارتجاع فلا يجد للرجعة سبيلاً.

وقال مقاتل: «بعد ذلك» أي بعد طلقة أو طلقتين «أمراً» أي: المراجعة من غير خلاف.

قوله: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ﴾.

هذه الجملة مستأنفة، لا تعلُّق لها بما قبلها، لأن النحاة لم يعدوها في المعلقات[(٣)].

وقد جعلها أبو حيَّان مما ينبغي أن يعد فيهن[(٤)]، وقرر ذلك في قوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: ١١١].

فهناك يطلب تحريره[(٥)].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾

قوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾.

قرأ العامة: «أَجَلَهُنَّ»؛ لأن الأجل من حيثُ هو واحد، وإن اختلفت أنواعه بالنسبة إلى المعتدات.

والضحاك وابن سيرين[(٦)]: «آجالهنّ» جمع تكسير.

---

(١) ينظر: القرطبي ١٨/ ١٠٤.

(٢) السابق.

(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٢٩.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٧٨.

(٥) ينظر: تفسير سورة الأنبياء.

(٦) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٧٨، والدر المصون ٦/ ٣٢٩.

اعتباراً بأن أجل هذه غير أجل تلك.

فصل في معنى الآية

معنى قوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قاربن انقضاء العدة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ [البقرة: ١٣١] أي: قربن من انقضاء الأجل ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ يعني المراجعة بالمعروف أي: بالرغبة من غير قصد المضارة في المراجعة تطويلاً لعدتها كما تقدم في البقرة ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: اتركوهن حتَّى تنقضي عدّتهن، فيملكن أنفسهن(١).

وفي قوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ ما يوجب أن يكون القول قول المرأة في انقضاء عدتها إذا ادعت ذلك على ما تقدم في «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨] الآية.

فصل

قال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١] وقوله: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩] أن الزوج له حق في بدنه وذمته، فكل من له دَيْن في ذمة غيره سواء كان مالاً، أو منفعة من ثمنٍ، أو مثمن، أو أجرة، أو منفعة، أو صداق، أو نفقة، أو بدل متلف، أو ضمان مغصوب، فعليه أن يؤدي ذلك الحق الواجب بإحسان، وعلى صاحب الحق أن يتبع بإحسان كما قال تعالى في آية القصاص: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨].

وكذلك الحق الثابت في بدنه مثل حق الاستمتاع والإجارة على عينه ونحو ذلك، فالطالب يطلب بمعروف والمطلوب يؤدى بإحسان.

قوله: ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾.

أمر بالإشهاد على الطلاق، وقيل على الرجعة.

قال القرطبي(٢): «والظاهر رجوعه إلى الرجعة لا إلى الطلاق، فإن راجع من غير إشهاد ففي صحة الرجعة قولان.

وقيل: المعنى وأشهدوا عند الرجعة والفرقة جميعاً وهذا الإشهاد مندُوب إليه عند أبي حنيفة، كقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وعند الشَّافعي واجبٌ في الرَّجعة مندوب إليه في الفرقة، وفائدة الإشهاد ألا يقع بينهما التجاحد، وألاَّ

(١) ينظر: القرطبي ١٨/ ١٠٤.
(٢) السابق.

يتهم في إمساكها، ولئلا يموت أحدهما فيدعي الباقي بثبوت الزوجية فيرث».

فصل في الإشهاد على الرجعية

الإشهاد على الرجعية ندب عند الجمهور، وإذا جامع أو قبل أو باشر يريد بذلك الرَّجعة، فليس بمراجع.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: إذا قبل أو باشر أو لمس بشهوة، فهو رجعة وكذلك النظر إلى الفَرْج رجعة.

وقال الشافعي وأبو ثور: إذا تكلم بالرجعة، فهي رجعة.

وقيل: وطؤه مراجعة على كُلِّ حال، نواها أو لم ينوها، وهو مذهب أحمد وإليه ذهب الليث وبعض المالكية.

قال القرطبي رضي الله عنه[١]: وكان مالك يقول: إذا وطىء ولم ينو الرجعة، فهو وَطْء فاسد، ولا يعود إلى وطئها حتى يستبرئها من مائهِ الفاسد، وله الرجعة في بقية العدة الأولى، وليست له رجعة في هذا الاستبراء.

فصل فيمن أوجب الإشهاد في الرجعة

أوجب الإشهاد في الرجعة الإمام أحمد في إحدى الروايتين عنه، والشافعي كذلك لظاهر الأمر.

وقال مالك وأبو حنيفة وأحمد والشافعي في القول الآخر: إنَّ الرجعة لا تفتقر إلى القبول فلم تفتقر إلى الإشهاد كسائر الحقوق، وخصوصاً حل الظهار بالكفارة.

فصل

إذا ادّعى بعد انقضاء العدة أنه راجع امرأته في العدة، فإن صدقته جاز، وإن أنكرت حلفت، فإن أقام بينةً أنه ارتجعها في العدة، ولم تعلم بذلك لم يضرّه جهلها، وكانت زوجته وإن كانت قد تزوجت ولم يدخل بها، ثم أقام الأول البيّنة على رجعتها، فعن مالك ـ رحمه الله ـ في ذلك روايتان:

إحداهما: أن الأول أحق بها.

والأخرى: أن الثاني أحق بها، فإن كان الثاني قد دخل بها فلا سبيل للأول إليها.

قوله: ﴿ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾.

قال الحسنُ: من المسلمين[٢].

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٠٥.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٠٥).

وعن قتادة: من أحراركم، وذلك يوجب اختصاص الشهادة على الرجعة بالذكور دون الإناث؛ لأن «ذَوَيْ» للمذكر[(١)].

قال القرطبي[(٢)]: «ولذلك قال علماؤنا: ولا مدخل للنساء فيما عدا الأموال».

قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ كما تقدم في «البقرة».

أي: تقرباً إلى الله في إقامة الشهادة على وجهها إذا مست الحاجة إليها من غير تبديل ولا تغيير[(٣)].

قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ﴾ أي: يرضى به ﴿مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ فأما غير المؤمن فلا ينتفع بهذه المواعظ.

قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾.

قال الزمخشري[(٤)]: «قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من أمر الطلاق على السُّنَّة» كما مر.

روي أن النبي ﷺ سئل عمن طلق زوجته ثلاثاً أو ألفاً هل له من مخرج؟ [فتلاها[(٥)]][(٦)].

وقال ابن عباس والشعبي والضحاك: هذا في الطلاق خاصة[(٧)]، أي: من طلق كما أمره الله يكن له مخرج في الرجعة في العدة، وأن يكون كأحد الخطاب بعد العدة.

وعن ابن عبَّاس أيضاً: يجعل له محرجاً ينجِّيه من كل كربٍ في الرجعة في الدنيا والآخرة[(٨)].

وقيل: المخرج هو أن يقنعه الله بما رزقه. قاله علي بن صالح.

---

(١) ينظر المصدر السابق.
(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٠٥.
(٣) ينظر المصدر السابق.
(٤) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٥٥.
(٥) ذكره الحافظ في «تخريج الكشاف» (٤/ ٥٥٥) وقال:
أحرجه الدارقطني والطبراني وابن مردويه من طريق عبد الله بن الوليد وغيره عن إبراهيم بن عبد الله ابن عبادة بن الصامت عن أبيه عن جده، قال «طلق بعض آبائي امرأته ألفاً فانطلق بنوه، فقالوا: يا رسول الله إن أبانا طلق أمنا ألفاً فهل له مخرج. فقال: إن أباكم لم يتق الله فيجعل له مخرجاً الحديث» وفي إسناده جماعة من الضعفاء. رواه إسحاق في مسنده عن ابن إدريس عن عبيد الله بن إبراهيم عن عبادة بن الصامت كذا قال.
(٦) سقط من أ.
(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٠٥).
(٨) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٥٣) وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

وقال الكلبي: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ بالصَّبر عند المصيبة «يجعل له مخرجاً» من النار إلى الجنة(١).

وقال الحسن: مخرجاً مما نهى الله عنه(٢).

وقال أبو العالية: مخرجاً من كل شدة(٣).

وقال الربيع بن خيثم: مخرجاً من كل شيء ضاق على الناس.

وقال الحسين بن الفضل: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أداء الفرائض ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ من العقوبة ﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ الثواب ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أن يبارك له فيما آتاه.

وقال سهل بن عبد الله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في اتباع السُّنَّة ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ من عقوبة أهل البدع ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

وقال أبو سعيد الخدري: ومن تبرأ من حوله وقوّتهِ بالرجوع إلى اللّه ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ مما كلفه الله بالمعونة(٤).

وقال(٥) ابن مسعود ومسروق: الآية على العموم.

وقال أبو ذر: قال النبي ﷺ: «إنِّي لأعلمُ آيَةً لوْ أخذَ النَّاسُ بِهَا لَكَفَتهُمْ» وتلا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [فما زال يكررها ويعيدها(٦).

وقال ابن عباس: قرأ النبي ﷺ «ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب»](٧) قال: «مخرجاً من شُبهات الدنيا، ومن غمرات الموتِ، ومن شدائد يوم القيامة»(٨).

وقال أكثر المفسرين(٩): نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، أسر المشركون ابناً له يسمى سالماً، فأتى رسول الله ﷺ يشتكي إليه الفاقة، وقال: إن العدوّ أسر ابني وجزعت الأم، فما تأمرني؟ قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «اتَّقِ اللَّهَ واصْبِرْ، وآمُرُكَ وإيَّاهَا أن تَسْتَكْثِرَا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»، فعاد إلى بيته، وقال

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٠٥). (٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) ينظر المصدر السابق. (٤) ينظر المصدر السابق.

(٥) في أ: وتأول.

(٦) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٩٢) وأحمد (٥/ ١٧٨) وابن حبان (١٥٤٧ ـ موارد) من حديث أبي ذر.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٧) سقط من أ.

(٨) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٥٤) وعزاه إلى أبي يعلى وأبي نعيم والديلمي من طريق عطاء ابن يسار عن ابن عباس.

(٩) ينظر الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٠٦).

لامرأته: إن رسول الله ﷺ أمرني وإياك أن نستكثر من قول «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» فقالت: نِعْمَ ما أمرنا به، فجعلا يقولان، فغفل العدو عن ابنه فساق غنمهم، وجاء بها إلى أبيه، وهي أربعة آلاف شاةٍ، فنزلت الآية، وجعل النبي ﷺ تلك الأغنام له[١].

وروي أنه جاء وقد أصاب إبلاً من العدو، وكان فقيراً. فقال الكلبي: إنه أصاب خمسين بعيراً.

وفي رواية: فانفلت ابنه من الأسر وركب ناقة للقوم ومر في طريقه بسرح لهم فاستاقه.

وقال مقاتل: أصاب غنماً ومتاعاً، فقال أبوه للنبيّ ﷺ أيحل لي أن آكل مما أتى به ابني؟ قال: نعم، ونزلت: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[٢].

وروى الحسن عن عمران بن الحصين قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن انقَطَعَ إلى اللَّهِ كَفَاهُ اللَّهُ كُلَّ مَؤونةٍ ورَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ، ومن انقطع إلى الدُّنيا وكلها اللَّهُ إليه»[٣].

وقال الزجاج[٤]: أي: إذا اتقى وآثر الحلال والصبر على أهله فتح الله عليه إن كان ذا ضيق ورزقه من حيث لا يحتسب.

وعن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أكْثَرَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ من كُلِّ هَمٍّ فَرجاً، ومِن كُلِّ ضيقٍ مَخْرَجاً، ورزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ»[٥].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٣٠، ١٣١) عن السدي وسالم بن أبي الجعد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٥٤) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن سالم بن أبي الجعد. وذكره أيضاً عن ابن عباس مطولاً وعزاه للخطيب في «تاريخه» من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس. ومختصراً من طريق الكلبي عن أبي صالح عنه وعزاه لابن مردويه.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٠٦) عن مقاتل.

(٣) أخرجه الخطيب (٧/ ١٩١) والطبراني في «الأوسط» كما في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٠٦).
وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه إبراهيم بن الأشعث صاحب الفضيل وهو ضعيف وقد ذكره ابن حبان في «الثقات» وقال يخطىء ويغرب ويخالف.

(٤) ينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٨٤.

(٥) أخرجه أحمد (١/ ٢٤٨) وأبو داود (١٥١٨) والحاكم (٤/ ٢٦٢) والنسائي في «الكبرى» (٦٤٥) ومن طريقه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٥٨) والبيهقي (٣/ ٣٥١) من طريق الحكم بن مصعب ثني محمد بن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده مرفوعاً.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
ورده الذهبي بقوله: قلت الحكم فيه جهالة.

=

قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾.

أن من فوّض إليه أمره كفاهُ ما أهمَّه.

وقيل: من اتقى الله وجانب المعاصي وتوكل عليه فله فيما يعطيه في الآخرة من ثوابه كفاية، ولم يرد الدنيا؛ لأن المتوكل قد يصاب في الدنيا وقد يقتل.

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لَوْ أنَّكُمْ تَتوكَّلُونَ على اللَّهِ حقَّ تَوكُّلِهِ لرزقَكُم كَمَا يَرزقُ الطَّيْر تَغْدُو خِمَاصاً وتَرُوحُ بِطَاناً»[1].

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾.

قرأ حفص: «بَالِغُ» من غير تنوين «أمْرِهِ» مضاف إليه على التخفيف.

والباقون: بالتنوين[2] **والنصب**، وهو الأصل، خلافاً لأبي حيان[3].

وقرأ ابن أبي عبلة وداود بن أبي[4] **هند، وأبو عمرو في رواية**: «بَالِغٌ أمْرُهُ» بتنوين «بالغ» ورفع «أمره».

وفيه وجهان[5]:

أحدهما: أن يكون «بالغ» خبراً مقدماً، و «أمره» مبتدأ مؤخر، والجملة خبر «إن».

والثاني: أن يكون «بالغ» خبر «إن» و «أمره» فاعل به.

قال الفراء[6]: أي: أمره بالغ.

وقيل: «أمره» مرتفع بـ «بالغ» والمفعول محذوف، والتقدير: بالغ أمره ما أراد.

= والحكم ذكره الحافظ ابن حجر في «التهذيب» (٢/ ٤٣٩) وقال: روى عن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وعنه الوليد بن مسلم. قال أبو حاتم: لا أعلم روى عنه غيره وذكره ابن حبان في «الثقات» وقال يخطىء له عندهم حديث واحد في لزوم الاستغفار قلت: هذا مقل جدًّا فإن كان أخطأ فهو ضعيف وقد قال أبو حاتم مجهول وذكره ابن حبان في الضعفاء أيضاً وقال: روى عنه أبو المغيرة أيضاً لا يجوز الاحتجاج بحديثه ولا الرواية عنه إلا على سبيل الاعتبار انتهى وهو تناقض صعب وقال الأزدي: لا يتابع على حديثه فيه نظر.

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠، ٥٢) والترمذي (٢٣٤٤) وابن ماجه (٤١٦٤) وعبد بن حميد في «المنتخب» (ص ٣٢) من حديث عمر بن الخطاب وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) ينظر: السبعة ٦٣٩، والحجة ٦/ ٣٠٠، وإعراب القراءات ٢/ ٣٧٣، وحجة القراءات ٧١٢، وشرح الطيبة ٦/ ٥٨، والعنوان ١٩٢، وشرح شعلة ٦٠٤، وإتحاف ٢/ ٥٤٥.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٧٩.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٢٤، والبحر المحيط ٨/ ٢٧٩، والدر المصون ٦/ ٣٢٩.

(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٢٩.

(٦) ينظر: معاني القرآن له ٣/ ١٦٣.

وقرأ المفضل[١]: «بالغاً» بالنصب، «أمرُه» بالرفع. وفيه وجهان[٢]:

أظهرهما: وهو تخريج الزمخشري[٣]: أن يكون «بالغاً» نصباً على الحال، و ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ هو خبر «إن» تقديره: إن الله قد جعل لكل شيء قدراً بالغاً أمره.

والثاني: أن يكون على لغة من ينصب الاسم والخبر بها، كقوله: [الطويل]

٤٧٨٢ - .... **إنَّ حُـرَّاسَـنَـا أسْـدَا**[٤]

ويكون «قَدْ جَعَلَ» مستأنفاً كما في القراءة الشهيرة.

ومن رفع «أمره» فمفعول «بالغ» محذوف، تقديره: ما شاء، كما تقدم في القرطبي[٥].

فصل في معنى الآية[٦]

قال مسروق: يعني قاضٍ أمره فيمن توكل عليه وفيمن لم يتوكل عليه إلا أن من توكل عليه يكفر عنه سيئاته، ويعظم له أجراً.

قوله: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾.

قيل: إن من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿مَخْرَجًا﴾ آية، ومنه إلى قوله تعالى: ﴿قَدْرًا﴾ آية أخرى، وعند الكوفي والمدني المجموع آية واحدة[٧].

وقرأ جناح بن[٨] **حبيش**: «قَدراً» بفتح الدال.

والمعنى[٩]: لكل شيء من الشدة والرخاء أجلاً ينتهي إليه.

وقيل: تقديراً.

وقال السدي: هو قدر الحيض في الأجل والعدة[١٠].

وقال عبد الله بن رافع: لما نزل قوله تعالى ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ فقال أصحاب النبي ﷺ: «فَنَحْنُ إذَا توكلنَا عليْهِ يُرسِلُ مَا كَانَ لَنَا وَلاَ نَحْفَظُهُ»، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ فيكم وعليكم[١١].

وقال الربيع بن خيثم: إنَّ الله قضى على نفسه أن من توكل عليه كفاه، ومن آمن به

---

(١) ينظر القراءة السابقة.
(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٢٩.
(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٥٦.
(٤) تقدم.
(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٠٧.
(٦) ينظر السابق ١٨/ ١٠٦.
(٧) ينظر: التفسير الكبير ٣٠/ ٣٢.
(٨) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٧٩، والدر المصون ٦/ ٣٣٠.
(٩) ينظر: القرطبي ١٨/ ١٠٧.
(١٠) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٠٧).
(١١) ينظر المصدر السابق.

هداه، ومن أقرضه جازاه، ومن وثق به نجَّاه، ومن دعاه أجاب له.

وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٧]، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

قوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥)﴾

قوله: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ﴾.

تقدم الخلاف فيه.

وأبو عمرو يقرأ[١] **هنا**: «واللاّئي يئسن» بالإظهار.

وقاعدته في [مثله][٢] الإدغام، إلا أن الياء لما كانت عنده عارضة لكونها بدلاً من همزة، فكأنه لم يجتمع مثلان، وأيضاً فإن سكونها عارض، فكأن ياء «اللائي» متحركة، والحرف ما دام متحركاً لا يدغم في غيره. **وقرىء**[٣]: «يَئِسْنَ» فعلاً ماضياً.

وقرىء: «يَيْئَسْنَ»[٤] مضارع.

و ﴿مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ﴾.

«من» الأولى لابتداء الغاية، وهي متعلقة بالفعل قبلها، والثانية للبيان متعلقة بمحذوف[٥].

و «اللاَّئِي» مبتدأ، و «فَعِدَّتُهُنَّ» مبتدأ ثانٍ، و «ثَلاثَةُ أشْهرٍ» خبره، والجملة خبر الأول، والشرط معترض، وجوابه محذوف.

ويجوز أن يكون «إن ارْتَبْتُمْ» جوابه «فعِدَّتُهُنَّ ثلاثةُ أشْهُرٍ»، والجملة الشرطية خبر المبتدأ، ومتعلق الارتياب محذوف، تقديره: إن ارتبتم في أنها يئست أم لا لإمكان ظهور حمل وإن كان انقطع دمها.

---

(١) ينظر: العنوان ١٥٤، ١٩٢، وإتحاف ٢/ ٥٤٥، وينظر: الدر المصون ٦/ ٣٣٠.

(٢) في أ: مسألة.

(٣) وهي قراءة الجمهور كما في البحر المحيط ٨/ ٢٨٠.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٨٠، والدر المصون ٦/ ٣٣٠.

(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٣٠.

وقيل: إن ارتبتم في دم البالغات مبلغ اليأس أهو دم حيض، أو استحاضة، وإذا كان هذا عدة المرتاب فيها فغير المُرتَاب فيها أولى.

وأغرب ما قيل: إن «إنِ ارتَبْتُمْ» بمعنى: تَيَقَّنْتُمْ، فهو من الأضداد.

قوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾.

مبتدأ، خبره محذوف، فقدره جملة كالأولى، أي: فعدتهن ثلاثة أشهر أيضاً، والأولى أن يقدر مفرداً، أي: فكذلك أو مثلهن.

ولو قيل: بأنه معطوف على «اللائِي يَئِسْنَ» عطف المفردات، وأخبر عن الجمع بقوله: «فعدَّتُهُنَّ» لكان وجهاً حسناً، وأكثر ما فيه توسُّطُ الخبر بين المبتدأ وما عطف عليه. وهذا ظاهر قول أبي حيان[١]: و«اللائِي لم يَحِضْنَ» معطوف على قوله «واللاَّئِي يَئِسْنَ»، فإعرابه مبتدأ كإعراب «واللائي».

قوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ﴾ مبتدأ، و «أجَلُهُنَّ» مبتدأ ثانٍ، و «أن يَضَعْنَ» خبر المبتدأ الثاني وهو وخبره خبر الأول.

والعامَّة: على إفراد «حَمْلَهُنَّ».

والضحاك[٢]: «أحْمَالهُنَّ».

فصل في عدة التي لا ترى الدم[٣]

لما بين أمر الطلاق والرجعة في التي تحيض، وكانوا قد عرفوا عدة ذوات الأقراء عرفهم في هذه السورة عدة التي لا ترى الدم.

قال أبو عثمان عمير بن سليمان: لما نزل عدة النِّساء في سورة البقرة في المطلقة والمتوفى عنها زوجها، قال أبيُّ بن كعب: يا رسول الله، إن ناساً يقولون: قد بقي من النساء من لم يذكر فيهن شيء، الصغار والكبار وذوات الحَمْل، فنزلت: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ﴾ الآية[٤].

وقال مقاتل: لما ذكر قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ قال

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٨٠، والدر المصون ٦/ ٣٣٠.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٢٥، والبحر المحيط ٨/ ٢٨٠، والدر المصون ٦/ ٣٣٠.

(٣) ينظر: القرطبي ١٨/ ١٠٧.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٣٣) والحاكم (٢/ ٤٩٢ ـ ٤٩٣) من حديث أبي بن كعب.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
وذكره الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (٣/ ٣٨٩) وعزاه لإسحاق بن راهويه.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٥٧) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

خلاّد بن النعمان: يا رسول الله، فما عدّة التي لم تَحِضْ، وعدة التي انقطع حيضها وعدة الحُبْلى؟ فنزلت: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾، يعني: قعدن عن الحيض[١].

وقيل: إن معاذ بن جبل سأل عن عدّة الكبيرة التي يئست، فنزلت الآية.

وقال مجاهد: الآية واردة في المستحاضة لا تدري دم حيض هو أو دم علة؟.

فصل في تفسير الآية

قال المفسرون: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾، فلا يرجون أن يحضن «إن ارتبْتُمْ» أي: شككتم.

وقيل: تيقنتم، وهو من الأضداد، يكون شكًّا ويقيناً كالظَّن.

واختيار الطَّبري[٢]: أن يكون المعنى إن شككتم، فلم تدروا ما الحكم فيهن.

وقال الزجاج[٣]: إن ارتبتم في حيضها وقد انقطع عنها الحيض وكانت ممن يحيض مثلها.

قال القشيري: وفي هذا نظر، لأنا إذا شككنا، هل بلغت سن اليأس لم نقل: عدتها ثلاثة أشهر.

والمعتبر في سن اليأس أقصى عادة امرأة في العالم.

وقيل: غالب نساء عشيرة المرأة.

وقال مجاهد: قوله: «إن ارْتَبْتُمْ» للمخاطبين، يعني إن لم تعلموا كم عدة الآيسة، والتي لم تحضْ فالعدّة هذه[٤].

وقيل: المعنى إن ارتبتم أن الدم الذي يظهر منها من أجل كبر أو من الحيض المعهود أو من الاستحاضة فالعدة ثلاثة أشهر.

وقال عكرمة وقتادة: من الريبة المرأة المستحاضة التي لا يستقيم لها الحيض تحيض في أول الشهر مراراً، وفي الأشهر مرة[٥].

وقيل: إنه متصل بأول السورة، والمعنى لا تخرجوهن من بيوتهن إن ارتبتم في انقضاء العدة.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٠٧) عن مقاتل.

(٢) ينظر: جامع البيان ١٢/ ١٣٤.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٨٥.

(٤) ينظر القرطبي (١٨/ ١٠٧) عن مقاتل.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٣٤) عن عكرمة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٥٨) وعزاه إلى عبد الرزاق.

قال القرطبي(١): «وهو أصح ما قيل فيه».

فصل في المرتابة في عدتها

المرتابة في عدتها لم تنكح حتى تستبرىء نفسها من ريبتها، ولا تخرج من العدة إلا بارتفاع الرِّيبة، وقد قيل في المرتابة التي ارتفع حيضها، لا تدري ما رفعه إنها تنتظر سنة من يوم طلَّقها زوجها، منها تسعة أشهر استبراء، وثلاثة عدة، فإن طلقها فحاضت حيضة، أو حيضتين، ثم ارتفع حيضها بغير يأس منها انتظرت تسعة أشهر ثم ثلاثة من يوم طهرت من حيضها ثم حلت [للأزواج](٢). وهذا قول الشافعي بالعراق.

فعلى قياس هذا القول تقيم الحرة المتوفى عنها زوجها المستبرأة بعد التسعة أشهر [أربعة أشهر وعشراً، والأمة شهرين وخمس ليال بعد التسعة أشهر](٣).

وروي عن الشافعي أيضاً: أن أقراءها على ما كانت حتى تبلغ سنَّ اليائسات.

وهو قول النخعي والثوري وغيرهما، وحكاه أبو عبيد عن أهل العراق.

فصل في ارتياب المرأة الشابة

إذا ارتابت المرأة الشابة هل هي حامل أم لا؟.

فإن استبان حملها فأجلها وضعه، وإن لم يستبن، فقال مالك: عدة التي ارتفع حيضها وهي شابة سنة، وبه قال أحمد وإسحاق وروي عن عمر بن الخطَّاب وغيره.

وأهل «العراق» يرون أن عدتها ثلاث حيض بعد ما كانت حاضت مرة واحدة في عمرها وإن مكثت عشرين سنةً، إلا أن تبلغ من الكبر سنًّا تيأس فيه من الحيضِ فتكون عدتها بعد الإياس ثلاثة أشهر.

قال الثعلبي: وهذا الأصح من مذهب الشافعي وعليه جمهور العلماء، وروي ذلك عن ابن مسعود وأصحابه.

قال إلكيا(٤): وهو الحق، لأن الله تعالى جعل عدة الآيسة ثلاثة أشهر. والمرتابة ليست آيسة.

فصل فيمن تأخر حيضها لمرض

فأما من تأخر حيضها لمرض، فقال مالك وبعض أصحابه: تعتد تسعة أشهر ثم ثلاثة كما تقدم.

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/١٠٨.

(٢) في أ: للزواج.

(٣) سقط من أ.

(٤) ينظر: أحكام القرآن له ٤/٤٢١.

وقال أشهب: هي كالمرضع بعد الفطام بالحيض أو بالسنة.

وقد طلق حبان بن منقذ امرأته وهي ترضع، فمكثت سنة لا تحيض لأجل الرضاع ثم مرض حبان فخاف أن ترثه فخاصمها إلى عثمان وعنده عليّ وزيد فقالا: نرى أن ترثه، لأنها ليست من القواعد ولا من الصغار، فمات حبان فورثته واعتدت عدة الوفاة.

فصل

لو تأخّر الحيض بغير مرض ولا رضاع فإنها تنتظر سنة لا حيض فيها، تسعة أشهر ثم ثلاثة على ما تقدم، فتحل ما لم ترتب بحمل، فإن ارتابت بحمل أقامت أربعة أعوام أو خمسة أو سبعة على الاختلاف.

قال القرطبي(١): «وأشهر الأقوال خمسة أعوام، فإن تجاوزتها حلّت».

وقال أشهب: لا تحل أبداً حتى تنقطع عنها الريبة.

قال ابن العربي(٢): «وهو الصحيح، إذا جاز أن يبقى الولد في بطنها خمسة أعوام جاز أن يبقى عشرة أو أكثر من ذلك»، وروي مثله عن مالك.

فصل فيمن جهل حيضها بالاستحاضة

وأما التي جهل حيضها بالاستحاضة ففيها أقوال:

قال ابن المسيب: تعتد سنة. وهو قول الليث.

قال الليث: عدة المطلقة والمتوفى عنها زوجها إذا كانت مستحاضة «سنة».

قال القرطبي(٣): «وهو مشهور قول علمائنا، سواء علمت دم حيضها من دم استحاضتها، وميزت ذلك أو لم تميزه، عدّتها في مذهب مالك سنة، منها تسعة أشهر استبراء، وثلاثة عدّة».

وقال الشّافعي في أحد أقواله: عدتها ثلاثة أشهر، وهو قول جماعة من التابعين والمتأخرين.

قال ابن العربي(٤): «وهو الصحيح عندي».

وقال أبو عمر: المستحاضة إذا علمت إقبال حيضتها وإدبارها اعتدت بثلاثة قُرُوءٍ.

قال القرطبي(٥): «وهذا أصحّ في النظر، وأثبت في القياس والأثر».

قوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾.

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٠٨.

(٢) ينظر: أحكام القرآن له ٤/ ١٨٢٨.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٠٩.

(٤) أحكام القرآن ٤/ ١٨٢٨.

(٥) ينظر: القرطبي ١٨/ ١٠٩.

يعني: الصغيرة، فعدتهن ثلاثة، فأضمر الخبر، وإنما كانت عدتها الأشهر لعدم الأقراء في حقِّها عادة، والأحكام إنما أجراها اللَّه تعالى على العادات، فتعتد بالأشهر، فإن رأت الدَّم في زمن احتماله عند النِّساء انتقلت إلى الدَّم لوجود الأصل، فإذا وجد الأصل لم يبق للبدل حكم، كما أن المُسِنَّة إذا اعتدت بالدم، ثم ارتفع عادت إلى الأشهر، وهذا إجماع.

فصل

قوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ وضع الحمل، وإن كان ظاهراً في المطلقة؛ لأنه عليها عطف وإليها رجع عقب الكلام، فإنه في المتوفى عنها زوجها كذلك، لعموم الآية، وحديث سبيعة، كما مضى في سورة «البقرة».

فإذا وضعت المرأة ما في بطنها من علقة أو مضغة حلت عند مالك.

وقال الشافعي وأبو حنيفة[١]: لا تحل إلا بوضع ما يتبين فيه شيء من خلق الإنسان، فإن كانت حاملاً بتوءمين لم تنقض عدتها حتى تضع الثاني منهما.

قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾.

أي: من يتقه في طلاق السنة ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ في الرجعة.

وقال مقاتل: ومن يتق الله في اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسراً في توفيقه للطاعة[٢].

﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: الذي ذكر من الأحكام أمر الله أنزله إليكم وبيَّنَهُ لكم، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: يعمل بطاعته ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ أي: في الآخرة.

قوله: ﴿وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾.

هذه قراءة العامة مضارع «أعظم».

وابن مقسم[٣]: «يعظم» بالتشديد، مضارع عظم مشدداً.

والأعمش[٤]: «نعظم» بالنون، مضارع «أعظم» وهو التفات من غيبة إلى تكلم.

قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۞٦﴾

قوله: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾.

---

(١) زاد في أ: وأحمد.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٠٩).

(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٨٠، والدر المصون ٦/ ٣٣٠.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٢٦، والبحر المحيط ٨/ ٢٨٠، والدر المصون ٦/ ٣٣٠، والتخريجات النحوية ٢٥٢.

قال ابن[١] الخطيب: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ وما بعده بيان لما شرط من التقوى في قوله ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ كأنه قيل: كيف يعمل بالتقوى في جنس المعتدات؟ فقيل: «أسكنوهُنَّ».

قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾. فيه وجهان:

أحدهما: أن «من» للتبعيض.

قال الزمخشري[٢]: «مبعضها محذوف معناه: أسكنوهن مكاناً من حيثُ سكنتم، أي: بعضِ مكان سُكناكم، كقوله تعالى: ﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] أي: بعض أبصارهم».

قال قتادةُ: إن لم يكن إلا بيت واحد، فأسكنها في بعض جوانبه[٣].

قال ابن الخطيب[٤]: وقال في الكشاف: «من» صلة، والمعنى أسكنوهن من حيث سكنتم.

والثاني: أنها لابتداء الغاية. **قاله الحوفي، وأبو البقاء**.

قال أبو البقاء[٥]: والمعنى تسبّبوا إلى إسكانهن من الوجه الذي تسكنون أنفسكم ودلّ عليه قوله «مِن وُجْدِكُم»، والوُجْد: الغِنَى.

قوله: «من وجدكم». فيه وجهان:

أظهرهما: أنه بدل من قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ بتكرار العامل، وإليه ذهب أبو البقاء.

كأنه قيل: أسكنوهن من سعتكُم.

والثاني: أنه عطف بيان لقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾، وإليه ذهب الزمخشري، فإنه قال بعد أن أعرب «مِنْ حَيْثُ» تبعيضية، قال[٦]: «فإن قلت: فقوله «مِنْ وُجْدِكُمْ» قلت: هو عطف بيان لقوله ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ ومفسّر له، كأنه قيل: أسكنوهن مكاناً من مسكنكم[٧] مما تطيقونه، والوُجْد: الوسع والطاقة».

وناقشه أبو حيان[٨] بأنه لم يعهد في عطف البيان إعادة العامل، إنما عهد هذا في البدل، ولذلك أعربه أبو البقاء بدلاً.

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٣٣.
(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٥٨.
(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٦١) وعزاه إلى عبد بن حميد عن قتادة.
(٤) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٣٣.
(٥) ينظر: الإملاء ٢/ ١٢٢٨.
(٦) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٥٨.
(٧) في أ: وجدكم.
(٨) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٨١.

وقرأ العامة: «وجدكم» بضم الواو.

والحسن، والأعرج، وأبو حيوة[١]: بفتحها.

والفياض بن غزوان وعمرو بن ميمون ويعقوب[٢]: بكسرها.

وهي لغات بمعنى واحد.

يقال: وجدت في المال أجد وُجْداً وجدة، والوُجْد: الغِنَى والقُدرة، والوَجْد بفتح الواو: الحُزْن أيضاً والحب والغضب.

فصل في تفسير الآية

قال القرطبي[٣]: روى أشهب عن مالك: يخرج عنها إذا طلقها ويتركها في المنزل لقوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾، فلو كان معها ما قال أسكنوهن.

وقال ابن نافع: قال مالك في قوله تعالى ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ يعني المطلقات اللاتي بنَّ من أزواجهن فلا رجعة لهم عليهن، وليست حاملاً، فلها السُّكنَى، ولا نفقة لها ولا كُسْوة؛ لأنها بائن منه، ولا يتوارثان ولا رجعة له عليها، وإن كانت حاملاً فلها الكسوة والنفقة والمسكن حتى تنقضي عدتها.

قال البغوي[٤]: ونعني بالكسوة مؤونة السكن، فإن كانت الدار التي طلقها فيها ملكاً للزوج وجب على الزوج أن يخرج ويترك الدار لها مدة عدتها، وإن كانت بإجارة فعلى الزوج الأجرة، وإن كانت عاريةً فرجع المعير فيها فعليه أن يكتري لها داراً تسكنها، فأما من لم تَبِنْ منه، فإنها امرأته يتوارثان، ولا تخرج إلا بإذن زوجها ما دامت في العدة ولم يؤمر بالسكن لهما لأن ذلك لازم للزوج مع النفقة والكسوة حاملاً كانت أو غير حامل، وإنما أمر الله بالسكن للبائن، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فجعل الله ـ عز وجل ـ للحوامل البائنات من أزواجهن السكنى والنفقة.

قال ابن العربي[٥]: «إن الله ـ تعالى ـ لما ذكر السكنى أطلقها لكل مطلقة، فلما ذكر النفقة قيدها بالحمل، فدل على أن المطلقة البائن لا نفقة لها».

قال القرطبي[٦]: اختلف العلماء في المطلقة ثلاثاً على ثلاثة أقوال: فمذهب مالك والشافعي: أن لها السَّكنى ولا نفقة لها.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٢٦، والبحر المحيط ٨/ ٢٨١، وزاد: ابن أبي عبلة، وينظر: الدر المصون ٦/ ٣٣١.

(٢) ينظر: السابق.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١١٠.

(٤) ينظر: معالم التنزيل ٤/ ٣٥٩.

(٥) ينظر: أحكام القرآن له ٤/ ١٨٣٩.

(٦) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١١٠.

ومذهب أبي حنيفة وأصحابه: أن لها السكنى والنفقة.

ومذهب أحمد وإسحاق وأبي ثور: لا نفقة لها ولا سُكنى، لحديث فاطمة بنت قيس قالت: دخلت على رسول الله ﷺ ومعي أخو زوجي، فقلت: إن زوجي طلقني، وإن هذا يزعم أنه ليس لي سُكْنَى ولا نفقة، فقال رسول ﷺ: بل لك السُّكنى والنفقة، قال: إن زوجها طلَّقها ثلاثاً، فقال النبي ﷺ: إنَّمَا السُّكْنَى والنَّفقةُ على من لَهُ عليْهَا رَجْعَةٌ[1]، فلَمَّا قدمتُ «الكُوفَة» طلبني الأسود بن يزيد ليسألني عن ذلك، وإن أصحاب عبد الله يقولون: إن لها السكنى والنفقة.

وعن الشعبي قال: لقيني الأسود بن يزيد، فقال: يا شعبي، اتق الله وارجع عن حديث فاطمة بنت قيسٍ، فإن عمر كان يجعل لها السكنى والنفقة، قلت: لا أرجع عن شيء حدثتني به فاطمة بنت قيس عن رسول الله ﷺ.

ولأنه لو كان لها سكنى لما أمر النبي ﷺ أن تعتدَّ في بيت ابن أم مكتومٍ.

وأجيب عن ذلك بما روت عائشة أنها قالت: كانت فاطمة في مكان وحش، فخيف على ناحيتها[2].

وقال سعيد بن المسيب: إنما نقلت فاطمة لطول لسانها على أحمائها[3].

وقال قتادة وابن أبي ليلى: لا سكنى إلا للرجعية، لقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، وقوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ راجع إلى ما قبله، وهي المطلقة الرجعية.

فصل في المعتدة عن وطء الشبهة

قال البغوي[4]: «وأما المُعتدَّة عن وطء الشبهة والمفسوخ نكاحها بِعيْبِ أو خيار عتق، فلا سُكْنَى لها ولا نفقة، وإن كانت حاملاً، والمعتدة من وفاة زوج لا نفقة لها حاملاً كانت أو حائلاً عند أكثر العلماء، وروي عن عليٍّ أن لها النفقة إن كانت حاملاً من التركة حتى تضع، وهو قول شريح والشعبي والنخعي والثوري. واختلفوا في سكناها:

فللشافعي قولان:

أحدهما: لا سكنى لها بل تعتدّ حيث شاءت، وهو قول علي وابن عبَّاس وعائشة، وبه قال عطاء والحسن، وهو مذهب أبي حنيفة.

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٤١٦) والدارقطني (٤/ ٢٢) وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ٢٠٠) والبيهقي (٧/ ٤٧٣ ـ ٤٧٤) من حديث فاطمة بنت قيس.

(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٥٩). (٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) ينظر: معالم التنزيل ٤/ ٣٦٠.

والثاني: لها السكنى، وهو قول عمر وعثمان وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وبه قال مالك، وسفيان الثوري، وأحمد، وإسحاق، لما روى كعب بن عجرة عن عمته زينب بنت كعب أن الفُريعة بنت مالك بن سنان ـ وهي أخت أبي سعيد الخدري ـ أخبرتها أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها في بني خدرة، فإن زوجها خرج في طلب أعبد له أبقوا حتى إذا كانوا بطرف «القدوم» لحقهم فقتلوه، فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي، فإن زوجي لم يتركني في منزل يملكه ولا نفقة، فقالت: قال رسول الله ﷺ «نَعَمْ»، فانصرفت حتى إذا كنت في الحُجْرة أو في المسجد دعاني رسول الله ﷺ وأمر بي فدعيت له، فقال رسول الله ﷺ «كَيْفَ قُلْتِ؟» قالت: فرددت عليه القصة التي ذكرت من شأن زوجي، فقال: «امْكُثِي حتَّى يبلغ الكِتَابُ أجَلَهُ»، قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهُر وعَشْراً، قالت: فلما كان عثمان أرسل إليّ فسألني عن ذلك، فأخبرته، فاتبعه وقضى به(١).

فمن قضى بهذا القول قال: إذنه لفريعة أولاً بالرجوع إلى أهلها صار منسوخاً بقوله: «امْكُثِي فِي بَيْتِكِ حتَّى يبلغ الكِتَابُ أجَلَهُ»، ومن لم يوجب السُّكنى قال: أمرها بالمكث آخراً استحباباً لا وجوباً.

قوله: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾.

قال مجاهد: في المسكن(٢).

وقال مقاتل: في النَّفقة(٣). وهو قول أبي حنيفة.

وعن أبي الضحى: هو أن يطلقها فإذا بقي يومان من عدتها راجعها، ثم طلقها.

قوله: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾.

هذا في وجوب النَّفقة والسُّكنى للحامل المطلقة ثلاثاً أو أقل حتى تضع حملها، فأما الحامل المتوفى عنها زوجها، فقال علي، وابن عمر وابن مسعود، وشريح، والنخعي، والشعبي، وحماد، وابن أبي ليلى، وسفيان، وأصحابه: ينفق عليها من جميع المال حتى تضع.

---

(١) أخرجه مالك (٢/ ٥٩١) رقم (٨٧) وأبو داود (٢٣٠٠) والترمذي (١٢٠٤) والدارمي (٢/ ١٦٨) والنسائي (٦/ ٢٠٠) وابن حبان (١٣٣٢) وابن سعد (٨/ ٢٦٨) والشافعي (٢٤٢) وابن أبي شيبة (٥/ ١٨٥) وأحمد (٦/ ٣٧٠، ٤٢٠ ـ ٤٢١) والطيالسي (١٦٣٤ ـ منحة) والبيهقي (٧/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥) من حديث الفريعة بنت مالك.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٣٧) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٦١) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٣٤) والقرطبي (١٨/ ١١١).

وقال ابن عباس، وابن الزبير، وجابر بن عبد الله، ومالك، والشافعي، وأبو حنيفة، وأصحابه: لا ينفق عليها إلا من نصيبها، وقد مضى في «البقرة».

قوله: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾.

يعني المُطلَّقات، أولادكم منهن فعلى الآباء أن يعطوهن أجرة إرضاعهنّ وللرجل أن يستأجر امرأته للرضاع كما يستأجر أجنبية، ولا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه الاستئجار إذا كان الولد منهن ما لم يَبِنَّ، ويجوز عند الشافعي. وتقدم القول في الرضاع في «البقرة».

قوله: ﴿وَأْتَمِرُوا﴾.

افتعلوا من الأمر، يقال: ائتمر القوم وتأمّروا، أي: أمر بعضهم بعضاً.

وقال الكسائي: «ائتمروا» تشاوروا؛ وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ [القصص: ٢٠] وأنشد قول امرىء القيس: [الطويل]

٤٧٨٢ ب - .... ويَعْدُو عَلَى المَرْءِ مَا يَأْتَمِرْ[1]

فصل في هذا الخطاب

الخطاب في قوله: «وائتمروا» للأزواج والزوجات، أي: وليقبل بعضكم من بعض ما أمره به من المعروف الجميل، والجميل منه توفير الأجرة عليها للإرضاع.

وقيل: ائتمروا في إرضاع الولد فيما بينكم بمعروف حتى لا يلحق الولد إضرار.

وقيل: هو الكسوة والدثار.

وقيل: معناه لا تضار والدة بولدها، ولا مولود له بولده.

قوله: ﴿فَسَتُرْضِعُ﴾.

قيل: هو خبر في معنى الأمر، والضمير في «له» للأب، لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ والمفعول محذوف للعلم به، أي: فسترضع الولد لوالده امرأة أخرى، والظَّاهر أنه خبر على بابه.

فصل في تفسير الآية

قوله: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ في أجرة الرضاع فأبى الزوج أن يعطي الأم أجرة رضاعها، وأبت الأم أن ترضعه فليس له إكراهها وليستأجر غير أمه.

وقيل: معناه إن تضايقتكم وتشاكستم فليسترضع لولده غيرها.

(١) تقدم.

وقال الضحاك: إن أبت الأم أن ترضع استأجر لولده أخرى، فإن لم يقبل أجبرت أمه على الرضاع بالأجْرة.

واختلفوا فيمن يجب عليه رضاع الولد.

فقال مالك: إرضاع الولد على الزوجة ما دامت الزوجية، إلا لشرفها وموضعها، فعلى الأب رضاعه يومئذ في ماله.

وقال أبو حنيفة: لا يجب على الأم بحال.

وقيل: يجب عليها بكل حال.

فإن طلقها فلا يجب عليها إرضاعه إلا أن لا يقبل ثدي غيرها فيلزمها حينئذ الإرضاع، فإن اختلفا في الأجرة، فإن دعت إلى أجرة المثل وامتنع الأب إلا تبرعاً فالأم أولى بأجر المثل إذا لم يجد الأب متبرعة، وإن دعا الأب إلى أجرِ المثل، وامتنعت الأم لتطلب شططاً، فالأب أولى به، فإن أعسر الأب بأجرتها أجبرت على رضاع ولدها.

قوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾

قوله: ﴿لِيُنفِقْ﴾.

هذه قراءة العامة: أعني كسر اللام، وجزم المضارع بها.

وحكى أبو معاذ[١] **القارىء**: «لِيُنْفِقَ» بنصب الفعل على أنها لام «كي» نصب الفعل بعدها بإضمار «أن» ويتعلق الحرف حينئذ بمحذوف، أي: شرعنا ذلك لينفق.

وقرأ العامة: «قُدِرَ» مخففاً.

وابن أبي عبلة[٢]: «قُدِّرَ» مشدداً.

فصل في وجوب النفقة للولد على الوالد

قال القرطبي[٣]: هذه الآية أصل وجوب النفقة للولد على الوالد دون الأم، خلافاً لمحمد بن الموَّاز إذ يقول: إنها على الأبوين على قَدْر الميراث.

قال ابن العربيّ[٤]: ولعل محمداً أراد أنها على الأم عند عدم الأب، وفي البخاري عن النبي ﷺ: «تَقُولُ لَكَ المَرأةُ: أنفِقْ عليَّ وإلاَّ طلِّقْنِي، ويقُولُ لَكَ العَبْدُ: أنفِقْ عَلي واستَعْمِلْنِي، ويقُولُ لَكَ ابْنُكَ: أنفِقْ عليَّ إلى مَنْ تكلُني؟»[٥]،

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٨١، والدر المصون ٦/ ٣٣١.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٦٠.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١١٣.

(٤) ينظر: أحكام القرآن له ٤/ ١٨٤٣.

(٥) أخرجه البخاري (٩/ ٤١٠) كتاب النفقات، باب: وجوب النفقة على الأهل والعيال حديث (٥٣٥٥) من حديث أبي هريرة.

فقد تعارض القُرآن [والسُّنة][(١)] وتواردا في شرعة واحدة.

قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ من المال، والمعنى لا يكلف الله الفقير مثل ما يكلف الغني ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أي: بعد الضيق غنى وبعد الشدة سعة.

فصل في اختلاف الزوجين في قبض النفقة

قال ابن تيمية: إذا اختلف الزوجان في قبض النفقة والكسوة، فقال القاضي أبو يعلى وأتباعه: إن القول قول الزَّوجة، وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي كما لو اختلف اثنان في قبض سائر الحقوق مثل الصَّداق، وثمن المبيع ونحو ذلك، ومذهب مالك بخلاف ذلك.

وقال الغزالي: فيها وجهان، وحسنوا قول الزوج.

قال ابن تيمية: وكذلك يجيء لأصحاب أحمد وجهان كما لو كان الصداق منفعة حصلت لها، فقالت: حصلت من غيرك وقال: بل حصلت منِّي مثل أن يصدقها تعليم قصيدة أو غيرها مما يجوز جعله صداقاً فإنها إذا تعلمت من غيره كان عليه الأجرة، فإن قال: أنا علمتها وقالت: بل غيره، ففيها وجهان، فهكذا في النَّفقة، فإنها لا بُدَّ أن تكون قد ارتزقت في الزمن الماضي، وهو يقول: أنا رزقتها، وهي تقول: بل غيره.

والصَّواب المقطُوع به أنه لا يقبل قولها في ذلك مطلقاً؛ فإن هذا فيه فساد عظيم على هذا القول في مذهب الشَّافعي، وقول أحمد الموافق له ولا يجيء ذلك على مذهب مالك، ولا على مذهب أبي حنيفة، وقول أحمد الموافق له؛ فإنا إذا قلنا: إن نفقة الزوجة تسقط بمضي الزمان لم يقبل دعواها بالنفقة الماضية، وإنما يجيء على قولنا إن نفقة الزوجة لا تسقط بمضي الزمان، كما هو المشهور من مذهب أحمد، وهو قول الشافعي.

والعُمْدَة في ذلك الأمر المعروف عن عمر بن الخطاب؛ قال ابن المُنذرِ: إن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كتب إلى أمراء الأجناد في رجال غلبوا عن نسائهم فأمرهم أن ينفقوا، أو يطلقوا؛ فإن طلقوا بعثوا بنفقة ما مضى، وليس قبول الزوجة في ذلك مأثوراً عن أحمد، ولا ملائماً لأصوله، فإنه في تداعي الزوجين وغيرهما يرجح من تشهد له اليد الحكمية العرفية دون اليد الحسية، ومعلوم أن المدعى عليه يترجح تارة باليد في الأعيان وببراءة الذمة في الحقوق، فكما أن في اليد لم يلتفت إلى مُجرَّد الحس، بل يرجع إلى اليد الحكمية التي يستدلّ عليها بالأفعال والتصرفات؛ إذ الأصل في الدعاوى ترجيح مَنِ الظَّاهرُ معهُ. والظهور يستدلّ عليه

(١) سقط من أ.

بالأفعال والتصرفات والأمور العادية، كما يستدلّ عليها بمجرد اليد الحسية، فإذا كانت العادة الغالبة والعرف المعروف يقتضي وجود فعل لم يكن الظاهر عدمه حتى يرجح قول من يدعي عدمه.

وهذا ينبني على أصول:

أحدها: أنه قد وجد كسوة ونفقة وإنما تنازعا في المنفق، فقال هو: مني، وقالت هي: من غيرك، فهنا الأصل عدم غيره، ثم إنها تطالب بتعيين ذلك الغير، فإن ادعت ممتنعاً لم يقبل بحال، وإن ادعت ممكناً فهو محل التردُّد، فإن إنفاقه واجب، والأمر الحادث يضاف إلى السبب القوي دون الضعيف.

والأصل الثاني: أن العادة والعرف إذا قضي بوجود أمر فهل القول قول نافيه، أو قول مثبته.

والأصل الثالث: أن ما يتعذر إقامة البينة عليه لا يكلف إقامة البينة عليه كالوطء، ومن المعلوم أن المعاشرة بالمعروف التي أمر الله بها ورسوله ليس فيها شهادة على المرأة بذلك؛ لأن ذلك ليس من الأمر بالمعروف، ولهذا لم يفعله أحد على عهد سلف الأمة ولا يفعله جماهير بني آدم، وفعله إما متعذّر أو متعسر، فإنه إن أطعمها مما يأكل فليس عنده من يشهد على إطعامها وإن ناولها طعاماً كلَّ يوم فمن المتعسّر شهود في كل وقت، وقد يكونان ساكنين حيث لا شهود، وهذا ظاهر بيِّن.

الأصل الرابع: أن المرأة مفرطة بترك أخذ نفقتها منه بالمعروف، ومطالبته بها إذا كان لا ينفق، بخلاف ما إذا كان غائباً، وهي الصُورة التي روي عن عمر أنه أمر فيها بنفقة الماضي، بل قد يقال: إن ذلك رضا منها بترك النفقة، وليس هذا قولاً بسقوط النفقة في الماضي، بل بأن هذا دليل من جهة العرف على أنها إما أن تكون قد أنفق عليها، أو تكون راضية بترك النفقة.

وهذا أصل خامس: وهو أن العادة المعروفة تدل على أن المرأة إذا سكتت مدة طويلة عن المطالبة بالنفقة مع القدرة على الطلب كانت راضية بسقوطها.

فصل في النفقة والكسوة بالمعروف

وأما النفقة والكسوة بالمعروف وهي الواجبة بنصّ القرآن، فهو ما كان في عرف الناس في حالهما نوعاً وقدراً وصفة، وإن كان ذلك يتنوّع بتنوّع حالهما من اليسار والإعسار والزمان كالشتاء والصيف والليل والنهار، والمكان فيطعمها في كل بلد مما هو عادة أهل البلد والعرف عندهم.

وقال بعضهم: هي مقدَّرة بالشَّرع نوعاً وقدراً مُدًّا من حنطة، أو مدًّا ونصفاً أو مدَّين

قياساً على الإطعام الواجب في الكفارة. والصواب المقطوع به ما عليه الأمة علماً وعملاً قديماً وحديثاً لقول الله تعالى: ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لهند: «خُذِي مَا يَكْفيكِ وَولدَكِ بالمَعْرُوفِ»[١]، ولم يقدر لها نوعاً ولا قدراً، ولو كان ذلك مقدّراً بشرع لبينه لها قدراً ونوعاً كما بين فرائض الزكوات والديات.

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ في خطبته بـ «عرفات»: «ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف»[٢].

ومن المعلوم أن الكفاية بالمعروف تتنوع بحال الزوجة في حاجتها، وبتنوع الزمان والمكان وبتنوع حال الزوج في يساره وإعساره، فليست كسوة القصيرة الضئيلة ككسوة الطويلة الجسيمة، ولا كسوة الشتاء ككسوة الصيف ولا كفاية طعام الشتاء مثل طعام الصيف ولا طعام البلاد الحارَّة كالباردة، ولا المعروف في بلاد التمر والشعير كالمعروف في بلاد الفاكهة والخبز.

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ للذي سأله: مَا حَقُّ زَوجةِ أحدنَا عليْهِ؟.

قال: «تُطْعِمُها إذَا أكَلْتَ، وتَكسُوهَا إذَا اكتَسيْتَ، ولا تَضْرِبِ الوَجْهَ ولا تُقَبِّحْ ولا تَهْجُر إلاَّ في البيْتِ»[٣].

وهكذا قال في نفقة المماليك: «هُمْ إخْوانُكُمْ وخَولكُمْ جعلهُم اللَّهُ تَحْتَ أيْدِيكُمْ فَمَن كَانَ أخُوهُ تَحْتَ يَدهِ فليُطْعِمْهُ ممَّا يأكلُ، وَليُلْبِسْهُ ممَّا يَلبسُ ولا تُكلِّفُوهُمْ ما يَغلبُهُمْ فإن كلَّفْتُموهُمْ فأعينُوهُمْ»[٤].

ففي الزوجة والمملُوك أمر واحد، فالواجب على هذا هو الرزق والكسوة بالمعروف في النوع، والقدرة، وصفة الإنفاق.

فأما النوع فلا يتعين أن يعطيها مكيلاً كالبُرِّ، ولا موزوناً كالخبز، ولا ثمن ذلك كالدَّراهم، بل يرجع في ذلك إلى العرف، فإذا أعطاها كفايتها بالمعروف مثل أن تكون عادتهم أكل التَّمْر والشعير فيعطيها ذلك، أو تكون عادتهم أكل الخبز والأدم، فيعطيها ذلك والطبيخ، فيعطيها ذلك، وإن كان عادتهم أن يعطيها حباً فتطحنه في البيت فعل

(١) أخرجه البخاري (٤/ ٤٧٣ ـ ٤٧٤) كتاب البيوع، باب: من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم حديث (٢٢١١) ومسلم (٣/ ١٣٣٨) كتاب الأقضية، باب: قضية هند حديث (٧/ ١٧١٤) من حديث عائشة.

(٢) تقدم.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٤/ ٤٤٦).

(٤) أخرجه البخاري ١٠/ ٤٨٠ في الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن (٦٠٥٠)، ومسلم ٣/ ١٢٨٢ ـ ١٢٨٣، في الإيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس ولا يكلفه ما يغلبه (٣٨ ـ ١٦٦١).

ذلك، وإن كان يطحن في الطَّاحون ويخبز في البيت فعل ذلك، وإن كان يخبز في غير البيت فعل ذلك، وإن كان يشترى مخبُوزاً من السُّوق فعل ذلك، وكذلك الطَّبيخ ونحوه، فذلك هو المعروف فلا يتعيَّن عليه دراهم ولا حَبٌّ أصلاً، فإن تعيين ذلك من المنكر ليس من المعروف، وهو مصرٌّ بها تارة، وبه تارة، وبهما أخرى، وكذلك القدر لا يتعين مقدراً مطرداً، بل تتنوع المقادير بتنوع الأوقات.

وأما الإنفاق، فقد قيل: إن الواجب تمليكها النفقة والكسوة.

وقيل: لا يجب التمليك، وهو الصَّواب، فإن ذلك ليس من المعروف، بل عرف النبي ﷺ والمسلمون إلى يومنا هذا أن الرجل يأتي بالطعام إلى منزلة فيأكل هو وزوجته ومملوكه جميعاً تارة، وتارة أفراداً، ويفضل منه فضل تارة فيدخرونه، ولا يعرف المسلمون أنه يملكها كل يوم تتصرف فيها تصرف الملاك، بل من عاشر امرأته بمثل هذا كان عند المسلمين قد تعاشرا بغير المعروف، وتضارّا في العشرة، وإنما يفعل أحدهما ذلك بصاحبه عند الضرار لا عند العشرة بالمعروف.

وأيضاً فالنبي ﷺ أوجب للزوجة مثل ما أوجب للمملوك كما تقدم.

وقد اتَّفق المسلمون على أنه لا يجب تمليك المملوك نفقته، فدل على عدم وجوب التمليك في حق الزوجة.

وإذا تنازع الزوجان فمتى اعترفت الزوجة أنه يطعمها إذا أكل، ويكسوها إذا اكتسى، وكان ذلك هو المعروف لمثلها في بلدها، فلا حق لها سوى ذلك، وإن أنكرت ذلك فعلى الحاكم أن يجبره أن ينفق بالمعروف، ليس على الحاكم بل ولا له أن يأمر بدراهم مقدرة مطلقاً أو حَبّ مقدر مطلقاً، لكن يذكر المعروف الذي يليق بهما.

فصل في تفسير الآية

قال القرطبي(١) في قوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ﴾ أي: «لينفق الزوج على زوجته وعلى ولده الصَّغير على قدر وسعه، فيوسع إذا كان موسعاً عليه، ومن كان فقيراً فعلى قدر ذلك، فتقدر النَّفقة بحسب حال المنفق والحاجة من المنفق عليه بالاجتهاد على مجرى العادة».

وقال الشافعي رحمه الله: النفقة محدودة، ولا اجتهاد للحاكم ولا المفتي فيها وتقديرها هو بحال الزَّوج وحده من يُسره وعُسْره، ولا اعتبار بحالها، فيجب لابنة الخليفة ما يجب لابنة الحارس، فيلزم الزوج الموسر مدَّان، والمتوسط مد ونصف والمعسر مُدّ؛ لظاهر قوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾.

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١١٢).

فجعل الاعتبار بحال الزوج في اليُسْر والعُسْر؛ ولأن الاعتبار بحالها يؤدي إلى الخصومة؛ لأن الزوج يدعي أنها تطلب فوق كفايتها، وهي تزعم أنها تطلب قدر كفايتها، فقدرت قطعاً للخصومة لهذه الآية، ولقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾.

وأجاب القرطبي: بأن هذه الآية لا تعطي أكثر من الفرق بين الغني والفقير، وأنها تختلف بعُسْر الزوج ويُسْره، فأما أنه لا اعتبار بحال الزوجة فليس فيها، وقد قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وذلك يقتضي تعلق المعروف في حقها؛ لأنه لم يخص في ذلك واحداً منهما، وليس من المعروف أن يكون كفاية الغنية مثل نفقة الفقيرة، وقد قال عليه الصلاة والسلام لهند: «خُذِي ما يَكْفيكِ ووَلَدَكِ بالمعرُوفِ»، فأحالها على الكفاية حين علم السعة من حال أبي سفيان.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾

قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾.

لما ذكر الأحكام ذكر وحذَّر مخالفة الأمر، وذكر عُتُوَّ القوم وحُلُول العذاب بهم، وتقدم الكلام في «كأين» في «آل عمران».

قوله: ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾. العتو: المبالغة في العصيان

ضمّن «عَتَتْ» معنى أعرض، كأنه قيل: أعرضت بسبب عتوِّها، أي: عتت يعني القرية والمراد أهلها.

وقوله: ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا﴾ إلى آخره. يعني في الآخرة، وأتى به بلفظ الماضي لتحقُّقه.

وقيل: العذاب في الدُّنيا، فيكون على حقيقته، أي جازيناها بالعذاب في الدُّنيا ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ في الآخرة وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، أي: فعذبناها عذاباً نكراً في الدنيا بالجوع والقَحْط والسَّيف والخَسْف والمَسْخ وسائر المصائب، وحاسبناها في الآخرة حساباً شديداً.

والنُّكْر: المنكر، وقرىء مخففاً ومثقلاً. وقد مضى في سورة الكهف.

قوله: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾. أي: عاقبة كفرها ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ أي: هلاكاً في الدنيا بما ذكرنا وفي الآخرة بجهنم.

قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.

تكرير للوعيد توكيداً.

وجوز الزمخشري[1] أن يكون «عَتَتْ» وما عطف عليه صفة لـ «قَرْيَةٍ»، ويكون الخبر لـ «كأيِّ» في الجملة من قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.

وعلى الأول يكون الخبر «عَتَت» وما عطف عليه.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

منصوب بإضمار أعني، بياناً للمنادى في قوله: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: العُقول، ويكون عطف بيان للمنادى أو نعتاً له، ويضعف كونه بدلاً لعدم حلوله محل المبدل منه.

قوله: «قد أنزل الله إليكم ذكراً رسولاً».

في نصب «رسولاً» أوجه:

أحدها: قال الزجاج[2] والفارسي: إنه منصوب بالمصدر المنون قبله؛ لأنه ينحل لحرف مصدري وفعل، كأنه قيل: أن ذكر رسولاً، ويكون ذكره الرسول قوله ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، والمصدر المنون عامل كقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا﴾ [البلد: ١٤، ١٥].

وقول الآخر: [الوافر]

٤٧٨٣ ـ بِضَرْبٍ بِالسُّيُوفِ رُءُوسَ قَوْمٍ أَزَلْنَا هَامَهُنَّ عَنِ المَقِيلِ[3]

الثاني: أنه جعل نفس الذكر مبالغة، ويكون محمولاً على المعنى، كأنه قال: قد أظهر لكم ذكراً رسولاً، فيكون من باب بدل الشَّيء من الشَّيء وهو هو.

الثالث: أنه بدل منه على حذف مضاف من الأول، تقديره: أنزل ذا ذكر رسولاً.

الرابع: كذلك، إلا أن «رسولاً» نعت لذلك المحذوف.

الخامس: أنه بدل منه على حذف مضاف، أي ذكراً ذا رسول.

السادس: أن يكون «رَسُولاً» نعتاً لـ «ذِكْراً» أو على حذف مضاف، أي: ذكراً ذا رسول، و «ذا» رسول نعتاً لـ «ذِكْراً».

السابع: أن يكون «رسولاً» بمعنى رسالة، فيكون «رسولاً» بدلاً صريحاً من غير تأويل، أو بيناً عند من يرى جريانه في النكرات كالفارسي، إلا أن هذا يبعده قوله «يَتْلُو عَلَيْكُم» لأن الرسالة لا تتلو إلا بمجاز.

---

(١) ينظر الكشاف (٤/ ٥٦٠).

(٢) ينظر: معاني القرآن للزجاج (٥/ ١٨٨). (٣) تقدم.

الثامن: أن يكون «رَسُولاً» منصوب بفعل مقدر، أي: أرسل رسولاً، لدلالة ما تقدَّم عليه.

قال البغوي[(١)]: كأنه قيل: أنزل إليكم قرآناً وأرسل رسولاً.

وقيل: مع رسول.

التاسع: أن يكون منصوباً على الإغراء، أي: اتبعوا والزموا رسولاً هذه صفته.

فصل في قوله: رسولاً

اختلف الناس في «رسولاً»، هل هو النبي ﷺ أو القرآن نفسه أو جبريل.

قال الزمخشري[(٢)]: «هو جبريل أبدل من «ذكراً» لأنه وصف بتلاوة آيات الله، فكان إنزاله في معنى إنزال الذِّكر، فصح إبداله منه».

قال أبو حيَّان[(٣)]: «ولا يصحّ هذا لتباين المدلولين بالحقيقة، ولكونه لا يكون بدل بعض، ولا بدل اشتمال». انتهى.

قال شهاب الدين[(٤)]: «وهذا الذي قاله الزمخشري سبقه إليه الكلبي، وأما اعتراضه عليه، فغير لازم؛ لأنه بولغ فيه حتى جعل نفس الذكر كما تقدم بيانه».

وقرىء[(٥)]: «رسول» بالرفع على إضمار مبتدأ، أي: هو رسول.

وقيل: الذكر هنا الشَّرف كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] ثم بين الشرف فقال: «رَسُولاً»، والأكثر على أن المراد بالرسول محمد ﷺ.

وقال الكلبي: هو جبريل، فيكونان جميعاً منزلين[(٦)].

قوله: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾. نعت لـ «الرسول»، و «آياتِ اللَّهِ» القرآن. و «مبيِّنَاتٍ» قرأ العامة: بفتح الياء، أي: يبينها الله، وبها قرأ ابن عباس، وهي اختيار أبي عبيد، وأبي حاتم، لقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ [آل عمران: ١١٨].

وقرأ ابن عامر، وحفص، وحمزة، والكسائي: بكسرها، أي: يبين لكم ما تحتاجون إليه من الأحكام.

قوله: ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾. الجار متعلق إما بـ «أنزل» وإما بـ «يتلو».

---

(١) ينظر: معالم التنزيل ٤/ ٣٦١.
(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٦٠.
(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٨٢.
(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٣٢.
(٥) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٦١، والبحر المحيط ٨/ ٢٨٣، والدر المصون ٦/ ٣٣٢.
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١١٤).

وفاعل «يخرج» إما ضمير الباري ـ تعالى ـ المنزل، أو ضمير الرسُول، أو الذكر.

والمراد بالذين آمنوا من سبق له ذلك في علم الله.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾. أي: من الكفر إلى الهدى والإيمان.

قال ابن عباس: نزلت في مؤمني أهل الكتاب، وأضاف الإخراج إلى الرسُول؛ لأن الإيمان إنما حصل بطاعته[1].

قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ﴾. هذا أحد المواضع التي رُوعي فيها اللفظ أولاً ثم المعنى ثانياً، ثم اللفظ آخراً.

قوله: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ **قرأ نافع وابن عامر**[2]: بالنون، والباقون: بالياء.

وقوله: «خَالِدِينَ». قال بعضهم: ليس قوله «خالدين» فيه ضمير عائد على «من» إنما يعود على مفعول «يُدخِلْهُ» و «خَالِدِينَ» حال منه والعامل فيها «يدخله» لا فعل الشَّرط. هذه عبارة أبي حيَّان[3].

وفيها نظر، لأن «خَالِدِينَ» حال من مفعول «يُدْخلهُ» عند القائلين بالقول الأول، وكان إصلاح العبارة أن يقال: حال من مفعول «يُدْخِلهُ» الثاني وهو «جنَّاتٍ». والخلود في الحقيقة لأصحابها، وكان ينبغي على رأي البصريين أن يقال: «خالدين هم فيها» لجريان الوصف على غير من هو له.

قوله: ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ﴾. حال ثانية، أو حال من الضمير في «خَالِدِينَ»، فتكون متداخلة. ومعنى قوله: ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾، أي: وسَّع له في الجنَّات.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾

قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾.

يدلّ على كمال قدرته وأنه يقدر على البعث والمحاسبة، ولا خلاف في أن السماوات سبع بعضها فوق بعض بدليل حديث الإسراء وغيره، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ يعني سبعاً، واختلف فيهن.

فقال الجمهور: إنها سبع أرضين مطبقاً بعضها فوق بعض بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والأرض وفي كلٍّ مكان من خلق الله.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١١٤).

(٢) ينظر: إعراب القراءات ٢/ ٣٧٣، والعنوان ١٩٢، وحجة القراءات ٧١٢.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٨٣.

وقال الضحاك: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي: سبعاً من الأرضين، ولكنها مطبقة بعضها فوق بعض من غير فُتُوق بخلاف السماوات[١].

قال القرطبي[٢]: والأول أصح؛ لأن الأخبار دالة عليه كما روى البخاري وغيره، روى أبو مروان عن أبيه: أن كعباً حلف له بالله الذي فلق البحر لموسى أن صهيباً حدثه أن محمداً ﷺ لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها: «اللَّهُمَّ ربَّ السَّمواتِ السَّبع ومَا أظْلَلْنَ، وربَّ الأرضينَ السَّبْع وما أقْلَلْنَ، وربَّ الشَّياطينِ وما أضللنَ، وربَّ الرِّياحِ وما أذرَرْنَ، إنَّا نَسْأَلُكَ خَيْر هذهِ القريةِ وخَيْرَ أهْلِهَا، ونَعُوذُ بِكَ من شرِّها وشرِّ أهلهَا، ومن شرِّ مَنْ فيهَا»[٣].

وروى مسلم عن سعيد بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن ظَلَمَ قِيْدَ شِبْرٍ مِنَ الأرْضِ طُوِّقه يَوْمَ القيامَةِ من سَبْعِ أرضينَ»[٤].

قال الماوردي[٥]: وعلى أنها سبع أرضين تختص دعوة أهل الإسلام بأهل الأرض العليا ولا يلزم فيمن غيرها من الأرضين وإن كان فيها من يعقل من خلق مميز، وفي مشاهدتهم السماء واستمدادهم الضوء منها قولان:

أحدهما: أنهم يشاهدون من كل جانب من أرضهم، ويستمدّون الضياء منها، وهذا قول من جعل الأرض مبسوطة. **والثاني**: أنهم لا يشاهدون السماء، وأن الله تعالى خلق لهم ضياء يشاهدونه، وهذا قول من جعل الأرض كرة.

وحكى الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس: أنها سبع أرضين منبسطة ليس بعضها فوق بعض يفرق بينها البحار، وتظل جميعهم السماء، فعلى هذا إن لم يكن لأحد من أهل الأرض وصول إلى أرض أخرى اختصت دعوة الإسلام بأهل هذه الأرض، وإن كان لقوم منهم وصول إلى أرض أخرى، احتمل أن يلزمهم دعوة الإسلام لإمكان الوصول إليهم لأن فصل البحار إذا أمكن سلوكها لا يمنع من لزوم ما عم حكمه، واحتمل ألا يلزمهم دعوة الإسلام؛ لأنها لو لزمتهم لكان النصُّ بها وارداً، ولكان رسول الله ﷺ مأموراً بها.

قال بعض العلماء: السماء في اللغة عبارة عما علاكَ، ففلك القمر بالنسبة إلى السماء الثانية أرض، وكذلك السماء الثانية بالنسبة إلى الثالثة أرض وكذلك البقية بالنسبة

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (١٨/ ١١٤). (٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١١٥.

(٣) تقدم.

(٤) أخرجه البخاري ٥/ ١٢٣، كتاب المظالم، باب: إثم من ظلم شيئاً من الأرض (٢٤٥٢) وطرفه في ٣١٩٨، والبيهقي في السنن ٦/ ٩٩.

(٥) ينظر: النكت والعيون ٦/ ٣٦ ـ ٣٧.

إلى ما تحته سماء وبالنسبة إلى ما فوقه أرض، فعلى هذا تكون السماوات السَّبع وهذه سبع سماوات وسبع أرضين.

قوله: ﴿مِثْلَهُنَّ﴾. قرأ العامَّة: بالنصب، وفيه وجهان:

أحدهما: أنه عطف على سبع سموات. قاله الزمخشري[1].

واعترض عليه أبو حيَّان[2] بلزوم الفصل بين حرف العطف، وهو على حرف واحد وبين المعطوف بالجار والمجرور، وهو مختص بالضرورة عند أبي علي.

قال شهاب الدين[3]: وهذا نظير قوله: ﴿ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] عند ابن مالك، وتقدم تحريره في سورة البقرة والنساء، وهود عند قوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ٥٨]، ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

والثاني: أنه منصوب بمقدر بعد الواو، أي: خلق مثلهن من الأرض.

واختلف الناس في المثليَّة.

فقيل: مثلها في العدد.

وقيل: في بعض الأوصاف؛ فإن المثليّة تصدق بذلك، والأول المشهور.

وقرأ عاصم[4] في رواية: «مثلُهنَّ» بالرفع على الابتداء، والجار قبله خبره.

قوله: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾.

يجوز أن يكون مستأنفاً وأن يكون نعتاً لما قبله. قاله أبو البقاء[5].

وقرأ أبو عمرو[6] في رواية، وعيسى: «يُنَزِّلُ» بالتشديد، أي: الله، «الأمْرَ» مفعول به. والضميرُ في «بَيْنَهُنَّ» عائد على «السَّماواتِ والأرضين» عند الجمهور. أو على السمواتِ والأرض عند من يقول: إنها أرض واحدة.

وقوله: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ﴾: متعلق بـ «خَلَقَ» أو بـ «يَتَنَزَّل».

والعامة: «لتعْلَمُوا» بتاء الخطاب، وبعضهم بياء الغيبة.

فصل في تفسير الآية

قال مجاهدٌ: يتنزل الأمرُ من السماوات السبع إلى الأرضين السبع.

وقال الحسنُ: بين كل سماءين أرض وأمر[7].

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٦١.
(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٨٣.
(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٣٣.
(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٢٨، والبحر المحيط ٨/ ٢٨٣، والدر المصون ٦/ ٣٣٣.
(٥) ينظر: الإملاء ٢/ ١٢٢٨.
(٦) ينظر القراءة السابقة.
(٧) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٦٤) وعزاه إلى عبد بن حميد.

والأمر هنا الوحي في قول مقاتل وغيره، وعلى هذا يكون «بَيْنَهُنَّ» إشارة إلى بين هذه الأرض العليا التي هي أدناها، وبين السابعة التي هي أعلاها.

وقيل: الأمر هنا القضاء والقدر، وهو قول الأكثرين، فعلى هذا يكون المراد بقوله تعالى: ﴿بَيْنَهُنَّ﴾ إشارة إلى ما بين الأرض السُّفلى التي هي أقصاها وبين السماء السابعة التي هي أعلاها.

وقيل: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ بحياة بعض، وموت بعض، وغِنَى قوم، وفقر قوم.

وقيل: ما يُدَبَّرُ فيهن من عجيب تدبيره، فينزل المطرُ، ويخرج النبات، ويأتي بالليل والنهار والصيف والشتاء، ويخلق الحيوانات على اختلاف أنواعها وهيئاتها فينقلهم من حال إلى حال.

قال ابن كيسان: وهذا على اتساعِ اللغةِ، كما يقال للموت: أمر اللَّهِ، وللريح والسَّحاب ونحوهما.

قال قتادةُ: في كل أرض من أرضه، وسماء من سمائه خلق من خلقه، وأمر من أمره وقضاءٌ من قضائه[1].

﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: من قدر على هذا الملك العظيم، فهو على ما بينهما من خلقه أقدر من العفو، والانتقام أمكنُ، وإن استوى كل ذلك في مقدوره ومكنته، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾، فلا يخرج شيء عن علمه وقُدرته.

ونصب «عِلْماً» على المصدر المؤكد؛ لأن «أحَاطَ» بمعنى «عَلِمَ».

وقيل: بمعنى: وأن الله أحاط إحاطة.

روى الثعلبيُّ عن أبيِّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ سُورَةَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ ماتَ على سُنَّةِ رسُولِ اللَّهِ ﷺ»[2].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٤٥) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٦٣) وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة.

(٢) تقدم تخريجه.

سورة التحريم

مدنيةٌ، وهي ثنتا عشرة آية، ومائتان وسبع وأربعون كلمة، وألف وستون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾؟.

قال ابن الخطيب[1]: وجه تعلق هذه السورة بما قبلها، وذلك لاشتراكهما في الأحكام المخصوصة بالنساء، واشتراك الخطاب في الطلاق في أول تلك السورة يشترك مع الخطاب بالتحريم في أول هذه السورة؛ لأن الطلاق في أكثر الصور يشتمل على تحريم ما أحل الله.

وأما تعلّق أول هذه السورة بآخر تلك السورة فلأن المذكور في آخر تلك السورة يدلّ على عظمة حضرة الله تعالى وعلى كمال قدرته وعلمه، ولما كان خلق السماوات والأرض، وما بينهما من العجائب والغرائب مما ينافي القدرة على تحريم ما أحلّ الله، فلهذا قال: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾.

فصل في سبب نزول الآية

ثبت في صحيح مسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ كان يمكثُ عند زينب بنت جحش، فيشرب عندها عسلاً، قالت: فتواطأت أنا وحفصة أنَّ أيّتنا دخل النبي ﷺ عليها فلتقل: إني أجد ريح مغافير، فدخل على إحداهما، فقالت له ذلك، فقال: بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش، ولن أعود له، فنزل: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ إلى قوله: ﴿إِن تَتُوبَآ﴾ لعائشة وحفصة[2].

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٣٧.

(٢) أخرجه البخاري ٩/ ٢٨٧، كتاب الطلاق، باب: لم تحرم ما أحل الله لك (٥٢٦٧)، ومسلم كتاب الطلاق، باب: وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق (٢٠ ـ ١٤٧٤).

وعنها أيضاً قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل، فكان إذا صلَّى العصر دار على نسائه، فدخل على حفصة، فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس فسألت عن ذلك، فقيل لي: أهدتْ لها امرأة من قومها عكة عسل، فسقت منه رسول الله ﷺ شربة، فقلت: أما ـ والله ـ لنحتالن له، فذكرت ذلك لسَوْدَة، وقلت إذا دخل عليك فإنه سيدنو منك، فقولي له: يا رسول الله، أكلت مغافير؟ فإنه سيقول لك: لا، فقولي له: ما هذه الريحُ، وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الريح؛ فإنه سيقول لك: سقتني حفصة شربة عسلٍ، فقولي: جَرَسَتْ نَحْلُهُ العُرفُطَ، وسأقول ذلك له، وقوليه أنت يا صفيةُ، فلما دخلَ على سودة قالت سودة: والذي لا إله إلا هو، لقد كدت أن أبادئه بالذي قالت لي، وإنه لعلى الباب، فرقاً منك، فلما دنا رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، أكلت مغافير؟ قال: لا، قلت: فما هذه الريح؟ قال: سقتني حفصة شربة عسل، قالت: جَرسَتْ نَحْلُهُ العُرْفُطَ، فلما دخل عليّ قلت له مثل ذلك، ثم[١] دخل على صفيّة، فقالت مثل ذلك، فلما دخل على حفصة، قالت له: يا رسول الله، ألا أسقيك منه؟ قال: لا حاجة لي به، قالت: تقول سودة: سبحان الله، لقد حرمناه، قالت: قلت لها: اسكتي[٢].

ففي هذه الرواية أن التي شرب عندها النبي ﷺ العسل حفصة، وفي الأولى زينب.

وروى ابن أبي مليكة عن ابن عباس: أنه شربه عند سودة[٣].

وقد قيل: إنما هي أمّ سلمة، رواه أسباط عن السديّ[٤].

وقاله عطاء بن أبي مسلم.

قال ابن العربي[٥]: «وهذا كله جهل، أو تصور بغير علمٍ».

فقال باقي نساه حسداً وغيرة لمن شرب ذلك عندها: إنا لنجد منك ريح المغافير.

والمغافير: بقلة أو صمغة متغيّرة الرائحة، فيها حلاوة، واحدها: مغفور.

وجَرَسَتْ: أكلت، والعُرْفُطُ: نبت له ريح كريح الخمرِ.

وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعجبه أن يوجد منه الريح الطيبة، ويكره الريح الخبيثة لمناجاة الملك.

---

(١) في أ: فلما.

(٢) أخرجه البخاري (٩/ ٢٨٧) كتاب الطلاق، باب: لم تحرم ما أحل الله لك حديث (٥٢٦٨) من حديث عائشة.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٦٦) وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه وقال: بسند صحيح.

(٤) ينظر تفسير القرطبي (١٨/ ١١٨).

(٥) ينظر أحكام القرآن (٤/ ١٨٤٥).

وقال ابن عبَّاس: أراد بذلك المرأة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ فلم يقبلها، والمرأة أم شريك، قاله عكرمة[١].

وقيل: إن التي حرّم مارية القبطية، وكان قد أهداها له المقوقس ملك «الإسكندرية».

قال ابنُ إسحاق: هي من كورة «أنْصِنا» من بلد يقال له: «حَفْن»، فواقعها في بيت حفصة.

روى الدارقطني عن ابن عباسٍ عن ابن عمر رضي الله عنهم قال: دخل رسولُ الله ﷺ بأم ولده، مارية في بيت حفصة، فوجدته حفصة معها، فقالت له: تدخلها بيتي؟ ما صنعت بي هذا من بين نسائك إلا من هواني عليك، فقال لها: لا تذكري هذا لعائشة، فهي عليّ حرام إن قربتها، قالت حفصة: فكيف تحرم عليك وهي جاريتك؟ فحلف لها ألا يقربها، فقال النبي ﷺ: «لا تَذْكُرِيهِ لأَحدٍ»[٢]، فذكرته لعائشة، فآلى لا يدخل على نسائه شهراً، فاعتزلهن تسعاً وعشرين ليلةً، فأنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ الآية[٣].

قال القرطبي[٤]: أصح هذه الأقوال أولها، وأضعفها أوسطها.

قال ابن العربي[٥]: «أما ضعفه في السند، فلعدم عدالة رواته، وأما ضعفه في معناه فلأن رد النبي ﷺ الموهوبة ليس تحريماً لها؛ لأن من رد ما وُهِبَ له لم يَحْرُمْ عليه، إنما حقيقة التحريم بعد التحليل، وأما ما روي أنه حرم مارية القبطية، فهو أمثل في السند، وأقرب إلى المعنى، لكنه لم يدون في الصحيح بل روي مرسلاً، وإنما الصحيح أنه كان في العسل، وأنه شربه عند زينب، وتظاهرت عليه عائشة وحفصة، فحلف أن لا يشربه، وأسر ذلك، ونزلت الآية في الجميع».

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٦٩) وعزاه إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه وقال: بسند ضعيف.

(٢) في أ: لعائشة.

(٣) أخرجه الدارقطني (٤/ ٤١ ـ ٤٢) عن ابن عباس عن عمر به قال شمس الحق آبادي في «التعليق المغني (٤/ ٤١):

الحديث أخرجه الهيثم بن كليب في مسنده ثنا أبو قلابة عبد الملك بن محمد الرقاشي ثنا مسلم بن إبراهيم ثنا جرير بن حازم، عن أيوب عن نافع عن ابن عمر عن عمر نحوه، قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح، وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه: المستخرج، وقال الحافظ في فتح الباري: وأخرج الضياء في المختارة من مسند الهيثم بن كليب، ثم من طريق جرير بن حازم عن أيوب عن نافع عن ابن عمر عن عمر قال قال رسول الله ﷺ لحفصة: لا تخبري أحداً أن أم إبراهيم عليّ حرام.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٦٧) وعزاه إلى ابن مردويه عن ابن عباس.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١١٨. (٥) ينظر: أحكام القرآن ٤/ ١٨٤٥.

فصل في هل التحريم يمين؟

قوله تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ إن كان النبي ﷺ حرم ولم يحلف، فليس ذلك بيمين، ولا يحرم قول الرجل: «هَذا عليّ حَرامٌ» شيئاً، حاشا الزوجة.

وقال أبو حنيفة: إذا أطلق حمل على المأكول والمشروب، دون الملبوس، وكانت يميناً توجب الكفارة.

وقال زفر: هو يمين في الكل، حتى في الحركة والسكون، واستدل المخالف بأن النبي ﷺ حرَّم العسل، فلزمته الكفَّارة، وقد قال تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ فسماه يميناً.

قال القرطبي[١]: ودليلنا قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ [المائدة: ٨٧]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

فذم اللَّهُ المُحَرِّمَ للحلال، ولم يوجب عليه كفارة.

قال الزجاجُ[٢]: ليس لأحدٍ أن يحرم ما أحلَّ الله، ولم يجعل لنبيه ﷺ أن يحرم إلا ما حرم الله عليه.

فمن قال لزوجته أو أمته: أنت عليَّ حرام، فإن لم يَنْوِ طلاقاً، ولا ظهاراً فهذا اللفظ يوجب عليه كفارة يمين، ولو خاطب بهذا اللفظ جمعاً من الزوجات والإماء، فعليه كفارة واحدة.

ولو حرم على نفسه طعاماً، أو شيئاً آخر لم يلزمه بذلك كفارة عند الشافعي ومالك، ويجب بذلك كفارة عند ابن مسعود والثوري وأبي حنيفة.

فصل في اختلافهم هل التحريم طلاق؟

إذا قال الرَّجُلُ لزوجته: «أنْتِ عليَّ حَرَامٌ».

قال القرطبيُّ[٣]: «فيه ثمانية عشر قولاً:

أحدها: لا شيء عليه، وبه قال الشعبي، ومسروق، وربيعة، وأبو سلمة، وأصبغ، وهو عندهم كتحريم الماءِ، والطعام، قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧]. والزوجة من الطَّيِّبات، ومما أحل الله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ [النحل: ١١٦].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١١٩. (٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه ٥/ ١٩٢.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١١٩.

فما لم يحرمه الله، فليس لأحد أن يحرمه، ولا أن يصير بتحريمه حراماً، ولم يثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال لما أحله الله: هو حرام عليَّ، وإنما امتنع من مارية ليمين تقدمت منه، وهو قوله: «واللَّهِ لا أقربُهَا بَعْدَ اليَوْمِ».

وروى البغويُّ في تفسيره[1]: أن حفصة لما أخبرت عائشة، غضبت عائشةُ، ولم تزل بنبي الله حتى حلف ألاَّ يقربها، فقيل له: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾؟ أي: لم تمتنع منه بسبب اليمين، يعني: أقدم عليه، وكفِّر.

وثانيها: أنه يمين يكفرها، قاله أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود، وابن عباس، وعائشة ـ رضي الله عنهم ـ والأوزاعي، وهو مقتضى الآية.

قال سعيدُ بن جبيرٍ عن ابن عبَّاسٍ: إذا حرم الرجل عليه امرأته، فإنما هي يمينٌ يكفرها.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لَقَدْ كَانَ لكُمْ في رَسُولِ اللَّهِ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ.

يعني أن النبي ﷺ كان حرم جاريته، فقال تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ فكفَّر عن يمينه، وصيَّر الحرام يميناً[2]، خرجه الدارقطني.

وثالثها: أنه يجب فيها كفَّارة، وليست بيمين، قاله ابن مسعود؛ لأن معنى اليمين عنده التحريم، فوقعت الكفَّارة على المعنى، والآية ترده.

ورابعها: هي ظهارٌ، ففيها كفارة الظهارِ، قاله عثمان وأحمد بن حنبل وإسحاق، ولأنه إنما حرم وطؤها، والظهار أقل درجات التحريم.

وخامسها: أنه إن نوى الظهار كان ظهاراً، وإن نوى تحريم عينها عليه بغير طلاق تحريماً مطلقاً وجبت كفارة يمين، وإن لم يَنْوِ فعليه كفارة يمين، قاله الشافعي.

وسادسها: أنها طلقة رجعية، قاله عمر بن الخطاب، والزهري، وعبد العزيز بن أبي سلمة وابن الماجشون.

وسابعها: أنها طلقة بائنة، قاله حماد بن أبي سليمان، وزيد بن ثابت، ورواه ابن

---

(١) ينظر معالم التنزيل (٤/ ٣٦٣).

(٢) أخرجه الدارقطني (٤/ ٤٠) من طريق هشام عن يحيى عن يعلى بن حكيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به.
والحديث متفق عليه من طريق هشام عن يحيى بهذا الإسناد إلى قوله أسوة حسنة.
أخرجه البخاري ٩/ ٢٨٧، كتاب الطلاق، باب: لم تحرم ما أحل الله لك (٥٢٦٦) ومسلم ٢/ ١١٠٠، كتاب الطلاق، باب: وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق (١٨ ـ ١٤٧٣).

خويزمنداد عن مالك؛ ولأن الطلاق الرجعي لا يحرم المطلقة.

وثامنها: أنها ثلاث تطليقات. قاله علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وزيد بن ثابت أيضاً، وأبو هريرة؛ لأنه التحريم المتيقن.

وتاسعها: هي في المدخول بها ثلاث، وينوي في المدخول بها. قاله علي بن زيد والحسن والحكم، وهو مشهور مذهب مالك؛ لأن غير المدخول بها تبينها الطلقة، وتحرمها.

وعاشرها: هي ثلاث، ولا ينوي بحال، ولا في محل، وإن لم يدخل بها، قاله عبد الملك في «المبسوطة»، وبه قال ابن أبي ليلى؛ لأنه أخذ بالحُكْمِ الأعظم لهما؛ لأنه لو صرح بالثلاث لغير المدخول بها لنفذ.

وحادي عشرها: هي في التي لم يدخل بها واحدة، وفي المدخول بها ثلاث، قاله أبو مصعب، ومحمد بن الحكم.

وثاني عشرها: أنه إن نوى الطَّلاق، والظهار كان ما نوى، وإن نوى الطلاق فواحدة بائنة إلا أن ينوي ثلاثاً، فإن نوى اثنتين ألزمناه.

وثالث عشرها: أنه لا ينعقد نيّة الظِّهار، وإنما يكون طلاقاً. قاله ابن القاسم.

ورابع عشرها: قال يحيى بن عمر: يكون طلاقاً، فإن ارتجعها لم يجز له وطؤها، حتى يكفر كفارة الظِّهار.

وخامس عشرها: إن نوى الطلاق، فما أراد من أعداده، وإن نوى واحدة فهي رجعية، وهو قول الشافعي ـ رضي الله عنه ـ وروي مثله عن أبي بكر وعمر وغيرهم من الصحابة والتابعين.

وسادس عشرها: إن نوى ثلاثاً، فثلاثاً، وإن نوى واحدة، فواحدة، وإن نوى يميناً، فهي يمينٌ، وإن لم ينو شيئاً، فلا شيء عليه، وهو قول سفيان، وبه قال الأوزاعي وأبو ثور، إلا أنهما قالا: لم ينو شيئاً فهي واحدة.

وسابع عشرها: له نيتُهُ ولا يكون أقلّ من واحدة، قاله ابن شهاب، وإن لم ينو شيئاً لم يَكُنْ شيئاً.

قال ابن العربي[1]: «ورأيت لسعيد بن جبير، وهو:

الثامن عشر: أن عليه عتق رقبة وإن لم يجعلها ظهاراً، ولست أعلم لها وجهاً، ولا يبعد في المقالات عندي».

---

(١) ينظر: أحكام القرآن (٤/ ١٨٤٨).

قال القرطبي(١): وقد روى الدارقطني عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أنه أتاه رجل فقال: إني جعلت امرأتي عليَّ حراماً، فقال: كذبت، ليست عليك بحرام، ثم تلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾؟ عليك أغلظ الكفَّارات عتق رقبة(٢)، وقد قال جماعة من المفسرين: إنه لما نزلت هذه الآية كفر عن يمينه بعتق رقبة، وعاد إلى مارية ﷺ قاله زيد بن أسلم وغيره».

هذا كله في الزوجة، وأما الأمةُ [فليس](٣) فيها شيء من ذلك إلاَّ أن ينوي العتق عند مالك، وذهب عامة العلماء إلى أن عليهن كفَّارة يمين.

قال ابن العربي(٤): «والصحيح أنها طلقة واحدة؛ لأنه لو ذكر الطلاق لكان أقله، وهو الواحدة إلا أن يعدده، فكذلك إذا ذكر التحريم يكون أقله إلا أن يقيده بالأكثر، مثل أن يقول: أنت عليَّ حرامٌ إلا بعد زوج، فهذا نص في المراد».

فصل في هذا الاستفهام

قال ابن الخطيب(٥): قال صاحب «النظم»: قوله: «لِمَ تُحَرِّمُ» استفهام بمعنى الإنكار، وذلك من اللَّه نهيٌ، وتحريم الحلال مكروه؛ لأن الحلال لا يحرم إلا بتحريمِ اللَّهِ تعالى.

فإن قيل: قوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ يوهم أن هذا الخطاب بطريق العتاب، وخطاب النبي ﷺ ينافي ذلك لما فيه من التشريف والتعظيم؟.

فالجوابُ: أن هذا الخطاب ليس بطريق العتاب، بل بطريق التنبيه على أن ما صدر منه لم يكن على ما ينبغي.

فإن قيل: تحريم ما أحلَّ اللَّهُ غير ممكن، فكيف قال: لم تحرم ما أحل الله؟ فالجواب: أن المراد بهذا التحريم هو الامتناع من الانتفاع بالأزواج؛ لاعتقاد كونه حراماً بعدما أحله الله تعالى، فالنبي ﷺ امتنع عن الانتفاع بها مع اعتقاد كونها حلالاً؛ فإن من اعتقد أن هذا التحريم هو تحريم ما أحله الله ـ تعالى ـ فقد كفر، فكيف يضاف إلى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ مثل هذا؟.

قوله: ﴿تَبْتَغِى﴾.

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٢٠.

(٢) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٤٩٥٦) والدارقطني (٤/ ٤٣) من طريق سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٣) في أ: فلا يلزم.

(٤) ينظر: أحكام القرآن ٤/ ١٨٥٠.

(٥) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٣٨.

يجوز أن يكون حالاً من فاعل «تُحَرِّمُ»، أي: لم تحرم مبتغياً به مرضات أزواجك.

ويجوز أن يكون تفسيراً لـ «تُحَرِّمُ».

ويجوز أن يكون مستأنفاً، فهو جواب للسؤال.

و «مَرْضَاتَ» اسم مصدر، وهو الرضا، وأصله «مرضوة».

والمصدر هنا مضاف إما للمفعول، أو للفاعل، أي: ترضي أنت أزواجك أو أن ترْضَيْنَ.

والمعنى: يفعل ذلك طلباً لرضاهن ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ أي: لما أوجب المعاتبة ﴿رَّحِيمٌ﴾ برفع المُؤاخذةِ.

قال القرطبيُّ[١]: «وقد قيل: إن ذلك كان ذنباً من الصَّغائر، والصحيح أنه معاتبة على ترك الأولى، وأنه لم تكن له صغيرة، ولا كبيرة».

قوله: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾.

﴿فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: بيَّن لكم، كقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا وَفَرَضْنَـٰهَا﴾ [النور: ١] وقيل: قد أوجب الله.

وقال صاحب «النظم»[٢]: إذا وصل «فَرَضَ» بـ «عَلَى» لم تحتمل غير الإيجاب كقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، وإذا وصل باللام احتمل الوجهين.

قوله: ﴿تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾.

تحليل اليمين كفَّارتها، أي: إذا أحللتم استباحة المحلوف عليه، وهو قوله تعالى في سورة «المائدة»: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ﴾ [الآية: ٨٩].

قال القرطبيُّ[٣]: وتحصل من هذا أن من حرم شيئاً من المأكول، أو المشروب لم يحرم عليه؛ لأن الكفارة لليمين لا للتحريم، وأبو حنيفة يراه يميناً في كل شيءٍ، ويعتبر الانتفاع المقصود فيما يحرم، فإذا حرم طعاماً فقد حلف على أكله، أو أمة فعلى وطئها، أو زوجة فعلى الإيلاء منها إذا لم يكن له نية، وإن نوى الظهار فظهار، وإن نوى الطلاق فطلاق بائنٌ، وكذلك إن نوى ثنتين أو ثلاثاً، وإن قال: نويتُ الكذب دينَ فيما بينه وبين الله تعالى، ولا يدين في القضاء بإبطال الإيلاء، وإن قال: كل حلال عليه حرام، فعلى الطعام والشراب إذا لم ينو، وإلا فعلى ما نوى، ولا يراه الشافعي يميناً، ويكون في الكفارة وجهان.

قوله: ﴿تَحِلَّةَ﴾.

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٢٢.

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٣٨.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٢٢.

مصدر «حَلّل» مضعفاً، نحو «تكرمة»، وهذان ليسا [مقيسين][(١)]، فإن قياس مصدر «فَعَّلَ» «التفعيل» إذا كان صحيحاً غير مهموزٍ.

فأما المعتل اللام نحو «زكّى» ومهموزها نحو: «نبّأ» فمصدرهما «تَفْعِلَةٌ» نحو: «تَزْكِيَةٌ، وتَنْبِئَةٌ».

على أنه قد جاء «التفعيل» كاملاً في المعتل، نحو: [الرجز]

٤٧٨٤ ـ بَـاتَـتْ تُـنَـزِّي دَلْـوَهَـا تَـنْـزِيَّـا[(٢)]

وأصلها: «تَحْلِلَة» كـ «تَكْرِمَة» فأدغمت، وانتصابها على المفعول به.

فصل في تكفير النبي عن هذه اليمين

قيل: إن النبي ﷺ كفر عن يمينه.

وقال الحسنُ: لم يكفر، لأن النبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر[(٣)].

وكفارة اليمين في هذه السورة إنما أمر بها الأمة، والأول أصح، وأن المراد بذلك النبي ﷺ، ثم إن الأمة تقتدي به في ذلك، وقد تقدم عن زيد بن أسلم أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كفر بعتق رقبةٍ.

وعن مقاتل: أن رسول الله ﷺ أعتق رقبةً في تحريم مارية[(٤)]. والله أعلم.

فصل في الاستثناء في اليمين

قيل: قد فرض الله لكم تحليل ملك اليمين، فبين في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ﴾ [الأحزاب: ٣٨]، أي: فيما شرعه له في النساء المحللات، أي: حلل لكم ملك اليمين، فلم تحرم مارية في نفسك مع تحليل الله إياها لك.

وقيل: تحلة اليمين الاستثناء، أي: فرض اللَّهُ لكم الاستثناء المخرج عن اليمين، ثم عند قوم يجوز الاستثناء من الأيمان متى شاء، وإن تَخَلَّلَ مُدَّةٌ.

وعند الجمهور لا يجوز إلا متصلاً، فكأنه قال: «استثن بعد هذا فيما تحلف عليه» وتحلة اليمين تحليلها بالكفارة.

قال القرطبيُّ[(٥)]: «والأصل «تحللة»، فأدغمت، و «تَفْعِلَة» من مصادر «فَعَّل» كالتوصية والتسمية، فالتحلة تحليل اليمين، فكأن اليمين عقد، والكفارة حلٌّ وقيل: التحلة الكفارة، أي: أنها تحلُّ للحالف ما حرَّم على نفسه، أي إذا كفر صار كمن لم يحلف».

---

(١) في أ: تفسير.
(٢) تقدم.
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» ١٨/ ١٢٢.
(٤) ينظر المصدر السابق.
(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٢٢.

فصل

قال ابن الخطيب[١]: وتحلة القسم على وجهين:

أحدهما: تحليله بالكفارة كما في هذه الآية.

وثانيهما: أن يستعمل بمعنى الشيء القليل وهذا هو الأكثر، كما روي من قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لَنْ تَلِجَ النَّارَ إلا تحِلَّةَ القسمِ»[٢] أي: زماناً يسيراً.

وقرىء: «كفَّارة أيمانِكم»[٣].

قوله: ﴿وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾.

أي: وليّكم وناصركم في إزالة الحظر، فيما تحرمونه على أنفسكم، وبالترخيص لكم في تحليل أيمانكم بالكفَّارة، وبالثواب على ما تخرجونه في الكفارة ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ۝٥﴾

قوله: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ﴾.

العامل فيه «اذكر» فهو مفعول به لا ظرف.

والمعنى: اذكر إذ أسر النبي إلى بعض أزواجه، يعني حفصة «حَدِيثاً» يعني تحريم مارية على نفسه واستكتامه إياها ذلك.

وقال الكلبيُّ: أسرَّ إليها أن أباك وأبا عائشة يكونان [خليفتين][٤] من بعدي على أمَّتي[٥].

وقال ابن عباس: أسرّ أمر الخلافة بعده إلى حفصة، فذكرته حفصة[٦].

---

(١) ينظر: الفخرالرازي ٣٠/ ٣٩.

(٢) أخرجه البخاري ٣/ ١٤٢ في الجنائز ومسلم ٤/ ٢٠٢٨ في البر والصلة، باب: فضل من يموت له ولد فيحتسبه (١٥٠/ ٢٦٣٢).

(٣) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ٣٩.

(٤) في أ: خلفة.

(٥) تفسير القرطبي (١٨/ ١٢٢).

(٦) ينظر المصدر السابق.

روى الدارقطني في سننه عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾، قال: اطلعت حفصة على النبي ﷺ مع أم إبراهيم، فقال: «لا تُخبرِي عائِشَةَ»، قال: فانطلقت حفصة فأخبرت عائشة فأظهره اللَّهُ عليه، «فعرَّفَ بعضهُ، وأعْرَضَ عن بَعْضٍ»، قال: أعرض عن قولها: «إن أباك وأباها يكُونانِ خَليفَتيْنِ مِنْ بَعْدِي»، كره رسول الله ﷺ أن ينشر ذلك بين الناس.

«فلمَّا نَبَّأَتْ بِهِ» أخبرت عائشة لمصافاة كانت بينهما، وكانتا متظاهرتين على زوجات النبي ﷺ «وأظْهَرَهُ اللَّهُ عليْهِ» أي: أطلعه الله على أنها قد نبأت به[1].

قوله: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾.

أصل «نَبَّأَ وأنْبَأَ، وأخبر وخبّر، وحدّث» أن يتعدى لاثنين [إلى][2] الأول بنفسها، وإلى الثاني بحرف الجر، وقد يحذف الجار تخفيفاً، وقد يحذف الأول للدلالة عليه، وقد جاءت الاستعمالات الثلاثة في هذه الآية فقوله: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ تعدى لاثنين، حذف أولهما، والثاني مجرور بالباء، أي: «نَبَّأَتْ بِهِ غيْرهَا»، وقوله: «فَلمَّا نَبَّأها بِهِ» ذكرهما، وقوله: «مَنْ أنْبَأَكَ هَذَا» ذكرهما، وحذف الجار.

وقرأ طلحة[3] بن مصرف: «فلمَّا أنْبأت»، وهما لغتان «نَبَّأ وأنْبَأ».

قوله: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾.

قرأ الكسائي[4]: بتخفيف الراء.

قال القرطبي[5]: «وبها قرأ علي، وطلحة بن مصرف، وأبو عبد الرحمن السلمي وقتادة والكلبي والأعمش عن أبي بكر».

قال عطاء: كان أبو عبد الرحم السلمي إذا قرأ عليه الرجل «عَرَّفَ» مشددة حصبه بالحجارة.

وقرأ الباقون: بتشديد الراء.

فالتثقيل يكون المفعول الأول معه محذوفاً، أي: «عرَّفَهَا بَعْضَه»، أي: وقفها عليه على سبيل العَتْب.

---

(١) أخرجه الدارقطني (٤/ ١٥٣ ـ ١٥٤) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس والكلبي مشهور بالضعف.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٤٦٩) وعزاه إلى الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) في أ: على.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٠، والبحر المحيط ٨/ ٢٨٥، والقرطبي ١٨/ ١٢٣.

(٤) ينظر: السبعة ٦٤٠، والحجة ٦/ ٣٠١، وإعراب القراءات ٢/ ٣٧٥، وحجة القراءات ٧١٣، والعنوان ١٩٣، وشرح الطيبة ٦/ ٦٠، وشرح شعلة ٦٠٤، وإتحاف ٢/ ٥٤٧.

(٥) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٣٢.

«وأعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ»، تكرماً منه وحلماً، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾، أي: لم يعرفها إياه، ولو كانت مخففة لقال في ضده: وأنكر بعضاً.

وأما التخفيف: فمعناه جازى على بعضه، وأعرض عن بعض.

قال الفرَّاءُ[(١)]: وتأويل قوله ـ عز وجل ـ: «عَرَفَ» بالتخفيف، أي: غضب فيه، وجازى عليه، كقولك لمن أساء إليك: «لأعرِفنَّ لك ما فعلت» أي: لأجَازِيَنَّك عليه.

فصل في نزول الآية

قال المفسرون: إنه أسرَّ إلى حفصة شيئاً فحدثت به غيرها، فطلقها مجازاة على بعضه، ولم يؤاخذها بالباقي، وهو من قبيل قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧] أي: يجازيكم عليه، وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [النساء: ٦٣]، وإنما اضطررنا إلى هذا التأويل؛ لأن الله ـ تعالى ـ أطلعه على جميع ما أنبأت به غيرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾.

وقرأ عكرمة[(٢)]: «عَرَّافَ» بألف بعد الراء.

وخرجت على الإشباع، كقوله: [الرجز]

٤٧٨٥ ـ أعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ العَقْرَابِ[(٣)]

وقيل: هي لغة يمانية، يقولون: «عراف زيد عمراً».

وإذا ضمنت هذه الأفعال الخمسة معنى «أعلم» تعدت لثلاثة.

وقال الفارسي: «تعدَّت بالهمزة أو التضعيف».

وهو غلط، إذ يقتضي ذلك أنها قبل التضعيف، والهمزة كانت متعدية لاثنين، فاكتسبت بالهمزة، أو التضعيف ثالثاً، والأمر ليس كذلك اتفاقاً.

فصل في تفسير الآية

قال السديُّ: عرف بعضه، وأعرض عن بعض تكرماً[(٤)].

وقال الحسنُ: ما استقصى كريم قط، قال الله تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾[(٥)].

---

(١) ينظر: معاني القرآن ٣/ ١٦٦.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٨٦، والدر المصون ٦/ ٣٣٥.

(٣) تقدم.

(٤) ذكره القرطبي (١٨/ ١٢٣).

(٥) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٦٤) وينظر المصدر السابق.

وقال مقاتل: يعني أخبرها ببعض ما قالت لعائشة، وهو قول حفصة لعائشة: إن أبا بكرٍ وعمر سيملكان بعده[١].

قال المفسرون: إن النبي ﷺ جازى حفصة، بأن طلقها طلقة واحدة، فلما بلغ ذلك عمر، فقال عمر: لو كان في آل الخطاب خير لما كان رسول الله ﷺ طلقك، فأمره جبريل بمراجعتها، وشفع فيها، واعتزل النبي ﷺ نساءه شهراً، وقعد في مشربة مارية أم إبراهيم، حتى نزلت آية التخيير كما تقدم.

وقيل: هم بطلاقها، حتَّى قال له جبريل: لا تطلقها، فإنها صوَّامة قوَّامة، وإنها من نسائك في الجنة، فلم يطلقها.

قوله: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾، أي: أخبر حفصة بما أظهره الله عليه، قالت: «مَنْ أنبأكَ هَذَا» يا رسول الله عني، فظننت أن عائشة أخبرته، فقال ـ عليه السلام ـ: «نَبَّأنِيَ العليمُ الخَبيرُ» الذي لا يخفى عليه شيء.

وقيل: إن النبي ﷺ لما رأى الكراهية في وجه حفصة حين رأته مع مارية أراد أن يتراضاها فأسرَّ إليها شيئين: تحريم الأمة على نفسه، وتبشيرها بأن الخلافة بعده في أبي بكر وفي أبيها عمر، فأخبرت حفصة بذلك عائشة، وأطلع اللَّهُ نبيه عليه فعرف حفصة، وأخبرها بما أخبرت به عائشة، وهو تحريم الأمة «وأعْرَضَ عن بَعضٍ» يعني عن ذكر الخلافة، كره رسولُ الله ﷺ أن ينشر ذلك بين الناس، «فَلمَّا نبَّأهَا بِه» أي: أخبر حفصة بما أظهره اللَّهُ عليه، قالت حفصة: «مَنْ أنبَأكَ هَذَا» أي: من أخبرك بأني أفشيت السِّرَّ؟ «قال: نَبَّأنِيَ العليمُ الخَبيرُ».

قال ابن الخطيب[٢]: وصفه بكونه خبيراً بعدما وصفه بكونه عليماً لما أنَ في الخبير من المبالغة ما ليس في العليم.

قوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

شرط في جوابه وجهان:

أحدهما: هو قوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ﴾.

والمعنى: إن تتوبا فقد وجد منكما ما يوجب التَّوبة، وهو ميل قلوبكما عن الواجب في مخالصة رسول الله ﷺ في حب ما يحبه، وكراهة ما يكرهه.

و «صَغَتْ» مالت وزاغت عن الحق.

ويدل له[٣] قراءة ابن مسعود: «فقد زاغت».

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (١٨/ ١٢٣). (٢) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ٣٩.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٦٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٣١، والبحر المحيط ٨/ ٢٨٦، والدر المصون ٦/ ٣٣٥.

قال القرطبيُّ[(١)]: «وليس قوله ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ جزاء للشرط؛ لأن هذا الصغو كان سابقاً، فجواب الشرط محذوف للعلم به، أي: إن تتوبا كان خيراً لكما؛ إذ قد صغت قلوبكما».

والثاني: أن الجواب محذوف، وتقديره: فذلك واجب عليكما، أو فتاب الله عليكما قاله أبو البقاء[(٢)]، ودلّ على المحذوف ﴿فَقَدْ صَغَتْ﴾؛ لأن إصغاء القلب إلى ذلك ذنب.

قال شهاب الدين[(٣)]: «وكأنه زعم أن ميل القلب ذنب، وكيف يحسن أن يكون جواباً وقد غفل عن المعنى المصحح لكونه جواباً».

وقوله: ﴿قُلُوبُكُمَا﴾ من أفصح الكلام حيث أوقع الجمع موقع المثنى استثقالاً لمجيء تثنيتين لو قيل: «قَلبَاكُمَا»، ومن شأن العرب إذا ذكروا الشيئين من اثنين جمعوهما؛ لأنه لا يشكل. وقد تقدم هذا في آية السرقة في المائدة[(٤)].

ومن مجيء التثنية قوله: [الكامل]

٤٧٨٦ ـ فَتَخَالَسَا نَفْسَيهِمَا بِنَوافِذٍ كَنَوافِذِ العُبُطِ الَّتِي لا تُرْقَعِ[(٥)]

والأحسن في هذا الباب الجمع، ثم الإفراد، ثم التثنية.

وقال ابن عصفور: لا يجوز الإفراد إلاَّ في ضرورة؛ كقوله: [الطويل]

٤٧٨٧ ـ حَمامَةَ بَطْنِ الوادِيَيْنِ تَرَنَّمِي سَقَاكِ مِنَ الغُرِّ الغَوادِي مَطِيرُهَا[(٦)]

وتبعه أبو حيان[(٧)]، وغلط ابن مالك في كونه جعلهُ أحسن من التثنية.

وليس بغلط لكراهةِ توالي تثنيتين مع أمن اللبس.

وقوله: «إنْ تَتُوبَا» فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب.

فصل في المراد بهذا الخطاب

المراد بهذا الخطاب أُمَّا المؤمنين بنتا الشيخين الكريمين: عائشة وحفصة ـ رضي الله عنهما ـ حثّهما على التوبة على ما كان منهما من الميل إلى خلاف محبة رسول الله ﷺ، ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي: زاغت ومالت عن الحق، وهو أنهما أحبتا ما كره رسول الله ﷺ من اجتناب جاريته واجتناب العسلِ، وكان ﷺ يحب العسل والنِّساء.

---

(١) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٢٤.
(٢) ينظر: الإملاء ٢/ ١٢٢٩.
(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٣٥.
(٤) آية رقم ٣٨.
(٥) تقدم.
(٦) تقدم.
(٧) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٨٦.

قال ابن زيد رضي الله عنه مالت قلوبكما بأن سرهما أن يحتبس عن أم ولده، فسرهما ما كرهه رسول الله ﷺ[١].

وقيل: فقد مالتْ قُلوبكُمَا إلى التوبة.

قوله: ﴿وَإِن تَظَـٰهَرَا﴾.

أصله: «تَتَظاهَرَا» فأدغم، وهذه قراءة العامة.

وقرأ عكرمة[٢]: «تَتَظاهَرَا» على الأصل.

والحسن وأبو رجاء، ونافع، وعاصم[٣] **في رواية عنهما**: بتشديد الظَّاء والهاء دون ألف، وكلها بمعنى المعاونةِ من الظهر؛ لأنه أقوى الأعضاء وأجلها.

فصل في معنى تتظاهرا

معنى تتظاهرا، أي: تتعاونا على النبي ﷺ بالمعصية والإيذاء.

روى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مكثت سنةً، وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية، فما أستطيع أن أسأله هيبة له حتى خرج حاجاً فخرجت معه، فلما رجع وكنا ببعض الطريق عدل إلى الأراك لحاجة له، فوقفت، حتى فرغ ثم سرت معه بإداوة ثم جاء فسكبت على يديه منها فتوضّأ، فلما رجع قلت: يا أمير المؤمنين، من اللّتان تظاهرتا على النبي ﷺ؟.

فقال: تلك حفصة وعائشة، قال: فقلت له: والله إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة، فما أستطيع هيبةً لك، قال: فلا تفعل، ما ظننت أن عندي من علم فسلني عنه فإن كنت أعلمه أخبرتك[٤]. وذكر الحديث.

قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَـٰهُ﴾.

يجوز أن يكون «هو» فصلاً، و «مَولاهُ» خبره والمبتدأ جملة «إنَّ».

والمعنى: الله وليُّه وناصره، فلا يضره ذلك التَّظاهر منهما.

قوله: ﴿وَجِبْرِيلُ﴾.

يجوز أن يكون عطفاً على اسم الله تعالى.

والمعنى: الله وليه، وجبريل وليه، فلا يوقف على «مَولاهُ» ويوقف على جبريل.

ويكون ﴿وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مبتدأ، «والملائكة» معطوفاً عليه، والخبر «ظَهِيرٌ» ورفع

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٥٢).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٣١، والبحر المحيط ٢٨٦، والدر المصون ٦/ ٣٣٥.

(٣) ينظر: السابق.

(٤) أخرجه البخاري (٨/ ٥٢٥ ـ ٥٢٦) كتاب التفسير، باب: تبتغي مرضاة أزواجك رقم (٤٩١٣) ومسلم (٢/ ١١٠٥) عن ابن عباس والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧١) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وابن سعد وأحمد وعبد بن حميد وابن حبان وابن المنذر وابن مردويه.

«جبريل» نظراً إلى محل اسم «إن» وذلك بعد استكمال خبرها وقد تقدم مذاهب الناس في ذلك.

ويكون «جِبْرِيلٌ» وما بعده داخلين في الولاية لرسول الله ﷺ ويكون «جبريل» ظهيراً له بدخوله في عموم الملائكة.

ويكون «الملائكةُ» مبتدأ، و «ظهيرٌ» خبره، وأفرد لأنه بزنة «فَعِيل».

قال القرطبيُّ[1]: «هو بمعنى الجمع».

قال أبو علي: قد جاء «فعيل» للكثرة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١١]. ومعنى: «ظهيرٌ» أي: أعوان، وهو في معنى ظهراء كقوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

ويجوز أن يكون الكلام تم عند قوله «مَولاهُ»، ويكون «جبريلٌ» مبتدأ، وما بعده عطف عليه، و «ظهيرٌ» خبر الجميع، فتختص الولاية بالله، ويكون جبريل قد ذكر في المعاونة مرتين، مرة بالتنصيصِ عليه، ومرة بدخوله في عموم الملائكةِ.

وهذا عكس ما في «البقرة» في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، فإنه ذكر الخاص بعد العام تشريفاً له، وهناك ذكر العام بعد الخاص، ولم يذكر الناس إلا القسم الأول.

وفي «جِبْرِيل» لغات تقدم ذكرها في «البقرة».

قوله: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال المسيِّبُ بن شريكٍ: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أبو بكر[2].

وقال سعيد بن جبيرٍ: هو عمر[3].

وقال عكرمة: أبو بكر وعمر[4].

وروى شقيق عن عبد الله عن النبي ﷺ قال: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أبو بكر وعمر[5].

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٢٥. (٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٢٤).

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٣) عن سعيد بن جبير وعزاه إلى سعيد بن منصور وابن سعد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر عنه.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٥٤) عن مجاهد والضحاك وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٣) عن عكرمة وعزاه إلى ابن عساكر.

(٥) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٣٠) عن ابن مسعود وقال: رواه الطبراني وفيه عبد الرحيم بن زيد العمي وهو متروك.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٣) وزاد نسبته إلى أبي نعيم في «فضائل الصحابة» وابن مردويه.

وعن أسماء بنت عميسٍ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: علي بن أبي طالب[١].

وقيل: خيار المؤمنين، و «صالح»: اسم جنس، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١، ٢]. قاله الطبريُّ.

وقال العلاءُ بنُ زياد، وقتادة، وسفيان: هم الأنبياء[٢].

وقال ابن زيد: هم الملائكة[٣].

وقال السديُّ: هم أصحاب محمد ﷺ[٤].

وقيل: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ليس لفظ الواحدِ، وإنما هم «صَالِحُو المُؤمنينَ» فأضاف الصالحين إلى المؤمنين، وسيأتي له مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

فصل في هذا التظاهر

قيل: كان التَّظاهر منهما في التحكيم على النبي ﷺ في النفقة، ولهذا آلى منهن شهراً واعتزلهن.

وروى مسلم عن جابر بن عبد الله قال: دخل أبو بكرٍ يستأذن على النبي ﷺ فوجد النَّاس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحدٍ منهم، قال: فأذن لأبي بكر فدخل، ثُمَّ أقبل عمرُ، فاستأذن، فأذن له، فوجد النبي ﷺ جالساً حوله نساؤه، واجماً ساكتاً، قال: فلأقولن شيئاً أضحكُ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت بنت خارجة تسألني النفقة، فقمت إليها، فوجأت عنقها فضحك رسول الله ﷺ وقال: «هَنُّ حَولِي كما تَرَى يَسْألنَنِي النَّفقَة» فقام أبو بكر إلى عائشة رضي الله عنها يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده، فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئاً أبداً ليس عنده، ثم اعتزلهن رسول الله ﷺ شهراً، أو تسعاً وعشرين، ثم نزلت عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾ حتى بلغ ﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٩] الحديث[٥].

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٤) وعزاه إلى ابن مردويه عن أسماء بنت عميس وذكره أيضاً عن ابن عباس وعزاه إلى ابن مردويه وابن عساكر.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٥٤) عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٤) عن قتادة وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.
وذكره أيضاً عن العلاء بن زياد وعزاه إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٥٤) عن ابن زيد.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٢٤).

(٥) أخرجه مسلم (٢/ ١١٠٤) كتاب الطلاق، باب: أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً (٢٩/ ١٤٧٨) من طريق أبي الزبير عن جابر.

قوله: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الظَّاهر أنه مفرد، ولذلك كتب بالحاء دون واو الجمع.

وجوزوا أن يكون جمعاً ـ بالواو والنون ـ حذفت النون للإضافة، وكتب دون واو اعتباراً بلفظه، لأن الواو ساقطة لالتقاء الساكنين، نحو: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الشورى: ٢٤]. و ﴿يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٦]، و ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، إلى غير ذلك.

ومثل هذا ما جاء في الحديث: «أهْلُ القُرآنِ أهْلُ اللَّه وخاصَّتهُ».

قالوا: يجوز أن يكون مفرداً، وأن يكون جمعاً، كقوله: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ [الفتح: ١١] وحذفت الواو لالتقاء الساكنين لفظاً.

فإذا كتب هذا، فالأحسن أن يكتب بالواو لهذا الغرض، وليس ثَمَّ ضرورة لحذفها كما في مرسوم الخطِ.

وجوز أبو البقاء[1] في «جبريل» أن يكون معطوفاً على الضمير في «مولاهُ»، يعني المستتر، وحينئذٍ يكون الفصل بالضمير المجرور كافياً في تجويز العطف عليه.

وجوز أيضاً: أن يكون «جبريل» مبتدأ، و «صالحُ» عطف عليه، فالخبرُ محذوفٌ، أي: مواليه.

فصل في المراد بصالح المؤمنين

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أراد بقوله «وصَالحُ المؤمنين» يعني أبا بكر وعمر موالين للنبي ﷺ على من عاداه، وناصرين له[2]. وهو قول المقاتلين.

وقال الضحاكُ: خيار المؤمنين[3].

وقيل: كل من آمن وعمل صالحاً.

وقيل: كل من برىء من النفاقِ.

وقيل: الأنبياء.

وقيل: الخلفاء.

وقيل: الصحابة.

قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾.

قيل: كل «عَسَى» في القرآن واجب إلا هذا.

---

(١) ينظر: الإملاء ٢/ ١٢٣٠. (٢) تقدم.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٥٤) عن الضحاك.

وقيل: واجب، ولكن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ علقه بشرط، وهو التطليق ولم يطلقهن.

قال النحويون: «إنْ طلَّقكُنَّ» شرط معترض بين اسم «عَسَى» وخبرها، وجوابه محذوفٌ، أو متقدم، أي: «إنْ طلقَكُنَّ فَعَسى».

وأدغم أبو عمرو القاف في الكاف على رأي بعضهم[١].

قال: وهو أولى من ﴿يَرْزُقُكُم﴾ [يونس: ٣١]، ونحوه لثقل التأنيثِ.

قوله: ﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا﴾.

قرىء: مخففاً[٢] ومشدداً، كما تقدم في «الكهف».

والتبديل والإبدال بمعنى كالتنزيل والإنزال.

وقوله: ﴿أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾.

لأنكن لو كنتن خيراً منهن ما طلقكن رسول الله ﷺ قال معناه السديُّ.

وقيل: هذا وعد من الله تعالى لرسوله لو طلقهن في الدنيا أن يزوجه في الآخرة نساء خيراً منهن، وكان الله عالماً بأنه لا يطلقهن، ولكن أخبر عن قدرته على أنه إن طلقهن أبدله خيراً منهن تخويفاً لهن، كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨] وهو إخبار عن القدرة وتخويف لهم، لا أن في الوجودِ من هو خير من أصحاب محمد ﷺ.

فصل في الكلام على لفظ مسلمات

قوله: ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ إلى آخره. إما نعت أو حال أو منصوب على الاختصاص.

قال سعيد بن جبير: يعني مخلصاتٍ.

وقيل: مسلمات لأمر الله تعالى وأمر رسوله خاضعات لله بالطاعة ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ أي: مصدقات بتوحيد الله.

وقيل: مصدقات بما أمرنَ به، ونهين عنه ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ مطيعات، والقنوت: الطاعة.

وقيل: داعياتٍ بتوحيد الله.

وقيل: مصليات «تائبات» أي: من ذنوبهن، قاله السديُّ.

وقيل: راجعاتٍ إلى أمر رسول الله ﷺ تاركاتٍ لمحاب أنفسهن، ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ أي: كثيرات العبادةِ لله تعالى.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كل عبادة في القرآن فهو التوحيد[٣]

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٨٧، والدر المصون ٦/ ٣٣٧.

(٢) وهي قراءة نافع والأعرج وأبي جعفر كما في: المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٢، وينظر: الدر المصون ٦/ ٣٣٧.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٢٧).

﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ أي: صائمات، قاله ابن عبَّاس والحسن وابن جبير[١].

وقال زيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن ويمان: مهاجرات.

قال زيد: وليس في أمة محمدٍ ﷺ سياحة إلا الهجرة. والسياحة الجولان في الأرض.

وقال الفرَّاء[٢] والقتبي وغيرهما: سمي الصائمُ سائحاً؛ لأن السائحَ لا زاد معه، وإنما يأكل من حيث وجد الطعام.

وقيل: يسحن معه حيثما ساح.

وقيل: ذاهبات في طاعة الله تعالى، من ساح الماءُ إذا ذهب. وقد مضى في سورة براءة[٣].

وقرأ[٤] عمرو[٥] بن فائد: «سَيِّحاتٍ».

فصل في الكلام على الآية

قال ابن الخطيب[٦]: فإن قيل: كيف تكون المبدلات خيراً منهن، ولم يكن على وجه الأرض نساء خيراً من أمهات المؤمنين؟.

فالجواب: إذا طلقهن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لعصيانهن له، وإيذائهن إياه كان غيرهن من الموصوف بهذه الصفات مع الطاعة للرسول ﷺ خيراً منهن.

فإن قيل: قوله: ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ يوهم التَّكرارَ؛ لأن المسلمات والمؤمنات سواء؟ فالجواب[٧]: الإسلام هو التصديق باللسان، والإيمان التصديق بالقلب، وقد لا يجتمعان فقوله ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ تحقيقاً لاجتماعهما.

قوله: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾.

إنما توسطت الواو بين ثيبات وأبكاراً لتنافي الوصف دون سائر الصفات.

و «ثَيِّباتٍ» ونحوه لا ينقاس؛ لأنه اسم جنس مؤنث، فلا يقال: نساء حورات، ولا رأيت عينات.

و «الثَّيِّبُ» وزنها «فَيعِل» من «ثاب يثوب» أي: رجع، كأنها ثابت بعد زوال عذرتها.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٥٦) عن ابن عباس وقتادة والضحاك.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٤) عن قتادة وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) ينظر: معاني القرآن له ٣/ ١٦٧.

(٣) آية رقم ١١٢.

(٤) في أ: واختار.

(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٨٧، والدر المصون ٦/ ٣٣٧.

(٦) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٤٠.

(٧) السابق ٣٠/ ٤١.

وأصله: «ثَيْوب» كـ «سيِّد وميِّت» أصلهما: «سَيْود ومَيْوت» على الإعلال المشهور.

والمعنى: منهن ثيّب، ومنهن بِكْر.

قيل: إنما سميت ثيِّباً؛ لأنها راجعة إلى زوجها إن أقام معها، وإلى غيره إن فارقها.

وقيل: لأنها ثابت إلى بيت أبويها.

قال القرطبي[1]: «والأول أصح؛ لأن ليس كل ثيب تعود إلى زوج، وأما البكر: فهي العذراء، سميت بكراً؛ لأنها على أول حالتها التي خلقت بها».

قال ابن الخطيب[2]: فإن قيل: ذكر الثيبات في مقام المدحِ، وهي من جملة ما يقل رغبة الرجال فيهن؟.

فالجوابُ: يمكن أن يكون بعض الثيبات خيراً بالنسبة إلى البعض من الأبكار عند الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لاختصاصهن بالمال، والجمال، أو النسب، أو المجموع، وإذا كان كذلك، فلا يقدح ذكر الثَّيِّب في المدح، لجواز ذلك.

وقال الكلبيُّ: أراد بالثيِّب مثل: آسية امرأة فرعون، وبالبكر مثل: مريم ابنة عمران[3].

قال القرطبيُّ[4]: «وهذا إنما يمشي على قول من قال: إن التبديل وعد من الله لنبيه لو طلقهن في الدنيا زوجه في الآخرة خيراً منهن، والله أعلم».

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾.

«قُوْا» أمر من الوقاية، فوزنه «عُو»؛ لأن الفاء حذفت لوقوعها في المضارع بين ياء وكسرة، وهذا محمول عليه، واللام حذفت حملاً له على المجزوم؛ لأن أصله «أوقيوا» كـ «اضربوا» فحذفت الواو التي هي فاء لما تقدم، واستثقلت الضمة على الياء، فالتقى ساكنانِ، فحذفت الياء؛ وضم ما قبل الواو لتصح.

وهذا تعليل البصريين.

ونقل مكي[5] عن الكوفيين: أن الحذف عندهم فرقاً بين المتعدي، والقاصر،

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٢٧. (٢) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٤١.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٢٧) عن الكلبي.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٤) عن بريدة بمعناه وعزاه إلى الطبراني وابن مردويه.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٢٧.

(٥) ينظر: القرطبي ١٨/ ١٢٧.

فحذفت الواو التي هي فاء في «يَقِي، ويَعِد» لتعديهما، ولم يحذف من «يَوْجَلُ» لقصوره.

قال: «ويرد عليهم نحو: يَرِم، فإنه قاصر، ومع ذلك فقد حذفوا فاءه».

قال شهاب الدين[(١)]: وفي هذا نظر؛ لأن «يَوْجَلُ» لم تقع فيه الواو بين ياء وكسرة لا ظاهرة ولا مضمرة.

وقلت: ولا مضمرة، تحرُّزاً من «تَضَع، ويَسَع، ويهب».

وقرأ بعضهم: «وأهْلُوكُمْ»[(٢)].

وخرجت على العطف على الضَّمير المرفوع بـ «قُوْا»، وجوز ذلك الفصل بالمفعول قال الزمخشريُّ بعد ذكره القراءة وتخريجها: فإن قلت: أليس التقديرُ: «قُوا أنفُسكُمْ وليَقِ أهلوكم أنفسهم»؟.

قلت: لا، ولكن المعطوف في التقدير مقارن للواو، و «أنْفُسَكُمْ» واقع بعده، كأنه قيل: قوا أنتم، وأهلوكم أنفسكم، لما جمعت مع المخاطب الغائب غلبته عليه، فجعلت ضميرهما معاً على لفظ المخاطب.

قوله: «ناراً» مفعول ثانٍ، «وقُودُهَا النَّاسُ» صفة لـ «نَاراً» وكذلك «عَلَيْهَا مَلائكةٌ»، ويجوز أن يكون الوصف وحده «عَلَيْهَا»، و «مَلائِكَةٌ» فاعل به، ويجوز أن يكون حالاً لتخصيصها بالصفة الأولى، وكذلك «لا يَعْصُونَ اللَّه».

وتقدم الخلاف في واو ﴿وَقُودُهَا﴾ [البقرة: ٢٤] ضمًّا وفتحاً في «البقرة».

فصل في معنى الآية

قال الضحاك[(٣)]: المعنى: قو أنفسكم؛ وأهلوكم، فليقوا أنفسهم ناراً[(٤)].

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٣٧. (٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٦٨.

قال الزمخشري في قوله تعالى **﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾**: قرىء وأهلوكم. قال أحمد: ولكن المعطوف مقارن في التقدير للواو، وأنفسكم واقع بعده، كأنه قال: قوا أنتم وأهلوكم أنفسكم، ولكن لما اجتمع ضمير المخاطب والغائبين: غلب ضمير الخطاب على ضمير الغيبة. ثم قال: فإن قلت قوله: **﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾** أليس الجملتان في معنى واحد؟ وأجاب بأن معنى الأولى أنهم يلتزمون الأوامر ولا يأتونها... الخ. قال أحمد: جوابه الأول مفرع على قاعدته الفاسدة في اعتقاد خلود الفساق في جهنم؛ ولعله إنما أورد السؤال ليتكلف عنه بجواب ينفس عما في نفسه مما لا يطيق كتمانه من هذا الباطل نعوذ بالله منه؛ وإلا فالسؤال غير وارد؛ فإنه لا يمتنع أن المؤمن يحذر من عذاب الكافر أن يناله على الإيمان، كقوله في آل عمران خطاباً للمؤمنين **﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين، وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾**.

وينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٨٧، والدر المصون ٦/ ٣٣٧.

(٣) في أ: الصحابة رضي الله عنهم.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦ج٣٧٥) وعزاه إلى سعيد بن منصور وابن المنذر عن الضحاك.

وروي عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ: قوا أنفسكم وأمروا أهليكم بالذكر، والدعاء، حتى يقيهم الله بكم[(١)].

وقال علي ـ رضي الله عنه ـ وقتادة ومجاهدٌ: قوا أنفسكم بأفعالكم، وقوا أهليكم بوصيتكم[(٢)].

قال ابن العربي[(٣)]: وهو الصحيحُ، والفقهُ الذي يعطيه العطفُ الذي يقتضي التشريك بين المعطوف؛ والمعطوف عليه في معنى الفعل.

كقوله: [الرجز]

٤٧٨٨ ـ عَلَفْتُهَا تِبْناً ومَاءً بَارِداً ....[(٤)]

وكقوله: [مجزوء الكامل]

٤٧٨٩ ـ ورَأيْتُ زَوْجَكِ فِي الوَغَىٰ مُتَقَلِّداً سَيْفاً ورُمْحَا[(٥)]

فعلى الرجل أن يصلح نفسه بالطاعة، ويصلح أهله صلاح الراعي للرعيَّة.

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «كُلُّكُمْ راعٍ، وكُلُّكُمْ مسْئُولٌ عن رعيَّتِهِ، فالإمامُ الَّذي على النَّاسِ راعٍ وهُوَ مَسْئُولٌ عَنهُمْ، والرَّجلُ راعٍ على أهْلِ بَيْتِهِ وهُوَ مسْئُولٌ عَنْهُمْ»[(٦)].

قال الحسن في هذه الآية: يأمرهم، وينهاهم.

وقال بعض العلماء لما قال: «قُو أنفُسَكُمْ»: دخل فيه الأولاد؛ لأن الولد بعض منه كما دخلوا في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إنَّ أحلَّ مَا أكلَ الرَّجلُ من كسْبِهِ، وإنَّ ولدهُ مِنْ كسْبِهِ»[(٧)] فلم يفرد بالذّكر إفراد سائر القرابات، فيعلمه الحلال والحرام، ويجنبه المعاصي والآثام إلى غير ذلك من الأحكام.

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «حَقُّ الولدِ على الوالِدِ، أنْ يُحْسِنَ اسْمَهُ، ويُعلِّمهُ الكِتابَةَ، ويزَوِّجهُ إذا بلَغَ»[(٨)].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٥٧) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٤) وزاد نسبته إلى ابن المنذر.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٥٧) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٤).

(٣) ينظر: أحكام القرآن (٤/ ١٨٥٢).

(٤) تقدم. (٥) تقدم.

(٦) تقدم. (٧) تقدم.

(٨) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» رقم (٤٥١٩١) وعزاه إلى أبي نعيم في الحلية والديلمي في مسند الفردوس.

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مَا نَحَلَ والدٌ ولَداً أفْضَل مِنْ أدبٍ حسنٍ»(١).

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مُرُوا أبْناءَكُمْ بالصَّلاةِ لسَبْعٍ، واضْرِبُوهُمْ على تَرْكِهَا لعشْرٍ، وفرِّقُوا بَيْنَهُم في المَضَاجِعِ»(٢).

قال بعض العلماء: ويخبر أهله بوقت الصلاة، ووجوب الصيام.

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «رَحِمَ اللَّهُ امْرءاً قَامَ مِنْ اللَّيلِ يُصلِّي، فأيقظَ أهلَهُ، فإنْ لَمْ تَقُم رشَّ على وجهِهَا المَاءَ، ورحِمَ اللَّهُ امْرَأةً قَامَتْ في اللَّيْلِ تُصلِّي، وأيْقَظَتْ زوْجَهَا، فإنْ لم يَقُمْ رشَّتْ على وجْهِهِ المَاءَ»(٣).

وذكر القشيريُّ قال: فلما نزلت هذه الآية، قال رجلٌ: يا رسول الله، نقي أنفسنا، فكيف لنا بأهلينا؟.

فقال: «تنهونهم عما نهاكم الله، وتأمرونهم بما أمر الله».

وقال مقاتلٌ: ذلك حق عليه في نفسه، وولده، وأهله، وعبيده، وإمائه.

قال إلكيا: فعلينا تعليم أولادنا، وأهلينا الدين، والخير، وما لا يستغنى عنه من الأدب.

وهو قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، وقوله للنبي ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ١٤].

وتقدم الكلام على قوله: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ في «البقرة».

---

(١) أخرجه من رواية أيوب بن موسى، عن أبيه، عن جده، أحمد في مسنده ٤/٧٨، وأخرجه الترمذي في السنن ٤/٣٣٨، كتاب البر، باب: ما جاء في أدب الولد الحديث (١٩٥٢) وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عامر بن أبي عامر الخزَّاز وهو عامر بن صالح بن رستم الخزّاز، وأيوب بن موسى هو ابن عمرو بن سعيد بن العاص، وهذا عندي حديث مرسل، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٢٦٣، كتاب الأدب، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٢/ ١٨، كتاب الصلاة، باب: وجوب تعلم ما تجزىء به الصلاة.. وذكره السيوطي في جمع الجوامع ١/ ٧٣٣، وعزاه لعبد بن حميد البغوي في معجم الصحابة وابن قانع، والعسكري في الأمثال.

(٢) أخرجه أبو داود بلفظه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده في السنن ١/ ٣٣٤، كتاب الصلاة، باب: متى يؤمر الغلام بالصلاة الحديث (٤٩٥) وبمعناه عن سبرة بن معبد أخرجه: أحمد في المسند ٣/ ٤٠٤ في مسند سبرة بن معبد رضي الله عنه. وأبو داود في المصدر السابق ١/ ٣٣٢، الحديث (٤٩٤) والترمذي في السنن ٢/ ٢٥٩، كتاب الصلاة باب متى يؤمر الصبي بالصلاة (٢٩٩)، الحديث (٤٠٧)، وقال: (حسن صحيح). وليس عندهم ذكر التفريق في المضاجع. وأخرجه الدارقطني في السنن ١/ ٢٣٠، كتاب الصلاة، باب: الأمر بتعليم الصلوات والضرب عليها.

(٣) أخرجه أحمد من رواية أبي هريرة رضي الله عنه، في المسند ٢/ ٣٥٠ ضمن مسند أبي هريرة، وأخرجه أبو داود في السنن ٢/ ٧٣ كتاب الصلاة، باب: قيام الليل الحديث (١٣٠٨) وأخرج النسائي في المجتبى من السنن ٣/ ٢٠٥ كتاب قيام الليل، باب: الترغيب في قيام الليل الحديث (١٣٣٦) وأخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٣٠٩ كتاب صلاة التطوع، باب: تحريض قيام الليل.

فصل في مخاطبة الله تعالى للمؤمنين

قال ابن الخطيب[١]: فإن قيل: إنه ـ تعالى ـ خاطب المشركين في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، ثم قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ فما معنى مخاطبته للمؤمنين بذلك؟.

فالجوابُ: أن الفساق، وإن كانت دركاتهم فوق دركات الكُفَّار، فإنهم مع الكُفَّار في دار واحدة، فقيل للذين آمنوا: «قُوا أنفُسَكُمْ» باجتناب الفسوقِ ومجاورة الذين أعدت لهم هذه النار، ولا يبعد أن يأمرهم بالتوقِّي عن الارتداد.

قوله: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾.

يعني الزَّبَانية، غلاظ القلوب لا يرحمون إذا استرحموا، خلقوا من الغضب، وحبب إليهم عذاب الخلقِ، كما حبب لبني آدم الطعام، والشراب «شِدادٌ»، أي: شداد الأبدان وقيل: غلاظ الأقوال شدادُ الأفعالِ.

وقيل: «غِلاظٌ» في أخذهم أهل النار «شِدادٌ» عليهم، يقال: فلان شديد على فلان، أي: قوي عليه يعذبه بأنواع العذاب.

وقيل: أغلاظ أجسامهم ضخمة «شِدادٌ» أي: أقوياء.

قال ابن عبَّاس: ما بين منكبي الواحد منهم مسيرة سنة[٢].

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ في خزنة جهنم: «مَا بَيْنَ منكبَيْ أحدهِمْ كَمَا بَيْنَ المَشْرقِ والمَغْربِ»[٣].

قوله: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾.

يجوز أن تكون «ما» بمعنى «الذي»، والعائد محذوف، أي: «مَا أمَرَهُمُوهُ»، والأصل: «بِهِ»، لا يقال: كيف حذف العائد المجرور، ولم يجر الموصول بمثله؟ لأنه يطرد حذف هذا الحرف فلم يحذف إلا منصوباً.

وأن تكون مصدرية، ويكون محلها بدلاً من اسم الله بدل اشتمال، كأنه قيل: لا يعصون أمره.

وقوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ﴾.

قال الزمخشريُّ[٤]: «فإن قلت: أليست الجملتان في معنى واحد؟.

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٤٢.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٢٨) عن ابن عباس.

(٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) ينظر الكشاف ٤/ ٥٦٨.

قلت: لا؛ لأن الأولى معناها: أنهم يقبلون أوامره ويلتزمونها.

والثانية: معناها أنهم يؤدّون ما يؤمرون به لا يتثاقلون عنه، ولا يتوانون فيه».

وقال القرطبي(١): ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ أي: لا يخالفونه في أمر من زيادة، أو نقصان ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ في وقته لا يقدمونه، ولا يؤخرونه.

وقيل: أي: لذتهم في امتثال أمر اللَّهِ، كما أن سرور أهل الجنة في الكون في الجنة، ذكره بعض المعتزلة، وعندهم أنه يستحيل التكليف غداً، ولا يخفى معتقد أهل الحقِّ في أن الله يكلف العبد اليوم وغداً، ولا ينكر التكليف غداً في حق الملائكةِ، ولله أن يفعل ما يشاء.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

أي: فإن عذركم لا ينفع، وهذا النهي لتحقيق اليأس ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، ونظيره: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [الروم: ٥٧].

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾.

قرأ الجمهور: بفتح نون «نَصُوحاً».

فهي صيغة مبالغة أسند النصح إليها مجازاً، وهي من: نصح الثوب، أي: خاطه فكأن التائب يرقع ما حرقه بالمعصية.

وقيل: هي من قولهم: عسل ناصح، أي: خالص.

وقرأ أبو بكر(٢): بضم النون.

وهو مصدر «نَصَحَ»، يقال: نصح نصحاً ونصوحاً، نحو: كَفَر كُفْراً وكُفُوراً، وشَكَرَ شُكْراً وشُكُوراً.

وفي انتصابه أوجه:

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/١٢٨.

(٢) وقرأ بها خارجة عن نافع، والحسنُ، والأعرج، وعيسى، كما في: المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٤، والبحر المحيط ٨/ ٢٨٨، والدر المصون ٦/ ٣٣٧.

أحدها: أنه مفعول له، أي: لأجل النصح الحاصل نفعه عليكم.

والثاني: أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف، أي: ينصحهم نصحاً.

الثالث: أنه صفة لها، إما على المبالغة على أنها نفس المصدر، أو على حذف مضاف، أي: ذات نصوح.

وقرأ زيد[١] **بن عليّ**: «تَوْباً» دون تاء.

فصل في تعلق هذه الآية بقوله يا أيها الذين كفروا

قال ابن الخطيب[٢]: وجه تعلق هذه الآية بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أنه ـ تعالى ـ نبّههم على رفعِ العذاب في ذلك اليوم، بالتوبة في الدنيا، إذ في ذلك اليوم لا تفيدُ التوبةُ.

فصل

أمر بالتَّوبة، وهي فرض على الأعيان في كُلِّ الأحوال، وكُلِّ الأزمان واختلفوا في التوبة النَّصُوح:

فقيل: هي التي لا عودة بعدها، كما لا يعود اللَّبن إلى الضرع.

روي عن عمر، وابن مسعود، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، ورفعه معاذٌ إلى النبي ﷺ[٣].

وقال قتادة: «النَّصُوحُ» الصَّادقة الخالصة[٤].

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٨٩، والدر المصون ٦/ ٣٣٨.

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٤٣.

(٣) أثر عمر بن الخطاب. أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٥٨) والحاكم (٢/ ٤٩٤) وصححه وذكره الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» (٣/ ٣٩٠) رقم (٣٧٨٥) وعزاه إلى أحمد بن منيع وقال: إسناده صحيح موقوف.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٦) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي شيبة وهناد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن النعمان بن بشير عن عمر.

حديث ابن مسعود. أخرجه أحمد (١/ ٣٩٦) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٦) وزاد نسبته إلى ابن مردويه والبيهقي.

حديث أبي بن كعب. أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في «شعب الإيمان» بسند ضعيف كما قال الحافظ السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٦).

حديث معاذ. ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٦) وعزاه إلى ابن مردويه.

وقد روي عن ابن مسعود موقوفاً أيضاً. أخرجه الطبري (١٢/ ١٥٨) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٦) وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٥٩) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٦) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

وقيل: الخالصة. يقال: نصح له، أي: أخلص له القول.

وقال الحسن: «النَّصُوحُ» أن يبغض الذنب الذي أحبه، ويستغفر منه إذا ذكره[١].

وقيل: هي التي لا يثق بقبولها، ويكون على وجلٍ منها.

وقال الكلبيُّ: التوبة النَّصوح، الندم بالقلب، والاستغفار باللسان، والإقلاع عن الذنب، والعزم على ألاَّ يعود.

وقيل غير ذلك.

فصل في الأشياء التي يُتَاب منها

قال بعض العلماءِ: الذنبُ الذي لا يكونُ منه التوبةُ لا يخلو، إما أن يكون حقاً لله أو للآدميين، فإن كان حقاً لله عز وجل كتركِ صلاة، أو صوم أو تفريط في زكاة؛ فإن التوبة لا تصح منه حتى ينضم إلى الندم قضاء ما فات منها.

وإن كان قتل نفساً بغير حقٍّ، فإن تمكن من القصاص منه إن طلب به، فإن عُفِيَ عنه كفاه النَّدم، والعزم على ترك العودِ بالإخلاص، وكذلك إن عُفِي عنه في القَتْل بمال فعليه أن يؤديه إن كان واجداً له، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨].

وإن كان ذلك من حدود الله ـ ما كان ـ فإنه إذا تاب إلى الله ـ تعالى ـ بالندم الصحيح سقط منه، وقد نصَّ الله ـ تعالى ـ على سقوط الحد عن المحاربين إذا تابوا قبل القدرةِ عليهم، كما تقدم.

وكذلك الشُّرَّاب، والسُّراق، والزُّناة إذا صلحوا، وتابوا، وعرف ذلك منهم، ثم رفعوا إلى الإمام فلا ينبغي له أن يحدهم، وإن رفعوا إليه فقالوا: تُبْنا لم يتركهم في هذه الحال كالمحاربين إذا غلبوا، هذا مذهب الشافعي.

فإن كان الذنبُ من مظالم العباد، فلا تصح التوبة منه إلا برده إلى صاحبه، والخروج عنه ـ عيناً كان أو غيره ـ إن كان قادراً عليه، فإن لم يكن قادراً، فالعزم أن يؤديه إذا قدر في أعجل وقت، وأسرعه.

وإن كان لواحد من المسلمين، وذلك الواحد لا يشعر به، ولا يدري من أين أتى، فإنه يزيل ذلك الضرر عنه، ثم يسأله أن يعفو عنه، ويستغفر له، فإذا عفى، فقد سقط الذنب عنه، وإن أرسل من يسأل ذلك له، فعفى ذلك المظلوم عن ظلمه عرفه بعينه، أو لم يعرفه، فذلك صحيح.

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٣٧٦) وعزاه إلى عبد بن حميد.

وإن أساء رجل إلى رجل، بأن فزعه بغير حق، أو غمه، أو لطمه، أو صفعه بغير حق، أو ضربه بسوط وآلمه، ثم جاءه مستعفياً نادماً على ما كان منه عازماً على ألا يعود فلم يزل يتذلل له، حتى طابت نفسه فعفا عنه، سقط الذّنب عنه، وهكذا إن شتمه بشتمٍ لا حدَّ فيه.

قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾.

«عَسَى» من الله واجبةٌ، وهو معنى قوله ـ عليه الصلاة والسلام: «التَّائِبُ من الذَّنْبِ كمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ»[١].

و «أنْ» في موضع نصب.

قوله: «ويُدخِلَكُمْ». معطوف على «يُكَفِّرَ».

قرأ العامة: بالنصب.

وابن أبي عبلة[٢]: بسكون اللام.

فاحتمل أن يكون من إجراء المنفصلِ مجرى المتصل، فسلبت الحركة؛ لأنه يتحلل من مجموع «يُكفِّرَ عَنْكُم» مثل «نطع وقمع» فيقال: فيهما: نَطْع وقَمْع.

ويحتمل أن يكون عطفاً على محل «عَسَى أن يُكَفِّرَ» كأنه قيل: توبوا يوجب تكفير سيئاتكم، ويدخلكم، قاله الزمخشري[٣].

يعني أن «عَسَى» في محل جزم جواباً للأمر؛ لأنه لو وقع موقعها مضارع لانجزم كما مثل به الزمخشري.

وفيه نظر؛ لأنا لا نسلم أن «عَسَى» جوابٌ ولا تقع جواباً؛ لأنها للإنشاء.

قوله: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾.

«يَوْمَ» منصوب بـ «يُدخِلَكُم»، أو بإضمار «اذْكُرْ».

ومعنى «يُخْزِي» هنا: يعذب، أي: لا يعذبه، ولا يعاقب الذين آمنوا معه.

قالت المعتزلة: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ يدل على أنه لا يعذب الذين آمنوا؛ لأن الإخزاء يقع بالعذاب، ولو كان أصحاب الكبائر من أهل الإيمان لم يخفف عليهم العذاب.

قال ابنُ الخطيب[٤]: وأجاب أهل السُّنة بأنه ـ تعالى ـ وعد أهل الإيمان بألاً يخزيهم.

---

(١) تقدم.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٧٠، والدر المصون ٦/ ٣٣٨.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٧٠.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٤٣.

من أهل السنَّةِ من يقف على قوله: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ﴾، ومعناه لا يخزيه في رد الشفاعة، والإخزاء: الفضيحة، أي: لا يفضحهم بين يدي الكفار، ويجوز أن يعذبهم على وجه لا تقف الكفرة عليه.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يجوز فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون منسوقاً على «النَّبِي»، أي: ولا يخزي الذين آمنوا، فعلى هذا يكون «نُورُهُمْ يَسْعَى» مُستأنفاً، أو حالاً.

والثاني: أن يكون مبتدأ، وخبره «نُورُهُمْ يَسْعَى»، و «يَقُولُون» خبر ثاني أو حال.

وتقدم إعراب مثل هذه الجمل في «الحديد» وإعراب ما بعدها في «براءة».

وقرأ أبو حيوة، وأبو نهل(١) **الفهمي**: «وبِإيْمَانِهِمْ» بكسر الهمزة.

ومعنى قوله: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: في الدنيا وبأيمانهم عند الحساب، لأنهم يؤتون الكتاب بأيمانهم، وفيه نور، وخير.

وقيل: يسعى النور بين أيديهم في موضع وضع أقدامهم «وبأيْمانِهِمْ» لأن خلفهم وشمالهم طرق الكفرة، وقولهم: «ربَّنا أتمم لنَا نُورنَا» قال ابن عباس: يقولون ذلك عند إطفاء نور المُنافقين(٢) إشفاقاً(٣).

وقال الحسنُ: إنه ـ تعالى ـ يتمّم لهم نورهم، ولكنهم يدعون تقرباً إلى حضرة الله تعالى، كقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥] وهو مغفور(٤).

وقيل: أدناهم منزلة من نوره بقدر ما يبصر موضع قدمه، فيسألون إتمامه.

وقال الزمخشري(٥): السَّابقون إلى الجنَّة يمرون كالبرقِ على الصِّراط، وبعضهم كالريح، وبعضهم كالجواد المسرع، وبعضهم حَبْواً، وهم الذين يقولون: ربنا أتمِمْ لنا نورنا.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٤، والبحر المحيط ٨/ ٢٨٩، والدر المصون ٦/ ٣٣٨.
(٢) في أ: الكفرة.
(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٩٥) من طريق عتبة بن يقظان عن عكرمة عن ابن عباس وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
ورده الذهبي فقال: عتبة واه.
وذكره الحافظ ابن حجر في «التهذيب» (٧/ ١٠٤) وقال: قال النسائي في «الكنى»: أبو زحارة عتبة بن يقظان غير ثقة وقال علي بن الجنيد لا يساوي شيئاً وذكره ابن حبان في «الثقات».
والأثر ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٧) وزاد نسبته إلى البيهقي في «البعث».
(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٥٩) عن الحسن.
(٥) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٧٠.

فإن قيل: إنه ـ تعالى ـ لا يخزي النبي في ذلك اليوم، ولا الذين آمنوا معه؟.

فالجوابُ[١]: لأن فيه إفادة الاجتماع، بمعنى لا يخزي الله المجموع، أي: الذين يسعى نورهم، وفيه فائدة عظيمة، إذ الاجتماع بين الذين آمنوا، وبين نبيهم تشريفٌ في حقهم وتعظيم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾

أمره أن يجاهدَ الكُفَّار بالسيف، والمواعظ الحسنة، والدعاء إلى الله، والمنافقين بالغلظة، وإقامة الحُجَّة أن يعرفهم أحوالهم في الآخرة، وأنه لا نُور لهم يجوزون به على الصِّراط مع المؤمنين.

وقال الحسنُ: أي: جاهدهم بإقامة الحدودِ عليهم، فإنهم كانوا يرتكبون موجبات الحدود وكانت الحدودُ تقامُ عليهم ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يرجع إلى الصنفين ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع[٢].

قال ابن الخطيب[٣]: وفي مخاطبة النبي ﷺ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ في أول السورة وفي هذه الآية ووصفه بالنبي لا باسمه، كقوله لآدم: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾ [البقرة: ٣٥]، وموسى ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ [طه: ١١]، ولعيسى ﴿يَٰعِيسَى﴾ [المائدة ١١٦] دليل على فضيلته عليهم.

فإن قيل: قوله ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يدل على أن مصيرهم بئس المصيرُ، فما فائدة ذلك؟ فالجوابُ: أن مصيرهم بئس المصير مطلقاً، والمطلق يدل على الدوام، وغير المطلق لا يدل على الدوام.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾

ثم ضرب اللَّهُ مثلاً للصَّالحات، من النِّساء، فقال:

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٤٣.

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (١٨/ ١٣١).

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٤٣.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ إلى آخره، تقدم الكلام على «ضرب» مع «المَثَل»، وهل هو بمعنى «صير» أم لا؟ وكيف ينتصب ما بعدها في سورة «النحل»[١].

فصل في ضرب الله لهذا المثل

ضرب الله هذا المثل تنبيهاً على أنه لا يغني أحد عن قريب، ولا نسب في الآخرة إذا فرق بينهما الدِّين، وكان اسم امرأة نوح «والهة»، وامرأة لوط «والغة»، قاله مقاتل.

وقال الضحاكُ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: إن جبريل نزل على النبي ﷺ فأخبره أن اسم امرأة نوح «وَاغِلة» وامرأة لوط «والهة»، ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ﴾ يعني نوحاً ولوطاً[٢].

ويجوز أن يكون «امْرَأة نُوحٍ» بدلاً من قوله «مثلاً» على تقدير حذف المضاف، أي: ضرب الله مثلاً مثل امرأة نوح.

ويجوز أن يكونا مفعولين.

قوله: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ﴾.

جملة مستأنفة كأنها مفسرة لـ «ضَرْبِ المثلِ»، ولم يأت بضميرهما، فيقال: تحتهما أي: تحت نوح ولوط، لما قصد من تشريفهما بهذه الإضافة الشريفة، وليصفهما بأجَلّ الصِّفات، وهو الصَّلاح.

قوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾.

قال عكرمة، والضحاك: بالكفر[٣].

وقال سليمان بن رقية، عن ابن عباس: كانت امرأة نوح تقول للناس: إنه مجنون وامرأة لوط كانت تخبر بأضيافه[٤].

وعن ابن عباس: ما بَغَت[٥] امرأة نبي قط، وإنما كانت خيانتهما أنهما كانا على غير دينهما[٦].

---

(١) آية (٧٥).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٣١).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٦١) عن عكرمة.

(٤) أخرجه الطبري (١٢/ ١٦١) والحاكم (٢/ ٤٩٧) عن سليمان عن ابن عباس. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٧) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس.

(٥) في أ: خانت.

(٦) ذكره السيوطي في «إلدر المنثور» (٦/ ٣٧٧) عن ابن عباس موقوفاً وعزاه إلى ابن المنذر. =

قال القشيريُّ: وهذا إجماع من المفسرين إنما كانت خيانتهما في الدين، وكانتا مشركتين وقيل: كانتا منافقتين.

وقيل: خيانتهما النَّميمةُ إذا أوحى الله إليهما شيئاً أفشتاه إلى المشركين، قاله الضحاك.

وقيل: كانت امرأة لوط إذا نزل به ضيف دخنت لتعلم قومها أنه قد نزل به ضيف لما كانوا عليه من إتيان الرجال.

قوله: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا﴾.

العامة: بالياء من تحت، أي: لم يغن نوح ولوط عن امرأتيهما شيئاً من الإغناء من عذاب الله.

وقرأ مبشر[1] **بن عبيد**: تغنيا ـ بالتاء من فوق ـ، أي: فلم تُغْن المرأتان عن أنفسهما.

وفيها إشكال إذ يلزم من ذلك تعدي فعل المضمر المتصل إلى ضميره المتصل في غير المواضع المستثناة.

وجوابه: أن «عَنْ» هنا اسم كهي في قوله: [الكامل]

٤٧٩٠ ـ دَعْ عَنْكَ نَهْباً صِيحَ في حَجَراتِهِ ....[2]

وقد تقدم هذا والاعتراض عليه بقوله: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٥] ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ [القصص: ٣٢]، والجواب هناك.

فصل في معنى الآية

معنى الآية: لم يدفع نوح، ولوط مع كرامتهما على الله تعالى عن زوجتيهما لما عصيا شيئاً من عذاب اللَّه تنبيهاً بذلك على أنَّ العذاب يدفع بالطَّاعة، لا بالوسيلة.

وقيل: إن كفار مكة استهزءوا وقالوا: إنَّ محمداً يشفع لنا، فبين تعالى أن الشفاعة لا تنفع كفار «مكة»، وإن كانوا أقرباء كما لا ينفع شفاعة نوح امرأته، وشفاعة لوط لامرأته مع قربهما له لكفرهما.

﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ﴾ في الآخرة كما يقال لكفار مكة وغيرهم. قطع الله

= وأخرجه الطبري (١٢/ ١٦١) عن الضحاك.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٧) عن أشرس الخراساني مرفوعاً وعزاه إلى ابن عساكر.

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٥، والبحر المحيط ٨/ ٢٨٩، والدر المصون ٦/ ٣٣٨.

(٢) تقدم.

بهذه الآية طمع من يرتكب المعصية أن ينفعه صلاح غيره، ثم أخبر أن معصية غيره لا تضره إذا كان مطيعاً.

قوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾.

واسمها آسية بنت مزاحم.

قال يحيى بن سلام: قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مثل ضربه الله يحذر به عائشة، وحفصة في المخالفة حين تظاهرتا عليه ﷺ ثم ضرب الله لهما مثلاً بامرأة فرعون ومريم ابنة عمران ترغيباً في التمسك بالطاعة، والثبات على الدين.

وقيل: هذا حث للمؤمنين على الصبر في الشدة، أي: لا تكونوا في الصبر عند الشدة أضعف من امرأة فرعون حين صبرت على أذى فرعون.

قال المفسرون: لما غلب موسى السحرة آمنت امرأةُ فرعون.

وقيل: هي عمة موسى آمنت به، فلما تبين لفرعون إسلامها أوتد يديها ورجليها بأربعة أوتاد، وألقاها في الشمس، وألقى عليها صخرة عظيمة، فقالت: «ربِّ نَجِّنِي مِنْ فرعَونَ وعمله». فرمى بروحها في الجنة، فوقعت الصخرة على جسد لا روح فيه.

وقال الحسنُ: رفعها تأكل في الجنة، وتشرب(١).

قال سلمان الفارسي: كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس، فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة(٢).

قوله: ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ﴾.

منصوب بـ «ضرب»، وإن تأخر ظهور الضرب.

ويجوز أن ينتصب بالمثل.

قوله: ﴿عِندَكَ﴾.

يجوز تعلقه بـ «ابْنِ»، وأن يتعلق بمحذوف على أنه حال من «بَيْتاً» كان نعته فلما قدم نصب حالاً.

و ﴿فِى ٱلْجَنَّةِ﴾.

إما متعلق بـ «ابْنِ» وإما بمحذوف على أنه نعت لـ «بَيْتاً».

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٣٢).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٦٢) والحاكم (٢/ ٤٩٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٢٤٤) رقم (١٦٣٧) عن سلمان وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٧) وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر.

فصل في قصة امرأة فرعون

قال المفسرون[١]: لما كانت تعذب في الشمس، وأذاها حرّ الشمس «قالت: ربِّ ابْنِ لِي عندكَ بيتاً في الجنَّةِ» فوافق ذلك حضور فرعون، فضحكت حين رأت بيتها في الجنة، فقال فرعون: لا تَعْجبُوا من جُنُونهَا أنَا أعذِّبُها وهي تضحك، فقبض رُوحها.

وروي أنه وضع على ظهرها رحى فأطلعها اللَّهُ، حتى رأت مكانها في الجنَّة، وانتزع روحها، فألقيت عليها صخرة بعد خروج روحها فلم تجد ألماً.

وقال الحسن وابن كيسان: رفع الله امرأة فرعون إلى الجنة، فهي فيها تأكل، وتشرب، وتتنعم.

قوله: ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾.

تعني بالعمل: الكفر.

وقيل: «من عمله»، أي: من عذابه وظلمه.

وقال ابن عباس: الجماع[٢].

﴿وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، أي: الكافرين.

قال الكلبيُّ: أهل «مصر»[٣].

وقال مقاتل: القبط[٤].

قوله: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾.

عطف على ﴿ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾.

ضرب الله المثل للكافرين بامرأتين، وللمؤمنين بامرأتين.

وقال أبو البقاء[٥]: «ومَرْيَمَ» أي: «واذكر مريم».

وقيل: أو «ومثل مريم».

وقرأ العامة: «ابْنَة» بنصب التاء.

وأيوب[٦] **السختياني**: بسكون الهاء، وصلاً، أجرى الوصل مجرى الوقف.

والعامة أيضاً: «فَنَفَخْنَا فيْهِ» أي: في الفرجِ.

---

(١) ينظر: القرطبي ١٨/ ١٣٢.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٨) وعزاه إلى وكيع في «الغرر».

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٣٢). (٤) ينظر تفسير القرطبي (١٨/ ١٣٢).

(٥) ينظر: الإملاء ٢/ ٢٦٥.

(٦) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٩٠، والدر المصون ٦/ ٣٣٩.

وعبد الله[١]: «فِيهَا» أي: في الجملة. وقد تقدم في «الأنبياء»[٢] مثله.

والعامة أيضاً: «وصَدَّقتْ» بتشديد الدال.

ويعقوب وقتادة وأبو مجلز، وعاصم[٣] **في رواية**: بتخفيفها، أي: صدقت فيما أخبرت به من أمر عيسى.

والعامة على: «بِكَلمَاتِ» جمعاً.

والحسن ومجاهد والجحدري: «بِكلمَةِ» بالإفراد[٤].

فقيل: المراد بها عيسى؛ لأنه كلمةُ الله.

فصل في مريم ابنة عمران

ضرب الله مثلاً بمريم ابنة عمران وصبرها على أذى اليهود.

وقوله: ﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ عن الفواحش.

وقال المفسرون هنا[٥]: أراد بالفرج الجيب، لقوله ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ وجبريل ـ عليه السلام ـ إنما نفخ في جيبها ولم ينفخ في فرجها.

وهي[٦] **في قراءة أبيّ**: «فنفخنا في جيبها من روحنا»، وكل خرق في الثوب يسمى فرجاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾.

ويحتمل أن يكون أحصنت فرجها ونفخ الروح في جيبها.

ومعنى «فَنَفَخْنَا» أرسلنا جبريل فنفخ في جيبها «مِنْ رُوحِنَا» أي: روحاً من أرواحنا وهي روح عيسى، وقوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا﴾ أي: قول جبريل لها: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٩] الآية.

وقال مقاتل: يعني بالكلمات عيسى، وأنه نبيّ وعيسى كلمة الله[٧] كما تقدم.

وقيل: ﴿بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا﴾ يعني الشرائع التي شرعها الله للعباد بكلماته المنزلة.

قوله: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾.

قرأ أهل «البَصْرة» وحفص: «وكُتُبِهِ» على الجمع.

وقرأ الأخرون[٨]: «وكِتَابِهِ» على التوحيد.

---

(١) ينظر السابق، والكشاف ٤/ ٥٧٣. (٢) آية رقم ٩١.

(٣) ينظر السابق، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٣٥، ٣٣٦.

(٤) ينظر السابق. (٥) ينظر: القرطبي ١٨/ ١٣٣.

(٦) ينظر السابق. (٧) ينظر تفسير القرطبي (١٨/ ١٣٢).

(٨) ينظر: السبعة ٦٤١، والحجة ٦/ ٣٠٤، وإعراب القراءات ٢/ ٣٧٦، وحجة القراءات ٧١٥، والعنوان ١٩٣، وشرح الطيبة ٦/ ٦١، وإتحاف ٢/ ٥٤٩.

والمراد منه الكثرة، فالمراد به الجِنس، فيكون في معنى كل كتاب أنزله الله تعالى.

وقرأ أبو رجاء[١]: «وَكُتْبِهِ» بسكون التاء، وهو تخفيف حسن.

وروي عنه[٢]: «وكَتْبِهِ» بفتح الكاف.

قال أبو الفضل: مصدر وضع موضع الاسم، يعني ومكتوبه.

فصل في المراد بالكتب

أراد الكتب التي أنزلتْ على إبراهيم، وموسى، وداود، وعيسى.

وقوله: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ﴾.

يجوز في «مِن» وجهان:

أحدهما: أنها لابتداء الغاية.

والثاني: أنها للتبعيض، وقد ذكرهما الزمخشريُّ، فقال[٣]: و «مِنْ» للتبعيض، ويجوز أن تكون لابتداء الغاية، على أنها ولدت من القانتين؛ لأنها من أعقاب هارون أخي موسى صلوات الله على نبيِّنا وعليهما وعلى سائر الأنبياء وآلهم.

قال الزمخشري[٤]: فإن قلت: لم قيل: ﴿مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ﴾ على التذكير؟.

قلت: القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين فغلب ذكوره على إناثه.

ويجوز أن يرجع إلى أهل بيتها، فإنهم كانوا مطيعين لله، والقنوت: الطاعة.

وقال عطاء: من المصلّين بين المغرب والعشاء[٥].

وعن معاذ بن جبلٍ: «أن النبي ﷺ قال لخديجة وهي تجود بنفسها: أتكرهين ما قد نزل بك، وقد جعل اللَّهُ في الكره[٦] خيراً، فإذا قدمت على ضراتك فأقرئيهنّ منِّي السَّلام مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم وكليمة ـ أو قال: حليمة ـ بنت عمران أخت موسى بن عمران، فقالت: بالرفاء والبنين يا رسول الله»[٧].

[قال ابن الأثير[٨]: الرفاء والبنين: الالتئام والاتفاق والبركة والنَّماء، وهو مهموز.

وذكره الهروي في «المعتلّ» قال: «وهو على معنيين:

أحدهما: الاتفاق وحسن الاجتماع، والآخر: من الهدوء والسكون، وأما المهموز

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٦، والبحر المحيط ٨/ ٢٩٠، والدر المصون ٦/ ٣٣٩.
(٢) ينظر السابق.
(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٧٣.
(٤) السابق.
(٥) ينظر تفسير القرطبي (١٨/ ١٣٢).
(٦) في أ: ذلك.
(٧) ينظر تفسير القرطبي (١٨/ ١٣٣).
(٨) ينظر النهاية ٢/ ٢٤٠.

فمن قولهم: رَفَأْتُ الثَّوب رفاءً، ورفوتُه رفواً» انتهى][١].

وروى قتادة عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ العَالمينَ أربعٌ: مَريَمُ ابْنَةُ عِمرانَ، وخَدِيجَةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ، وفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وآسيةُ بِنْتُ مُزاحِمٍ امرأةُ فِرْعَونَ»[٢].

روى الثعلبي عن أبيِّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورةَ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ أعطاهُ اللَّهُ تَوْبَةً نَصُوحاً»[٣].

---

(١) سقط من: أ.

(٢) تقدم.

(٣) تقدم وهو موضوع باطل.

سورة الملك

مكيةٌ، وتسمَّى الواقيةُ، والمنجّية، وتدعى في التوراة المانعةُ؛ لأنها تنقّي وتنجّي من عذاب القبر.

وعن ابن شهابٍ: أنه كان يسميها المجادلة؛ لأنها تجادل عن صاحبها في القبر.

وهي ثلاثون آية، وثلاثمائة كلمة، وألف وثلاثمائة حرفٍ.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾.

«تبارك» تفاعل من البركة وقد تقدم.

وقال الحسنُ: تقدّس(١).

وقيل: دام، فهو الدائم الذي لا أول لوجوده، ولا آخر لدوامه ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي: ملكُ السموات والأرض في الدنيا والآخرة.

وقال ابن عبَّاس: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾: يعزّ من يشاء، ويذل من يشاء، ويُحيي ويميت، ويغني ويفقر، ويعطي ويمنع(٢).

قال ابن الخطيب(٣): هذه اللفظة تستعمل لتأكيد كونه - تعالى - ملكاً ومالكاً كما يقال: بيد فلان الأمر، والنهي، والحل والعقد، ولا مدخل للجارحة.

قال الزمخشريُّ(٤): ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ كل موجود، وهو على كل ما لم يوجد قدير.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٣٤).

(٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/٤٦.

(٤) ينظر الكشاف ٤/ ٥٧٤.

قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. يدل على أن المعدوم شيء؛ لأن قدرة الله لا تتعلق بالموجود؛ لأن القدرة مؤثرة، والعدم نفي محض، فلا يكون أثراً لها، فوجب أن يكون المعدوم شيئاً.

فصل في أنه لا مؤثر إلا قدرة الله

احتج أهل السنة[١] بهذه الآية على أنه لا مؤثر إلا قدرة الله، وأبطلوا القول بالطَّبائع كقول الفلاسفة، وأبطلوا القول بالمتولدات كقول المعتزلة، وأبطلوا القول بكون العبد موجوداً لأفعالِ نفسيةِ، لقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فصل في وحدانية الله

دلّت هذه الآية على الوحدانية[٢]؛ لأنا لو قدرنا إلهاً ثانياً، فإما أن يقدر على إيجاد الشيء أولاً، فإن لم يقدر على إيجاد شيء لم يكن إلهاً، وإن قدر كان مقدور ذلك الإله الثاني شيئاً، فيلزم كون ذلك للإله الأول لقوله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيلزم وقوع مخلوق من خالقين، وهو محال؛ لأنه إذا كان كل واحد منهما مستقلاً بالإيجاد، ويلزم أن يستغنى بكلّ واحد منهما عن كل واحد منهما، فيكون محتاجاً إليهما وغنياً عنهما وذلك محال.

فصل في الرد على جهم

احتج جهم بهذه الآية على أنه تعالى ليس بشيء، فقال[٣]: لو كان شيئاً لكان قادراً على نفسه لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لكن كونه قادراً على نفسه محال، فيمتنع كونه شيئاً.

والجواب: لما دلّ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٠٩] على أنه ـ تعالى ـ شيء وجب تخصيص هذا العموم، فإذن دلّت هذه الآيةُ على أنَّ العامَّ المخصوص واردٌ في كتاب الله تعالى، ودلت على أن تخصيص العام بدليل العقل جائز، بل واقع.

قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾.

قيل: خَلَق الموت في الدنيا، والحياة في الآخرة، وقدم الموت على الحياة، لأن الموت إلى القهر أقرب، كما قدم البنات على البنين فقال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ [الشورى: ٤٩].

وقيل: قدمه؛ لأنه أقدم، لأن الأشياء في الابتداء كانت في حكم الموت كالنُّطف والتراب ونحوه.

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٤٧.

(٢) ينظر السابق.

(٣) ينظر السابق نفسه.

وقال قتادة: كان رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ اللَّه تعالى أذلَّ بَنِي آدَمَ بالموتِ، وجَعلَ الدُّنْيَا دَار حياةٍ ثُمَّ دَارَ مَوْتٍ، وجَعَل الآخِرةَ دَارَ جزاءٍ، ثُمَّ دَارَ بَقَاءٍ»[١].

وعن أبي الدَّرداء أن نبيَّ الله ﷺ قال: «لَوْلاَ ثلاثٌ ما طَأطَأ ابنُ آدَمَ رَأسهُ: الفَقْرُ، والمَرَضُ والمَوتُ»[٢].

وقيل: إنما قدم الموت على الحياة؛ لأن من نصب الموت بين عينيه، كان أقوى الدواعي له إلى العمل الصالح.

قال ابن الخطيب[٣]: قالوا: الحياة هي الصفة التي يكون الموصوف بها بحيث يصح أن يعلم ويقدر، واختلفوا في الموت.

فقيل: إنه عبارة عن عدم هذه الصفة، وقال أصحابنا: إنه صفة وجودية مضادة للحياة، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ﴾ والعدم لا يكون مخلوقاً، وهذا هو التحقيق.

وروى الكلبي عن ابن عبَّاسٍ: أن الله ـ تعالى ـ خلق الموت في صورة كبش أملح لا يمر بشيء، ولا يجد رائحته شيء إلاَّ مات، وخلق الحياة في صورة فرس بلقاء فوق الحمار ودون البَغْل لا تمر بشيء، ولا يجد رائحتها شيء إلا حيي[٤] على ما سيأتي.

قال ابن الخطيب[٥]: وهذا لا بد وأن يكون مقولاً على سبيل التمثيل، والتصوير، وإلا فالتحقيق ما ذكرنا.

فصل في الموت والحياة

حكى ابنُ عباس، والكلبي ومقاتلٌ: أن الموت والحياة يجسمان، فالموت في هيئة كبْش لا يمر بشيء، ولا يجد ريحه إلا مات، وخلق الحياة على صورة فرس أنثى بلقاءَ وهي التي كان جبريل والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يركبونها، خطوتُها أمدُ البصر فوق الحمار ودون البغل، لا تمر بشيء يجد ريحاً إلا يحيى، ولا تطأ على شيء إلا حيي[٦]، وهي التي أخذ السَّامري من أثرها، فألقاها على العِجْل فحيي. حكاه الثعلبي والقشيري عن ابن عباس، والماوردي[٧] معناه عن مقاتل والكلبي.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٦٤) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٢) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ينظر تفسير القرطبي (١٨/ ١٣٥).

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٤٨.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٣٥).

(٥) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ٤٨.

(٦) ينظر تفسير القرطبي (١٨/ ١٣٥).

(٧) ينظر: النكت والعيون ٦/ ٥.

وعن مقاتل: «خَلَقَ المَوْتَ» يعني: النُّطفة والعلقة والمُضغة، وخلق الحياة، يعني خلق إنساناً، ونفخ فيه الروح، فصار إنساناً[١].

قال القرطبيُّ[٢]: وهذا حسن، يدل عليه قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾. متعلق بـ «خلق».

وقوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ تقدم مثله في أول «هود» [الآية ٧].

وقال الزمخشريُّ هنا[٣]: «فإن قلت: من أين تعلق قوله ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، بفعل البلوى؟ قلت: من حيث إنه تضمن معنى العلم، فكأنه قيل: ليعلمكم أيكم أحسن عملاً، وإذا قلت: علمته أزيد أحسن عملاً أم هو؟ كانت هذه الجملة واقعة موقع الثَّاني من مفعوليه كما تقول: علمته هو أحسن عملاً، فإن قلت: أتسمي هذا تعليقاً؟.

قلت: لا، إنما التعليق أن يقع بعده ما يسد مسدَّ المفعولين جميعاً، كقولك: علمت أيهما عمرو، وعلمت أزيد منطلق، ألا ترى أنه لا فرق بعد سبق أحد المفعولين بين أن يقع ما بعده مصدراً بحرف الاستفهام وغير مصدر به، ولو كان تعليقاً لافترقت الحالتان كما افترقتا في قولك: عَلِمْتُ أزيدٌ منطلق، وعلمت زيداً منطلقاً».

قال شهاب الدين[٤]: «وهذا الذي منع تسميته تعليقاً سماه به غيره ويجعلون تلك الجملة في محل ذلك الاسم الذي يتعدى إليه ذلك الفعل، فيقولون في: «عَرفتُ أيُّهُمْ منطلقٌ»: إن الجملة الاستفهامية في محل نصب على إسقاط الخافضِ؛ لأن «نظر» يتعدى به».

فصل في اللام في قوله: ليبلوكم

قال الزَّجَّاجُ[٥]: اللام في «لِيَبْلوَكُمْ» تتعلق بخلقِ الحياة، لا بخلق الموت.

وقال الفراء والزجاج أيضاً[٦]: لم تقع البلوى على «أي» لأن فيما بين البلوى و «أي» إضمار فعل كما تقول: «بَلوْتُكمْ لأنْظُر أيكم أطوع»، ومثله قوله تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم: ٤٠]، أي: سلهم، ثم انظر أيهم فأيهم، رفع بالابتداء، والمعنى: ليبلوكم ليعلم، أو فينظر أيكم أحسن عملاً.

قال ابن الخطيب[٧]: «أيُّكُمْ» مبتدأ، لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله.

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٨/ ١٣٥).
(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٣٥.
(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٧٥.
(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٤٠.
(٥) ينظر: معاني القرآن ٥/ ١٩٧.
(٦) ينظر السابق، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ١٦٩.
(٧) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٥٠.

فصل في الابتلاء

الابتلاءُ: هو التجربة، والامتحان، حتى يعلم أنه هل يطيع، أو يعصي، وذلك في حق العالم بجميع المعلومات مُحَال، وقد تقدم تحقيق هذه المسألة في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ﴾ [البقرة: ١٢٤].

والحاصل أن الابتلاء من الله هو أن يعامل عبده معاملة تشبه المختبر.

فصل في تفسير الآية

قال السديُّ في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أكثر للموت ذكراً وأحسن استعداداً وأشد خوفاً وحذراً(١).

وقال ابن عمر: تلا النبي ﷺ «تَبارَكَ الذي بيدهِ المُلْكُ» حتَّى بلغ «أيُّكم أحسنُ عملاً» فقال: «أورعُ عن محَارمِ اللَّهِ، وأسرعُ في طاعةِ اللَّهِ»(٢).

وقيل: يعاملكم معاملة المختبر، فيبلو العبد بموت من يعز عليه ليبين صبره، وبالحياة ليبين شكره.

وقيل: خلق الله الموت للبعث، والجزاء، وخلق الحياة للابتلاء «وهُوَ العَزِيزُ» في انتقامهِ ممن عصاه «الغَفُورُ» لمن تاب.

فصل فيمن قالوا: إن فعل الله يكون لغرض

احتج القائلون(٣) بأنه تعالى يفعل الفعل لغرض بقوله: «لِيَبْلُوكُمْ» قالوا: وهذه اللام للغرض كقوله تعالى ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، والجواب: أن الفعل في نفسه ليس بالابتلاء، إلا أنه لما أشبه الابتلاء سمي به مجازاً، فكذلك هاهنا، إنه يشبه الغرض، وإن لم يكن في نفسه غرضاً فقدم حرف الغرضِ.

قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾.

يجوز أن يكون الموصول تابعاً للعزيز الغفورِ، نعتاً، أو بياناً أو بدلاً.

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ٤٠٨) رقم (١٠٧٨٨) عن السدي وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٢) وعزاه إلى ابن أبي الدنيا والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٢) ذكره الحافظ ابن حجر في «تخريج أحاديث الكشاف» (ص ـ ٨٦) وقال: رواه داود بن المحبر في «كتاب العقل» والحارث في «مسنده» والطبري وابن مردويه من طريقه عن عبد الواحد بن زيد عن كليب بن وائل عن ابن عمر وداود ساقط وأخرجه ابن مردويه من طريق محمد بن أنس عن سليمان بن عيسى عن الثوري عن كليب كذلك وإسناده أسقط من الأول.

(٣) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ٤٩.

وأن يكون منقطعاً عنه خبر مبتدأ، أو مفعول فعل مقدر.

وقوله: «طِبَاقاً» صفة لـ «سَبْعَ»، وفيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه جمع طبق، نحو: جبل وجبال.

والثاني: أنه جمع طبقة، نحو: رحبة ورحاب.

والثالث: أنه مصدر طابق، يقال: طَابَقَ مُطابَقَةً وطِبَاقاً.

ثم إما أن تجعل نفس المصدر مبالغة، وإما على حذف مضاف، أي: ذات طباق، وإما أن ينتصب على المصدر بفعل مقدر، أي: طوبقت طباقاً. من قولهم: طابق الفعل، أي: جعله طبقةً فوق أخرى.

روي عن ابن عباس: «طِبَاقاً»، أي: بعضها فوق بعض، والملتصق منها أطرافها[1].

قال القرطبيُّ[2]: وقيل: مصدر بمعنى المطابقة، أي: خلق سبع سمواتٍ، ويطبقها تطبيقاً أو مطابقة على طوبقت طباقاً؛ لأنه مفعول ثان، فيكون «خَلَقَ» بمعنى جعل وصيّر.

وقال أبان بن تغلب: سمعت بعض الأعراب يذم رجلاً، فقال: شره طباق، وخيره غير باق. ويجوز في غير القرآن «سَبْعَ سماواتٍ طباقٍ» بالخفض على النَّعت لـ «سماواتٍ» نظيره: ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ [يوسف: ٤٢].

فصل في الدلالة على القدرة

قال ابن الخطيب[3]: دلّت هذه الآية على القدرة من وجوه:

أحدها: من حيث بقاؤها[4] في جو الهواء متعلقة بلا عماد ولا سلسلة.

وثانيها: من حيث إن كل واحد منها اختصّ بمقدار معين مع جواز ما هو أزيد منه وأنقص.

وثالثها: أنه اختص كل واحد منها بحركة خاصة مقدرة بقدر معين من السرعة، والبطء إلى جهة معينة.

ورابعها: كونها في ذواتها محدثة، وكل ذلك يدل على إسنادها إلى قادر تام القدرة.

قوله ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾. «تَفاوتٍ» هو مفعول «ترى» و «مِنْ» مزيدة فيه. **وقرأ الأخوان**[5]: «تَفَوُّت» بتشديد الواو دون ألف.

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٢) وعزاه إلى عبد بن حميد عن ابن عباس.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٣٦.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٥٠.

(٤) يعني السماء.

(٥) ينظر: السبعة ٦٤٤، والحجة ٦/ ٣٠٥، وإعراب القراءات ٢/ ٣٧٨، وحجة القراءات ٧١٥، والعنوان ١٩٤، وشرح الطيبة ٦/ ٦٣، وشرح شعلة ٦٠٤، وإتحاف ٢/ ٥٥٠.

قال القرطبيُّ[(١)]: «وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه».

والباقون: بتخفيفها بعد ألف. وهما لغتان بمعنى واحد، كالتعهُّد والتَّعاهد والتَّظاهر والتَّظهُّر والتَّصغُّر والتَّصاغُر والتَّحمُّل والتَّحامُل والتَّضاعف والتضعف والتَّباعد والتبعُّد، قاله الفرَّاء[(٢)].

وقال الأخفش: «تَفَاوُتٍ» أجود؛ لأنهم يقولون: تفاوت الأمر، ولا يكادون يقولون: «تفوت».

واختيار أبي عبيد: «تفوت»، يقال: تفاوت الشيء إذا فات.

واحتج بما روي في الحديث: أنَّ رجُلاً تفوَّت على أبيهِ في مالهِ.

وقال عبد الرحمن بن أبي بكر: «أمثلي يتفوت عليه في ماله».

قال النحاس: وهذا مردود على أبي عبيد، لأن «يتفوت» أي: يضاف في الحديث، «تفاوُتٍ» في الآية أشبه، كما يقال: تباين، تفاوت الأمر إذا تباين، أو تباعد، أي: فات بعضها بعضاً نقله القرطبي[(٣)].

وحكى أبو زيد: تفاوت الشَّيء تفاوُتاً بضم الواو وفتحها وكسرها.

[والقياس][(٤)]: الضَّمُّ كالتقابل، والفتح والكسر شاذان.

والتفاوت: عدم التناسب؛ لأن بعض الأجزاء يفوت الآخر، وهذه الجملة المنفية صفة لقوله: «طِبَاقاً» وأصلها: ما ترى فيهن، فوضع مكان الضمير.

قوله: «ما ترى في خلقِ الرَّحمنِ» تعظيماً لخلقهن، وتنبيهاً على سبب سلامتهن، وهو أنه خلق الرحمن، قاله الزمخشري[(٥)].

وظاهر هذا أنها صفة لـ «طِبَاقاً»، وقام الظاهر فيها مقام المضمر، وهذا إنما يعرف في خبر المبتدأ، وفي الصلة على خلاف فيهما وتفصيل.

وقال أبو حيَّان[(٦)]: الظَّاهر أنه مستأنفٌ، وليس بظاهر لانفلات الكلام بعضه من بعض، و «خَلق» مصدر مضاف لفاعله والمفعول محذوف، أي: في خلق الرحمن السماواتِ، أو كل مخلوق، وهو أولى ليعم، وإن كان السياق مرشداً للأول.

فصل في معنى الآية

والمعنى ما ترى في خلق الرحمن من اعوجاج، ولا تناقض، ولا تباين، بل هي

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٣٦.
(٢) ينظر: معاني القرآن ٣/ ١٧٠.
(٣) ينظر: القرطبي ١٨/ ١٣٦.
(٤) في أ: والأفصح.
(٥) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٧٦.
(٦) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٩٢.

مستقيمة مستوية دالة على خالقها، وإن اختلفت صوره وقيل: المراد بذلك السماوات خاصة، أي: ما ترى في خلق السماوات[١] من عيب، وأصله من الفوت، وهو أن يفوت شيء شيئاً، فيقع الخَلَل لعدم استوائها يدل عليه قول ابن عباس: من تفرق.

وقال السديُّ: «مِنْ تفَاوُتٍ» أي: من اختلاف، وعيب بقول[٢] الناظر: لو كان كذا كان أحسن.

وقيل: «التفاوت» الفطور، لقوله بعد ذلك: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦٥].

قال القفَّالُ ـ رحمه الله ـ: ويحتمل أن يكون المعنى: «مَا تَرى في خَلْقِ الرَّحمنِ من تَفاوُتٍ» في الدلالة على حكم الصانع، وأنه لم يخلقها عبثاً.

فصل في الخطاب في الآية لمن؟

الخطاب في قوله تعالى ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ إما للرسول ﷺ أو لكل مخاطب، وكذا القول في قوله ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾، ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ﴾.

فصل فيما تدل عليه الآية

دلت هذه الآية على كمال علم اللَّه، وذلك أن الحسّ دل على أن هذه السماوات السبع أجسام مخلوقة على وجه الإحكام والإتقان، وكل فاعلٍ كان فعله محكماً متقناً، فلا بد وأن يكون عالماً، فدلت الآيةُ على كونه ـ تعالى ـ عالماً بالمعلومات بقوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ إشارة إلى كونها محكمة متقنة.

فصل فيمن اعتبر المعاصي ليست من خلق الله

احتج الكعبيُّ بهذه الآية على أن المعاصي ليست من خلق الله، قال[٣]: لأنه ـ تعالى ـ نفى التَّفاوت عن خلقهِ، وليس المرادُ نفي التفاوت في الصغر والكبر والنقص، والعيب، فوجب حمله على نفي التفاوت بين خلقه من حيث الحكمة، فدل من هذا الوجه على أنَّ أفعال العبادِ ليست من خلقه لما فيها من التَّفاوت الذي بعضه جهل، وبعضه سفه. والجواب: أنا نحمله على أن لا تفاوت فيها بالنسبة إليه من حيث إنَّ الكُلَّ يصح عنه بحسب القدرة والإرادة والداعية، وأنه لا يقبح منه شيء أصلاً.

---

(١) في أ: الرحمن.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٢) وعزاه إلى ابن المنذر عن السدي.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٥١.

فصل في السموات السَّبع

روى البغويُّ[(١)] عن كعب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: السماء الدنيا موج مكفوف، والثانية: مرمرة بيضاء، والثالثة: حديد، والرابعة: صُفْرٌ، وقال: نحاس، والخامسة: فضّة، والسادسة: ذهب، والسَّابعة: ياقوتة حمراء، وبين السماء السَّابعة إلى الحجب السبعة صحارى من نور[(٢)].

قوله ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾. مسبب عن قوله ﴿مَّا تَرَىٰ﴾.

و «كرتَيْنِ» نصب على المصدر كمرتين، وهو مثنّى لا يراد به حقيقته، بل التكثير بدليل قوله: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: مزدجراً وهو كليل، وهذان الوصفان لا يأتيان بنظرتين، ولا ثلاث، وإنما المعنى كرات، وهذا كقولهم: «لَبَّيْك وسعْديْكَ وحنَانيْكَ، ودَوالَيْك، وهَذاذَيْكَ» لا يريدون بهذه التثنية تشفيع الواحد، إنما يريدون التكثير أي: إجابة لك بعد أخرى. وإلا تناقض الغرض، والتثنية تفيد التكثير لقرينة كما يفيده أصلها وهو العطف لقرينة؛ كقوله: [البسيط]

٤٧٩١ ـ لَوْ عُدَّ قَبْرٌ وقَبْرٌ كانَ أكْرمَهُمْ ....[(٣)]

أي: قبور كثيرة ليتم المدح.

وقال ابن عطية[(٤)]: «كَرَّتَيْنِ» معناه: مرتين، ونصبها على المصدر.

وقيل: الأولى ليرى حسنها، واستواءها، والثانية لينظر كواكبها في سيرها، وانتهائها وهذا بظاهره يفهم التثنية فقط.

قوله: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾.

هذه الجملة يجوز أن تكون متعلقة لفعل محذوف يدلّ عليه «فارْجعِ البصَرَ» مضمناً معنى «انظُر»؛ لأنه بمعناه، فيكون هو المعلق.

وأدغم أبو عمرو[(٥)]: لام «هَلْ» في التاء هنا وفي «الحَاقَّة»[(٦)]، وأظهرهما الباقون، وهو المشهور في اللغة.

والفطور: جمع فطرٍ، وهو الشَّقُّ، يقال: فطره فانفطر، ومنه: فطر ناب البعير، كما يقال: شقّ، ومعناه: شق اللحم وطلع.

قال المفسرون[(٧)]: «الفُطُور» الصُدوع والشُقوق؛ قال الشاعر: [الوافر]

---

(١) ينظر: معالم التنزيل ٤/ ٣٧٠.
(٢) ينظر المصدر السابق.
(٣) تقدم.
(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٨.
(٥) ينظر: إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٥٥٠، غير أنه زاد فيمن أدغموا: «حمزة، والكسائي، وهشام».
(٦) آية (٨).
(٧) ينظر: القرطبي ١٨/ ١٣٦، ١٣٧.

٤٧٩٢ ـ شَقَقْتِ القَلْبَ ثُمَّ ذَرَرْتِ فِيهِ هَوَاكِ فَلِيطَ فالتَأمَ الفُطُورُ[١]

قوله: «ينقلبْ».

العامة: على جزمه على جواب الأمرِ.

والكسائي[٢] **في رواية برفعه**. وفيه وجهان:

أحدهما: أن يكون حالاً مقدرة.

والثاني: أنه على حذف الفاءِ، أي: فينقلب.

و «خَاسِئاً» حال وقوله: «وهُو حَسِيرٌ» حال، إما من صاحب الأولى، وإما من الضمير المستتر في الحال قبلها، فتكون متداخلة. وقد تقدّمتا «خاسئاً» و «حسير» في «المؤمنين» و «الأنبياء».

فصل في تفسير الآية

لما قال: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ كأنه قال بعده: ولعلك لا تحكم بمقتضى ذلك البصر الواحد، ولا يعتمد عليه لاحتمال وقوع الغلطِ في النظرة الواحدة، ولكن ارجع البصر، واردد النظر مرة أخرى، حتى يتيقّن لك أنه ليس في خلق الرحمن من تفاوت ألبتَّة.

قال القرطبي[٣]: أمر أن ينظر في خلقه ليعتبروا به، ويتفكَّروا في قدرته، فقال: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: ارددْ طرفك إلى السماء، ويقال: قلِّب بصره في السماء، ويقال: اجتهد بالنَّظر إلى السَّماء، والمعنى متقارب، وإنما قال: «فارْجع» ـ بالفاء ـ وليس قبله فعل مذكور؛ لأنه قال: «مَا تَرَى» والمعنى: انظر، ثم ارجع البصر هل ترى من فُطورٍ، قاله قتادة[٤].

قال مجاهد والضحاك: و «الفطور» الشقوق[٥].

وقال قتادة: من خلل[٦].

وقال السديُّ: من خروق[٧].

(١) قائله هو عبيد بن مسعود ينظر البحر ٨/ ٢٩٣ والدر المصون ٦/ ٣٤١، والقرطبي ١٨/ ١٣٧.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٩٣، والدر المصون ٦/ ٣٤١.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٣٦.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره». (١٨/ ١٣٦) عن قتادة.

(٥) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٥١) والقرطبي (١٨/ ١٣٦).

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٦٥) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٢) وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٧) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٥١) والقرطبي (١٨/ ١٣٦).

وقال ابن عبَّاس: مِنْ وهَنٍ(١).

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ في موضع المصدر؛ لأن معناه: رجعتين.

لأن الإنسان إذا نظر في الشَّيء مرتين ترى عينه ما لم تنظره مرة أخرى، فأخبر تعالى أنه وإن نظر إلى السماء مرَّتين لا يرى فيها عيباً، بل يتحيّر بالنظر إليها(٢).

وقال ابن الخطيب(٣): «معناه أنك إذا كررت نظرك لم يرجع إليك بصرك بما طلبته من وجدان الخلل، والعيب، بل يرجع إليك «خَاسِئاً» أي: مبعداً صاغراً عن أن يرى شيئاً من ذلك من قولك: خسأت الكلب إذا باعدته، وطردته».

وخسأ الكلب بنفسه، يتعدى ولا يتعدَّى، وانخسأ الكلب أيضاً، وخسأ بصره أيضاً خَسْأً وخسوءاً، أي: ستر.

قال ابن عبَّاسٍ: الخاسىء الذي لم يرَ ما يهوى(٤).

وقال المبردُ هاهنا: الخاسىء المبعد المصغر.

وقوله: «وهُو حَسِيرٌ» أي: قد بلغ الغاية في الإعياء، فهو بمعنى «فاعل» من الحسور الذي هو الإعياء، ويجوز أن يكون مفعولاً من حسرهُ بعدُ الشيء وهو معنى قول ابن عبَّاسٍ؛ ومنه قول الشاعر: [البسيط]

٤٧٩٣ ـ مَنْ مَدَّ طَرْفاً إلى ما فَوْقَ غَايَتِهِ ... إرتَدَّ خَسْآنَ مِنهُ الطَّرْفُ قَدْ حُسِرَا(٥)

يقال: حسر بصره يحسر حسوراً، أي: كلَّ وانقطع نظره من طول مدى، وما أشبه ذلك، فهو حسير ومحسور أيضاً.

قال الشاعر: [الطويل]

٤٧٩٤ ـ نَظَرْتُ إليهَا بالمُحَصَّبِ مِنْ مِنَى ... فَعَادَ إليَّ الطَّرْفُ وهوَ حَسِيرُ(٦)

وقيل هو النادم؛ قال: [الرمل]

٤٧٩٥ ـ مَا أنَا اليَوْمَ على شَيْءٍ خَلاَ ... يَا بْنَةَ القَيْنِ تولَّى بِحَسِرْ(٧)

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٦٥) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» وعزاه إلى الطبري.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨ ١٣٧. (٣) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٥٢.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٣٧). (٥) ينظر القرطبي ١٨/ ١٣٧.

(٦) ينظر القرطبي ١٨/ ١٣٧.

(٧) البيت للمرار ينظر اللسان (حسر) والقرطبي ١٨/ ١٣٧.

شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ
﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾
وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ
ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، أي: السماء القربى؛ لأنها أقرب السماوات إلى النَّاس، والمعنى: السَّماء الدُّنيا من النَّاس أي: الدنيا منكم لأنها «فعلى» تأنيث «أفعل» التفضيل، «بمصَابِيحَ» جمع مصباح وهو السِّراجُ، وسمى الكواكب مصابيح لإضاءتها وسماها زينة لأن الناس يزينون مساجدهم ودورهم بالمصابيح، فكأنه قال: ولقد زيَّنَّا سقف الدارِ التي اجتمعتم فيها بمصابيح الأنوار[١].

قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾.

الضمير في ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ يجوز فيه وجهان:

أظهرهما: أنه يعود على «مَصَابِيحَ».

قيل: وكيفية الرَّجْم أن توجد نار من ضوء الكواكب يرمي بها الشيطانُ، والكوكب في مكانه لا يرجم به. قاله أبو علي جواباً لمن قال: كيف تكون زينةً وهي رجوم لا تبقى؟.

قال المهدويُّ: وهذا على أن يكون الاستراق من موضع الكوكب.

والثاني: أن الضمير يعود على السماء، والمعنى: وجعلنا منها؛ لأن ذات السماء ليست للرجوم.

قاله أبو حيان[٢]. وفيه نظر لعدم عود الضمير على السَّماء.

قال القرطبي[٣]: والمعنى جعلنا شُهُباً، فحذف المضاف، بدليل قوله ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠]، قال: وعلى هذا فالمصابيح لا تزول ولا يرجم بها.

قال المهدويُّ: وهذا على أن يكون الاستراق دون موضع الكوكب.

قال القشيريُّ: وأحسن[٤] من قول أبي علي أن نقول: هي زينة قبل أن ترجم بها الشياطين.

والرجوم: جمع رجمٍ، وهو مصدر في الأصل أطلق على المرجوم به كضرب الأمير.

---

(١) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ٥٣.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٩٣.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٣٨.

(٤) في ب: وأمثل.

ويجوز أن يكون باقياً على مصدريته، ويقدر مضاف، أي: ذات رجوم.

وجمع المصدر باعتبار أنواعه، فعلى الأول يتعلق قوله: «للشَّياطينِ» بمحذوف على أنه صفة لـ «رُجُوماً».

وعلى الثاني: لا تعلق له؛ لأن اللام مزيدة في المفعول به، وفيه دلالة حينئذ على إعمال المصدر منوناً مجموعاً.

ويجوز أن تكون صفة له أيضاً كالأول، فيتعلق بمحذوف.

وقيل: الرجوم هنا الظنون، والشياطين: شياطين الإنس.

كما قال: [الطويل]

٤٧٩٦ ـ .... ومَا هُوَ عَنْهَا بالحَديثِ المُرَجَّمِ[(١)]

فيكون المعنى: جعلناها ظُنُوناً ورجوماً بالغيبِ، لشياطين الإنس، وهم الأحكاميون من المنجمين.

فصل في خلق النجوم

قال قتادةُ: خلق الله النُّجوم لثلاثٍ: زينة السَّماءِ ورجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يهتدى بها في البرِّ والبحرِ والأوقاتِ، فمن تأول فيها غير ذلك فقد تكلف ما لا علم له به، وتعدى، وظلم[(٢)].

وقال محمد بن كعب: والله ما لأحد من أهل الأرض في السماء نجم، ولكنهم يتَّخذون الكهانة، ويتَّخذون النُّجوم علةً[(٣)].

فصل

قال ابن الخطيب[(٤)]: ظاهر الآيةِ لا يدلّ على أن هذه الكواكب مركوزة في السماء الدنيا؛ لأن السماوات إذا كانت شفافة، فالكواكب سواء كانت في السماء الدنيا، أو في سماوات أخرى فوقها، فهي ولا بُد أن تظهر في السَّماء الدنيا، ولتلوح منها، فعلى التقدير تكون السماء الدنيا متزينة، واعلم أنَّ أصحاب الهيئةِ اتفقوا على أن هذه الكواكب مركوزة في الفلك الثامن الذي فوق كرات السياراتِ، واحتجوا أن بعض الثوابت في الفلك الثامن، فيجب أن تكون كلها هناك.

وإنما قلنا: إن بعضها في الفلك الثامن، لأن الكواكب القريبة من المنطقة تنكسف

---

(١) تقدم.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/١٦٦) وذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/١٣٨).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/١٣٨). (٤) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/٥٣.

بهذه السيارات، فوجب أن تكون الثوابت المنكسفة فوق السيارات الكاسفة وإنما قلنا: إن الثوابت لما كانت في الفلك الثَّامن وجب أن تكون كلها هناك؛ لأنها بأسرها متحركة حركة واحدة بطيئة في كل مائة سنة درجة واحدة، فلا بُدَّ وأن تكون مركوزةً في كرة واحدة.

قال ابن الخطيب[١]: وهذه استدلالاتٌ ضعيفة؛ فإنه لا يلزم من كون بعض الثَّوابت فوق السيارة كون كلها هناك؛ لأنه لا يبعد وجود كرة تحت كرة القمر، وتكون في النظر مساوية لكرة الثوابت، وتكون الكواكب المركوزة فيها مقارب القطبين مركوزة في هذه الكرة السفلية؛ إذ لا يبعد وجود كرتين مختلفتين بالصغر والكبر مع كونهما متشابهتين في الحركة، وعلى هذا التقدير لا يمتنع أن تكون المصابيح مركوزة في سماء الدنيا، فثبت بهذا ضعف مذاهب الفلاسفة.

فصل في سبب الرجوم

قال ابن الخطيب[٢]: يروى أن السبب في الرجوم أن الجن كانت تسمع خبر السماء فلما بعث محمدٌ ﷺ حرست السماء ورجمت الشياطين، فمن جاء منهم مسترقاً للسمع رمي بشهاب، فأحرقه لئلا ينزل به إلى الأرض، فيلقيه إلى النَّاس، فيختلط على النبي أمره، ويرتاب النَّاس بخبره. ومن النَّاس من طعن في هذا من وجوه:

أحدها: أن انقضاض الكواكب مذكور في كتب قدماء الفلاسفة، قالوا: إن الأرض إذا سخنت بالشمس ارتفع منها بخار يابس إذا بلغ النَّار التي دون الفلك احترق بها، فتلك الشعلة هي الشهاب.

وثانيها: أن الجن إذا شاهدوا جماعة منهم يسترقون، فيحرقون إن امتنع أن يعودوا لذلك.

وثالثها: أن ثُخْنَ السماء مسيرة خمسمائة سنةٍ، فالجن لا يقدرون على خرقها؛ لأنه تعالى نفى أن يكون فيها فطور، وثخنها يمنعهم من السمع لأسرار الملائكة من ذلك البعد العظيم، وإذا سمعوه من ذلك البعد، فهم لا يسمعون كلام الملائكة حال كونهم في الأرض.

ورابعها: أن الملائكة إنما اطلعوا على الأحوال المستقبلة، إما لأنهم طالعوها من اللوح المحفوظ، أو لأنهم نقلوها من وحي الله إليهم، وعلى التقديرين، فلم لم يسكتوا عن ذكرها حتى لا يمكنوا الجن من معرفتها.

---

(١) السابق.

(٢) السابق ٣٠/ ٥٤.

وخامسها: أن الشياطين مخلوقون من النار، والنار لا تحرق النار، بل تقويها.

وسادسها: إن كان هذا القذف لأجل النبوة فلم بقي بعدها؟.

وسابعها: أن هذه الرجوم إنما تحدث بالقرب من الأرض، لأنا نشاهدها بالعين، ومع البعد لا نشاهدها كما لا نشاهد حركات الكواكب.

وثامنها: إن كانت الشياطين ينقلون أخبار الملائكةِ عن المغيبات إلى الكهنة، فلم لا ينقلون أسرار المؤمنين إلى الكفار، حتى يتوصل الكفار بذلك إلى إلحاق الضرر بالمؤمنين؟.

وتاسعها: لم لم يمنعهم الله ابتداء من الصعود إلى السماء؟.

والجواب عن الأول: أنا لا ننكر أن هذه الشُّهب كانت موجودة قبل مبعث النبي ﷺ.

وعن الثاني: أنه إذا جاء القدر عمي البصر، فإذا قضى الله على طائفة منها بالحرق لطغيانها قيَّض الله لها من الدواعي ما يقدمها على العملِ المفضي إلى هلاكها.

وعن الثالث: أن نمنع كون ثخن الفلك ما ذكروه، بأن البعد بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام.

وعن الرابع: ما روى الزهري عن علي بن الحسين، عن علي بن أبي طالب قال: بينما النبي ﷺ جالساً في نفرٍ من أصحابه، إذ رمي بنجم فاستنار، فقال: مَا كُنْتُم تقُولُونَ فِي الجَاهليَّةِ إذَا حدث؟ قال: كنا نقول: يولد عظيم أو يموت عظيم فقال النبي ﷺ: «فإنَّها لا تُرْمَى لمَوْتِ أحدٍ، ولا لِحياتهِ، ولكِنَّ اللَّه ـ تعالى ـ إذا قَضَى الأمْرَ في السَّماءِ سبَّحتْ حملةُ العرشِ، ثُمَّ يُسبِّحُ أهلُ كُلِّ سماءٍ، وتسبِّحُ كُل سماءٍ، حتى ينتهي التَّسبيحُ إلى هذه السَّماءِ، ويَسْتخبرُ أهلُ السَّماءِ حملة العَرْشِ ماذا قال ربُّكُمْ؟ فيُخبرُونهُمْ، ولا يَزالُ يَنْتَهِي ذلِكَ الخَبَرُ من سماءٍ إلى سماءٍ إلى أن يَنْتَهِي الخبرُ إلى هذه السَّماءِ فتَخْطَفُهُ الجِنُّ فيُرمَونَ، فمَا جَاءُوا به فَهُوَ حَقٌّ، ولكنَّهم يزيدُون فِيهِ»[١].

وعن الخامس: أنَّ نار النجومِ[٢] قد تكون أقوى من نارِ الجن.

وعن السادس: أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أخبر ببطلان الكهانةِ، فلو لم ينقطعوا لعادت الكهانة، وذلك يقدح في خبر الرسولِ عليه الصلاة والسلام.

وعن السابع: أن البعد غير مانع من السماءِ عندنا.

وعن الثامن: لعله تعالى أقدرهم على استماع الغيوب عن الملائكة، وأعجزهم عن إيصال أسرار المؤمنين إلى الكافرين.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٨) والبيهقي (٨/ ١٣٨) عن ابي عباس.

(٢) في أ: الرجوم.

وعن التاسع: أن الله يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾. لما ذكر منافع الكواكب، وذكر من جملة تلك المنافع أنها رجوم للشياطين قال بعد ذلك: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾، أي: وأعتدنا للشَّياطين بعد الإحراق بالشُّهب في الدنيا عذاب السَّعير في الآخرة، وهو أشدُّ الحريقِ.

قال المبردُ: سعرت النَّار فهي مسعورة وسعير، مثل قوله: مقتولة وقتيل.

وهذه الآية تدل على أن النَّار مخلوقة؛ لأن قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ خبر عن الماضي.

قوله: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ خبر مقدم في قراءة العامة، و «عذابُ جهنَّم» مبتدؤه.

وفي قراءة الحسن والأعرج(١) **والضحاك**: بنصب «عَذابَ» فيتعلق بـ «أعْتَدْنَا» عطفاً على «لَهُمْ» و «عَذابَ جهنَّم» عطف على «عَذابَ السَّعيرِ»، فعطف منصوباً على منصوب، ومجروراً على مجرور، وأعاد الخافض، لأن المعطوف عليه ضمير.

والمخصوص بالذَّم محذوف، أي: وبئس المصير مصيرهم، أو عذاب جهنَّم، أو عذاب السَّعير.

فصل في معنى الآية

والمعنى لكل من كفر بالله من الشياطين وغيرهم عذاب جهنم؛ ليبين أن الشياطين المرجومين مخصوصون بذلك، ثم إنه ـ تعالى ـ وصف ذلك العذاب بصفات، أولها قوله تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا﴾ يعني الكفار ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟﴾ طرحوا كما يطرح الحطب في النار العظيمة ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا﴾ أي: صوتاً.

قال ابن عباس: الشَّهيق لجهنم عند إلقاء الكُفار فيها كشهيق البغلةِ للشعير(٢).

وقال عطاءٌ: الشَّهيق من الكُفَّار عند إلقائهم في النار(٣).

وقال مقاتلٌ: سمعُوا لجهنم شهيقاً(٤).

قال ابن الخطيب(٥): ولعل المراد تشبيه صوت لهبِ النَّار بالشهيق، وهو كصوت الحمار.

وقال المبرد: هو ـ والله أعلم ـ تنفس كتنفس التغيُّظ.

قال الزجاجُ(٦): سمع الكُفَّار للنار شهيقاً، وهو أقبح الأصوات.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٩، والبحر المحيط ٨/ ٢٩٤، والدر المصون ٦/ ٣٤٢.
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٣٨) عن ابن عباس.
(٣) ينظر المصدر السابق.
(٤) ينظر تفسير القرطبي (١٨/ ١٣٨) عن ابن عباس.
(٥) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٥٦.
(٦) ينظر: معاني القرآن ٥/ ١٩٩.

وقيل: سمعوا من أنفسهم شهيقاً، كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦].

قوله: «لَهَا» متعلق بمحذوف على أنه حال من «شَهيقاً» لأنه في الأصل صفته، ويجوز أن يكون على حذف مضاف، أي: سمعوا لأهلها، وهي تَفُور: جملة حالية.

فصل في معنى الشهيق والزفير

قال القرطبيُّ[(١)]: «والشهيق في الصدر، والزفير في الحلق، وقد مضى في سورة «هود»».

وقوله: ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾. أي: تغلي؛ ومنه قول حسَّان: [الوافر]

٤٧٩٧ ـ تَـرَكْـتُـمْ قِـدْركُـمْ لا شيءَ فِـيـهَـا وقِـدْرُ الـقَـوْم حَـامِـيَـةٌ تَـفُـورُ[(٢)]

قال مجاهد: تفور كما يفور الحب القليل في الماء الكثير[(٣)].

وقال ابن عباس: تغلي بهم على المراجل، وهذا من شدّة لهب النار من شدّة الغضب كما تقول: فلان يفور غيظاً[(٤)].

قوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾.

قرأ العامة: «تَميَّزُ» بتاء واحدة مخففة، والأصل «تتميَّز» بتاءين، وهي قراءة[(٥)] طلحة.

والبزي عن ابن كثير: بتشديدها، أدغم إحدى التاءين في الأخرى.

وهي قراءة حسنة لعدم التقاء الساكنين بخلاف قراءته ﴿إِذ تَّلَقَّوْنَهُ﴾ [النور: ١٥]، و ﴿نَارًا تَّلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤] وبابه.

وأبو عمرو: يدغم الدَّال في التاء على أصله في المتقاربين[(٦)].

وقرأ الضحاك[(٧)]: «تَمَايَزُ» **والأصل**: «تتمايزُ» **بتاءين، فحذف إحداهما.**

وزيد[(٨)] **بن علي**: «تَمِيزُ» من «مَازَ».

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٣٨.

(٢) ينظر القرطبي ١٨/ ١٣٨، وشرح ديوان حسان بن ثابت ص ٢٤٩.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٦٧) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٣) وعزاه إلى هناد وعبد بن حميد.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٣٨).

(٥) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٩، والبحر المحيط ٨/ ٢٩٤، والدر المصون ٦/ ٣٤٢.

(٦) ينظر: كتاب الإدغام الكبير ١٢٠.

(٧) ينظر: القراءة السابقة.

(٨) وهي قراءة ابن أبي عبلة كما في: البحر المحيط ٨/ ٢٩٤، وينظر: الدر المصون ٦/ ٣٤٢.

وهذا كله استعارة من قولهم: تميز فلان من الغيظ، أي: انفصل بعضه من بعض من الغيظ، فمن سببية، أي: بسبب الغيظ، ومثله في وصف كَلْب، أنشد عروة: [الرجز]

٤٧٩٨ ـ .... يَكَادُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ إهَابِهِ[1]

قال ابن الخطيب[2]: ولعل سبب هذا المجاز أن دم القلب يغلي عند الغضب، فيعظم مقداره، فيزداد امتلاء العروق، حتَّى تكاد تتمزَّق.

فإن قيل: النَّار ليست من الأحياء، فكيف توصف بالغيظ؟.

قال ابن الخطيب: والجواب: أن البنية عندنا ليست شرطاً للحياة، فلعل الله ـ تعالى ـ يخلق فيها وهي نار حياة، أو يكون هذا استعارة يشبه صوت لهبها وسرعة مبادرتها بالغضبان وحركته، أو يكون المراد الزبانية.

فصل في تفسير الآية

قال سعيد بن جبير «تكادُ تميَّزُ مِنَ الغيْظِ» يعني تنقطع، وينفصل بعضها من بعض[3].

وابن عباس والضحاك وابن زيد: تتفرق من الغيظ من شدة الغيظ على أعداء الله تعالى[4].

قوله: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾. تقدم الكلام على «كُلَّمَا». وهذه الجملة يجوز أن تكون حالاً من ضمير جهنم.

والفَوْج: الجماعة من الناس، والأفْوَاج: الجماعات في تفرقة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ والمراد هنا بالفوج جماعة من الكفار ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ وهم مالك، وأعوانه سؤال توبيخ وتقريع ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾، أي: رسول في الدنيا ينذركم هذا اليوم، حتى تحذروا.

قال الزَّجَّاج[5]: وهذا التوبيخُ زيادة لهم في العذاب.

قوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾. فيه دليل على جواز الجمع بين حرف الجواب، ونفس الجملة المجاب بها إذ لو قالوا: بلى، لفهم المعنى، ولكنهم أظهروه تحسراً وزيادة في تغميمهم على تفريطهم في قبول قول النذير؛ فعطفوا عليه: «فكَذَّبْنَا» إلى آخره.

---

(١) ينظر شرح المفصل لابن يعيش ٧/ ١٣٢، والدر المصون ٦/ ٣٤٣.

(٢) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ٥٦.

(٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٦٧) عن ابن عباس والضحاك وابن زيد.

(٥) ينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٩٩.

قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ ظاهره أنه من مقول الكفار للنذير، أي: قلنا: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ من شَيءٍ» أي: على ألسنتكم إن أنتم يا معشر الرسل ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ اعترفوا بتكذيب الرسلِ، ثم اعترفوا بجهلهم، فقالوا وهم في النار: «لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ» من النذر يعني: الرسل ما جاءوا به «أَوْ نَعْقِلُ» عنهم.

وجوز الزمخشريُّ أن يكون من كلام الرُّسل للكفرةِ، وحكاه الكفرة للخزنةِ، أي: قالوا لنا هذا فلم نقبلهُ(١).

قال ابن الخطيب(٢): يجوز أن يكون من كلام الخزنة للكفار، أي: لما قالوا ذلك الكلام قالت الخزنة لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾.

قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

قال ابن الخطيب(٣): احتجّ بهذه الآية من قال: إنَّ الدين لا يتم إلا بالتعليم؛ لأنه قدم السمع على العقل، فدل على أنه لا بد أولاً من إرشاد المرشد غلب عليه تأمل السامع فيما ندب العلم.

وأجيب: بأنه إنما قدم السمع؛ لأن الرسول إذا دعا، فأول المراتب أنه يسمع كلامه، ثم يتفكر فيه فلما كان السمع مقدماً على التعقل لا جرم قدم عليه في الذكر.

فصل فيمن فضل السمع على البصر

واحتج بهذه الآيةِ من قدم السمع على البصر، قالوا: لأنه جعل للسمع مدخلاً في الخلاص من النار، والفوز بالجنة، والبصر ليس كذلك، فوجب أن يكون السمع أفضل من البصر(٤).

قوله «بِذَنْبِهِمْ» وحّده؛ لأنه مصدر في الأصل، ولم يقصد التنويع بخلاف «بِذُنُوبِهِم» في موضع؛ ولأنه في معنى الجمع؛ ولأن اسم الجنس إذا أضيف عم.

فصل في المراد بالضلال الكبير

قال ابن الخطيب(٥): يحتمل أن يكون المراد من الضَّلال الكبير ما كانوا عليه في الدنيا من ضلالهم، ويحتمل أن يكون المراد بالضَّلال الهلاك، ويحتمل أن يكون قد سمى عقاب الضلال باسمه.

فصل في الرد على المرجئة

احتجت المرجئةُ بهذه الآية على أنه لا يدخل النارَ إلا الكفار قالوا(٦): لأنه تعالى

(١) ينظر: الكشاف ٤/٥٧٨.
(٢) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/٥٧.
(٣) ينظر السابق.
(٤) السابق ٣٠/٥٨.
(٥) السابق ٣٠/٥٧.
(٦) ينظر السابق.

حكى عن كل من ألقي في النار أنهم قالوا: فكذبنا النذير، وهذا يدل على أن من لم يكذب الله ورسوله لا يلقى في النار، وظاهر هذه الآية يقتضي القطع بأن الفاسق المصرَّ لا يدخل النار، وأجاب القاضي عنه: بأن النذير قد يطلق على ما في العقول من الأدلة المخوفة، وكل من يدخل النار مخالف للدليل.

فصل في معرفة الله بعد ورود السمع

واحتج بهذه الآية من قال: إن معرفة الله، وشكره لا يجبان إلا بعد ورود السمع، قالوا: لأنه تعالى إنما عذبهم؛ لأنه أتاهم النذير، فدل على أنه لو لم يأتهم النذير لم يعذبوا[١].

قوله: ﴿فَسُحْقًا﴾. فيه وجهان:

أحدهما: أنه منصوب على المفعول به، أي: ألزمهم الله سحقاً.

والثاني: أنه منصوب على المصدر، تقديره: «أسحقهم الله سحقاً» فناب المصدر عن عامله في الدعاء نحو «جَدْعاً له، وغفراً» فلا يجوز إظهار عامله.

واختلف النحاة: هل هو مصدر لفعل ثلاثي، أم لفعل رباعي، فجاء على حذف الزوائد.

فذهب الفارسي والزجاج إلى أنه مصدر «أسْحَقَهُ اللَّهُ» أي: أبعده.

قال الفارسي[٢]: فكان القياس إسحاقاً، فجاء المصدر على الحذف، كقوله: [الوافر]

٤٧٩٩ ـ .... وإنْ يَهْلِكْ فذلِكَ كانَ قَدْرِي[٣]

أي: تقديري.

والظاهر أن لا يحتاج إلى ذلك؛ لأنه سمع «سَحَقَهُ اللَّهُ» ثلاثياً؛ ومنه قول الشاعر: [الطويل]

٤٨٠٠ ـ يَجُولُ بأطْرَافِ البِلادِ مُغَرِّباً ... وتَسْحَقُهُ ريحُ الصَّبَا كُلَّ مَسْحَقِ[٤]

والذي يظهر أن الزجاج[٥] والفارسي إنما قالا ذلك فيمن يقول من العرب: أسحقه الله سحقاً.

---

(١) السابق نفسه. (٢) ينظر: الحجة للقراء السبعة ٦/ ٣٠٧.

(٣) عجز بيت ليزيد بن سنان وقيل لغيره وصدره:

وإنْ يبرأ فلم أنفث عليه

ينظر المفضليات (١٢٢)، والبحر المحيط ٨/ ٢٩٥ والقرطبي ١٨/ ١٣٩، والدر المصون ٦/ ٣٤٣.

(٤) ينظر القرطبي ١٨/ ١٣٩، وروح المعاني ٢٨/ ١٤، والبحر ٨/ ٢٩٥ والدر المصون ٦/ ٣٤٣.

(٥) ينظر: معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٩٩.

وقرأ العامة: بضم وسكون.

والكسائي وآخرون[١]: بضمتين.

وهما لغتان، والأحسن أن يكون المثقل أصلاً للمخفف، و «لأصْحابِ» بيان كـ ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]، وسقياً لَكَ.

وقال مكيٌّ[٢]: «والرفع يجوز في الكلام على الابتداء».

أي: لو قيل: «فسحق» جاز، لا على أنه تلاوة، بل من حيث الصناعة، إلاَّ أن ابن عطية قال ما يضعفه، فإنه قال[٣]: «فسحقاً، نصباً على جهة الدعاء عليهم، وجاز ذلك فيه وهو من قبل الله ـ تعالى ـ من حيث إن هذا القول فيهم مستقر أزلاً، ووجوده لم يقع ولا يقع إلا في الآخرة، فكأنه لذلك في حيز المتوقع الذي يدعى فيه كما تقول: سُحْقاً لزيد، وبُعْداً له، والنصب في هذا كله بإضمار فعل، فأما ما وقع وثبت، فالوجه الرفع، كما قال تعالى ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١] و ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وغير هذا من الأمثلة»، انتهى.

فضعف الرفع كما ترى؛ لأنه لم يقع، بل هو متوقع في الآخرة.

فصل

قال المفسِّرون[٤]: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، أي: فَبُعْداً لهم من رحمة الله.

وقال سعيد بن جبير، وأبو صالح: هو واد في جهنَّم يقال له: السحق[٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾، نظيره: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [ق: ٣٣] وقد

---

(١) ينظر: السبعة ٦٤٤، والحجة ٦/ ٣٠٧، وإعراب القراءات ٢/ ٣٧٩ وحجة القراءات ٧١٦، والعنوان ١٩٤، وشرح شعلة ٦٠٥، وإتحاف ٢/ ٥٥١.

(٢) ينظر: المشكل ٢/ ٧٤٥.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٤٠.

(٤) ينظر القرطبي ١٨/ ١٣٩.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٦٨) عن سعيد بن جبير وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٣) وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

مضى الكلام فيه. أي: يخافون الله ويخافون عذابه الذي هو «بالغَيْبِ» وهو عذاب يوم القيامة «ويَخْشَوْنَهُ» في دار التكليف، أي: يتقون جميع المعاصي.

قال ابن الخطيب(١): وفي الآية دليل على انقطاع وعيد الفساق، لأن من جاء يوم القيامة مع هذه الخشية بفسق، فله الأمران، وانقطاع الثَّواب بالعقاب باطلٌ بالإجماع، فتعين العكس.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو الجنَّة.

قوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ الأحسن أن يكون الخَبَر «لَهُمْ» و «مَغْفرةٌ» فاعل به، لأن الخبر المفرد أصل، والجار من قبيل المفردات، أو أقرب إليها.

قوله: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾.

اللفظ لفظ الأمر، والمراد به الخبر، يعني: إن أخفيتم كلامكم في أمر محمدٍ ﷺ أو جهرتم به، فإن اللَّه عليم بذات الصُّدور، يعني بما في القلوب من الخير والشر.

قال ابن عباس: نزلت في المشركين كانوا ينالون من النبيِّ ﷺ فيخبره جبريل فقال بعضهم لبعض: أسِرُّوا قولكم كي لا يسمع ربُّ محمدٍ، فنزلت: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ يعني وأسروا قولكم في أمر محمد(٢).

وقيل: إنه خطاب عام لجميع الخلق في جميع الأعمال، والمراد أن قولكم وعملكم على أي سبيل وجد، فالحال واحدة في علمه تعالى بها، فاحذروا من المعاصي سرًّا كما تحترزون عنها جَهْراً، فإن ذلك لا يتفاوت بالنسبة إلى علم اللَّهِ تعالى ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾. ما فيها كما يسمى ولد المرأة جنيناً في بطنها.

قوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾. في «مَنْ خَلَقَ» وجهان:

أحدهما: أنه فاعل «يَعْلَمُ» والمفعول محذوف، تقديره: ألا يعلم الخالق خلقه، وهذا هو الذي عليه جمهور الناسِ، وبه بدأ الزمخشريُّ(٣).

والثاني: أن الفاعل مضمر يعود على الباري تعالى، و «مَنْ» مفعول به، أي: لا يعلم الله من خلقه.

قال أبو حيَّان(٤): والظَّاهر أن «مَنْ» مفعول، والمعنى أينتفي علمه بمن خلقه، وهو الذي لطف علمه ودقّ، ثم قال: وأجاز بعض النحويين أن يكون «مَنْ» فاعلاً والمفعول محذوف، كأنه قال: ألا يعلم الخالق سرَّكُم، وجهركُم، وهو استفهام معناه الإنكار».

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٥٨/٣٠.

(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٣٧١/٤) والقرطبي (١٣٩/١٨).

(٣) ينظر: الكشاف ٥٧٩/٤. (٤) ينظر: البحر المحيط ٢٩٥/٨.

قال شهاب الدينِ(١): «وهَذَا الوجهُ الذي جعله هو الظاهر يعزيه الناس لأهل الزَّيْغ والبدع الدافعين لعموم الخلق لله تعالى، وقد أطنب مكي في ذلك، وأنكر على القائل به، ونسبه إلى ما ذكرت، فقال(٢): وقد قال بعض أهل الزيغِ: إن «مَنْ» في موضع نصب اسم للمسرين والمجاهرين ليخرج الكلام عن عمومه، ويدفعَ عموم الخلق عن الله تعالى، ولو كان كما زعم لقال: ألا يعلم ما خلق؛ لأنه إنما يقدم ذكر ما تكن الصدور فهو في موضع ما، ولو أتت «مَا» في موضع «مَنْ» لكان فيه أيضاً بيان العموم أن اللَّه خالق كل شيء من أقوال الخلق وأفعالهم أسروها، أو أظهروها خيراً كانت، أو شراً، ويقوي ذلك ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ولم يقل: عليم بالمسرين والجاهرين، ويكون «مَا» في موضع نصبٍ، وإنما تخرج الآية من هذا العموم إذا جعلت «ما» في موضع نصب اسماً للأناسِ المخاطبين قبل هذه الآيةِ، وقوله: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ يمنع من ذلك» انتهى.

قال شهاب الدين(٣): ولا أدري كيف يلزم ما قاله مكي بالإعراب الذي ذكره، والمعنى الذي أبداه، وقد قال بهذا القول أعني الإعراب الثاني جماعة من المحققين، ولم يبالوا بما ذكره لعدم إفهام الآية إياه.

قال الزمخشريُّ بعد كلام ذكره(٤): ثم أنكر أن يحيط علماً بالمضمر والمسر والمجهر «مَنْ خَلَقَ» الأشياء، وحاله أنه اللطيف الخبير المتصل علمه إلى ما ظهر من خلقه وما بطن، ويجوز أن يكون «مَنْ خَلَقَ» منصوباً بمعنى ألا يعلم مخلوقه وهذه حاله، ثم قال: فإن قلت: قدرت في «ألاَ يَعْلَمُ» مفعولاً على معنى ألا يعلم ذلك المذكور ما أضمر في القلب، وأظهر باللسان من خلق، فهلاً جعلته مثل قولهم: هو يعطي ويمنع؟ وهلا كان المعنى: ألا يكون عالماً من هو خالق؛ لأن الخلق لا يصلحُ إلا مع العلم؟ قلت: أبت ذلك الحال التي هي قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ لأنك لو قلت: ألا يكون عالماً من هو خالق وهو اللطيف الخبير لم يكن معنى صحيحاً؛ لأن «ألاَ يَعْلَمُ» معتمد على الحال، والشيء لا يوقف بنفسه، فلا يقال: ألا يعلم وهو عالم، ولكن ألا يعلم كذا، وهو عالم بكل شيء».

فصل في معنى الآية

معنى الآية: ألا يعلم السّر من خلق السر، يقول: أنا خلقت السر في القلب، أفلا أكون عالماً بما في قلوب العباد؟.

قال أهل المعاني(٥): إن شئت جعلته من أسماء الخالق ـ عزَّ وجلَّ ـ ويكون

---

(١) ينظر الدر المصون ٦/ ٣٤٤.
(٢) ينظر المشكل ٢/ ٧٤٦.
(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٤٤.
(٤) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٧٩.
(٥) ينظر: القرطبي ١٨/ ١٤٠.

المعنى: ألا يعلم الخالق خلقه، وإن شئت جعلته من أسماء المخلوق، والمعنى: ألا يعلم الله من خلق، ولا بد أن يكون الخالق عالماً بمن خلقه، وما يخلقه.

قال ابن المسيِّب: بينما رجل واقف بالليل في شجر كثير، وقد عصفت الريحُ، فوقع في نفس الرجل، أترى الله يعلم ما يسقط من هذا الورق؟ فنودي من جانب الغيضة بصوت عظيم: «ألاَ يَعْلَمُ من خلقَ وهُوَ اللَّطيفُ الخَبِيرُ»[١]؟.

وقال أبو إسحاق الإسفراييني: من أسماء صفات الذَّات ما هو للعلم، منها «العَلِيمُ»، ومعناه: تعميم جميع المعلومات، ومنها «الخَبِيرُ» ويختص بأن يعلم ما يكون قبل أن يكون ومنها «الحَكِيمُ» ويختص بأن يعلم دقائق الأوصاف، ومنها «الشَّهِيدُ»، ويختص بأن يعلم الغائِب والحاضر، ومعناه: ألاَّ يغيب عنه شيء، ومنها «الحافظ» ويختص بأنه لا ينسى شيئاً، ومنها «المُحصِي» ويختص بأنه لا يشغله الكثرة عن العلم مثل ضوء النور، واشتداد الريح، وتساقط الأوراق، فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات في كل ورقة، وكيف لا يعلم وهو الذي يخلق؟ وقد قال: «ألا يَعْلَمُ مَنْ خلقَ وهُوَ اللَّطيفُ الخَبِيرُ».

فصل

لما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ذكر الدليل على أنه عالم، فقال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ الآية، والمعنى: أن من خلق لا بُدَّ وأن يكون عالماً بما يخلقه، لأن الخلق هو الإيجاد والتكوين على سبيل القصد، والقاصد إلى الشيء لا بد وأن يكون عالماً بحقيقة ذلك المخلوق كيفية وكمية.

قال ابن الخطيب[٢]: فنقول: لو كان العبد موجداً لأفعال نفسه لكان عالماً بتفاصيلها، وهو غير عالم لأن التفاوت بين الحركةِ السريعةِ، والبطيئة إنما هو لتحلُّل السَّكناتِ، فالفاعل للحركة البطيئةِ قد يفعل حركة، وسكوناً، ولم يخطر بباله ذلك فَضْلاً عن كميته، ولأن المتحرك لا يعرف عدد أجزاء الحركات إلاَّ إذا عرف عدد الأحياز التي هي بين مبدأ المسافة ومنتهاها وذلك يتوقف على علمه بالجواهر المفردة التي تنتقل في تلك المسافة وعددها، وذلك غير معلوم، ولأنَّ النائم يتحرك مع عدم علمه؛ ولأن قوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ إنما يتصل بما قبله لو كان خالقاً لكل ما يفعلونه سرًّا وجهراً، وبما في الصدور.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون المراد ألا يعلم من خلق الأجساد؟.

فالجواب: أنه لا يجوز أن يكون المراد أن من فعل شيئاً يكون عالماً بشيء آخر.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٤٠). (٢) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٥٩.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

قيل: اللطيف: العالم.

وقيل: هو فاعل الأشياء اللطيفة التي يخفى علمها على أكثر الفاعلين، ولهذا يقال: إن لُطْف الله تعالى بعباده عجيب، والمراد به دقائق تدبيره لهم، وهذا أقرب وإلا لكان ذكر الخبير بعد تكراراً.

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ لما بين الدليل كونه عالماً بما يسرون وما يعلنون ذكر بعده هذه الآية على سبيل التهديد كقول السيد لعبده الذي أساء إليه سراً: يا فلانُ أنا أعلم سرك وعلانيتك، فاجلس في هذه الدار التي وهبتها منك، وكل هذا الخير الذي هيأته لك، ولا تأمن تأديبي، فكأنه تعالى يقول: يا أيها الكُفَّار أنا عالم بسركم وجهركم وضمائركم، فخافوني؛ فإن الأرض التي هي قراركم أنا ذللتها لكم، ولو شئت خسفت بكم.

والذَّلُولُ: المنقاد الذي يذلّ لك، والمصدر الذل وهو اللين والانقياد، أي: لم يجعل الأرض بحيث يمتنع المشي فيها بالحزونة والغلظة.

وقيل: يثبتها بالجبالِ لئلا تزول بأهلها، ولو كانت تتكفأ متمايلة لما كانت منقادة لنا.

وقيل: إشارة إلى التمكن من الزرعِ، والغرس، وشق العيون، والأنهار، وحفر الآبار، وبناء الأبنية، ولو كانت صلبة لتعذر ذلك.

وقيل: لو كانت مثل الذَّهب والحديد لكانت تسخن جداً في الصيف، وكانت تبرد جداً في الشتاء[(١)].

قوله: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾. هذه استعارة حسنة جداً.

وقال الزمخشري[(٢)]: مثل لفرط التذليل، ومجاوزته الغاية؛ لأن المنكبين وملتقاهما من الغارب أرق شيء من البعير، وأنهاه عن أن يطأه الراكب بقدمه، ويعتمد عليه، فإذا جعلها في الذل بحيث يمشي في مناكبها لم يترك.

فصل في هذا الأمر

هذا أمر إباحة، وفيه إظهار الامتنان.

وقيل: هو خبر بلفظ الأمر، أي: لكي تمشوا في أطرافها، ونواحيها، وآكامها وجبالها.

---

(١) ينظر: القرطبي ١٨/ ١٤٠.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٨٠.

وقال ابنُ عبَّاسٍ وقتادة وبشير بن كعب: «فِي مَنَاكِبِهَا» في جبالها(١).

وروي أن بشير بن كعب كانت له سرية فقال لها: إن أخبرتيني ما مناكب الأرض فأنت حرة. فقالت: مناكبها: جبالها، فصارت حُرَّة، فأراد أن يتزوجها، فسأل أبا الدرداء، فقال: «دَعْ ما يَرِيبُكَ إلى ما لا يَرِيبُكَ».

وقال مجاهد: في أطرافها(٢)، وعنه أيضاً: في طرفها وفجاجها(٣)، وهو قول السديِّ والحسن.

وقال الكلبيُّ: في جوانبها(٤). ومنكبا الرجل: جانباه، وأصل الكلمة: الجانب، ومنه منكب الرجل والريح النكباء، وتنكب فلان عن فلان.

يقول: امشُوا حيث أردتم، فقد جعلتها لكم ذلولاً لا تمتنع.

وحكى قتادةُ عن أبي الجلد: أن الأرض من أربعة وعشرون ألف فرسخ، فللسودان اثنا عشر ألفاً، وللروم ثمانية آلافِ، وللفرس ثلاثة الآفِ، وللعرب ألفٌ.

قوله: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾.

قال الحسن: ما أحله لكم.

وقيل: مما أنبته لكم.

وقيل: مما خلقه اللَّه لكم رزقاً من الأرض «وإليْهِ النُّشورُ» المرجع.

وقيل: معناه أن الذي خلق السماوات ولا تفاوت فيها، والأرض ذلولاً قادر على أن ينشركم، وإليه تبعثون من قبوركم.

قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

تقدم اختلاف القراء في الهمزتين المفتوحتين نحو ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ [البقرة: ٦] تخفيفاً وتحقيقاً وإدخال ألف بينهما وعدمه في سورة «البقرة».

وأن قنبلاً يقرأ هنا(٥): بإبدال الهمزة الأولى واواً في الوصل «وإليْهِ النشورُ وأمنتُمْ»،

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٦٨ ـ ١٦٩) عن ابن عباس وبشير بن كعب وقتادة.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٤) عن ابن عباس وزاد نسبته إلى ابن المنذر. وذكره أيضاً عن بشير بن كعب وعزاه إلى ابن المنذر.

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ١٦٩) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٤) وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٦٩). (٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٤٠).

(٥) وهي قراءة ابن كثير كما في: السبعة ٦٤٤، والحجة ٦/ ٣٠٥، وإعراب القراءات ٢/ ٣٧٩، وحجة القراءات ٧١٦، والعنوان ١٩٤، وشرح شعلة ٦٠٥، وإتحاف ٢/ ٥٥١.

وهو على أصله من تسهيل الثانية بين بين، وعدم ألف بينهما، وأما إذا ابتدأ، فيحقق الأولى، ويسهل الثانية بين بين على ما تقدم، ولم تبدل الأولى واواً، لزوال موجبه وهو انضمام ما قبلها، وهي مفتوحة نحو «مُوجِل، ويُؤاخِذكُم»، وقد مضى في سورة «الأعراف» عند قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم﴾ [الأعراف: ١٢٣]، وإنما عددناه تذكيراً، وبياناً.

قوله: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾. مفعول «أأمِنتُمْ» وفي الكلام حذف مضاف، أي: أمنتم خالق السماوات.

وقيل: «فِي» بمعنى «على»، أي: على السماء، كقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، أي: على جذوع النخل.

وإنما احتاج القائل بهذين إلى ذلك؛ لأنه اعتقد أن «مَنْ» واقعة على الباري، وهو الظاهر وثبت بالدليل القطعي أنه ليس بمتحيّز لئلا يلزم التجسيم، ولا حاجة إلى ذلك؛ فإن «مَنْ» هنا المراد بها: الملائكة سكان السماءِ، وهم الذين يتولّون الرحمة والنقمة.

وقيل: خوطبوا بذلك على اعتقادهم؛ فإن القوم كانوا مجسمة مشبِّهة، والذي تقدم أحسن.

قال ابن الخطيب[1]: هذه الآية لا يمكن إجراؤها على ظاهرها باتفاق المسلمين؛ لأن ذلك يقتضي إحاطة السَّماءِ به من جميع الجوانب، فيكونُ أصغر منها، والعرش أكبر من السماء بكثير، فيكون حقيراً بالنسبة إلى العرش، وهو باطل بالاتفاق، ولأنه قال: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٢] فلو كان فيهما لكان مالكاً لنفسه، فالمعنى: إما من في السموات عذابه، وإما أن ذلك ما كانت العرب تعتقد، وإما من في السماء سلطانه وملكه وقدرته، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] فإنَّ الشيء الواحد لا يكون دفعة واحدة في مكانين، والغرض من ذكر السَّماءِ تفخيم سلطان الله، وتعظيم قدرته، والمراد الملك الموكل بالعذاب، وهو جبريلُ يخسفها بإذن الله.

قوله: ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ و ﴿أَن يُرْسِلَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنهما بدلان من «مَنْ في السَّماءِ» بدل اشتمال، أي: أمنتم خسفه، وإرساله.

قاله أبو البقاء[2].

والثاني: أن يكون على حذف «مِنْ»، أي: أمنتم من الخسف والإرسال، والأول أظهر.

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٦١.

(٢) ينظر: الإملاء ٢/ ٢٦٦.

فصل

قال القرطبيُّ: ويحتمل أن يكون المعنى: أمنتم خالق من في السماء أن يخسف بكم الأرض كما خسفها بقارون «فإذا هِي تمُورُ» أي: تذهب وتجيء، والمور: الاضطراب بالذهاب والمجيء. قال الشاعر: [الطويل]

٤٨٠١ ـ رَمَيْنَ فأقْصَدْنَ القُلُوبَ ولَنْ تَرَى دَماً مَائِراً إلاَّ جرى في الحيَازِمِ[1]

جمع «حيزوم» وهو وسط الصدر.

وإذا خسف بإنسان دارت به الأرض، فهو المور.

قال ابن الخطيب: إن الله ـ تعالى ـ يحرك الأرض عند الخسف بهم حتى تضطرب وتتحرك، فتعلو عليهم وهم يخسفون فيها، فيذهبون والأرض فوقهم تمُور، فتقلبهم إلى أسفل السافلين.

قال القرطبي[2]: قال المحققُون: أمنتم من فوق السَّماء، كقوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢] أي: فوقها لا بالمماسة والتحيُّز، لكن بالقهر والتدبير.

وقيل: معناه: أمنتم من على السماء كقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾، أي: عليها، ومعناه أنه مدبرها، ومالكها كما يقال: فلان على «العراق»، أي: وليها وأميرها، والأخبار في هذا صحيحة، وكثيرة منتشرة مشيرة إلى العلوّ، لا يدفعها إلا ملحد، أو جاهل أو معاند، والمراد بها توقيره وتنزيهه عن السفل والتحت، ووصفه بالعلو والعظمة، لا بالأماكن والجهات والحدود؛ لأنها صفات الأجسام، وإنما ترفع الأيدي بالدعاء إلى السماء؛ لأن السماء مهبط الوحْي، ومنزل القطر، ومحل القدس، ومعدن المطهرين من الملائكة، وإليها ترفع أعمال العباد، وفوقها عرشه وجنته كما جعل اللَّهُ الكعبة قبلة للصلاة، فإنه خلق الملائكة وهو غير محتاجٍ إليها، وكان في أزله قبل خلق المكان والزمان، ولا مكان له ولا زمان وهو الآن على ما عليه كان.

قوله ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ﴾.

قال ابن عباس: أي: حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوطٍ وأصحاب الفيل[3].

وقيل: ريح فيها حجارة وحصباء كأنها تقلع الحصباء، لشدتها وقوتها.

وقيل: سحاب فيه حجارة.

قوله ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾.

---

(١) ينظر القرطبي ١٨/ ١٤١.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٤١.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٤١).

قيل: هاهنا النذير: المنذر، يعني محمداً ﷺ وهو قول عطاء عن ابن عباس والضحاك، والمعنى: فستعلمون رسولي، وصدقه ولكن حين لا ينفعكم ذلك.

وقيل: إنه بمعنى الإنذار، والمعنى فستعلمون عاقبة إنذاري إياكم بالكتاب والرسول، وكيف في قوله ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [ينبىء][١] عن ما ذكرنا من صدق الرسول، وعقوبة الإنذار.

وقد تقدم أن «نَذِير، ونكير» مصدران بمعنى الإنذار؛ والإنكار.

وأثبت[٢] **ورش ياء** «نذيري» وقفاً، وحذفها وصلاً، وحذفها الباقون في الحالين.

قوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. يعني كفار الأمم كقوم نوح، وعاد، وثمود، وغيرهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري وتغييري: قاله الواحديُّ[٣].

وقال أبو مسلم: النكير عقاب المنكر، ثم قال: سقطت الياء من «نَذيرِي» ومن «نَكيرِي» حتى تشابه رءوس الآي المتقدمة عليها، والمتأخرة عنها.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾.

لما ذكر ما تقدم من الوعيد ذكر البرهان على كمال قدرته، وعلى إيصال جميع أنواع العذاب إليهم، ومعناه كما ذلل الأرض للآدمي ذلل الهواء للطيور، وصافاتٍ: أي: باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانهن.

قال شهاب الدين[٤]: «صافَّاتٍ» يجوز أن يكون حالاً من «الطَّير»، وأن يكون حالاً من «فَوقَهُمْ» إذا جعلناه حالاً، فتكون متداخلة، و «فَوقَهُمْ» ظرف لـ «صافَّاتٍ» أو لـ «يَرَوا».

قوله: «ويَقْبِضْنَ» عطف الفعل على الاسم؛ لأنه بمعناه، أي: وقابضات، فالفعل

---

(١) في أ: يعني.

(٢) ينظر: السبعة ٦٤٥، والحجة ٦/ ٣٠٨، وإعراب القراءات ٢/ ٣٨٠، والعنوان ١٩٤، وشرح الطيبة ٦/ ٦٤، وإتحاف ٢/ ٥٥١.

(٣) ينظر البحر المحيط ٨/ ٢٩٦.

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٤٥.

هنا مؤول بالاسم عكس قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟﴾ [الحديد: ١٨] فإن الاسم هناك مؤول بالفعل وقد تقدم الاعتراض على ذلك.

وقول أبي البقاء[1]: معطوف على اسم الفاعل حملاً على المعنى، أي: يصففن ويقبضن، أي: «صافَّاتٍ وقَابضاتٍ» لا حاجة إلى تقديره: يصففن ويقبضن؛ لأن الموضع للاسم فلا نؤوله بالفعل.

قال أبو حيان[2]: «وعطف الفعل على الاسم لما كان في معناه، ومثله قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا فَأَثَرْنَ﴾ [العاديات: ٣ ـ ٤]، ومثل هذا العطف فصيحٌ وكذا عكسه إلاَّ عند السُّهيلي؛ فإنه قبيح؛ نحو قوله: [الرجز]

٤٨٠٢ ـ بَاتَ يُغشِّيهَا بعَضْبٍ بَاتِرِ ... يَقْصِدُ فِي أسْوُقِهَا وجَائِرِ[3]

أي: قاصد في أسواقها وجائر».

وكذا قال القرطبيُّ[4]: هو معطوف على «صافَّاتٍ» عطف المضارع على اسم الفاعل كما عطف اسم الفاعل على المضارع في قول الشاعر: «بَاتَ يُغشِّيها» البيت.

قال شهاب الدين[5]: هو مثله في عطف الفعل على اسم الفاعل إلا أن الاسم فيه مؤولٌ بالفعل عكس هذه الآية، ومفعول «يقبِضنَ» محذوف، أي: ويقبضن أجنحتهن.

قاله أبو البقاء[6]، ولم يقدر لـ «صَافَّاتٍ» مفعولاً كأنه زعم أن الاصطفاف في أنفسها، والظاهر أن المعنى: صافات أجنحتها وقابضات، فالصف والقبض منها لأجنحتها.

ولذلك قال الزمخشري[7]: «صافَّاتٍ» باسطات أجنحتهن، ثم قال: فإن قلت: لم قال: ويقبضن، ولم يقل: «قابضات»؟.

قلت: لأن الطيران هو صف الأجنحة؛ لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها، وأما القبض فطارىء على البسط للاستظهار به على التحرك، فجيء بما هو طارىء غير أصل بلفظ الفعل على معنى أنهن صافات، يكون منهن القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح.

قوله «مَا يُمسِكُهُنَّ». يجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة، وأن تكون حالاً من

(١) ينظر الإملاء ٢/ ٢٦٦.
(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٩٧.
(٣) ينظر الخزانة ٢/ ٣٤٥ والعيني ٤/ ١٧٤، والصبان ٣/ ٢٠، والقرطبي ١٨/ ١٤٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٩٧، والدر المصون ٦/ ٣٤٦.
(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٤٢.
(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٤٦.
(٦) ينظر: الإملاء ٢/ ٢٦٦.
(٧) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٨١.

الضمير في «يَقْبِضنَ» قاله أبو البقاء[١]. والأول أظهر.

وقرأ الزهريُّ[٢]: بتشديد السِّين.

فصل في معنى: يقبضن

قوله: «ويَقْبِضْنَ». أي: يضربن بها لجنوبهن.

قال أبو جعفر النحاس: يقال للطائر إذا بسط جناحيه: صاف، وإذا ضمها فأصاب جنبه قابض، لأنه يقبضهما.

قال أبو خراش الشاعر: [الطويل]

٤٨٠٣ ـ يُبَادِرُ جُنْحَ اللَّيلِ فهو مُوائِلٌ يَحُثُّ الجَنَاحَ بالتَّبسُّطِ والقَبْضِ

وقيل: ويقبضن أجنحتهن بعد بسطها إذا وقفن من الطيران.

وقوله «ما يُمسِكُهنَّ» أي: ما يمسك الطير في الجو وهي تطير إلا الله عز وجل ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾.

قال ابن الخطيب[٣]: وفيه وجهان:

الأول: المراد من «البصير» كونه عالماً بالأشياء الدقيقة، كما يقال: فلان له بصر في هذا الأمر، أي: حذق.

والثاني: أن يجري اللفظ على ظاهره، فتقول: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ فيكون رائياً لنفسه، ولجميع الموجودات وهذا الذي يقوله أصحابنا: إنه تعالى شيء يصح أن يكون مرئياً، وأن كل الموجودات كذلك، فإن قيل: البصير إذا عدي بالباء يكون بمعنى العالم، يقال: فلان بصير بكذا إذا كان عالماً قلنا: لا نسلم، فإنه يقال: إن الله سميع بالمسموعات بصير بالمبصرات.

فصل

في قوله تعالى ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ دليل على أن الأفعال الاختيارية للعبد مخلوقة لله تعالى[٤]، لأن استمساك الطير في الهواء فعل اختياري له، وقد نسبه للرحمن.

قوله: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِى﴾.

قرأ العامة: بتشديد الميم على إدغام ميم «أمْ» في ميم «مَنْ» و «أمْ» بمعنى «بَلْ» لأن بعدها اسم استفهام، وهو مبتدأ، خبره اسم الإشارة.

---

(١) ينظر: الإملاء ٢/٢٦٦.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/٢٩٧، والدر المصون ٦/٣٤٦.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/٦٣. (٤) ينظر السابق.

وقرأ طلحة[١]: بتخفيف الأول وتثقيل الثاني.

قال أبو الفضل: معناه: أهذا الذي هو جند لكم، أم الذي يرزقكم. و «يَنْصُركُمْ» صفة لجند.

فصل في لفظ جند

قال ابن عباس: «جُندٌ لَكُمْ» أي: حزب ومنعة لكم «ينصُركُمْ من دُونِ الرَّحمَنِ»[٢]، فيدفع عنكم ما أراد بكم إن عصيتموه. ولفظ الجند يوحد، ولهذا قال: هذا الذي هو جند لكم، وهو استفهام إنكاري، أي لا جند لكم يدفع عذاب الله من دون الرحمن، أي: من سوى الرحمن ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ من الشيطان يغرهم بأن لا عذاب، ولا حساب.

قال بعض المفسرين[٣]: كان الكفار يمتنعون عن الإيمان، ويعاندون الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ معتمدين على شيئين:

أحدهما: قوتهم بعددهم ومالهم.

والثاني: اعتقادهم أن الأوثان توصل إليهم جميع الخيرات، وتدفع عنهم جميع الآفات فأبطل الله عليهم الأول بقوله ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُمْ﴾ الآية، ورد عليهم الثاني بقوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾ الآية.

قوله «إنْ أمسكَ رِزْقَهُ» شرط، جوابه محذوف للدلالة عليه، أي: أفمن يرزقكم غيره.

وقدّر الزمخشريُّ شرطاً بعد قوله: «أمَّنْ هذا الَّذي هُو جندٌ لَكُمْ» تقديره[٤]: «إن أرسل عليكم عذابه» ولا حاجة له صناعة.

فصل في معنى الآية

المعنى ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾ أي: يعطيكم منافع الدنيا.

وقيل: من آلهتكم «إنْ أمسَكَ» يعني الله تعالى رزقه وهذا مما لا ينكره ذو عقل، وهو أنه تعالى إن أمسك أسباب الرزق كالمطر، والنبات وغيرهما لما وجد رازق سواه فعند وضوح هذا الأمر قال تعالى: ﴿بَل لَّجُّواْ﴾، أي: تمادوا وأصروا «فِي عُتُوٍّ» طغيان «ونُفورٍ» عن الحق، أو تباعد أو إعراض عن الحق.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٤٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٩٧، والدر المصون ٦/ ٣٤٦.

(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٧٢) والقرطبي (١٨/ ١٤٢).

(٣) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ٣٦.

(٤) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٨١.

قوله: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ﴾. «مُكِبًّا» حال من فاعل «يمشي».

قال الواحديُّ[1]: «أكب»، مطاوع كبه، يقال: كببته فأكب.

قال الزمخشريُّ[2]: هو من الغرائب والشواذ، ونحوه قشعت الريح السحاب فأقشع، وما هو كذلك ولا شيء من بناء «أفعل» مطاوع، بل قولك: أكب، من باب «أنفض، وألأم» ومعناه: دخل في الكب، وصار ذا كب وكذلك أقشع السحاب دخل في القشع.

ومطاوع «كب، وقشع» انكب وانقشع.

قال أبو حيان[3]: «ومُكِباً» حال من «أكب» وهو لا يتعدى، و «كب» متعد، قال تعالى ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ [النمل: ٩٠] والهمزة فيه للدخول في الشيء، أو للصيرورة، ومطاوع كب انكب، تقول: كببته فانكب. قال الزمخشريُّ[4]: «ولا شيء من بناء «أفعل» مطاوعاً ولا يتقن نحو هذا إلا حملة كتاب سيبويه» انتهى.

وهذا الرجل يتبجح بكتاب سيبويه، وكم من نص في كتاب سيبويه عمي بصره وبصيرته عنه حتى إن الإمام أبا الحجاج يوسف بن معزوز صنف كتاباً يذكر فيه ما غلط الزمخشري فيه، وما جهله من كتاب سيبويه. انتهى.

قال شهاب الدين[5]: انظر إلى هذا الرجل كيف أخذ كلام الزمخشري الذي أسلفته عنه طرز به عبارته حرفاً بحرف ثم أخذ ينحي عليه بإساءة الأدب جزاء ما لقنه تلك الكلمات الرائقة، وجعل يقول: إن مطاوع «كَبَّ» «انكب» لا «أكب» وأن الهمزة للصيرورة، أو للدخول في الشيء، وبالله لو بقي دهره غير ملقن إياها لما قالها أبداً، ثم أخذ يذكر عن إنسان مع أبي القاسم كالسُّها مع القمر أنه غلطه في نصوص من كتاب سيبويه، والله أعلم بصحتها: [الوافر]

٤٨٠٤ ـ وكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلاً صَحِيحاً وآفَتُهُ مِنَ الفَهْمِ السَّقِيمِ[6]

وعلى تقدير التسليم، فالفاضل من عدت سقطاته.

قال القرطبيُّ[7]: يقال: أكب الرجل على وجهه فيما لا يتعدى بالألف، فإذا تعدى قيل: كبه الله على وجهه بغير ألف، وقوله: «أفَمَنْ يَمْشِي» هو المعادل لـ «أفَمَنْ يَمْشي مُكِبًّا».

---

(١) ينظر البحر المحيط ٨/ ٢٩٧.
(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٨٢.
(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٢٩٧.
(٤) تقدم.
(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٤٧.
(٦) البيت للمتنبي ينظر ديوانه ٢/ ٣٥٧، والدر المصون ٦/ ٣٤٧.
(٧) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٤٣.

وقال أبو البقاء[١]: «وأهْدَى» خبر «مَنْ يَمشِي» وخبر «من» الثانية محذوف.

يعني أن الأصل: أم من يمشي سوياً أهدى، ولا حاجة إلى ذلك؛ لأن قولك: أزيد قائم، أم عمرو لا يحتاج فيه من حيث الصناعة إلى حذف الخبر، نقول: هو معطوف على «زيد» عطف المفردات، ووحد الخبر لأن «أمْ» لأحد الشيئين.

فصل

قال المفسرون[٢]: «أفَمَنْ يَمْشِي مُكبًّا» منكساً رأسه لا ينظر أمامه، ولا يمينه، ولا شماله، فهو لا يأمن من العثور والانكباب على وجهه «كَمنْ يَمْشي سويًّا» مُعتدِلاً ناظراً ما بين يديه، وعن يمينه وعن شماله.

قال ابن عباسٍ: هذا في الدنيا، ويجوز أن يريد به الأعمى الذي لا يهتدي إلى طريق، فلا يزال ينكسه على وجهه، وأنه ليس كالرجل السوي الصحيح البصير الماشي في الطريق المهتدي له[٣].

قال قتادةُ: هو الكافر أكب على معاصي الله في الدنيا، يحشره الله يوم القيامة على وجهه[٤].

وقال ابن عباس والكلبيُّ: عنى بالذي يمشي على وجهه أبا جهل، وبالذي يمشي سوياً رسول الله ﷺ[٥].

وقيل: أبو بكر.

وقيل: حمزة.

وقيل: عمار بن ياسر.

قال عكرمة: وقيل: هو عام في الكافر والمؤمن، أي: إن الكافر لا يدري أعلى حق هو، أم على باطل، أي: هذا الكافر أهدى، أم المسلم الذي يمشي سوياً معتدلاً يبصر الطريق، وهو على صراطٍ مستقيمٍ وهو الإسلام[٦].

قوله ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾. أمر نبيه أن يعرفهم قبح شركهم مع اعترافهم أن الله خلقهم ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ يعني القلوب.

قوله «قَلِيلاً». نعت مصدر محذوف، أو حال من ضمير المصدر كما هو رأي سيبويه و «ما» مزيدة أي: تشكرون قليلاً، والجملة من «تَشْكُرون» إما مستأنفة، وهو الظاهر، وإما حال مقدرة؛ لأنهم حال الجعل غير شاكرين.

---

(١) ينظر: الإملاء ٢/٢٦٦. (٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/١٤٢.

(٣) ينظر: تفسير البغوي (٤/٣٧٢)، والقرطبي (١٨/١٤٢).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/١٧١ ـ ١٧٢).

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/١٤٣). (٦) ينظر المصدر السابق.

والمراد بالقلة العدم، أو حقيقتها، أي: لا تشكرون هذه النعم، ولا توحدون الله تعالى، تقول: قلَّما أفعلُ كذا، أي: لا أفعله.

قال ابن الخطيب[1]: وذكر السمع والبصر والفؤاد هاهنا تنبيهاً على دقيقه لطيفة، كأنه تعالى قال: أعطيتم هذه الأعضاء الثلاثة مع ما فيها من القوى الشريفة، فضيعتموها ولم تقبلوا ما سمعتموه ولا اعتبرتم بما أبصرتموه ولا تأملتم في عاقبة ما عقلتموه، فكأنكم ضيعتم هذه النعم، وأفسدتم هذه المواهب، فلهذا قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

قال ابن الخطيب[2]: اعلم أنه تعالى استدل بأحوال الحيوانِ أولاً، ثم بصفات الإنسانِ ثانياً، وهي السمع والبصر والعقل، ثم بحدوث ذاته ثالثاً، وهو قوله ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ واعلم أن الشروع في هذه الدلائل إنما كان لبيان صحة الحشر ليثبت ما ادعاه في قوله ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ولهذا ختم الآية بقوله ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ لأنه لما كانت القدرة على الخلق ابتداء توجب القدرة على الإعادة، فلهذا ختمها بقوله ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

فصل في معنى «ذرأكم»

قال ابن عباسٍ: خلقكم في الأرض[3].

وقال ابن بحر: نشركم فيها، وفرقكم فيها على ظهرها ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيجازي كلاً بعمله.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ (٢٧) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ (٣٠)﴾

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أي: متى يوم القيامة ومتى هذا العذابُ الذي تعدوننا به؟.

قال أبو مسلم: إنه تعالى قال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ بلفظ المستقبلِ، وهذا يحتمل ما يوجد من الكفار من هذا القول في المستقبل، ويحتمل

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٦٥.
(٢) السابق.
(٣) ينظر القرطبي (١٨/ ١٣٢).

الماضي، والتقدير: وكانوا يقولون: متى هذا الوعد، ولعلهم كانوا يقولون ذلك سخرية، واستهزاء، وكانوا يقولونه إيهاماً للضعفة، ثم إنه تعالى أجاب عن هذا السؤالِ، فقال ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: قل لهم يا محمد: علم وقت قيام الساعة عند الله فلا يعلمه غيره، نظيره: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧] الآية ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: مخوف ومعلم لكم، ثم إنه تعالى بين حالهم عند ذلك الوعد وهو قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: الموعود، أو العذاب زلفة، أي: قريباً، فهو حال.

وقال القرطبيُّ[١]: «مصدر، بمعنى مزدلفاً، أي: قريباً، قاله مجاهد»[٢].

ولا بد من حذف مضاف، أي: ذا زلفة، وجعل الزلفة مبالغة.

وقيل: «زُلْفَة» تقديره: مكاناً ذا زلفةٍ، فينتصب انتصاب المصدرِ.

فصل في المراد بالعذاب

قا الحسنُ: عياناً[٣]. وأكثر المفسرين على أن المراد عذابُ الآخرةِ.

وقال مجاهدٌ: عذاب يوم بدر[٤].

وقيل: رأوا ما يوعدون من الحشر قريباً منهم، لقوله ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

وقال ابن عباس: يعني علمهم الشيء قريباً.

قوله: «سِيئَتْ»، الأصل: «ساء» أحزن وجوههم العذاب، ورؤيته، ثم بني للمفعول، وساء هنا ليست المرادفة لـ «بئس» كما تقدم مراراً.

وأشم كسرة السين الضم[٥]: **نافع وابن عامر والكسائي**، كما فعلوا ذلك في ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾ [هود: ٨٧] في «هود» كما تقدم. والباقون: بإخلاص الكسر، وتقدم تحقيق هذا وتصريفه في أول «البقرة»، وأن فيه لغات عند قوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ١١].

فصل في معنى الآية

قال ابن عباس[٦]: «سِيئَتْ» أي: اسودت وعليها الكآبة والغبرة[٧].

---

(١) ينظر المصدر السابق.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٧٣) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٥) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٧٣).

(٤) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٧٣) عن مجاهد وذكره أيضاً القرطبي (١٨/ ١٤٣).

(٥) وكذلك أبو جعفر، والحسن، وابن كثير، وأبو رجاء، وشيبة، وابن وثاب وطلحة كما في: المحرر الوجيز ٥/ ٣٤٣، والبحر المحيط (٨/ ٢٩٨)، والدر المصون ٦/ ٣٤٨.

(٦) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٧٣) عن مجاهد، وذكره أيضاً القرطبي (١٨/ ١٤٣).

(٧) في ب: والقترة.

يقال: ساء الشيءُ يسوء، فهو مسيء إذا قبح، وساء يساء إذا قبح، وهو فعل لازم ومتعدّ ومعنى ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ﴾، أي: قبحت، بان عليها الكآبةُ، وغشيها الكسوفُ والقترة وكلحوا.

قال الزجاج[١]: تبين فيها السوء، أي: ساءهم ذلك العذاب وظهر على وجوههم سمة تدل على كفرهم، كقوله تعالى ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

قوله: ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾، أي: قال لهم الخزنة.

قال الفراء: «تفتعلون» من الدعاء. وهو قول أكثر العلماءِ، أي: تتمنون، وتسألون.

وقال ابن عباس: تكذبون[٢]، وتأويله: هذا الذي كنتم من أجله تدعون الأباطيل والأحاديث قاله الزجاج[٣].

وقرأ العامة: بتشديد الدال مفتوحة.

فقيل: من الدعوى، أي: تدعون أنه لا جنة ولا نار، قاله الحسنُ.

وقيل: من الدعاء، أي: تطلبونه وتستعجلونه.

وقرأ الحسنُ وقتادةُ وأبو رجاء[٤] والضحاك، ويعقوب وأبو زيد وأبو بكر وابن أبي عبلة ونافع في رواية الأصمعي: بسكون الدالِ، وهي مؤيدة للقول بأنها من الدعاء في قراءة العامة.

وقال قتادة: هو قولهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾[٥] [ص: ١٦].

وقال الضحاك: هو قولهم: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢] الآية.

وقال النحاس: تدَّعون، وتدْعون، بمعنى واحد، كما يقال: قدر واقتدر، وعدى واعتدى إلا أن في «افتعل» معنى شيء بعد شيء، و «فَعَل» يصح للقليل والكثير.

قوله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ﴾. أي: قل لهم يا محمد، يعني مشركي مكة وكانوا يتمنون موت محمد ﷺ كما قال: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] أرأيتم إن متنا، أو رحمنا، فأخرت آجالنا، يعني أنا ومن معي من المؤمنين فمن يجيركم من عذاب الله؟ فلا حاجة لكم إلى التربص بنا ولا إلى استعجال قيام الساعة.

وأسكن الياء في «أهلَكَنِي»[٦] ابن محيصن والمسيبي وشيبة والأعمش وحمزة وفتحها الباقون.

---

(١) ينظر: معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٠١. (٢) ينظر القرطبي (١٨/ ١٤٤).

(٣) ينظر: معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٠١.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٤٣، والبحر المحيط ٨/ ٢٩٨، والدر المصون ٦/ ٣٤٨.

(٥) ينظر: القرطبي (١٨/ ١٤٤).

(٦) ينظر: السبعة ٦٤٥، والحجة ٦/ ٣٠٨، وإعراب القراءات ٢/ ٣٨٠، والعنوان ١٩٤، وشرح الطيبة ٦/ ٦٤، وإتحاف ٢/ ٥٥٢، والقرطبي ١٨/ ١٤٤.

وكلهم فتح الياء في «ومَنْ مَعِيَ» **إلا أهل الكوفة**[١] **فإنهم سكنوها**، وفتحها حفص، كالجماعة.

قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾. قد تقدم لِمَ أخر متعلق الإيمان وقدم متعلق التوكل، وأن التقديم يفيد الاختصاص.

قال القرطبيُّ[٢]: إنما قدم لوقوع «آمَنَّا» تعريضاً بالكافرين، حين ورد عقب ذكرهم، كأنه قيل: آمنا ولم نكفر كما كفرتم، ثم قال: «وعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا» خصوصاً لم نتكل على ما أنتم متكلون عليه من رجالكم وأموالكم، قاله الزمخشري[٣].

وقرأ الكسائي[٤]: «فَسَيْعلمُونَ» بياء الغيبة نظراً إلى قوله «الكَافِرينَ».

والباقون: على الخطاب، إما على الوعيد وإما على الالتفات من الغيبة المرادة في قراءة الكسائي وهو تهديد لهم، أي: فستعلمون عند معاينة العذاب من الضال نحن، أم أنتم.

قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ يا معشر قريش ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي: غائراً ذاهباً في الأرض لا تناله الدلاء، و «غَوْراً» خبر «أصْبَحَ»، وجوز أبو البقاء: أن يكون حالاً على تمام «أصْبَحَ»، لكنه استبعده[٥].

وحكى أنه قرىء[٦]: «غُؤُوراً» ـ بضم الغين، وهمزة مضمومة، ثم واو ساكنة ـ على «فعول» وجعل الهمزة منقلبة عن واو مضمومة.

فصل في المراد بالماء

كان ماؤهم من بئرين: بئر زمزم وبئر ميمون ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ أي: جارٍ، قاله قتادة والضحاك[٧].

فلا بد لهم أن يقولوا: لا يأتينا به إلا الله تعالى، فقل لهم: فلم تشركون به من لا يقدر على أن يأتيكم به.

---

(١) ينظر: السبعة ٦٤٥، والحجة ٦/ ٣٠٨، وإعراب القراءات ٢/ ٣٧٩، ٣٨٠، والعنوان ١٩٤، وشرح الطيبة ٦/ ٦٤، وإتحاف ٢/ ٥٥٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٤٣.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٤٤.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٨٣.

(٤) ينظر: السبعة ٦٤٤، والحجة ٦/ ٣٠٧، وإعراب القراءات ٢/ ٣٨٠، وحجة القراءات ٧١٦، والعنوان ١٩٤، وشرح شعلة ٥/ ٦، وشرح الطيبة ٦/ ٦٣، وإتحاف ٢/ ٥٥٢.

(٥) ينظر الإملاء ٢/ ٢٦٦.

(٦) ينظر الدر المصون ٦/ ٣٤٨.

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٧٤) عن قتادة والضحاك وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٦) عن قتادة. وعزاه إلى عبد بن حميد.

يقال: غار الماء يغور غوراً: نضب، والغور: الغائر، وصف بالمصدر للمبالغة كما تقول: رجلٌ عدلٌ، ورضى. كما تقدم في سورة الكهف.

قال ابن عباسٍ: «بِماءٍ مَعِينٍ» أي: ظاهر تراه العيون[١]، فهو مفعول.

وقيل: هو من معن الماءُ، أي: كثر، فهو على هذا «فَعِيل».

وعن ابن عباس أيضاً: «فَمَنْ يأتيكُم بِمَاءٍ عَذبٍ»[٢].

روى أبو هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ سُورةً مِنْ كتابِ اللَّهِ ما هِيَ إلاَّ ثلاثُون آيَةً شَفَعتْ لرَجُلٍ فأخْرجتْهُ يَوْمَ القيامةِ مِن النَّارِ وأدْخلتْهُ الجَنَّةَ هِيَ سُورةُ تبَارَكَ»[٣].

وعن عبد الله بن مسعود قال: إذا وضع الميت في قبره يؤت من قبل رجليه فيقال: ليس لكم عليه سبيل لأنه قد كان يقوم بي سورة «المُلْك» ثم يؤتى من قبل رأسه فيقول لسانه: ليس لكم عليه سبيل كان يقرأ بي سورة «المُلك»، ثم قال: هي المانعة من عذاب الله وهي في التوراة سورة الملك، من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطنب[٤].

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «ودِدْتُ أنَّ «تَبَارَكَ الَّذي بِيدِهِ المُلْكُ» في قلبِ كُلِّ مُؤمِنٍ»[٥].

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٦) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٧٤) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٦) وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ١٦٤) كتاب فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل سورة الملك رقم (٢٨٩١) وأبو داود (١/ ٤٤٠) كتاب الصلاة، باب: في عدد الآي رقم (١٤٠٠) وابن ماجه (٢/ ١٢٤٤) كتاب الأدب، باب: ثواب القرآن (٣٧٨٦) والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٤٩٦) وأحمد (٢/ ٢٩٩) وابن حبان (١٧٦٦ ـ موارد) وابن الضريس في «فضائل القرآن» رقم (٢٣٥) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (٦٨١) من حديث أبي هريرة.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه الحاكم (٢/٤٩٨) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٥٠٩) والطبراني كما في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٣١) من طريق عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن ابن مسعود.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
وقال الهيثمي: وفيه عاصم بن بهدلة وهو ثقة وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٠) وزاد نسبته إلى ابن الضريس.

(٥) أخرجه عبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (ص ٢٠٦) وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٣٠) وقال رواه الطبراني وفيه إبراهيم بن الحكم بن أبان وهو ضعيف.

سورة «ن» القلم

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، وقال ابن عباس وقتادة: من أولها إلى قوله ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٦] مكي، ومن بعد ذلك إلى قوله ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ [القلم: ٤٧] مكي، ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القلم: ٥٠] مدني، وباقيها. قاله الماورديُّ(١).

وهي اثنتان وخمسون آية، وثلاثمائة كلمةٍ، وألف ومائتان وستة وخمسون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى «ن» كقوله ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ [ص: ١]، وجواب القسم الجملة المنفية بعدها.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ هو الحوت الذي على ظهره الأرض، وهو قول مجاهدٍ ومقاتل والسدي والكلبي(٢).

وروى أبو ظبيان عن ابن عباس قال: أول ما خلق الله القلم، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة ثم خلق النون فبسط الأرض على ظهره فتحرك النون، فمارت الأرض

---

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٥٩).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٧٦) عن ابن عباس ومجاهد وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٧٦) عن ابن عباس مرفوعاً وقال: رواه الطبراني وقال لم يرفعه عن حماد بن زيد إلا مؤمل بن إسماعيل قلت: ومؤمل ثقة كثير الخطأ وقد وثقه ابن معين وغيره وضعفه البخاري وغيره وبقية رجاله ثقات.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٧) وزاد نسبته إلى ابن مردويه.

وأورده السيوطي (٦/ ٣٨٨) عن مجاهد وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

فأثبتت بالجبال[١] وإن الجبال لتفخر على الأرض، ثم قرأ ابن عباس: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾.

قال الواقديُّ: اسم النون ليوثا.

وقال كعب الأحبار: لوثوثا.

وعن علي: اسمه تلهوت.

وقيل: إنه أقسم بالحوت الذي ابتلع يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وقيل: الحوت الذي لطخ سهم نمروذ بدمه.

وقال الكلبي ومقاتل: اسم الحوت الذي على ظهر الأرض: البَهْمُوت[٢].

قال الراجز: [الرجز]

٤٨٠٥ ـ مَا لِي أرَاكُمْ كُلَّكُمْ سُكُوتَا وَاللَّـهُ ربِّـي خَـلَـقَ الـبَـهْـمُـوتَـا[٣]

وروى عكرمة عن ابن عباس: أن نون آخر حروف الرحمن[٤].

وقيل: إنه اسم للدواةِ، وهو أيضاً مروي عن ابن عباس.

قال القرطبيُّ: وروى أبو هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أوّلُ ما خَلَقَ اللَّهُ القَلَمَ، ثُمَّ خلقَ النُّون، وهي الدَّواةُ، وذلك قوله تعالى «ن» والقلم»[٥]. ومنه قول الشاعر: [الوافر]

٤٨٠٦ ـ إذَا مَا الشَّوْقُ يَبْرَحُ بِي إلَيْهِمْ وألْـفَـى الـنُّـون بـالـدَّمْـعِ الـسِّـجَـامِ[٦]

ويكون على هذا قسماً بالدواة والقلم، فإن المنفعة بهما عظيمة بسبب الكتابةِ، فإن التفاهم يحصل تارة بالنطق، وتارة بالكتابة.

وقيل: النون لوح من نور تكتب فيه الملائكةُ ما يؤمرون به، رواه معاوية بن قرة مرفوعاً.

وقيل: النون هو المداد الذي تكتب به الملائكة.

وقال عطاء وأبو العالية: هو افتتاح اسمه تعالى ناصر ونور ونصير، وقال محمد بن كعب: أقسم الله ـ تعالى ـ بنصره للمؤمنين.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٧٥) من طريق أبي ظبيان عن ابن عباس.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٤٧). (٣) ينظر القرطبي ١٨/ ١٤٧.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٧٦).

(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٨) وعزاه إلى الحكيم الترمذي وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٤٠١) من رواية ابن أبي حاتم وقال: حديث مرفوع غريب جداً.

(٦) ينظر الرازي ٣٠/ ٦٨، والبحر المحيط ٨/ ٣٠٢، وروح المعاني ٢٩/ ٢٨.

وقال جعفر الصادق: هو نهر من أنهار الجنَّة يقال له: نون.

وقيل: هو الحرف المعروف من حروف المعجم، قاله القشيري.

قال: لأنه حرف لم يعرب فلو كان كلمة تامة أعرب به القلمُ، فهو إذن حرف هجاء، كما في أوائل السور.

قال الزمخشريُّ[1]: «وأما قولهم: هو الدواة فما أدري أهو وضع لغوي، أو شرعي، ولا يخلو إذا كان اسماً للدواة من أن يكون جنساً، أو علماً، فإن كان جنساً فأين الإعراب والتنوينُ وإن كان علماً فأين الإعراب؟ وأيهما كان فلا بد له من موقع في تأليف الكلام؛ لأنك إذا جعلته مقسماً به وجب إن كان جنساً أن تجره وتنونه، ويكون القسم بدواة منكرة مجهولة، كأنه قيل: ودواة والقلم، وإن كان علماً أن تصرفه وتجره أو لا تصرفه وتفتحه للعلمية والتأنيث، وكذلك التفسير بالحوت إما أن يراد نون من النينان، أو يجعل علماً للبهموت الذي يزعمون، والتفسير باللوح من نور أو ذهب والنهر في الجنَّة نحو ذلك».

قال شهاب الدين[2]: «وهذا الذي أورده أبو القاسم من محاسن علم الإعراب، وقلَّ من يتقنه».

وقال ابن الخطيب[3] بعد ذكر القول بأنه آخر حروف اسم الرحمن: وهذا ضعيف، لأن تجويزه يفتح باب ترهات الباطنية بل الحق هاهنا أنه اسم للسورة، أو يكون الغرض منه التحدي، وسائر الوجوه المذكورة في أول سورة البقرة.

فصل في قراءات «ن»

قرأ العامة: «نُونْ» ساكن النون كنظائره.

وأدغم ابن عامر والكسائي وأبو بكر عن عاصم[4] بلا خلاف.، وورش بخلاف عنه النون في الواو، وأظهرها الباقون.

قال الفراء[5]: «وإظهارها أعجب إليَّ، لأنها هجاء، والهجاء كالموقوف عليه وإن اتصل» ونقل عمن أدغم الغنَّة، وعدمها.

وقرأ ابن عباس والحسن[6] وأبو السِّمال وابن أبي إسحاقَ: بكسر النون.

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٨٤.
(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٤٩.
(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٦٨.
(٤) ينظر: السبعة ٦٤٦، والحجة ٦/ ٣٠٩، وإعراب القراءات ٢/ ٣٨١، وحجة القراءات ٦١٧، والعنوان ١٩٥، وإتحاف ٢/ ٥٥٣.
(٥) ينظر: معاني القرآن له ٣/ ١٧٢.
(٦) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٤٥، والبحر المحيط ٨/ ٣٠٢، والدر المصون ٦/ ٣٤٩.

وسعيد[١] **بن جبير وعيسى بخلاف عنه**: بفتحها.

فالأولى على التقاء الساكنين، ولا يجوز أن يكون مجروراً على القسم حذف حرف الجر وبقي عمله، كقولهم: «اللَّهِ لأفعلَنَّ»، لوجهين:

أحدهما: أنه مختص بالجلالة المعظمة نادر فيما عداها.

والثاني: أنه كان ينبغي أن ينون، ولا يحسن أن يقال: هو ممنوع الصرف اعتباراً بتأنيث السورة، لأنه كان ينبغي ألاَّ يظهر فيه الجر بالكسر ألبتة.

وأما الفتح، فيحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون بناء، وأوثر على الأصل للخفة كـ «أين وكيف».

الثاني: أن يكون مجروراً بحرف القسم المقدر على لغة ضعيفة، وقد تقدم ذلك في قراءة «فالحقّ والحقِّ» [ص: ٨٤]، بجرّ «الحقّ»، ومنعت الصرف اعتباراً بالسورة.

والثالث: أن يكون منصوباً بفعل محذوف[٢]، أي: ، اقرأوا نوناً ثم ابتدأ قسماً بقوله: «والقَلمِ» أو يكون منصوباً بعد حذف حرف القسم؛ كقوله: [الوافر]

٤٨٠٧ ـ .... **فَـذَاكَ أَمَـانَـةَ الـلَّـهِ الـثَّـرِيـدُ**[٣]

ومنع الصرف لما تقدم، وهذا أحسن لعطف العلم على محله.

قوله: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾.

«ما» موصولة، اسمية أو حرفية، أي: والذي يسطرونه من الكتب، وهم الكتَّاب والحفظة من الملائكة وسطرهم.

والضمير عائد على من يسطر لدلالة السياق عليه ولذكر الآلة المكتتب بها.

وقال الزمخشري[٤] يجوز أن يراد بالقلم أصحابه فيكون الضمير في «يَسْطُرونَ» لهم.

يعني فيصير كقوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ﴾ [النور: ٤٠] تقديره: أو كذي ظلمات فالضمير في «يغْشَاه» يعود على «ذي» المحذوف.

فصل في المراد بالقلم

في «القلم» المقسم به قولان:

أحدهما: أن المراد به الجنس، وهو واقع على كل قلم يكتب به في السماء والأرض، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٣، ٤، ٥]،

---

(١) ينظر السابق.

(٢) وهو تخريج ابن خالويه كما في «إعراب القراءات السبع» له ٢/ ٣٨٢.

(٣) تقدم.

(٤) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٨٤.

ولأنه ينتفع به كما ينتفع بالنطق كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣، ٤]، فالقلم يبين كما يبين اللسان في المخاطبة بالكتابة للغائب والحاضر.

والثاني: أنه القلم الذي جاء في الخبر، عن ابن عباسٍ: أول ما خلق الله القلم ثم قال له: اكتب قال: ما أكتب؟ قال: ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة من عملٍ، أو أجلٍ، أو رزقٍ، أو أثرٍ، فجرى القلمُ بما هو كائن إلى يوم القيامة، قال: ثم ختم في القلم فلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيامة، قال: وهو قلم من نور طوله كما بين السماء والأرض.

وروى مجاهد، قال: أول ما خلق الله القلم، فقال: اكتب القدر، فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، وإنما يجري الناس على أمر قد فرغ منه[١].

قال القاضي[٢]: هذا الخبر يجب حمله على المجاز؛ لأن القلم آلة مخصوصة للكتابة، ولا يجوز أن يكون حياً عاقلاً فيؤمر وينهى؛ فإن الجمع بين كونه حيواناً مكلفاً وبين كونه آلة للكتابة محال بل المراد منه أنه تعالى أجراه بكل ما يكون وهو كقوله تعالى ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧] فإنه ليس هناك أمر، ولا تكليف، وهو مجرد نفاذ القدرةِ في المقدور من غير منازعة، ولا مدافعة.

وقيل: القلم المذكور هو العقل وأنه شيء هو كالأصل لجميع المخلوقات، قالوا: والدليل عليه أنه قد روي في الأخبار: أن أول ما خلق الله القلم.

وفي خبر آخر: أول ما خلق الله العقل، فقال الجبار: ما خلقت خلقاً أعجب إلي منك، وعزتي وجلالي لأكلمنك فيمن أحببت ولأبغضنك فيمن أبغضت، قال: ثم قال رسول الله ﷺ: أكمل النَّاسِ عقلاً أطْوعهُمْ للَّهِ وأعْلمُهُمْ بطاعته[٣].

وفي خبر آخر: أول ما خلق الله جوهرة، فنظر إليها بعين الهيبة فذابت، وسخنت، فارتفع منها دخان وزبد، فخلق من الدخان السموات، ومن الزبد الأرض.

قالوا: فهذه الأخبار بمجموعها تدل على أن القلم والعقل وتلك الجوهرة التي هي أصل المخلوقات شيء واحد، وإلا حصل التناقض.

قوله: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، أي: وما يكتبون، يريد: الملائكة يكتبون أعمال بني آدم. قاله ابن عباس.

وقيل: وما يكتبون الناس ويتفاهمون به.

وقال ابن عباس: معنى ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ وما يعملون[٤].

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٤٨). (٢) ينظر الفخر الرازي (٣٠/ ٦٩).

(٣) ذكره ابن القيم في «المنار المنيف» (ص ٦٦) وقال: أحاديث العقل كلها كذب.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٩) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

قال ابن الخطيب[١]: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ مع ما بعدهما في تقدير المصدر فيحتمل أن يكون المراد وسطرهم، فيكون القسم واقعاً بنفس الكتابةِ، ويحتمل أن يكون المرادُ به المسطور والمكتوب، فإن حمل القلم على كل قلم في مخلوقات الله تعالى، فكأنه تعالى أقسم بكل قلم، وبكل ما يكتب بكل قلم وقيل: المرادُ ما يسطرهُ الحفظة الكرام، ويجوز أن يراد بالقلم أصحابه، فيكون الضمير في «يَسْطرُونَ» لهم، كأنه قيل: وأصحاب القلم، وسطرهم، أو مسطوراتهم، وإن حمل على القلم المعين، فيحتمل أن يكون المراد بقوله «ومَا يَسْطُرونَ»، أي: وما يسطرون فيه، وهو اللوح المحفوظ ولفظ الجمع في قوله «يَسْطُرونَ» ليس المراد منه الجمع بل التعظيم، ويكون المراد تلك الأشياء التي سطرت فيه من جميع الأمور الكائنة إلى يوم القيامة.

قوله ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾.

قد تقدم الكلام على نظيره في «الطُّور» في قوله ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ﴾ [الطور: ٢٩].

إلا أن الزمخشري قال هنا[٢]: «فإن قلت: بم تتعلق الباء في «بِنعْمَةِ ربِّك» وما محله؟ قلت: متعلق بمجنون منفياً كما يتعلق بعاقل مثبتاً كقولك: أنت بنعمة ربِّك عاقل، مستوياً في ذلك الإثبات والنفي استواءهما في قولك: ضرب زيد عمراً، وما ضرب زيد عمراً، فعمل الفعل منفياً ومثبتاً إعمالاً واحداً، ومحله النصب على الحال كأنه قال: ما أنت مجنوناً منعماً عليك بذلك، ولم تمنع الباء أن يعمل «مَجْنُون» فيما قبله، لأنها زائدة لتأكيد النفي».

قال أبو حيَّان[٣]: «وما ذهب إليْهِ الزمخشريُّ، من أن الباء يتعلق بمجنون، وأنه في موضع الحال يحتاج إلى تأمل، وذلك أنه إذا تسلط النفي في محكوم به، وذلك له معمول، ففي ذلك طريقان:

أحدهما: أن النفي يسلط على المعمول فقط.

والآخر: أن يسلط النفي على المحكوم به فينتفي معموله لانتفائه، بيان ذلك أن تقول: ما زيد قائم مسرعاً، فالمتبادر إلى الذهن أنه منتف إسراعه دون قيامه، فيكون قد قام غير مسرع، والوجه الآخر: أنه انتفى قيامه فانتفى إسراعه، أي: لا قيام، فلا إسراع، وهذا الذي قررناه لا يتأتى معه قول الزمخشري، بل يؤدي إلى ما لا يجوز النطق به في حق المعصوم» انتهى.

---

(١) ينظر: السابق.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٨٤.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٠٢.

واختار أبو حيان أن يكون «بِنعمَةِ» قسماً معترضاً به بين المحكوم عليه والحكم على سبيل التأكيد والتشديد والمبالغة في انتفاء الوصف الذميم(١).

وقال ابن عطية(٢): «بِنِعْمةِ ربِّك» اعتراض، كما تقول للإنسان: أنت بحمد الله فاضل، قال: ولم يبين ما تتعلق به الباء في «بِنعْمَةِ».

قال شهاب الدين(٣): والذي تتعلق به الباء في هذا النحو معنى مضمون الجملة نفياً وإثباتاً كأنه قيل: انتفى عنك ذلك بحمد الله، والباء سببية، وثبت ذلك الفضل بحمد الله تعالى، وأما المثال الذي ذكره، فالباء تتعلق فيه بلفظ «فاضل» وقد نحا صاحب «المُنتَخَب» إلى هذا فقال: المعنى انتفى عنك الجنون بنعمة ربك.

وقيل: معناه مَا أنتَ مجنُونٌ والنعمة لربك، كقولهم: سبحانك اللهم وبحمدك، أي: والحمد لله؛ وقول لبيد: [الطويل]

٤٨٠٨ ـ وأُفْرِدْتُ في الدُّنيَا بفقْدِ عشِيرَتِي   وفَـارَقَـنِـي جـارٌ بـأربـدَ نَـافِـعُ(٤)

أي وهو أربد، وهذا ليس بتفسير إعراب بل تفسير معنى.

فصل في إعراب الآية

قوله تعالى ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾. هذا جواب القسم، وهو نفي.

قال الزجاج(٥): «أنت» هو اسم «مَا» و «مَجْنُون» الخبر، وقوله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ كلام وقع في الوسط، أي: انتفى عنك الجنون بنعمة ربك، كما يقال: أنت بحمد الله عاقل.

روى ابن عباس: أنه ﷺ غاب عن خديجة إلى حراء، وطلبته، فلم تجده، فإذا به ووجهه متغير بلا غبار، فقالت: ما لك؟.

فذكر جبريل ـ عليه السلام ـ وأنه قال له: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، فهو أول ما نزل من القرآن، قال: ثم نزل بي إلى قرار الأرض، فتوضأ، وتوضأت، ثم صلى، وصليت معه ركعتين، وقال: هكذا الصلاة ـ يا محمد ـ فذكر النبي ﷺ ذلك لخديجة، فذهبت خديجة إلى ورقة بن نوفل ـ وهو ابن عمها ـ وكان قد خالف دين قومه ودخل في النصرانية، فسألته فقال: أرسلي إليّ محمداً، فأرسلته فقال: هل أمرك جبريل ـ عليه

---

(١) ينظر السابق.
(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٤٦.
(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٥٠.
(٤) البيت للبيد بن ربيعة، ينظر ديوانه (١٦٨)، القرطبي ١٨/ ١٤٨، والبحر ٨/ ٣٠٣ والدر المصون ٦/ ٣٥٠ ورواية الديوان:

وقد كنتُ في أكناف جار مَضِنَّةٍ   فَـفَـارَقَـنـي جَـارٌ بـأَرْبَـدَ نـافِـعُ

(٥) ينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٠٤.

السلام ـ أن تدعو أحداً؟ فقال: لا فقال: والله لئن بقيت إلى دعوتك لأنصرنك نصراً عزيزاً، ثم مات قبل دعاء الرسول ﷺ ووقعت تلك الواقعة في ألسنة كفار قريش، فقالوا: إنه مجنون، فأقسم الله تعالى على أنه ليس بمجنون، وهو خمس آياتٍ من أول هذه السورة[١]، قال ابن عباس: أول ما نزل قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ [الأعلى: ١]، وهذه الآية هي الثانية[٢]، نقله ابن الخطيب[٣].

وذكر القرطبيُّ[٤]: أن المشركين كانوا يقولون للنبي ﷺ: مجنون به شيطان وهو قوله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] فأنزل الله تعالى رداً عليهم وتكذيباً لقولهم ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ أي: برحمة ربك، والنعمة هاهنا الرحمة. وقال عطاء وابن عباس: يريد بنعمة ربِّك عليك بالإيمان والنبوة.

قال القرطبي[٥]: «ويحتمل أن النعمة ـ هاهنا ـ قسم، تقديره: ما أنت، ونعمة ربك بمجنون لأن الواو والباء من حروف القسم» وقد تقدم.

فصل

قال ابن الخطيب[٦]: اعلم أنه تعالى وصفه ـ هاهنا ـ بصفات ثلاث:

الأولى: نفي الجنون عنه ثم قرن بهذه الدعوى ما يكون كالدلالة القاطعة على صحتها، لأن قوله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ يدل على أن نعم اللَّه تعالى ظاهرة في حقه من الفصاحة التامة، والعقل الكامل، والسيرة المرضية، والبراءة من كل عيب، والاتصاف بكل مكرمة، وإذا كانت هذه النعم ظاهرة محسوسة ووجودها ينافي حصول الجنونِ، فالله تعالى نبه على أن هذه الحقيقة جارية مجرى الدلالة اليقينية على كذبهم في قولهم: «إنه مجنُون».

الصفة الثانية: قوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: ثواباً على ما تحملت غير منقوص ولا مقطوع منه، يقال: منَّ الشيء إذا ضعف، ويقال: مننت الحبل إذا قطعته، وحبل منين إذا كان غير متين.

قال لبيدٌ: [الكامل]

٤٨٠٩ ـ .... غُبْسٌ كَواسِبُ مَا يُمَنُّ طَعَامُهَا[٧]

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٠/ ٧٠).
(٢) ينظر المصدر السابق.
(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٧٠.
(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٤٨.
(٥) السابق.
(٦) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٧٠.
(٧) عجز بيت وصدره:

لِمُعَفَّرٍ قَهْدٍ تَنَازَعَ شِلْوَهُ

أي: لا يقطع، يصف كلاباً ضارية، ونظيره قوله تعالى ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، وقال مجاهد ومقاتل والكلبي: «غَيْرَ مَمْنُونٍ»[١] أي: غير محسوب عليك، قالت المعتزلة[٢]: لأنك تستوجبه على [عملك][٣]، وجوابهم: إن حملهم على هذا يقتضي التكرار، لأن قوله «أجراً» يفيده، وقال الحسنُ: غير مكدر بالمن.

وقال الضحاك: أجراً بغير عمل[٤]، واختلفوا في هذا الأجرِ على أي شيء حصل؟ فقيل: معناه إن لك على احتمال هذا الطعن، والقول القبيح أجراً عظيماً دائماً.

وقيل: إن لك في إظهار النبوةِ، والمعجزات في دعاء الخلق إلى الله تعالى وفي بيان الشرع لهم هذا الأجر الخالص الدائم فلا يمنعك نسبتهم إياك إلى الجنون عن الاشتغال بهذا المهم العظيم فإن لك بسببه المنزلةَ العالية.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

قال ابن عباس ومجاهدٌ: «على خُلقٍ» على دين عظيمٍ من الأديان، ليس دين أحب إلى الله، ولا أرضى عنده منه[٥].

وروى مسلم عن عائشة: أن خلقه كان القرآن[٦].

وقال علي ـ رضي الله عنه ـ: هو أدب القرآن[٧].

وقيل: رفقه بأمته، وإكرامه إياهم.

وقال قتادة: هو ما كان يأتمر به من أمر اللَّهِ، وينتهي عنه مما نهى الله عنه[٨].

وقيل: إنَّك على طبع كريم.

وقال الماوردي[٩]: حَقِيقَةُ الخُلقِ في اللُّغةِ ما يأخذُ بِهِ الإنسانُ في نفْسِهِ من الأدبِ

= ينظر: ديوانه (٣٠٨)، والخصائص ١/ ٢٩٧، والقرطبي ١٨/ ١٤٨، والبحر ٨/ ٣٠٣، واللسان (قهد)، (منن)، ومحاضرات الراغب ٢/ ٢٩٤، والحيوان ٣/ ١٦٢، والرازي ٣٠/ ٧١، ومجمع البيان ١٠/ ٧٠٢.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٧٩) عن مجاهد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٩) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ٧١.

(٣) في أ: ذلك.

(٤) ذكره الماوردي (٦/ ٦١) والقرطبي (١٨/ ١٤٨).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٧٩) عن ابن عباس ومجاهد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٩٠) عن ابن عباس وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٦) تقدم.

(٧) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٩٠) عن عطية العوفي وعزاه إلى ابن المبارك وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في «الدلائل».
وقد أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٨٠).

(٨) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٤٨).

(٩) ينظر النكت والعيوب ٦/ ٦١.

يُسَمَّى خُلُقاً، لأنَّه يصير كالخلقة فيه فأما ما طُبع عليه من الأدبِ فهو الخِيمُ، فيكون الخلق: الطبع المتكلف، والخِيم: الطبع الغريزي.

قال القرطبي[١]: «ما ذكره مسلم[٢] في صحيحه عن عائشة أصح الأقوالِ، وسئلت أيضاً عن خلقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقرأت ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] إلى عشر آياتٍ»[٣].

قال ابن الخطيب[٤]: وهذا إشارة إلى أن نفسه القدسية كانت بالطبع منجذبة إلى عالم الغيبِ وإلى كل ما يتعلق بها، وكانت شديدة النفرة من اللذات البدنية، والسعادات الدنيوية بالطبع، ومقتضى الفطرة، وقالت: مَا كَانَ أحدٌ أحْسنَ خُلُقاً من رسول الله ﷺ ما دعاه أحدٌ من الصحابة ولا من أهل بيته إلا قال: لبيك، ولذلك قال الله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ولم يذكر خلق محمود إلا وكان للنبي الحظ الأوفر.

وقال الجنيد: سمي خلقه عظيماً لاجتماع مكارم الأخلاق فيه، بدليل قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إنَّ اللَّه بَعَثنِي لأتمِّمَ مكارِمَ الأخْلاق»[٥].

فصل

قال ابن الخطيب[٦]: قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ كالتفسير لما تقدم من قوله تعالى: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ وتعريف لمن رماه بالجنون بأن ذلك كذب وخطأ؛ لأن الأخلاق الحميدة والأفعال المرضية كانت ظاهرة منه، وإذا كان موصوفاً بتلك الأخلاق والأفعال، لم يجز إضافة الجنون إليه؛ لأن أخلاق المجانين سيئة، ولما كانت أخلاقه الحميدة ﷺ كاملة لا جرم وصفها الله بأنها عظيمة، ولهذا قال: ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦] أي: لست مكلفاً فيما يظهر لكم من الأخلاق، لأنه تعالى قال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] فهذا الهدي الذي أمر الله محمداً ﷺ بالاقتداءِ به ليس هو

(١) ينظر مسلم ٢/ ٥١٢ ـ ٥١٣ في صلاة المسافرين (١٣٩ ـ ٧٤٦).

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٤٩.

(٣) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٦/ ٤١٢) والحاكم (٢/ ٣٩٢) عن يزيد بن بابنوس قال: قلنا لعائشة: كيف كان خلق رسول الله ﷺ فذكرته.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٤) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ٧٢.

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٣٩٨) والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣) والحاكم (٢/ ٦١٣) والبيهقي (١٠/ ١٩١، ١٩٤) والقضاعي في «مسند الشهاب» (١١٦٥) من طريق القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة إلا أن أحمد قال: «صالح الأخلاق».
ورواه مالك في «الموطأ» (٢/ ٢١١) بلاغاً عن النبي ﷺ.

(٦) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٧١.

معرفة الله تعالى؛ لأن ذلك تقليداً، وهو غير لائق بالرسول ﷺ وليس هو الشرائع؛ لأن شريعته كشرائعهم، فتعين أن يكون المراد منه أمره ﷺ بأن يقتدي بكل واحد من الأنبياء فيما اختص به من الخلقِ الكريمِ، وكان كل واحد منهم مختصاً بنوع واحدٍ، فلما أمر محمداً ﷺ بأن يقتدي بالكل، فكأنه أمرَ بمجموع ما كان متفرقاً فيهم، ولما كان ذلك درجة عالية لم تتيسر لأحدٍ من الأنبياء قبله ـ لا جرم ـ وصف الله خلقه بأنه عظيم، وكلمة «عَلَى» للاستعلاءِ فدل اللفظ على أنه مستعل على هذه الأخلاق، ومستول عليها، وأنه بالنسبة إلى هذه الأخلاق الحميدة كالمولى بالنسبة إلى العبد، وكالأمير بالنسبة إلى المأمور.

وقد وردت أحاديث كثيرةٌ صحيحةٌ في مدح الخلق الحسن، وذم الخلق السّيّىء.

قوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾.

قال ابن عباس: معناه فستعلم ويعلمون يوم القيامة.

وقيل: فسترى وترون يوم القيامة حتى يتبين الحق والباطل.

وقيل: «﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ في الدنيا كيف تكون عاقبة أمرك وأمرهم فإنك تصير معظماً في القلوب، ويصيرون ذليلين ملعونين ويستولى عليهم بالقتل والنهب.

قال مقاتل بن حيان: هذا وعيد العذاب ببدر.

قوله ﴿بِأَيِيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ فيه أربعة أوجه:

أحدها: أن الباء مزيدة في المبتدأ، والتقدير: أيكم المفتون، فزيدت كزيادتها في نحو «بحسبك زيد»، وإلى هذا ذهب قتادة وأبو عبيدة معمر بن المثنى.

إلا أنه ضعيف من حيث إن الباء لا تزاد في المبتدأ إلا في «حَسْبُك» فقط.

الثاني: أن الباء بمعنى «فِي» فهي ظرفية، كقولك: «زيْدٌ بالبصرةِ» أي: فيها، والمعنى: في أي فرقة، وطائفة منكم المفتون: أي المجنون في فرقة الإسلام أم في فرقة الكفار؟ وإليه ذهب مجاهد والفراء[١].

ويؤيده قراءة[٢] **ابن أبي عبلة**: «فِي أيكمُ».

والثالث: أنه على حذف مضاف، أي «بأيكم فتن المفتون» فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، وإليه ذهب الأخفش[٣]. وتكون الباء سببية.

والرابع: أن المفتون مصدر جاء على «مفعول» كـ «المعقول» و «الميسور»، والتقدير: «بأيكمُ المفتُونُ».

فعلى القول الأول يكون الكلام تاماً عند قوله: «ويُبْصرُونَ»، ويبتدأ بقوله «بأيكمُ المفتُونُ».

---

(١) ينظر: معاني القرآن ٣/ ١٧٣.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٠٣، والدر المصون ٦/ ٣٥١. (٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٠٣.

وعلى الأوجه بعده تكون الباء متعلقة بما قبلها، ولا يوقف على «يُبْصِرُونَ».

وعلى الأوجه الأول الثلاثة يكون «المَفْتُونُ» اسم مفعول على أصله، وعلى الوجه الرابع يكون مصدراً، وينبغي أن يقال: إن الكلام إنما يتم على قوله «المَفْتُونُ» سواء قيل: بأن الباء مزيدة أم لا، لأن قوله ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ معلق بالاستفهام بعده، لأنه فعل بمعنى الرؤية البصرية تعلق على الصحيح، بدليل قولهم: أما ترى أن برق هاهنا، فكذلك الإبصار، لأنه هو الرؤية بالعين، فعلى القول بزيادة الباء، تكون الجملة الاستفهامية في محل نصب؛ لأنها واقعة موقع مفعول الإبصار.

فصل

قال القرطبيُّ[(١)]: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ بأيكم المفتون، الذي فتن بالجنون، كقوله تعالى ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] و ﴿يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، وهو قول قتادة وأبي عبيدة[(٢)] كما تقدم وقيل: الباء ليست مزيدة، والمعنى «بأيكم المفتون» أي: الفتنة، وهو مصدر على وزن المفعول ويكون المعنى: المفتون، كقولهم: ما لفلان مجلود ولا معقول، أي: عقل ولا جلادة، قاله الحسن والضحاك وابن عباس.

قال الراعي: [الكامل]

٤٨١٠ ـ حَتَّى إذَا لَمْ يَترُكُوا لِعظَامِهِ لَحْماً ولا لِفُؤادِهِ مَعْقُولا[(٣)]

أي عقلاً، والمفتون المجنون الذي فتنه الشيطانُ.

وقيل: المفتون المعذب من قول العرب فتنت الذهب بالنار، إذا حميته، قال تعالى ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣] أي: يعذبون وقيل: المفتون: الشيطان؛ لأنه مفتون في دينه، وكانوا يقولون: إن به شيطاناً، وعنوا بالمجنون هذا فقال الله تعالى لهم: فسيعلمون غداً بأيهم [المجنون][(٤)] أي: الشيطان الذي يحصل من مسه الجنون واختلاط العقل.

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾. أي: إن الله هو العالم بمن حاد عن دينه ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾، أي: الذين هم على الهدى، فيجازي كلاً غداً.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ (٩) وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ (١١) مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ (١٦)﴾

قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ نهاه عن ممايلة المشركين وكانوا يدعونه إلى أن يكف

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٥٠.
(٢) زاد في أ: والضحاك.
(٣) ينظر: القرطبي (١٨/ ١٥٠).
(٤) في أ: المفتون.

عنهم ليكفوا عنه، فبين الله تعالى أن ممايلتهم كفر، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] وقيل: فلا تطع المكذبين فيما دعوك إليه من دينهم الخبيث، نزلت في مشركي قريش حين دعوه إلى دين آبائه.

قوله: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾.

المشهور في قراءة الناس ومصاحفهم: «فَيُدهِنُونَ» بثبوت نون الرفع وفيه وجهان:

أحدهما: أنه عطف على «تُدهِنُ» فيكون داخلاً في حيز «لَوْ».

والثاني: أنه خبر مبتدأ مضمر، أي: فهم يدهنون.

وقال الزمخشريُّ[١]: «فإن قلت: لم رفع «فَيُدْهنُونَ» ولم ينصب بإضمار «أن» وهو جواب التمني؟.

قلت: قد عدل به إلى طريق آخر وهو أن جعل خبر مبتدأ محذوف، أي فهم يدهنون، كقوله: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣] على معنى ودوا لو تدهن فهم يدهنون حينئذ، أو ودوا إدهانك، فهم الآن يدهنون لطمعهم في إدهانك قال سيبويه[٢]: وزعم هارون أنها في بعض المصاحف: ودُّوا لو تُدهِنُ فَيُدْهِنُوا» انتهى.

وفي نصبه على ما وجد في بعض المصاحف وجهان:

أحدهما: أنه عطف على التوهم، كأنه توهم أن نطق بـ «أنْ» فنصب الفعل على هذا التوهم وهذا إنما يجيء على القول بمصدرية «لَوْ»، وفيه خلاف تقدم تحقيقه في «البقرة»[٣].

والثاني: أنه نُصِبَ على جواب التمني المفهوم من «ودّ».

والظاهر أن «لَوْ» حرف لما كان سيقع لوقوع غيره، وأن جوابها محذوف ومفعول الودادة أيضاً محذوف، تقديره: ودوا إدهانك، فحذف إدهانك، لدلالة «لَوْ» وما بعدها عليه وتقدير الجواب: لسروا بذلك.

فصل في معنى الآية

قال ابن عباس وعطية والضحاك والسديُّ: ودوا لو تكفر فيتمادون على كفرهم[٤]، وعن ابن عباس أيضاً: ودوا لو ترخص لهم فيرخصون لك[٥].

وقال الفراء والكلبي: لو تلين فيلينون لك. والإدهان: التليين لمن لا ينبغي له التليين. قاله الفراء[٦] والليث.

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٨٦. (٢) ينظر: الكتاب ١/ ٤٢٢. (٣) آية (٢٠).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٨٢) عن ابن عباس والضحاك.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٨٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٩١) وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٦) ينظر: معاني القرآن للفراء ٣/ ١٧٣.

وقال مجاهدٌ: ودوا لو ركنت إليهم وتركت الحق فيمالئونك[١].

وقال الربيع بن أنس: ودوا لو تكذب، فيكذبون[٢].

وقال قتادة: ودوا لو تذهب عن هذا الأمر فيذهبوا[٣].

وقال الحسنُ: ودوا لو تصانعهم في دينك فيصانعونك في دينهم، وعنه أيضاً: ودوا لو ترفض بعض أمرك فيرفضون بعض أمرهم[٤].

وقال زيد بن أسلم: ودّوا لو تنافق وترائي، فينافقون ويراءون[٥].

وقيل: ودُوا لو تضعف فيضعفون. قاله أبو جعفر[٦][٧].

وقال القتيبي: ودوا لو تداهن في دينك فيداهنون في أديانهم، وعنه: طلبوا منه أن يعبد آلهتهم مدة ويعبدوا إلهه مدة.

وهذان القولان الأخيران هما المتقدمان في معنى ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [النساء: ٨٩] ومعنى: لو تصانعهم وقال ابن العربي[٨]: ذكر المفسرون فيها نحو عشرة أقوالٍ، كلها دعاوى على اللغة والمعنى، وأمثلها قولهم «ودُوا لو تكذبُ فيكذبون، ودوا لو تكفر فيكفرون».

وقال القرطبيُ[٩]: كلها إن شاء الله تعالى صحيحة على مقتضى اللغة والمعنى، فإن الإدهان اللين والمصانعة.

وقيل: مجاملة العدو وممايلته.

وقيل: المقاربة في الكلام والتليين في القول، وقال المفضل: النفاق وترك المناصحةِ، فهي على هذا الوجه مذمومة، وعلى الوجه الأول غير مذمومة وكل شيءٍ منها لم يكن.

وقال المبردُ: أدهن في دينه، وداهن في أمره أي: خان فيه وأظهر خلاف ما يضمر.

وقال قوم: داهنت بمعنى واريت، وأدهنت بمعنى غششت، قاله الجوهري، وقوله

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٨٢) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٣٩١) عن مجاهد وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٥١).
(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٨٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٩١) وعزاه إلى عبد بن حميد.
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٥١).
(٥) ينظر المصدر السابق.
(٦) ينظر الطبري ١٢/ ١٨٢.
(٧) ينظر القرطبي (١٨/ ١٥١).
(٨) ينظر أحكام القرآن (٤/ ١٨٥٥).
(٩) ينظر الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٥١).

«فيُدْهِنُونَ» ساقه على العطف، ولو جاء به جواباً للنهي لقال: «فيُدْهِنُوا»، وإنما أراد أنهم تمنوا لو فعلت فيفعلون مثل فعلك عطفاً لا جزاء عليه ولا مكافأة، وإنما هو تمثيل وتنظير.

قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾.

قال السديُّ والشعبي وابن إسحاق: يعني الأخنس بن شريق[١].

وقال مجاهدٌ: يعني الأسود بن عبد يغوث، أو عبد الرحمن بن الأسود[٢].

وقال مقاتل: يعني الوليد بن المغيرة عرض على النبي ﷺ مالاً، وحلف أنه يعطيه إن رجع عن دينه[٣].

وقال ابن عباس: هو أبو جهل بن هشام[٤].

والحلاف: الكثير الحلف. و «المَهين» قال مجاهد: هو الضعيف القلب[٥].

وقال ابن عباس: هو الكذاب، والكذاب مهين[٦].

وقال الحسن وقتادة: هو المكثار في الشر[٧].

وقال الكلبي: المهين: الفاجر[٨].

وقال عبد الله: هو الحقير[٩].

وقال ابن بحر: هو الذليل.

وقال الرماني: هو الوضيع لإكثاره من القبيح.

وهو «فعيل» من المهانة بمعنى القلة، وهي هنا القلة في الرأي والتمييز، أو هو «فعيل» بمعنى «مُفْعَل» والمعنى «مُهَان».

قوله ﴿هَمَّازٍ﴾، الهماز: مثال مبالغة من الهمز، وهو في اللغة الضرب طعناً باليد والعصا، واستعير للمغتاب الذي يغتاب الناس كأنه يضربهم بإيذائه.

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٩١) عن الشعبي وعزاه إلى عبد بن حميد. وذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٦٣) والقرطبي (١٨/ ١٥١).

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٦٣) والقرطبي (١٨/ ١٥١) عن مجاهد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٩١) عن ابن عباس وعزاه إلى ابن مردويه.

(٣) ذكره الماوردي (٦/ ٦٣) والقرطبي (١٨/ ١٥١).

(٤) ينظر تفسير القرطبي (١٨/ ١٥١).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٨٣) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٩٢) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٨٣).

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٨٣) عن قتادة والحسن وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٩٢) عن قتادة وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٨) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٥١) عن الكلبي.

(٩) ينظر المصدر السابق.

قال ابن زيد: الهمَّاز: الذي يهمز الناس بيده ويضربهم[١]، واللمّاز: باللسان.

وقيل الهمَّاز الذي يذكر الناس في وجوههم، واللمَّازُ: الذي يذكرهم في مغيبهم.

وقال مقاتل بالعكس، وقال مرة: هما سواء، ونحوه عن ابن عباس وقتادة.

قال الشاعر: [البسيط]

٤٨١١ ـ تُدْلِي بودٍّ إذَا لاقَيتنِي كَذِباً ... وإنْ تغَيَّبْتُ كُنتَ الهَامِزَ اللُّمَزَهْ[٢]

والنميم: قيل: هو مصدر النميمة.

وقيل: هو جمعها أي اسم جنس كـ «تمرةٍ وتمرٍ»، وهو نقل الكلام الذي يسوء سامعه، ويحرش بين الناس.

وقال الزمخشري: والنميم والنميمة: السعاية، وأنشدني بعض العرب: [الرجز]

٤٨١٢ ـ تَشَبَّبِي تَشَبُّبَ النَّمِيمَهْ ... تَمْشِي بِهَا زَهْراً إلى تَمِيمَهْ

والمشاء: مثال مبالغة من المشي، أي: يكثر السعاية بين الناس ليفسد بينهم، يقال: نَمَّ يَنِمُّ نميماً ونَمِيمَة، أي: يمشي ويسعى بالفسادِ.

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يَدخُلُ الجَنَّة نَمَّامٌ».

والعتل: الذي يعتل الناس، أي: يحملهم، ويجرهم إلى ما يكرهون من حبس وضربٍ ومنه: ﴿خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ﴾ [الدخان: ٤٧].

وقيل: العتل: الشديد الخصومة.

وقال أبو عبيدة: هو الفاحش اللئيم.

وأنشد:

٤٨١٣ ـ بِعُتُلٍّ مِنَ الرِّجالِ زَنِيمِ ... غَيْرِ ذِي نَجْدةٍ وغَيْرِ كَرِيمِ

وقيل: الغليظ الجافي.

ويقال: عَتَلْتُه وعَتَنتُهُ باللام والنون. نقله يعقوب.

وقيل: العتل: الجافي الشديد في كفره.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٨٣).

(٢) البيت لزياد الأعجم ويروى صدره كما في الديوان (٧٨):

إذا لقيتك عن شمط تكاشرني

وينظر مجاز القرآن ١/ ٢٦٣ برواية:

إذا لقيتك تبدي لي مكاشرة

ينظر القرطبي ١٨/ ١٥٢ ولسان العرب (حمز)، ومجمع البيان ١٠/ ٨١٧.

وقال الكلبيُّ والفراء: هو الشديد الخصومة بالباطل.

قال الجوهري: ويقال: عَتَلْتُ الرجل أعْتِلُهُ وأعْتُلُهُ إذا جذبته جذباً عنيفاً. ورجل مِعْتَل ـ بالكسر ـ، والعَتَل أيضاً: الرمح الغليظ، ورجل عَتِلٌ ـ بالكسر ـ بين العتل، أي سريع إلى الشَّر ويقال: لا أنعتل معك، أي: لا أبرح مكاني.

وقال عبيد بن عمير: العتل: الأكول الشروب القوي الشديد يوضع في الميزان فلا يزن شعيرة، يدفع الملك من أولئك في جهنم بالدفعة الواحدة سبعين ألفاً.

والزنيم: الدعي بنسب إلى قوم ليس منهم.

قال حسانُ رضي الله عنه: [الطويل]

٤٨١٤ أ ـ زَنِيمٌ تَداعَاهُ الرِّجالُ زِيادَةً كَمَا زِيدَ فِي عَرْضِ الأَدِيمِ الأَكَارِعُ

وقال أيضاً: [الوافر]

٤٨١٤ ب ـ زَنِيمٌ ليسَ يُعْرَفُ مَنْ أَبُوهُ بَغِيُّ الأُمِّ ذُو حَسَبٍ لَئِيمُ

وقال أيضاً: [الطويل]

٤٨١٥ ـ وأَنْتَ زَنِيمٌ نِيطَ فِي آلِ هَاشِمٍ كَمَا نِيطَ خَلْفَ الرَّاكِبِ القَدَحُ الفَرْدُ

وأصله: من الزنمةِ، وهي ما بقي من جلد الماعز معلقاً في حلقها يترك عند القطع، فاستعير للدعي، لأنه كالمعلق بما ليس منه.

فصل فيمن هو الحلاف المهين

تقدم القول في «الحلاف المَهين»، عن الشعبي والسديِّ وابن إسحاقَ: أنه الأخنس بن شريق، وعلى قول غيرهم: أنه الأسود بن عبد يغوث، أو عبد الرحمن بن الأسود، أو الوليد بن المغيرة، أو أبو جهل بن هشام، وتقدم تفسير «الهَمَّاز والمشَّاء بنميمٍ».

وأما قوله «منَّاعٍ للخَيْرِ» أي: للمال أن ينفق في وجوهه.

وقال ابن عباس: يمنع عن الإسلام ولده وعشيرته(١).

قيل: كان للوليد بن المغيرة عشرةٌ من الولد، وكان يقول لهم ولأقاربه: من تبع منكم محمداً منعته رفدي.

وقال الحسنُ: يقول لهم: من دخل منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبداً(٢).

وقوله «مُعْتَدٍ» أي: على الناس في الظلم، متجاوز للحد، صاحب باطل، وقوله

---

(١) ينظر القرطبي (١٨/ ١٥٢). (٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٧٨).

«أثِيمٍ» أي: ذا إثم، ومعناه «أثوم»، فهو «فعيل» بمعنى «فَعُول».

قال البغوي[١]: «أثيم فاجر». وأما العتل فتقدم الكلام عليه في اللغة.

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «ألاَ أخْبرُكمْ بأهْلِ الجنَّةِ؟ قالوا: بَلَى، قال: كُلُّ ضعيفٍ مُتضعَّفٌ، لَوْ أقسمَ على اللَّهِ لأبرَّهُ، ألا أخْبركُمْ بأهْلِ النَّارِ؟ قالوا: بَلَى، قال: كل عُتُلٍّ جواظٍ مستكبرٍ»[٢] وفي رواية: «كُلُّ جوَّاظٍ زَنيم مُستَكْبرٍ».

«الجوَّاظ» الجموع المنوع.

وقيل: الكثير اللحم، المختال في مشيته.

وقيل: القصير البطين.

وذكر الماورديُّ[٣] عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «لا يَدخُل الجنَّة جوَّاظ ولا جَعْظَرِي ولا العُتلُ الزَّنِيمُ»[٤].

وقال ﷺ: «الجوَّاظ: الذي جمع ومنع، والجعظري: الفظ الغليظ المتكبر»[٥].

قال ابن الأثير[٦]: «وقيل: هو الذي ينتفخ بما ليس عنده، وفيه قصر».

قال القرطبيُّ[٧]: وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «الشَّدِيدُ الخُلقِ، الرَّحيبُ الجوْفِ، المصحُّ الأكولُ، الشَّروبُ، الواجدُ للطعامِ، الظَّلُومُ للنَّاسِ»[٨].

وعن زيد بن أسلم في قوله تعالى ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ قال: قال النبي ﷺ: «تَبكِي السَّماءُ على رجُلٍ أصحَّ اللَّهُ جِسْمهَ ورحَبَ جوفه، وأعطاهُ من الدُّنْيَا بعضاً، فكانَ للنَّاسِ ظلُوماً، فذلك العُتُلُّ الزَّنِيمُ»[٩].

---

(١) ينظر: معالم التنزيل ٤/ ٣٧٨.

(٢) أخرجه البخاري ١٠/ ٥٠٤ كتاب الأدب، باب الكبر (٦٠٧١) ومسلم ٤/ ٢١٩٠ كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب: النار يدخلها الجبارون (٤٦ ـ ٢٨٥٣).

(٣) ينظر النكت والعيون ٦/ ٦٤.

(٤) أخرجه أبو داود رقم (٤٨٠١) من حديث ابن مسعود.

(٥) أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٧) من طريق شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم مرفوعاً.
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٣١) وقال: رواه أحمد وفيه شهر وثقه جماعة وفيه ضعف وعبد الرحمن بن غنم ليس له صحبة على الصحيح.
والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٩٣) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر من طريق شهر.

(٦) ينظر: النهاية ١/ ١٧٦.

(٧) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٥٢.

(٨) تقدم.

(٩) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٨٠) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٩٣) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وابن المنذر عن زيد بن أسلم.

وقوله «بَعْدَ ذلِكَ» أي مع ذلك، يريد ما وصفناه به «زنيم» وتقدم معنى الزنيم. وعن ابن عباس: أنه رجل من قريش كانت له زنمة كزنمة الشاة[(١)].

وروى عنه ابن جبير: أنه الذي يعرف بالشر، كما تعرف الشاة بزنمتها[(٢)].

وقال عكرمة: هو الذي يعرف بلؤمه، كما تعرف الشاة بزنمتها[(٣)].

وقيل: إنه الذي يعرف بالأبنة، وهو مروي عن ابن عباس، وعنه: إنه الظلوم.

وقال مجاهدٌ: «زَنِيم» كانت له ستة أصابع في يده في كل إبهام له أصبع زائدة[(٤)].

وعنه أيضاً وسعيد بن المسيب وعكرمة: هو ولد الزنا الملحق في النسب بالقوم[(٥)].

وكان الوليد دعياً في قريش ليس من سنخهم، ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة من مولده.

قال الشاعر: [الوافر]

٤٨١٦ ـ زَنِيمٌ لَيسَ يُعرفُ مَن أبُوهُ بَغِيُّ الأمِّ ذُو حَسَبٍ لَئِيمِ[(٦)]

قيل: بغتْ أمه ولم يعرف حتى نزلت الآية، وهذا لأن الغالب أن المنطقة إذا خبثت خبث الولدُ، كما روي أن النبي ﷺ قال: «لا يَدْخلُ الجنَّة ولدُ زِنَا، ولا ولَدُ وَلدِهِ»[(٧)].

وقال عبد الله بن عمر: إن النبي ﷺ قال: «إنَّ أوْلادَ الزِّنَا يُحشَرُونَ يومَ القِيامَةِ في صُورةِ القِردَةِ والخَنازِيرِ»[(٨)].

وقالت ميمونة: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تَزالُ أمَّتِي بخَيْرٍ، مَا لَمْ يَفْشُ فِيهِمْ ولدُ الزِّنَا، فإذا فَشَى فيهِمْ ولدُ الزِّنَا أوشَكَ أنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بعذابٍ»[(٩)].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٨٦) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٩٣) وزاد نسبته إلى ابن مردويه.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٨٦). (٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٨٨).

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٥٣) عن مجاهد.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٨٦) عن سعيد بن المسيب.

(٦) ينظر القرطبي (١٨/ ١٥٣) والدر المنثور ٦/ ٣٩٢.

(٧) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٤٩) من حديث أبي هريرة وذكره الشيخ علي القاري في «الأسرار المرفوعة» (ص ٢٦٨) وقال: زعم ابن طاهر وابن الجوزي أن هذا الحديث موضوع لكن رواه أبو نعيم في «الحلية» عن مجاهد عن أبي هريرة مرفوعاً وأعله الدارقطني بأن مجاهداً لم يسمعه من أبي هريرة.

(٨) ذكره الشوكاني في «الفوائد المجموعة» (ص ٢٠٤) وقال: موضوع.

(٩) أخرجه أحمد (٦/ ٣٣٣) من حديث ميمونة.

وأخرجه أيضاً أبو يعلى (١٣/ ٦) رقم (٧٠٩١) والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٢٣) رقم (٥٥).

والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٦٠) وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني... وفيه محمد بن عبد الرحمن بن لبيبة وثقه ابن حيان وضعفه ابن معين ومحمد بن إسحاق قد صرح بالسماع فالحديث صحيح أو حسن.

وقال عكرمة: إذا كثر ولد الزنا قحط المطر[١].

قال القرطبي[٢]: ومعظم المفسرين على أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وكان يطعم أهل منى حيساً ثلاثة أيام، وينادي ألا لا يوقدن أحدكم تحت بُرمةٍ، ألا لا يدخلن أحد بكُراع، ألا ومن أراد الحيس فليأت الوليد بن المغيرة، وكان ينفق في الحجة الواحدة عشرين ألفاً، أو أكثر، ولا يعطي المسكين درهماً واحداً؛ فقيل: «منّاعٍ للخَيرِ»، وفيه نزل: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧].

وقال محمد بن إسحاق: نزلت في الأخنس بن شريق؛ لأنه حليف ملحق في بني زهرة، فلذلك سمي زنيماً. وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: في هذه الآية نُعت، فلم يعرف، حتى قتل زنيم فعرف، وكانت له زنمة في عنقه يعرف بها[٣].

قال ابن قتيبة: لا نعلم أن الله وصف أحداً، ولا ذكر من عيوبه ما ذكر من عيوب الوليد بن المغيرة وألحق به عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة.

فصل

قرأ الحسن: «عُتُلٌّ» بالرفع، أي هو عتل.

وحقه أن يقرأ ما بعده بالرفع أيضاً، لأنهم قالوا في القطع: إنه يبدأ بالإتباع، ثم بالقطع من غير عكس، وقوله: «بَعْدَ ذلِكَ» أي: بعدما وصفناه به.

قال ابن عطية[٤]: فهذا الترتيب إنما هو في قول الواصفِ لا في حصول تلك الصفات في الموصوف، وإلا فكونه عتلاً هو قبل كونه صاحب خير يمنعه.

وقال الزمخشريُّ[٥]: «بَعْدَ ذَلِكَ» أي: بعدما عد له من المثالب، والنقائصِ، ثم قال: جعل جفاءه ودعوته أشد معايبه، لأنه إذا غلظ وجفا طبعه قسا قلبُه واجترأ على كل معصية.

ونظير قوله: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ [البلد: ١٧].

قوله: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾.

العامة: على فتح همزة «أن» ثم اختلفوا بعد، **فقرأ ابن عامر وحمزة**[٦] **وأبو بكر**

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٥٣).

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٥٤.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٨٧، ٥٨٨، والبحر المحيط ٨/ ٣٠٤، والدر المصون ٦/ ٣٥٢.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٤٨. (٥) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٨٧.

(٦) ينظر: السبعة ٦٤٦، ٦٤٧، والحجة ٦/ ٣١٠، وإعراب القراءات ٢/ ٣٨٢، وحجة القراءات ٧١٧، والعنوان ١٩٥، وإتحاف ٢/ ٥٥٤.

وأضاف القرطبي[١] معهم أبا جعفر وأبا حيوة والمغيرة والأعرج: بالاستفهام.

وباقي السبعة بالخبر.

والقارئون بالاستفهام على أصولهم من تحقيق، وتسهيل، وإدخال ألف بين الهمزتين وعدمه، ولا بد من بيان ذلك فنقول: قرأ حمزة وأبو بكر وذكر القرطبي[٢] معهم المفضل: بتحقيق الهمزتين، وعدم إدخال ألف بينهما، وهذا هو أصلهما.

وقرأ ابن ذكوان: بتسهيل الثانية، وعدم إدخال ألف.

وهشام بالتسهيل المذكور إلا أنه أدخل ألفاً بينهما.

فقد خالف كل منهما أصله، أما ابن ذكوان فإنه يحقق الهمزتين فقد سهل الثانية هنا، وأما هشام فإن أصله أن يجري في الثانية من هذا النحو وجهين من التحقيق كرفيقه، والتسهيل وقد التزم التسهيل هنا، وأما إدخال الألف فإنه فيه على أصله، كما تقدم أول البقرة[٣].

وقرأ نافع في رواية[٤] اليزيدي عنه: «إن» بكسر الهمزة على الشرط.

فأما قراءة «أنْ» ـ بالفتح ـ على الخبر، ففيه أربعة أوجه:

أحدها: أنها «أن» المصدرية في موضع المفعول به مجرورة بلام مقدرة، واللام متعلقة بفعل النهي، أي: ولا تطع من هذه صفاته، لأن كان متمولاً وصاحب بنين.

الثاني: أنها متعلقة بـ «عُتُل» وإن كان قد وصف. قاله الفارسي[٥].

وهذا لا يجوز عند البصريين، وكأن الفارسي اغتفره في الجار.

الثالث: أن يتعلق بـ «زَنِيم»، ولا سيما عند من يفسره بقبيح الأفعال.

الرابع: أن يتعلق بمحذوف يدل عليه ما بعده من الجملة الشرطية تقديره لكونه متمولاً، مستظهراً بالبنين كذب بآياتنا، قاله الزمخشريُّ[٦].

قال: ولا يعمل فيه، قال: الذي هو جواب «إذا» لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله، ولكن ما دلت عليه الجملةُ من معنى التكذيب.

وقال مكيٌّ[٧]، وتبعه أبو البقاء[٨]: «لا يجوز أن يكون العامل» «تُتْلَى» لأن ما بعد

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٥٤. (٢) السابق.

(٣) آية رقم (٦).

(٤) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٠٥، والدر المصون ٦/ ٣٥٣.

(٥) لم أعثر عليه في الحجة. (٦) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٨٨.

(٧) ينظر: المشكل ٢/ ٧٤٩. (٨) ينظر الإملاء ٢/ ١٢٣٤.

«إذَا» لا يعمل فيما قبلها، لأن «إذَا» تضاف إلى الجمل، ولا يعمل المضاف إليه فيما قبل المضاف» انتهى.

وهذا يوهم أن المانع من ذلك ما ذكره فقط، والمانع أمرٌ معنوي، حتى لو فقد هذا المانع الذي ذكره لامتنع من جهة المعنى، وهو لا يصلح أن يعلل تلاوة آياتِ اللَّهِ عليه بكونه ذا مالٍ وبنين.

وأما قراءة «آنْ كان» على الاستفهام، ففيها وجهان:

أحدهما: أن يتعلق بمقدر يدل عليه ما قبله، أي: أتطيعه لأن كان، أو الكون طواعية لأن كان.

والثاني: أن يتعلق بمقدر يدل عليه ما بعده، أي: لأن كان كذب وجحد.

وأما قراءة «إنْ كَانَ» ـ بالكسر ـ فعلى الشرط، وجوابه مقدر، تقديره: إن كان كذا يكفر ويجحد، دل عليه ما بعده.

وقال الزمخشريُّ: والشرط للمخاطب، أي: لا تطع كل حلاف شارطاً يساره، لأنه إن أطاع الكافر لغنائه فكأنه اشترط في الطاعة الغنى، ونحو صرف الشرط للمخاطب صرف الترجي إليه في قوله ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

وجعله أبو حيَّان[١] من دخول شرط على شرط، يعنى «إن، وإذا» إلا أنه قال: ليسا من الشروط المترتبة الوقوع. وجعل نظير ذلك قول ابن دُرِيْدٍ: [الرجز]

٤٨١٧ ـ فإن عَثَرتُ بعدها إنْ وألَتْ نَفْسِيَ مِنْ هَاتَا فَقُولاَ لا لَعَا[٢]

قال: «لأن الحامل على تدبر آياتِ اللَّهِ كونه ذا مالٍ وبنينَ، وهو مشغول القلب بذلك غافل عن النظر قد استولت عليه الدُّنيا وأنظرته».

وقرأ الحسن بن أبزى: بالاستفهام، وهو استفهام تقريعٍ وتوبيخٍ، على قوله حين تليت عليه آيات الله: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

فصل في توجيه قراءة الآية

قال القرطبيُّ[٣]: فمن قرأ بهمزة مُطوَّلةٍ، أو بهمزتين محققتين، فهو استفهام والمراد به التوبيخ، ويحسن له أن يقف على «زَنِيمٍ»، ويبتدىء «أنْ كَانَ» على معنى: لأن كان ذا

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣١٠.
(٢) البيت لابن دريد الأزدي، ينظر شرح مقصورة ابن دريد (٣٣) والخزانة ٤/ ٥٤٨، والدر المصون ٦/ ٣٥٤.
(٣) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٥٤.

مال وبنين تطيعه، ويجوز أن يكون التقدير: لأن كان ذا مال وبنين يكفر ويستكبر، ودل عليه ما تقدم من الكلام، فصار كالمذكور بعد الاستفهام، ومن قرأ «أن كَانَ» بغير استفهام، فهو مفعول من أجله، والعامل فيه فعل مضمر والتقدير: يكفر لأن كان ذا مال وبنين، ودل على هذا الفعل: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ولا يعمل في «أن»: «تُتْلَى» ولا «قَالَ»، لأن ما بعد «إذَا» لا يعمل فيما قبلها؛ لأن «إذَا» تضاف إلى الجمل التي بعدها، ولا يعمل المضاف إليه فيما قبل المضاف و «قال» جواب الجزاء، ولا يعمل فيما قبل الجزاء، إذ حكم العامل أن يكون قبل المعمول فيه، وحكم الجواب أن يكون بعد الشرط، فيكون مقدماً مؤخراً في حالة واحدةٍ، ويجوز أن يكون المعنى: لا تطعه لأن كان ذا يسار وعدد.

قال ابن الأنباريُّ: ومن قرأ بلا استفهام لم يحسن أن يقف على «زَنيمٍ» لأن المعنى: لأن كان ذا مالٍ كان، فـ «أنْ» متعلقة بما قبلها.

وقال غيره: يجوز أن يتعلق بقوله «مشَّاءٍ بنمِيم»، والتقدير: يمشي بنميم، لأن كان ذا مال وبنين، وأجاز أبو علي أن يتعلق بـ «عُتُلٍّ» ومعنى «أسَاطيرُ الأوَّليْنَ» أباطيلهم، وتُرهاتُهم.

قوله: «سَنَسِمُهُ». أي: نجعل له سمة، أي: علامة يعرف بها.

قال جرير: [الكامل]

٤٨١٨ ـ لمَّا وضَعْتُ عَلى الفَرَزْدَقِ مِيسَمِي وعَلَى البَعيثِ جَدَعْتُ أنْفَ الأخْطَلِ(١)

والخرطوم: الأنف، وهو هنا عبارة عن الوجه كله من التعبير عن الكل بالجزء؛ لأنه أظهر ما فيه وأعلاه، والخرطوم أيضاً: الخمر، وكأنه استعاره لها لأن الشنتمري قال: هي الخمر أول ما يخرج من الدَّن؛ فجعلت كالأنف لأنه أول ما يبدو من الوجه فليست الخرطومُ الوجه مطلقاً، ومن مجيء الخرطوم بمعنى الخمر، قول علقمة بن عبدة: [البسيط]

٤٨١٩ ـ قَدْ أشْهَدَ الشَّرْبَ فِيهِمْ مِزْهَرٌ رَنِمٌ والقَوْمُ تَصْرعُهُمْ صَهْبَاءُ خرْطُومُ(٢)

وأنشد النضر بن شميل: [البسيط]

٤٨٢٠ ـ تَظَلُّ يَومَكَ في لَهْوٍ وفِي طَرَبٍ وأنْتَ بالـلَّيْلِ شَرَّابُ الخَراطِيمِ(٣)

---

(١) ينظر ديوانه ٣٣٥، والقرطبي ١٨/ ١٥٥ وروح المعاني ٢٩/ ٣٥، والدر المصون ٦/ ٣٥٤.

(٢) ينظر ديوانه (١١٣)، والبحر ٨/ ٣٠٠، والدر المصون ٦/ ٣٥٤.

(٣) البيت للأعرج، ينظر القرطبي ١٨/ ١٥٥، والبحر ٨/ ٣٠٠ والدر المصون ٦/ ٣٥٤، وروح المعاني ٢٩/ ٢٦.

فصل في تفسير «سنسمه»

قال ابن عباس: «سَنَسِمُهُ» سنحطمه بالسَّيفِ، قال: وقد حطم الذي نزلت فيه يوم بدرِ بالسيف، فلم يزل محطوماً إلى أن مات[1].

وقال قتادةُ: سنسمهُ يوم القيامة على أنفه سِمَةً يعرفُ بها[2]، يقال: وسمه وسماً وسمة إذا أثرت فيه بسمة وكيّ.

قال الضحاك: سنكويه على وجهه[3]، وقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] فهي علامة ظاهرة، وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] وهذه علامة أخرى ظاهرة. وأفادت هذه الآية علامة ثالثة، وهي الوسم على الأنف بالنار، وهذا كقوله: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١].

قاله الكلبي وغيره وقال أبو العالية ومجاهدٌ: «سَنَسمهُ على الخُرطُومِ» أي على أنفه، ويسودُّ وجهه في الآخرة، فعرف بسواد وجهه[4].

قال القرطبيُّ[5]: «والخرطوم: الأنف من الإنسان، ومن السباع موضع الشفة، وخراطيم القوم: سادتهم».

قال الفراء: وإن كان الخرطومُ قد خُصَّ بالسِّمة فإنَّهُ في الوجه لأن بعض الشيء يعبر به عن الكل.

وقال الطبريُّ: نبين أمره تبياناً واضحاً، فلا يخفى عليهم كما لا تخفى السِّمةُ على الخراطيم.

وقال: المعنى: سنلحق به عاراً وسبة حتى يكون كمن وسم على أنفه.

قال القتيبي: تقول العرب للرجل يُسَبُّ سبة سوءٍ قبيحة باقية قد وسم ميسم سوء، أي: ألصق به عار لا يفارقه، كما أن السمة لا يمحى أثرها.

وهذا كلهُ نزل في الوليد بن المغيرة، ولا شك أنَّ المبالغة العظيمة في ذمه بقيت على وجه الأرض الدهر، ولا يعلم أن اللَّه تعالى بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغ منه، فألحق به عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة كالوسم على الخرطوم.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٨٨) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٩٤) وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٨٨) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٩٤) وعزاه إلى عبد بن حميد وعبد الرزاق.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٥٥).

(٤) ينظر المصدر السابق.

(٥) ينظر السابق.

وقيل: ما ابتلاه اللَّهُ به في الدنيا في نفسه؛ وأهله وماله من سوء، وذل وصغار، قاله ابن بحر.

وقال النضر بن شميل: المعنى سنحده على شرب الخمر، والخرطوم: الخمر، وجمعه: خراطيم، وأنشد البيت المتقدم.

قال ابن[1] الخطيب: «وهذا تعسفٌ».

قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾. يريد أهل مكة، والابتلاء: الاختبار. والمعنى: أعطيناهم الأموال ليشكروا لا ليبطروا، فلما بطروا وعادوا محمداً ﷺ ابتليناهم بالجوع والقحط كما بلونا أصحاب الجنَّة المعروف خبرها عندهم، وذلك أنها كانت بأرض اليمن بالقرب منهم على فراسخ من «صنعاء»، ويقال: بفرسخين، كانت لرجل يؤدي حقَّ الله منها، فلما مات صارت إلى ولده، فمنعوا الناس خيرها، وبخلوا بحق الله فيها؛ فأهلكها الله من حيث لم يمكنهم دفع ما حل بها.

قال الكلبيُّ: كان بينهم وبين «صنعاء» فرسخان ابتلاهم اللَّهُ بأن أحرق جنتهم[2].

وقيل: جنة بصوران على فراسخ من صنعاء، وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بيسير.

وقيل: كانوا من بني إسرائيل.

وقيل: كانوا من ثقيف، وكانو بخلاء، وكانوا يجذون النخل ليلاً من أجل المساكين، فأرادوا حصاد زرعها، وقالوا: «لا يدخُلنَّها اليَوْمَ عليْكمْ مِسكِين» فغدوا عليها فإذا هي قد اقتلعت من أصلها «فأصْبَحَتْ كالصَّريْم» أي: الليل، ويقال أيضاً للنهار: صريم، فإن كان أراد الليل، فلاسوداد مواضعها وكأنهم وجدوا مواضعها حمأة، وإن كان أراد بالصريم النهار، فلذهاب الشجر والزَّرْع وخلو الأرض منه،

---

(١) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ٧٧.

(٢) ينظر القرطبي (١٨/ ١٥٥).

وكان الطائف الذي طاف عليها جبريل ـ عليه السلام ـ فاقتلعها.

فقيل: إنه طاف بها حول البيت ثم وضعها حيثُ مدينة الطائف اليوم، ولذلك سميت الطائف، وليس في أرض الحجازِ بلدة فيها الماء، والشجر [والزرع] والأعناب غيرها.

وقال البكريُّ في المعجم(١): سميت الطائف، لأن رجلاً من العرب يقالُ له: الدَّمُون، بَنَى حائطاً، وقال: إني قد بنيت لكم حائطاً حول بلدكم، فسميت الطائف. والله أعلم.

قوله «إذ أقْسَمُوا»، أي: حلفوا فيما بينهم «لَيَصْرِمُنَّهَا» أي: ليجذُّنها «مُصْبحِيْنَ» أي: وقت الصباح قبل أن يخرج المساكين «ولا يَسْتَثْنُونَ»، أي: لم يقولوا: إن شاء الله.

قوله: «مُصْبحِيْنَ» حال من فاعل «لَيَصْرِمُنَّها» وهو من «أصبح» التامة، أي داخلين في الصباح، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ [الصافات: ١٣٧] وقوله: إذا سمعت بِسُرَى القين فاعلم بأنه مصبح والكاف في «كما» في موضع نصب نعتاً لمصدر محذوف، أي: بلوناهم ابتلاء كما بلونا، و «ما» مصدرية، أو بمعنى «الذي» و «إذَا» منصوبة بـ «بَلوْنَا» و «لَيَصْرِمُنَّهَا» جواب للقسم، وجاء على خلاف منطوقهم، ولو جاء لقيل: «لَنَصْرِمُنَّهَا» بنون المتكلم.

قوله: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾.

هذه مستأنفة، ويضعف كونها حالاً من حيث إن المضارع المنفي بـ «لا» كالمثبت في عدم دخول الواو عليه وإضمار مبتدأ قبله، كقولهم: «قمت وأصك عينه» مستغنى عنه.

ومعنى: «لا يَسْتَثْنُونَ» لا يستثنون للمساكين من جملة ذلك القدر الذي كان يدفعه أبوهم للمساكين، من الثني، وهو الكف والرد؛ لأنَّ الحالف إذا قال: واللَّهِ لأفعلن كذا إلا أن يشاء اللَّهُ غيره فقد رد انعقاد تلك اليمين.

وقيل: المعنى: لا يستثنون عزمهم عن الحرماتِ.

وقيل: لا يقولون: إن شاء الله.

قال الزمخشريُّ: وسمي استثناء وهو شرط؛ لأن معنى: لأخرجن إن شاء الله، ولا أخرج إلا أن يشاء الله واحد.

قوله ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ﴾. أي هلاك، أو بلاء طائف، والطائف غلب في الشر.

قال الفراء: هو الأمر الذي يأتي ليلاً.

ورد عليه بقوله ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [الأعراف: ٢٠١] وذلك لا يختص بليلٍ، ولا نهارٍ.

---

(١) ينظر: معجم ما استعجم ١/ ٦٧.

وقرأ النخعيُّ(١): «طَيْفٌ».

قوله «مِن ربِّك». يجوز أن يتعلق بـ «طاف» وأن يتعلق بمحذوف صفة لـ «طَائِفٌ».

قوله: ﴿فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ﴾. والصرام: جذاذ النخلِ، وأصل المادة الدلالة على القطع، ومنه الصُّرم، والصَّرْم ـ بالضم والفتح ـ وهو القطيعة؛ قال امرؤ القيس: [الطويل]

٤٨٢١ ـ أفَاطِمُ مَهْلاً بَعْضَ هذا التَّدلُّلِ وإنْ كنتِ قَدْ أزمَعْتِ صَرْمِي فأجْمِلِي(٢)

ومنه الصريمة، وهي قطعة منصرمة عن الرمل لا تنبت شيئاً؛ قال: [البسيط]

٤٨٢٢ ـ وبالصَّريمَةِ مِنهُمْ مَنزِلٌ خَلَقٌ عَافٍ تَغَيَّرَ، إلاَّ النُّؤيُ والوتِدُ(٣)

والصارم: القاطع الماضي، وناقة مصرمة: انقطع لبنها، وانصرم الشهر والسنة، أي: قرب انفصالهما، وأصرم زيد: ساءت حاله، كأنه انقطع سعده.

فقوله «كالصَّريمِ». قيل: هي الأشجار المنصَرِم حملها.

وقال ابن عباس: كالليل؛ لأنه يقال له: الصريم، لسواده(٤)، والصريم أيضاً: النهار وقيل: الصُّبحُ؛ لأنه انصرم من الليلة، قاله الأخفش. فهو من الأضداد.

وقال شمر: الصريم الليل، والصريم النهار.

وقيل: الصريم: رملة معروفة باليمنِ لا تنبت شيئاً.

وقال الثوريُّ: كالزرع المحصود، فالصريم بمعنى المصروم، أي: المقطوع ما فيه.

وقال الحسنُ: صرم عنها الخير، أي: قطع(٥)، فالصريم مفعول أيضاً.

وقال المؤرج: أي: كالرملة انصرمت من معظم الرمل، يقال: صريمة وصرائم، فالرملة لا تنبت شيئاً ينتفع به.

وقيل: سمي الليل صريماً؛ لأنه يقطع بظلمته عن التصرف، ولهذا يكون «فَعِيْل» بمعنى «فاعل».

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٠٦، والدر المصون ٦/ ٣٥٥.

(٢) ينظر ديوانه (١٢) والجنى الداني ص ٣٥، وخزانة الأدب ١١/ ٢٢٢، والدر ٣/ ١٦، وشرح شواهد المغني ١/ ٢٠، والمقاصد ٤/ ٢٨٩ وأوضح المسالك ٤/ ٦٧، ورصف المباني ص ٥٢، وشرح الأشموني ٢/ ٤٦٧، ومغني اللبيب ١/ ١٣، وهمع الهوامع ١/ ١١٢.

(٣) تقدم.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٩٠) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٩٤) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٥٧) عن الحسن.

قال القشيريُّ: وفي هذا نظر؛ لأن النهار يسمى صريماً، ولا يقطع عن التصرف.

وقيل: سمي الليل صريماً؛ لأنه يصر نور البصر ويقطعه.

فصل في بيان أن العزم مما يؤاخذ به الإنسان

قال القرطبيُّ: في الآية دليل على أن العزم مما يؤاخذ به الإنسان. لأنهم عزموا على أن يفعلوا، فعوقبوا على فعلهم؛ ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «إذَا التَقَى المُسلِمَانِ بِسيْفِهِمَا فالقَاتِلُ والمَقْتُولُ في النَّارِ، قيل: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنَّه كَانَ حريصاً على قَتْلِ صاحِبهِ»[1]. وقد مضى في آل عمران عند قوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ [آل عمران: ١٣٥].

قوله: ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾.

قال مقاتل: لما أصبحوا قال بعضهم لبعض: «اغدُوْا على حَرْثِكُمْ» يعني بالحرث الثِّمار والزروع والأعناب، ولذلك قال: «صَارِمِيْنَ»، لأنهم أرادوا قطع الثمار من الأشجار.

«أن اغدُوْا» يجوز أن تكون المصدرية، أي: تنادوا بهذا الكلام، وأن تكون المفسرة، لأنه تقدمها ما هو بمعنى القول.

قال الزمخشريُّ: «فإن قلت: هلاَّ قيل: اغدوا إلى حرثكم، وما معنى على؟.

قلت: لما كان الغدو إليه ليصرموه، ويقطعوه كان غدواً عليه كما تقول: غدا عليهم العدو ويجوز أن يضمن الغدو معنى الإقبال كقولهم: يغدى عليهم بالجفنة ويراح» انتهى.

فجعل «غَدَا» متعدياً في الأصل بـ «إلى» فاحتاج إلى تأويل تعديه بـ «عَلَى»، وفيه نظر؛ لورود تعديه بـ «عَلَى» في غير موضع؛ كقوله: [الوافر]

٤٨٢٣ ـ وقَدْ أغْدُو عَلَى ثُبَةٍ كِرامٍ نَشَاوَى واجِدِينَ لِمَا نَشَاءُ[2]

وإذا كانوا قد عدوا مرادفه بـ «عَلَى» فليعدوه بها، ومرادفه «بكر» تقول: بكرتُ عليه و «غدوتُ عليه» بمعنى واحد؛ قال: [الطويل]

---

(١) أخرجه البخاري ١٤/ ١٩٩، كتاب الديات، باب قول الله (ومن أحياها) (٦٨٧٥)، ومسلم ٤/ ٢٢١٣، كتاب الفتن، باب إذا تواجه المسلمان (١٤ ـ ٢٨٨٨).

(٢) البيت لزهير ينظر ديوانه (١٧)، واللسان (ثبا) والدر المصون ٦/ ٣٥٥.

٤٨٢٤ ـ بَكَرْتُ عَلَيْهِ غُدْوَةً فَرَأَيْتُهُ قُعُوداً إِلَيْهِ بِالصَّرِيمِ عَوَاذِلُه[١]

قوله ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾. جوابه محذوف، أي فاغدوا و «صارمين»: قاطعين حادين.

وقيل: ماضين العزم من قولك: سيف صارم.

قوله ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾. أي: يتشاورون فيما بينهم، والمعنى يخفون كلامهم، ويسرونه لئلا يعلم بهم أحد، قاله عطاء وقتادة.

وهو من خفت يخفت إذا سكت، ولم يبين.

قال ابن الخطيب[٢]: «وخَفَى وخَفَت، كلاهما في معنى الكتم، ومنه الخمود والخفاء».

وقيل: يخفون أنفسهم من الناس، حتى لا يروهم، وكان أبوهم يخبر الفقراء والمساكين فيحضروا وقت الحصاد والصرام.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ جملة حالية من فاعل «انْطَلَقُوا».

قوله: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾.

«أنْ» مفسرة، ويجوز أن تكون مصدرية، أي: يتخافتون بهذا الكلام، أي: يقوله بعضهم لبعض: ﴿لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾.

قال ابن الخطيب[٣]: والنهي للمسكين عن الدخول نهيٌ لهم عن تمكينه منه، أي: لا تمكنوه من الدخول.

وقرأ عبد الله وابن أبي عبلة[٤]: «لا يدْخُلنَّهَا» بإسقاط «أنْ» إما على إضمار القولِ كمذهب البصريين، وإما على إجراء «يَتخافتُونَ» مجراه كقول الكوفيين.

قوله: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾.

يجوز أن يكون «قَادِرِيْنَ» حالاً من فاعل «غَدَوْا» و «عَلى حَرْدٍ» متعلق به وأن يكون «على حَرِدٍ» هو الحال و «قَادِريْنَ» إما حال ثانية، وإما حال من ضمير الحالِ الأول.

والحرد: قيل: الغضب والحنق. قاله السديُّ وسفيان.

(١) البيت لزهير ينظر ديوانه ص ١٤٠، والأضداد ص ٤٢، ١٩٥، وشرح شواهد المغني ٢/ ٩٤٠، ولسان العرب (صرم)، ومغني اللبيب ٢/ ٦٥٢، والبحر ٨/ ٣٠٧ والدر المصون ٦/ ٣٥٦.

(٢) الفخر الرازي ٣٠/ ٧٨، ٧٩.

(٣) ينظر السابق.

(٤) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٩٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٥٠، والبحر المحيط ٨/ ٣٠٧، والدر المصون ٦/ ٣٥٦.

وأنشد للأشهب بن رميلة: [الطويل]

٤٨٢٥ ـ أُسُودُ شَرًى لاقَتْ أُسُودَ خَفِيَّةٍ ... تَسَاقَوْا على حَرْدٍ دِمَاءَ الأَسَاوِدِ(١)

قيل: ومثله: [الرجز]

٤٨٢٦ ـ إذَا جِيادُ الخَيْلِ جَاءتْ تَرْدِي ... مَمْلُوءةً مِنْ غَضَبٍ وحَرْدِ(٢)

عطف لما تغاير اللفظان؛ كقوله: [الوافر]

٤٨٢٧ ـ .... وألْفَى قَوْلَهَا كَذِباً ومَيْنَا(٣)

قال أبو عبيدة والقتيبي: «عَلى حَرْدٍ» على منع من حاردت الناقة حراداً، أي: قل لبنها.

والحرود من النوق القليلة الدر، وحاردت السَّنةُ: قل مطرها، وخيرها.

ويقال: حرد ـ بالكسر ـ يحرد حرداً، وقد تفتح فيقال: حَرَدَ فهو حردان وحارد، وليوث حوارد.

وقيل: الحرد، والحرود: الانفراد، يقال: حَرَدَ ـ بالفتح ـ يَحْرُدُ ـ بالضم ـ حروداً وحرداً، أي: انعزل. ومنه كوكب حارد، أي: منفرد.

قال الأصمعي: هي لغة هذيل.

وقال القرطبيُّ(٤): يقال: حرد يحرد حروداً، أي: تنحى عن قومه، ولم يخالطهم.

وقال أبو زيدٍ: رجل حريد من قوم حرداء، وقد حَرَدَ يَحْرِدُ حُرُوداً إذا ترك قومه، وتحول عنهم.

قال الأصمعي: رجل حريد، أي: فريد وحيد، قال: والمنفرد والمنحرد في لغة هذيل وأنشد لأبي ذؤيب: [البسيط]

٤٨٢٨ ـ .... كَأنَّهُ كَوكَبٌ فِي الجَوِّ مُنْحَرِدُ(٥)

---

(١) البيت للأشهب بن رميلة، ويروى الشطر الثاني:

تساقت على لوح دماء الأساود

ينظر أمالي القالي ١/٨، والحماسة البصرية ١/٢٦٩، وخزانة الأدب ٦/٢٧، وسمط اللآلي ص ٣٥، وشرح شواهد المغني ٢/٥١٧، ولسان العرب (حرد)، (خفا) ومعجم ما استعجم ٢/٥٠٦، والمقاصد النحوية ١/٤٨٣، والمنصف ١/٦٧، والحيوان ٤/٢٤٥، والمقتضب ٢/٢٢٨.

(٢) البيت للأعرج ينظر: اللسان (حرد) والبحر ٨/٣٠١ والدر المصون ٦/٣٥٦.

(٣) تقدم.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٨/١٥٨).

(٥) عجز بيت لأبي ذؤيب كما قال المصنف وصدره:

مِنْ وَحْشِ حَوْضَى يُرَاعِي الصيدَ مُبْتَقِلاً

ينظر القرطبي ١٨/١٥٩ وديوان الهذليين ١/١٢٦.

ورواه أبو عمرو: بالجيم، قال: وهو سهيل.

وقيل: الحردُ القصد، يقال: حَرَد يحْرِدُ ـ بالكسر ـ حرداً، قصداً، تقول: حردت حردك، أي: قصدت قصدك؛ قال الراجز: [الرجز]

٤٨٢٩ ـ أقْبَلَ سَيْلٌ جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّه يَحْرِدُ حَرْدَ الجَنَّةِ المُغِلَّهْ[١]

وقال قتادة ومجاهدٌ: «عَلى حَرْدٍ»، أي: على جد وجهد[٢].

وقال القرطبيُّ ومجاهد وعكرمة: أي: على أمر مجتمع قد أسموه بينهم[٣].

قال البغويُّ: «وهذا معنى القصدِ».

وقال الحسنُ: على حاجةٍ وفاقةٍ[٤].

وقيل: الحرد اسم جنتهم بعينها، قاله السديُّ.

وقال الأزهريُّ: حرد اسم قريتهم. وفيهما بعد. و «قَادِرِيْنَ» إما من القدرة وهو الظاهرُ، وإما من التقدير، وهو التضييق، أي: مضيقين على المساكين.

وقرأ العامة: بالإسكان.

وقرأ أبو العالية[٥] وابن السميفع: بالفتح، وهما لغتان.

فصل في تفسير «قادرين»

قال الفرَّاء: ومعنى «قادرين» قد قدروا أمرهم، وبنوا عليه.

وقال قتادة: قادرين على جنتهم عند أنفسهم[٦].

وقال الشعبيُّ: قادرين على المساكين.

وقيل: معناه من الوجود، أي: منعوا وهم واجدون.

ومعنى الآيةِ: وغدوا، وكانوا عند أنفسهم، وفي ظنهم أنهم قادرون على منع المساكينَ.

قوله ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾. يعني الجنة محترقة، لا شيء فيها قد صارت كالليل الأسود ينظرون إليها كالرماد أنكروها، وشكوا فيها، وقال بعضهم لبعض: «إنَّا لضالُّونَ» أي:

---

(١) تقدم.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٩١) عن مجاهد وقتادة والحسن.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٩٢) عن مجاهد وعكرمة.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٩٦) وعزاه إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٩٢) عن الحسن.

(٥) ينظر: القرطبي ١٨/ ١٥٩.

(٦) ينظر تفسير البغوي (٨/ ٣٨٠).

ضللنا الطريق إلى جنتنا، ثم لما تأملوا وعرفوا أنها هي، قالوا: «بَلْ نَحْنُ محْرومُونَ» حرمنا خيرها بشؤم عزمنا على البخل ومنعنا الفقراء، قاله قتادة.

وقيل: «إنَّا لضالُّون» عن الصَّواب في غدونا على نية منع المساكين، فلذلك عوقبنا «بَلْ نَحْنُ محْرومُونَ» أي: حرمنا جنتنا بما صنعنا.

روى ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إيَّاكم والمَعاصِي إنَّ العَبْدَ ليذْنبُ الذَّنْبَ فيُحرَمُ بِهِ رِزْقاً كان هُيِّىء له» ثم تلا: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾[1] الآيتين.

قوله: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾، يعني أعدلهم، وأفضلهم وأعقلهم «ألَمْ أقُلْ لكُمْ: لوْلاَ تُسبِّحُونَ» أي: هلا تستثنون، وكان استثناؤهم تسبيحاً. قاله مجاهدٌ وغيره، وهذا يدل على أن هذا الأوسط كان يأمرهم بالاستثناء، فلم يطيعوه.

قال أبو صالحٍ: كان استثناؤهم سبحان الله، فقال لهم: «هَلاَّ تسبِّحُونَ اللَّهَ»، أي تقولون: سبحان الله وتشكرونه على ما أعطاكم.

وقال النحاس: أصل التسبيحِ التنزيه لله ـ عز وجل ـ، فجعل مجاهد التسبيح في موضع إن شاء اللَّهُ؛ لأن المعنى تنزيه الله أن يكون شيء إلا بمشيئته.

وقال ابن الخطيب[2]: التسبيحُ عبارة عن تنزيهه عن كل سوء فلو دخل شيء في الوجود على خلاف إرادة الله تعالى، لوجب عود النقص إلى قدرة الله تعالى، فقولك: «إن شاء الله» مزيل هذا النقص، فكان ذلك تسبيحاً.

وقيل: المعنى: هلاَّ تَسْتغفرونهُ من فِعْلكُم، وتتوبون إليه من خبث نيتكم.

قيل: إنَّ القوم لمَّا عزموا على منع الزكاةِ واغتروا بالمال والقوة، قال لهم أوسطهم: توبوا عن هذه المعصية قبل نزول العذابِ، فلما رأوا العذاب ذكرهم أوسطهم كلامهُ الأول، وقال: «ألَمْ أقُلْ لكُم لوْلاَ تُسبِّحُون» فحينئذ اشتغلوا بالتوبة وقالوا: «سُبْحانَ ربِّنا إنَّا كُنَّا ظالمين» قال ابن عباس في قولهم سبحان ربنا أي نستغفر ربنا من ذنوبنا لأنا كنا ظالمين لأنفسنا في منعنا المساكين.

وقال الحسنُ: هذا التسبيحُ هُو الصَّلاةُ كأنهم كانوا يتكاسلون في الصلاة، وإلا لكانت ناهية لهم [عن الفحشاء والمنكر، ولكانت داعية لهم] إلى أن يواظبوا على ذكر الله، وعلى قول إن شاء الله.

قوله ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾. أي: يلوم بعضهم بعضاً، يقول هذا لهذا: أنت أشرت علينا بهذا الرأي، ويقول ذلك لهذا: أنت خوفتنا بالفقر، ويقول الثالث لغيره: أنت

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٩٥) وعزاه إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود.

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٧٩.

رغبتني في جمع المال، ثم نادوا على أنفسهم بالوَيْلِ فقالوا: «يَا ويْلنَا إنَّا كُنَّا طاغِينَ» أي: عاصين بمنع حق الفقراءِ، وترك الاستثناء.

وقال ابنُ كيسان: طغينا نعم اللَّهِ، فلم نشكرها كما شكرها آباؤنا من قبل ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ تعاقدوا وقالوا: إن أبدلنا الله خيراً منها لنصنعنّ كما صنع آباؤنا فدعوا الله وتضرعوا فأبدلهم الله من ليلتهم ما هو خير منها.

قرىء[1]: «يبدلنا» بالتخفيف والتشديد، وهما لغتانِ.

وقيل: التبديلُ تغير الشيء، أو تغير حاله وعين الشيء قائم، والإبدال رفع الشيء ووضع آخر مكانه، ثم قال: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ أي: طالبون منه الخير راجعون لعفوه.

قال المفسرون: إن الله أمر جبريل عليه السلام أن يقتلع تلك الجنة، بزغر من أرض الشام، ويأخذ من أرض الشام جنة، فيجعلها مكانها.

وقال ابن مسعود: إن القوم لما أخلصوا وعرف الله منهم صدقهم أبدلهم اللَّهُ جنة يقال لها: الخيوان فيها عنب يحمل البغل منها عنقوداً واحداً[2].

وقال أبو خالد اليماني: دخلت تلك الجنة، فرأيت كُلَّ عنقودٍ منها كالرَّجلِ الأسودِ القائمِ.

وقال الحسنُ: قول أهل الجنة: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ لا أدري إيماناً كان ذلك منهم، أو على حد ما يكون من المشركين إذا أصابهم الشدة. فتوقف في كونهم مؤمنين[3].

وسئل قتادةُ عن أهل الجنَّة، أهم من أهل الجنَّة أم من أهل النَّارِ؟.

قال: لقد كلفتني تعباً[4].

والأكثرون يقولون: إنهم تابوا وأخلصوا. حكاه القشيري.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾. مبتدأ وخيره مقدم، أي: مثل ذلك العذاب عذاب الدنيا وأما عذاب الآخرة فأكبر منه ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

قال ابنُ زيدٍ: «كذلكَ العَذابُ» أي: عذاب الدنيا وهلاك الأموال[5].

وقيل: هذا وعظٌ لأهل مكة بالرجوعِ إلى اللَّهِ لما ابتلاهم بالجدب لدعاء النبي ﷺ أي: كفعلنا بهم نفعل بمن تعدى حدودنا في الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٩٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٥، وقال ابن عطية: وقرأ «يبدلنا» بسكون الباء وتخفيف الدال جمهور القراء والحسن وابن محيصن والأعمش، وقرأ نافع وأبو عمرو بالتثقيل وفتح الباء.

(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٨١).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٨/ ١٦٠).

(٤) ينظر المصدر السابق.

(٥) ينظر المصدر السابق.

قال ابنُ عباسٍ: هذا مثل لأهل مكة حين خرجوا إلى بدر، وحلفوا ليقتلنَّ محمداً، وأصحابه، وليرجعوا إلى أهل مكة، حتى يطوفوا بالبيت، ويشربوا الخمر، وتضرب القيانُ على رءوسهم، فأخلف الله ظنهم، وقتلوا وأسروا وانهزموا كأهل هذه الجنة لما خرجوا عازمين على الصرم، فخابوا[١].

فصل في العبرة من هذه الآية بضرب المثل

قال ابن الخطيب[٢]: قوله تعالى ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، والمعنى: لأجل أن أعطاه الله المال والبنين كفر بالله، كلا، بل الله تعالى إنما أعطاه ذلك للابتلاء، فإذ صرفه إلى الكفر دمر الله عليه، بدليل أن أصحاب الجنة لما أتوا بهذه المعصيةِ اليسيرةِ دمر الله جنتهم، فكيف حال من عاند الرسول ﷺ، وأصرَّ على الكفر والمعصيةِ.

فصل في بيان هل كان الحق واجباً عليهم أم لا؟

قيل: إن الحق الذي منعه أهل الجنَّة المساكين كان واجباً عليهم، ويحتمل أنه كان تطوعاً، والأول أظهر.

وقيل: السورة مكية، فبعد حمل الآية على ما أصاب أهل مكة من القحطِ، وعلى قتال بدر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾

قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، أي: جناتٌ ليس فيها إلا النعيمُ الخالصُ لا يشوبه ما ينغصُه كما يشوب جناتِ الدنيا.

قال مقاتل: لما نزلت هذه الآية، قال كفَّارُ مكة للمسلمين: إن الله تعالى فضَّلنا عليكم في الدنيا فلا بد وأن يُفضِّلنا عليكم في الآخرة، فإن لم يحصل التفضيلُ، فلا أقل من المساواةِ. فأجاب الله عن هذا الكلام بقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: إن التسوية بين المُطيع والعاصي غيرُ جائزة ثم وبَّخهُمْ فقال: «مَا لكُمْ كيفَ تحكُمونَ» هذا الحكم الأعوج كأن أمر الجزاءِ مفوضٌ إليكم حتى تحكموا فيه[٣].

---

(١) ينظر المصدر السابق.

(٢) ينظر: الفخر الرازي (٣٠/ ٨٠).

(٣) ذكره القرطبي ١٨/ ١٦٠ عن ابن عباس.

قوله: «عِندَ ربِّهِمْ». يجوز أن يكون منصوباً بالاستقرار، وأن يكون حالاً من «جنَّاتِ».

فصل في رد كلام القاضي

قال القاضي: في الآية دليل واضح على أن وصف الإنسان بأنه مسلم ومجرم كالمتنافي، والفاسق لما كان مجرماً، وجب أن لا يكون مسلماً.

وأجيب بأنه تعالى أنكر جعل المسلم مثلاً للمجرم، ولا شك أنه ليس المراد إنكار المماثلة في جميع الأمور، فإنهما متماثلان في الجوهرية، والجسمية، والحدوث، والحيوانية، وغيرها من الأمور الكثيرة، بل المراد: إنكارُ استوائهما في الإسلام والجرم، أو في آثارِ هذين الأمرينِ، فالمراد: أن يكون إنكار أثر الإسلام مساوياً لأثر جرم المجرم عند الله، وهذا لا نزاع فيه، فمن أين يدل على أن الشخص الواحد يمتنع فيه كونه مسلماً ومجرماً؟.

فصل في رد كلام الجبائي

قال الجبائيُّ: دلت الآية على أن المجرم لا يكون ألبتةَ في الجنةِ؛ لأنه تعالى أنكر حصول التسوية بينهما في الثواب، بل لعله يكون ثواب المجرم أزيد من ثواب المسلم، إذا كان المجرمُ أطول عمراً من المسلم، وكانت طاعته غير محبطةٍ. والجوابُ: هذا ضعيفٌ[1]، لأنا بينا التسوية في درجة الثوابِ، ولعلهما لا يستويان فيه بل يكون ثواب المسلمِ الذي لم يعص أكثر من ثواب من عصى، على أنا نقول: لم لا يجوز أن يكون المراد من المجرمين هم الكفار الذين حكى الله عنهم هذه الواقعة، لأن حمل الجمع المحلى بالألف واللام على المعهود السابق مشهور في اللغة والعرفِ.

قوله: ﴿أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ﴾. أي: ألكم كتاب تجدون فيه المطيع كالعاصِي، وهذا كقوله ﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ﴾ [الصافات: ١٥٦ ـ ١٥٧].

قوله: ﴿إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ﴾.

العامة على كسر الهمزة، وفيها ثلاثة أوجه:

أحدها: أنها معمولة لـ «تَدْرُسُونَ»، أي: تدرسون في الكتاب أن لكم ما تحتاجونه، فلما دخلت اللامُ كسرت الهمزة، كقولك: علمت أنك عاقل ـ بالفتح ـ وعلمت إنك لعاقل ـ بالكسر ـ.

والثاني: أن تكون على الحكايةِ للمدروسِ كما هو، كقوله: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٨١.

سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ٧٨، ٧٩]، قالهما الزمخشري.

وفي الفرق بين الوجهين عسرٌ، قال: «وتخير الشيء واختاره، أخذ خيره، كتنخله وانتخله، أخذ منخوله».

الثالث: أنها على الاستئناف على معنى «إن كَان لَكُمْ كتابٌ فلكُمْ متخير».

قال القرطبي[١]: تم الكلام عند قوله «تَدْرسُونَ» ثم ابتدأ فقال: «إنَّ لكُمْ فيه لمَا تخَيَّرُونَ» أي: إن لكم في هذا الكتاب إذن ما تخيرون، أي: ليس لكم ذلك، والكناية في «فِيْهِ» الأولى والثانية راجعة إلى الكتاب.

وقرأ طلحة[٢] **والضحاك**: «أنَّ لَكُمْ» بفتح الهمزة. وهو منصوب بـ «تَدْرسُونَ» إلا أن فيه زيادة لام التأكيد، وهي نظير قراءة ﴿**إلاَّ أنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ**﴾ [الفرقان: ٢٠] بالفتح.

وقرأ الأعرج وابن[٣] **هرمز**: «أإنَّ لَكُمْ» في الموضعين، يعني «أإنَّ لكُمْ فيْهِ لمَا تخيَّرُونَ» «أإنَّ لَكُمْ لمَا تَحْكُمونَ» بالاستفهام فيهما جميعاً.

ثم إنه تعالى زاد في التوبيخ فقال: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ﴾، أي: عهود ومواثيق ﴿عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ﴾ مؤكدة والبالغة المؤكدة بالله تعالى، أي: أم لكم عهود على الله تعالى استوثقتم بها في أن يدخلكم الجنة.

قال ابن الخطيب[٤]: والمعنى: أم ضمنا لكم، وأقسمنا لكم بأيمان مغلظة متناهية في التوكيد.

قوله: «بَالِغةٌ».

العامة على رفعها نعتاً لـ «أيْمَانٌ» و ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ متعلق بما تعلق به «لَكُمْ» زمن الاستقرار أي كائنة لكم إلى يوم، أو «ببالغة»، أي: تبلغ إلى ذلك اليوم، وتنتهي إليه.

وقرأ زيد[٥] **بن علي والحسن**: بنصبها.

فقيل: على الحال من «أيْمَانٌ» لأنها تخصصت بالعمل، أو بالوصف.

وقال القرطبيُّ[٦]: «على الحال من الضمير في «لَكُمْ» لأنه خبر عن «أيمانٌ» ففيه ضمير منه، وإما من الضمير في «عليْنَا» إن قدرت «علينا» وصفاً للأيمان لا متعلقاً بنفس

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٦١.
(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٥١، والبحر المحيط ٨/ ٣٠٨، والدر المصون ٦/ ٣٥٧.
(٣) ينظر السابق.
(٤) الفخر الرازي ٣٠/ ٨٢.
(٥) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٩٣، والبحر المحيط ٨/ ٣٠٨، والدر المصون ٦/ ٣٥٧.
(٦) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٦١.

الأيمانِ؛ لأن فيه ضميراً منه كما يكون إذا كان خبراً عنه.

وقيل: من الضمير في «علينا إن قدرت علينا» وصفاً للأيمان».

وقوله: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾. أي: لأنفسكم من الخير والكرامة.

قوله: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾، جواب القسم في قوله: «أيْمانٌ» لأنها بمعنى أقسام.

قوله: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾. أي: سل ـ يا محمد ـ هؤلاء المتقولين عليَّ: أيهم كفيل بما تقدم ذكره، والزعيم: الكفيل والضمين[١]، قاله ابن عباس وقتادة، لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٢].

وقال ابنُ كَيْسَان: الزعيم هنا: القائم بالحجة والدعوى.

وقال الحسن: الزعيم: الرسول[٢].

قوله: «أَيُّهم» متعلق بـ «سَلْهُمْ» و «بذلك» متعلق بـ «زعيمٌ»، أي: ضمين وكفيل وقد تقدم أن «سَأَلَ» تعلق لكونه سبباً في العلم، وأصله أن يتعدى بـ «عَنْ»، أو الباء كقوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقوله: [الطويل]

٤٨٣٠ ـ فإنْ تَسْألُوني بالنِّساءِ... ....[٣]

والجملة في موضع نصب بعد إسقاط الخافض كما تقدم تقريره.

قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾. هذه قراءة العامة.

وقرأ عبد الله[٤]: «أم لهم شرك فليأتوا بشركهم» بلفظ المصدرِ.

قال القرطبيُّ[٥]: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾، أي: ألهم، والميم صلة، ومعنى: شركاءُ، أي: شهداء ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ يشهدون على ما زعموا ﴿إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواهم.

وقيل: فليأتوا بشركائهم إن أمكنهم، فهو أمر تعجيز.

وقال ابن الخطيب[٦]: «في تفسيره وجهان:

الأول: أن المعنى أم لهم أشياء يعتقدون أنها شركاء لله ويعتقدون أن أولئك شركاء يجعلونهم في الآخرة مثل المؤمنين في الثواب، والخلاص من العقاب، وإنما إضاف الشركاء إليهم؛ لأنهم جعلوها شركاء للَّهِ، كقوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الروم: ٤٠].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٩٦) عن ابن عباس وقتادة.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٩٧) عن قتادة وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٦١). (٣) تقدم.

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٥٨. (٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٦١.

(٦) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٨٢.

الثاني: أم لهم أناسٌ يشاركونهم في هذا المذهب، وهو التسوية بين المسلمين والمجرمين فليأتوا بهم إن كانوا صادقينَ في دعواهم، والمراد بيان أنه كما ليس لهم دليل عقلي، ولا دليل من كتاب يدرسونه، فليس لهم من يوافقهم من العقلاء على هذا القولِ، فدل ذلك على بطلانه».

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾

ثم إنه تعالى لما أبطل قولهم شرح بعده عظمة يوم القيامة، وهو قوله:

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ «يَوْمَ» منصوب بقوله «فليَأتُوا» أي: فليأتوا بشركائهم يوم يكشفُ عن ساق ليشفع الشركاء لهم وحينئذ لا يوقف على «صَادِقِينَ».

أو بإضمارِ «اذْكُرْ» فيكون مفعولاً به، أو بمحذوفٍ وهو ظرف، أي: يوم يكشف يكون كيت وكيت. أو بـ «خَاشِعةً». قاله أبو البقاء.

و «عَنْ ساقٍ» قائم مقام الفاعل.

وقرأ ابن مسعود[1] **وابن أبي عبلة**: «تكشف» بالتاء من فوق مبنياً للفاعل، أي: الشدة والساعة. وعنه أيضاً كذلك: مبنياً للمفعول[2].

وهي مشكلة، لأن التأنيث لا معنى له ها هنا إلا أن يقال: إن المفعول مستتر، أي: تكشف هي، أي: الشدة، ويتعلق «عَنْ ساقٍ» بمحذوف، أي: تكشف عن ساقها.

ولذلك قال الزمخشري: «وتكشف» بالتاء مبنياً للفاعل والمفعول جميعاً، والفعل للساعة، أو الحال: أي يشتد الحال، أو الساعة.

وقرىء[3]: «ويُكشِفُ» ـ بضم التاء أو الياء وكسر الشين ـ من «أكشف» إذا دخل في الكشف، وأكشف الرجل إذا انقلبت شفته العليا لانكشاف ما تحتها. ويقال له أيضاً: أخلع وكشف الساق كناية عن الشدة.

قال الراجز: [الرجز]

٤٨٣١ ـ عَجِبْتُ مِنْ نَفْسِي ومِنْ إشْفَاقِهَا وَمِنْ طِرَادِي الطَّيرَ عَنْ أرْزَاقِهَا

(١) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ٨٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٠٩.
(٢) ينظر السابق.
(٣) ينظر الكشاف ٤/ ٥٩٥، والبحر المحيط ٨/ ٣٠٩، والدر المصون ٦/ ٣٥٨.

فـي سَـنـةٍ قَـدْ كـشَـفَـتْ عَـنْ سَـاقِـهَـا حَـمْـرَاءِ تَـبْـرِي الـلَّـحْـمَ عَـنْ عُـراقِـهَـا[(١)]

وقال حاتم الطائيُّ: [الطويل]

٤٨٣٢ ـ أخو الحَرْبِ إنْ عَضَّتْ به الحَرْبُ عضَّهَا وإنْ شَمَّرَتَ عَنْ سَاقهَا الحَرْبُ شَمَّرَا[(٢)]

وقال الآخر: [مجزوء الكامل]

٤٨٣٣ ـ كَـشـفَـتْ لَـهُـمْ عَـنْ سَـاقِـهَـا وبَـدَا مِـنَ الـشَّـرِّ الـبَـوَاحُ[(٣)]

وقال الراجز: [الرجز]

٤٨٣٤أ ـ قَدْ شَمرَتْ عَنْ سَاقِهَا فشُدُّوا وجَـدَّتِ الـحَـرْبُ بِـكُـمْ فَـجِـدُّوا[(٤)]

وقال الآخر: [السريع، أو الرجز]

٤٨٣٤ب ـ صَـبْـراً أُمَـامُ إنَّـهُ شَـرُّ بَـاقْ وقَـامـتِ الـحَـرْبُ بِـنَـا عـلـى سَـاقْ[(٥)]

قال الزمخشريُّ: الكشفُ عن الساق والإبداء عن الخدام مثل في شدة الأمر وصعوبة الخطب، وأصله في الروع والهزيمة وتشمير المخدراتِ عن سوقهن في الهرب وإبداء خدامهن عند ذلك؛ قال حاتم:

٤٨٣٥أ ـ أخو الحَرْبِ ....[(٦)]

وقال ابن قيس الرُّقيَّاتِ: [الخفيف]

٤٨٣٥ب ـ تُذْهِلُ الشَّيْخَ عنْ بنيهِ وتُبْدِي عَـنْ خِـدَامِ الـعَـقِـيـلَـةُ الـعَـذْراءُ[(٧)]

انتهى.

فصل في «الساق»

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، قال: كرب وشدة[(٨)].

---

(١) ينظر البحر ٨/ ٣١٠ والقرطبي ١٨/ ١٦٢، والدر المصون ٦/ ٣٥٨، واللسان (عرق)، وروح المعاني (٢٩/ ٤٢).

(٢) ينظر القرطبي ١٨/ ١٦٢، والكشاف ٤/ ٥٩٣، والبحر ٨/ ٣٠٩، والدر المصون ٦/ ٣٥٨.

(٣) البيت لسعد بن مالك بن ضبعة ويروى «الصُّرَاحُ» مكان «البوَاحُ». ينظر الكتاب (٢/ ٣٢٦) والحماسة (٥٠٤)، والخصائص ٣/ ٢٥٢، والقرطبي ١٨/ ١٦٢، والبحر ٨/ ٣١٠، واللسان (سوق) والدر المصون ٦/ ٣٥٨.

(٤) تقدم.

(٥) ينظر البحر ٨/ ٣١٠، والدر المصون ٦/ ٣٥٨.

(٦) ونسب أيضاً لمحمد بن الجهم بن هارون.

(٧) ينظر ديوان ابن قيس الرقيات (ص ٩٦)، والأغاني ٥/ ٦٩ وخزانة الأدب ٧/ ٢٨٧، ١١/ ٣٧٧، وسر صناعة الإعراب ص ٥٣٥، وشرح المفصل ٩/ ٣٧، ولسان العرب (شعا)، والمنصف ٢/ ٢٣١، والإنصاف ص ٦٦١، وتذكرة النحاة ص ٤٤٤، ومجالس ثعلب ص ١٥٠، ومعجم الشعراء ص ٤٥٠، ورصف المباني ٢/ ٢٣١.

(٨) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٩٧) والحاكم (٢/ ٤٩٩ ـ ٥٠٠) عن ابن عباس. =

وعن مجاهد: شدة الأمر وحده(١).

وروى مجاهد عن ابن عباس قال: أشد ساعةٍ في القيامة(٢).

وقال أبو عبيدة: إذا اشتد الأمر، أو الحرب قيل كشف الأمر عن ساقه.

والأصل فيه: أن من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجد، شمر عن ساقه، فاستعير الساق والكشف عنها في موضع الشدة.

وقيل: ساق الشيء: أصله الذي به قوامه كساق الشجرة، وساق الإنسان، أي: يوم يكشفُ عن أصل الأمر، فتظهر حقائق الأمور، وأصلها.

وقيل: يكشف عن ساق جهنم.

وقيل: عن ساق العرش.

وقيل: يريد وقت اقتراب الأجل وضعف البدن، أي: يكشف المريض عن ساقه ليبصر ضعفه، ويدعوه المؤذنون إلى الصلاة، فلا يمكنه أن يقوم، ويخرج.

فصل في تأويل «الساق»

قال القرطبيُّ: فأما ما روي أن الله تعالى يكشف عن ساقه، فإنه ـ عز وجل ـ يتعالى عن الأعضاء، والأبعاض، وأن ينكشف، ويتغطى، ومعناه أن يكشف عن العظيم من أمره وقيل: «يكشف عن نوره عز وجل».

وروى أبو موسى عن النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿عَن سَاقٍ﴾ قال: يكشف عن نورٍ عظيمٍ يخِرُّونَ لهُ سُجَّداً(٣).

= وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٩٧) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في «الأسماء والصفات».

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٩٧) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٩٨) وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مندة.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٩٧) وينظر المصادر السابقة.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٠٠) وأبو يعلى (١٣/ ٢٦٩) رقم (٧٢٨٣) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨) من طريق روح بن جناح عن مولى لعمر بن عبد العزيز عن أبي بردة عن أبيه مرفوعاً قال البيهقي: تفرد به روح بن جناح يأتي بأحاديث منكرة لا يتابع عليها.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٣١) وقال: رواه أبو يعلى وفيه روح بن جناح وثقه دحيم وقال فيه: ليس بالقوي وبقية رجاله ثقات. وذكره أيضاً الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» (٣٧٨٨) وعزاه إلى أبي يعلى والحديث زاد نسبته السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٩٧) إلى ابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر.

وروى أبو بردة عن أبي موسى قال: حدثني أبي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامةِ مثّل لِكُلِّ قَوْم مَا كَانُوا يَعْبدُونَ فِي الدُّنيَا فيَذْهبُ كُل قَوْم إلى مَا كَانُوا يَعْبُدُون ويبقى أهلُ التَّوحيدِ، فيقَال لهم: ما تَنْتَظِرُونَ، وقَدْ ذَهَبَ النَّاسُ، فيقولون: لنَا رَبٌّ كنَّا نَعْبدُهُ في الدُّنيَا، ولَمْ نَرَهُ، قال: وتعْرِفُونهُ إذَا رأيتمُوهُ؟ فيقولون: نَعَم، فيُقَالُ لَهُمْ: فَكَيْفَ تعرفونه، ولَمْ تَرَوهُ؟ قالوا: إنه لا شبيهَ لَهُ، فيكشفُ لَهُم الحجابُ، فينْظُرونَ إلى اللَّهِ تعالى، فيخِرُّونَ لَهُ سُجَّداً، ويبقى أقوامٌ ظُهُورهُم كَصَياصِي البَقرِ، فينظُرونَ إلى اللَّهِ تعالى فيريدون السُّجُودَ، فلا يَسْتطِيعُون، فَذلكَ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ فيقول الله تعالى: عبادي ارفعوا رءوسكم، فقد جعلت بدل كل رجل منكم رجلاً من اليهود والنصارى في النار»[1]، قال أبو بردةُ: فحدثت بهذا الحديث عمر بن عبد العزيز فقال: الله الذي لا إله إلا هو لقد حدثك أبوك بهذا الحديث؟ فحلف له ثلاثة أيمانٍ، فقال عمر: ما سمعتُ في أهل التوحيد حديثاً هو أحب إليَّ من هذا.

قوله ﴿خَٰشِعَةً﴾. حال من مرفوع «يُدْعَونَ» و «أبْصَارهُمْ» فاعل به، ونسب الخشوع للأبصار وإن كانت الأعضاء كُلها كذلك لظهور أثره فيها.

وقوله: «وهُمْ سَالِمُونَ». حال من مرفوع «يُدعَونَ» الثانية.

ومعنى ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾، أي: متواضعةً «تَرْهَقُهُمْ ذلَّةٌ» وذلك أن المؤمنين يرفعون رءوسهم، ووجوههم أشد بياضاً من الثلج، وتسود وجوه الكافرين والمنافقين حتى ترجع أشد سواداً من القار.

فصل في تقرير كلام أهل اللغة في الساق

قال ابن الخطيب[2] بعد أن حكى أقوال أهلِ اللغةِ في الكشف عن الساق: «واعلم أن هذا اعتراف من أهل اللغة بأن استعماله في الشدة مجاز، وأجمع العلماء على أنه لا يجوز صرف الكلامِ إلى المجاز إلا بعد تعذر حمله على الحقيقة، فإذا أقمنا الدلائل القاطعة على أنه تعالى يستحيل أن يكون جسماً، فيجب حينئذٍ صرف هذا اللفظ إلى المجاز. واعلم أن صاحب الكشَّاف أورد هذا التأويل في معرض آخر، فقال: الكشف عن السَّاق مثلٌ في شدَّة الأمر، فمعنى ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ يوم يشتد، ويتعاظم، ولا كشف ثمَّ ولا ساقَ، كما تقول: الشحيح يده مغلولة، ولا يد ثمَّ، ولا غل، وإنما هو مثل في البخلِ، ثم أخذ يعظم علم البيانِ ويقول: لولاه ما وقفنا على هذه الأسرارِ، وأقولُ: إما أن يدعي أنه يجوز صرف اللفظ عن ظاهره بغير دليل، أو تقول: لا يجوز ذلك إلا بعد امتناع حمله على الحقيقة، والأول باطل بالإجماع، ولأنا إن جوزنا ذلك انفتحت

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ٨٣.

أبواب تأويلات الفلاسفةِ في أمر المعاد، فإنهم يقولون في قوله: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الحج: ٢٣] ليس هناك أنهار ولا أشجار، وإنما هو مثل للّذة والسعادة ويقولون في قوله تعالى: ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ [الحج: ٧٧] وليس هناك ركوع ولا سجود وإنما هو مثل للتعظيم، ومعلوم أن ذلك يفضي إلى رفع الشرائع، وفساد الدينِ، وأما من قال: إنه لا يصار إلى التأويل، إلا عند قيام الدليل على أنه لا يجوز حمله على ظاهره، فهذا قولُ كُلِّ أحد من المتكلمين، فأين الدقائق التي استند هو بمعرفتها والاطلاع عليها بواسطةِ علم البيان، ثم إن قال بعد أن حكى القول بأن المراد بالساق جهنم، أو ساق العرش، أو ساق ملك عظيم إن اللفظ لا يدل إلا على ساق، وأما أي شيء هو فليس في اللفظ ما يدل عليه، ثم ذكر حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أَنَّهُ تعالى يَتَمثَّلُ للخَلْق يَوْمَ القِيامةِ حِيْنَ يَمُرُّ المُسْلمُونَ فيقول: مَنْ تَعْبُدُونَ؟ فيقولون: نَعْبُد اللّهَ فَيُشْهِدُهمْ مرَّتينِ، أو ثلاثاً، ثُمَّ يقُولَ: هَلْ تَعْرفُون ربَّكُمْ؟ فيقولون: لَوْ عرَّفنَا نفسَهُ عرفْناهُ، فعِنْدَ ذلِكَ يُكْشَفُ عن سَاقٍ فَلا يَبْقَى مُؤمِنٌ إلاَّ خَرَّ للّه ساجِداً، ويَبْقَى المُنافِقُونَ ظُهُورهُمْ كالطَّبَقِ الوَاحِدِ، كأنَّما فيهَا السَّفافِيدُ»[1].

قال: واعلم أن هذا القول باطل لوجوه:

أحدها: أن الدلائل دلت على أن كل جسم متناهي وكل متناهٍ محدث؛ وأنّ كلَّ جسم ممكن وكل ممكن محدث.

وثانيها: أنه لو كان المراد ذلك لكان من حق الساق أن يعرف أنها ساق مخصوصة معهودة عنده، وهي ساق الرحمن، أما إذا أجملت ففائدة التنكير: الدلالة على التعظيم، كأنه قال: يوم يكشف عن شدة، وأي شدة لا يمكن وصفها.

وثالثها: أن التعريف لا يحصل بالكشف عن الساق، وإنما يحصل بكشف الوجه، ثم حكى قول أبي مسلم: بأنه لا يمكن حمله على يوم القيامة؛ لأنه تعالى قال في وصفه: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ ويوم القيامة ليس فيها تعبد، ولا تكليف، بل المراد منه إما آخر أيام الرجل في دنياه، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] الآية لأنه الوقت الذي لا تنفع نفساً إيمانها، وإما حال المرض والهرم والعجز، ثم إنه يرى الناس يدعون إلى

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٥٩٨ ـ ٦٠٠) والطبراني كما في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٣١ ـ ٣٣٣: من طريق أبي الزعراء عن ابن مسعود.
وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ورده الذهبي بقوله: قلت ما احتجّا بأبي الزعراء.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٠١) وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والبيهقي في «البعث والنشور».

الصلاة إذا حضرت أوقاتها، وهو لا يستطيع الصلاة «وقَدْ كانُوا يُدعَونَ إلى السُّجودِ وهُم سَالِمُونَ» مما بهم الآن من الشدة النازلة بهم من هول ما عاينوا عند الموت، أو من العجز والهرم، ونظير هذه الآية ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣]. ثم قال: واعلم أنه لا نزاع في أنه يمكن حمل اللفظ على ما قال أبو مسلم، ثم قال: فأما قوله: «إنه لا يمكن حمله على يوم القيامة بسبب أن الأمر بالسجود حاصل في الدنيا والتكاليف زائلة يوم القيامة».

فجوابه: أن ذلك لا يكون على سبيل التكليف بل على سبيل التقريع والتخجيل فلم قلت: إن ذلك غير جائز.

قوله ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ في الدنيا ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ معافون أصحاء.

قال إبراهيم التيمي: أي: يدعون بالأذان، والإقامة، فيأبون.

وقال سعيد بن جبير: كانوا يسمعون حيّ على الفلاح فلا يجيبون، وهم سالمون أصحاء[1].

وقال كعبُ الأحبار: والله ما نزلت هذه الآية إلا في الذين يتخلفون عن الجماعات.

وقيل: أي: بالتكليف الموجه عليهم في الشرع.

قوله: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾، أي: فدعني والمكذبين بالقرآن وخلّ بيني وبينهم.

وقال الزجاجُ: لا تشغل بالك به كِلْهُ إليّ، فإني أكفيك أمره.

و «مَنْ» منصوب إما نسقاً على ضمير المتكلم، أو مفعول معه، وهو مرجوح؛ لإمكان النسق من غير ضعف، وتقدم إعراب ما بعده.

فصل في مناسبة الآية لما قبلها

لما خوف الكفار بعظمة يوم القيامة زاد في التخويف مما عنده، وفي قدرته من القهر، يقال: ذَرْني وإياه أي كِلْهُ إليّ، فأنا أكفيكه.

قال السديُّ: والمراد بالحديث القرآن[2].

وقيل: يوم القيامة، وهذا تسلية للنبيّ ﷺ.

قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: سنأخذهم على غفلة، وهم لا يعرفون، فعذبوا يوم بدر.

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٨٣) والقرطبي (١٨/ ١٦٣).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٦٣).

وقال سفيان الثوري: نسبغ عليهم النعم، وننسيهم الشكر.

وقال الحسن: كم مستدرجٍ بالإحسان إليه، وكم مفتون بالثناء عليه، وكم مغرورٍ بالستر عليه[١].

وقال أبو روق: كلما أحدثوا الخطيئة جددنا لهم نعمة، وأنسيناهم الاستغفار.

قال ابن عباسٍ: سنمكر بهم[٢]، وروي أن رجلاً من بني إسرائيل قال: يا ربِّ، كم أعصيك وأنت لا تعاقبني، فأوحى اللَّهُ إلى نبي زمانهم أن قُلْ له: كَمْ مِنْ عقُوبَةٍ لِي عليكَ وأنتَ لا تَشْعرُ أنَّ جُمُودَ عَيْنِك، وقساوة قلبك استدراجٌ منِّي، وعقُوبةٌ لو عقَلْتَ[٣].

والاستدراج: ترك المعالجة، وأصله النقل من حال إلى حال كالتدريج.

ومنه قيل: درجات، وهي منزلة واستدرج فلان فلاناً، أي: استخرج ما عنده قليلاً قليلاً، ويقال: درجه إلى كذا، واستدرجه بمعنى أدناه على التدريج، فتدرج.

ومعنى الآية: إنا لما أنعمنا عليهم اعتقدوا أن ذلك الإنعام تفضيل لهم على المؤمنين، وهو في الحقيقة يسبب هلاكهم.

قوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أمهلهم، وأطيل لهم المدة، كقوله ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] والملاوة: المدة من الدهر، وأملى الله له، أي: أطال له، والملوان: الليل والنهار.

وقيل: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾، أي: لا أعاجلهم بالموت، والمعنى واحد، والملا مقصور: الأرضِ الواسعة سميت بها لامتدادها ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أي: إن عذابي لقوي شديد؛ فلا يفوتني أحد، وسمى إحسانه كيداً كما سماه استدراجاً في صورة الكيدِ ووصفه بالمتانة لقوة أثر استحسانه في السبب للهلاك.

فصل في إرادة الكائنات

قال ابن الخطيبِ: تمسك الأصحاب بهذه الآية في مسألة إرادة الكائنات، لأن هذا الاستدراج والكيد إن لم يكن لهما أثر في الطغيان، فليسا بكيد، ولا استدراج، وإن كان لهما أثر فيه لزم أن يكون الحق سبحانه مريداً له، لأن من فعل شيئاً لحصول شيء وأكده وقواه لا بد وأن يكون مريداً لحصول ذلك الشيء.

أجاب الكعبيُّ: بأن المراد استدراجهم إلى الموتِ، أي: يخفى عنهم زمن الموت من حيثُ لا يعلمون، وهو مقتضى الحكمة، وإلا لكان فيه إغراء بالمعاصي، لأنهم لو عرفوا الوقت الذي يموتون فيه أقدموا على المعاصي، ثم صاروا مفتنين.

---

(١) ينظر المصدر السابق. (٢) ينظر المصدر السابق. (٣) ينظر المصدر السابق.

وأجاب الجبائيُّ: بأن معنى قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ أي: إلى العذاب ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ في الآخرة، ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ في الدنيا توكيداً للحجة عليهم ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ فأمهله، وأزيح الأعذار عنه ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، ويدل على هذا قوله قبل ذلك: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ ولا شك أن هذا التهديد إنما هو بعذاب الآخرة، فوجب أن يكون الاستدراج والكيد المذكور عقيبه هو عذاب الآخرة وأجاب الأصحاب: أن هنا الإمهال إذا كان مؤدياً إلى الطغيان كان الراضي بالإمهال العالم بتأديه إلى الطغيان لا بد وأن يكون راضياً بذلك الطغيان.

قوله: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾. عاد الكلام إلى ما تقدم من قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: أم تلتمس منهم ثواباً على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله، والمغرم: الغرامة فهم من غرامة ذلك مثقلُون، أي: يثقل حمل الغرامات عليهم في بذل المال، فيثبطهم ذلك عن الإيمان.

والمعنى: ليس عليهم كلفة في متابعتك، بل يستولون بالإيمان على خزائن الأرض ويصلون إلى جنات النعيم.

قوله: ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾، أي: علم ما غاب عنهم ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾.

وقيل: أينزل عليهم الوحي بهذا الذي يقولون، وعن ابن عباسٍ: الغيب هنا هو اللوح المحفوظُ، فهم يكتبون منه ثوابَ ما هم عليه من الكفر، ويخاصمونك به، ويكتبون أنهم أفضل، وأنهم لا يعاقبون[١].

وقيل: «يَكْتُبونَ» أي: يحكمون ما يريدون، وهذا استفهام على سبيل الإنكار.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٥٢)﴾

قوله ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: لقضاء ربِّك، والحكم هنا القضاء.

وقيل: اصبر على ما حكم به عليك ربُّك من تبليغ الرسالةِ.

وقال ابنُ بَحْرٍ: فاصبر لنصر ربك.

وقيل: منسوخ بآية السيف ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ يعني يونس ـ عليه السلام ـ أي: لا تكن مثله في الغضب، والضجر، والعجلة.

وقال قتادة: إن الله تعالى يعزي نبيه ﷺ ويأمره بالصبر، ولا يعجل كما عجل يونس

(١) ينظر المصدر السابق.

ـ عليه الصلاة والسلام[١] ـ. وقد مضى الفرق بين «ذي» و «صاحب» في «يونس».

قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾.

«إذْ» منصوب بمضاف محذوف، أي: ولا يكن حالك كحاله، أو قصتك كقصته في وقت ندائه، ويدل على المحذوف أن الذوات لا ينصبُّ عليها النهي على أحوالها، وصفاتها.

وقوله: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾. جملة حالية من الضمير في «نَادَى».

والمكظوم: الممتلىء حزناً وغيظاً، ومنه كظم السقاء إذا ملأه.

قال ذو الرمة: [البسيط]

٤٨٣٦ ـ وأنْتَ مِنْ حُبِّ مَيّ مُضمِرٌ حَزَناً عَانِي الفُؤادِ قَرِيحُ القَلْبِ مَكْظُومُ[٢]

فصل في دعاء يونس

«إذْ نَادَى»، أي: حين دعا من بطن الحوتِ، فقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

قال القرطبي[٣]: ومعنى ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي: مملوء غمًّا.

وقيل: كرباً، فالأول قول ابن عباس ومجاهد[٤]، والثاني: قول عطاء وأبي مالك، قال الماورديُّ: والفرق بينهما أن الغمَّ في القلب، والكرب في الأنفاس.

وقيل: «مَكْظُومٌ» محبوس، والكظم: الحبس ومنه قولهم: كَظَمَ غَيْظَهُ، أي: حبس غضبه، قاله ابن بحر.

وقيل: «إنه المأخوذ بكظمه وهو مجرى النفس، قاله المُبرِّدُ».

والمعنى: لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر، والمغاضبة، فتبتلى ببلائه.

قوله: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ﴾.

قال ابن الخطيب[٥]: لِمَ لَمْ يَقُلْ: تداركته نعمة؟ وأجاب: بأنه إنما حسن تذكير الفعل لفصل الضمير في «تَدَارَكَهُ». ولأن التأنيث غير حقيقي.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٠٣) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٠٢) وعزاه إلى عبد الرزاق وأحمد في «الزهد» وابن المنذر.

(٢) ينظر البحر ٨/ ٣١١، وفتح القدير ٥/ ٢٧٧، والدر المصون ٦/ ٣٥٨، وروح المعاني ٢٩/ ٤٥.

(٣) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٦٥.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٠٢) عن ابن عباس ومجاهد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٠٢) عن ابن عباس وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

وذكره عن مجاهد وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٥) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٨٧.

وقرأ أبيّ[(١)] **وعبد الله بن عباس**: «تَدارَكتْهُ» بتاء التأنيث لأجل اللفظِ.

والحسن وابن[(٢)] **هرمز والأعمش**: «تَدّارَكهُ» ـ بتشديد الدال ـ.

وخرجت على الأصل: تتداركه ـ بتاءين ـ مضارعاً، فأدغم، وهو شاذ؛ لأن الساكن الأول غير حرف لين؛ وهي كقراءة البزي «إذْ تَلَّقَّوْنَهُ» [النور: ١٥]، و «ناراً تَلَّظَّى» [الليل: ١٤]، وهذا على حكاية الحال، لأن المقصد ماضيه، فإيقاع المضارع هنا للحكاية، كأنه قال: لولا أن كان يقال فيه: تتداركه نعمة.

قوله: ﴿نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

قال الضحاكُ: النعمة هنا: النبوة[(٣)].

وقال ابن جبيرٍ: عبادته التي سلفت[(٤)].

وقال ابن زيدٍ: نداؤه بقوله ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٥)] [الأنبياء: ٨٧].

وقال ابن بحرٍ: إخراجه من بطن الحوتِ.

وقيل: رحمة من ربِّه، فرحمه وتاب عليه.

قوله: ﴿لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ﴾، هذا جواب «لَوْلاَ»، أي: لنبذ مذموماً لكنه نبذ سقيماً غير مذموم.

وقيل: جواب «لَولاَ» مقدر، أي: لولا هذه النعمة لبقي في بطن الحوتِ.

ومعنى: «مَذْمُوم»، قال ابن عباس: مُليمٌ.

وقال بكر بن عبد الله: مُذنِبٌ.

وقيل: مبعدٌ من كل خير. والعراء: الأرض الواسعة الفضاء التي ليس فيها جبل، ولا شجر يستر.

وقيل: لولا فضلُ الله عليه لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة، ثم نبذ بعراء القيامة مذموماً، يدل عليه قوله تعالى ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

فصل في عصمة الأنبياء

قال ابن[(٦)] الخطيب: هل يدل قوله «وهُوَ مَذمُومٌ» على كونه فاعلاً للذنب؟ قال: والجوابُ من ثلاثة أوجه:

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/٥٩٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٥٤، والدر المصون ٦/ ٣١١.

(٢) ينظر السابق.

(٣) ذكره الماوردي (٦/ ٧٣) والقرطبي (١٨/ ١٦٥) عن الضحاك.

(٤) ينظر المصدر السابق.

(٥) ينظر المصدر السابق.

(٦) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٨٧.

الأول: أن كلمة «لولا» دلت على أن هذه المذمومية لم تحصل.

الثاني: لعل المراد من المذموميةِ ترك الأفضلِ، فإن حسنات الأبرارِ سيئات المقربين.

الثالث: لعل هذه الواقعة كانت قبل النبوة، لقوله «فاجْتبَاهُ رَبُّهُ» والفاء للتعقيب.

قيل: إن هذه الآية نزلت بأحدٍ حين حل برسول الله ﷺ ما حل فأراد أن يدعو على الذين انهزموا.

وقيل: حين أراد أن يدعو على ثقيف.

قوله: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾، أي: فاصطفاه واختاره. ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

قال ابن عباس: رد الله إليه الوحي، وشفعه في نفسه، وفي قومه[(١)]، وقبل توبته وجعله من الصالحين بأن أرسله إلى مائة ألفٍ، أو يزيدون.

فصل فيمن قال: إن يونس لم يكن نبياً قبل واقعة الحوت

قال ابن[(٢)] الخطيب: قال قوم: لعل صاحب الحوتِ ما كان رسولاً قبل هذه الواقعة، ثم بعد هذه الواقعة جعله الله رسولاً، وهو المرادُ من قوله ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ والذين أنكروا الكرامات والإرهاص لا بد وأن يختاروا هذا القول، لأن الاحتباس في بطن الحوت، وعدم موته هناك لما لم يكن هناك إرهاص، ولا كرامة، فلا بد وأن تكون معجزة، وذلك يقتضي أنه كان رسولاً في تلك الحال.

فصل في خلق أفعال العباد

قال ابن[(٣)] الخطيب: احتج الأصحاب على أن فعل العبد خلق الله تعالى بقوله: ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وهذا يدل على أن الصلاح إنما حصل بجعل الله وخلقه.

قال الجبائيُّ: يحتمل أن يكون معنى «جعلهُ» أنه أخبر بذلك، ويحتمل أن يكون لطف به حتى صلح، إذ الجعل يستعمل في اللغة في هذه المعاني.

والجواب: أن ذلك مجاز، والأصل في الكلامِ الحقيقة.

قوله: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ «إنْ» المخففة من الثقيلة. «ليُزلقُونكَ»، أي: يغتالونك بأبصارهم، **قرأها نافع**[(٤)]: **بفتح الياء، والباقون: بضمها.**

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٦٥). (٢) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ٨٧.

(٣) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ٨٨.

(٤) ينظر: السبعة ٦٤٧، والحجة للقراء السبعة ٦/ ٣١٢، وإعراب القراءات ٢/ ٣٨٢، وحجة القراءات ٧١٨.

فأما قراءة الجماعة: فمن أزلقه، أي: أزال رجله، فالتعدية بالهمزة من أزلق يزلق.

وأما قراءة نافع، فالتعدية بالحركة، يقال: زَلِقَ ـ بالكسر ـ وزلقتُه ـ بالفتح، ونظيره: شترت عينه ـ بالكسر ـ وشترها الله ـ بالفتح. [وقد تقدم لذلك أخوات].

وقيل: زلقه وأزلقه ـ بمعنى واحد ـ إزلاقاً، إذا نحاه وأبعده، وأزلق برأسه يزلقه زلقاً، إذا حلقه.

قال القرطبي: «وكذلك أزلقه، وزلقهُ تزليقاً، ورجل زلقٌ وزُملق ـ مثال هُدَبِد ـ وزمالِق وزملِق ـ بتشديد الميم ـ وهو الذي ينزل قبل أن يجامع، حكاه الجوهري وغيره».

والباء في «بأبْصارهِمْ» إما للتعدية كالداخلة على الآلة، أي: جعلوا أبصارهم كالآلة المزلقة لك كـ «عملت بالقدوم»، وإما للسببية، أي: بسبب عيونهم.

وقرىء[1]: «ليُزْهقونَكَ» من زهقت نفسه، وأزهقها.

ثم فيه وجوه:

أحدها: أنهم من شدة تحديقهم، ونظرهم إليك شزراً بعيون العداوة، والبغضاء يكادون يزلقون قدمك من قولهم: نظر إليّ نظراً يكاد يصرعني ويكاد يأكلني، أنشد ابن عباسٍ لما مر بأقوام حددوا النظر فيه: [الكامل]

٤٨٣٧ ـ نَظَرُوا إليَّ بأعْيُنٍ مُحْمَرَّةٍ   نَظَرَ التيُوسِ إلى شِفارِ الجَازِرِ[2]

فصل في المراد بالنظر

أخبر الله تعالى بشدة عداوتهم للنبي ﷺ وأرادوا أن يصيبوه بالعين، فنظر إليه قوم من قريش وقالوا: ما رأينا مثله، ولا مثل حججه.

وقيل: كانت العين في بني أسد، حتى إن البقرة السمينة، أو الناقة السمينة تمر بأحدهم فيعاينها ثم يقول: يا جارية، خذي المكتل والدرهم، فأتنا بلحم هذه الناقة فما تبرح حتى تقع الناقة للموت فتنحر.

وقال الكلبيُّ: كان رجل من العرب يمكث لا يأكل شيئاً يومين أو ثلاثة ثم يرجع جانب الخباء، فتمر به الإبل والغنم، فيقول: لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه فلا تذهب قليلاً حتى تسقط منها طائفة هالكة، فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب لهم النبي ﷺ بالعين، فأجابهم، فلما مر النبي ﷺ أنشد: [الكامل]

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٩٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٥٤، ونسبها لابن مسعود، وينظر: البحر المحيط ٨/ ٣١١، وزاد: ابن عباس، والأعمش، وعيسى.

(٢) ينظر الرازي ٣٠/ ٨٨.

٤٨٣٨ ـ قَدْ كَانَ قَوْمُكَ يَحسبُونَكَ سيِّداً وإخَالُ أنَّك سَيِّدٌ مَعْيُونُ[١]

فعصم الله نبيه ﷺ ونزلت هذه الآية[٢].

وذكر الماورديُّ: أن العرب كانوا إذا أراد أحدهم أن يصيب أحداً يعني في ماله ونفسه يجوع ثلاثة أيام ثم يتعرض لنفسه وماله، فيقول: بالله ما رأيتُ أقوى منه، ولا أشجع، ولا أكبر منه، ولا أحسن فيصيبه بعينه فيهلك هو وماله، فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية.

قال القشيريُّ: وفي هذا نظرٌ؛ لأن الإصابة بالعين إنما تكون مع الاستحسان والإعجاب لا مع الكراهية والبغضِ، ولهذا قال: «ويقولون: إنه لمجْنُونٌ» أي: ينسبونك إلى الجنون إذا رأوك تقرأ القرآن.

قال القرطبيُّ[٣]: أقوال المفسرين واللغويين تدل على ما ذكرنا، وأن مرادهم بالنظر إليه قتله، ولا يمنع كراهة الشيء من أن يصاب بالعين عداوة حتى يهلك.

فمعنى الكلمة إذاً التنحية والإزالة، وذلك لا يكون في حق النبي ﷺ إلا بهلاكه وموته.

قال الهرويُّ: أراد ليغتالونك بعيونهم، فيزيلونك عن مقامك الذي أقامك الله فيه عداوة لك.

وقال ابن عباس: ينفذونك بأبصارهم[٤]، يقال: زلق السَّهم، وزهق إذا نفذ، وهو قول مجاهد أي: ينفذونك من شدة نظرهم.

وقال الكلبي: يصرعونك[٥]، وعنه أيضاً والسُّدي وسعيد بن جبير: يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة[٦].

---

(١) البيت للعباس بن مرداس. ينظر ديوانه ١٠٨ وجمهرة اللغة ص ٩٥٦، والحيوان ٢/ ١٤٢ وشرح التصريح ٢/ ٣٩٥، وشرح شواهد الشافية ص ٣٨٧، واللسان (عين)، والمقاصد النحوية ٤/ ٥٧٤، وأوضح المسالك ٤/ ٤٠٤، والخصائص ١/ ٢٦١، وشرح الأشموني ٣/ ٧٦٦، والمقتضب ١/ ١٠٢.

وأمالي ابن الشجري ١١/ ١١٣، والقرطبي ١٨/ ١٦٦، والبحر ٨/ ٣١١، وروح المعاني ٢٩/ ٤٦.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٦٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٦٦.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٠٤) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٠٣) وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٥) ذكره القرطبي (١٨/ ١٦٦) وذكره الطبري (١٢/ ٢٠٤).

(٦) ينظر المصدر السابق.

وقال العوفي: يرمونك.

وقال المؤرج: يزيلونك.

وقال النضر بن شميل والأخفش: يفتنونك.

وقال الحسن وابن كيسان: ليقتلونك كما يقال: صرعني بطرفه، وقتلني بعينه.

قوله: ﴿لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ من جعلها ظرفية جعلها منصوبة بـ «يُزْلِقُونكَ»، ومن جعلها حرفاً جعل جوابها محذوفاً للدلالة، أي: لما سمعوا الذِّكر كادوا يزلقونك، ومن جوز تقديم الجواب، قال: هو هنا متقدم(١).

والمراد بالذكر القرآن، ثم قال: «ويقولون إنَّهُ لمجْنُونٌ» وهو على ما افتتح به السُّورة، ثم قال: «ومَا هُوَ» يعني: القرآن.

﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: الذين يزعمون أنه دلالة جنونه إلا ذكر للعالمين تذكير لهم، وبيان لهم على ما في عقولهم من أدلة التوحيد.

وقال الحسنُ: دَوَاء إصابةِ العيْنِ أنْ يَقْرَأ الإنسانُ هذه الآية(٢).

وقيل: وما محمدٌ إلا ذكر للعالمين يتذكرون به.

وقيل: معناه شرف، أي: القرآن، كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] والنبي ﷺ شرف للعالمين أيضاً شرفوا باتباعه والإيمان به.

عن أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ سُورَةَ القلمِ أعْطَاهُ اللَّهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ ثوابَ الذينَ حسَّنَ اللَّهُ أخلاقهم»(٣).

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٦٠.

(٢) ذكره البغوي ٤/ ٣٨٤.

(٣) تقدم تخريجه.

سورة الحاقة

مكّية، وهي اثنتان وخمسون آية، ومائتان وستة وخمسون كلمة، وألف وأربعة وستون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾.

«الحاقة» مبتدأ، و «ما» مبتدأ ثانٍ، و «الحاقة» خبره، والجملة خبر الأول؛ لأن معناها «ما هي» واللفظُ استفهام، ومعناها التفخيم والتعظيم لشأنها.

قال ابن الخطيب[1]: وُضِعَ الظاهرُ موضع المضمرِ؛ لأنه أهولُ لها، ومثله ﴿ٱلْقَارِعَةُ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١، ٢] وقد تقدَّم تحريرُ هذا في «الواقعةِ».

و «الحاقَّة» فيها وجهان:

أحدهما: أنه وصف اسم فاعل بمعنى أنها تبدي حقائق الأشياء.

وقيل: إن الأمر يحق فيها فهي من باب «ليل نائم، ونهار صائم» قاله الطبري.

وقيل: سميت حاقة؛ لأنها تكون من غير شكٍّ لأنها حقَّت فلا كاذبة لها.

وقيل: سميت القيامة بذلك؛ لأنها أحقت لأقوامِ الجنَّة، وأحقَّت لأقوامِ النَّار.

وقيل: من حق الشيء: ثبت فهي ثابتة كائنة.

وقيل: لأنها تحق كل محاق في دين الله أي: تغلبه، من حاققته، فحققته أحقه أي: غلبته.

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ١٠/٩٠.

وفي «الصحاح»[1]: وحاقه، أي: خاصمه، وادعى كل واحد منهما الحقَّ، فإذا غلبه قيل: حقه، ويقال: ما له فيه حقٌّ، ولا حقاق أي: خصومة، والتحاق: التخاصم، والاحتقاق: الاختصام، والحاقَّةُ والحقُّ والحقةُ ثلاثُ لغاتٍ بمعنًى.

وقال الكسائيُّ والمؤرج: الحاقَّةُ: يوم الحقِّ.

والثاني: أنه مصدر كـ «العاقبة» و «العافية».

قوله «ما الحَاقَّةُ» في موضع نصب على إسقاط الخافض، لأن «أدرى» بالهمزة يتعدى لاثنين، للأول: بنفسه، والثاني: بـ «الباء»، قال تعالى: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦ﴾ [يونس: ١٦]، فلما وقعت جملة الاستفهام معلقة لها كانت في موضع المفعولِ الثاني، ودون الهمزة تتعدى لواحدٍ بـ «الباء» نحو: «دريت بكذا» أو يكون بمعنى «علم» فيتعدّى لاثنين.

فصل في معنى «ما أدراك»

معنى «ما أدراك»، أي شيء أعلمك ما ذاك اليوم، والنبي ﷺ كان عالماً بالقيامة، ولكن لا علم له بكونها وصفتها، فقيل ذلك تفخيماً لشأنها، كأنك لست تعلمُها، ولم تعاينها.

وقال يحيى بن سلام: بلغني أنَّ كل شيء في القرآن «ومَا أدْراكَ» فقد أدراه وعلمه، وكل شيء قال: «ومَا يُدْريكَ» فهو مما لم يعلمهُ.

وقال سفيان بن عيينة: كل شيء قال فيه: «وما أدْراكَ» فإنه أخبر به، وكل شيء قال فيه: «وما يُدريْكَ»، فإنه لم يخبر به.

قوله: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾.

«القارعةُ» القيامة، سميت بذلك [لأنها] تقرعُ قلوب العبادِ بالمخافةِ.

وقيل: لأنها تقرع الناس بأهوالها يقال: أصابتهم قوارعُ الدهرِ، أي: أهواله وشدائده وقوارضُ لسانه؛ جمع قارضة، وهي الكلمة المؤذيةُ، وقوارعُ القرآن: الآيات التي يقرؤها الإنسانُ إذا فُزِعَ من الجن والإنس نحو آية «الكرسي» كأنَّه يقرع الشيطان.

وقال المبرِّد: القارعة مأخوذةٌ من القرعة من رفع قومٍ وحطِّ آخرين.

وقوارعُ القيامة: انشقاقُ السماءِ، وانفطارها، والأرض والجبال بالدكِّ والنسف، والنجوم بالطَّمس والانكدار.

وإنما قال: «﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾، ولم يقل: بها ليدل على أنَّ معنى القرع حاصل في الحاقَّةِ، فيكون ذلك زيادة على وصف شدتها، ولما ذكرها وفخمها أتبع ذلك

---

(١) ينظر: الصحاح ٤/ ١٤٦١.

بذكر من كذب بها، وما حل بهم بسبب التكذيبِ تذكيراً لأهل «مكةَ» وتخويفاً لهم من عاقبةِ تكذيبهم.

وقيل: عنى بالقارعةِ: العذاب الذي نزل بهم في الدنيا، وكان نبيُّهم يخوفهم بذلك، فيكذبونه وثمودُ قوم صالح، وكانت منازلهم بـ «الحجر» فيما بين «الشام» و «الحجاز».

قال ابن إسحاق: هو وادي «القرى»، وكانوا عرباً، وأما عادٌ فقوم هود، وكانت منازلهم بـ «الأحقاف»، و «الأحقاف»: الرمل بين «عمان» إلى «حَضْرَمَوْتَ» و «اليمن» كله، وكانوا عرباً ذوي بسطةٍ في الخلق وقد تقدم ذلك في «الأحقاف».

قوله: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾. هذه قراءةُ العامةِ.

وقرأ زيدُ[1] بن عليّ: «فَهَلكُوا» مبنياً للفاعل.

وقوله: «بالطاغية» فيه إضمار أي: بالفعلة الطَّاغية.

وقال قتادةُ: بالصَّيحةِ الطاغية المتجاوزةِ[2] للحدِّ، أي: لحد الصيحاتِ من الهولِ، كما قال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١].

و «الطغيانُ»: مجاوزة الحدِّ، ومنه ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ﴾ [الحاقة: ١١]، أي: جاوز الحدَّ.

وقال ابن زيدٍ: بالرجل الطَّاغية، وهو عاقرُ الناقةِ[3]، و «الهاء» فيه للمبالغة على هذه الأوجه صفة.

والمعنى: أهلكوا بما أقدم عليه طاغيهم من عقر الناقة وكان واحداً، وإنما هلك الجميعُ؛ لأنهم رضوا بفعله، ومالئوه.

وقيل له: طاغية كما يقال: فلان راويةٌ وداهيةٌ وعلامةٌ ونسابةٌ.

ويحتمل أن يقال: بسبب الفِرقةِ الطاغيةِ، وهم: التسعة رهطٍ، الذين كانوا يفسدون في الأرضِ، ولا يصلحون، وأحدهم عاقرُ الناقة.

وقال الكلبيُّ: «بالطَّاغيةِ»: بالصَّاعقةِ[4].

وقال مجاهدٌ: بالذُّنوبِ[5].

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ١٣٥، والدر المصون ٦/ ٣٦١.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٠٧). (٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٦٨).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٦٨) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٠٥) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وعبد بن حميد.

وقال الحسنُ: بالطُّغيانِ[١] فهي مصدرٌ كـ «العاقبة» و «الكاذبة»، أي: أهلكُوا بطغيانهم وكفرهم، وبوضحه: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ [الشمس: ١١].

قال ابن الخطيب[٢]: وهذا منقولٌ عن ابن عبَّاسٍ، قال: وقد طعنوا فيه بوجهين:

الأول: قال الزجاجُ: إنه لما ذكر في الجملة الثانية نوع الشيءِ الذي وقع به العذابُ، وهو قوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ وجب أن يكون الحال في الجملة الأولى كذلك حتى تحصل المناسبةُ.

والثاني: قال القاضي: لو كان المرادُ ما قالوه لكان من حق الكلام أن يقال: أهْلِكُوا لها ولأجلِها.

فـ «الباء» للسببية على الأقوال إلاَّ على قولِ قتادة، فإنها فيه للاستعانة كـ «عملتُ بالقدوم».

قوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾. أي: باردة تحرق ببردها كإحراق النار مأخوذٌ من الصَّرصر وهو البردُ. قاله الضحاك[٣].

وقيل: إنَّها لشديدةُ الصوتِ.

وقال مجاهد: إنَّها لشديدة السُّموم[٤]، و «عَاتِية» عتت على خُزَّانها فلم تطعهم، ولم يطيقوها من شدة هبوبها غضبت لغضبِ اللَّهِ.

وقال عطاء عن ابن عباسٍ: عتت على عادٍ فقهرتهم، فلم يقدروا على ردِّها بحيلة من استناد إلى جبل، بل كانت تنزعهم من مكانهم وتهلكهم[٥].

وروى سفيانُ الثوريُّ عن موسى بن المسيِّب عن شهر بن حوشب عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أرسَلَ اللَّهُ من نسمةٍ من ريْحٍ إلاَّ بمِكْيالٍ ولا قطرة من مَاءٍ إلاَّ بمكيَالٍ إلا يَوْمَ عادٍ ويَوْمَ قوْمَ نُوح فإنَّ المَاءَ يوْمَ قوْمَ نُوحٍ طَغَى على الخزان فلمْ يكُنْ لهُمْ عليهِ سبيلٌ»، [﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ الآيةَ والرِّياح لمّا كَانَ يَوْمُ عادٍ غشَتْ على الخزائنِ ولمْ يكُنْ لهُمْ عليْهَا سبيلٌ]، ثم قرأ: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[٦].

---

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٧٦) والقرطبي (١٨/ ١٦٨).

(٢) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ٩١.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٠٨).

(٤) ينظر المصدر السابق.

(٥) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ٩٢.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٠٧) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٠٥) وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد.
وقد روي عن ابن عباس مرفوعاً ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٠٥) وعزاه إلى أبي الشيخ في «العظمة» والدارقطني في «الأفراد» وابن مردويه وابن عساكر.
وأخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٠٨) عن علي بن أبي طالب موقوفاً.

وقيل: إنَّ هذا ليس من العتو الذي هو عصيانٌ، إنَّما هو بلوغُ الشيء وانتهاؤه، ومنه قولهم: عتا النَّبْتُ، أي: بلغ منتهاه وجفَّ، قال تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]، أي: بالغة منتهاها في القوّة والشدّة.

قوله: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾، أي: أرسلها وسلَّطها عليهم، والتسخيرُ استعمال الشيء بالاقتدار.

وقال الزجاج: أقامها عليهم.

والجملة من قوله: «سخَّرها» يجوز أن تكون صفة لـ «رِيْح»، وأن تكون حالاً منها لتخصيصها بالصفة، أو من الضمير في «عاتية»، وأن تكون مستأنفةً.

قال ابنُ الخطيب[١]: وعندي أنَّ فيه لطيفة، وذلك أن في الناس من قال: إن تلك الرياحَ إنما اشتدت؛ لاتصال فلكي نجومي اقتضى ذلك، فقوله: «سخَّرهَا» فيه إشارة إلى نفي ذلك المذهب، وأن ذلك إنَّما حصل بتقدير الله وقدرته، فإنه لولا هذه الدقيقةُ لمَا حصل منه التخويفُ، والتحذيرُ عن العقابِ.

وقوله: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ الفائدة فيه أنه ـ تعالى ـ لو لم يذكر ذلك لما كان مقدارُ زمان ذلك العذاب معلوماً، فلما قال: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ احتمل أن يكون متفرقاً في هذه المدةِ، فأزال هذا الظنَّ بقوله: «حُسُوماً» أي: مُتتابِعَةٌ مُتواليةٌ.

فصل في تعيين الأيام المذكورة في الآية

قال وهبٌ: هي الأيامُ التي تسميها العرب أيام العجوزِ، ذاتُ بردٍ ورياحٍ شديدةٍ.

وقيل: سمِّيت عجوزاً لأنها في عجزِ الشتاءِ.

وقيل: لأن عجوزاً من قوم عاد دخلت سرباً، فتبعتها الريح فقتلتها في اليومِ الثامنِ من نزول العذاب، وانقطع العذابُ.

قوله: «حُسُوْماً». فيه أوجهٌ:

أحدها: أن ينتصب نعتاً لما قبلها.

الثاني: أن ينتصب على الحالِ، أي: ذات حُسُوم.

وقرأ السدِّي[٢]: «حَسُوماً» ـ بالفتح ـ حالاً من الريح، أي: سخرها عليهم مستأصلة.

الثالث: أن ينتصب على المصدر بفعل من لفظها، أي: تحسمهم حُسوماً.

الرابع: أن يكون مفعولاً له.

---

(١) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ٩٢.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٩٩، والبحر المحيط ٨/ ٣١٦.

ويتضح ذلك بقول الزمخشريِّ: «الحُسُوْم»: لا يخلو من أن يكون جمع «حاسم» كـ «شاهد» و «شهود»، أو مصدراً «كالشّكور»، «والكفُور»، فإن كانت جمعاً، فمعنى قوله: «حُسُوْماً» أي: نحساتٌ حسمتْ كلَّ خيرٍ، واستأصلت كُلَّ بركةٍ، أو متتابعة هبوب الريح ما خفضت ساعة تمثيلاً لتتابعها بتتابُعِ فعل الحاسمِ في إعادة الكيِّ على الدَّاء كرَّة بعد أخرى حتى ينحسمَ.

وإن كان مصدراً فإما أن ينتصب بفعله مضمراً، أي: تحسمهم حُسوماً بمعنى استأصل استئصالاً، أو تكون صفة كقولك: ذات حسومٍ، أو يكون مفعولاً له، أي: سخرها عليهم للاستئصال.

قال عبد العزيز بن زرارة الكلابي الشاعر: [الوافر]

٤٨٣٩ ـ فَفرَّقَ بَيْنَ بيْنِهِمُ زمانٌ تَتَابعَ فيهِ أعْوَامٌ حُسُومُ[1]

انتهى. وقال المبرِّدُ: الحُسومُ: الفصلُ، حسْمتُ الشَّيء من الشيء فصلتهُ منه.

ومنه الحسام.

قال الشاعر: [المتقارب]

٤٨٤٠ ـ فأرْسلْتُ رِيحاً دَبُوراً عَقِيماً فَدارَتْ عَليْهِمْ فكَانَتْ حُسُومَا[2]

وقال الليثُ: هي الشُّؤمُ، يقال: هذه ليالي الحسوم، أي: تحسم الخير عن أهلها، لقوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦]، وهذان القولان يرجعان إلى القول الأول؛ لأن الفصل قطعٌ وكذلك الشُّؤم لأنه يقطع الخير.

قال ابنُ زيدٍ: حَسَمتْهُمْ فلم تُبْقِ منهم أحداً[3]، وعنه أيضاً: أنها حسمت الليالي والأيام حتى استوفتها؛ لأنها بدأت طلوع الشمس أول يوم، وانقطعت غروب الشمس من آخر يوم[4].

واختلف في أولها: فقال السدِّي: غداة يوم الأحدِ[5].

وقال الربيع بن أنس: غداة يوم الجمعة[6] وقال يحيى بن سلام: غداة يوم الأربعاء[7]، وهو يوم النحس المستمر.

---

(١) البيت لعبد العزيز بن زرارة الكلبي. ينظر الكشاف ٤/ ٥٩٩، والبحر ٨/ ٣١٤، والقرطبي ١٨/ ١٦٩، والدر المصون ٦/ ٣٦٢.

(٢) ينظر البحر المحيط ٨/ ١٣٤، والدر المصون ٦/ ٣٦٢.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٠٩). (٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٦٩).

(٥) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٧٧) والقرطبي (١٨/ ١٦٩).

(٦) ينظر المصدر السابق. (٧) ينظر المصدر السابق.

قيل: كان آخر أربعاء في السَّنة، وآخرها يوم الأربعاء، وهي في «آذار» من أشهر السريانيين، ولها أسماء مشهورة، قال فيها ابن أحمر: [الكامل]

٤٨٤١ ـ كُسِعَ الشِّتاءُ بِسَبْعَةٍ غُبْرِ أيَّامِ شَهْلَتِنَا مع الشَّهْرِ
فإذَا انْقَضَتْ أيَّامُهَا ومضَتْ صِنٌّ وصِنَّبرٌ مَعَ الوَبْرِ
وبآمِرٍ وأخِيهِ مُؤتَمِرٍ ومُعَلِّلٍ وبِمُطْفِىءِ الجَمْرِ
ذَهَبَ الشِّتاءُ مُولِّياً عَجِلاً وأتَتْكَ واقِدَةٌ من النَّجْرِ[١]

وقال آخر: [الكامل]

٤٨٤٢ ـ كُسِيَ الشِّتاءُ بِسبْعَةٍ غُبْرِ بالصِّنِّ والصِّنَّبْرِ والوبْرِ
وبآمرٍ وأخِيهِ مُؤتَمِرٍ ومُجَلِّلٍ وبِمُطْفِىءِ الجَمْرِ[٢]

قوله: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ أي: في تلك الليالي والأيَّام «صرعى» جمع صريع، وهي حال نحو: «قتيل وقتلى، وجريح وجرحى».

والضمير في «فيها» للأيام والليالي كما تقدم، أو للبيوت أو للريح، والأول أظهرُ لقُربهِ؛ ولأنه مذكور.

قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾. أي: أصول نخلٍ، و «كأنهم أعجازٌ» حال من القوم، أو مستأنفة.

وقرأ أبو نهيك[٣]: «أعْجز» على وزن «أفْعُل» نحو: «ضَبْع وأضْبُع».

وقرىء: «نخيل»[٤] حكاه الأخفشُ.

وقد تقدَّم أن اسم الجنس يذكَّر ويؤنَّثُ، واختير هنا تأنيثُه للفواصلِ، كما اختير تذكيره لها في سورة «القمر».

وقال أبو الطُّفيل: أصول نخل خاوية، أي: بالية.

وقيل: خاليةُ الأجوافِ لا شيء فيها.

قال القرطبيُّ[٥]: وقد قال تعالى في سورة «القمر»: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠] فيحتمل أنَّهم شُبِّهُوا بالنخل التي صُرعت من أصلها وهو إخبار عن عظم أجسامهم، ويحتمل أن يكون المراد به الأصول دون الجذوع، أي: أنَّ الريح قطعتهم حتى صاروا كأصول النخل خاوية، أي: أن الرِّيح كانت تدخل أجوافهم فتصرعهم كالنخل الخاوية الجوف.

---

(١) ينظر القرطبي ١٨/ ١٦٩. (٢) تقدما.
(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/٣١٦، والدر المصون ٦/ ٣٦٢.
(٤) ينظر: الكشاف ٤/ ٦٠٠، والبحر المحيط ٨/٣١٦، والدر المصون ٦/ ٣٦٢.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٦٩.

وقال ابن شجرة: كانت الريحُ تدخل في أفواههم فتخرجُ ما في أجوافهم من الحشوِ من أدبارهم، فصاروا كالنخل الخاوية.

وقال يحيى بن سلام: إنما قال: الخاوية، لأن أبدانهم خوت من أرواحهم مثل النخل الخاوية.

قوله: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾.

أدغم اللام في التاء أبو عمرو وحده، وتقدم في «الملك».

و «مِنْ بَاقِيَة» مفعوله، و «مِنْ» مزيدة، والهاء في «بَاقِيَة» قيل: للمبالغة، فيكون المراد بـ «الباقية»: البقاءُ، كـ «الطاغية» بمعنى الطُّغيان، أي: من باقٍ.

والأحسنُ أن يكون صفةً لفرقةٍ، أو طائفةٍ، أو نفس، أو بقية ونحو ذلك.

وقيل: فاعلة بمعنى المصدر كـ «العافية» و «العاقبة».

قال المفسرون: والمعنى هل ترى لهم أحداً باقياً.

قال ابن جريجٍ: كانوا سبعَ ليالٍ وثمانية أيَّام أحياء في عذابِ الله من الريح، فلما أمسوا في اليوم الثامنِ ماتوا فاحتملتهم الريحُ، فألقَتهم في البحر، فذلك قوله: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾

قوله: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾.

قرأ أبو عمرو[1] **والكسائيُّ**: بكسر القاف، وفتح الباء، أي: ومن هو في جهته، ويؤيده قراءةُ أبي موسى: «ومن تلقاه».

---

(١) ينظر السبعة ٦٤٨، والحجة ٦/ ١٣٤، وإعراب القراءات ٢/ ٣٨٥، وحجة القراءات ٧١٨.

وقرأ أبيٌّ وعبد الله[١]: «ومنْ مَعَه».

والباقون: بالفتحِ والسكونِ على أنه ظرف، أي: ومن تقدمه.

والقراءة الأولى اختارها أبو عبيدة، وأبو حاتم اعتباراً بقراءة أبيّ، وعبد الله.

قوله: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾.

«المؤتفكات»: أهل قرى لوط.

وقراءة العامة: بالألف.

وقرأ الحسن[٢] **والجحدريُّ**: «والمُؤتَفكةُ» على التوحيد.

قال قتادةُ: إنما سُمِّيتْ قرى لوط «مُؤتفِكَات» لأنَّها ائتفكت بهم، أي: انقلبت[٣].

وذكر الطبري عن محمد بن كعب القرظيِّ قال: خمس قريات: «صبعة، وصعرة وعمرة، ودوما، وسدوم»، وهي القرية العظمى[٤].

وقوله: «بالخاطئة». إما أن تكون صفة، أي: بالفعلة، أو الفعلات الخاطئة، وهي المعصية والكفر.

وقال مجاهد: بالخطايا التي كانوا يفعلونها.

وقال الجرجاني: بالخطأ العظيمِ، فيكون مصدراً كـ «العاقبة» و «الكاذبة».

قوله: ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ إن عاد الضمير إلى فرعون، ومن قبله، فرسول ربِّهم موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وإن كان عائداً إلى أهلِ المؤتفكاتِ، فرسولُ ربِّهم لوط عليه الصلاة والسلام.

قال الواحديُّ: والوجه أن يقال: المراد بالرسول كلاهما للخبر عن الأمتين بعد ذكرهما بقوله: «فَعَصَوْا» فيكون كقوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال القرطبي[٥]: وقيل: «رسول» بمعنى رسالة، وقد يعبر عن الرسالة بالرسول، كقوله: [الطويل]

٤٨٤٣ ـ لَقَدْ كَذَبَ الواشُونَ ما بُحتُ عِندهُمْ ... بِسِرٍّ ولا أرسلتُهُمْ بِرسُولِ[٦]

قوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾، أي: عالية زائدة على الأخذات، وعلى عذاب الأمم،

---

(١) ينظر الكشاف ٤/ ٦٠٠، والمحرر الوجيز ٥/٣٥٨، والدر المصون ٦/ ٣٦٢.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٣٥٨، والبحر المحيط ٨/١٣٦.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢١١) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٠٦) وعزاه إلى عبد الرزاق وابن المنذر وعبد بن حميد.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٧٠)

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٧٠.

(٦) تقدم.

يقال: ربا الشيء يربو إذا زاد، ومنه الرِّبا إذا أخذ في الذهب والفضة أكثر مما أعطي.

والمعنى: أنها كانت زائدة في الشدة على عقوبات سائر الكفار، كما أن أفعالهم كانت زائدة في القُبحِ على أفعال سائرِ الكفار.

وقيل: إن عقوبة آل فرعون في الدنيا متعلقة بعذاب الآخرة، لقوله: ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥] وعقوبة الآخرة أشد من عقوبة الدُّنيا، فتلك العقوبة كأنها كانت تنمو وتربو. ثم ذكر قصة قومِ نوح، وهي قوله:

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾، أي: ارتفع وعلا.

وقال عليٌّ رضي الله عنه: طَغَى على خُزَّانه من الملائكة غضباً لربِّه، فلم يقدروا على حبسه[١].

قال المفسرون: زاد على كل شيء خمسة عشر ذراعاً.

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنه: طغى الماءُ زمن نوحٍ على خزانه، فكثر عليهم فلم يدروا كم خرج، وليس من الماء قطرة تنزل قبله، ولا بعده إلا بكيل معلوم غير ذلك اليوم[٢]، وقد تقدم مرفوعاً أوَّل السورةِ، والمقصود من ذكر قصص هذه الأممِ، وذكر ما حل بهم من العذاب، زجر هذه الأمة عن الاقتداء بهم في معصية الرسولِ، ثم منَّ عليهم بأن جعلهم ذرية من نجا من الغرق بقوله: «حَمَلْنَاكُم» أي: حملنا آباءكم، وأنتم في أصلابهم، «فِي الجَارِيَةِ» أي: في السفن الجاريةِ، والمحمولُ في الجارية إنَّما هو نوحٌ وأولاده، وكل من على وجه الأرض من نسل أولئك.

والجارية من أسماء السفينة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الرحمن: ٢٤]، وغلب استعمالُ الجاريةِ في السفينة؛ كقوله في بعض الألغاز: [البسيط]

٤٨٤٤ ـ رَأيتُ جَارِيَةً في بَطْنِ جَارِيَةٍ فِي بَطْنِهَا رجُلٌ في بطْنِهِ جَمَلُ[٣]

قوله: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾، أي: سفينة نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ جعلها الله تذكرة وعظةً لهذه الأمةِ حتى أدركها أوائلهم. في قول قتادة.

قال ابن جريجٍ: كانت ألواحُهَا على الجوديِّ، والمعنى: أبقيتُ لكم الخشباتِ حتى تذكروا ما حلَّ بقومِ نوحٍ، وأنجى الله آباكم، وكم من سفينةٍ هلكت وصارت تراباً، ولم يبق منها شيءٌ، وهذا قولُ الفرَّاءِ.

قال ابنُ الخطيبِ[٤]: وهذا ضعيفٌ، بل الصوابُ ما قاله الزجاج: أن الضمير في قوله:

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (١٨/ ١٧٠). (٢) تقدم تخريج هذا الأثر.

(٣) ينظر البحر المحيط ٨/ ٣١٦، والدر المصون ٦/ ٣٦٣.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٩٤.

«لنجعلها» يعود إلى «الواقِعَة» التي هي معلومةٌ، وإن كانت هنا غير مذكورةٍ، والتقدير: لنجعل نجاةَ المؤمنين وإغراق الكافرين عظةً، وعبرةً، ويدل على صحته قوله: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ فالضمير في قوله: «وتَعِيهَا» لا يمكن عوده إلى السفينة، فكذا الضمير الأول.

قوله: «وتَعِيهَا» العامة: على كسر العين وتخفيف التاء، وهو مضارع «وَعَى» منصوب عطفاً على «لنجْعَلهَا».

وابن مصرف وأبو عمرو في رواية هارون[١] **عنه وقنبل،** قال القرطبي[٢]: وحميد والأعرج بإسكانها تشبيهاً له بـ «رحم، وشهد» وإن لم يكن منه، ولكن صار في اللفظ بمنزلة الفعل الحلقي العين.

قال ابن الخطيب[٣]: وروي عن ابن كثيرٍ إسكان العين، جعل حرف المضارعة مع ما بعده بمنزلةٍ واحدةٍ، فحذف وأسكن كما أسكن الحرف المتوسط من «فَخْذ وكَبْد وكَتْف»، وإنما فعل ذلك؛ لأن حرف المضارعة لا ينفصل من الفعل، فأشبه ما هو من نفس الكلمة، وصار كقول من قال: وَهْو وَهْي، ومثل ذلك ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ [النور: ٥٢] في قراءة من سكَّن القاف.

وروي عن حمزة: إخفاء[٤] الكسرة.

وروي عن عاصم وحمزة[٥]: بتشديد «الياء».

وهو غلط عليهما، وإنما سمعهما الراوي يثبتان حركة الياء، فظنَّها شدة.

وقيل: أجريا الوصل مجرى الوقف فضعَّف الحرفُ، وهذا لا ينبغي أن يلتفت إليه.

وروي عن حمزة أيضاً، وموسى[٦] **بن عبد الله العبسي**: «وتعِيهَا» بسكون «الياء».

وفيها وجهان: الاستئناف، والعطف على المنصوب، وإنما سكنا «الياء» استثقالاً للحركة على حرف العلة، كقراءة: ﴿تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

فصل في «وعى»

قال الزَّجَّاجُ: يقال: وعيتُ كذا، أي: حفظتُه في نفسي، أعيه وعْياً ووعيتُ العلمَ، ووعيتُ ما قلته كله بمعنى، وأوعيت المتاع في الوعاء.

قال الزجاجُ: يقال لكل ما حفظته في غير نفسك: أوعيتُه ـ بالألف ـ ولما حفظته في نفسك: وعيته، بغير ألف.

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ١٣٧، والدر المصون ٦/ ٨٣٦٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٧١.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٩٤.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٨/ ١٣٧، والدر المصون ٦/ ٣٦٣.

(٥) ينظر السابق.

(٦) ينظر السابق.

قال ابن الخطيب[١]: واعلم أن وجه التذكير في هذا أن نجاة قوم من الغرقِ في السَّفينة، وتغريق من سواهم يدل على قدرة مدبر العالم، ونفاذ مشيئته، ونهاية حكمته، ورحمته، وشدة قهره.

روي أنَّ النبي ﷺ قال عند نزول هذه الآية: «سَألْتُ اللَّه أنْ يَجْعلهَا أذنَكَ يا عليُّ»، قال علي رضي الله عنه: «فما نَسِيتُ شيئاً بعد ذلك»[٢].

فإن قيل: لِمَ قال: «أذُنٌ واعِيَةٌ» على التوحيد والتنكير؟.

فالجوابُ: للإيذان بأن الوعاة فيهم قلةٌ، ولتوبيخ الناس بقلة من يَعِي منهم، والدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعيت وعقلتْ عن الله، فهي السَّواد الأعظم عند الله، وأن سواها لا يلتفت إليهم، وإن امتلأ العالمُ منهم.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧].

قال قتادة: الأذُنُ الواعيةُ أذنٌ عقلتْ عن الله تعالى، وانتفعت بما سمعت من كتاب الله عز وجل[٣].

قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾.

لما حكى هذه القصص الثلاثة ونبَّه بها على ثبوت القدرة والحكمة للصانع، فحينئذ ثبت بثبوت القدرة إمكان القيامة، ويثبت القدرة إمكان وقوع الحشر، ولما ثبت ذلك شرع سبحانه في تفاصيل أحوال القيامة، فذكر أولاً مقدماتها، فقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾.

قوله: «واحدةٌ» تأكيد، و «نَفْخَةٌ» مصدر قام مقام الفاعل.

وقال ابنُ عطية: «لما نُعِتَ صحَّ رفعهُ» انتهى.

ولو لم يُنعتْ لصحَّ رفعه؛ لأنه مصدر مختص لدلالته على الوحدة، والممنوع عند البصريين إنما هو إقامة المبهمِ، نحو: «ضَرَبَ».

والعامةُ على الرفع فيهما.

وقرأ أبو السَّمال: بنصبهما[٤]، كأنه أقام الجارَّ مقام الفاعلِ، فترك المصدر على

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣/ ٩٤.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢١٣) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٠٧) وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق شهر بن حوشب عن مكحول به.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢١٣) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٣) وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٥٩، والبحر المحيط ٨/ ٣١٧، والدر المصون ٦/ ٣٦٣.

أصله، ولم يؤنث الفعل وهو: «نُفِخَ»؛ لأن التأنيث مجازي وحسّنه الفصل انتهى.

فصل في النفخة الأولى

قال ابن عباس: هي النفخة الأولى لقيام الساعة، فلا يبقى أحد إلا مات[١].

قال ابن الخطيب[٢]: لأن عندها يحصل خرابُ العالمِ.

فإن قيل: لم قال بعد ذلك ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ والعرض إنما يكون عند النفخة الثانية؟.

قلت: جعل اليوم اسماً للحين الواسع الذي تقع فيه النَّفختان، والصَّعقة والنشور، والوقوف، والحساب، فكذلك ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ كقوله: «جئتُه عام كذا» وإنَّما كان مجيئُك في وقتٍ واحدٍ من أوقاته.

وقيل: إنَّ هذه النَّفخة هي الأخيرةُ.

وقال: ﴿نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾، أي: لا تثنَّى.

قال الأخفشُ: ووقع الفعلُ على النَّفخة، إذ لم يكن قبلها اسم مرفوع، فقيل: نفخة.

قوله: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ﴾، قرأ العامة: بتخفيف «الميم».

أي: وحملتها الريحُ، أو الملائكةُ، أو القدرةُ، أي: رفعتْ من أماكنها، «فَدُكَّتا» أي: فُتَّتَا وكسِّرتا، ﴿دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: الأرض والجبالُ؛ لأن المراد الشيئان المتقدمان، كقوله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩].

ولا يجوزُ في «دكَّةً» إلا النصبُ؛ لارتفاع الضمير في «دُكَّتا»[٣].

وقال الفرَّاءُ: لم يقلْ: «فَدُكِكْنَ»؛ لأنه جعل الجبال كلها كالجملةِ الواحدة [والأرض كالجملة الواحدة] ومثله: ﴿أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ولم يقل: «كُنَّ».

وهذا الدَّكُّ، كالزلزلةِ لقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١].

وإما بريح بلغت من قوة عصفها أنَّها تحمل الأرض والجبال، أو بملك من الملائكة، أو بقدرة الله، «فَدُكَّتا»، أي: جملة الأرض، وجملة الجبال تضرب بعضها في بعض حتى تندق وتصير ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]، و ﴿هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾ [الواقعة: ٦].

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٧١).

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٣/ ٩٥.

(٣) القرطبي ١٨/ ١٧٢.

والدَّكُّ أبلغُ من الدَّق وقيل: «دُكَّتا» أي: بُسطتا بسطةً واحدةً، ومنه اندكَّ سنامُ البعير، إذا انفرش في ظهره.

وقرأ ابن عامرٍ[(١)] **في رواية، والأعمش، وابن أبي عبلة وابن مقسم**: «وحُمِّلت» ـ بتشديد الميم ـ.

فجاز أن يكون التشديد للتكثير، فلم يكسب الفعل مفعولاً آخر.

وجاز أن يكون للتعدية فيكسبه مفعولاً آخر، فيحتمل أن يكون الثاني محذوفاً، والأول هو القائمُ مقام الفاعلِ تقديره: وحُمِّلت الأرض والجبال ريحاً تفتتها، لقوله: ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥].

وقيل: التقدير: حملنا ملائكة، ويحتمل أن يكون الأول هو المحذوف، والثاني هو القائم مقام الفاعل.

قوله: «فيَومئذٍ» منصوب بـ «وقعت»، و «وقَعَتِ الواقِعَةُ» لا بُدَّ فيه من تأويلٍ، وهو أن تكون «الوَاقعةُ» صارت علماً بالغلبةِ على القيامة، أو الواقعة العظيمة، وإلاَّ فقام القائمُ لا يجوز، إذ لا فائدة فيه، وتقدم هذا في قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾.

والتنوين في «يومئذٍ» للعوضِ من الجملة، تقديره: يومئذٍ نُفِخَ في الصُّوْرِ.

فصل في معنى الآية

المعنى قامت القيامة الكبرى ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي: انصدعت وتفطرت.

وقيل: انشقت لنزول الملائكة بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥] ﴿فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾، أي: ضعيفة مسترخيةٌ ساقطةٌ ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] بعد ما كانت محكمةً.

يقال: وهى البناء يَهِي وهْياً، فهو واهٍ إذا ضعف جدًّا.

ويقال: كلامٌ واهٍ أي: ضعيف.

فقيل: إنَّها تصير بعد صلابتها بمنزلة الصوف في الوهْي، ويكون ذلك لنزولِ الملائكةِ.

وقيل: لهولِ يوم القيامةِ.

وقال ابن شجرة: «واهية» أي: متخرقة، مأخوذ من قولهم: وهى السِّقاءُ[(٢)]، إذا انخرق.

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣١٧، والدر المصون ٦/ ٣٦٣.

(٢) في أ: الثياب.

ومن أمثالهم: [الرجز]

٤٨٤٥ ـ خَلِّ سَبِيلَ مَنْ وهَى سِقَاؤهُ   ومَنْ هُرِيقَ بالفَلاةِ مَاؤهُ[(١)]

أي: من كان ضعيف العقل لا يحفظ نفسه.

﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾. لم يردْ به ملكاً واحداً، بل المراد الجنس والجمع. «على أرجائها» «الأرجاء» في اللغة: النواحي والأقطار بلغة «هُذَيْل»، واحدها: «رجا» مقصور وتثنيته «رجوان»، مثل «عصا، وعصوان»، قال الشاعر: [الوافر]

٤٨٤٦ ـ فَلاَ يُرْمَى بِيَ الرَّجَوانِ أنِّي   أقَلُّ القَوْمِ مَنْ يُغْنِي مَكَانِي[(٢)]

وقال آخر: [الطويل]

٤٨٤٧ ـ كَأنْ لَمْ تَرَي قَبْلِي أسِيراً مُقَيَّداً   ولا رَجُلاً يُرْمَى بِهِ الرَّجَوانِ[(٣)]

و «رجاء» هذا يكتب بالألف عكس «رَجَا»؛ لأنه من ذوات الواو، ويقال: «رجا»، ورجوانِ، والجمع: «الأرجاء»، ويقال ذلك لحرفي البئر وحرف القبر وما أشبهه.

فصل في تفسير الآية

قال ابن عباس: على أطرافها حين تنشق[(٤)].

قال الماورديُّ: ولعله قول مجاهد وقتادة، وحكاه الثعلبي عن الضحاك، قال: على أطرافها مما لم تنشقّ منها[(٥)].

وقال سعيد بن جبيرٍ: المعنى والملك على حافات الدنيا[(٦)]، أي: ينزلون إلى الأرض، ويحرسون أطرافها.

وقال: إذا صارت السماءُ قطعاً، تقف الملائكةُ على تلك القطعِ التي ليست مُتشققة في أنفسها.

فإن قيل: الملائكةُ يمُوتُونَ في الصَّعقةِ الأولى، لقوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨] فكيف يقال: إنهم يقفون على أرجاء السماء؟.

---

(١) ينظر القرطبي ١٨/ ١٧٢، والبحر ٨/ ١٣٤، والدر المصون ٦/ ٣٦٤، وروح المعاني ٢٩/ ٥٥.

(٢) نسب البيت إلى عبد الرحمن بن الحكم. ينظر أدب الكاتب ص ٢٥٧، والاقتضاب ص ٣٦٦، والمفصل لابن يعيش ١٤٧١٤، واللسان (رجا) والقرطبي ١٨/ ١٧٣ والبحر ٣١٤١٨، والدر ٦/ ٣٦٤.

(٣) ينظر اللسان (رجا) والبحر ٨/ ٣١٤، والدر المصون ٦/ ٣٦٤.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٠٨) وعزاه إلى عبد بن حميد وعبد الرزاق.

(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٠٨) وعزاه إلى ابن المنذر.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢١٥) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٠٨) وعزاه إلى عبد بن حميد.

فالجوابُ من وجهين(١):

الأول: أنهم يقفون لحظة على أرجاء السماء، ثم يموتون.

والثاني: المراد الذين استثناهم في قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

فإن قيل: إنَّ الناس إذا رأوا جهنَّم هالتهم، فندُّوا كما تندُّ الإبلُ، فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلاَّ رأوا ملائكة، فيرجعون من حيثُ جاءوا.

وقيل: ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ ينتظرون ما يؤمرون به في أهل النَّارِ من السَّوق إليها، وفي أهل الجنة من التحية والكرامة، وهذا كلُّه راجعٌ إلى قول ابن جبير، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾، خبر المبتدأ، والضمير للسماء، وقيل: للأرضِ، على ما تقدم.

قال الزمخشريُّ: فإن قلت: ما الفرق بين قوله: «والمَلَكُ» وبين أن يقال: «والمَلائِكَةُ»؟

قلت: الملكُ أعمُّ من الملائكةِ، ألا ترى إلى قولك: «ما من ملك إلاَّ وهو ساجدٌ» أعم من قولك: «ما مِنْ ملائكةٍ» انتهى.

قال أبو حيَّان(٢): ولا يظهر أنَّ الملك أعمُّ من الملائكةِ، لأن المفرد المحلَّى بالألف واللام، قُصاراه أن يكون مراداً به الجمع المحلَّى، ولذلك صح الاستثناءُ منه، فقصاراه أن يكون كالجمع المُحَلَّى بهما، وأما دعواه أنه أعم منه، بقوله: «ألا ترى» إلى آخره، فليس دليلاً على دعواه؛ لأن «مِنْ ملكٍ» نكرةٌ مفردة في سياق النفي قد دخلت عليها «مِنْ» المخلصة للاستغراق، فشملت كل ملكٍ فاندرج تحتها الجمعُ لوجود الفرد فيه، فانتفى كل فردٍ فرد، بخلاف «مِنْ ملائِكةٍ»، فإن «مِنْ» دخلت على جمع منكَّر، فعمّ في كل جمع جمع من الملائكةِ، ولا يلزم من ذلك انتفاء كلِّ فردٍ فردٍ من الملائكة، لو قلت: «ما في الدار من رجال» جاز أن يكون فيها واحدٌ، لأن النفي إنما انسحب على جمع، ولا يلزم من انتفاء الجمع أن ينتفي المفردُ، والملك في الآية ليس في سياق نفي دخلت عليه «مِنْ» وإنَّما جِيءَ به مفرداً؛ لأنه أخفُّ، ولأن قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ يدلُّ على الجمع؛ لأن الواحد بما هو واحد لا يمكن أن يكون «على أرجائِهَا» في وقتٍ واحدٍ بل أوقات، والمراد ـ والله أعلم ـ أن الملائكة على أرجائها إلاَّ أنه ملك واحد ينتقل على أرجائها في أوقات.

وقال شهاب الدين: إنَّ الزمخشريَّ منزعهُ في هذا ما تقدم عنه في أواخر سورة

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/٩٦.
(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/٣٢٣.

«البقرة» عند قوله: ﴿وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فليرجع ثمَّة.

وأما قول أبي حيان: «ما مِنْ رجالٍ» أن النفي منسحبٌ على رُتَب الجمع، ففيه خلاف، والتحقيق ما ذكره.

قوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾.

الضمير في «فَوقَهُمْ» يجوز أن يعود على «الملائكة» بمعنى كما تقدم، وأن يعود على الحاملين الثمانية.

وقيل: إنَّ حملة العرشِ فوقَ الملائكةِ الذينَ في السماء على أرجائها.

وقيل: يعود على جميع العالم، أي: أن الملائكة تحمل عرش الله فوق العالم كلِّه.

فصل في هؤلاء الثمانية

قال ابن عباس: ثمانية صنوفٍ من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله(١).

وقال ابن زيد: هم ثمانية أملاكٍ(٢).

وعن الحسن: الله أعلمُ كم هم ثمانية، أم ثمانية آلاف، أو ثمانية صفوف(٣). وعن النبي ﷺ «أنَّ حَمَلَةَ العَرْشِ اليَوْم أربعةُ أوعالٍ، فإذَا كان يومُ القيامةِ أيدهُم اللَّهُ بأربعة آخرين، فكانُو ثَمانيَةً» خرَّجَهُ الماورديُ مرفوعاً عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ(٤). ورواه العباسُ بنُ عبد المطّلب عن النبيِّ ﷺ قال: «هُمْ ثَمانِيَةُ أملاكٍ على صورةِ الأوعالِ، لكلِّ ملكٍ منهُم أربعةُ أوجهٍ: وجهُ رجُلٍ، ووجهُ أسدٍ، ووجهُ ثورٍ، ووجهُ نسْرٍ، وكلُّ وجهٍ مِنْهَا يسألُ اللَّهَ الرِّزقَ لذلك الجِنْسِ»(٥).

فإن قيل: إذا لم يكنْ فيهم صورةُ وعلٍ، فكيف سُمُّوا أوعالاً؟.

فالجواب: أنَّ وجْهَ الثَّور إذا كانت له قرون الوعْلِ أشبه الوعْلَ.

وفي الخبرِ: «أنَّ فَوْقَ السَّماءِ السَّابعةِ ثمانيةَ أوْعالٍ بينَ أظلافهِنَّ ورُكبهنَّ مثلُ ما بَيْنَ

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢١٥) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٠٩) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٢٦) عن ابن زيد.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٧٣) عن الحسن.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه أبو يعلى (١٢/ ٧٤) رقم (٦٧١٢) والحاكم (٢/ ٥٠٠). وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٠٨) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وعثمان بن سعيد الدارمي في الردّ على الجهمية وابن المنذر وابن خزيمة وابن مردويه والخطيب في «تالي التلخيص» عن العباس بن عبد المطلب.

سماءٍ إلى سماءٍ، وفوقَ ظُهورهِنَّ العَرْشُ»[١]. ذكره القشيريُّ، وخرَّجهُ الترمذيُّ من حديث العباس بن عبد المُطلبِ.

وفي حديث مرفوعٍ: «أنَّ حَمَلَةَ العرْشِ ثَمانيَةُ أمْلاكٍ؛ على صُوَرِ الأوعالِ، ما بين أظْلافهَا إلى رُكَبِهَا مسِيْرةُ سَبعِينَ عاماً للطَّائرِ المُسْرعِ».

ورُوي أنَّ أرجلهنَّ في السَّماءِ[٢] السَّابعةِ[٣].

فصل في إضافة العرش إلى الله

إضافة العرش إلى الله ـ تعالى ـ كإضافة البيت إليه، وليس البيتُ للسكنِ، فكذلك العرشُ، ومعنى «فوقهم» أي: فوق رءوسهم.

قال ابنُ الخطيب[٤]: قالت المشبِّهةُ: لو لم يكن اللَّهُ في العرشِ لكان حملُ العرش عبثاً لا فائدة فيه، لا سيما قد أكَّد ذلك بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾، والعرش إنَّما يكونُ لو كان الإلهُ حاضراً في العرش.

وأجاب: بأنه لا يمكن أن يكون المراد أنَّ الله ـ تعالى ـ جالس في العرش؛ لأن كل من كان حاملاً للعرش؛ كان حاملاً لكل ما كان في العرش فلو كان الإلهُ على العرش لزم أن يكون الملائكة حاملين لله تعالى، وذلك محالٌ؛ لأنه يقتضي احتياج الله إليهم، وأن يكونوا أعظم قدراً من الله، وكل ذلك كفرٌ، فعلمنا أنه لا بد فيه من التأويل، فنقول: السببُ في هذا الكلامِ هو أنه ـ تعالى ـ خاطبهم بما يتعارفونه، فخلق لنفسه بيتاً يزورونه ليس أنه يسكنه ـ تعالى الله عن ذلك ـ وجعل في ركن البيت حجراً، هو يمينه في الأرض إذْ كان من شأنهم أن يعظموا رؤساءهم بتقبيل أيمانهم، وجعل على العبادِ حفظةً لا لأن النسيان يجوزُعليه سبحانه، وكذلك أنَّ الملك إذا أراد محاسبة عماله جلس على سريره، ووقفت الأعوانُ حوله، فسمى الله يوم القيامة عرشاً، وحفَّت به الملائكة لا لأنه يقعد عليه، أو يحتاجُ إليه، بل كما قلنا في البيت والطَّواف.

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ هو جواب «إذَا» من قوله: «فَإذَا نُفِخَ». قاله أبو حيَّان[٥].

وفيه نظرٌ، بل جوابها ما تقدم من قوله: «وقَعَتِ الواقِعَةُ» و «تُعْرضُونَ» على هذا مستأنفة.

قوله: ﴿لَا تَخْفَىٰ﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٧٢٤) والترمذي (٢/ ٣٣٢) وابن خزيمة في «التوحيد» (ص ٦٨) وابن ماجه (١٩٣) وابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤) من حديث العباس بن عبد المطلب.

(٢) في أ: الأرض.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٩٦.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٣٢٤.

قرأ الأخوان(١): بالياء من تحت؛ لأن التأنيث مجازي، كقوله: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود: ٦٧].

واختاره أبو عبيد؛ لأنه قد حال بين الفعل والاسم المؤنث الجار والمجرور.

والأخوان: على أصلهما في إمالة الألف.

وقرأ الباقون: «لا تَخْفَى» بالتاء من فوق للتأنيث اللفظي والفتح وهو الأصل، واختاره أبو حاتم.

فصل في العرض على الله

قال القرطبيُّ(٢): هذا هو العرضُ على الله، ودليله: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفࣰّا﴾ [الكهف: ٤٨] وليس ذلك عرضاً ليعلم ما لم يكن عالماً، بل ذلك العرضُ عبارةٌ عن المحاسبة والمساءلة وتقدير الأعمال عليهم للمجازاة.

قال ﷺ: «يُعْرَضُ النَّاسُ يوم القِيامةِ ثلاثَ عَرضَاتٍ، فأما عَرْضتانِ فَجِدالٌ، ومعَاذِيرٌ وأما الثَّالثةُ فعند ذلك تَطِيْرُ الصُّحُفُ في الأيْدِي فآخِذٌ بيَمِينِهِ وآخِذٌ بِشمالِهِ»(٣).

وقوله: ﴿لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةࣱ﴾. قال ابن شجرة: أي: هو عالم بكل شيء من أعمالكم، فـ «خَافِيَة» على هذا بمعنى «خفيَّة» كانوا يخفونها من أعمالهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءࣱ﴾ [غافر: ١٦].

قال ابن الخطيب(٤): فيكون الغرضُ المبالغة في التهديدِ، يعني: «تُعرَضُون على من لا يخفى عليه شيء».

وقيل: لا يخفى عليه إنسان لا يحاسب.

---

(١) ينظر: السبعة ٦٤٨، والحجة ٦/ ١٣٥، وإعراب القراءات ٢/ ٣٨٦، وحجة القراءات ٧١٨.
(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٧٤.
(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٤١٤) وابن ماجه (٢/ ١٤٣٠) من طريق الحسن عن أبي موسى.
قال البوصيري في «الزوائد» (٣/ ١٣٥): هذا إسناد رجاله ثقات إلا أنه منقطع الحسن لم يسمع من أبي موسى قاله علي بن المديني وأبو حاتم وأبو زرعة.
ورواه أبو بكر ين أبي شيبة في «مسنده» بإسناده ومتنه.
وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه الترمذي (٢٤٢٥) من طريق الحسن عنه.
وقال الترمذي: ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة وقد رواه بعضهم عن علي الرفاعي عن الحسن عن أبي موسى عن النبي ﷺ.
وقال: ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي موسى.
ولتفصيل سماع الحسن من أبي هريرة وأبي موسى ينظر «جامع التحصيل» (ص ١٦٢ ـ ١٦٤) للحافظ العلائي.
(٤) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ٩٧.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: لا يَخْفَى المُؤمِنُ من الكافر، ولا البَرُّ من الفاجِرِ.

وقيل: لا يستر منكم عورة، لقوله عليه الصلاة والسلام: «يُحْشرُ النَّاسُ حُفاةً عُراةً».

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾، وهذا دليلٌ على النجاة.

قال ابن عباسٍ: أول من يُعْطَى كتابه بيمينه من هذه الأمة عمرُ بن الخطاب، وله شعاعٌ كشعاع الشمس، قيل له: فأين أبو بكر، فقال: هيهات، زفَّته الملائكةُ إلى الجنَّة[1].

قال القرطبي[2]: وقد ذكرناه مرفوعاً من حديث زيد بن ثابت بلفظه، ومعناه في كتاب «التذكرة».

قوله: «هَاؤمَ»، أي: خذوا ﴿اقْرَءُوا كِتَٰبِيَهْ﴾ يقول ذلك ثقة بالإسلام وسروراً بنجاته؛ لأن اليمين عند العرب من دلائلِ الفرح.

قال الشاعر: [الوافر]

٤٨٤٨ ـ إذَا مَا رايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرابَةُ بِاليَمِينِ[3]

وقال: [الطويل]

٤٨٤٩ ـ أبِينِي أفِي يُمْنَى يَدَيْكِ جَعَلْتِنِي فَأفْرَحُ أمْ صَيَّرْتِنِي بِشِمَالِكِ[4]

وقال ابن زيدٍ: معنى: «هَاؤمُ»: تعالوا[5]، فتتعدى بـ «إلى».

وقال مقاتلُ: «هَلُمَّ»[6].

وقيل: خذوا، ومنه الحديث في الربا: «إلا هَاء وهَاءَ»، أي: يقول كل واحد لصاحبه: خُذْ، وهذا هو المشهورُ.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٧٤) عن ابن عباس موقوفاً وقد ورد هذا مرفوعاً من حديث زيد ابن ثابت أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١١/ ٢٠٢) من طريق عمر بن إبراهيم ثنا مرحوم بن أرطبان ثنا عاصم الأحول عن زيد بن ثابت به.

وذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٣٢٠) وتبعه السيوطي في «اللآلىء المصنوعة» (١/ ١٥٦) وابن عراق في «تنزيه الشريعة» (١/ ٣٤٦).

وقال ابن عراق: وفيه عمر بن إبراهيم بن خالد الكردي وهو المتهم به.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٧٤. (٣) ينظر: القرطبي ١٨/ ١٧٨.

(٤) ينظر القرطبي ١٨/ ١٧٤.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٢٧) وذكره القرطبي (١٨/ ١٧٥).

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٧٥).

وقيل: هي كلمةٌ وضعت لإجابة الدَّاعي عند الفرح، والنَّشاط.

وفي الحديث: أنَّه نَاداهُ أعرَابِيٌّ بصَوْتٍ عَالٍ، فأجَابَهُ النبيُّ ﷺ «هَاؤُمُ» يطول صوته.

وقيل: معناها «اقصدوا».

وزعم هؤلاء أنها مركبة من هاء التنبيه، وأموا، من الأم، وهو القصدُ، فصيره التخفيف والاستعمال إلى «هاؤم».

وقيل: «الميمُ» ضميرُ جماعةِ الذكور.

وزعم القتيبي: أنَّ «الهمزة» بدلٌ من «الكاف».

فإن عنى أنها تحلُّ محلَّها فصحيح، وإن عنى البدل الصناعي فليس بصحيح.

فقوله: «هاؤم» يطلبُ مفعولاً يتعدى إليه بنفسه إن كان بمعنى: «خُذْ» أو «اقْصِد إليّ» إن كان بمعنى: «تَعَالَوْا»، و «اقرأوا» يطلبه أيضاً، فقد تنازعا في: «كِتَابِيَه» وأعمل الثاني للحذف من الأول.

وقد تقدم تحقيق هذا في سورة «الكهف».

وفيها لغاتٌ: وذلك أنها تكون فعلاً صريحاً، وتكون اسم فعل، ومعناها في الحالين: «خذ» فإن كانت اسم فعلٍ، وهي المذكورة في الآية الكريمة، ففيها لغتان: المدّ والقصر تقول: «هَا درهماً يا زيدُ، وهاء درهماً»، ويكونان كذلك في الأحوال كلها من إفراد وتثنيةٍ وجمعٍ وتذكيرٍ وتأنيثٍ، ويتصل بهما كافُ الخطاب، اتصالها باسم الإشارة، فتطابق مخاطبك بحسبَ الواقع مطابقتها وهي ضميره، نحو: «هَاكَ، هَاكِ، هاءَكَ» إلى آخره.

وتخلف كافُ الخطابِ همزة «هاءَ» مصرفة تصرف كاف الخطاب، فتقول: «هَاءَ يا زيدُ، هاءِ يا هندُ، هاؤمَا، هاؤم، هاؤن» وهي لغةُ القرآن.

وإذا كانت فعلاً صريحاً؛ لاتصال الضمائر البارزة المرفوعة بها كان فيها ثلاثة لغاتٍ:

إحداها: أن يكون مثل «عَاطَى يُعَاطِي»، فيقال: «هاء يا زيدُ، هائِي يا هندُ، هائيَا يا زيدان أو يا هنداتُ، هاءوا يا زيدون، هائين يا هنداتُ».

الثانية: أن تكون مثل: «هَبْ» فيقال: «هَأْ، هِيء، هَاءَا، هِئُوا، هِئْنَ»، مثل: «هَبْ، هِبِي، هِبَا، هِبُوا، هِبْنَ».

الثالثة: أن تكون مثل: «خَفْ» أمراً من الخوف، فيقال: «هَأْ، هَائِي، هَاءَا، هَاءُوا، هَأنَ»، مثل: «خَفْ، خَافِي، خَافَا، خَافُوا، خفْنَ».

قوله: «كتابيه». منصوب بـ «هاؤم» عند الكوفيين، وعند البصريين بـ «اقرأوا»؛ لأنه أقربُ العاملين، والأصل «كتابي» فأدخل «الهاء» لتبين فتحة «الياءِ» و «الهاء» في «كتابيه»

و «حسابيه» و «سلطانيه» و «ماليه»، للسكتِ، وكان حقُّها أن تحذف وصلاً وتثبت وقفاً، وإنما أجري الوصل مجرى الوقف، أو وصل بنية الوقف في «كتابيه» و «حسابيه» اتفاقاً، فأثبت «الهاء».

وكذلك في «مَاليَه» و «سلطانيه» و ﴿مَا هِيَهْ﴾ [القارعة: ١٠] في القارعة، عند القُرَّاء كلهم إلا حمزة، فإنه حذف الهاء من هذه الكلم الثلاث وصلاً، وأثبتها وقفاً؛ لأنها في الوقف يحتاج إليها؛ لتحصينِ حركةِ الموقوفِ عليه، وفي الوصل يستغنى عنها.

فإن قيل: فَلِمَ لم يفعل ذلك في «كتابيه» و «حسابيه»؟.

فالجواب: أنه جمع بين اللغتين، هذا في القراءات السبع[(١)].

وقرأ ابن محيصن[(٢)]: **بحذفها في الكلم كلِّها وصلاً** ووقفاً إلا في «القارعة»، فإنه لم يتحقق عنه فيها نقل.

وقرأ الأعمشُ، وابن أبي إسحاق[(٣)]: بحذفها فيهن وصلاً، وإثباتها وقفاً.

وابن محيصن: يسكنُ الهاء في الكلم المذكورة بغيرها.

والحق أنها قراءةٌ صحيحةٌ، أعني ثبوت هاء السكتِ وصلاً؛ لثبوتها في خط المصحف الكريم، ولا يلتفت إلى قول الزهراوي أن إثباتها في الوصل لحن لا أعلم أحداً يجيزه. وقد تقدم الكلام على هاء السكت في البقرة والأنعام.

قوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾.

قال ابن عباس: أي: أيقنتُ وعلمتُ[(٤)].

وقيل: ظننتُ أن يؤاخذني الله بسيئاتي إن عذبني فقد تفضَّل علي بعفوه، ولم يؤاخذني بها.

قال الضحاك: كل ظن من المؤمن في القرآن فهو يقين، ومن الكافر فهو شك.

وقال مجاهد: ظَنُّ الآخرة يقين وظَنُّ الدنيا شَكٌّ[(٥)].

وقال الحسن في هذه الآية: إنّ المؤمن من أحسن الظّن بربّه فأحسن العمل، وإن المنافق أساء الظن بربه، فأساء العمل[(٦)].

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٦٦.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٦٠٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٦٠، والبحر المحيط ٨/ ٣١٩.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٦٠، والبحر المحيط ٨/ ٣١٩، والدر المصون ٦/ ٣٦٦.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٢٧) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٤٠).

(٥) أخرجه الطبري (١٢/ ١٢٧) عن قتادة بمعناه وذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٨٣) والقرطبي (١٨/ ١٧٥) عن مجاهد.

(٦) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٨٣) والقرطبي (١٨/ ١٧٥).

وقوله: ﴿أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾، أي: في الآخرة، ولم أنكرْ البعث، يعني أنه ما نجا إلا بخوفه من يوم الحساب؛ لأنه تيقّن أن الله يحاسبه، فعمل للآخرة.

قوله: ﴿رَّاضِيَةٍ﴾، فيها ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه على المجاز جعلت العيشة راضية؛ لمحلها في مستحقيها، وأنها لا حال أكمل من حالها، والمعنى في عيش يرضاه لا مكروه فيه.

الثاني: أنه على النَّسب، أي: ذات رضا، نحو: «لابنٌ وتامرٌ» لصاحب اللَّبن والتَّمْرِ والمعنى: ذات رضا يرضى بها صاحبها.

الثالث: قال أبو عبيدة والفراء: إنه مما جاء فيه «فاعل» بمعنى مفعول نحو: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦]، أي: مدفوق، كما جاء مفعول بمعنى فاعل، كقوله: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥]، أي: ساتراً.

فصل في تنعم أهل الجنة

قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّهم يَعِيشون فلا يَمُوتُون أبداً، ويصحُّونَ فلا يَمْرضُونَ أبداً، وينعَمُونَ فلا يَرَوْنَ بأساً أبداً ويَشِبُّونَ فلا يَهْرمُونَ أبداً»[(١)].

قوله: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾، أي: عظيمةٌ في النفوس، ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾، القطوف جمع: قطف، وهو فعل بمعنى مفعول، كـ «الدِّعْي» و «الذِّبْح»، وهو ما يَجتنِيهِ الجاني من الثِّمار، و «دَانِيَةٌ»، أي: قريبة التناولِ يتناولها القائم، والقاعد، والمضطجع.

والقِطْف ـ بكسر القاف ـ وهو ما يقطفُ من الثِّمار، والقَطْف ـ بالفتح ـ المصدر، والقِطَاف ـ بالفتح والكسر ـ وقت القطف.

﴿كُلُواْ﴾، أي: يقال لهم: كلوا واشربوا، وهذا أمر امتنان، لا أمرُ تكليف.

وقوله: «هنيئاً» قد تقدم في أول النساء وجوَّز الزمخشريُّ فيه هنا أن ينتصب نعتاً لمصدر محذوفٍ، أي: «أكْلاً هنيئاً وشُرْباً هنيئاً»، وأن ينتصب على المصدر بعامل من لفظه مقدر، أي: «هَنِئتُم بذلك هَنِيئاً». و «الباء» في «بما أسْلفتُمْ» سببية، و «ما» مصدرية أو اسمية، ومعنى «هَنِيئاً»، لا تكدير فيه ولا تنغيص، «بما أسْلَفْتُم» قدمتم من الأعمال «في الأيامِ الخاليةِ»، أي: في الدنيا.

قالت المعتزلةُ: وهذا يدل على أنَّ العمل يوجبُ الثوابَ، وأن الفعل للعبدِ، وقال: «كُلُوا» بعد قوله: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ لقوله: «فأما من أوتي كتابه»، و «من» تتضمنُ معنى الجمعِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٧) والترمذي (٣٢٤١).

فصل فيمن نزلت فيه الآية

ذكر الضحاكُ: أن هذه الآية نزلت في أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي(١).

وقال مقاتل: والآية التي قبلها في أخيه الأسود بن عبد الأسد في قول ابن عبَّاس والضحاك(٢).

قال الثعلبي: ويكون هذا الرجل، وأخوه سبب نزول هذه الآيات، ويعم المعنى جميع أهل الشقاوةِ، والسعادة، بدليل قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾.

وقيل: إنَّ المراد بذلك كل من كان متبوعاً في الخير والشر يدعو إليه، ويأمر به.

قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ لما نظر في كتابه وتذكر قبائح أفعاله يخجل منها ويقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ ثُم يتمنَّى الموت، ويقول: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾.

فالضَّميرُ في «لَيْتهَا» قيل: يعود إلى الموتةِ الأولى، وإن لم تكن مذكورة، إلا أنها لظهورها كانت كالمذكورة.

و «القَاضِيَة»: القاطعةُ من الحياة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ [الجمعة: ١٠]، ويقال: قُضِيَ على فلان، إذا مات، والمعنى: يا ليتها الموتة التي كانت القاطعة لأمري، ولم أبْعَثْ بعدها، ولم ألقَ ما وصلت إليه.

قال قتادة: يتمنى الموت، ولم يكن في الدنيا عنده شيء أكره من الموت، وشرٌّ من الموت ما يطلب منه الموت؛ قال الشاعر: [الطويل]

٤٨٥٠ ـ وشَرٌّ مِنَ المَوْتِ الذي إنْ لَقيتُهُ تَمَنَّيتُ مِنْهُ المَوْتَ، والمَوْتُ أعْظَمُ(٣)

وقيل: يعود إلى الحالة التي شاهدها عند مطالعة الكتاب، والمعنى: يا ليت هذه الحالة كانت الموتة التي قضت عليَّ.

قوله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى﴾، يجوزُ أن يكون نفياً، وأن يكون استفهام توبيخٍ لنفسه، أي: أيُّ شيءٍ أغنى عني ما كان لي من اليسار.

﴿هَّلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾ قال ابن عباس: هلكتْ عنِّي حُجَّتِي(٤)، والسلطانُ: الحجةُ التي كنتُ أحتجُّ بها، وهو قول مجاهدٍ وعكرمة والسُّدي والضَّحاك.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٧٥).

(٢) ينظر المصدر السابق. (٣) ينظر الرازي ٣٠/ ١٠٠.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢١٩ ـ ٢٢٠) عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤١١) عن مجاهد وعكرمة وعزاه إلى عبد بن حميد.

وقال مقاتل: ضلت عني حجّتي حين شهدت عليه الجوارح[١].

وقال ابن زيد: يعنى مُلكي وتسلّطي على الناس، وبقيت ذليلاً فقيراً[٢]، وكان مُطاعاً في أصحابه.

قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾، كقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ في إضمار القولِ، يقال ذلك لخزنةِ جهنَّم، والغلُّ: جمعُ اليدين إلى العُنُق، أي: شدوه بالأغلالِ.

﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾، أي: اجعلوه يصلى الجحيمَ، وهي النارُ العظمى؛ لأنه كان يتعاظمُ في الدنيا.

وتقديمُ المفعول يفيد الاختصاص عند بعضهم.

ولذلك قال الزمخشريُّ: «ثُمَّ لا تصلوه إلاَّ الجَحيم» قال أبو حيان[٣]: «وليس ما قاله مذهباً لسيبويه[٤] ولا لحُذاقِ النُّحاةِ»، وقد تقدمت هذه المسألةُ متقنة، وأنَّ كلام النحاة لا يأبى ما قاله.

قوله: ﴿ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾، في محل جر صفة لـ «سِلْسِلَة» و «في سِلْسِلة» متعلق بـ «اسْلُكُوه»، و «الفاء» لا تمنع من ذلك.

و «الذِّراع» مؤنث، ولذلك يجمع على «أفْعُل» وسقطت «التاء» من عدده.

قال الشاعر: [الرجز]

٤٨٥١ ـ أرْمِي عَلَيْهَا وهْيَ فَرْعٌ أجْمَعُ وهْيَ ثَلاثُ أذْرُعٍ وإصْبَعُ[٥]

وذكر السبعين دون غيرها من العدد، قيل: المرادُ به التكثير، كقوله: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: ١٠].

وقيل: المراد حقيقة العدد.

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٨٨) عن مقاتل.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٧٦). (٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٢٥.

(٤) ينظر: الكتاب ١/ ٤١.

(٥) البيت من شواهد سيبويه ٢/ ٣٠٨، والتصريح ٢/ ٢٨١، والخصائص ٢/ ٣٠٧، والمخصص ٦/ ٣٨، ١٤/ ٦٥، ١٦/ ٨٠، وشرح الجواليقي لأدب الكاتب (٣٥٣)، والعيني ٤/ ٥٠٤، والبحر المحيط ٨/ ١٣٤، والدر المصون ٦/ ٣٦٧.

قال ابن عباسٍ: سبعون ذراعاً بذراع الملكِ[١].

وقال نوف البكالي: سبعون ذراعاً، كل ذراع سبعون باعاً، كل باع كما بينك وبين «مكّة» وكان في رحبة «الكوفة»[٢].

وقال الحسنُ: الله أعلم أي ذراعٍ[٣].

وزعم بعضهم أنَّ في قوله: «فِي سِلْسِلَةٍ» «فاسْلُكوهُ» قلباً، قال: لأنه نُقِلَ في التفسير أنَّ السلسلة تدخل من فيه، وتخرج من دبره، فهي المسلوكُ فيه لا هو المسلوكُ فيها، والظاهر أنَّه لا يحتاج إلى ذلك؛ لأنه روي أنها لطولها، تجعل في عنقه، وتلتوي عليه، حتى تحيط به من جميع جهاته، فهو المسلوكُ فيها لإحاطتها به.

وقال الزمخشريُّ: والمعنى في تقديم السِّلسلة على السلك مثله في تقديم الجحيم على التَّصلية، أي: لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة، وثم للدلالة على التفاوتِ لما بين الغلِّ والتصليةِ بالجحيم وما بينها، وبين السلك في السلسلة، لا على تراخي المدة.

ونازعه أبو حيان في إفادة تقديم الاختصاص كعادته، وجوابه ما تقدم[٤].

ونازعه أيضاً في أن «ثُمَّ» للدلالةِ على تراخي الرُّتْبَةِ.

وقال مكيٌّ: التراخي الزماني بأن يُصلى بعد أن يسلك، ويسلك بعد أن يُؤخذ ويغلي بمهله بين هذه الأشياء. انتهى.

وفيه نظرٌ من حيثُ إن التوعد بتوالي العذاب آكد، وأقطع من التوعد بتغريقه.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾.

«الحضُّ»: الحثُّ على الفعل والحرص على وقوعه، ومنه حروفُ التحضيض المبوب لها في النحو؛ لأنَّه يطلب بها وقوع الفعل وإيجاده، فبيَّن تعالى أنه عذَّب على تركِ الإطعامِ، وعلى الأمر بالبخلِ كما عذَّب بسبب الكُفْرِ.

قال ابن الخطيب[٥]: وفي الآية دليلٌ على أنَّ الكُفَّار مخاطبون بالفروع.

كان أبو الدرداء يحض امرأته على الإطعام ويقول: خلعنا نصف السلسلة بالإيمان، أفلا نخلع نصفها الثاني بالإطعام.

وقيل: المراد قول الكفار: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٠٠١٢).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٢٠١٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٤٢) وعزاه إلى ابن المبارك وهناد في «الزهد» وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٨٩).

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٦٧.

(٥) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١٠٢.

وأصل «طعام» أن يكون منصوباً بالمصدر المقدر، والطعام عبارةٌ عن العين، وأضيف للمسكين للملابسةِ التي بينهما، ومن أعمل الطعام كما يعمل الإطعام، فموضع «المسكين» نصب، والتقدير: على إطعام المطعم المسكين، فحذف الفاعل، وأضيف المصدر إلى المفعول.

قوله: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ في خبر «ليس» وجهان:

أحدهما: «له».

والثاني: هاهنا، وأيهما كان خبراً تعلق به الآخر، أو كان حالاً من «حميم»، ولا يجوز أن يكون «اليوم» خبراً ألبتة؛ لأنه زمان والمخبر عنه جثة.

ومنع المهدوي أن يكون «هاهُنَا» خبراً، ولم يذكر المانع.

وقد ذكره القرطبي[1] فقال: «لأنه يصير المعنى: ليس هاهنا طعام إلا من غسلين، ولا يصح ذلك؛ لأن ثَمَّ طعاماً غيره». انتهى وفي هذا نظر؛ لأنا لا نسلم أولاً أن ثَمَّ طعاماً غيره، فإن أورد قوله: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: ٦] فهذا طعام آخر غير الغسلين.

فالجواب: أن بعضهم ذهب إلى أن الغسلين هو الضريع بعينه، فسمَّاه في آية «غسليناً» وفي أخرى «ضريعاً».

ولئن سلمنا أنهما طعامان، فالحصر باعتبار الآكلين، يعني: أنَّ هذا الآكل انحصر طعامه في الغسلين، فلا ينافي أن يكون في النار طعام آخر.

وإذا قلنا: إن «له» الخبر، وأن «اليوم»، و «هاهنا» متعلقان بما تعلق هو به، فلا إشكال، وكذلك إذا جعلنا «هاهنا» هو الخبر، وعلقنا به الجار والظرف، ولا يضرّ كون العامل معنوياً للاتساع في الظروف وحروف الجر.

وقوله: ﴿إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾، صفة لـ «طعام»، دخل الحصر على الصفة، كقولك: «ليس عندي إلا رجلٌ من بني تميم».

والمراد بـ «الحميم»: الصديق، فعلى هذا الصفة مختصة بالطَّعام، أي: ليس له صديق ينفعه، ولا طعام إلا من كذا.

وقيل: التقدير: ليس له حميم إلاَّ من غسلين ولا طعام. قاله أبو البقاء.

فجعل «مِنْ غسْلِين» صفة لـ «الحميم»، كأنه أراد الشَّيء الذي يحم به البدن من صديد النَّار.

---

(١) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٧٧.

وقيل: من الطعام والشَّراب؛ لأن الجميع يطعم، بدليل قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

فعلى هذا يكون «إلاَّ من غسلين» صفة لـ «حميم» ولـ «طعام»، والمرادُ بالحميم: ما يشرب، أي: ليس له طعام، ولا شراب إلا غسليناً.

أما إذا أريد بالحميم: الصديد فلا يتأتَّى ذلك.

وعلى هذا الذي ذكرنا، فيه سؤالٌ، وهو أن يقال: بأي شيء تعلَّق الجارُ والظرفان؟ والجواب: إنَّها تتعلق بما تعلق به الخبرُ، أو يجعل «له» أو «هاهنا» حالاً من «حميم» ويتعلق «اليوم» بما تعلق به الحال، ولا يجوز أن يكون «اليوم» حالاً من «حميم»، و «له» و «هاهنا» متعلقان بما تعلق به الحال؛ لأنه ظرف زمان، وصاحبُ الحال جثة، وهذا موضعٌ حسنٌ مفيدٌ.

و «الغِسْلين»: «فِعْلين» من الغُسَالة، فنُونُه وياؤه زائدتان.

قال أهل اللغة: هو ما يجري من الجراح إذا غسلت.

قال المفسرون: هو صديدُ أهل النَّارِ.

وقيل: شجر يأكلونه.

وعن ابن عباس: لا أدري ما الغِسْلينُ[(١)].

وسمي طعاماً؛ لقيامه مقامه فسمي طعاماً؛ كقوله: [الوافر]

٤٨٥٢ ـ .... تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وجِيعُ[(٢)]

قوله: ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾. صفة لـ «غسلين».

والعامةُ: يهمزون «الخاطئون»، وهم اسم فاعل من «خَطَأَ يَخْطأ» إذا فعل غير الصواب متعمداً، والمخطىءُ من يفعله غير متعمد.

وقرأ الحسنُ[(٣)] **والزهريُ والعتكي وطلحة**: «الخَاطِيُون» بياء مضمومة بدل الهمزة.

وقرأ نافع[(٤)] **في رواية وشيبة**: بطاء مضمومة دون همزة.

وفيها وجهان:

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٢٦) وعزاه إلى ابن أبي حاتم وأبي القاسم الزجاجي النحوي في «أماليه».

(٢) تقدم.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٦٢، والبحر المحيط ٦/ ٣٢١، والدر المصون ٦/ ٣٦٨.

(٤) ينظر السابق.

أحدهما: أنه كقراءة الجماعةِ إلا أنه خفف بالحذف.

والثاني: أنه اسم فاعل من «خَطَا يَخْطُو» إذا اتبع خطوات غيره، فيكون من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [البقرة: ١٦٨]، قاله الزمخشريُّ.

وقد تقدم أول الكتاب أن نافعاً يقرأ: «الصَّابِيون» بدون همز، وكلام الناس فيها.

وعن ابن عباس: ما الخاطُون، كلنا نخطُو.

وروى عنه أبو الأسود الدؤليُّ: ما الخاطُون إنما هو الخاطئون، وما الصَّابون إنما هو الصَّابئون[1]، ويجوز أن يراد الذين يتخطون الحقَّ إلى الباطل ويتحدون حدود الله.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾.

قد تقدم مثله في آخر الواقعة، إلا أنه قيل هاهنا: إن «لا» نافية لفعل القسم، وكأنه قيل: لا احتياجَ أن أقسمُ على هذا؛ لأنه حقٌّ ظاهرٌ مستغنٍ عن القسم، ولو قيل به في الواقعة لكان حسناً.

واعلم أنه ـ تعالى ـ لما أقام الدلالة على إمكان القيامةِ، ثم على وقوعها، ثم ذكر أحوال السُّعداءِ، وأحوال الأشقياء، ختم الكلام بتعظيم القرآنِ، فقال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾.

وقيل: المراد: أقسم، و «لا» صلةٌ، والمعنى أقسم بالأشياء كلها ما ترون منها وما لا ترون، فعمَّ جميع الأشياء على الشمول؛ لأنها لا تخرجُ عن قسمين: مبْصر وغير مبصر، فقيل: الخالقُ والخلقُ، والدنيا والآخرة، والأجسام والأرواح، والإنس والجنُّ، والنعم الظاهرة، والباطنة.

وإن لم تكن «لا» زائدة، فالتقدير: لا أقسم على أنّ هذا القرآن قول رسولٍ كريم ـ يعني «جبريل»، قاله الحسن والكلبي ومقاتل ـ لأنه يستغنى عن القسم لوضوحه.

وقال مقاتل: سببُ نزولِ هذه الآية أن الوليد بن المغيرة قال: إنَّ محمداً ساحرٌ.

وقال أبو جهل: شاعر وليس القرآن من قول النبي ﷺ. وقال عقبة: كاهن، فقال الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ أي: أقسم[2].

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٠١) من طريق أبي الأسود الدؤلي ويحيى بن يعمر عن ابن عباس.
وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٧٧ ـ ١٧٨).

وإن قيل: «لا» نافية للقسم، فجوابه كجواب القسم.

«إنه» يعني القرآن «لقول رسول كريم» يعني جبريل. قاله الحسن والكلبي ومقاتل[(١)]، لقوله: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِى قُوَّةٍ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠].

وقال الكلبي أيضاً والقتبي: الرسول هنا محمد ﷺ لقوله: «ومَا هُو بِقَوْلِ شاعرٍ»، وليس القرآن من قول الرسول ﷺ إنما هو من قول الله ـ عز وجل ـ ونسب القول إلى الرسولِ، لأنه تاليه ومبلغه والعامل به، كقولنا: هذا قول مالك[(٢)].

فإن قيل: كيف يكونُ كلاماً لله تعالى، ولجبريل، ولمحمد عليهما الصلاة والسلام؟

فالجواب: أن الإضافة يكفي فيها أدنى ملابسةٍ، فالله سبحانه أظهره في اللوح المحفوظ، وجبريلُ بلغه لمحمدٍ ـ عليهما الصلاة والسلام ـ ومحمد ﷺ بلغه للأمة.

قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ﴾ هو جوابُ القسمِ، وقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ﴾ معطوف على الجواب، فهو جواب. أقسم على شيئين: أحدهما: مثبت، والآخر: منفي، وهو من البلاغة الرائعة.

قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

انتصب «قليلاً» في الموضعين نعتاً لمصدر، أو زمان محذوف، أي: إيماناً أو زماناً قليلاً، والنَّاصبُ: «يؤمنون» و «تذكرون» و «ما» مزيدةٌ للتوكيدِ.

وقال ابن عطية: ونصب «قليلاً» بفعلٍ مضمرٍ يدل عليه: «تؤمنون»، و «ما» يحتملُ أن تكون نافية، فينتفي إيمانهم ألبتة، ويحتمل أن تكون مصدرية، وتتصف بالقلة، فهو الإيمان اللغوي؛ لأنهم قد صدقوا بأشياء يسيرةٍ لا تغني عنهم شيئاً، إذ كانوا يصدقون أن الخيرَ والصلةَ والعفافَ الذي يأمرُ به رسولُ الله ﷺ هو حقّ وصواب.

قال أبو حيَّان[(٣)]: أما قوله: «قليلاً نصب بفعل» إلى آخره، فلا يصح؛ لأن ذلك الفعل الدال عليه «تؤمنون» إما أن تكون «ما» نافية ـ كما ذهب إليه ـ أو مصدرية، فإن كانت نافية فذلك الفعل المُضْمَر الدال عليه «تؤمنون» المنفي بـ «ما» يكون منفياً، فيكونُ التقدير: ما تؤمنون قليلاً ما تُؤمنون، والفعل المَنْفِي بـ «ما» لا يجوز حذفه، ولا حذف ما، لا يجوز «زيداً ما أضربُه» على تقدير: «ما أضْربُ زيداً ما أضربه»، وإن كانت مصدرية كانت إما في موضع رفع بـ «قليلاً» على الفاعلية، أي: قليلاً إيمانكم، ويبقى «قليلاً» لا يتقدمه ما يعتمد عليه حتى يعمل ولا ناصب له، وإما في موضع رفعٍ على الابتداء؛ فيكون مبتدأ لا خبر له، لأن ما قبلهُ منصُوبٌ.

---

(١) ينظر المصدر السابق. (٢) ينظر المصدر السابق.
(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٢٨.

قال شهابُ الدين[1]: لا يُريد ابن عطية بدلالةِ «تؤمنون» على الفعل المحذوف الدلالة في باب الاشتغال، حتى يكون العامل الظاهر مفسراً للعامل المضمر، بل يريد مجرّد الدلالة اللفظية، فليس ما أورده أبو حيان عليه من تمثيله بقوله: «زيداً ما أضربه» أي: «ما أضرب زيداً ما أضربُه» وأما الردُ الثاني فظاهرٌ، وقد تقدم لابن عطية هذا القولُ في أول سورة «الأعراف» فَلْيُلتَفَتْ إليه.

وقال الزمخشريُّ: «والقلةُ في معنى العدم، أي: لا تؤمنون ولا تذكرون ألبتَّة».

قال أبو حيَّان[2]: ولا يُرادُ بـ «قليلاً» هنا النفي المحض كما زعم، وذلك لا يكون إلاّ في «أقلُّ رجلٍ يقول ذلك إلا زيدٌ»، وفي «قل» نحو «قَلَّ رجلٌ يقولُ ذلك إلا زيدٌ» وقد يستعمل في «قليلة»، و «قليلة» إذا كانا مرفوعين، نحو ما جوزوا في قول الشاعر: [الطويل]

٤٨٥٣ ـ قَـلِـيـلٌ بِـهَـا الأَصْـوَاتُ إلاَّ بُـغَـامُـهَـا[3] ....

أما إذا كان منصوباً نحو: «قليلاً ضربت، أو قليلاً ما ضربت» على أن تكون «ما» مصدرية، فإن ذلك لا يجوزُ؛ لأنه في «قليلاً ضربت» منصوب بـ «ضربت»، ولم تستعمل العرب «قليلاً»، إذا انتصب بالفعل نفياً، بل مقابلاً لكثير، وأما في «قليلاً ما ضربت» على أن تكون «ما» مصدريةٌ، فتحتاج إلى رفع «قليل»؛ لأن «ما» المصدرية في موضع رفع على الابتداء. انتهى ما رد به عليه.

قال شهاب الدين[4]: «وهذا مجرد دعوى».

وقرأ ابنُ كثيرٍ[5] **وابن عامر بخلافٍ** عن ابن ذكوان: «يؤمنون، يذكرون» بالغيبة حملاً على «الخاطئون» والباقون: بالخطاب، حملاً على «بما تبصرون».

وأبيّ[6]: وتتذكرون «بتاءين».

فصل في القرآن الكريم

قوله: «وما هو بقول شاعرٍ»؛ لأنه مباينٌ لصنوفِ الشعر كلِّها، «ولا بقول كاهنٍ»؛ لأنه ورد بسبِّ الشياطين وشتمهم فلا ينزلون شيئاً على من سبَّهم.

وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾، المراد بالقليل من إيمانهم هو أنهم إذا سئلوا من خلقهم قالوا: الله.

---

(١) الدر المصون ٦/ ٣٦٩.
(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٢٨.
(٣) تقدم.
(٤) الدر المصون ٦/ ٣٦٩.
(٥) ينظر: السبعة ٦٤٨، ٦٤٩، والحجة ٦/ ٣١٥، وإعراب القراءات ٢/ ٣٨٦.
(٦) ينظر: المحرر الوجيز ٣٦٢٥. والبحر المحيط ٣٢٢٨، والدر المصون ٦/ ٣٧٠.

وقيل: إنهم قد يؤمنون في قلوبهم إلا أنهم يرجعون عنه سريعاً، ولا يتممون الاستدلال، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٨] إلا أنه في آخرِ الأمرِ قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤].

وقال مقاتل: يعني بالقليل أنهم لا يصدقون بأن القرآن من الله تعالى[١]، والمعنى لا يؤمنون أصلاً، والعربُ يقولون: قلّ ما تأتينا، يريدون لا تأتينا.

قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، هذه قراءةُ العامة، أعني الرَّفع على إضمار مبتدأ، أي: هو تنزيلٌ وتقدم مثله.

وأبو السِّمال[٢]: «تنزيلاً» بالنصب على إضمار فعل، أي: نزل تنزيلاً.

قال القرطبي[٣]: وهو عطفٌ على قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي: إنه لقول رسول كريم، وهو تنزيل من رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٥٢)﴾

قوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ﴾، هذه قراءةُ العامَّة، «تَفعَّل» من القول مبنيًّا للفاعل.

قال الزمخشريُّ: «التقوُّلُ، افتعالُ القولِ؛ لأن فيه تكلُّفاً من المفتعل».

وقرأ بعضهم[٤]: «تُقُوِّلَ» مبنياً للمفعول.

فإن كان هذا القارئ رفع بـ «بَعْضَ الأقاويل» فذاك، وإلا فالقائم مقام الفاعل الجار، وهذا عند من يرى قيام غير المفعول به مع وجوده.

وقرأ ذكوانُ وابنه[٥] **محمد**: «يَقُولُ» مضارع «قَالَ».

و «الأقاويل» جمعُ: «أقوال»، و «أقوال» جمع: «قول»، فهو نظير: «أبَابِيت» جمع: «أبياتٍ» جمع «بيتٍ».

وقال الزمخشريُّ: وسمى الأقوال المنقولة أقاويل تصغيراً لها وتحقيراً، كقولك: «الأعاجيب» و «الأضاحيك»، كأنها جمع «أفعولة» من القول.

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٨/ ١٧٧ ـ ١٧٨).

(٢) ينظر: الكشاف ٤/٧٠٦، والبحر المحيط ٨/ ٣٢٢، والدر المصون ٦/ ٣٧٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٧٨.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٢٢، والدر المصون ٦/ ٣٧٠.

(٥) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٦٣، والبحر المحيط ٨/ ٣٢٢، والدر المصون ٦/ ٣٧٠.

والمعنى: لو نسب إلينا قولاً لم نقله «لأخذْنَا مِنْهُ باليَمِيْنِ» أي: لأخذناه بالقوة، و «الباء» يجوز أن تكون على أصلها غير مزيدة، والمعنى لأخذناه بقوة منا فـ «الباء» حالية، والحالُ من الفاعل، وتكون «من» في حكم الزائدةِ، واليمينُ هنا مجاز عن القوة والغلبة؛ لأن قوة كل شيء في ميامنه.

قال القتبي: وهو معنى قول ابن عباس ومجاهد.

ومنه قول الشماخ: [الوافر]

٤٨٥٤ ـ إذَا مـا رايـةٌ رُفِـعـتْ لـمَـجْـدِ تـلـقَّـاهَـا عَـرابَـةُ بـالـيَـمِـيْـنِ[١]

قال أبو جعفر الطبري[٢]: هذا الكلام مخرج مخرج الإذلال، على عادة الناس في الأخذ بيد من يعاقب.

ويجوز أن تكون الباءُ مزيدةً، والمعنى: لأخذنا يمينه، والمراد باليمين الجارحة كما يفعل بالمقتول صبراً يؤخذ بيمينه، ويضرب بالسَّيف، في جيده موجهة، وهو أشد عليه.

قال الحسن: لقطعْنَا يدهُ اليمنى[٣].

وقال نفطويه: المعنى لقبضنا بيمينه عن التصرف.

وقال السدِّي ومقاتل: والمعنى: انتقمنا منه بالحقِّ؛ واليمين على هذا بمعنى الحق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٢٨] أي: من قبل الحق[٤].

قوله: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾. وهو العِرْق المتصل من القلب بالرأس الذي إذا قُطعَ مات صاحبُه.

قال أبو زيد: وجمعه الوُتْن، وثلاثة أوتِنَة، والموتُون الذي قُطِعَ وتينُه.

وقال الكلبي: هو عِرْق بين العلباء والحُلْقوم، وهما علباوان، وإن بينهما العِرْق[٥].

والعِلْباء: عصب العنق.

وقيل: عرق غليظ تصادفه شفرة النَّاحر.

قال الشماخُ: [الوافر]

٤٨٥٥ ـ إذَا بـلَّـغْـتـنِـي وحَـمـلْـتِ رحْـلِـي عَـرَابَـةُ فَـاشْـرقِـي بِـدمِ الـوتِـيـنِ[٦]

وقال مجاهد: هو حبل القلب الذي في الظهر، وهو النخاع، فإذا انقطع بطلت القوى، ومات صاحبه.

---

(١) تقدم.
(٢) ينظر: تفسير الطبري ١٢/ ٢٢٣.
(٣) ذكره الماوردي (٦/ ٨٦) والقرطبي (١٨/ ١٧٩).
(٤) ينظر المصدر السابق.
(٥) ينظر المصدر السابق.
(٦) ينظر ديوانه (٩٢)، وشرح المفصل ٢/ ١٣، والقرطبي ١٨/ ١٧٩، والبحر ٨/ ١٣٥، والدر المصون ٦/ ٣٧٠.

وقال محمدُ بن كعب: إنه القلبُ ومراقه، وما يليه[١].

وقال عكرمة: إنَّ الوتينَ إذا قُطعَ لا إن جَاعَ عرف ولا إن شَبعَ عرف[٢].

قال ابن قتيبة: ولم يرد أنا نقطعه بعينه، بل المراد أنه لو كذب لأمتناه فكان كمن قُطِعَ وتينه.

ونظيرهُ قوله ﷺ: «مَا زَالَتْ أكْلَةُ خيْبَر تُعاودُنِي، فهذا أوَانُ انقِطَاعِ أبْهَرِي» «والأبْهَرُ»: عِرْقٌ متصل بالقلب فإذا انقطع مات صاحبُه، فكأنه قال: هذا أوانُ يقتلني السُّم، وحينئذ صرتُ كمن انقطع أبهره.

قوله: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾.

في «حاجزين» وجهان:

أحدهما: أنه نعت لـ «أحد» على اللفظ، وإنما جمع المعنى، لأن «أحداً» يعُمُّ في سياق النفي كسائر النكراتِ الواقعة في سياق النَّفْي، قاله الزمخشري والحوفيُّ.

وعلى هذا فيكون «مِنكُم» خبراً للمبتدأ، والمبتدأ في «أحد» زيدت فيه «مِنْ» لوجود شرطها.

وضعفه أبو حيَّان[٣]: بأن النفي يتسلَّط على كينونته «منكم»، والمعنى إنما هو على نفي الحجز عما يراد به.

والثاني: أن يكون خبراً لـ «ما» الحجازية، و «من أحد» اسمها، وإنما جُمِعَ الخبرُ لما تقدم و «منكم» على هذا حالٌ، لأنه في الأصل صفة لـ «أحد» أو يتعلق بـ «حاجزين» ولا يضر ذلك لكون معمول الخبر جاراً، ولو كان مفعولاً صريحاً لامتنع، لا يجوز: «ما طعامك زيداً آكلاً»، أو متعلق بمحذوف على سبيل البيان، و «عنه» يتعلق بـ «حاجزين» على القولين، والضمير للمقتول، أو للقتل المدلول عليه بقوله: «لأخذْنَا، لقطعنا».

قال القرطبيُّ[٤]: المعنى فما منكم قوم يحجزون عنه لقوله تعالى ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] هذا جمع لأن «بين» لا تقع إلا على اثنين فما زاد، قال عليه الصلاة والسلام: «لَمْ تحلَّ الغَنَائِمُ لأحدٍ سُودِ الرُّءوسِ قَبْلكُمْ».

لفظه واحد، ومعناه الجمع، و «من» زائدة.

والحَجْز: المنع، و «حَاجزيْنَ» يجوز أن يكون صفة لـ «أحد»، على المعنى كما

---

(١) ينظر المصدر السابق.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤١٤) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١٠٦

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٨٠.

تقدم، فيكون في موضع جر، والخبر «منكم»، ويجوز أن يكون منصوباً، على أنه خبر، و «منكم» ملغى، ويكون متعلقاً بـ «حاجزين»، ولا يمنع الفصل به من انتصاب الخبر في هذا، كما لم يمتنع الفصل به في «إنَّ فيك زيداً راغبٌ».

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾. يعني: القرآن ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾، أي: الخائفين الذين يخشون الله، ونظيره ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقيل: المراد محيمد ﷺ أي: هو تذكرة ورحمة ونجاة.

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾.

قال الربيع: بالقرآن، ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ﴾ يعني: القرآن ﴿عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ إمَّا يوم القيامة إذا رأوا ثواب المصدقين به، أو في الدنيا إذا رأوا دولة المؤمنين به، أو حين لم يقدروا على معارضته حين تحدَّاهم أن يأتوا بسورة مثله.

والحسرة: الندامة.

وقيل: «إنه لحسرة» يعني: التكذيب به، لدلالة مكذبين على المصدر دلالة «السَّفيه» فيه في قوله: [الوافر]

٤٨٥٦ ـ إذَا نُهِيَ السَّفِيهُ جَرَى إلَيْهِ وخَالَفَ، والسَّفِيهُ إلى خِلافِ[1]

أي: إلى السَّفهِ.

فصل فيمن استدل بالآية على أن الكفر ليس من الله

قال ابنُ الخطيب[2]: وللمعتزلة أن يتمسكوا بهذه الآية، على أنَّ الكُفر ليس من الله؛ لأنه وصف القرآن بأنه تذكرةٌ للمتقين، ولم يقل: إنه ضلالٌ للمكذبين؛ بل نسب الضَّلال إليهم بقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾.

والجوابُ: ما تقدم.

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ يعني: القرآن العظيم، تنزيل من الله ـ عز وجل ـ فهو كحق اليقينِ.

وقيل: حقًّا يقيناً لا بطلان فيه، ويقيناً لا ريب فيه، ثم أضيف أحد الوصفين إلى الآخر للتأكيد. قاله ابن الخطيب.

وقال القرطبيُّ[3]: قال ابنُ عبَّاسٍ: إنما هو كقولك: عينُ اليقينِ ومحضُ اليقينِ، ولو كان اليقينَ نعتاً لم يجز أن يضاف إليه، كما لا تقول: هذا رجل الظريف.

---

(١) تقدم. (٢) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١٠٦.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٨٠.

وقيل: أضافه إلى نفسه لاختلاف اللفظين.

وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

قال ابن عبَّاس: أي: فَصَلِّ لربِّك وقيل: نزِّه اللَّه عن السوءِ والنقائصِ، إما شُكْراً على ما جعلك أهْلاً لإيحائه إليك، وإمَّا تنزيهاً له عن الرضا بأن يُنسبَ إليه الكذبُ من الوَحْي.

روى الثعلبي عن أبيِّ بنِ كعب قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ سُورةَ الحَاقَّةِ حَاسَبَهُ اللَّهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ حِسَاباً يَسِيراً»[1].

وعن فُضالةَ بنِ شريك، عن أبي الزاهرية قال: سمعته يقول: «مَنْ قَرَأ إحدى عَشْرَةَ آيةً من سُورةِ الحاقَّةِ، أجِير من فِتْنَةِ الدَّجَّالِ؛ ومنْ قَرَأها، كَانَ لَهُ نُوراً مِنْ فَوْقِ رَأسِهِ إلى قَدمَيْهِ»[2].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره (١٨/ ١٦٧) من طريق أبي الزاهرية عن أبي هريرة مرفوعاً.

سورة المعارج

مكية، وهي أربعة وأربعون آية، ومائتانِ وستة عشر كلمةً، وألف وإحدى وستون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾.

قرأ نافع وابن[1] **عامرٍ**: «سَالَ سَائِلٌ» بغير همز.

والباقون: بالهمز، فمن همز، فهو من السؤال، وهي اللغةُ الفاشيةُ.

ثم لك في «سأل» وجهان:

أحدهما: أن يكون قد ضمن معنى «دعا» فلذلك تعدَّى بالباءِ، كما تقول: دعوتُ بكذا، والمعنى: دعا داعٍ بعذابٍ.

والثاني: أن يكون على أصله، والباء بمعنى «عن»، كقوله: [الطويل]

٤٨٥٦م ـ فإنْ تَسْألُوني بالنِّسَاءِ... ....

﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩] وقد تقدم تحقيقه.

والأول أولى لأن التجوزَ في الفعل أولى منه في الحرف لقوته.

وأما القراءةُ بالألف ففيها ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدها: أنها بمعنى قراءة الهمزة، وإنما خففت بقلبها ألفاً، وليس بقياس تخفيف مثلها، بل قياس تخفيفها، جعلها بَيْنَ بَيْنَ، والباء على هذا الوجه كما في الوجه الذي تقدم.

---

(١) ينظر: السبعة ٦٥٠، والحجة ٦/٧٣١٧ وإعراب القراءات ٣٨٩، وحجة القراءات ٧٢٠.

الثاني: أنَّها من «سَالَ يَسالُ» مثل: خَافَ يخافُ، وعين الكلمة واو.

قال الزمخشريُّ: «وهي لغةُ قريش، يقولون: سلت تسال، وهما يتسايلان».

قال أبو حيَّان[١]: وينبغي أن يتثبت في قوله: «إنها لغةُ قريش»؛ لأن ما جاء في القرآن من باب السؤال هو مهموز، أو أصله الهمز، كقراءة من قرأ «وسَلُوا» [النساء: ٣٢]، إذ لا يجوز أن يكون من «سَالَ» التي يكون عينها واواً، إذ كان يكون «وسالوا الله» مثل «خافوا» فيبعد أن يجيء ذلك كلُّه على لغةِ غير قريش، وهم الذين نزل القرآنُ بلغتهم إلا يسيراً فيه لغة غيرهم، ثم جاء في كلام الزمخشري: وهما «يتسايلان» بالياء، وهو وهم من النُّساخ، إنما الصواب: يتساولان ـ بالواو ـ لأنه صرح أولاً أنه من السؤال، يعني بالواو الصريحة.

وقد حكى أبو زيد عن العرب: إنهما يتساولان.

الثالث: أنها من السَّيلان، والمعنى: «سال» واد في جهنم، يقال له: سايل، وهو قول زيد بن ثابت.

فالعين ياء، ويؤيده قراءة ابن عباس: «سال سيل».

قال الزمخشريُّ: «والسَّيل مصدر في معنى السَّائل، كالغَوْر بمعنى الغائِر، والمعنى: اندفع عليهم وادي عذاب»، انتهى.

والظاهر الوجه الأول لثبوت ذلك لغة مشهورة، قال: [البسيط]

٤٨٥٧ ـ سَالَتْ هُذيلٌ رَسُولَ اللَّهِ فَاحشَةً ضَلَّتْ هُذيلٌ بِمَا سَالتْ ولمْ تُصِبِ[٢]

وقرأ أبيُّ بن كعب وعبد الله[٣]: «سَال سَالٍ» مثل «مَالٍ».

وتخريجها: أن الأصل: «سائل» فحذفت عينُ الكلمة، وهي الهمزة، واللام محل الإعراب، وهذا كما قيل: هذا شاكٍ في شائك السِّلاح. وقد تقدم الكلام على مادة السؤال أول سورة «البقرة» فليلتفت إليه.

و «الباء» تتعلق بـ «سال» من السيلان تعلقها بـ «سأل» لِمَا يزيد.

وجعل بعضهم الباءَ متعلقة بمصدر دلَّ عليه فعل السؤالِ، كأنه قيل: ما سؤالهم؟.

فقيل: سؤالهم بعذاب، كذا حكاه أبو حيَّان عن ابن الخطيب[٤].

ولم يعترضه، وهذا عجيب، فإنَّ قوله أولاً: إنه متعلق بمصدر دل عليه فعل السؤال

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٢٢.

(٢) تقدم.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٣٦٥٥، والبحر المحيط ٨/ ٣٢٦، والدر المصون ٦/ ٣٧٣.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١٠٧، والبحر المحيط ٨/ ٣٣٢.

ينافي تقديره بقوله: «سؤالهم بعذاب»؛ لأن الباء في هذا التركيب المقدَّر تتعلق بمحذوف؛ لأنها خبر المبتدأ بالسؤال.

وقال الزمخشريُّ: «وعن قتادة سأل سائل عن عذاب الله بمن ينزل وعلى من يقع فنزلت[١]، و «سأل» على هذا الوجه مضمن معنى عني واهتم، كأنه قيل: اهتم مهتم بعذاب واقعٍ».

فصل في تفسير السؤال

قال القرطبيُّ[٢]: الباء يجوز أن تكون بمعنى «عن» والسؤالُ بمعنى الدعاء، أي دعا داع بالعذاب، عن ابن عباس وغيره، يقال: دعا على فلان بالويلِ ودعا عليه بالعذاب.

ويقال: دعوتُ زيداً، أي التمستُ إحضاره، والمعنى التمس ملتمسٌ عذاباً للكافرين، وهو واقع بهم لا محالة يوم القيامةِ، وعلى هذا فالباءُ زائدةٌ كقوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ [مريم: ٢٣]، فهي تأكيد، أي: سأل سائل عذاباً واقعاً.

«لِلكَافِرِينَ» أي: على الكافرين.

قيل: هو النضر بن الحارث حيثُ قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، فنزل سؤاله، وقتل يوم «بدر» صبراً هو وعقبة بن أبي معيط، لم يقتل صبراً غيرهما، قاله ابن عباس ومجاهد.

وقيل: إنَّ السائل هنا هو الحارثُ بن النعمان الفهري، وذلك أنه لما بلغه قول النبي ﷺ في علي رضي الله عنه: «مَنْ كُنْتُ مَولاهُ فَعَليٌّ مَوْلاهُ» ركب ناقته فجاء حتى أناخ راحلته بالأبطح، ثم قال: يا محمدُ، أمرتنا عن الله، أن نشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّك رسول الله، فقبلناه منك، وأن نصلي خمساً، ونزكي أموالنا، فقبلناه منك، وأن نصوم شهر رمضان في كل عام، فقبلناه منك، وأن نحج، فقبلناه منك، ثُمَّ لم ترض بهذا، حتى فضَّلت ابن عمك علينا، أفهذا شيءٌ منك أم من الله؟.

فقال النبي ﷺ: «واللَّهِ الَّذي لا إلهَ إلاَّ هُوَ، ما هُوَ إلاَّ مِنَ اللَّهِ» فولى الحارث وهو يقول: اللهم إن كان ما يقول محمد حقًّا، فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذابٍ أليم، فوالله ما وصل إلى ناقته، حتى رماه الله بحجر فوقع على دماغه، فخرج من دبره فقتله، فنزلت ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾[٣].

---

(١) ذكره الزمخشري في «تفسيره» (٤/ ٦٠٨). (٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٨١).

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٠٢) والنسائي (٦/ ٤٩٨) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس. =

وقال الربيع: السائل هنا أبو جهلٍ وهو القائل ذلك.

وقيل: إنه قول جماعة من كفار قريش، وقيل: هو نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ سأل العذاب على الكافرين.

وقيل: هو رسول الله ﷺ دعا عليهم بالعقاب، وطلب أن يوقعه بالكفار، وهو واقع بهم لا محالة، وامتد الكلام إلى قوله تعالى ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥]، أي: لا تستعجل فإنه قريب، وهذا يدل على أن ذلك السائل هو الذي أمره الله بالصبر الجميلِ.

وقال قتادة: الباءُ بمعنى «عَنْ»، فكأن سائلاً سأل عن العذاب بمن وقع، أو متى يقع، قال الله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرًا﴾، أي: فاسأل عنه، وقال علقمةُ: [الطويل]

٤٨٥٨ ـ فإن تَسْألُونِي بالنِّسَاءِ.... ....[1]

أي: عن النِّساء، فالمعنى: سلوني[2] بمن وقع العذاب، ولمن يكون، فقال الله تعالى: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ وقال أبو عليّ وغيره: وإذا كان من السؤال، فأصله أن يتعدَّى إلى مفعولين، ويجوز الاقتصار على أحدهما وإذا اقتصر على أحدهما، جاز أن يتعدى إليه بحرف الجر، فيكون التقدير: سأل سائل النبي ﷺ أو المسلمين بعذاب أو عن عذاب.

قوله: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾. فيه أوجه:

أحدها: أن يتعلق بـ «سأل» مضمناً معنى «دعا» كما تقدم، أي: دعا لهم بعذاب واقع.

الثاني: أن يتعلق بـ «واقع» واللام للعلة، أي نازل لأجلهم.

الثالث: أن يتعلق بمحذوف، صفة ثانية لـ «عذاب» أي كائن للكافرين.

الرابع: أن يكون جواباً للسائل، فيكون خبر مبتدأ مضمر، أي: هو للكافرين.

الخامس: أن تكون «اللام» بمعنى «على»، أي: واقع على الكافرين.

ويؤيده قراءة أبيّ[3]: «على الكافرين»، وعلى هذا فهي متعلقة بـ «واقع» لا على الوجه الذي تقدم قبله.

قال الزمخشريُّ: فإن قلت: بِمَ يتصل قوله: «للكافرين»؟.

قلت: هو على القول الأول متصل بـ «عذاب» صفة له أي بعذاب واقع كائن

= وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وتعقبه الذهبي بأنه على شرط البخاري فقط. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٤٥) وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(١) تقدم. (٢) في ب: سألوا.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٦٥، والبحر المحيط ٨/ ٣٢٧، والدر المصون ٦/ ٣٧٣.

للكافرين، أو بالفعل أي دعا للكافرين بعذاب واقع أو بواقع، أي: بعذاب نازل لأجلهم.

وعلى الثاني: هو كلام مبتدأ جواب للسائل، أي: هو للكافرين انتهى.

قال أبو حيَّان(١): وقال الزمخشري: أو بالفعل، أي: دعا للكافرين، ثم قال: وعلى الثاني، وهو ثاني ما ذكر في توجيهه للكافرين، قال: هو كلام مبتدأ، وقع جواباً للسائل، أي: هو للكافرين، وكان قد قرر أن «سأل» في معنى «دعا» فعدي تعديته، كأنه قال: دعا داع بعذاب، من قولك: دعا بكذا إذا استدعاه وطلبه، ومنه قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥] انتهى، فعلى ما قرره، أنه متعلق بـ «دَعَا» يعني «بسأل»، فكيف يكون كلاماً مبتدأ جواباً للسائل، أي: هو للكافرين، هذا لا يصح.

قال شهاب الدين(٢): وقد غلط أبو حيان في فهمه عن أبي القاسم قوله: وعلى الثاني إلى آخره، فمن ثم جاء التخليط الذي ذكره الزمخشريُّ، إنما عنى بالثاني قوله عن قتادة: سأل سائل عن عذاب الله على من ينزل وبمن يقع، فنزلت، و «سأل» على هذا الوجه مضمن معنى «عني واهتم»، فهذا هو الوجه الثاني المقابل للوجه الأول، وهو أن «سأل» يتضمن معنى «دَعَا»، ولا أدري كيف تخبط حتى وقع، ونسب الزمخشري إلى الغلط، وأنه أخذ قول قتادة والحسن وأفسده، والترتيب الذي رتّبه الزمخشري، في تعلق «اللام» من أحسن ما يكون صناعة ومعنى.

قال القرطبي(٣): وقال الحسن: أنزل اللَّهُ تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾، وقال: لمن هو؟ فقال: «للكافرين»(٤)، فاللام في «لِلْكَافِرِيْنَ» متعلقة بـ «واقع».

وقال الفرَّاءُ: التقدير: بعذابٍ للكافرين واقع، فالواقع من نعت العذاب، فاللام دخلت للعذاب لا للواقع.

أي: هذا العذاب للكافرين في الآخرة، لا يدفعه عنهم أحدٌ.

وقيل: إن اللام بمعنى «على» أي: واقع على الكافرين كما في قراءة أبَيٍّ المتقدمة.

وقيل: بمعنى «عَنْ» أي: ليس له دافع عن الكافرين.

قوله: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾.

يجوز أن يكون نعتاً آخر لـ «عذاب»، وأن يكون مستأنفاً، والأول أظهر.

وأن يكون حالاً من «عَذاب» لتخصصه، إما بالعمل وإما بالصفة، وأن يكون حالاً من الضمير في «للكافرين» إن جعلناه نعتاً لـ «عَذاب».

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٣٢. (٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٧٣.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٨/ ١٨٢ ـ ١٨٣.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٤٥) وعزاه إلى ابن المنذر.

قوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ يجوز أن يتعلق بـ «دَافِعٌ» بمعنى ليس له دافع من جهته، إذا جاء وقته. وأن يتعلق بـ «واقع»، وبه بدأ الزمخشري، أي: واقع من عنده.

وقال أبو البقاء: ولم يمنع النفي من ذلك؛ لأن «لَيْسَ» فعل.

كأنه استشعر أن ما قبل النفي لا يعمل فيما بعده.

وأجاب: بأنَّ النفي لما كان فعلاً ساغ ذلك.

قال أبو حيَّان[1]: والأجود أن يكون «مِنَ اللَّهِ» متعلقاً بـ «وَاقع»، و «لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ» جملة اعتراض بين العامل ومعموله». انتهى.

وهذا إنما يأتي على البدل، بأنَّ الجملة مستأنفةٌ، لا صفة لـ «عذاب»، وهو غير الظاهر كما تقدم لأخذ الكلام بعضه بحجزة بعض.

قوله: «ذي» صفة لله، ومعنى: «ذِي المَعارِجِ»، أي: ذي العلو والدرجات الفواضل والنعم؛ لأنها تصل إلى الناس على مراتب مختلفة، قاله ابن عباس وقتادة[2].

«فالمعارج»، مراتبُ إنعامه على الخلق.

وقيل: ذي العظمة والعلو.

وقال مجاهدٌ: هي معارج السماءِ[3].

وقيل: هي السموات.

قال ابن عباس: أي: ذي السموات، سمَّاها معارج الملائكةِ، لأن الملائكةَ تعرج إلى السماءِ، فوصف نفسه بذلك[4].

وقيل: «المعارج» الغرف، أي: أنه ذو الغرف، أي: جعل لأوليائه في الجنة غرفاً.

وقرأ عبد الله[5]: «ذِي المعاريج» بالياء.

يقال: معرج، ومعراج، ومعارج، ومعاريج مثل مفتاح ومفاتيح.

والمعارج: الدرجات ومنه: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣] وتقدم الكلام على المعارج في «الزخرف».

قوله: ﴿تَعْرُجُ﴾. العامة: بالتاء من فوق.

وقرأ ابن مسعود[6]، **وأصحابه، والسلمي، والكسائي**: بالياء من تحت.

---

(١) ينظر البحر المحيط ٨/ ٣٣٣.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٤٦) وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٤٦) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ في «العظمة».

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٨٣). (٥) ينظر: القرطبي ١٨/ ١٨٣.

(٦) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٦٥، والبحر المحيط ٨/ ٣٢٧، والدر المصون ٦/ ٣٧٤.

وهما كقراءتي: «فَنَادَاهُ المَلائِكَةُ ونَادَتْهُ» [آل عمران: ٣٩]، و «تَوَفَّاهُ وَتَوَفَّتْهُ» [الأنعام: ٦١].

وأدغم أبو[1] **عمرو**: الجيم في التاء.

واستضعفها بعضهم من حيث إن مخرج الجيم بعيد من مخرج التاء.

وأجيب عن ذلك بأنها قريبة من الشين؛ لأن النقص الذي في الشين يقرِّبها من مخرج التاء، والجيم تدغم في الشين لما بينهما من التقارب، في المخرج والصفة، كما تقدم في ﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ [الفتح: ٢٩] فحُمِلَ الإدغام في التاء، على الإدغام في الشين، لما بين الشين والتاء من التقارب.

وأجيب أيضاً: بأنَّ الإدغام يكون لمجرد الصفات، وإنْ لم يتقاربا في المخرج، والجيم تشارك التاء في الاستفال والانفتاح والشّدة.

والجملة من «تعرج» مستأنفة.

قوله: «والرُّوحُ» من باب عطف الخاص على العام، إن أريد بالروح جبريل، أو ملك آخر من جنسهم، وأخر هنا وقدم في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨]؛ لأن المقامَ هنا يقتضي تقدم الجمع على الواحد، من حيثُ إنه مقامُ تخويفٍ، وتهويل.

فصل في تحرير معنى الآية

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾، أي: تصعد في المعارج التي جعلها الله لهم.

قال ابن عبَّاسٍ: الروح: جبريلُ ـ عليه السلام ـ لقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾[2].

وقيل: هو ملكٌ آخر، عظيمُ الخلقةِ.

وقال أبو صالح: إنه خلق من خلق الله، كهيئة الناس وليس بالناس.

وقال قبيصة بن ذؤيب: إنه روح الميت حين تقبض.

قوله: «إليه»، أي: إلى المكان الذي هو محلهم، وهو في السماء؛ لأنه محلُّ برِّه وكرامته وقيل: هو كقول إبراهيم ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩]، أي: إلى الموضع الذي أمرني به.

وقيل: «إليه» إلى عرشه.

قال شهاب الدين[3]: الضمير في «إليْهِ»، الظاهر عوده على الله تعالى.

وقيل: يعود على المكان لدلالة الحال والسياق عليه.

---

(١) ينظر: الإدغام الكبير ص ١٢١.

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٩٠) والبغوي (٤/ ٣٩٢).

(٣) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٧٤.

قوله: «في يوم»، فيه وجهان:

أظهرهما: تعلقه بـ «تَعْرجُ».

والثاني: أنه يتعلق بـ «دافع».

وعلى هذا فالجملة من قوله: «تعرُج الملائكةُ» معترضة، و «كَانَ مقداره» صفةٌ لـ «يوم».

قال ابن الخطيب(١): الأكثرون على أنَّ قوله: «فِي يَوْمٍ» صلة قوله: «تَعْرُجُ»، أي: يحصل العروج في مثل هذا اليوم.

وقال مقاتل: بل هذا من صلة قوله: «بعَذابٍ واقع» [وعلى هذا القول يكون في الآية تقديم وتأخير، والتقدير: سأل سائل بعذاب واقع](٢)، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.

وعلى التقدير الأول، فذلك اليوم، إما أن يكون في الآخرة، أو في الدنيا. وعلى تقدير أن يكون في الآخرة، فذلك الطول إما أن يكون واقعاً، وإما أن يكون مقدراً، فإن كان معنى الآية: إن ذلك العُروجَ يقع في يوم من أيام الآخرة طوله خمسون ألف سنةٍ، وهو يوم القيامة، وهذا قول الحسن، قال: وليس يعني أن مقدار طوله هذا فقط؛ إذ لو كان كذلك لحصلت له غاية، ولنفيت الجنة والنار عند انتهاء تلك الغاية، وهذا غير جائز، بل المراد: أن موقفهم للحساب حين يفصل بين الناس خمسون ألف سنة من سني الدُّنيا بعد ذلك يستقر أهل النار في النار، نعوذ بالله منها.

فصل في الاحتجاج لهذا القول

قال القرطبي(٣): واستدل النحاس على صحة هذا القول بما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ رجُلٍ لَمْ يُؤدِّ زكَاةَ مالِه إلاَّ جعلَ لَهُ شُجَاعاً مِنْ نَارٍ تُكْوَى بِهِ جبْهَتُهُ وظَهْرُهُ وجَنْبَاهُ يَوْمَ القِيامَةِ في يَوْم كَانَ مقْدارهُ خَمْسينَ ألْفَ سَنةٍ حتَّى يقْضِيَ الله بَيْنَ النَّاسِ»(٤) وهذا يدل على أنه يوم القيامةِ.

وقال إبراهيم التيمي: ما قدر ذلك اليوم على المؤمن إلا ما قدر ما بين ظهر يومنا وعصره.

وروي هذا المعنى مرفوعاً عن النبي ﷺ أنه قال: «يحاسبكم الله تعالى بمقدار ما بين الصلاتين»(٥) ولذلك سمى نفسه ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤٠]، و ﴿أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾

---

(١) الفخر الرازي ٣٠/١٠٩.

(٢) سقط من أ.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٨٤.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٨٢).

(٥) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٩١).

[الأنعام: ٦٢]، وإنما خاطبهم على قدر فهم الخلائقِ، وإلا فلا يشغله شأن عن شأن، وكما يرزقهم في ساعة يحاسبهم في لحظة، قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

والمعنى: لو ولي محاسبة العباد في ذلك اليوم غير الله، لم يفرغ منه في خمسين ألف سنة.

قال البغوي: هذا معنى قول عطاء عن ابن عباس ومقاتل.

قال عطاء: ويفرغ الله منه في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا(١).

واعلم أنَّ هذا الطول، إنّما يكون في حق الكافرِ، وأما في حق المؤمن فلا، لما روى أبو سعيد الخدري أنه قال: قِيْلَ لرسول الله ﷺ: ما أطولَ هذا اليوم؟ فقال: «والذي نَفْسي بِيَدِهِ إنَّهُ ليَخِفُّ على المُؤمنِ حتَّى إنَّهُ يكُونُ أخفَّ من صلاةٍ مكتوبةٍ يُصلِّيهَا في الدُّنْيَا»(٢).

وقال بعضهم: إنَّ ذلك، وإن طال، فيكون سبباً لمزيد السرورِ والراحة لأهل الجنة، ويكون سبباً لمزيد الحزنِ والغمِّ لأهل النار.

وأجيب: بأنَّ الآخرة دارُ جزاءٍ، فلا بد وأن يحصل للمثابين ثوابهم، ودارُ الثوابِ هي الجنةُ لا الموقف، فإذاً لا بد من تخصيص طول الموقف بالكفار.

وقيل: هذه المدة على سبيل التقدير لا على التحقيق، أي: تعرج الملائكةُ في ساعة قليلة، لو أراد أهل الدنيا العروج إليها كان مقدار مدَّتهم خمسين ألف سنةٍ.

وعن مجاهد والحسن وعكرمة: هي مدة إقامة عمر الدنيا من أول ما خلقت إلى آخر ما بقي خمسون ألف سنةٍ(٣)، وهو قول أبي مسلم.

فإن قيل: كيف الجمعُ بين هذه، وبين قوله في سورة «السَّجدة»: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] وقد قال ابن عباس: هي أيام سمَّاها الله تعالى هو أعلم بها، وأنا أكره أن أقول فيها ما لا أعلم(٤)؟.

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٩٣)

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٧٥) وأبو يعلى (٢/ ٥٢٧) رقم (١٣٩٠) وابن حبان (٢٥٧٧ ـ موارد) والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٢٨) من حديث أبي سعيد الخدري.
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٤٠) وقال: رواه أحمد وأبو يعلى وإسناده حسن على ضعف في راويه.
والحديث ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤١٧) وزاد نسبته إلى البيهقي في «البعث».

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤١٧) عن مجاهد وعكرمة وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٨٤) عن ابن عباس.

فالجوابُ[١]: يحتمل أن من أسفل العالم إلى أعلى العرش خمسين ألف سنةٍ، ومن أعلى سماءِ الدنيا إلى الأرض ألف سنةٍ؛ لأن عرض كل سماءٍ خمسمائة، وما بين أسفل السماء إلى قرار الأرض خمسمائة، فقوله: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ يريد: في يوم من أيام الدنيا، وهو مقدار ألف سنةٍ لو صعدوا فيه إلى سماء الدنيا، ومقدار خمسين ألف سنةٍ لو صعدوا إلى أعلى العرش.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾﴾

قوله: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ قال ابن الخطيب[٢]: هذا متعلق بـ «سأَلَ سَائلٌ»؛ لأن استعجالهم بالعذاب كان على وجه الاستهزاءِ برسول الله ﷺ والتعنُّت فأمر بالصبر.

ومن قَرَأ: «سَالَ سَائِل»، وسيل فالمعنى جاء العذاب لقرب وقوعه فاصبر على أذى قومك، والصَّبرُ الجميلُ هو الذي لا جزع فيه، ولا شكوى لغير الله.

وقيل: أن يكون صاحب مصيبة في القوم لا يدرى من هو.

قال ابنُ زيدٍ والكلبيُّ: هذه الآيةُ منسوخة بالأمر بالقتال[٣].

قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾.

الضميرُ في «إنَّهُمْ» لأهل «مكة»، وفي «يَرونَهُم، ونَرَاه» لليوم إن أريد به يوم القيامة.

قال القرطبيُّ[٤]: أي: نعلمه؛ لأن الرؤية إنما تتعلقُ بالموجودِ، كقولك: الشافعي يرى في هذه المسألةِ كذا.

وقال الأعمشُ: يرون البَعْثَ بعيداً؛ لأنهم لا يؤمنون به، كأنهم يستبعدونه على جهة الإحالة كمن يقول لمن يناظره: هذا بعيدٌ لا يكون.

وقيل: الضمير يعودُ إلى العذاب بالنار، أي: غير كائن، «ونراه قريباً» لأن ما هو آت، فهو قريب.

قوله: ﴿يَوْمَ تَكُونُ﴾، فيه أوجه:

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١١٠. (٢) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١١٠.
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٨٤) عن ابن عباس.
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٨٤).

أحدها: أنه متعلق بـ «قريباً» وهذا إذا كان الضمير في «نراه» للعذاب ظاهراً.

الثاني: أنه يتعلق بمحذوف يدل عليه «واقع»، أي: يقع يوم يكون.

الثالث: أنه يتعلق بمحذوفٍ مقدر بعده، أي: يوم يكون كان وكيت وكيت.

الرابع: أنه بدل من الضمير في «نَرَاهُ» إذا كان عائداً على يومِ القيامةِ.

الخامس: أنَّه بدل عن «فِي يَوْمٍ»، فيمن علقه بـ «واقع». قاله الزمخشري.

وإنَّما قال: فيمن علقه «بِواقع» لأنه إذا علق بـ «تَعْرُجُ» في أحد الوجهين استحال أن يبدل عنه هذا لأن عروج الملائكةَ ليس هو في هذا اليوم الذي تكون السماء كالمُهْلِ، والجبال كالعِهْنِ، ويشغل كل حميمٍ عن حميمه.

قال أبو حيان[1]: «ولا يجوز هذا» يعني: إبداله من «في يوم» قال: لأن «فِي يَوْمٍ» وإن كان في موضع نصبٍ لا يبدل منه منصوب؛ لأن مثل هذا ليس بزائد، ولا محكوم لَه بحكم الزائد، كـ «رُبَّ» وإنما يجوز مراعاة الموضع في حرف الجر الزائد؛ كقولَه: [الكامل]

٤٨٥٩ ـ أَبَنِي لُبَيْنَى لَسْتُمَا بِيَدٍ   إلاَّ يَداً لَيْسَتْ لَهَا عَضُدُ[2]

ولذلك لا يجوز «مررتُ بزيد الخياط» على موضع «بزيد» ولا «مررتُ بزيد وعمراً»، ولا «غضب على زيد وجعفراً» ولا «مررت بزيد وأخاك» على مراعاة الموضع.

قال شهاب الدين[3]: قد تقدم أن قراءة ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ [المائدة: ٦] من هذا الباب فمن نصب الأرجل فليكن هذا مثله.

ثم قال أبو حيَّان[4]: فإن قلت: الحركة في «يوم» تكون حركة بناء لا حركة إعرابٍ، فهو مجرور مثل «فِي يَوْمٍ».

قلتُ: لا يجوز بناؤه على مذهب البصريين؛ لأنه أضيف إلى مُعرب، لكنه يجوز على مذهب الكوفيين فيتمشى كلامُ الزمخشريِّ على مذهبهم إن كان استحضره وقصده انتهى.

قال شهاب[5] الدين: إن كان استحضره فيه تحامل على الرجل، وأي كبير أمر في هذا حتى لا يستحضر مثل هذا. وتقدم الكلام على المهل في «الدخان».

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٤٤.

(٢) نسب البيت إلى أوس بن حجر، وإلى طرفة بن العبد.
ينظر ديوان أوس ص (٢١)، وديوان طرفة ص(٤٥)، والكتاب ٢/ ١٣٧، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٦٨، وشرح المفصل ٢/ ٩٠، والمقتضب ٤/ ٤٢١، وأمالي ابن الحاجب ص ٤٤١، والبحر المحيط ٨/ ٣٢٨، والدر المصون ٦/ ٣٧٥.

(٣) الدر المصون ٦/ ٣٧٥.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٣٤.

(٥) الدر المصون ٦/ ٣٧٥.

قوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾.

قيل: «العِهْنُ» هو الصُّوف مطلقاً، وقيل: يقدر كونه أحمر وهو أضعف الصوف؛ ومنه قول زهير: [الطويل]

٤٨٦٠ ـ كَأَنَّ فُتَاتَ العِهْنِ في كُلِّ مَنْزِلٍ يَـزَالُ بِـهِ حَـبُّ الـفَـنَـا لـمْ يُـحَـطَّـمِ[١]

الفتات: القطع، والعِهْنُ: الصُّوف الأحمر، واحده عهنة.

وقيل: يقيد كونه مصبوغاً ألواناً، وهذا أليق بالتشبيه؛ لأن الجبال متلونة، كما قال تعالى: ﴿جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

والمعنى: أنها تلين بعد شدة، وتتفرق بعد الاجتماع.

وقيل: أول ما تتفرق الجبال تصير رمالاً ثم عِهْناً منفوشاً، ثم هباءً مَنْثُوراً.

قوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾.

قرأ العامة: «يَسْأَلُ» مبنياً للفاعل، والمفعول الثاني محذوف، فقيل: تقديره: لا يسأله نصره، ولا شفاعته لعلمه أنَّ ذلك مفقود.

وقيل: لا يسأله شيئاً من حمل أو زادٍ.

وقيل: «حَمِيْماً» منصوب على إسقاط الخافض، أي: عن حميم، لشغله عنه. قاله قتادة. لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧].

وقرأ أبو[٢] **جعفر، وأبو حيوة، وشيبة، وابن كثير** في رواية قال القرطبيُّ[٣]: والبزي عن عاصم: «يُسْأَلُ» مبنياً للمفعول.

فقيل: «حميماً» مفعول ثان لا على إسقاط حرف، والمعنى: لا يسأل إحضاره.

وقيل: بل هو على إسقاط «عَنْ»، أي: عن حميم، ولا ذو قرابة عن قرابته، بل كل إنسان يُسأل عن عمله، نظيره: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨].

قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ عدي بالتضعيف إلى ثان، وقام الأول مقام الفاعل، وفي محل هذه الجملة وجهان:

أحدهما: أنها في موضع الصفة لـ «حَمِيم».

والثاني: أنها مستأنفة.

---

(١) ينظر: القرطبي ١٨/ ١٨٥

(٢) ينظر: السبعة ٦٥٠، والحجة ٦/ ٣٢٠، والبحر المحيط ٦/ ٣٢٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٦٦، والدر المصون ٦/ ٣٧٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٦٥.

قال الزمخشريُّ: فإن قلت: ما موقع «يُبصَّرُونهُم»؟

قلت: هو كلام مستأنف، كأنه لمَّا قال: «لا يَسألُ حَمِيمٌ حَمِيْماً» قيل: لعله لا يبصره، فقال: «يُبَصَّرُونهُم»، ثم قال: ويجوز أن يكون «يبصرُونهُم» صفة، أي: حميماً مبصرين معرفين إياهم انتهى.

وإنما اجتمع الضميران في «يبصرُونهُم» وهما للحميمين حملاً على معنى العمومِ؛ لأنهما نكرتان في سياق النفي[(١)].

وقرأ قتادةُ: «يُبصِرُونهُمْ» مبنياً للفاعل، من «أبصَرَ»، أي: يبصر المؤمن الكافر في النار.

فصل في قوله تعالى يبصرونهم

«يُبَصَّرُونهُم»، أي: يرونهم، يقال: بصرت به أبصر، قال تعالى: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ [طه: ٩٦]، ويقال: «بصَّرَني زيدٌ بكذا» فإذا حذفت الجار قلت: بصَّرني زيدٌ، فإذا بنيت الفعل للمفعول، وقد حذفت الجارَّ، قلت: بصرت زيداً، فهذا معنى: «يُبَصَّرونهُمْ» أي: يعرف الحميمُ الحميمَ حين يعرفه، وهو مع ذلك، لا يسأله عن شأنه لشغله بنفسه، فيبصر الرجلُ أباه، وأخاه، وقرابته، وعشيرته، فلا يسألهُ، ولا يكلمه؛ لاشتغالهم بأنفسهم.

وقال ابن عبَّاس: يتعارفون ساعة، ثم لا يتعارفون بعد ذلك[(٢)].

وقال ابن عباس أيضاً: يُبْصِرُ بعضهم بعضاً[(٣)]، فيتعارفون ثم يفرُّ بعضهم من بعضٍ، فالضمير في «يُبَصَّرونهُم» على هذا للكافر، والهاءُ والميم للأقرباء.

وقال مجاهدُ: المعنى: يُبَصِّرُ الله المؤمنين الكفَّار في يوم القيامةِ، فالضمير في «يُبَصَّرونهم» للمؤمنين، والهاءُ والميمُ للكفار[(٤)].

وقال ابنُ زيدٍ: المعنى: يُبصِّرُ الله الكفار في النار الذين أضلوهم في الدُّنيا، فالضميرُ في «يُبَصَّرونَهُم» للتابعين، والهاءُ والميم للمتبوعين[(٥)].

وقيل: إنه يُبصِرُ المظلومُ ظالمه، والمقتولُ قاتله.

وقيل: إن الضمير في «يُبصَّرونَهم» يرجع إلى الملائكة، أي: يعرفون أحوال

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٦٦، والدر المصون ٦/ ٣٧٦.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٢٩) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٤٨).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٨٤).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٣٠) وذكره الماوردي (٦/ ٩٢).

(٥) ينظر المصدر السابق.

الناسِ، فيسوقون كلَّ فريقٍ إلى ما يليق بهم، وتمَّ الكلامُ عند قوله: «يُبصَّرُونَهُم». قوله: «يَوَدُّ المُجرِمُ»، أي: يتمنَّى الكافرُ «لَوْ يفْتدِي مِنْ عَذابِ يَومئذٍ»، أي: من عذاب جهنم، وقيل: المرادُ بالمجرم كلُّ مذنب، وتقدم الكلام على قراءتي «يَومئذٍ» فتحاً وجرًّا في «هود» والعامة: على إضافة «عَذابِ» لـ «يَومِئذٍ».

وأبو حيوة[١]: **بتنوين «عذابٍ»**، ونصب «يَومئذٍ»، على الظرف.

قال ابنُ الخطيب[٢]: وانتصابه بعذاب؛ لأن فيه معنى تعذيب.

وقال أبو حيَّان[٣] هنا: «والجمهور يكسرها ـ أي: ميم يومئذ ـ والأعرج وأبو حيوة: يفتحها» انتهى.

وقد تقدم أنَّ الفتح قراءةُ نافع، والكسائي.

قوله: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾.

قال ثعلب: الفصيلةُ: الآباء الأدنون.

وقال أبو عبيدة: الفخذ.

وقال مجاهد وابن زيدٍ: عشيرته الأقربون[٤].

وقد تقدم ذكر ذلك عند قوله: «شعوباً وقبائل»[٥].

وقال المُبرِّدُ: الفصيلةُ: القطعةُ من أعضاء الجسدِ، وهي دون القبيلةِ، وسُمِّيت عترةُ الرجلِ فصيلته تشبيهاً بالبعض منه.

قال ابنُ الخطيبِ[٦]: فصيلة الرجل: أقرباؤه الأقربون الذين فصل عنهم، وينتمي إليهم؛ لأن المراد من الفصيلة المفصولة؛ لأن الولد يكون مفصولاً من الأبوين، قال عليه الصلاة والسلام: «فَاطِمَةُ قِطعَةٌ منِّي»[٧] فلما كان مفصولاً منهما، كانا أيضاً مفصولين منه، فسُمِّيا فصيلة لهذا السببِ.

وكان يقالُ للعباس رضي الله عنه: فصيلةُ النبي ﷺ لأن العمَّ قائم مقام الأب.

وقوله: «التي تؤويه»، أي: ينصرونه.

وقال مالك: أمُّه التي تربيه، حكاه الماورديُّ، ورواه عنه أشهبُ.

قال شهاب الدين: ولم يبدله السوسي عن أبي عمرو، قالوا: لأنه يؤدي إلى لفظ هو أثقل منه، والإبدال للتخفيف.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٦٧، والدر المصون ٦/ ٣٧٦.
(٢) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١١٢. (٣) البحر المحيط ٨/ ٣٣٤.
(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٣١) عن مجاهد وابن زيد.
(٥) آية ١٣ من سورة الحجرات. (٦) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١١٢.
(٧) أخرجه البخاري (٧/ ١٣١ ـ ١٣٢) كتاب فضائل الصحابة: باب مناقب فاطمة (٣٧٦٧) والبيهقي (٧/ ٦٤) من حديث المسور بن مخرمة.

وقرأ الزهريُّ: «تؤويهُ[١]، وتُنجِيهُ» بضم هاء الكناية، على الأصل.

و «ثُمَّ نُنجِيْهِ» عطف على «يَفْتَدِي» فهو داخلٌ في خبر «لَوْ» وتقدم الكلامُ فيها، هل هي مصدريةٌ أم شرطيةٌ في الماضي، ومفعول «يَوَدُّ» محذوف، أي: يودُّ النَّجاة.

وقيل: إنها هنا بمعنى «أن» وليس بشيء، وفاعل «ينجيه» إما ضميرُ الافتداء الدالُّ عليه «يَفْتَدي»، أو ضمير من تقدم ذكرهم، وهو قوله: «ومَنْ فِي الأرْضِ».

و «مَنْ فِي الأرضِ» مجرور عطفاً على «بَنِيْهِ» وما بعده، أي: يودُّ الافتداء بمن في الأرض أيضاً و «حميماً» إما حال، وإما تأكيد، ووحد باعتبار اللفظ.

فصل فيما يترتب على معنى «فصيلته» من أحكام

إذا وقف على فصيلته، أو أوصى لها فمن ادعى العموم حمله على عشيرته، ومن ادعى الخصوص حمله على الآباء الأدنى فالأدنى، والأول أكثر في النطقِ، قاله القرطبي[٢] و «تؤويه» تضمه وتؤمنهُ من خوف إن كان به، «ومَنْ في الأرضِ جَمِيعاً»، أي: ويود لو فدي بهم لافتدى «ثُمَّ يُنجِيْهِ» أي: ويخلصه ذلك الفداءُ، فلا بُدَّ من هذا الإضمار، كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌۗ﴾ [الأنعام: ١٢١]، أي: وإن أكلهُ لفسقٌ.

وقيل: «يَودُّ المُجرمُ» يقتضي جواباً بالفاء كقوله: «ودُّوا لو تُدهِنُ فيُدهِنُونَ».

والجوابُ في هذه الآية «ثُمَّ يُنجِيهِ» لأنَّها من حروف العطف، أي يودُّ المجرم لو يفتدي، وينجيهِ الافتداءُ.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

قوله: «كلا». ردعٌ وزجرٌ.

قال القرطبيُّ[٣]: «وإنما تكون بمعنى «حقًّا»، وبمعنى «لا» وهي هنا تحتمل الأمرين، فإذا كانت بمعنى «حقًّا» فإن تمام الكلام «ينجيه» وإذا كانت بمعنى «لا» كان تمامُ الكلام عليها. إذ ليس ينجيه من عذاب الله إلا الافتداءُ».

قوله: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ نَزَّاعَةً﴾ في الضَّمير ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه ضميرُ النارِ، وإن لم يجر لها ذكرٌ لدلالة لفظ عذابِ عليها.

والثاني: أنه ضميرُ القصةِ.

الثالث: أنه ضميرٌ مبهمٌ يترجم عنه الخبرُ، قاله الزمخشريُّ. وقد تقدم تحقيق ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾[٤].

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٦٧، والبحر المحيط ٨/ ٣٢٦، والدر المصون ٦/ ٣٧٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٨٦. (٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٨٦.

(٤) آية ٢٩ من سورة الأنعام.

فعلى الأول يجوز في «لَظَى، نزَّاعةً» أوجه:

أحدها: أن يكون «لَظَى» خبر «إن» أي إن النار لظى، و «نزاعة للشوى» خبر ثان، أو خبر مبتدأ مضمر، أي هي نزاعة، أو تكون «لَظَى» بدلاً من الضمير المنصوب و «نزَّاعةً» خبر «إنَّ».

وعلى الثاني: تكون «لَظَى نزَّاعةً» جملة من مبتدأ وخبر في محل رفع خبراً لـ «إنَّ»، مفسرة لضمير القصةِ، وكذا على الوجه الثالثِ.

ويجوز أن تكون «نزَّاعةً» صفة لـ «لَظَى» إذا لم نجعلها علماً، بل بمعنى اللهبِ، وإنما أنِّثَ النعتُ، فقيل: «نزَّاعةً» لأن اللهب بمعنى النارِ. قاله الزمخشريُّ.

وفيه نظرٌ؛ لأن «لَظَى» ممنوعةٌ من الصرف اتفاقاً.

قال أبو حيان[1] بعد حكايته الثالث عن الزمخشري: «ولا أدري ما هذا المضمر الذي ترجم عنه الخبر، وليس هذا من المواضع التي يُفسِّر فيها المفرد الضمير، ولولا أنه ذكر بعد هذا أو ضمير القصةِ لحملت كلامه عليه».

قال شهاب الدين[2]: متى جعله ضميراً مبهماً، لزم أن يكون مفسراً بمفردٍ، وهو إما «لَظَى» على أن تكون «نزَّاعةً» خبر مبتدأ مضمر، وإما «نزَّاعةً» على أن تكون «لَظَى» بدلاً من الضمير وهذا أقربُ، ولا يجوز أن تكون «لَظَى، نزَّاعةً» مبتدأ وخبر، والجملة خبر لـ «إنَّ» على أن يكون الضميرُ مبهماً، لئلاً يتحد القولان، أعني هذا القول، وقول: إنَّها ضميرُ القصةِ ولم يُعهد ضميرٌ مفسرٌ بجملة إلا ضمير الشأنِ والقصةِ.

وقرأ العامة: «نزَّاعةٌ» بالرفع.

وقرأ حفص، وأبو حيوة والزَّعفرانِيُّ، واليَزيديُّ، وابنُ مقسم: «نزَّاعةً» بالنصب[3].
وفيها وجهان:

أحدهما: أن ينتصب على الحال، واعترض عليه أبو علي الفارسي، وقال: حمله على الحال بعيدٌ، لأنه ليس في الكلام ما يعمل في الحال.

قال القرطبيُّ[4]: «ويجوز أن يكون حالاً على أنه حالٌ للمكذبين بخبرها».

وفي صاحبها أوجه:

أحدها: أنه الضمير المستكنُّ في «لَظَى»؛ وإن كانت علماً فهي جاريةٌ مجرى المشتقات كـ «الحارث والعباس»، وذلك لأنها بمعنى التلظِّي، وإذا عمل العلم الصريح

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٣٤. (٢) الدر المصون ٦/ ٣٧٧.

(٣) ينظر: السبعة ٦٥٠، والحجة ٦/ ٣١٩، وإعراب القراءات ٢/ ٣٩٠، وحجة القراءات ٧٢٣.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٨٦.

والكنية في الظروف، فلأن يعمل العلم الجاري مجرى المشتقات في الأحوال أولى، ومن مجيء ذلك قوله: [السريع أو الرجز]

٤٨٦١ ـ أنَا أبُو المِنْهَالِ بَعْضَ الأحْيَان(١)

ضمنه بمعنى أنا المشهور في بعض الأحيان.

الثاني: أنَّه فاعل «تَدعُو» وقدمت حاله عليه، أي: تدعو حال كونها نزَّاعةً.

ويجوز أن تكون هذه الحالُ مؤكدةً، لأنَّ «لَظَى» هذا شأنها، وهو معروف من أمرها، وأن تكون مبنيةً؛ لأنه أمرٌ توقيفيّ.

الثالث: أنه محذوف هو والعامل تقديره: تتلظَّى نزاعة، ودل عليه «لَظَى».

الثاني من الوجهين الأولين: أنها منصوبة على الاختصاص، وعبَّر عنه الزمخشريُّ بالتهويل. كما عبَّر عن وجه رفعها على خبر ابتداء مضمر، والتقدير: أعني نزاعةً وأخصُّها.

وقد منع المبردُ نصب «نزَّاعة»، قال: لأن الحال إنما يكون فيما يجوز أن يكون وألاّ يكون و «لَظَى» لا تكون إلا نزَّاعةً. قاله عنه مكّيٌّ.

وردَّ عليه بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: ٩١]، ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٢٦] قال: فالحق لا يكون إلا مصدقاً، وصراط ربِّك لا يكونُ إلاَّ مستقيماً.

قال شهاب الدين(٢): المُبرِّدُ بني الأمر على الحال المبنيةِ، وليس ذلك بلازم؛ إذ قد وردت الحال مؤكدة كما أورده مكيٌّ، وإن كان خلاف الأصلِ، واللظى في الأصل: اللهب، ونقل علماً لجهنم، ولذلك منع من الصرف.

وقيل: هو اسم للدَّركة الثانية من النارِ، والشَّوى: الأطراف جمع شواة، كـ «نوى، ونواة»؛ قال الشاعر: [الوافر]

٤٨٦٢ ـ إذَا نَظرَتْ عَرفْتَ النَّحْرَ مِنْهَا وعَيْنَيْهَا ولَمْ تَعْرفْ شَوَاهَا(٣)

يعني: أطرافها.

وقيل: الشَّوى: الأعضاء التي ليست بمقتل، ومنه: رماه فأشواه، أي لم يُصِبْ مقتله، وشوى الفرس: قوائمه، لأنه يقال: عَبْلُ الشَّوى.

وقيل: الشَّوى: جمع شواة وهي جلدة الرأس؛ وأنشد الأصمعي: [مجزوء الكامل]

٤٨٦٣ ـ قَالَتْ قُتَيْلَةُ: مَا لَهُ قَدْ جُلِّلَتْ شَيْباً شَوَاتُه(٤)

---

(١) تقدم. (٢) ينظر الدر المصون ٦/ ٣٧٧.

(٣) ينظر القرطبي ١٨/ ١٨٧.

(٤) ينظر القرطبي ١٨/ ١٨٦، والبحر ٨/ ٣٢٥، والدر المصون ٦/ ٣٧٧.

وقيل: هو جلد الإنسان، والشَّوى أيضاً: رُذال المال، والشيء اليسير.

فصل في معنى الآية

قال ثابت البناني والحسن: «نزَّاعةً للشَّوى»: أي لمكارم وجهه[١]. وعن الحسن أيضاً: إنه الهام[٢].

وقال أبو العالية: لمحاسن وجهه[٣].

وقال قتادة: لمكارم خلقته وأطرافه[٤].

وقال الضحاك: تفري اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك منه شيئاً[٥].

وقال الكسائي: هي المفاصل.

وقيل: هي القوائم والجلود.

قال امرؤ القيس: [الطويل]

٤٨٦٤ـ سَلِيمُ الشَّظَى، عَبْلُ الشَّوى، شَنِجُ النَّسَا لَهُ حَجَبَاتٌ مُشْرِفَاتٌ عَلى الفَالِ[٦]

قوله: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ﴾. يجوز أن يكون خبراً لـ «إنَّ» أو خبراً لمبتدأ محذوف، أو حال من «لَظَى» أو من «نزَّاعةً» على القراءتين فيها؛ لأنها تتحملُ ضميراً.

فصل في المراد بالآية

المعنى: تدعُو «لَظَى» من أدبر في الدنيا عن الطَّاعة لله «وتولَّى» عن الإيمان ودعاؤها أن تقول: يا مشرك إليَّ يا كافر إليَّ.

وقال ابن عباس: تدعُو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح: إليَّ يا كافر، إليَّ يا منافق، ثم تلتقطهم كما تلتقط الطَّير الحبَّ.

وقال ثعلبٌ: «تَدعُو»، أي: تهلك، تقول العربُ: دعاك الله، أي: أهلكك اللَّهُ.

وقال الخليلُ: إنَّه ليس كالدُّعاء «تعالوا» ولكن دعوتها إياهم تمكنها منهم، ومن تعذيبهم.

وقيل: الدَّاعي: خزنة جهنَّم أضيف دعاؤهم إليها.

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤١٩) عن ثابت وعزاه إلى ابن المنذر وذكره القرطبي (١٨/ ١٨٧) عن ثابت والحسن.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٣٢).

(٣) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٩٤) والقرطبي (١٨/ ١٨٧).

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٤٦) وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٥) ينظر تفسير الماوردي (٦/ ٩٣) والبغوي (٤/ ٣٩٤) والقرطبي (١٨/ ١٦٧).

(٦) ينظر: ديوانه (٣٦)، ولسان العرب (شظي) والقرطبي ١٨/ ١٨٧.

وقيل: هو ضرب مثل، أي: أنها تدعوهم بلسان الحال، أي: إنَّ مصير من أدبر، وتولى إليها، فكأنَّها الدَّاعية لهم.

ومثله قول الشاعر: [الكامل]

٤٨٦٥ ـ ولقَدْ هَبَطْنَا الوادِيَيْنِ فَوادِياً   يَدْعُو الأنيسَ بِهِ الغَضِيضُ الأبْكَمُ[1]

الغضيضُ الأبكمُ: الذباب، وهو لا يدعو، وإنَّما طنينه نبَّه عليه فدعا له.

قال القرطبيُّ[2]: «والقولُ الأولُ هو الحقيقةُ لظاهر القرآنِ، والأخبار الصحيحة».

قال القشيريُّ: ودعا لَظَى بخلقِ الحياةِ فيها حين تدعُو، وخوارقُ العادةِ غداً كثيرة.

قوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾. أي: جمع المال فجعله في وعاءٍ، ومنع منه حق الله تعالى، فكان جموعاً منوعاً.

قال ابن الخطيب[3]: «جَمَعَ» إشارة إلى حبّ الدنيا، والحِرْص عليها، «وأوْعَى» إشارة إلى الأمل، ولا شكَّ أنَّ مجامع آفات الدين ليست إلاَّ هذه.

وقيل: «جَمَعَ» المعاصي «فأوْعَى» أي: أكثر منها حتى أثقلتهُ، وأصرَّ عليها، ولم يَتُبْ منها.

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾.

قال الضحاك: المرادُ بالإنسان هنا الكافر.

وقيل: عام لأنه استثنى منه المصلين، فدلَّ على أن المراد به الجنس، فهو كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر: ٢، ٣]. و «هَلُوعاً» حال مقدرة.

والهلع مُفسَّر بما بعده، وهو قوله «إذَا، وإذَا».

---

(١) ينظر القرطبي ١٨/ ١٨٧.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٨٧.
(٣) الفخر الرازي ٣٠/ ١١٣.

قال ثعلبٌ: سألني محمد بن عبد الله بن طاهر: ما الهلع؟.

فقلت: قد فسَّره اللَّهُ، ولا يكون أبينَ من تفسيره، وهو الذي إذا ناله شر أظهر شدة الجزع، وإذا ناله خيرٌ بخل به ومنعه. انتهى.

وأصله في اللغة على ما قال أبو عبيد: أشدّ الحرص وأسوأ الجزع، وهو قولُ مجاهدٍ وقتادة وغيرهما.

وقد هَلِع ـ بالكسر ـ يهلع هلعاً وهلاعاً فهو هلع وهالع وهلوع، على التكثير.

وقيل: هو الجزع والاضطرابُ السريع عند مسِّ المكروه، والمنع السَّريعُ عند مسِّ الخير من قولهم: «ناقةٌ هلوَاع»، أي: سريعة السير، قال المفسرون: معناه: أنه لا يصبر في خير ولا شر، حتى يفعل فيهما ما لا ينبغي.

روى السدِّي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: الهِلوَاع، الحريصُ على ما لا يحل له[1].

وقال عْكرمة: هو الضَّجور[2].

وقال الضحاك: هو الذي لا يشبع[3].

والمَنُوع: هو الذي إذا أصاب حق المال منع منه حق الله تعالى.

وقال ابن كيسان: خلق اللَّهُ الإنسان يحبّ ما يسرُّه، ويرضيه، ويهربُ مما يكرهه، ثم تعبّده الله بإنفاق ما يحب والصبر على ما يكرهُ.

وقال أبو عبيدة: الهِلواعُ الذي إذا مسَّهُ الخيرُ لم يشكر، وإذا مسَّهُ الضُّرُ لم يَصْبِرْ.

وقال عليه الصلاة والسلام: «شَرُّ مَا أعْطِي العَبْدُ شُحٌّ هَالِعٌ، وجُبْنٌ خَالِعٌ»[4].

والعرب تقول: ناقةٌ هلواعة، وهلواع إذا كانت سريعة السَّير خفيفة؛ قال: [الكامل]

٤٨٦٦ ـ صَكَّاءُ ذِعلِبَةٌ إذَا اسْتَدْبَرْتَهَا ... حَرَجٌ إذَا اسْتَقْبَلْتَهَا هِلْوَاعُ[5]

الذِّعلِب والذِّعلِبَة: النَّاقةُ السَّريعةُ.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٣٤) عن ابن عباس.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٢٠) عن عكرمة وعزاه إلى ابن المنذر.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٢٠) وعزاه إلى ابن المنذر.

(٤) أخرجه أبو داود (٢٥١١) وأحمد (٢/ ٢٣٠) والبخاري في «التاريخ الكبير» (٦/ ٨ ـ ٩) وابن حبان (٨٠٨ ـ موارد) وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٥٠) والبيهقي (٩/ ١٧٠) والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢/ ٢٧٠) رقم (١٣٣٨) من حديث أبي هريرة.

وقال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٣/ ٢٥٣) رواه أبو داود بسند جيد.

(٥) ينظر القرطبي ١٨/ ١٨٨.

فصل في إعراب الآية

«جزُوْعاً، ومَنُوعاً» فيهما ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدها: أنهما منصوبان على الحال من الضمير في «هَلُوعاً»، وهو العاملُ فيهما، والتقدير: هَلُوعاً حال كونه جَزُوعاً، وقت مسِّ الشَّرِّ، ومنوعاً وقت مس الخير، والظَّرفان معمولان لهاتين الحالتين.

وعبَّر أبو البقاء عن هذا الوجه بعبارة أخرى فقال: «جَزُوعاً» حال أخرى، والعاملُ فيها «هَلُوعاً».

فقوله: «أخْرَى» يوهم أنها حالٌ ثانية وليست متداخلة لولا قوله: والعامل فيها هلوعاً.

والثاني: أن يكونا خبرين لـ «كان»، أو «صار» مضمرة، أي: إذا مسَّه الشَّرُّ كان، أو صار جَزُوعاً، وإذا مسَّه الخيرُ كان أو صار منوعاً، قاله مكيٌّ.

وعلى هذا فـ «إذا» شرطية، وعلى الأول ظرف محض، العامل فيه ما بعده كما تقدم.

الثالث: أنَّهما نعتٌ لـ «هَلُوعاً»، قاله مكيٌّ، إلاَّ أنَّه قال: وفيه بعد؛ لأنك تنوي به التقديمَ بعد «إذا» انتهى.

وهذا الاستبعادُ ليس بشيء، فإنَّه غايةُ ما فيه تقديمُ الظرف على عامله.

وإنَّما المحذورُ تقديمه معمول النعت على المنعوت.

فصل في كلام القاضي

قال القاضي: قوله تعالى ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ نظير قوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وليس المرادُ أنَّه مخلوقٌ على هذه الصفة؛ لأن الله ـ تعالى ـ ذمَّه عليها، والله ـ تعالى ـ لا يُذمُّ فعله، ولأنه استثنى المؤمنين الذين جاهدوا أنفسهم في ترك الخصلةِ المذمومةِ، ولو كانت هذه الخصلة ضرورية حاصلة بخلق الله تعالى، لما قدروا على تركها.

قال ابن الخطيب[١]: واعلم أنَّ الهلع لفظ واقع على أمرين:

أحدهما: الحالةُ النفسانيةُ التي لأجلها يقدم الإنسانُ على إظهار الجزع والفزع.

والثاني: تلك الأفعالُ الظاهرة من القول والفعل الدالة على تلك الحالةِ النفسانيةِ،

---

(١) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ١١٤.

فلا شك أنَّها تحدثُ بخلق الله ـ تعالى ـ لأنَّ من خُلقتْ نفسه على تلك الحالةِ لا يُمكِنهُ إزالةُ تلك الحالةِ من نفسه، بل الأفعال الظَّاهرة من القول والفعل يمكنه تركها والإقدامُ عليها فهي أمورٌ اختياريةٌ.

وأما الحالةُ النفسانيةُ التي هي الهلع في الحقيقة، فهي مخلوقةٌ على سبيل الاضطرار.

فصل في المراد بالشر والخير في الآية

قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾.

قيل: المرادُ بالخيرِ والشر: الغِنَى والفقرُ، أو الصحةُ والمرض، والمعنى: أنَّه إذا صار فقيراً أو مريضاً أخذ في الجزعِ والشكايةِ، وإذا صار غنياً، أو صحيحاً أخذ في منعِ المعروف، وشحَّ بمالِه.

فإن قيل: حاصلُ هذا الكلام أنَّه نُفورٌ عن المضار لطلب الراحة، وهذا هو اللائقُ بالعقل، فلم ذمَّهُ الله عليه.

فالجوابُ: إنَّما ذمَّهُ اللَّهُ عليه لقصور نظرهِ على الأمورِ العاجلةِ، والواجبُ عليه أن يكون شاكراً راضياً في كل حالٍ.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾.

قال النخعيُّ: المرادُ بـ «المصلين»: الذين يؤدونَ الصلاة المكتوبة[١].

وقال ابن مسعودٍ: هم الذين يصلونها لوقتها، فأمَّا تركها فكفرٌ[٢].

وقيل: هم الصحابة وقيل: هم المؤمنون عامّةً.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾، أي: على مواقيتها.

وقال عقبة بن عامر: الذين إذا صلُّوا لم يلتفتوا يميناً ولا شمالاً[٣].

و «الدائم» الساكن، ومنه: «نهى عن البول في الماء الدائم»، أي: الساكن.

وقال ابن جريج والحسن: هم الذين يكثرون فعل التَّطوع منها[٤].

فإن قيل: كيف قال: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٣٥) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤٢٠) وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٤٠) وعزاه إلى ابن أبي شيبة.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٨٨).

(٤) ينظر المصدر السابق.

قال ابن الخطيب[١]: دوامُهم عليها ألا يتركوها في وقتٍ من الأوقاتِ، ومحافظتهم عليها ترجع إلى الاهتمام بحالها، حتى يأتي بها على أكمل الوجوه من المحافظة على شرائطها، والإتيان بها في الجماعة وفي المساجدِ الشريفةِ والاجتهاد في تفريغ القلب عن الوسواس والرياء والسمعة، وألاّ يلتفت يميناً ولا شمالاً، وأن يكون حاضر القلب فاهماً للأذكار، مطلعاً على حكم الصَّلاة متعلق القلب بدخول أوقات الصلواتِ.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾.

قال قتادة وابن سيرين: يريد الزكاة المفروضة[٢].

وقال مجاهد[٣]: سوى الزكاة، وقال عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس: صلة الرَّحمِ وحمل الكل[٤].

والأول أصح؛ لأنه وصف الحق بأنه معلوم، والمعلوم هو المقدر، وسوى الزكاة ليس بمعلوم إنما هو قدرُ الحاجةِ، وذلك يقل ويكثرُ.

وقال ابنُ عباسٍ: من أدَّى زكاة مالهِ فلا جناح عليه أن لا يتصدق[٥]، وأيضاً فالله ـ تعالى ـ استثناهُ ممن ذمَّه، فدلَّ على أنَّ الذي لا يُعْطِي هذا الحقَّ يكونُ مذموماً، ولا حقَّ على هذه الصفةِ إلا الزكاة.

وقوله: ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾. تقدَّم في الذَّاريات.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [المعارج: ٢٦]، أي: بيوم الجزاء، وهو يوم القيامة، أي: يؤمنون بالبعث، والنشور.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾، أي: خائفون، والإشفاق: الخوف إما من تركِ واجبٍ، وإما من فعلِ محظورٍ، ثم أكَّد ذلك الخوف بقوله:

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾.

قال ابن عباسٍ: لمن أشرك أو كذَّب أنبياءه[٦].

وقيل: لا يأمنه أحدٌ، بل الواجبُ على كل أحد أن يخافه ويشفق منه.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ تقدَّم تفسيرهُ في سورة «المؤمنون» [المؤمنين: ٥، ٦، ٧].

---

(١) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ١١٤.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٣٦).

(٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) ينظر المصدر السابق.

(٥) ذكره الرازي في «تفسيره» ٣٠/ ١١٥.

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٨٩).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ تقدَّم أيضاً [المؤمنين: ٨].

وقرىء[١]: «لأمَانتِهِم» على التوحيد، وهي قراءةُ ابن كثير وابن محيصن.

فـ «الأمانة» اسم جنسٍ تدخل فيها أماناتُ الدينِ، فإنَّ الشرائعَ أماناتٌ ائتمنَ اللَّهُ عليها عباده، ويدخل فيها أمانات الناس من الودائع، وقد مضى ذلك.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾.

قرأ حفص[٢]: «بِشَهادَاتِهِمْ» جمعاً، اعتباراً بتعدد الأنواع، والباقون: بالإفراد، أو المرادُ الجنس.

قال الواحديُّ: والإفرادُ أولى؛ لأنه مصدرٌ، فيفرد كما تفرد المصادرُ، وإن أضيف إلى الجمع كـ ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩] ومن جمع ذهب إلى اختلافِ الشَّهاداتِ.

قال أكثرُ المفسرينَ: يقومون بالشهادة على من كانت عليه من قريب وبعيد يقومون بها عند الحُكَّام، ولا يكتمونها.

وقال ابن عبَّاس: بشهادتهم: أن الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله[٣].

قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

قال قتادةُ: على وضوئها وركوعها وسجودها، فالدوام خلاف المحافظة فدوامهم عليها محافظتهم على أدائِها لا يخلُّون بها[٤]، ولا يشتغلون عنها بشيءٍ من الشواغل، ومحافظتهم عليها أن يُراعُوا إسباغَ الوضوءِ لها، ومواقيتها، ويقيموا أركانها، ويكملوها بسننها، وآدابها، ويحفظونها من الإحباط باقتراف المآثِم، فالدوام يرجع إلى نفس الصلوات، والمحافظة على أحوالها، ذكره القرطبيُّ[٥].

ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾، أي: أكرمهم الله فيها، بأنواع الكرامات.

قوله تعالى: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا ۖ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩)﴾

قوله: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾.

روي أنَّ المشركين كانوا يجتمعون حول النبي ﷺ يستمعون كلامه، ويستهزئون به

---

(١) ينظر: السبعة ٦٥١، والحجة ٦/٧٣٢١ وإعراب القراءات ٢/٣٩٣، وحجة القراءات ٧٢٤.

(٢) ينظر: السبعة ٦٥١، والحجة ٦/١٣٢، وإعراب القراءات ٢/٣٩٣، وحجة القراءات ٧٢٤.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/١٨٩).

(٤) ينظر المصدر السابق.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/١٨٩.

ويكذبونه، ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنّة كما يقول محمد ﷺ فلندخلنّها قبلهم، فنزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ كَلَّآ﴾.

وقال أبو مسلم[1]: ظاهر الآية يدل على أنهم هم المنافقون، فهم الذين كانوا عنده، وإسراعهم المذكور هو الإسراعُ في الكفر، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [آل عمران: ١٧٦].

و «الإهْطَاعُ»: الإسراعُ.

قال الأخفش: «مُهْطعينَ»، أي: مُسرِعيْنَ، قال: [الوافر]

٤٨٦٧ ـ بِمكَّةَ أهْلُهَا ولقَدْ أراهُمْ إليْهِ مُهْطِعينَ إلى السَّماعِ[2]

والمعنى: ما بالهُمْ يسرِعُونَ إليْكَ، ويجلسُونَ حولك، ويعملون بما تأمُرهُمْ.

وقيل: ما بالهم يسرعون في التكذيب لك.

وقيل: ما بالُ الذين كفروا يسرعون إلى السَّماع منك ليعيبوكَ ويستهزئوا بك.

وقال عطيةُ: «مُهْطِعيْنَ»: مُعْرضِيْنَ.

وقال الكلبيُّ: ناظرين إليك تعجُّباً.

وقال قتادةُ: مادّين أعناقهم مديمي النظر إليك، وذلك من نظر العدو، وهو منصوبٌ على الحال.

قال القرطبيُّ[3]: نزلت في جميع المنافقين المستهزئين، كانوا يحضرونه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولا يؤمنون به، و «قبلك»، أي: نحوك.

قوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾.

أي: عن يمين النبي ﷺ وشماله حلقاً حلقاً وجماعات.

قوله: «عِزيْنَ»، حالٌ من «الَّذينَ كَفرُوا».

وقيل: حال من الضمير في «مُهْطعِينَ» فيكونُ حالاً متداخلة، و «عَن اليَميْنِ»، يجوز أن يتعلق بـ «عزين»؛ لأنَّه بمعنى متفرقين. قاله أبو البقاء.

وأن يتعلق بـ «مُهْطِعيْنَ» أي: مسرعين عن هاتين الجهتين، وأن يتعلق بمحذوف على أنه حال، أي: كائنين عن اليمين. قاله أبو البقاء.

و «عَزيْنَ» جمع عزة، والعِزَة: الجماعة. قال مكيٌّ.

قال مكيٌّ: «وإنما جمع بالواو والنون؛ لأنه مؤنث لا يعقل؛ ليكون ذلك عوضاً مما حذفَ منه».

---

(١) ينظر الفخر الرازي ٣٠/١١٦.
(٢) ينظر القرطبي ١٨/١٨٩.
(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٨٩.

قيل: إن أصله: عزهة، كما أنَّ أصل سنة: سنهة، ثم حذفت الهاء، انتهى.

قال شهاب الدين[1]: قوله: لا يعقل سَهْو، لأن الاعتبار بالمدلولِ، ومدلوله ـ بلا شك ـ عقلاء. واختلفوا في لام «عِزَة» على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنَّها «واو» من: «عزوته أعزوه»، أي: نسبته، وذلك أنَّ المنسوبَ مضمومٌ إلى المنسوب إليه، كما أنَّ كلَّ جماعةٍ مضموم بعضها إلى بعض.

الثاني: أنَّها «ياء»، إذ يقال «عَزيتُه» ـ بالياء ـ أعزيه بمعنى عزوته، فعلى هذا في لامها لغتانِ.

الثالث: أنَّها هاءٌ، وتجمع تكسيراً على «عِزَهٍ» نحو كسرة وكِسَر، واستغني بهذا التكسير عن جمعها بالألف والتاء، فلم يقولوا: «عزات» كما لم يقولوا في «شفة وأمة: شفَات ولا أمات» استغناء بـ «شِفَاه وإماء».

وقد كثر ورودُه مجموعاً بـ «الواو» والنون؛ قال الراعي: [الكامل]

٤٨٦٨ ـ أَخَلِيفَةَ الرَّحْمَنِ إنَّ عَشِيرَتِي أَمْسَىٰ سَرَاتُهُم عِزِينَ فُلُولا[2]

وقال الكميت: [الوافر]

٤٨٦٩ ـ ونَحْنُ وجَنْدَلٌ بَاغٍ تَركْنَا كَتَائِبَ جَنْدلٍ شَتَّى عِزِينَا[3]

وقال عنترةُ: [الوافر]

٤٨٧٠ ـ وقِرْنٍ قَدْ تَركْتُ لِذِي ولِيٍّ عليهِ الطَّيْرُ كالعُصَبِ العِزِينِ[4]

وقال آخر: [الوافر]

٤٨٧١ ـ تَرانَا عِنْدَهُ واللَّيلُ دَاجٍ عَلَى أبْوَابِهِ حِلَقاً عِزِينَا[5]

وقال الشاعرُ: [الوافر]

٤٨٧٢ ـ فَلَمَّا أن أتَيْنَ على أضَاخٍ تَركْنَ حَصَاهُ أشْتَاتاً عِزِينَا[6]

والعزة لغةً: الجماعة في تفرقة، قاله أبو عبيدة.

---

(١) ينظر الدر المصون ٦/ ٣٧٩.

(٢) رواية الديوان: «أولى أمر الله».

ينظر ديوانه (٢٢٨)، وغريب القرآن لابن قتيبة (٤٨٦)، ومجاز القرآن ٢/ ٢٧٠، ومعاني الفراء ٣/ ١٨٦، والقرطبي ١٨/ ١٩٠ والبحر ٨/ ٣٢٥، والدر المصون ٦/ ٣٧٩، والطبري ٢٩/ ٤٧.

(٣) ينظر ديوانه (٢٧٤) والقرطبي ١٨/ ١٩٠، والبحر ٨/ ٣٢٥، والدر المصون ٦/ ٣٧٩.

(٤) ينظر القرطبي ١٨/ ١٩٠، والبحر ٨/ ٣٢٥، والدر المصون ٦/ ٣٧٩.

(٥) ينظر البحر ٨/ ٣٢٥، والقرطبي ١٨/ ١٩٠، والدر المصون ٦/ ٣٨٠.

(٦) ينظر اللسان (عزا)، والقرطبي ١٨/ ١٩٠، والبحر ٨/ ٢٥، والدر المصون ٦/ ٣٧٩.

ومنه حديثُ النبي ﷺ أنه خرج إلى أصحابه فرآهم حلقاً، فقال: «مَا لِي أراكُمْ عِزِيْنَ، ألا تصفُّونَ كما تُصَفُّ المَلائِكةُ عِندَ ربِّهَا»، قالوا: وكيف تصف الملائكةُ؟ قال: «يتمون الصف الأول فيتراصون في الصف»[١].

وقال الأصمعيُّ: العِزُونَ: الأصنافُ، يقال: في الدَّار عزون، أي: أصناف.

وفي «الصِّحاح»[٢]: «العِزَةُ» الفرقة من الناس.

وقيل: العِزَة: الجماعةُ اليسيرةُ كالثلاثة والأربعة.

وقال الراغبُ: «وقيل: هو من قولهم: عَزَا عزاء فهو عز إذا صبر، وتعزَّى: تصبَّر، فكأنَّها اسم للجماعة التي يتأسَّى بعضها ببعض».

قال القرطبيُّ[٣]: ويقال: عِزُونَ، وعُزُون ـ بالضم ـ ولم يقولوا: عزات، كما قالوا: ثبات، قيل: كان المستهزئون خمسة أرهُطٍ.

وقال الأزهريُّ: وأصلها من قولهم: عَزَا فلانٌ نفسه إلى بني فلانٍ يعزوها عزواً إذا انتمى إليهم، والاسم: «العَزْوَة»، كلُّ جماعةٍ اعتزوها إلى آخر واحد.

قوله: ﴿أَن يُدْخَلَ﴾.

العامة: على بنائه للمفعول.

وزيد بن علي، والحسن، وابن يعمر[٤]**، وأبو رجاء، وعاصم في رواية**، قال القرطبي[٥]: وطلحة بن مصرف، والأعرج على بنائه للفاعل.

فصل في تعلق الآية بما بعدها

لما قال المستهزئون: إن دخل هؤلاء الجنَّة كما يقولُ محمدٌ فلندخلنَّها قبلهم، أجابهم الله ـ تعالى ـ بقوله: ﴿كَلَّآ﴾ لا يدخلونها، ثم ابتدأ فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: أنهم يعلمون أنهم مخلوقون من نُطفةٍ، ثم من علقة، ثم كما خلق سائر جنسهم، فليس لهم فضلٌ يستوجبون به الجنة، وإنما يستوجب بالإيمان، والعمل الصالح، ورحمة الله تعالى.

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٣٢٢) والطبري في تفسيره (١٢/ ٢٤١)، وأبو داواد (٢/ ٦٧٣) كتاب الأدب: باب في التحلق رقم (٤٨٢٣)، وأحمد (٥/ ٩٣) من حديث جابر بن سمرة.
وأخرجه ابن حبان (٣١٢ ـ موارد) والطبري (١٢/ ٢٤١) وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٦/ ١٤٢) من حديث أبي هريرة وفي الباب عن أنس بن مالك ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٢١) وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٢) ينظر: الصحاح ٦/ ٢٤٢٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٩٠.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٣٧٠، والبحر المحيط ٨/ ٣٠٠، والدر المصون ٦/ ٣٨٠.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٩٠.

وقيل: كانوا يستهزئون بفقراء المسلمينَ ويتكبرون عليهم، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾، أي: من القذر، فلا يليقُ بهم هذا التكبرُ.

وقال قتادة في هذه الآيةِ: إنَّما خلقت يا ابن آدم من قذرٍ فاتَّقِ اللَّهَ[(١)].

وروي أنَّ مطرف بن عبد الله بن الشِّخيرِ، رأى المهلَّب بن أبي صفرة يتبختر في مطرف خَزّ وجُبة خَزّ، فقال له: يا عبد الله، ما هذه المشية التي يبغضها الله؟.

فقال له: أتعرفني، قال: نعم، أوّلك نطفةٌ مذرةٌ، وآخرك جيفةٌ قذرةٌ، وأنت تحمل العذرةَ، فمضى المهلَّب وترك مشيته[(٢)].

قال ابن الخطيب[(٣)]: ذكروا في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوهاً:

أحدها: لما احتج على صحة البعث دل على أنهم كانوا منكرين للبعث، فكأنه قيل لهم: كلا إنكم منكرون للبعث فمن أين تطمعون بدخولِ الجنَّة.

وثانيها: أنَّ المستهزئين كانوا يستحقرون المؤمنين ـ كما تقدّم ـ فقال تعالى: إنَّ هؤلاء المستهزئين مخلوقون مما خلقوا، فكيف يليق بهم هذا الاحتقار؟.

وثالثها: أنَّهم مخلوقون من هذه الأشياء المستقذرة، ولم يتصفوا بالإيمانِ، والمعرفةِ، فكيف يليق بالحكمة إدخالهم الجنة؟.

وقيل: معنى قوله: ﴿خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾، أي: مراحل ما يعلمون وهو الأمر والنَّهي والثوابُ والعقابُ.

كقول الأعشى: [المتقارب]

٤٨٧٣ ـ أأزْمَعْتَ من آلِ لَيْلَى ابْتِكَارا وشَطَّتْ على ذِي هَوًى أنْ تُزَارا[(٤)]

أي: من أجل ليلى.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾. قد تقدَّم.

وقرأ جماعة: «فلأقسم» دون ألفٍ.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره (١٢/ ٢٤٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٢١) وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٩١).

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١١٧.

(٤) ينظر القرطبي ١٨/ ١٩١.

﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾، قرأ العامة: بجمع «المشارق، والمغارب».

والجحدري وابن محيصن وأبو حيوة، وحميد[١]: بإفرادهما، وهي مشارقُ الشمس[٢] ومغاربها.

وقوله: «إنَّا لقَادِرُونَ»، جواب القسم: «عَلى أن نُبدِّلَ خيراً مِنهُم» أي: نقدر على إهلاكهم، وإذهابهم، والإتيان بخير منهم، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، أي: لا يفوتنا شيء، ولا يعجزنا أمرٌ نريده.

قوله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ﴾، أي: اتركهم يخوضُوا في أباطيلهم، ويلعبوا في دنياهم على جهة الوعيد، واشتغل أنت بما أمرت به. وقد تقدم تفسيره في سورة «الطور».

واختلفوا فيما وصف الله به نفسه بالقدرة عليه، هل خرج إلى الفعل أم لا؟.

فقيل: بدل بهم الأنصار والمهاجرين.

وقيل: بدل الله كفر بعضهم بالإيمان.

وقيل: لم يقع هذا التبديلُ، وإنما ذكر الله ذلك تهديداً لهم لكي يؤمنوا.

قوله: ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾.

قرأ ابن محيصن ومجاهد[٣] **وأبو جعفر**: «يَلْقُوا» مضارع «لَقَى»، والمعنى: أنَّ لهم يوماً يلقون فيه ما وعدوا، وهذه الآية منسوخةٌ بآية السَّيف، ثُمَّ ذكر ذلك اليوم فقال:

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾، يجوز أن يكون بدلاً من «يومهم» أو منصوب بإضمار «أعني».

ويجوز على رأي الكوفيين أن يكون خبر ابتداءٍ مضمر، وبني على الفتح، وإن أضيف إلى معرب، أي: هو يوم يخرجون، كقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ﴾ [المائدة: ١١٩]. وتقدم الكلام عنه مشبعاً.

والعامة: على بناء «يَخْرُجُونَ» للفاعل.

وقرأ السلميُ والمغيرة[٤]، **وروي عن عاصمٍ**: بناؤه للمفعول.

قوله: «سِراعاً»، حال من فاعل «يَخْرجُونَ»، جمعُ سِرَاع كـ «ظِرَاف» في «ظَريف»، و «كأنَّهُمْ» حال ثانية منه، أو حال من ضمير الحال، فتكونُ متداخلة.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٧١، والبحر المحيط ٨/ ٣٣٠، والدر المصون ٦/ ٣٨٠.

(٢) في ب: الأرض.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٧١ وفيه أنها رويت عن ابن كثير، وينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٣٠.

(٤) ينظر: السابق.

والأجداثُ: القبور، ونظيره: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، أي: سِرَاعاً إلى إجابة الدَّاعي.

قوله: ﴿إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾. متعلق بالخبر.

والعامَّة: على «نَصْبٍ» بالفتح، وإسكان الصاد.

وابن عامر وحفص: بضمتين[١].

وأبو عمران [الجوني][٢] **ومجاهد**: بفتحتين.

والحسن وقتادة وعمرو بن ميمون وأبو رجاء وغيرهم[٣]: بضم النون، وإسكان الصاد.

فالأولى: هو اسم مفرد بمعنى العلمِ المنصوب الذي يُسْرِعُ الشخصُ نحوه.

وقال أبو عمرو: هو شَبكةُ الصَّائدِ، يُسْرِع إليها عند وقوع الصيد فيها مخافة انفلاته.

وأمَّا الثانية، فتحتملُ ثلاثة أوجهٍ:

أحدها: أنه اسم مفرد بمعنى الصنم المنصوب للعبادة.

وأنشد للأعشى: [الطويل]

٤٨٧٤ ـ وذَا النُّصُبِ المَنْصُوبِ لا تَعْبُدَنَّهُ لِعَاقِبَةٍ واللَّهَ ربَّك فاعْبُدَا[٤]

يعني: إيَّاك وذا النُّصُبِ.

الثاني: إنَّه جمعُ «نِصَاب» كـ «كُتُب» و «كِتَاب».

الثالث: أنَّه جمع «نَصْب» نحو: «رَهْن ورُهُن، وسَقْف وسُقُف» وهذا قول أبي الحسن.

وجمع الجمع: أنصاب.

وقال النحاسُ: وقيل: نُصُبٌ ونَصْبٌ، بمعنى واحد، كما قيل: عُمْر وعُمُر وأسُد وأسْد جمع أسَد.

وأما الثالثة: ففعلٌ بمعنى مفعول، أي: منصوب كالقَبضِ والنَّقضِ.

والرابعة: تخفيفٌ من الثانية، والنصب أيضاً: الشر والبلاء، ومنه قوله تعالى: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١].

---

(١) ينظر: السبعة ٦٥١، والحجة ٦/ ٣٢٢، ٣٢٣، وإعراب القراءات ٢/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٧١، والبحر المحيط ٨/ ٣٣٠، والدر المصون ٦/ ٣٨٠.

(٣) ينظر السابق.

(٤) تقدم.

فصل في معنى قوله: نصب

قال ابن عباس: «إلى نصب»، أي إلى غاية، وهي التي ينتهي إليها بصرُك[١].

وقال الكلبيُّ: هو شيءٌ منصوب علمٌ أو رايةٌ[٢].

وقال الحسنُ: كانوا يبتدرون إذا طلعت الشمسُ إلى نصبهم التي كانوا يعبدونها من دون الله لا يلوي أوَّلهم على آخرهم[٣].

و «يُوفضُونَ»: يُسْرعُونَ.

وقيل: يستبقون.

وقيل: يسعون.

وقيل: ينطلقون، وهي متقاربة، والإيفاض: الإسراع؛ قال الشاعر: [المتقارب]

٤٨٧٥ ـ فَوَارِسُ ذبْيانَ تَحْتَ الحَدِيـ ـدِ كالجِنِّ يُوفِضْنَ منْ عَبْقَرِ[٤]

وعبقر: موضع تزعم العرب أنه من أرض الجنِّ؛ قال لبيد: [الطويل]

٤٨٧٦ ـ .... كُهُولٌ وشُبَّانٌ كجِنَّةِ عَبْقَرِ[٥]

وقال الآخر: [الرجز]

٤٨٧٧ ـ لأنْعَتَنْ نَعَامَةً مِيفَاضَا[٦]

وقال الليثُ: وفضَتِ الإبل تَفضِي وفْضاً، وأوفضها صاحبُها، فالإيفاض متعد، والذي في الآية لازم يقال: وفض وأوفض، واستوفض بمعنى: أسْرَع.

قوله: ﴿خَٰشِعَةً﴾. حال إما من فاعل «يُوفِضُونَ» وهو أقرب، أو من فاعل «يَخرُجونَ» وفيه بعدٌ منه، وفيه تعدد الحال لذي حالٍ واحدةٍ، وفيه الخلافُ المشهورُ.

و «أبْصارُهُمْ» فاعل، والمعنى: ذليلةٌ خاضعةٌ لا يرفعونها لما يتوقعونه من عذاب الله.

قوله: ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾، قرأ العامةُ: بتنوين «ذلَّة»، والابتداء بـ «ذلِكَ اليَوْمَ»، وخبره «الَّذي كَانُوا».

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٩٢).

(٢) ينظر المصدر السابق. (٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) ينظر القرطبي ١٨/ ١٩٢، والبحر ٣٣٠٨، والدر المصون ٦/ ٣٨١.

(٥) عجز بيت وصدره:

ومن غاد من إخوانهم وبنيهم

ينظر ديوانه (٥٤)، ولسان العرب (عبقر)، والصحاح (عبقر).

(٦) ينظر البحر ٨/ ٣٣٠، والدر المصون ٦/ ٣٨١.

وقرأ يعقوب والتمَّار[١]: بإضافةِ «ذلَّة» إلى «ذلك» وجر «اليَوْم»؛ لأنه صفةٌ، و «الَّذِي» نعتٌ لليومِ.

و «تَرهَقُهمْ» يجوز أن يكون استئنافاً وأن يكون حالاً من فاعل «يُوْفضُونَ» أو «يَخرُجُونَ»، ولم يذكر مكي غيره.

ومعنى: «تَرهَقهُمْ»، أي: يغشاهم الهوانُ والذلة.

قال قتادة: هو سوادُ الوُجوهِ.

والرَّهقُ: الغشيان، ومنه غلام مراهق إذا غشي الاحتلام، يقال: رهقه ـ بالكسر ـ يرهقه رهقاً، أي: غشيه.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾، أي: يوعدونه في الدنيا أنَّ لهم فيه العذاب، وأخرج الخبر بلفظ الماضي؛ لأن ما وعد الله به، فهو حقٌّ كائنٌ لا محالةَ.

روى الثَّعلبيُّ عن أبيِّ بن كعبٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرأَ سُورَةَ سأل سَائل، أعْطاهُ اللَّهُ ثَوابَ الَّذينَ هُمْ لأمَانَاتِهِمْ وعهْدِهِمْ راعُونَ، والَّذينَ هُمْ على صَلاتهِمْ يُحَافِظُونَ»[٢].

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٣٠، والدر المصون ٦/ ٣٨١.

(٢) تقدم.

سورة نوح
عليه السلام

مكيَّة وهي ثمانٍ وعشرون آية، ومائتان وأربعٌ وعشرون كلمة، وتسعمائة وتسعةٌ وعشرون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
(١) قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن
ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ
إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ
جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ
جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا
(١٠) يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا
(١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ
طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا
(١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا
سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾.

روى قتادة عن ابن عبَّاسٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «أوَّل نبيٍّ أرسِلَ نوحُ عليه الصلاة والسلام، وأرسِلَ إلى جَميع أهْلِ الأرضِ»[1].

ولذلك لـمَّا كفروا، أغرق الله أهل الأرض جميعاً، وهو نوح بنُ لامك بن

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٩٤) وعزاه إلى ابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن عساكر.
وذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٣٢٣٩١) وعزاه إلى ابن عساكر.

متوشلخ بن أخنوخ، وهو إدريس بن يرد بن مهلاييل بن أنوش بن قينان بن شيث بن آدم عليه الصلاة والسلام.

قال وهبٌ: وكلهم مؤمنون، أرسل إلى قومهِ وهو ابنُ خمسين سنة.

وقال ابن عبَّاسٍ: أربعين سنة[١].

وقال عبد الله بن شداد: بعث وهو ابنُ ثلاثمائة وخمسين سنة.

قوله: ﴿أَنْ أَنذِرْ﴾.

يجوز أن تكون المفسرة، فلا يكونُ لها موضع من الإعراب؛ لأن في الإرسال معنى الأمر فلا حاجة إلى إضمار الباءِ، ويجوز أن تكون المصدرية، أي: أرسلناه بالإنذار.

قال الزمخشريُّ: والمعنى: أرسلناه بأن قلنا له: أنذر، أي: أرسلناه بالأمر بالإنذار. انتهى.

وهذا الذي قدره حسنٌ جدًّا، وهو جواب عن سؤال تقدَّم في هذا الكتاب، وهو قولهم: فإنَّ «أنْ» المصدرية يجوز أن توصل بالأمر مشكل؛ لأنه ينسبكُ منها وما بعدها مصدر، وحينئذ فتفوت الدلالة على الأمر؛ ألا ترى أنَّك إذا قدَّرت «كتبت إليهم بأن قم كتبت إليه القيام» تفوت بالدلالة على الأمر حال التصريح بالمصدر، فينبغي أن يقدر كما قاله الزمخشريُّ، أي: كتبت إليه بأن قلتُ له: قُمْ، أي: كَتبتُ إليه بالأمر بالقيامِ.

وقال القرطبي[٢]: «أي: بأن أنذر قومكَ، فموضع «أن» نصب بإسقاط الخافض».

وقرأ عبد الله[٣]: «أنذر قومك» بغير «أن» بمعنى: «قلنا له: أنذر قومك». وقد تقدم معنى الإنذار في سورة «البقرة».

وقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قال ابن عبَّاسٍ: يعني عذاب النَّار في الآخرة[٤].

وقال الكلبيُّ: هو الطوفان[٥].

وقيل: أنذرهم بالعذاب على الجملة إن لم يؤمنوا، فكان يدعو قومه وينذرهم، فلا يجيبونه كما تقدَّم.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: مخوف مظهر لكم بلسانكم الذي تعرفونه.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٩٣). (٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٩٣.

(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ١٦٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٧٢.

(٤) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ٩٨) والقرطبي (١٨/ ١٩٣).

(٥) ينظر المصدر السابق.

قوله: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، إما أن تكون تفسيرية لـ «نَذِيْر» أو مصدرية، والكلامُ فيها كالكلامِ في أختها كما تقدم، والمعنى: وَحِّدوا اللَّه واتَّقُوه، أي: خافوه «وأطِيعُونِ» فيما آمركم بَه؛ فإنِّي رسول الله إليكم.

﴿يَغۡفِرۡ لَكُم﴾ جزم «يَغْفِرْ» لجواب الأمر.

قوله: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾. في «مِنْ» هذه أوجه:

أحدها: أنَّها تبعيضية.

الثاني: أنَّها لابتداء الغايةِ.

الثالث: أنَّها لبيان الجنسِ، وهو مردود لعدم تقدم ما تبينُه.

الرابع: أنَّها مزيدةٌ. قال ابن عطية: وهو مذهب كوفيٌّ.

قال شهاب الدين[١]: ليس مذهبهم ذلك؛ لأنهم يشترطون تنكير مجرورها، ولا يشترطون غيره. والأخفش لا يشترط شيئاً، فزيادتُها هنا ماشٍ على قوله لا على قولهم.

قال القرطبي[٢]: وقيل: لا يصح كونها زائدة؛ لأن «مِنْ» لا تزاد في الواجب، وإنما هي هنا للتبعيض، وهو بعض الذنوب، وهو ما لا يتعلق بحقوق المخلوقين.

وقال زيد بن أسلم: المعنى يُخرِجُكم من ذنوبكم[٣].

وقال ابن شجرة: المعنى يغفر لكم من ذنوبكم ما استغفرتموه منها.

قوله: ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾.

قال الزمخشريُّ: فإن قلت: كيف قال: «يُؤَخِّرْكُمْ» مع إخبارِهِ بامتناع تأخيره؟.

قلتُ: قضى الله أنَّ قوم نوح إن آمنوا عمَّرهُم ألف سنةٍ، وإن بقُوا على كفرهم أهلكهم على رأس تسعمائة، قيل لَهم: إن آمنتم أُخِّرتُم إلى الأجلِ الأطولِ، ثم أخبرهُم أنه إذا جاء ذلك الأجل الأمد لا يؤخَّرُ انتهى.

وقد تعلَّق بهذه الآية من يقول بالأجلين وتقدم جوابه.

وقال ابن عباسٍ: أي: يُنْسِيءُ في أعماركم[٤]، ومعناه: أنَّ الله ـ تعالى ـ كان قضى قبل خلقهم، إنْ هم آمنوا بارك في أعمارهم وإن لم يؤمنوا عوجلوا بالعذاب.

وقال مقاتل: يؤخركم إلى منتهى أعماركم في عافية فلا يعاقبكم بالقحطِ وغيره، فالمعنى على هذا: يؤخركم من العقوبات والشدائد إلى آجالكم[٥].

---

(١) ينظر الدر المصون ٦/ ٣٨٢. (٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٩٤.
(٣) ينظر تفسير الماوردي (٦/ ٩٨) والقرطبي (١٨/ ١٩٣).
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٩٤). (٥) ينظر تفسير القرطبي (١٨/ ١٩٤).

وقال الزجاج: «أي يؤخركم عن العذاب، فتموتوا غير موتة المستأصلين بالعذاب».

وعلى هذا قيل: أجل مسمى عندكم تعرفونه لا يميتكم غَرْقاً ولا حَرْقاً ولا قَتْلاً، ذكره الفراء. وعلى القول الأول أجل مسمى عند الله.

قوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾، أي: إذا جاء الموتُ لا يؤخَّر بعذاب كان، أو بغير عذاب، وأضاف الأجلَ إليه سبحانه؛ لأنه الذي أثبته، وقد يضاف إلى القوم كقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ٤٩]؛ لأنه مضروبٌ لهم، و «لَوْ» بمعنى «إنْ» أي: إن كنتم تعلمون.

وقال الحسن: معناه: لو كنتم تعلمون لعلمتم أن أجل الله إذا جاء لا يُؤخَّرُ(١).

وعلى هذا يكون جوابُ «لَوْ» محذوفاً تقديره: لبادرتم إلى ما أمركم به أو لعلمتم كما قال الحسن.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾، وهذان ظرفان لـ «دَعوْتُ»، والمراد: الإخبار باتصال الدْعاء وأنَّه لا يفتر عن ذلك وقيل: معناه سراً وجهراً «فَلمْ يَزدهُم دُعائِي إلاَّ فِراراً»، أي: تباعداً من الإيمان، وهذا استثناء مفرغ وهو مفعول ثان.

وقراءة العامة: بفتح الياء من «دُعَائِي».

وأسكنها الكوفيُّون، ويعقوب والدوري عن أبي عمرو(٢).

قوله: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾، أي: إلى سبب المغفرةِ، وهي الإيمانُ بك والطاعة لك ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ لئلاَّ يسمعُوا دُعائِي ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: غطُّوا بها وجوههم لئلاَّ يرون.

قال ابن عبَّاسٍ: جعلوا ثيابهم على رءوسهم لئلاَّ يسمعوا كلامي، فاستغشاءُ الثِّياب إذن زيادة في سدِّ الآذان حتى لا يسمعوا، أو لتنكيرهم أنفسهم حتى يسكت، أو ليعرفوه إعراضهم عنه(٣).

وقيل: هو كنايةٌ عن العداوةِ، يقال: لبس فلانٌ ثياب العداوةِ «وأصَرُّوا» على الكفر فلم يتوبوا، «واستَكْبَرُوا» عن قبول الحق، وهو قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

قوله: «لِتَغْفِرَ»، يجوز أن تكون للتعليل، والمدعو إليه محذوفٌ، أي: دعوتهم

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٤٧) عن مجاهد بمعناه. وذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٩٤) عن الحسن.

(٢) ينظر السبعة ٦٥٢، والحجة ٦/ ٣٢٥، وإعراب القراءات ٢/ ٣٩٥.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٢٤) وعزاه إلى سعيد بن منصور وابن المنذر.

للإيمان بك لأجلِ مغفرتك لهم، وأن تكونَ لام التَّعديةِ، ويكون قد عبَّر عن السبب بالمسبب، الذي هو حظهم، والأصل دعوتهم للتوبة التي هي سببٌ في الغفران.

و «جَعلُوا»، هو العامل في «كُلَّمَا» وهو خبر «إنِّي».

قوله: «جِهَاراً»، يجوز أن تكون مصدراً من المعنى؛ لأنَّ المعنى يكون جهاراً وغيره، فهو من باب «قعد القُرفُصَاء»، وأن يكون المرادُ بـ «دعوتهم»: جاهرتهم. وأن يكون نعت مصدر محذوف أي: دعاء جهاراً.

وأن يكون مصدراً في موضع الحالِ، أي: مجاهراً، أو ذا جهارٍ، أو جعل نفس المصدر مبالغة.

قال الزمخشريُّ: «فإن قلت: ذكر أنه دعاهم ليلاً ونهاراً، ثم دعاهم جهاراً، ثُمَّ دعاهم في السرِّ والعلن فيجب أن يكون ثلاث دعواتٍ مختلفاتٍ، حتى يصح العطفُ.

قلتُ: قد فعل ـ عليه السلام ـ كما يفعل الذي يأمُر بالمعروفِ، وينهى عن المنكرِ في الابتداء بالأهون، والترقي إلى الأشدِّ فالأشدِّ، فافتتح في المناصحة بالسرِّ فلما لم يقبلوا ثَنَّى بالمجاهرة، فلمَّا لم يقبلوا ثلَّث بالجمع بين السرِّ والإعلان، ومعنى «ثُمَّ» للدلالة على تباعد الأحوال؛ لأن الجهاد إذا غلظ من الإسرار، والجمعُ بين الأمرين، أغلظُ من إفراد أحدهما».

وقال أبو حيان[1]: «وتكرر كثيراً له أنَّ «ثُمَّ» للاستبعاد، ولا نعلمه لغيره».

وقوله: «اسْتِكبَاراً». قال القرطبيُّ[2]: تفخيم.

فصل في معنى الآية

معنى: «جِهَاراً»، أي: مظهراً لهم الدعوة، وهو منصوب بـ «دَعوْتهُمْ» بنصب المصدر.

﴿ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾.

أي: لم أبقِ مجهوداً.

وقال مجاهد ـ رضي الله عنه ـ: معنى «أعْلَنتُ» صِحتُ، ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ بالدعاءِ عن بعضهم من بعض[3].

وقيل: «أسْرَرْتُ لهم» أتيتُهم في منازلهم وكلُّ هذا من نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ مبالغةٌ في الدعاءِ، وتلطف في الاستدعاءِ.

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٣٩. (٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٩٤.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٤٨) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٢٤) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

وفتح الياء من «إنِّي أعلنتُ»[١]، الحرميون وأبو عمرو، وأسكنها الباقون.

قوله: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾، أي: سلوه المغفرة لذنوبكم بإخلاص الإيمان ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ وهذا منه ـ تعالى ـ ترغيبٌ في التوبة، لقوله عليه الصلاة والسلام: «الاسْتغفَارُ مَمحاةٌ للذنُوبِ».

قوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾. أي: يرسل ماء السماءِ، ففيه إضمار.

وقيل: السماء: المطر، أي يرسلُ المطر؛ قال الشاعر: [الوافر]

٤٨٧٨ ـ إذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ وإنْ كَانُوا غِضَابَا[٢]

و «مِدْراراً» يجوز أن يكون حالاً من «السَّماء». ولم يؤنث؛ لأن «مفعالاً» لا يؤنث، تقول: «امرأة مِئْنَاث، ومِذْكَار» ولا يؤنث بالتاء إلا نادراً، وحينئذ يستوي فيه المذكر والمؤنث، فتقول رجُلٌ مخدامةٌ، ومطرابةٌ، وامرأة مخدامة ومطرابة، وأن يكون نعتاً لمصدر محذوف، أي: إرسالاً مدراراً. وتقدم الكلام عليه في الأنعام[٣].

وجزم «يرسل» جواباً للأمر، و «مِدْرَاراً» ذا غيث كثيرٍ.

فصل في حكاية قوم نوح

قال مقاتل: لما كذَّبوا نوحاً ـ عليه الصلاة والسلام ـ زماناً طويلاً حبس اللَّهُ عنهم المطر، وأعقم أرحامَ نسائهم أربعين سنة، فهلكت مواشيهم وزروعهم فصاروا إلى نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ واستغاثوا به، فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾، أي: لمَن أناب إليه، ثم رغبهم في الإيمان فقال: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾[٤].

قال قتادة: علم نبيُّ الله ﷺ أنهم أهل حرصٍ على الدنيا، فقال: هلموا إلى طاعة الله، فإنَّ في طاعة الله درك الدنيا والآخرة[٥].

فصل في استنزال الرزق بالاستغفار

في هذه الآية والتي قبلها في «هود» دليلٌ على أنَّ الاستغفار يستنزلُ به الرزق والأمطار قال الشعبيُّ: خرج عمر يستسقي فلم يزد على الاستغفار حتى رجع فأمطروا فقالوا: ما رأيناك استسقيت فقال: لقد استسقيت بمجاديح السماءِ التي يستنزل بها المطر، ثم قرأ: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾.

---

(١) ينظر: القرطبي (١٨/ ١٩٥) (٢) تقدم.

(٣) آية رقم ٦. (٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٩٥).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٤٩) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٢٤) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

قال ابن الأثير: المجاديحُ واحدها «مجدح» والياء زائدة للإشباع، والقياس أن يكون واحدها مجداح، فأما مجدح فجمعه «مجادح»، والمجدح: نجمٌ من النجوم.

قيل: هو الدبران.

وقيل: هو ثلاثةُ كواكب، كالأثافي تشبيهاً له بالمجدح، الذي له ثلاث شعبٍ، وهو عند العرب من الأنواء الدالة على المطر، فجعل الاستغفار مشبهاً بالأنواء، مخاطبة لهم بما يعرفونه لا قولاً بالأنواء، وجاء بلفظ الجمع؛ لأنه أراد الأنواء جميعها التي يزعمون أن من شأنها المطر.

وشكى رجلٌ إلى الحسن الجدوبة، فقال له: استغفر الله، وشكى آخر إليه الفقر، فقال له: استغفر الله، وقال له آخر: ادعُ الله أن يرزقني ولداً، فقال له: استغفر الله، وشكى إليه آخرُ جفاف بساتينه فقال له: استغفر الله، فقلنا له في ذلك، فقال ما قلت من عندي شيئاً، إنَّ الله تعالى يقول في سورة «نوح»: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾.

فإن قيل: إنَّ نوحاً ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمر الكفار أولاً بالعبادة، والطَّاعة، فأيُّ فائدةٍ في أن أمرهم بعد ذلك بالاستغفار.

فالجوابُ[1]: لمَّا أمرهم بالعبادة قالوا له: إن كان الدين الذي كُنَّا عليه حقاً، فلم تأمرنا بتركه، وإن كان باطلاً، فكيف يقبلنا بعد أن عصيناه، فقال نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ: إنكم وإن كنتم قد عصيتموه ولكن استغفروا من تلك الذنوب فإنَّه سبحانه كان غفاراً.

فإن قيل: فلم قيل: إنه كان غفاراً، ولم يقل: إنَّه غفار؟.

فالجوابُ: كأنه يقول: لا تظنوا أن غفرانه إنما حدث الآن بل هو أبداً هكذا عادته أنه غفارٌ في حق من استغفر.

قوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾.

قيل: الرجاء هنا بمعنى الخوف، أي: ما لكم لا تخافون لله عظمة، وقدرة على أحدكم بالعقوبة، أي: أيُّ عذر لكم في ترك الخوف من الله؛ قال الهذليُّ: [الطويل]

٤٨٧٩ ـ **إذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا** ....[2]

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١٢٢.

(٢) صدر بيت لأبي ذؤيب الهذلي وعجزه:

وخالفها في بيت نوب عواسل

ينظر ديوانه ١٤٣٨، ومجاز القرآن ١/ ٢٧٥، ٢/ ٧٣ وفيه (نوب عوامل) بدل من (نوب عواسل) وجمهرة الأشعار ٩، والطبري ١١/ ١٥٦.

وقال سعيد بن جبيرٍ وأبو العالية وعطاء بن أبي رباح: ما لكم لا ترجون لله ثواباً، ولا تخافون له عقاباً[١].

وقال سعيد بن جبيرٍ عن ابن عبَّاسٍ: «ما لَكُمْ لا تَرجُونَ»، لا تخشون لله عقاباً وترجون منه ثواباً[٢].

وقال الوالبي والعوفي عنه: ما لكم لا تعلمون لله عظمة.

وقيل: ما لكم لا تعتقدون لله عظمة.

وقال ابن عباس ومجاهد: ما لكم لا ترون لله عظمة[٣].

قال قطرب: هذه لغةٌ حجازيةٌ، وهذيل وخزاعةُ ومضر يقولون: لم أرج، أي: لم أبال.

قوله: «وقَاراً»، يجوز أن يكون مفعولاً به على معان، منها: ما لكم لا تأملون له توقيراً، أي: تعظيماً.

قال الزمخشريُّ: والمعنى ما لكم لا تكونون على حالٍ، تأملون فيها تعظيم الله إيَّاكم في دار الثواب «ولله» بيانٌ للموقر، ولو تأخر لكان صلته. انتهى.

أي: لو تأخر «للَّهِ» عن «وقَاراً» لكان متعلقاً به، فيكون التوقير منهم لله تعالى وهو عكس المعنى الذي قصده، ومنها: لا تخافون لله حلماً وترك معاجلة بالعقاب فتؤمنوا.

ومنها: لا تخافون لله عظمة، وعلى الأول يكون الرجاء على بابه، وقد تقدم أن استعماله بمعنى الخوف مجاز ومشترك.

وأن يكون حالاً من فاعل «تَرجُونَ»، أي: موقرين الله تعالى، أي: تعظمونه، فـ «لِلَّهِ» على هذا متعلق بمحذوف على أنه حالٌ من «وقَاراً» أو تكون اللام زائدة في المفعول به، وحسنه هنا أمران: كون العامل فرعاً، وكون المعمول مقدماً، و «لا تَرْجُونَ» حال. وقد تقدم نظيره في المائدة[٤].

والوقارُ: العظمة، والتوقيرُ التعظيم، ومنه قوله تعالى ﴿وَتُوَقِّـرُوهُ﴾ [الفتح: ٩].

وقال قتادةُ: ما لكم لا ترجون لله عاقبة كأن المعنى: ما لكم لا ترجون لله عاقبة الإيمان[٥].

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (١٨/ ١٩٦).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٤٥) وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠) عن ابن عباس ومجاهد.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٢٤ ـ ٤٢٥) عن ابن عباس وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم والبيهقي في «الشعب» من طرق عنه.

(٤) آية رقم ٤٦.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٥٠).

وقال ابن كيسان: ما لكم لا ترجون في عبادة الله، وطاعته أن يثيبكم على توقيركم خيراً.

وقال ابن زيد: ما لكم لا تؤتون لله تعالى طاعة[1].

وقال الحسنُ: ما لكم لا تعرفون لله حقاً، ولا تشكرون له نعمة[2].

وقيل: ما لكم لا توحدون الله لأن من عظمه فقد وحَّده.

وقيل: إن الوقار هو: الثبات لله عز وجل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣] أي: اثبتن، والمعنى: ما لكم لا تثبتون وحدانية الله تعالى، وأنه إلهكم، لا إله لكم غيره، قاله ابن بحر، ثم دلَّهم على ذلك فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾.

يعني نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظاماً، ولحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر.

وقيل: «أطْوَاراً» صبياناً، ثم شباناً، ثم شيوخاً، وضعفاء، ثم أقوياء.

وقيل: «أطواراً»، أي: أنواعاً، صحيحاً، وسقيماً، وبصيراً، وضريراً، وغنياً، وفقيراً.

وقيل: الأطوار: اختلافهم في الأخلاق، والأفعال.

قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، جملة حالية من فاعل «تَرْجُونَ».

والأطوار: الأحوال المختلفة.

قال الشَّاعرُ: [البسيط]

٤٨٨٠ ـ فإنْ أفَاقَ فقَدْ طَارتْ عَمايَتُهُ ... والمَرْءُ يُخلَقُ طَوْراً بَعْدَ أطْوارِ[3]

وانتصابهُ على الحال، أي: منتقلين من حال إلى حال، أو مختلفين من بين مُسِيءٍ، ومحسن، وصالح، وطالح.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾.

لما ذكر لهم دليل التوحيد من أنفسهم، أتبعه بدليل الآفاق فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾، أي: ألم تعلموا أنَّ الذي قدر على هذا، فهو الذي يجب أن يعبد، ومعنى: «طباقاً» قال ابن عباس والسدي: أي: بعضها فوق بعض كل سماء منها وطبقة على الأخرى كالقبابِ[4].

فإن قيل: هذا يقتضي ألا يكون بينهما فرج، وإذا كان كذلك فكيف تسلكها الملائكة؟.

---

(١) ينظر المصدر السابق.
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٩٦).
(٣) البيت للنابغة ينظر ديوانه (٢١٩) واللسان (طور)، والبحر المحيط ٨/ ٣٣١، وروح المعاني ٢٩/ ٩١.
(٤) ذكره الماوردي (٦/ ١٠٢) والقرطبي (١٨/ ١٩٧).

فالجواب: أن الملائكة أرواح.

وأيضاً قال المبرِّد: معنى طباقاً، أي: متوازية لا أنها متماسة.

وقال الحسنُ: «خلَق اللَّهُ سبعَ سماواتٍ طِباقاً» على سبع أرضين بين كل أرض وأرض وسماء خلق وأمر[1].

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾، على جهة الإخبار، لا المعاينة كما تقول: ألَمْ ترنِي كيف صنعتُ بفلان كذا، و «طِبَاقاً» نصب على أنه مصدر طابقه طباقاً، أو حال بمعنى: «ذات طباقٍ»، فحذف «ذات» وأقام «طِباقاً» مقامه، وتقدم الكلامُ عليه في سورة «الملك».

وقال مكيّ: وأجاز الفرَّاء في غير القرآنِ جر «طِباق» على النعت لـ «سماوات».

يعني أنه يجوز أن يكون صفة للعدد تارة وللمعدود أخرى.

قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾، أي: في السماوات، والقمر إنَّما هو في سماءٍ واحدةٍ منهن قيل: هو في السماء الدنيا، وإنَّما جاز ذلك لأن بين السماواتِ ملابسة فصح ذلك، وتقول: زيد في المدينة، وإنَّما هو في زاوية من زواياها.

وقال ابن كيسانِ: إذا كان في إحداهنَّ فهو فيهنَّ.

وقال قطرب: «فِيهِنَّ» بمعنى: «مَعهُنَّ».

وقاله الكلبيُّ: أي: خلق الشمس والقمر مع خلق السماوات والأرض[2].

وقال جُلُّ أهل اللغةِ في قول امرىء القيس: [الطويل]

٤٨٨١ ـ وهَلْ يَنعَمَنْ مَنْ كَانَ آخِرُ عَهدِهِ ... ثَلاثِينَ شَهْراً في ثَلاثَةِ أحْوالِ[3]

«في» بمعنى: «مَعَ».

وقال النحاس: سألت أبا الحسن بن كيسان عن هذه الآية، فقال: جوابُ النحويين: أنه إذا جعله في إحداهن، فقد جعله فيهن، كما تقول: أعطني الثيابَ المعلمة، وإن كنت إنما أعلمت أحدها.

وجواب آخر: أنه يروى أن وجه القمر إلى داخل السماء، وإذا كان إلى داخلها فهو متصل بالسماوات، ومعنى: «نُوْراً»، أي: لأهل الأرض، قاله السدي[4].

---

(١) ينظر المصدر السابق.
(٢) ينظر القرطبي ١٨/ ١٩٧.
(٣) ينظر ديوانه ص (٢٧)، وأدب الكاتب ص ٥١٨، وجمهرة اللغة ص ١٣١٥، وخزانة الأدب ١/ ٦٢، والجنى الداني ص ٢٥٢، وجواهر الأدب ص ٢٣٠، والدرر ٤/ ١٤٩، وشرح شواهد المغني ١/ ٤٨٦، والخصائص ٢/ ٣١٣، ورصف المباني ص ٣٩١، وشرح الأشموني ٢/ ٢٩٢، ولسان العرب (فيا) ومغني اللبيب ١/ ١٦٩، وهمع الهوامع ٢/ ٣٠.
(٤) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٠٢) والقرطبي (١٨/ ١٩٧).

وقال عطاءٌ: نورٌ لأهل السماوات والأرض.

وقال ابن عباس وابن عمر: وجهه يضيء لأهل الأرض، وظهره يضيء لأهل السماء[١].

قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾.

يحتمل أن يكون التقدير: وجعل الشمس فيهن ـ كما تقدم ـ والشمس، قيل: في الرابعة، وقيل: في الخامسة، وقيل: في الشتاء في الرابعة وفي الصيف في السابعة والله أعلم.

وقوله: «سِراجَاً». يعني مصباحاً لأهل الأرض، ليتوصلوا إلى التصرف لمعايشهم، وفي إضاءتها لأهل السماء، القولان الأولان، حكاه الماورديُّ.

وحكى القشيريُّ عن ابن عباسٍ: أن الشمس وجهه في السماوات وقفاه في الأرض[٢].

وقيل: على العكس.

وقيل لعبد الله بن عمر: ما بالُ الشمس تقلينا أحياناً وتبرد علينا أحياناً؟.

فقال: إنَّها في الصيف في السماء الرابعة، وفي الشتاء في السماء السابعة عند عرش الرحمنِ، ولو كانت في السَّماء الدنيا، لما قام لها شيء[٣].

ولما كانت الشمس سبباً لزوال الليلِ وهو ظل الأرض أشبهت السِّراجَ، وأيضاً فالسراجُ له ضوءٌ والقمرُ له نورٌ، والضوء أقوى من النور، فجعل للشمس كما قال ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾. يعني آدمَ ـ عليه الصلاة والسلام ـ خلقه من أديم الأرض كلِّها، قاله ابن جريج. وقد تقدم بيانه.

و «نَبَاتاً». إما مصدر لـ «أنبت» على حذف الزوائد، ويسمى اسم مصدر، لأن مصدر «أنْبَتَ» «إنباتاً» فجعل الاسم الذي هو النباتُ في موضع المصدر وإمَّا بـ «نَبَتُّمْ» مقدراً، أي: «فَنَبَتُّمْ نَبَاتاً»، فيكون منصوباً بالمضارع المقدر.

قال الزمخشريُّ: أو نصب بـ «أَنْبَتَكُمْ» لتضمنه معنى: «نَبَتُّمْ».

قال أبو حيَّان[٤]: ولا أعقل معنى هذا الوجه بالثاني.

قال شهابُ الدين[٥]: هذا الوجه المتقدم، وهو أنه منصوب بـ «أَنْبَتَكُمْ» على حذف

(١) ينظر المصدر السابق.
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٩٧).
(٣) ينظر المصدر السابق.
(٤) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٤٠.
(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٨٤.

الزوائد ومعنى قوله: لتضمنه معنى «نَبَتُّمْ»، أي: مشتمل عليه، غاية ما فيه أنه حذفت زوائدهُ.

قال القرطبيُّ(١): «وقال الخليلُ والزجاجُ: إنه محمول على المعنى، لأن معنى «أنبَتَكُم» جعلكم تنبتون نباتاً.

وقيل: معناه أنبت لكم من الأرض النبات، فـ «نَبَاتاً» على هذا نصب على المفعول الصريح، والأول أظهر».

قال ابن بحر: أنبتكم في الأرض بالكبر بعد الصغر، وبالطول بعد القصر، ثم يعيدكم فيها، أي عند موتكم بالدفن ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ بالنشور والبعث يوم القيامة.

والإنبات: استعارة بليغة، قيل: المراد أنبت أباكم.

وقيل: المراد أنبت الكلَّ لأنهم من النطف، وهي من الأغذية التي أصلها الأرض، وهذا كالتفسير لقوله: ﴿خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، ثم قال: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾، وهذا إشارة إلى الطريقة المعهودة في القرآن، من أنه تعالى لما كان قادراً على الابتداء، فهو قادر على الإعادة، وقوله: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾، أكده بالمصدر فإنه قال: يخرجكم حتماً لا محالة.

قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾، أي: مبسوطة.

﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ أي: طرقاً واسعة، والسُّبل: الطرقُ، والفجاجُ: جمع فجٍّ، وهو الطريق الواسعة، قاله الفراءُ.

وقيل: الفَجُّ: المسلك بين الجبلين، وفي «الأنبياء»، قدَّم الفجاج لتناسب الفواصل. وقد تقدم الكلام على ذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨)﴾

قوله: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾.

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٩٧.

ذكر أولاً أنهم عصوا ثم ذكر أنهم ضموا إلى عصيانه طاعة رؤسائهم الذين يدعونهم إلى الكفر، إنما زادهم أموالهم، وأولادهم خساراً؛ لأنهم سبب لخسارة الآخرة، والدنيا في جنب الآخرة كالعدم، فإذا خسرت الآخرة بسببها كانت كاللُّقمةِ من الحلوى مسمومة؛ ولذلك قال جماعة: ليس لله على الكافر نعمة، وإنَّما هي استدراج للعذابِ.

قال المفسِّرون: لبث فيهم نوحٌ ـ عليه السلام ـ كما أخبر الله تعالى ألف سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً داعياً لهم وهم على كفرهم وعصيانهم.

قال ابنُ عباس: دعا نوحٌ الأبناءَ بعد الآباءِ، فكان الآباءُ يأتون بأولادهم إلى نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويقولون لأبنائهم: إياكم وأن تطيعوا هذا الشيخ؛ فيما يأمركم به، حتى بلغوا سبع قرونٍ، ثم دعا عليهم بعد الإياس منهم، ولبث[1] بعد الطوفان ستين عاماً، حتى كثر الناس وفشوا[2].

قال الحسن: كان قوم نوح يزرعون في الشهر مرتين[3]، حكاه الماورديُّ.

قوله «وولده» قرأ أهل «المدينة» و «الشام» وعاصم: «وَوَلَدُه» بفتح اللام والواو.

والباقون: «وَوُلْدُهُ»[4] بضم الواو وسكون اللام، وقد تقدم أنهما لغتان كـ «بَخَل وبُخْل».

قال أبو حاتم: ويمكن أن يكون المضموم جمع المفتوح كـ «خَشَب وخُشْب».

وأنشد لحسَّانٍ: [الكامل]

٤٨٨٢ ـ يَا بِكْرَ آمنةَ المُبارِكِ وُلْدُهَا مِنْ وُلدِ مُحْصنةٍ بِسعْدِ الأسْعَدِ[5]

قوله: ﴿وَمَكَرُواْ﴾، عطف على صلة «من» لأن المتبوعين هم الذين مكروا.

﴿وَقَالُواْ﴾ للإتباع: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾، وإنَّما جمع الضمير حملاً على المعنى، بعد حملها على لفظها في ﴿لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ﴾، ويجوز أن يكون مستأنفاً إخباراً عن الكفار.

قوله «كُبَّاراً»، العامة: على ضم الكاف وتشديد الباء، وهو بناء مبالغة أبلغ من «كُبَار» بالضم والتخفيف.

قال عيسى: وهي لغةٌ يمانية؛ وأنشد: [الكامل]

٤٨٨٣ ـ والمَرْءُ يُلحِقُهُ بِفِتْيانِ النَّدىٰ خُلقُ الكَريمِ وليْسَ بالوُضَّاءِ[6]

---

(١) في ب: وعاش.
(٢) تقدم تخريج هذا الأثر.
(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٠٣).
(٤) ينظر: السبعة ٦٥٢، ٦٥٣، والحجة ٦/ ٣٢٥، وإعراب القراءات ٢/ ٣٩٥، وحجة القراءات ٧٢٥.
(٥) رواية الديوان:

يا بكر آمنة المبارك بكرها ولدته محضنة لسعد الأسعد

ينظر ديوانه ٦٥، والبحر ٨/ ٣٤٤، والدر المصون ٦/ ٣٦٥.
(٦) البيت لأبي صدقة الدبيري ينظر الخصائص ٣/ ٢٦٦، والمحتسب ٢/ ٢٣٠، واللسان (وضأ)، =

وقول الآخر: [الكامل]

٤٨٨٤ ـ بَيْضَاءُ تَصْطَادُ الغَوِيَّ وتَسْتَبِي ... بالحُسْنِ قَلْبَ المُسْلِمِ القُرَّاءِ[1]

ويقال: رجل طُوَّال، وجميل، وحُسَّان، وعظيم، وعُظَّام.

وقرأ ابن عيسى وابن محيصن وأبو السمال[2] وحميد ومجاهد: بالضم والتخفيف، وهو بناء مبالغة أيضاً دون الأول.

وقرأ زيد بن علي وابن محيصن أيضاً: بكسر الكاف[3] وتخفيف الباء.

قال أبو بكر: هو جمع كبير، كأنه جعل «مَكْراً»، مكان «ذُنُوب»، أو «أفاعيل»، يعني فلذلك وصفه بالجمع.

فصل في المقصود بالمكر في الآية

قيل مكرهم: هو تحريشهم سفلتهم على قتل نوح.

وقيل: هو تعزيزهم الناس بما أوتوا من الدنيا، والولد، حتى قالت الضعفة: لولا أنهم على الحق لما أوتوا هذه النِّعَمَ.

وقال الكلبيُّ: هو ما جعلوه لله من الصاحبة والولد[4]، وهذا بعيد، لأن هذا إنما قاله النصارى وهم بعد قوم نوح عليه السلام بأزمان متطاولة.

وقال مقاتل: هو قول كبرائهم لأتباعهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، فمنعوا القوم عن التوحيد وأمروهم بالشرك[5]، واعلم أنه لما كان التوحيد أعظم المراتب، لا جرم كان المنعُ منه أعظم الكبائر، فلهذا وصفه اللَّهُ تعالى بأنه كبار.

قال ابن الخطيب[6]: وإنَّما سماه مكراً لوجهين:

الأول: لما في إضافة الآلهة إليهم من الحيل الموجبة، لاستمرارهم على عبادتها؛ لأنها معبود آبائهم، فلو قبلتم قول نوحٍ لاعترفتم على أنفسكم بأنكم كنتم جاهلين ضالين، وعلى آبائكم بأنهم كانوا كذلكَ، ولما كان اعتراف الإنسانِ على نفسه وعلى أسلافه بالقصور والنقص والجهل بهذه الكلمة وهي لفظة «آلهتكم» وصدفكم عن الدين؛ فلهذه الحجة الخفية سمّى الله كلامهم مكراً.

= والقرطبي ١٨/ ١٩٨، والبحر ٨/ ٣٥٥، والدر المصون ٦/ ٣٨٥، وروح المعاني ٢٩/ ٩٥.

(١) البيت لأبي صدقة الدبيري، ينظر اللسان (قرأ)، والقرطبي ١٨/ ١٩٨، والبحر ٨/ ٣٥٥، والدر المصون ٦/ ٣٨٥، وروح المعاني ٢٩/ ٩٥.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٦، والبحر المحيط ٨/ ٣٥٥، والدر المصون ٦/ ٣٨٥.

(٣) ينظر السابق.

(٤) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٠٣) والقرطبي (١٨/ ١٩٨).

(٥) ينظر المصدر السابق.

(٦) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ١٢٦.

الثاني: أنه تعالى حكى عن المتبوعين أنهم كان لهم مال وولد، فلعلهم قالوا لأتباعهم: إن آلهتكم خير من إله نوح؛ لأن آلهتكم يعطونكم المال والولد، وإله نوح [لا يعطيه شيئاً لأنه فقير] فصرفوهم بهذا المكر عن طاعة نوح، وهو مثل مكر فرعون إذ قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف: ٥١]، وقوله ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٥٢، ٥٣].

قوله: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ [نوح: ٢٣] يجوز أن يكون من عطف الخاص على العام، إن قيل: إن هذه الأسماء لأصنام، وألا يكون إن قيل: إنها أسماء رجال صالحين على ما ذكر المفسِّرون.

وقرأ نافع: «وُدًّا»[١] بضم الواو، والباقون: بفتحها.

وأنشد بالوجهين قول الشاعر: [البسيط]

٤٨٨٥ ـ حَيَّاكَ وَدٌّ فإنَّا لا يَحِلُّ لَنَا ... لَهْوُ النِّساءِ، وإنَّ الدِّينَ قَدْ عَزَمَا[٢]

وقول الآخر: [الطويل]

٤٨٨٦ ـ فَحيَّاكَ وُدٌّ مَنْ هداكَ لِعِسِّهِ ... وخُوص بأعْلَى ذِي فَضالة هجِّه[٣]

قال القرطبي[٤]: قال الليث: «وَدٌّ» ـ بفتح الواو ـ صنم كان لقوم نوح، و «وُدّ» ـ بالضم ـ صنم لقريش، وبه سمي عمرو بن عبد ود.

وفي الصحاح[٥]: «والوَدُّ» بالفتح: الوتد في لغة أهل نجد، كأنهم سكنوا التاء وأدغموها في الدال. والود في قول امرىء القيس: [الرمل]

٤٨٨٧ ـ تُظْهِرُ الوَدَّ إذَا مَا أشْجَذتْ ... وتُواريهِ إذَا مَا تَشْتَكِرْ[٦]

قال ابن دريدٍ: هو اسم جبلٍ.

و «ود»: صنم كان لقوم نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثم صار لكلب، وكان بدومةِ الجَندلِ، ومنه سموا بعبد ودّ.

قوله: ﴿وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾. قرأهما العامة بغير تنوين، فإن كانا عربيين: فالمنع من الصرف للعلمية والوزن، وإن كانا أعجميين: فالعجمة والعلمية.

---

(١) ينظر: السبعة ٦٥٣، والحجة ٦/ ٣٢٧، وإعراب القراءات ٢/ ٣٩٦، وحجة القراءات ٧٢٦.
(٢) ينظر القرطبي ١٨/ ١٩٩، والبحر ٨/ ٣٣٦، والدر المصون ٦/ ٣٨٥.
(٣) ينظر البحر ٨/ ٣٣٦، والدر المصون ٦/ ٣٨٥.
(٤) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٢٠٠. (٥) ينظر الصحاح ٢/ ٥٤٩.
(٦) ينظر: ديوانه (١٤٤)، ولسان العرب (ودد)، والصحاح (ودد)، والقرطبي ١٨/ ٢٠٠.

وقرأ الأعمش[١]: «ولا يغوثاً ويعوقاً» مصروفين.

قال ابن عطية: «وذلك وهم، لأن التعريف لازم ووزن الفعل». انتهى.

قال شهاب الدين[٢]: وليس بوهم لأمرين:

أحدهما: أنه صرفهما للتناسب إذ قبلهما اسمان مصروفان وبعده اسم مصروف كما صرف «سَلاسِل».

والثاني: أنه جاء على لغة من يصرف غير المنصرف مطلقاً، وهي لغة حكاها الكسائي، ونقل أبو الفضل: الصرف فيهما عن الأشهب العقيلي، ثم قال: جعلهما «فعولاً»، فلذلك صرفهما، فأما في العامة: فإنهما صفتان من الغوثِ والعوقِ.

قال شهاب الدين[٣]: «وهذا كلامٌ مشكلٌ، أما قوله: «فعولاً» فليس بصحيح، إذ مادة يغث ويعق مفقودة، وأما قوله: صفتان من الغوث والعوق، فليس في الصفات ولا في الأسماء «يفعل» والصحيح ما قدمته».

وقال الزمخشريُّ: وهذه قراءة مشكلة لأنهما إن كانا عربيين أو أعجميين، ففيهما المنع من الصرف، ولعله وجد الازدواج، فصرفهما لمصادفته أخواتهما منصرفات: ودًّا وسواعاً ونسراً، كما قرىء ﴿وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١] بالإمالة لوقوعه مع الممالات للازدواجِ.

قال أبو حيَّان[٤]: كأنه لم يطلع على أن صرف ما لا ينصرف لغة.

فصل في بيان هذه الأسماء

قال ابن عبَّاس وغيره: وهي أصنامٌ، وصور كان قوم نوحٍ يعبدونها، ثم عبدتها العربُ[٥]، وهذا قول الجمهورِ.

وقيل: إنَّها للعربِ لم يعبدها غيرهم، وكانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم، فلذلك خصُّوا بالذكر بعد قوله: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾.

وقال عروة بن الزبير: اشتكى آدمُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعنده بنوه: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، وكان ود أكبرهم، وأبرّهم به[٦].

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/٦١٩، والمحرر الوجيز ٥/٣٧٦، والبحر المحيط ٨/٣٣٦.

(٢) ينظر الدر المصون ٦/ ٣٨٥.

(٣) ينظر الدر المصون ٦/ ٣٨٥.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٤٢.

(٥) أخرجه البخاري (٨/ ٥٣٥) كتاب التفسير، باب: «ودًّا ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً» رقم (٤٩٢٠).

(٦) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٠٤) والقرطبي (١٨/ ١٩٩).

قال محمد بن كعب: كان لآدمَ خمس بنينَ: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، وكانوا عُبَّاداً، فمات رجل منهم فحزنوا عليه، فقال الشيطان: أنا أصور لكم مثله، إذا نظرتم إليه ذكرتموه، قالوا: افعل، فصوّره في المسجدِ، من صفر ورصاصٍ، ثم مات آخرُ، فصوره حتى ماتوا كلُّهم، وصورروهم وتناقصت الأشياءِ كما ينقص اليوم إلى أن تركوا عبادة الله تعالى بعد حين، فقال لهم الشيطان: ما لكم لا تعبدون شيئاً؟.

قالوا: وما نعبدُ؟.

قال آلهتكم وآلهة آبائكم، ألا ترونها في مصلاكم؟ فعبدوها من دون الله، حتى بعث الله نوحاً، فقالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ الآية[١].

وقال محمد بن كعبٍ أيضاً ومحمد بن قيس: بل كانوا قوماً صالحين، بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا زيَّن لهم إبليس أن يصوروا صورهم؛ ليتذكروا بها اجتهادهم، وليتسلوا بالنظر إليها فصوّروهم، فلما ماتوا هم وجاء آخرون قالوا: ليت شعرنا، ما هذه الصورُ التي كان يعبدها آباؤنا؟ فجاءهم الشيطان فقال: كان آباؤكم يعبدونها فترحمهم وتسقيهم المطر، فعبدوها فابتدىء عبادة الأوثان من ذلك الوقت[٢].

وبهذا المعنى فسر ما جاء في الصحيحين من حديث عائشةَ: أنّ أم حبيبةَ وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بأرض الحبشة، تسمى مارية فيها تصاوير لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ أولئِكَ كَانَ إذَا مَاتَ فيهِم الرَّجلُ الصَّالحُ، بَنَوا على قَبْرهِ مَسْجداً، ثُمَّ صوَّرُوا فِيْهِ تِلكَ الصُّورَ أولئك شِرارُ الخَلقِ عند اللَّهِ يَوْمَ القِيَامةِ»[٣].

وذكر الثعلبيُّ عن ابن عباس قال: هذه الأصنام أسماء رجال صالحين، من قوم نوح فلمَّا هلكوا أوحى الشيطانُ إلى قومهم أن ينصبوا في مجالسهم أنصاباً، ويسمونها بأسمائهم[٤].

وهذا بعيدٌ، لأن نوحاً ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو الآمرُ لهم بتركها وذلك يدل على أنَّهم كانوا قبل نوحٍ، حتى أرسلَ نوحٌ إليهم.

وروي عن ابن عباس: أنَّ نوحاً ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يحرس جسد آدمَ ـ عليه الصلاة والسلام ـ على جبل الهند فيمنع الكافرينَ أن يطوفوا بقبره، فقال لهم الشيطانُ: إن هؤلاء، يفخرون عليكم ويزعمون أنهم بنو آدم دونكم، وإنما هو جسد،

---

(١) ينظر المصدر السابق وأخرجه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٦/ ٤٢٧).

(٢) ينظر المصدر السابق وأخرجه أبو الشيخ في «العظمة» كما في «الدر المنثور» (٦/ ٤٢٧).

(٣) تقدم. (٤) تقدم تخريجه.

وأنا أصوّر لكم مثله تطوفون به، فصوَّر لهم هذه الأصنام الخمسة، وحملهم على عبادتها، فلمَّا كان أيام الطوفانِ دفنها الطين، والتراب، والماء، فلم تزل مدفونة، حتى أخرجها الشيطانُ لمشركي العرب وكانت للعربِ أصنام أخر، فاللات كانت لقديد، وأساف ونائلة وهبل، لأهل مكة(١).

قال الماورديُّ: فأما «ود» فهو أول صنم معبود سمي «ودًّا» لودهم له، وكان بعد قوم نوح لكلب بدومةِ الجندلِ، على قول ابن عباس وعطاء ومقاتل؛ وفيه يقول شاعرهم: [البسيط]

٤٨٨٨ ـ حَيَّاكَ وُدٌّ فإنَّا لا يحلُّ لَنَا لَهْوُ النِّساءِ وإنَّ الدِّينَ قَدْ عَزَمَا(٢)

وأما «سُواع» فكان لهذيل بساحل البحر في قولهم.

وقال ابن الخطيب(٣): «وسُواع لهمدَان».

وأما «يَغُوثُ» فكان لقطيف من مراد بالجوف من سبأ، في قول قتادة.

وقال المهدويُّ: لمراد ثم لغطفان.

وقال الثعلبيُّ: واتخذت ـ أعلى وأنعم ـ وهما من طيىء، وأهل جرش من مذحج يغوث، فذهبوا به إلى مراد، فعبدوه زماناً، ثُمَّ بَنِي ناجية، أرادوا نزعه من «أنعم» ففروا به إلى الحصين أخي بني الحارث بن كعب بن خزاعة.

وقال أبو عثمان المهدويُّ: رأيت «يغُوث» وكان من رصاص، وكانوا يحملونه على جمل أجرد، ويسيرون معه ولا يهيجونه، حتى يبرك بنفسه، فإذا برك نزلوا، وقالوا: قد رضي لكم المنزل فيه فيضربون عليه بناء، وينزلون حوله.

وأما «يعوق» فكان لهمدان ببلخ، في قول عكرمة وقتادة وعطاء، ذكره الماورديُّ.

وقال الثعلبيُّ: وأما «يعوق» فكان لكهلان من سبأ، ثم توارثه بنوه الأكبر فالأكبر، حتى صار في الهمداني.

وفيه يقول غط الهمداني: [الوافر]

٤٨٨٩ ـ يَرِيشُ اللَّهُ في الدُّنيَا ويَبْرِي ولا يَبْرِي يعُوقُ ولا يَرِيشُ(٤)

وقيل: كان «يَعُوق» لمراد؛ وأما «نَسْر»، فكان لذي الكلاع من حمير، في قول قتادة ومقاتل.

وقال الواقدي: كان «ودّ» على صورة رجلٍ، و «سُواع» على صورة امرأة،

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١٩٩) عن ابن عباس.
(٢) تقدم. (٣) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١٢٨.
(٤) ينظر القرطبي ١٨/ ٢٠٠، والبحر ٨/ ٣٣٥.

و «يَغُوث» على صورة أسد، و «يعوق» على سورة فرس، و «نَسْر» على سورة نسر من الطير، والله أعلم.

قوله: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾، أي: الرؤساء فهو عطف على قوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾، أو الأصنام، وجمعهم جمع العقلاءِ، معاملة لهم معاملة العقلاء لقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

قوله: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾. عطف على قوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ [على حكاية كلام نوح بعد «قال» وبعد الواو النائبة عنه، أي قال: إنهم عصوني]، وقال: «لا تَزِد»، أي: قال هذين القولين، فهما في محل نصب، قاله الزمخشريُّ. قال: «كقولك: قال زيد نودي للصلاة، وصلِّ في المسجد يحكي قوليه، معطوفاً أحدهما على صاحبه».

وقال أبو حيَّان[1]: «ولا تَزِد» معطوف على «قَدْ أضلُّوا» لأنها محكية بـ «قَالَ» مضمرة، ولا يشترط التناسب في الجمل المتعاطفة، بل تعطف خبراً على طلب، وبالعكس خلافاً لمن اشترط ذلك.

فصل في معنى «إلا ضلالاً»

معنى قوله: ﴿إِلَّا ضَلَالًا﴾.

قال ابن بحر: أي: إلا عذاباً، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧].

وقيل: إلاَّ خسراناً.

وقيل: إلاَّ فتنة بالمال.

قوله: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ﴾. «مَا» مزيدة بين الجار والمجرور للتوكيد، ومن لم ير زيادتها جعلها نكرة، وجعل «خَطِيئَاتهم» بدلاً وفيه تعسف.

وتقدم الخلاف في قراءة «خَطِيئاتِهِم» في «الأعراف».

وقرأ أبو رجاء[2]: «خطيّاتهم» جمع سلامة إلاَّ أنه أدغم الياء في الياء المنقلبة عن الهمزة.

وقال أبو عمرو: قوم كفروا ألف سنةٍ فلم يكن لهم إلاَّ خطيَّات، يريد أنَّ الخطايا أكثر من الخطيَّات.

وقال قوم: خطايا وخطيات، جمعان مستعملان في القلة، والكثرة، واستدلوا بقول الله تعالى: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٤٢.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٦٦، والدر المصون ٦/ ٣٨٦.

وقال الشاعر: [الطويل]

٤٨٩٠ ـ لَنَا الجَفنَاتُ الغُرّ يَلْمَعْنَ بالضُّحى   وأسْيَافُنَا يَقْطُرنَ مِنْ نَجْدةٍ دَمَا[(١)]

وقرأ الجحدريُّ[(٢)] **وتروى عن أبيّ** «خطيئتهم» بالإفراد، والهمز.

وقرأ عبد الله[(٣)] «مِنْ خَطيئاتِهم مَا أغْرِقُوا»، فجعل «ما» المزيدة بين الفعلِ وما يتعلق به.

و «من» للسببية تتعلق بـ «أغْرقُوا».

وقال ابنُ عطية: لابتداء الغايةِ، وليس بواضح.

وقرأ العامةُ: «أغرقوا» من «أغرق».

وزيد بن علي[(٤)]: «غُرِّقُوا» بالتشديد.

وكلاهما للنقل، تقول: «أغرقت زيداً في الماء، وغرَّقته به».

فصل في صحة «عذاب القبر»

قال ابن الخطيب[(٥)]: دل قوله: ﴿أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارًا﴾، على إثبات عذاب القبر لأنه يدل على أنه حصلت تلك الحالة عقيب الإغراق، ولا يمكن حمل الآية على عذاب الآخرة وإلاَّ بطلت دلالة هذه الفاء، وأيضاً فقوله «فأدْخِلُوا» يدل على الإخبار عن الماضي، وهذا إنَّما يصدق لو وقع ذلك، وقال مقاتل، والكلبيُّ: معناه أنهم سيدخلون في الآخرة ناراً، ثم عبر عن المستقبل بلفظ الماضي؛ لصدق وقوع وعده كقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤].

قال ابن الخطيب[(٦)]: وهذا تركٌ للظاهر، من غير دليل، فإن قيل: إنما تركنا الظاهر لدليل، وهو أن من مات في الماء، فإنا نشاهده هناك، فكيف يمكن أن يقال: إنهم في تلك الساعة أدخلوا ناراً؟ فالجواب: إن هذا الإشكال، إنَّما جاء لاعتقاد أنَّ الإنسان هو مجموعُ هذا الهيكل، وهذا خطأ لأن الإنسان هو الذي كان موجوداً من أول عمره، مع أنّه كان صغير الجثَّة في أول عمره، ثم إن أجزاءه دائماً في التحلل والذوبان، ومعلوم أن الباقي غير المتبدل[(٧)]، فهذا الإنسانُ عبارة عن ذلك الشيء الذي هو باقٍ، من أول عمره إلى الآن، فلمَ لا يجوز أن يقال: نقل الأجزاء الباقية الأصلية التي في الإنسان عبارة عنها إلى النار وإلى العذاب.

---

(١) تقدم.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٦، والبحر المحيط ٨/ ٣٣٦، والدر المصون ٦/ ٣٨٦.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٣٧، والدر المصون ٦/ ٣٨٦.

(٤) ينظر: السابق.

(٥) الفخر الرازي ٣٠/ ١٢٩.

(٦) ينظر الرازي ٣٠/ ١٢٩.

(٧) في أ: ما يذهب.

ونقل القرطبيُّ[(١)] عن القشيري أنه قال: هذه الآية تدل على عذاب القبرِ، ومنكروه يقولون: صاروا مستحقين دخول النار، أو عرض عليهم أماكنهم من النار، كقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

وقيل: أشار إلى ما في الخبر من قوله: «البحرُ نارٌ في نارٍ».

وروى أبو روق عن الضحاك في قوله تعالى: ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾، قال: يعني عذبوا بالنار في الدنيا في حالة واحدة، كانوا يغرقون في جانب ويحترقون في الماء من جانب[(٢)]. ذكره الثعلبي.

وأنشد ابن الأنباري: [البسيط]

٤٨٩١ ـ الخَلْقُ مُجتمِعٌ طَوْراً ومُفتَرِقٌ ... والحَادثَاتُ فُنونٌ ذاتُ أطْوَارِ

لا تَعْجَبنَّ لأضْدادٍ قَد اجْتمَعَتْ ... فاللَّهُ يَجْمَعُ بينَ المَاءِ والنَّارِ[(٣)]

قال المعربون: «فأدخلُوا» يجوز أن يكون من التعبير عن المستقبل بالماضي، لتحقق وقوعه كقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]، وأن يكون على بابه، والمراد عرضهم على النَّار في قبورهم كقوله في آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦].

قوله: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾، أي: من يدفع عنهم العذاب، وهذا يدل على أنهم إنما عبدوا تلك الأصنام لتدفع عنهم الآفاتِ، وتجلب المنافع إليهم فلما جاءهم العذاب لم ينتفعوا بتلك الأصنام، ولم يدفعوا عنهم العذاب وهو كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء: ٤٣].

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾.

قال الزمخشريُّ: «ديَّاراً» من الأسماء المستعملة في النفي العام، يقال: ما بالدار ديار وديور، كقيَّام وقيُّوم، وهو «فَيْعَال» من الدارة أصله: «ديْوَار» ففعل به ما فعل بأصل «سيِّد وميِّت» ولو كان «فعَّالاً» لكان «دوَّاراً» انتهى.

يعني أنه كان ينبغي أن تصح واوهُ ولا تقلب ياء، وهذا نظير ما تقدم له من البحث في «مُتَحيِّز» وأن أصله: «مُتَحيْوز» لا «مُتَفعِّل» إذ كان يلزم أن يكون «متحوِّزاً» لأنه من «الحَوْز». ويقال فيه أيضاً: «دوَّار» نحو «قيَّام وقوَّام».

وقال مكيٌّ: وأصله «ديْوَار» ثم أدغموا الواو في الياء مثل «ميِّت» أصله «ميْوِت» ثم أدغموا الثاني في الأول، ويجوز أن يكون أبدلوا من الواو ياء، ثم أدغموا الياء الأولى في الثانية.

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٢٠١.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٢٠١). (٣) ينظر القرطبي ١٨/ ٢٠١.

قال شهاب الدين[١]: قوله أدغموا الثاني في الأول، هذا لا يجوز؛ إذ القاعدة المستقرة في المتقاربين قلب الأول لا الثاني، ولا يجوز العكسُ إلا شذوذاً أو لضرورة صناعية، أما الشذوذ فكقوله: «وادَّكَرَ» [يوسف: ٤٥] بالذال المعجمة، و «فهل من مُذَّكر» [القمر: ١٥] بالذال المعجمة أيضاً وأما الضرورة الصناعية فنحو: امدح هذا، لا تقلب الهاء حاء، لئلا يدغم الأقوى في الأضعف وهذا يعرفه من عانى التصريف، والديار: نازل الدار، يقال: ما بالدار ديار، وقيل: الديار صاحب الدار.

وقال البغويُّ: «الدَّيارُ يعني أحداً يدور في الأرض، فيذهب ويجيء «فعَّال» من الدوران».

فصل في دعاء نوح على قومه

لما أيس نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أتباعهم إياه دعا عليهم.

قال قتادة: دعا عليهم بعد أن أوحى الله إليه ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، فأجاب الله دعوته وأغرق أمته، وهذا كقول النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ مُنزِلَ الكتابِ هَازِمِ الأحزابِ، اهْزِمهُم وزلْزِلهُمْ»[٢].

وقيل: سبب دعائه أنَّ رجلاً من قومه حمل ولداً صغيراً على كتفهِ فمرَّ بنوحٍ، فقال: احذر هذا فإنه يضلك، فقال: يا أبتِ، أنزلني فأنزله فرماه فشَجَّه، فحينئذ غضب ودعا عليهم.

وقال محمد بن كعب ومقاتل والربيع وعطية وابن زيد: إنَّما قال هذا، حين أخرج اللَّهُ كلَّ مؤمنٍ من أصلابهم وأرحام نسائهم، وأعقم أرحام أمهاتهم وأيبس أصلاب رجالهم قبل العذاب بأربعين سنة[٣]، وقيل: بسبعين سنة، فأخبر اللَّهُ نوحاً أنهم لا يؤمنون، ولا يلدون مؤمناً كما قال تعالى: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، فحينئذ دعا عليهم نوحٌ، فأجاب اللَّهُ دعاءَ فأهلكهم كلَّهم، ولم يكن فيهم صبي وقت العذابِ، لأن الله تعالى قال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ [الفرقان: ٣٧]. ولم يوجد التكذيب من الأطفال.

فصل في بيان أنه لا يدعى على كافر معين

قال ابن العربي: دعا نوح على الكافرين أجمعين ودعا النبي ﷺ على من تحزب على المؤمنين وألَّبَ عليهم، وكان هذا أصلاً في الدعاء على الكافرين في الجملة فأمَّا

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٨٧. (٢) تقدم.
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٢٠١).

كافر معين لم تعلم خاتمته فلا يدعى عليه؛ لأن مآله عندنا مجهول، وربما كان عند الله معلوم الخاتمة بالسعادة وإنما خص النبي ﷺ بالدعاء على عُتبةَ وشَيبَةَ وأصحابه لعلمه بمآلهم وما كشف له من الغطاء عن حالهم. والله أعلم.

قوله: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾.

العامة: على فتح الدال على أنه تثنية والد؛ يريد: أبويه.

واسم أبيه: لمك بن متوشلخ، واسم أمه: شمخى بنت أنوش، وكانا مؤمنين.

وحكى الماورديُّ: اسم أمه: منجل.

وقرأ الحسن بن علي[١] **ـ رضي الله عنهما ـ** ويحيى بن يعمر والنخعيُّ: ولولدي، تثنية ولد يعني: ابنيه ساماً وحاماً.

وقرأ ابن جبير[٢] **والجحدري**: «ولوالدِي» ـ بكسر الدال ـ يعني أباه.

فيجوز أن يكون أراد أباه الأقرب الذي ولده، وخصَّه بالذِّكر لأنه أشرف من الأم، وأن يريد جميع من ولده من لدن آدم إلى زمن من ولده.

قال الكلبيُّ: كان بينه وبين آدم عشرة آباء كلهم مؤمن.

وذكر القرطبي[٣] عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لم يكفر لنوح والد فيما بينه وبين آدم عليهما الصلاة والسلام[٤].

قوله ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنه: أي: مسجدي ومصلاي[٥]، «مُؤمِناً»، أي: مُصدِّقاً بالله، فـ «مُؤمِناً» حال، وكان إنما يدخل بيوت الأنبياء من آمن بهم، فجعل المسجد سبباً للدعاء بالمغفرة.

وقيل: المراد بقوله «بيتي»، أي: سفينتي.

وقال ابن عباس: أي: دخل في ديني[٦].

فإن قيل: فعلى هذا يصير قوله: «مُؤمِناً» مكرراً.

فالجواب[٧]: إنَّ من دخل في دينه ظاهراً قد يكون مُؤمناً، وقد لا يكون مؤمناً، فالمعنى: ولمن دخل دخولاً مع تصديق القلبِ.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٧، والبحر المحيط ٨/ ٣٣٧، والدر المصون ٦/ ٣٨٧.

(٢) ينظر السابق.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٢٠٢.

(٤) ينظر تفسير القرطبي (١٨/ ٢٠١).

(٥) ينظر المصدر السابق.

(٦) ينظر المصدر السابق.

(٧) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ١٣٠.

قوله: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، خصَّ نفسه أولاً بالذكر والدعاء، ثم المتصلين به لأنَّهم أولى، وأحق بدعائه، ثم عمَّ المؤمنين، والمؤمناتِ إلى يوم القيامة، قاله الضحاك[١].

وقال الكلبيُّ: من أمة محمدٍ ﷺ[٢].

وقيل: من قومه، والأول أظهر. ثم ختم الكلام مرةً أخرى بالدعاءِ على الكافرين [فقال: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾، أي: هلاكاً، ودماراً، والمراد بالظالمين: الكافرين][٣] فهي عامة في كل كافر ومشرك.

وقيل: أراد مشركي قومه، و «تَبَاراً» مفعول ثاني، والاستثناءُ مفرغ، والتبار: كل شيء أهلك فقد تبر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٣٩].

وقيل: التَّبارُ الخُسران.

قال المفسّرون: فاستجاب الله دعاءه فأهلكهم.

روى الثعلبيُّ عن أبيٍّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ سُورةَ نُوحٍ، كَانَ مِنَ المُؤمِنِيْنَ الَّذينَ تُدركُهمْ دَعْوَة نُوحٍ عليْهِ السَّلامُ»[٤].

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (١٨/ ٢٠١). (٢) ينظر المصدر السابق.
(٣) سقط من: أ.
(٤) عزاه الزيلعي في تخريج الكشاف ٤/ ٩٥ للثعلبي وابن مردويه والواحدي في الوسيط وقد تقدم تخريج هذا الحديث.

سورة الجن

مكّية، وهي ثمانٌ وعشرون آيةً ومائتان وخمسٌ وثمانون كلمة وثمانمائة وسبعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾
يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا
وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى
اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا
كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا
﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا
نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ
كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا
سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ
وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا
﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ
يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ
يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾

قوله: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ﴾، هذه قراءةُ العامة، أعني كونها من «أَوْحَى» رباعياً.

وقرأ العتكي عن أبي عمرو[1] **وابن أبي عبلة** وأبو إياس: «وَحَى» ثلاثياً.

وهما لغتان، يقال: وَحَى إليه كذا وأوحى إليه بمعنى واحد، فقلبت الواو همزة،

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٦٢٢، والبحر المحيط ٨/ ٣٣٩، والدر المصون ٦/ ٣٨٨.

ومنه قوله تعالى ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ [المرسلات: ١١]؛ وأنشد العجاج: [الرجز]

٤٨٩٢ ـ وحَىٰ لَـهَـا الـقَـرارَ فـاسْـتَـقَـرَّتِ[١]

وقرأ زيد[٢] **بن علي والكسائي** في رواية وابن أبي عبلة أيضاً: «أُحي» بهمزة مضمومة لا واو بعدها، وخرجت على أن الهمزة بدلٌ من الواو المضمومة، نحو «أعد» في «وَعَد» فهذا فرع قراءة «وَحَىٰ» ثلاثياً.

قال الزمخشريُّ: وهو من القلب المطلق جواباً في كل واو مضمومة، وقد أطلقه المازنيُّ في المكسورة أيضاً: كـ «إشاح، وإسادة»، و «إعاء أخيه» [يوسف: ٧٦].

قال أبو حيَّان[٣]: وليس كما ذكر بل في ذلك تفصيل، وذلك أن الواو المضمومة قد تكون أولاً، وحشواً، وآخراً، ولكل منها أحكام، وفي بعض ذلك خلاف، وتفصيل مذكور في كتب النحو. وتقدم الكلام في ذلك مشبعاً في أول الكتاب.

ثم قال أبو حيَّان بعدما تقدم عن المازنيِّ: وهذا تكثير وتبجح.

قوله: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾، هذا هو القائمُ مقام الفاعل لأنَّه هو المفعول الصريحُ، وعند الكوفيين والأخفش يجوز أن يكون القائمُ مقامه الجار، والمجرور، فيكون هذا باقياً على نصبه، والتقدير: أوحي إليَّ استماع نفرٍ «من الجن» صفة لـ «نَفَر».

فصل في تفسير الآية

قال ابن عباس وغيره: قل يا محمد لأمتَّك أوحِيَ إليَّ على لسانِ جبريل، أنَّه استمع نفرٌ من الجنِّ، والنَّفرُ: الجماعةُ ما بين الثلاثة إلى العشرة، واختلفوا، هل رآهم النبي ﷺ أم لا؟.

فظاهرُ القرآن يدل على أنَّه لم يرهم لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾، وقوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وفي صحيح مسلم، والترمذي عن ابن عباسٍ قال: انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشيطان، وبين خبر السماء، وأرسل عليهم الشهب فرجعت الشياطينُ إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟.

فقالوا: حِيْلَ بيننا وبين خبر السماءِ، وأرسلت علينا الشهب قالوا: ما ذلك إلا من شيء حدث، فاضربوا في مشارق الأرض ومغاربها، فمرَّ النفرُ الذين أخذوا نحو «تهامة» وهو وأصحابه بنخلة قاصدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه الفجر فلمَّا سمعوا

---

(١) ينظر: ديوانه (٥)، والمحتسب ٢/ ٣٣١، واللسان (وحى)، إعراب القرآن ٥/ ٤٥، مجمع البيان ١٠/ ٥٥٢.
(٢) ينظر المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٨، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٠، والدر المصون ٦/ ٣٨٨.
(٣) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٤٦.

القرآن قالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ فأنزل الله على نبيه المصطفى ﷺ ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ الآية[١].

قال القرطبيُّ[٢]: وفي هذا الحديث دليلٌ على أنه ﷺ لم يرَ الجنَّ ولكن حضروه وسمعوا قرآنه.

فإن قيل: الذين رموا بالشُّهب هم الشياطينُ والذين سمعوا القرآن هم الجنُّ، فما وجه الجمع؟ فالجواب من وجهين:

الأول: أنَّ الجن كانوا مع الشياطين، فلما رمي الشياطين أخذوا الجنَّ الذين كانوا منهم في تجسس الخبرِ.

الثاني: أن الذين رموا بالشهبِ كانوا من الجن، إلا أنهم قيل لهم: شياطين كما قيل: شياطين الإنس والجنِّ، فإنَّ الشيطان كل متمرد، وبعيد من طاعة الله تعالى.

قال ابن الخطيب[٣] رحمه الله: واختلف في أولئك الجنِّ الذين سمعوا القرآن من هم؟.

فروى عاصم عن ذر قال: قدم رهطُ زوبعة وأصحابه على النبي ﷺ ثم انصرفوا، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

وقيل: كانوا من الشيصبان وهم أكثر الجن عدداً وعامة جنود إبليس منهم.

وقيل: كانوا سبعة، ثلاثة من أرض «حرَّان» وأربعة من أرض «نَصِيبين»: قريةٌ من قرى اليمن غير التي بالعراق رواه أيضاً عنهم عاصم عن ذر.

وقيل: إنَّ الجنَّ الذين أتوه بمكةَ جنُّ نصيبين، والذين أتوه بنخلة جنُّ نينَوى.

وقال عكرمةُ: كانوا اثني عشر ألفاً من جزيرة الموصل[٤].

ومذهب ابن مسعود أنَّ النبي ﷺ أمر بالمسير إليهم ليقرأ القرآن عليهم ويدعوهم إلى الإسلام، روى ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «أمِرْتُ أن أتْلُوَ القُرآنَ على الجِنِّ فمَنْ

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٥٣٧) كتاب التفسير، باب: سورة قل أوحي حديث رقم (٤٩٢١) ومسلم (٤٤٩) والترمذي (٣٣٢٠) والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٤٩٩) والحاكم (٢/ ٥٠٣) وصححه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٢٩) وزاد نسبته إلى أحمد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي كلاهما في «الدلائل».

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٤.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١٣٥.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٥).

يَذهَبُ مَعِي؟ فَسَكَتُوا، ثُمَّ قَالَ النَّبيُّ ﷺ الثانية، ثُمَّ قال النبي ﷺ الثالثة، فقلتُ: أَنَا أَذهَبُ مَعكَ يا رسُولَ اللَّهِ، فانطلقَ، حتى أتى الحَجُونَ عند شعب ابن أبي دب خط عليَّ خطًّا فقال: لا تجاوزه، ثُمَّ مضى إلى الحَجُونِ فاتَّخَذُوا عليه أمْثَالَ الحجل كأنَّهُم رِجالُ الزُّطِّ، قال ابنُ الأثير في «النهاية»: «الزطّ: قومٌ من السودان والهنود» يقرعون في دُفُوفهِمْ، كما تَقرَعُ النِّسوةُ في دُفُوفِها، حتَّى غشاهُ، فغَابَ عنْ بَصرِي، فقُمْتُ، فأوْمَأ بيدِه إليَّ أن اجْلِسْ ثُمَّ تلا القرآن ﷺ فلم يزلْ صوتهُ يَرتفِعُ، ولصقوا في الأرضِ، حتَّى صِرْتُ لا أَرَاهُمْ»(١).

وفي رواية أخرى، قالوا لرسول الله ﷺ: مَنْ أَنْتَ؟.

قال ﷺ: أَنَا نَبِيٌّ، قالوا: فَمنْ يَشهَدُ لَكَ على ذَلِكَ؟.

فقال الحبيب المجتبى ﷺ: هذه الشَّجرةُ، تعالي يا شجرةُ فجَاءتْ تجرُّ عُروقهَا لها قعاقعُ، حتى انتصبتْ بين يديه ﷺ فقال لها ﷺ: على ماذا تشهدين فيَّ؟.

فقالت أَشْهَدُ أنَّك رسُولُ الله قال ﷺ لها: اذْهَبِي، فَرجعَتْ فذهبت مكانها كَمَا جاءتْ، حتى* صارتْ كما كانتْ(٢).

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: فلمَّا عاد إليَّ قال: أردت أن تأتيني، قلت: نعم يا رسول الله قال: مَا كَانَ ذلكَ لَكَ، قال: هؤلاءِ الجِنُّ أتوا يَسْتمعُونَ القُرآنَ ثُمَّ ولَّوا إلى قَومِهِم مُنْذرينَ، فَسألُونِي الزَّادَ، فزوَّدتهُم العَظْمَ والبَعْرَ، فلا يَسْتطِيبنَّ أحدكُمْ بعَظْمٍ، ولا بَعْرٍ(٣).

وفي رواية: أنَّه ﷺ لما فرغ وضع رأسهُ ﷺ على حِجْرِ ابن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ فرقد، ثُمَّ استيقظ ﷺ فقال: هَلْ مِنْ وُضُوءٍ؟.

قال: لا، إلاَّ أنَّ معي إداوة نبيذٍ، فقال ﷺ: هَلْ هُو إلاَّ تمرٌ وماء «فَتوضَّأ مِنْهُ»(٤).

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ٧٧) من حديث ابن مسعود.

(٢) حديث شهادة الشجرة بنبوته ﷺ. أخرجه أبو يعلى (١٠/ ٣٤) رقم (٥٦٦٢) وابن حبان (٢١١٠ ـ موارد) والبزار (٣/ ١٣٣ ـ ١٣٤ كشف) رقم (٢٤١١) والطبراني في «الكبير» (١٢/ ٤٣١ ـ ٤٣٢) رقم (١٣٥٨٢) من حديث ابن عمر.

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٩٥) وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ورواه أيضاً أبو يعلى والبزار.

وذكره ابن حجر في «المطالب العالية» (٤/ ١٦) وعزاه إلى أبي يعلى.

وفي الباب عن عمر بن الخطاب. أخرجه أبو يعلى (١/ ١٩١) رقم (٢١٥) وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ١٣) وقال: رواه البزار وأبو يعلى وإسناد أبي يعلى حسن.

(٣) تقدم.

(٤) أخرجه أبو داود (١/ ٦٩) كتاب الطهارة، باب: الوضوء بالنبيذ حديث (٨٤) والترمذي (١/ ١٤٧) أبواب الطهارة، باب: ما جاء في الوضوء بالنبيذ حديث (٨٨) وابن ماجه (١/ ١٣٥) كتاب الطهارة، =

قال ابن الخطيب[1]: وطريقُ الجمع بين المذهبين مذهب ابن عباس ومذهب ابن مسعود من وجوه:

أحدها: لعل ما ذكره ابن عباس وقع أولاً فأوحى الله تعالى إليه بهذه السورةِ، ثم أمر بالخروج إليهم بعد ذلك كما روى ابن مسعود رضي الله عنهما.

وثانيها: أن بتقدير أن تكون واقعة الجن مرة واحدة إلا أنه ﷺ ما رآهم، وما عرف أنَّهم ماذا قالوا، وأي شيءٍ فعلوا، فالله تعالى أوحى إليه أنه كان كذا وكذا، وقالوا كذا.

وثالثها: أن الواقعة كانت مرة واحدة، وهو ﷺ رآهم، وسمع كلامهم، وهم آمنوا به، ثم رجعوا إلى قومهم، قالوا لقومهم على سبيل الحكايةِ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾، وكان كذا وكذا فأوحى اللَّهُ تعالى إلى محمد ﷺ ما قالوه لأقوامهم.

قال ابن العربي: «ابن مسعود أعرفُ من ابن عباس، لأنه شاهده، وابن عباس سمعهُ، وليس الخبرُ كالمعاينة».

قال القرطبي[2]: وقيل: إن الجنَّ أتو النبي ﷺ دفعتين.

أحدهما: بمكة وهي التي ذكرها ابن مسعود.

والثانية: بنخلة وهي التي ذكرها ابن عباس.

قال البيهقيُّ: الذي حكاه عبد الله إنما هو في أول ما سمعت الجنُّ قراءة رسول الله ﷺ وعلمت بحاله، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم كما حكاه عبد الله بن عباس ثم أتاه داعي الجنِّ مرة أخرى فذهب معه وقرأ عليهم القرآن كما حكاه عبد الله بن مسعود.

فصل في لفظ «قل»

قال ابن الخطيب: اعلم أنَّ قوله تعالى: «قُلْ» أمر لرسول الله ﷺ أن يظهر لأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ ما أوحى إليه تعالى في واقعة الجنِّ، وفيه فوائد:

أحدها: أن يعرفوا بذلك أنه ﷺ بُعث إلى الجن، كما بعث إلى الإنس.

وثانيها: أن تعلم قريش أنَّ الجنَّ مع تمردهم لما سمعُوا القرآن عرفوا إعجازه فآمنوا بالرسول ﷺ.

= باب: الوضوء بالنبيذ حديث (٣٨٤) من طريق أبي فزارة عن ابن زيد عن ابن مسعود به.

قال الترمذي: وأبو زيد رجل مجهول عند أهل الحديث لا يعرف له رواية غير هذا الحديث وانظر بحث الزيلعي في نصب الراية (١/ ١٣٧) حول ضعف هذا الحديث.

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١٣٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٤ ـ ٥.

وثالثها: أن يعلم القومُ أنَّ الجنَّ مكلفون كالإنس.

ورابعها: أن تعلم أنَّ الجنَّ يستمعون كلاماً تفهمه من لغتنا.

وخامسها: أن يظهر المؤمنُ منهم بدعوى غيره من الجنِّ إلى الإيمان، وفي هذه الوجوه مصالحُ كثيرة إذا عرفها الناس.

فصل في بيان أصل الجن

اختلف العلماءُ في أصل الجنِّ، فروى الحسنُ البصريُّ أنَّ الجنَّ ولد إبليس، والإنس ولد آدمَ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ومن هؤلاء وهؤلاءِ مؤمنون وكافرون، وهم شركاء في الثَّواب والعقاب، فمن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرٌ فهو شيطانٌ، روى الضحاك عن ابن عباس أن: الجن هم ولد الجان، وليسوا شياطين ومنهم المؤمن ومنهم الكافر، والشياطين ولد إبليس، لا يموتون إلاَّ مع إبليس، وروي أن ذلك النفر كانوا يهوداً.

وذكر الحسن أنَّ منهم يهوداً ونصارى ومجوساً ومشركين.

فصل في دخول الجِنة الجَنة

اختلفوا في دخول الجنِّ الجنةِ على حسب الاختلاف في أصلهم، فمن زعم أنهم من الجانِّ لا من ذرية إبليس قال: يدخلون الجنَّة بإيمانهم، ومن قال: إنهم من ذرية إبليس فله فيهم قولان:

أحدهما: وهو قول الحسن: يدخلونها(١).

الثاني: وهو قولُ مجاهد: لا يدخلونها(٢).

فصل فيمن أنكر الجن

قال القرطبيُّ(٣): وقد أنكر جماعةٌ من كفرة الأطباءِ والفلاسفة: الجن، وقالوا: إنهم بسائط، ولا يصح طعامهم، اجتراء على الله والقرآن والسنة ترد عليهم، وليس في المخلوقات بسائط مركب من زوج، إنما الواحد سبحانه وتعالى، وغيره مركب، ليس بواحد كيفما تصرف حاله، وليس يمتنع أن يراهم النبي ﷺ في صورهم كما يرى الملائكة وأكثر ما يتصورون هنا في صور الحياتِ.

ففي الحديثِ: «أن رجلاً حديث عهدٍ بعرسٍ استأذن رسول الله ﷺ بأنصاف النَّهارِ أن يرجع إلى أهله» الحديث.

وفيه: «فإذا حية عظيمة مطوية على الفراش فأهوى إليها بالرمح فانتظمها» وذكر الحديث.

---

(١) ذكره الماوردي (٦/١٠٩) والقرطبي (١٩/٥).

(٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/٦.

وفي الحديث: أنَّه ﷺ قال: «إنَّ لهذه البيوتِ عوامر فإذا رأيتمْ منها شَيْئاً فحَرِّجُوا عليْها ثلاثاً، فإن ذهب وإلا فاقتلوه فإنه كافر»[1].

وقال: «اذهبوا فادفنوا صاحبكم».

وذهب قوم إلى أن ذلك مخصوص بالمدينة كقوله في الصحيح: «إنَّ بالمدينة جنّاً قد أسْلمُوا»، وهذا لفظ مختص بها فتختص بحكمها.

قال القرطبي: قلنا: هذا يدل على أنَّ غيرها من البيوت مثلها؛ لأنه لم يعلل بحرمة «المدينة»؛ فيكونُ ذلك الحكمُ مخصوصاً بها وإنَّما علل بالإسلام وذلك عام في غيرها، ألا ترى قوله في الحديث مخبراً عن الجنِّ الذين لقي وكانوا من جنِّ الجزيرة وعضد هذا قوله: «ونَهَى عَن عوامِرِ البيوتِ» وهذا عام وقد مضى في سورة البقرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾، أي: قالوا لقومهم حين رجعوا إليهم كقوله تعالى ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩] ﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، ووصف القرآن بـ «عَجَباً» إما على المبالغة، أي: خارجاً عن حد أشكاله إما في فصاحة كلامه، وإما في بلاغة مواعظه، أو عجباً من عظم بركته، أو عزيزاً لا يوجد مثله وإما على حذف مضاف أي ذا عجب، وإمَّا بمعنى اسم الفاعل، أي: معجب. قوله «يَهْدِي» صفة أخرى، أي: هادياً.

﴿إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾. قرأ العامةُ: «الرشد» بضمة وسكون، **وابن عمر**[2]: بضمها وعنه أيضاً: فتحهما. وتقدم هذا في الأعراف. والمعنى: يهدي إلى الصواب.

وقيل: إلى التوحيد.

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾، أي: بالقرآن، أي: فاهتدينا به، وصدقنا أنه من عند الله، ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾، أي: لا نرجع إلى إبليس، ولا نطيعه، ولا نعود إلى ما كنا عنيه من الإشراك، وهذا يدل على أنَّ أولئك الجنِّ كانوا مشركين.

قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ﴾. قرأ الأخوان وابن عامر وحفص: بفتح «أنَّ»، وما عطف عليها بالواو في اثنتي عشرة كلمة، والباقون[3]: بالكسر.

وقرأ أبو بكر[4] **وابن عامرٍ**: «وإنَّهُ لمَّا قَامَ عبد الله يدعوه» بالكسر، والباقون: بالفتح.

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٧٥٦ ـ ١٧٥٧) كتاب السلام، باب: قتل الحيات وغيرها حديث (١٤٠/ ٢٢٣٦) من حديث أبي سعيد.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٩، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٠، والدر المصون ٦/ ٣٨٩.

(٣) ينظر: السبعة ٦٥٦، والحجة ٦/ ٣٣٠، وإعراب القراءات ٢/ ٤٠٠، وحجة القراءات ٧٢٧.

(٤) ينظر السابق.

واتفقوا على الفتح في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾.

وتلخيص هذا أن «أنَّ» المشددة في هذه السورة على ثلاثة أقسام:

قسم: ليس معه واو العطف، فهذا لا خلاف بين القراء في فتحه أو كسره على حسب ما جاءت به التلاوة واقتضته العربية، كقوله ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، لا خلاف في فتحه لوقوعه موقع المصدر، وكقوله ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾، لا خلاف في كسره لأنه محكي بالقول.

القسم الثاني: أن يقترن بالواو، وهو أربع عشرة كلمة، إحداها: لا خلاف في فتحها وهو قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ وهذا هو القسمُ الثاني.

والثالث: «وأنه لما قام» يكسرها ابن عامر وأبو بكر، وفتحها الباقون. كما تقدم تحرير ذلك كله.

والاثنتا عشرة: وهي قوله ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ﴾ [الجن: ٣] ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ﴾ [الجن: ٤]، ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ [الجن: ٥]، ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ﴾ [الجن: ٦]، ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟﴾ [الجن: ٧]، ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا﴾ [الجن: ٨]، ﴿وَأَنَّا كُنَّا﴾ [الجن: ٩]، ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ﴾ [الجن: ١٠]، ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الجن: ١١]، ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ [الجن: ١٢]، ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا﴾ [الجن: ١٣]، ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ [الجن: ١٤].

فهذا ضبطها من حيثُ القراءات، وأما توجيه ذلك فاختلف الناسُ فيه.

فقال أبو حاتم في الفتح: هو معطوف على مرفوع «أوحِيَ»، فتكون كلها في موضع رفع لما لم يسم فاعله.

ورد ذلك من حيث أنَّ أكثرها لا يصح دخولها تحت معمول «أوحِيَ»، ألا ترى أنه لو قيل «أوحي إلينا أنا لمسنا السماء، وأنا كنا، وأنا لا ندري وأنا منا الصالحون، وأنا لما سمعنا الهدى، وأنا منا المسلمون» لم يستقم معناه.

وقال مكيٌّ: وعطف «أن» على «آمنَّا بِهِ» أتم في المعنى من العطف على «أنَّهُ اسْتَمَعَ» لأنَّك لو عطفت «وأنا ظننا، وأنا لما سمعنا، وأنه كان رجال من الإنس، وأنا لمسنا» وشبه ذلك على «أنَّهُ اسْتَمَعَ» لم يجز؛ لأنه ليس مما أوحي إليه إنَّما هو أمر أخبروا به عن أنفسهم، والكسر في هذا أبينُ وعليه جماعة من القُرَّاءِ.

الثاني: أن الفتح في ذلك عطف على محل «بِهِ» من «آمنَّا بِهِ».

قال الزمخشريُّ: «كأنه قال: صدقناه وصدقنا أنه تعالى جد ربنا، وأنه يقول سفيهنا، وكذلك البواقي».

إلا أن مكياً ضعف هذا الوجه فقال: «والفتح في ذلك على الجمل على معنى:

«آمنَّا بِهِ»، فيه بعدٌ في المعنى؛ لأنهم لم يخبروا أنهم آمنوا، بأنهم لما سمعوا الهدى آمنوا به، ولم يخبروا أنَّهم آمنوا أنه كان رجال، إنما حكى الله عنهم أنهم قالوا ذلك مخبرين به عن أنفسهم لأصحابهم، فالكسر أولى بذلك».

وهذا الذي قاله غير لازم، فإن المعنى على ذلك صحيح، وقد سبق الزمخشري إلى هذا التخريج الفرَّاء والزجاج، إلا أن الفراء استشعر إشكالاً وانفصل عنه، فإنه قال: فتحت «أن» لوقوع الإيمان عليها، وأنت تجد الإيمان يحسن في بعض ما فتح دون بعض فلا يمنع من إمضائهن على الفتح، فإنه يحسن فيه ما يوجب فتح «أن» نحو: صدقنا، وشهدنا، كما قالت العرب: [الوافر]

٤٨٩٣ ـ وزَجَّجْنَ الحَواجِبَ والعُيُونَا[1]

فنصب «العيونَ» لإتباعها «الحواجب»، وهي لا تزجج إنما تكحل، فأضمر لها الكحل. انتهى فأشار إلى شيء مما ذكره وأجاب عنه.

وقال الزجاج: «لكن وجهه أن يكون محمولاً على «آمنَّا بِهِ» وصدقناه وعلمناه، فيكون المعنى: صدقنا أنه تعالى جد ربِّنا ما اتخذ صاحبة».

الثالث: أنه معطوف على الهاء في «بِهِ»، أي: آمنا به وبأنه تعالى جد ربنا، وبأنه كان يقول ـ إلى آخره ـ وهو مذهب الكوفيين.

وهو، وإن كان قوياً من حيثُ المعنى، إلا أنه ممنوع من حيث الصناعة لأنه لا يعطف على الضمير المجرور، إلا بإعادة الجار.

وتقدم تحرير هذين القولين في سورة «البقرة» عند قوله: ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

على أن مكياً قد قوى هذا المدرك، وهو حسن جداً، فقال: هو يعني العطف على الضمير المجرور دون إعادة الجار في «أن» أجود منه في غيرها لكثرة حذف حرف الجر «إلى» مع «أن».

ووجه الكسر: العطف على «إن» في قوله: «إنَّا سَمِعْنَا» فيكون الجميع معمولاً للقول فقالوا: «إنَّا سَمِعْنَا»، وقالوا: «إنَّه تعَالى جَدُّ ربِّنَا» إلى آخرها.

وقال بعضهم: الجملتان من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾، ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟﴾ معترضتان بين قول الجن، وهما من كلام الباري تعالى.

والظاهر أنه من كلامهم قاله بعضهم لبعض.

---

(١) تقدم.

ووجه الكسرِ والفتح في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ ما تقدم.

ووجه إجماعهم على فتح ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ وجهان:

أحدهما: أنه معطوف على «أنَّه اسْتَمَعَ» فيكون موحى أيضاً.

والثاني: أنه على حذف حرف الجر، وذلك الحرف متعلق بفعل النهي، أي: فلا تدعوا مع الله أحداً، لأن المساجد لله. ذكرهما أبو البقاء.

وقال الزمخشريُّ: «أنَّهُ اسْتَمَع» ـ بالفتح ـ لأنه فاعل «أوْحِيَ»، و «إنَّا سَمِعْنَا»، بالكسر لأنه مبتدأ، محكي بعد القول، ثُمَّ يحمل عليهما البواقي، فما كان من الوحي فتح، وما كان من قول الجنِّ كسر، وكلهم من قولهم الثنتين الأخريين وهما: «وأن المساجد، وأنه لما قام عبد الله يدعوه»، ومن فتح كلهن، فعطفاً على محلّ الجار والمجرور في «آمنَّا بِهِ»، أي: صدقناه وصدقنا به.

والهاء في «أنَّهُ اسْتَمَعَ نفرٌ»، وأنه تعالى وما بعد ذلك ضمير الأمر والشأن، وما بعده خبر «أن».

قوله: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾. قرأ العامة: ﴿جَدّ رَبِّنَا﴾ بالفتح لـ «رَبِّنَا».

والمراد به هنا العظمة.

وقيل: قدرته وأمره.

وقيل: ذكره.

والجدُّ أيضاً: الحظُّ، ومنه قوله ﷺ: «وَلاَ ينفعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ» والجدُّ أيضاً: أبو الأب، والجِدُّ أيضاً ـ بالكسر ـ ضد التواني في الأمر.

وقرأ عكرمة[1]: بضم ياء «ربُّنا» وتنوين «جدٌّ» على أن يكون «ربنا» بدلاً من «جد».

والجد: العظيمُ. كأنه قيل: وأنه تعالى عظم ربنا، فأبدل المعرفة من النكرة.

وعنه أيضاً[2]: «جداً» على التمييز و «ربنا» فاعل بـ «تعالى» وهو منقول من الفاعلية؛ إذ التقدير: «جد ربنا» ثم صار تعالى ربنا جداً أي عظمة نحو تصبب زيد عرقاً أي عرق زيد، وعنه أيضاً وعن قتادة كذلك إلا أنه بكسر الجيم، وفيه وجهان:

أحدهما: أنه نعت لمصدر محذوف، وربنا فاعل بـ «تعالى»، والتقدير: تعالى ربُّنا تعالياً جداً، أي: حقاً لا باطلاً.

والجِدُّ: ـ بكسر الجيم ـ ضد الهزل.

---

(١) ينظر المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٩، والبحر المحيط ٨/ ٣٤١، والدر المصون ٦/ ٣٩٠.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٤١، والدر المصون ٦/ ٣٩٠.

والثاني: أنه منصوب على الحال، أي: تعالى ربنا حقيقة وتمكناً، قاله ابن عطية.

وقرأ حميد(١) **بن قيس**: «جُدُّ ربِّنا» ـ بضم الجيم ـ مضافاً لـ «ربِّنا»، وهو بمعنى العظيم حكاه سيبويه.

وهو في الأصل من إضافة الصفة لموصوفها، إذ الأصل: ربنا العظيم، نحو: «جرد قطيفة» الأصل: قطيفةُ جرد، وهو مؤولٌ عند البصريين.

وقرأ ابنُ السميقع(٢): «جدا ربنا» بألف بعد الدال مضافاً لـ «ربِّنا».

والجَدَا والجدوى: النفع والعطاء، أي: تعالى عطاء ربِّنا ونفعه.

فصل في معنى «الجد»

قال القرطبيُّ(٣): الجد في اللغة: العظمةُ والجلالُ، ومنه قول أنس ـ رضي الله عنه ـ: «كان الرجل إذا حفظ البقرة وآل عمران جد في عيوننا» أي: عظم وجل فمعنى «جَدُّ ربِّنَا» أي: عظمته وجلاله، قاله عكرمة ومجاهد وقتادة(٤)، وعن مجاهد أيضاً: ذكره(٥).

وقال أنس بن مالك والحسن وعكرمةُ أيضاً: غناه(٦).

ومنه قيل للحظ جد ورجل مجدود: أي: محظوظ، وفي الحديث: «وَلا يَنْفَعُ ذَا الجدِّ منْكَ الجَدُّ»، قال أبو عبيد والخليل: أي ذا الغنى منك الغنى، إنما تنفعه الطاعة.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: قدرته(٧) وقال الضحاك: فعله(٨).

وقال القرظي والضحاك: آلاؤهُ ونعماؤه على خلقه(٩).

وقال أبو عبيد والأخفش: ملكه وسلطانه.

وقال السدي: أمره(١٠).

وقال سعيد بن جبير: ﴿وَأَنَّهُ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾، أي: تعالى ربنا.

---

(١) ينظر السابق.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٤١، والقرطبي ١٩/ ٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٧.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره (١٢/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠) عن مجاهد وعكرمة وقتادة.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٣٠) عن عكرمة وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٣٠) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٦٠) عن الحسن وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٣٠) وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٧) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٣٠) وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٨) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١١٠).

(٩) ينظر المصدر السابق وتفسير القرطبي (١٩/ ٧).

(١٠) ينظر المصدر السابق.

وقيل: إنهم عنوا بذلك الجد الذي هو أبو الأب، ويكون هذا من الجنِّ.

وقال محمد بن علي بن الحسين وابنه جعفر الصادق والربيع: ليس لله تعالى جد وإنما قالته العرب للجهالة فلا يوحدونه[١].

قال القشيريُّ: ويجوز إطلاق لفظ الجدِّ في حق الله تعالى إذ لو لم يجز لما ذكر في القرآن، غير أنه لفظ موهم، فتجنُّبه أولى.

قال القرطبيُّ[٢]: «ومعنى الآية: وأنه تعالى جدُّ ربِّنا أن يتخذ ولداً أو صاحبة للاستئناس بهما، أو الحاجة إليهما، والربُّ يتعالى عن ذلك كما يتعالى عن الأنداد والنظراء».

وقوله عز وجل: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾، مستأنف، فيه تقرير لتعالي جده.

قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾.

الهاء في «أنه» للأمر أو الحديث، و «سَفِيهُنَا» يجوز أن يكون اسم «كَانَ» و «يقُولُ» الخبر، ولو كان مثل هذه الجملة غير واقعة خبراً لـ «كَانَ» لامتنع تقديمُ الخبرِ حينئذ، نحو «سَفِيهُنَا يقُولُ»، لو قلت: «يَقُولُ سَفيهُنَا» على التقديم والتأخير، لم يجز فيه والفرق أنه في غير باب «كَانَ» يلتبس بالفعل والفاعل، وفي باب «كَانَ» يؤمن ذلك.

ويجوز أن يكون «سَفِيهُنَا» فاعل «يقُولُ» والجملة خبر «كَانَ» واسمها ضمير الأمر مستتر فيها، وقد تقدم هذا في قوله: ﴿مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ﴾ [الأعراف: ١٣٧] وقوله تعالى: ﴿شَطَطًا﴾ تقدم في سورة الكهف[٣] مثله.

قال القرطبيُّ[٤]: «ويجوز أن يكون «كان» زائدة، والسفيه: هو إبليس، في قول مجاهد وابن جريج وقتادة. ورواه أبو بردة عن أبي موسى عن أبيه عن النبي ﷺ[٥] وقيل: المشركون من الجنِّ.

قال قتادةُ: عصاه سفيه الجن كما عصاه سفيه الإنس[٦] والشططُ والإشطاط: الغلو في الكفر.

---

(١) ينظر المصدر السابق.

(٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٩/٧.

(٣) آية رقم ١٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٩/٨).

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٦٢) عن قتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٣٠) عن مجاهد وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

أما حديث أبي موسى فقد ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٣٠) وقال: أخرجه الديلمي وابن مردويه بسند واه.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٦٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٣٠) وعزاه إلى عبد بن حميد.

قال أبو مالك: هو الجور وقال الكلبي: هو الكذب وأصله البعد ويعبر به عن الجور لبعده عن العدل وعن الكذب لبعده عن الصدق(١)؛ قال الشاعر: [الطويل]

٤٨٩٤ ـ بأيَّةِ حالٍ حَكَّمُوا فِيكَ فاشتَطُّوا وما ذَاكَ إلاَّ حَيثُ يَمَّمَكَ الوَخْطُ(٢)

قوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ أي: حسبنا ﴿أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

«أنْ» مخففة، واسمها مضمر والجملة المنفية خبرها، والفاعل بينهما هنا حرف النفي، و «كذباً» مفعول به، أو نعت مصدر محذوف، أي: قولاً كذباً.

وقرأ الحسن(٣) والجحدري وأبو عبد الرحمن ويعقوب: «تقَوَّل» ـ بفتح القاف والواو المشددة ـ وهو مضارع «تقوَّل» أي: كذب، والأصل: تتقوَّل، فحذف إحدى التاءين، نحو «تذكرون». وانتصب «كَذِباً» في هذه القراءة على المصدر؛ لأن التقول كذب، فهو نحو قولهم: «قَعدْتُ جُلُوساً».

ومعنى الآية: وأنَّا حسبنا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً، فلذلك صدقناهم في أن لله صاحبة وولداً حتى سمعنا القرآن وتبينا به الحق.

وقيل: انقطع الإخبار عن الجنّ ـ هاهنا ـ فقال الله تعالى جل ذكره لا إله إلا هو ـ:

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ فمن فتح، وجعله من قول الجنّ ردَّها إلى قوله: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾، ومن كسرها جعلها من قول الله تعالى.

والمراد به ما كانوا يفعلونه، من قول الرجل إذا نزل بواد: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه، فيبيت في جواره حتى يصبح، قاله الحسن وابن(٤) زيد وغيرهما.

وقيل: كانوا في الجاهلية إذ أقحطوا، بعثُوا رائدهم، فإذا وجد مكاناً فيه كلأ وماءً رجع إلى أهله فسار بهم حتى إذا انتهوا إلى تلك الأرض نادوا نعوذُ بك بربِّ هذا الوادي أن تصيبنا فيه آفةٌ، يعنون من الجن، فإن لم يفزعهم أحد نزلوا، وإن أفزعهم الجن رجعوا.

قال مقاتل: أول من تعوذ بالجنِّ قومٌ من أهل اليمن، ثم من بني حنيفة، ثم فشا ذلك في العرب، فلَّما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم(٥).

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٨). (٢) ينظر القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٨).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٠، والبحر المحيط ٨/ ٣٤١، والدر المصون ٦/ ٣٩١.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٣) عن الحسن ومجاهد وابن زيد.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٣٢) عن الحسن وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر كما ذكره عن مجاهد وعزاه أيضاً إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» ١٩/ ٨).

وقال كردم بن أبي السائب: خرجت مع أبي إلى المدينة أول ما ذكر النبي ﷺ فآواني المبيت إلى راعي غنم، فلما انتصف الليل جاء الذئب، فحمل حملاً من الغنم، فقال الراعي: يا عامر الواديِّ جارك الله، فنادى منادٍ: يا سرحان أرسله، فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم لم تصبه كدمةٌ، فأنزل الله تعالى على رسوله السيد الكامل المكمل سيدنا محمد ﷺ بمكة: «وأَنَّهُ كَانَ رِجالٌ من الإِنْسِ يعُوذُونَ بِرجالٍ من الجنِّ فَزادُوهُم رَهقاً»، أي: زاد الجنُّ الإنس رهقاً، أي: خطيئة، وإنما قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة رضي الله عنهم[1].

والرَّهقُ: الإثم في كلام العرب وغشيان المحارم، ورجل رهق إذا كان كذلك، ومنه قوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٧]؛ وقال الأعشى: [البسيط]

٤٨٩٥ ـ لا شَيْءَ يَنْفعُنِي من دُونِ رُؤْيتها هَلْ يَشتفِي عَاشقٌ ما لم يُصِبْ رَهَقَا[2]

يعني إثماً، ورجل مرهق، أي: يغشاه السائلون.

قال الواحديُّ: الرَّهَقُ: غشيان الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾.

وأضيفت الزيادةُ إلى الجن إذ كانوا سبباً لها.

وقال مجاهد أيضاً: «فزَادُوهُم» أي: أن الإنس زادوا الجنَّ طغياناً بهذا التعوذ، حتى قالت الجنُّ: «سدنا الإنس والجن»[3].

وقال قتادة أيضاً، وأبو العالية والربيع وابن زيد: ازداد الإنس بهذا فرقاً وخوفاً من الجن[4].

وقال سعيد بن جبير: كفراً.

ولا يخفى أنَّ الاستعاذة بالجنِّ دون الاستعاذة بالله شركٌ وكفرٌ.

وقيل: لا يطلق لفظ الرجال على الجنِّ، فالمعنى: وأنه كان رجالٌ من الإنس يعوذون من شرِّ الجن برجال من الإنس وكان الرجل من الإنس يقول مثلاً: أعوذ بحذيفة بن بدر من جنِّ هذا الوادي.

قال القشيريُّ: وفي هذا تحكم إذ لا يبعد إطلاق لفظ الرِّجالِ على الجن.

وقوله: «مِنَ الإنس» صفة لـ «رِجَالٌ» وكذلك قوله «مِنَ الجِنِّ».

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٦٣) عن قتادة وابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٣٢) وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد.

(٢) ينظر القرطبي ١٩/ ٨، والبحر ٨/ ٣٤١، وروح المعاني ٢٩/ ١٠٦.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٣٢) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٦٤) عن الربيع بن أنس وابن زيد.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٣٣) عن الربيع بن أنس وعزاه إلى عبد بن حميد.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾.

الكلام في «أنْ لنْ» كالكلام في الأول، و «أن» وما في خبرها، سادةٌ مسدَّ مفعولي الظن والمسألة من باب الإعمال، لأن «ظنُّوا» يطلب مفعولين، و «ظَنَنْتُم» كذلك، وهو من إعمال الثاني للحذف من الأول.

والضمير في «أنَّهُم ظنُّوا» للإنس، وفي «ظَنَنْتُمْ»، للجن، ويجوز العكس.

فصل في الخطاب في الآية

هذا من قول الله تعالى للإنس، أي: وإن الجن ظنوا أن لن يبعث الله الخلق كما ظننتم.

قال الكلبيُّ: ظنت الجنُّ كما ظنت الإنس أن لن يبعث الله رسولاً من خلقه يقيم به الحجة عليهم وكل هذا توكيد للحجة على قريش، أي: إذا آمن هؤلاء الجن بمحمد ﷺ فأنتم أحق بذلك[١].

قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾. هذا من قول الجنّ، أي: طلبنا خبرها كما جرت عادتنا ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾، أي ملئت حفظاً يعني: الملائكة.

فاللَّمْسُ: المس، فاستعير للطلب، لأن الماس متقرب، يقال: لمسه والتمسه ونحوه الجس يقال: جسوه بأعينهم وتجسسوه.

والمعنى: طلبنا بلوغ السَّماء واستماع كلام أهلها.

قوله: ﴿فَوَجَدْنَٰهَا﴾، فيها وجهان:

أظهرهما: أنها متعدية لواحد؛ لأن معناها: أصبنا وصادفنا، وعلى هذا فالجملة من قوله «مُلِئَتْ» في موضع نصب على الحال على إضمار «قَدْ».

والثاني أنها متعدية لاثنين، فتكونُ الجملة في موضع المفعول الثاني.

و «حَرَساً» نصب على التميز نحو «امتلأ الإناء ماء».

والحَرَس: اسم جمع لـ «حَارِس» نحو «خَدَم» لـ «خَادِم» و «غيب» لغائب، ويجمع تكسيراً على «أحْراس»؛ كقول امرىء القيس: [الطويل]

٤٨٩٦ ـ تَجَاوَزْتُ أحْرَاساً وأهْوَال مَعْشَرٍ حِرَاصٍ عَلَيَّ لَو يُسِرُّونَ مَقْتَلِي[٢]

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٦٥) عن الكلبي.

وذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٩).

(٢) ينظر ديوانه ص(١٣)، وجمهرة اللغة ص٧٣٦، وخزانة الأدب ١١/ ٢٣٨، ٢٣٩، وشرح شواهد المغني ٢/ ٦٥١، ومغني اللبيب ١/ ٢٦٥، ووصف المباني ص٢٩٢، والدر المصون ٦/ ٣٩٢.

والحارس: الحافظُ الرقيبُ، والمصدر الحراسةُ، و «شديداً» صفة لـ «حَرَس» على اللفظ؛ كقوله: [الرجز]

٤٨٩٧ ـ أخْشَى رُجَيلاً أو رُكَيباً عَادِيَا[١]

ولو جاء على المعنى لقيل: «شداد» بالجمع، لأن المعنى: مُلئتْ ملائكة شداد، كقولك السلف الصالح، يعني: الصالحين.

قال القرطبيُّ[٢]: «ويجوز أن يكون حَرَساً مصدراً على معنى: حرست حراسة شديدة».

قوله: «وشُهُباً». جمع «شِهَاب» كـ «كِتَاب وكُتُب».

وقيل: المراد النجوم، أو الحرسُ أنفسهم، وهو انقضاض الكواكب المحرقة لهم عن استراقة السمع، وقد تقدم في سورة «الحجر، والصافات».

وإنَّما عطف بعض الصفات على بعض عند تغاير اللفظ، كقوله: [الطويل]

٤٨٩٨ ـ .... وهِنْدٌ أتَى مِنْ دُونِهَا النَّأيُ والبُعْدُ[٣]

وقرأ الأعرجُ[٤]: «مُلِيتْ» بياء صريحة دون همزة.

قوله: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾، المقاعد: جمع «مقعد» اسم مكان، والضمير في «منها»، أي: من السماء، والمقاعد مواضع يقعد في مثلها لاستماع الأخبار من السماء، وذلك أنَّ مردة الجن كانوا يفعلون ذلك ليستمعوا من الملائكة أخبار السماءِ فيلقوها إلى الكهنة فحرسها الله ـ تعالى ـ حين بعث رسوله بالشهب المحرقةِ، فقالت الجن حينئذ: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ يعني بالشهاب الكواكب المحرقة.

قوله «الآن». هو ظرفٌ حالي، واستعير هنا للاستقبال، كقوله الشاعر: [الوافر]

٤٨٩٩ ـ .... سأسْعَى الآنَ إذ بَلَغَتْ إنَاهَا[٥]

فاقترن بحرف التنفيس، وقد تقدم هذا في البقرة عند قوله: «فالآن باشروهن»[٦].

---

(١) صدر بيت لعبد يغوث بن وقاص الحارثي، وعجزه:

والذِّئبَ أخْشَاه وكَلْباً عَاوِيَا

ينظر اللسان (رجل) والكشاف ٤/ ١٢٤، والبحر ٨/ ٣٤٢ والدر المصون ٦/ ٣٩٢.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٩. (٣) تقدم.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٨١، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٢، والدر المصون ٦/ ٣٩٢.

(٥) عجز بيت وصدره:

فإنِّي لَسْتُ خَاذِلَكُم ولَكِنْ

ينظر الدسوقي على المغني ١/ ١٤٩، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٢.

(٦) آية ١٨٧.

و «رصداً» إما مفعول له، وإما صفة له «شهاباً» أي «ذا رصد» وجعل الزمخشري: «الرصد» اسم جمع كـ «حرس»، فقال: والرصد: اسم جمع للراصد كـ «حرس» على معنى: ذوي شهاب راصدين بالرجم وهم الملائكة ويجوز أن يكون صفة لـ «شهاب» بمعنى الراصد، أو كقوله: [الوافر]

٤٩٠٠ ـ .... ومِعًى جِيَاعَا[١]

فصل في بيان متى كان قذف الشياطين

اختلفوا: هل كانت الشياطينُ تقذف قبل البعث أو كان ذلك أمراً حدث لمبعث النبي ﷺ؟.

فقال قوم: لم تحرس السماء في زمن الفترة فيما بين عيسى ومحمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ خمسمائة عامٍ، وإنَّما كان من أجل بعثة النبي فلما بعث محمد ﷺ منعوا من السموات كلِّها وحرستْ بالملائكة والشهب، قاله الكلبيُّ، ورواه عطية عن ابن عباس، ذكره البيهقي.

وقال عبد الله بن عمرو: لما كان اليوم الذي نُبِّىءَ رسول الله ﷺ منعتِ الشياطينُ ورموا بالشُّهبِ[٢].

وقال عبد الملك بن سابور: لم تكن السماء تحرس في الفترة بين عيسى، ومحمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ فلما بعث محمد ﷺ حُرستِ السماءُ ورميتِ الشياطينُ بالشهب، ومنعت من الدنو من السماء.

قال نافع بن جبيرٍ: كانت الشياطين في الفترة تستمع فلا ترى، فلما بعث رسول الله ﷺ رميت بالشهب، ونحوه عن أبي بن كعبٍ قال: لم يرم بنجم، منذ رفع عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى نُبِّىءَ رسول الله ﷺ فرُمِيَ بها[٣].

وقيل: كان ذلك قبل البعثِ، وإنَّما زادت بمبعث رسول الله ﷺ إنذاراً بحاله.

وهو معنى قوله: «قَدْ مُلِئَتْ»، أي: زيد في حرسها.

وقال أوس بن حجر ـ وهو جاهلي ـ: [الكامل]

٤٩٠١ ـ فَانْقَضَّ كَالدُّرِّيِّ يَتْبَعُهُ ... نَقْعٌ يَثُورُ تَخَالُهُ طُنُبَا[٤]

---

(١) جزء من عجز بيت للقطامي وتمام البيت:

كأن نسوع رحلي حين ضمت ... حوالب غرزاً.....

ينظر اللسان (غرز)، والكشاف ٤/ ٦٢٥ وفيه «كأن قتود» بدل «كأن نسوع».

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٣٤) وعزاه إلى الواقدي وأبي نعيم في «الدلائل».

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٣٤) وعزاه إلى الواقدي وأبي نعيم في «الدلائل».

(٤) ينظر القرطبي ١٩/ ١٠، والكشاف ٤/ ٦٢٦، والبحر ٨/ ٣٤٣، وروح المعاني ٢٩/ ١٠٩.

قال الجاحظُ: «هذا البيت مصنوع، لأنَّ الرمي لم يكن قبل البعث».

والقول بالرمي أصح لهذه الآية، لأنها تخبر عن الجن، أنَّها أخبرت بالزيادة في الحرس وأنها امتلأت من الحرس، والشهب.

وقال بشر بن أبي خازم: [الكامل]

٤٩٠٢ ـ والعِيرُ يَرْهَقُها الغُبَارُ وجَحْشُهَا يَنقضُّ خَلفَهُمَا انقِضَاضَ الكَوْكَبِ[١]

وروى الزهريُّ عن علي بن الحسين عن ابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ قال: بينما رسول الله ﷺ جالس في نفر من الأنصار إذ رمي بنجم فاستنار فقال رسول الله ﷺ: «مَا كُنتُمْ تقُولونَ في مِثْلِ هذا فِي الجَاهليَةِ»؟.

قالوا: كُنَّا نقُولُ: يَمُوتُ عَظِيمٌ ابنُ عظيم، أو يولد عظيم [فقال رسول الله ﷺ: «إنها لا ترمى لموتِ أحدٍ ولا لحياته، ولكنَّ رَبَّنَا ـ تبارك وتعالى ـ إذَا قَضَى أمْراً فِي السَّماءِ، سبَّح حملةُ العَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أهْلُ كُلِّ سماءٍ، حتَّى يَنتهِي التَّسبيحُ إلى هذه السَّماءِ، ويَسْتَخْبِر أهْلُ السَّماءِ: ماذا قال ربُّكمْ، فيُخْبَرُون، ويُخبر أهْلُ كُلِّ سماءٍ، حتَّى يَنْتَهِي الخَبَرُ إلى هذه السَّماءِ فتَخْطَفُهُ الجنُّ، فيروونه كما جاءُوا به فهو حقٌّ ولكنَّهم يزيدُون فيه»[٢]][٣].

وهذا يدلُّ على أن هذه الشهب كانت موجودة قبل البعث، وهو قول الأكثرين.

قال الجاحظ: فلو قال قائلٌ: كيف تتعرض الجنُّ لإحراق نفسها بسماع خبرٍ بعد أن صار ذلك معلوماً عندهم؟.

فالجوابُ: أنَّ الله تعالى ينسيهم ذلك، حتى تعظم المحنة كما ينسى إبليس في كل وقت أنه لا يسلم، وأن الله ـ تعالى ـ قال له: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٥]، ولولا هذا لما تحقق التكليف.

قال القرطبيُّ[٤]: «والرَّصدُ»، قيل: من الملائكة، أي: ورصداً من الملائكة، وقيل: الرَّصَد هو الشهب، والرصد: الحافظ للشيء، والجمع أرصاد، وفي غير هذا الموضع يجوز أن يكون جمعاً كالحرس، والواحد: راصد.

وقيل: الرَّصَد هو الشهاب، أي: شهاب قد أرصد له ليرجم به فهو «فعل» بمعنى «مفعول» كـ «الخَبَط والنفض».

قوله: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾، في ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾ وجهان:

---

(١) ينظر الكشاف ٦/ ٦٢٥، والبحر ٨/ ٣٤٣.

(٢) تقدم تخريجه. (٣) سقط من أ.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٠.

أحسنهما: الرفع بفعل مضمر على الاشتغال، وإنما كان أحسن لتقدم طالب الفعل وهو أداة الاستفهام.

والثاني: أن الرفع على الابتداءِ.

ولقائل أن يقول: يتعين هذا الرفع بإضمار فعل لمدرك آخر، وهو أنه قد عطف بـ «أمْ» فعل، فإذا أضمرنا فعلاً رافعاً، كنا قد عطفنا جملة فعلية على مثلها، بخلاف رفعه بالابتداء فإنه ـ حينئذٍ ـ يخرجُ «أمْ» عن كونها عاطفة إلى كونها منقطعة إلا بتأويلٍ بعيدٍ، وهو أن الأصل: أشَرٌّ أريد بهم، أم خيرٌ، فوضع لقوله: «أمْ أراد بِهِمْ» موضع خير.

وقوله: «أشَرٌّ» ساد مسدَّ مفعول «ندري»، بمعنى أنه معلق به، وراعى معنى «مَنْ» في قوله: «بِهِمْ ربُّهُمْ» فجمع.

فصل في معنى الآية

قال ابن زيد: معنى الآية: أنَّ إبليس قال: لا ندري هل أراد بهذا المنعِ أن ينزل على أهل الأرض عذاباً، أو يرسل إليهم رسولاً[(١)].

وقيل: هو من قول الجنِّ فيما بينهم من قبل أن يسمعوا قراءة النبي ﷺ أي: لا ندري أشرٌّ أريد بمن في الأرض بإرسال محمد ﷺ إليهم يكذبونه ويهلكون بتكذيبه كما هلك من كذب من الأمم، أم أراد أن يؤمنوا فيهتدوا، فالشر والرشد على هذا الكفر والإيمان، وعلى هذا كان عندهم علم بمبعث النبي ﷺ ولما سمعوا قراءته علموا أنهم منعوا من السماء حراسة للوحي.

وقيل: لا، بل هذا قول قالوه لقومهم بعد أن انصرفوا إليهم منذرين، أي: لما آمنوا أشفقوا أن لا يؤمن كثيرٌ من أهل الأرض فقالوا: إنَّا لا ندري، أيكفر أهل الأرض بما آمنا به أم يؤمنون؟.

قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾.

هذا من قول الجنِّ، أي: قال بعضهم لبعض لما دعوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ: وإنا كنا قبل استماع القرآن منا الصالحون.

قوله: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، يحتمل وجهين:

أحدهما: يحتمل أن «دُونَ» بمعنى «غير»، أي: ومنا غير الصالحين، أي: كافرون، وهو مبتدأ، وإنما فتح لإضافته إلى غير متمكن كقوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ﴾ [الأنعام: ٩٤] فيمن نصب على أحد الأقوال، وإلى هذا نحا الأخفش.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٦٦).

والثاني: أن «دُونَ» على بابها من الظرف، وأنها صفة لمحذوف، تقديره: ومنا فريق أو فوج دون ذلك، وحذف الموصوف مع «مِنْ» التبعيضية يكثر، كقولهم: منَّا ظعنَ ومنَّا أقام، أي: منا فريقٌ ظعن، ومنا فريق أقام.

ومعنى الآية: ومنا صالحون دون أولئك في الصلاح.

قوله: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ﴾، فيه أوجه:

أحدها: أن التقدير: كنا ذوي طرائق، أي: ذوي مذاهب مختلفة.

الثاني: أن التقدير: كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائقِ المختلفةِ.

الثالث: أن التقدير: كنا ذوي طرائقَ مختلفةٍ؛ كقوله: [الكامل]

٤٩٠٣ ـ .... كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعلَبُ[1]

الرابع: أن التقدير: كانت طريقتنا طرائق قدداً، على حذف المضاف الذي هو الطرائقُ، وإقامة الضمير المضاف إليه مقامه، قاله الزمخشريُّ.

فقد جعل في ثلاثة أوجه مضافاً محذوفاً.

وقال: إنَّه قدر في الأول: «ذَوِي».

وفي الثاني: مثل.

وفي الثالث: طرائق.

ورد عليه أبو حيَّان[2] قوله: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ﴾؛ كقوله: [الكامل]

٤٩٠٤ ـ .... كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعلَبُ[3]

بأن هذا لا يجوز إلا في ضرورة أو ندور، فلا يخرج القرآنُ عليه، يعني تعدى الفعل بنفسه إلى ظرف المكان المختص.

والقددُ: جمع قددة، والمراد بها الطريقةُ، وأصلها السيرة، يقال: قِدَّة فلان حسنة، أي: سيرته، وهو من قدَّ السير، أي: قطعه على استواء، فاستعير للسيرة المعتدلة.

قال الشاعر: [البسيط]

٤٩٠٥ ـ ألقَابِضُ البَاسِطُ الهَادِي بطَاعتِه ... فِي فِتْنَةِ النَّاس إذْ أهْواؤهُم قِدَدُ[4]

وقال آخر: [البسيط]

٤٩٠٦ ـ جَمعْتُ بالرَّأي منهُمْ كُلَّ رَافضَة ... إذْ هُمْ طَرائقُ فِي أهوائِهِمْ قِدَدُ[5]

---

(١) ينظر الكشاف ٦/ ٦٢٧، والبحر ٨/ ٣٤٣، والدر المصون ٦/ ٣٩٣.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٥٠. (٣) تقدم.

(٤) ينظر القرطبي ١٩/ ١١، والبحر ٨/ ٣٣٩، والدر المصون ٦/ ٣٩٤ وروح المعاني ٢٩/ ١١٠.

(٥) ينظر البحر ٨/ ٣٣٩، والدر المصون ٦/ ٣٩٤.

وقال لبيد في أخيه: [المنسرح]

٤٩٠٧ ـ لَمْ تَبْلُغِ العَيْنُ كُلَّ نَهْمتهَا لَيْلةَ تُمْسِي الجِيادُ كالقِدَدِ[(١)]

والقِدُّ ـ بالكسر ـ سير يُقَدّ من جلد غير مدبوغ، ويقال: ما له قد ولا قحف، فالقد: إناء من جلد، والقحف: إناء من خشب.

فصل في معنى الآية

قال سعيد بن المسيِّب: معنى الآية «كنا مسلمين، ويهود ونصارى ومجوساً»[(٢)].

وقال السدي: في الجن مثلكم قدرية، ومرجئة وخوارج، ورافضة، وشيعة، وسنية[(٣)].

وقال قوم: إنا بعد استماع القرآنِ مختلفون منا المؤمنون، ومنا الكافرون.

وقيل: أي: ومنا الصالحون ومنا المؤمنون لم يتناهوا في الصلاح.

قال القرطبيُّ[(٤)] رحمه الله: «والأول أحسن، لأنه كان في الجن من آمن بموسى، وعيسى، وقد أخبر الله عنهم أنهم قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، وهذا يدل على إيمان قوم منهم بالتوراة، وكان هذا مبالغة منهم في دعاء من دعاهم إلى الإيمان، وأيضاً لا فائدة في قولهم: نحن الآن منقسمون إلى مؤمن وإلى كافر، والطرائق: جمع طريقة، وهي مذهب الرجل، أي: كنا فرقاً، ويقال: القوم طرائق أي: على مذاهب شتَّى، والقددُ: نحو من الطرائق وهو توكيد لها واحده: قدَّة، يقال: لكل طريقةٍ قِدَّةٌ».

قوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾.

والظنُّ هنا بمعنى العلم، واليقين، وهو خلاف الظن في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، «وأنَّهم ظنُّوا»، أي: علماً بالاستدلال والتفكر في آيات الله تعالى، أنا في قبضته، وسلطانه لن نفوته بهرب، ولا غيره.

وقوله: «فِي الأرضِ»، حال، وكذلك «هَرباً» مصدر في موضع الحالِ، تقديره: لن نعجزه كائنين في الأرض أينما كنا فيها، ولن نعجزه هاربين منها إلى السماء.

قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾، يعني القرآن «آمنَّا بِهِ»، وباللَّه، وصدقنا محمداً ﷺ على رسالته، وكان ﷺ مبعوثاً إلى الإنس والجنِّ.

---

(١) ينظر: ديوانه (١٥٩)، والقرطبي ١١/٩. (٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١١).

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٣٥) وعزاه إلى أبي الشيخ. وذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/١٩).

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١١.

قال الحسن ـ رضي الله عنه ـ بعث محمدٌ ﷺ إلى الإنس والجن ولم يبعث الله قط رسولاً من الجنِّ ولا من أهل البادية ولا من النِّساء، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾[١] [يوسف: ١٠٩].

وفي الحديث: «بُعثْتُ إلى الأحْمَرِ والأسْودِ»، أي: الإنس والجن[٢]. وقد تقدم هذا الكلام في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الآية: ١٣٠].

قوله: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾.

قال ابنُ عباس: لا يخاف أن ينقص من حسناته، ولا أن يزاد في سيئاته[٣]؛ لأن البخس: النقصان، والرهق: العدوان، وغشيان المحارم، وقد تقدم في بيت الأعشى.

قوله: «فَلا يَخَافُ»، أي: فهو لا يخافُ، أي فهو غير خائف؛ ولأن الكلام في تقدير مبتدأ وخبر فلذلك دخلت الفاءُ، ولولا ذلك لقيل: لا يخف، قاله الزمخشريُّ.

ثم قال: «فإن قلت: أي فائدة في رفع الفعل، وتقدير مبتدأ قبله حتى يقع خبراً له ووجوب إدخال الفاء، وكان كل ذلك مستغنى عنه بأن يقال: لا يخف؟.

قلتُ: الفائدة أنَّه إذا فعل ذلك فكأنه قيل: «فهُو لا يخَافُ»، فكان دالاً على تحقيق أن المؤمن ناجٍ لا محالة وأنَّه هو المختص بذلك دُون غيره».

قال شهَاب الدين[٤]: «وسببُ ذلك أن الجملة تكون اسمية حينئذٍ، والاسمية أدلُ على التحقيقِ والثبوتِ من الفعلية».

وقرأ ابن وثاب[٥] والأعمشُ: بالجزم، وفيها وجهان:

أحدهما: ولم يذكر الزمخشريُّ غيره: أن «لا» نافية، والفاء حينئذ واجبة[٦].

والثاني: أنها نافية، والفاء حينئذٍ زائدةٌ، وهذا ضعيفٌ.

وقوله «بَخْساً»، فيه حذف مضاف، أي: جزاء بخس، كذا قرره الزمخشريُّ. وهو مستغنى عنه.

وقرأ ابن[٧] وثاب: «بَخَساً» بفتح الخاء.

قال القرطبيُّ[٨]: وقرأ الأعمش ويحيى وإبراهيم: «فَلا يَخفْ» جزماً على جواب الشرط، وإلغاء الفاء أيضاً.

---

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١١٣) والقرطبي (١٩/ ١٢).
(٢) تقدم.
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٢).
(٤) الدر المصون ٦/ ٣٩٤.
(٥) ينظر: الكشاف ٤/ ٦٢٨، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٨٢، والدر المصون ٦/ ٣٩٤.
(٦) في أ: زائدة.
(٧) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٤٤.
(٨) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٢.

قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾. أي: وأنا بعد استماع القرآن مختلفون، فمنا من أسلم ومنا من كفر، والقاسط: الجائر لأنه عادل عن الحق، والمقسط: العادل لأنه عادل إلى الحق، قسط: إذا جار، وأقسط: إذا عدل؛ قال: [الكامل]

٤٩٠٨ ـ قَوْمٌ هُمُ قتلُوا ابنَ هِنْدٍ عَنْوةً عَمْراً وهُمْ قَسطُوا على النُّعمَانِ(١)

وقد تقدم في أول «النساء» أن «قَسَطَ»: ثلاثياً بمعنى «جَارَ»، و «أقسط» الرباعي بمعنى «عَدَل». وأن الحجاج قال لسعيد بن جبيرٍ: ما تقول فيَّ؟.

قال: إنَّك قاسط عادل، فقال الحاضرون: ما أحسن ما قال، فقال: يا جهلة، جعلني كافراً جائراً، وتلا قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾. وقرأ ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

قوله: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾.

أي: قصدوا طريق الحقِّ، وتوخوه، وطلبوه باجتهاد، ومنه التحري في الشيء.

قال الراغبُ: «حرى الشيء يحري، أي: قصد حراه، أي: جانبه، وتحراه كذلك، وحَرَى الشيء يَحْرِي، نقص، كأنَّه لزم حراه، ولم يمتد؛ قال الشاعر: [الكامل]

٤٩٠٩ ـ .... والمَرْءُ بَعْدَ تمامِهِ يَحْرِي(٢)

ويقال: رماه الله بأفعى حارية، أي: شديدة» انتهى.

وكأن أصله من قولهم: هو حريٌّ بكذا، أي: حقيق به. و «رَشَداً» مفعول به.

والعامة قرأوا: «رشداً» ـ بفتحتين ـ، **والأعرج: بضمة وسكون**.

قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾. أي: الجائرون عن طريق الحق والإيمان ﴿فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أي: وقوداً، وقوله «فكانوا» أي: في علم الله تبارك وتعالى.

فإن قيل: ذكر عقاب القاسطين ولم يذكر ثواب المسلمين.

فالجواب(٣): بل ذكر ثواب المؤمنين بقوله ﴿تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾ أي: تَحرَّوا رشداً عَظِيماً لا يعلم كنهه إلاَّ الله تعالى، ومثل هذا لا يتحقق إلا بالثَّواب.

فإن قيل: فإنَّ الجنَّ مخلوقون من النَّار، فكيف يكونون حطباً للنار؟.

فالجواب: أنّهم وإن خلقوا من النار لكنهم تغيروا عن تلك الكيفية فيصيرون لحماً، ودماً هكذا قيل.

---

(١) ينظر القرطبي ١٩/ ١٢، والبحر ٨/ ٣٤٤، وروح المعاني ٢٩/ ١١١.

(٢) ينظر مفردات الراغب ١٦٥، والدر المصون ٦/ ٣٩٤.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١٤٢.

وهذا آخر كلام الجن.

قوله ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾، «أنْ» هي المخففة من الثقيلة، وتقدم أنه يكتفى بـ «لو»، فأصله بين «أن» المخففة، وخبرها إذا كان جملة فعلية في سورة «سَبَأ».

وقال أبو البقاء هنا: «ولو» عوض كالسِّين، وسوف، وقيل: «لَوْ» بمعنى «إن» و «إن» بمعنى اللام، وليست بلازمة كقوله ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ﴾ [مريم: ٤٦]، وقال في موضع آخر: ﴿وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ [المائدة: ٣٧] ذكره ابن فضالة في البرهان.

قال شهاب الدين[(١)]: «وهذا شاذٌّ لا يلتفت إليه ألبتة لأنه خلاف النحويين».

وقرأ العامة: بكسر «وأن لو» على الأصل.

وابن وثَّاب والأعمشُ: بضمها[(٢)]، تشبيهاً بواو الضمير. وقد تقدم تحقيقه في البقرة.

فصل في بيان أن الله أوحى إليهم أن الإيمان سبب البسطة في الرزق

هذا من كلام الله تعالى، أي لو آمن هؤلاء الكفار لوسعنا عليهم في الدنيا وبسطنا لهم في الرزق، وهذا محمولٌ على الوحي، أي أوحي إليَّ أن لو استقاموا.

قال ابنُ بحر كل ما كان في هذه السورة من «أنَّ» المثقلة فهي حكايةٌ لقول الجن الذين سمعوا القرآن، فرجعوا إلى قومهم منذرين، وكل ما فيها من «أن» المفتوحة المخففة فهي وحي إلى رسول الله ﷺ.

وقال ابن الأنباريِّ: ومن كسر الحروف، وفتح «وأنْ لو اسْتقَامُوا» أضمر يميناً تأويلها: والله أن لو استقاموا على الطريقة، كما يقال في الكلام: والله إن قمت لقمت، والله لو قمت قمت.

قال الشاعر: [الوافر]

٤٩١٠ ـ أمَا ـ واللَّهِ ـ أن لَوْ كُنْتَ حُرًّا ... ومَا بالحُرِّ أنْتَ ولا العَتِيقِ[(٣)]

ومن فتح ما قبل المخففة نسقها على تقدير: ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ﴾، ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ أو «على آمنا به» ويستغنى عن إضمار اليمين.

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٣٩٥.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٤٤، والدر المصون ٦/ ٣٩٥.

(٣) ينظر الإنصاف ١/ ١٢١، وخزانة الأدب ٤/ ١٤١، ١٤٣، ١٤٥، ١٠/ ٨٢ والجنى الداني ص ٢٢٢، وجواهر الأدب ص ١٩٧، والدرر ٤/ ٩٦، ٢١٩، ورصف المباني ص ١١٦، وشرح التصريح ٢/ ٣٣٣، وشرح شواهد المغني ١/ ١١١، ومغني اللبيب ١/ ٣٣ والمقاصد النحوية ٤/ ٤٠٩، والمقرب ١/ ٢٠٥، وهمع الهوامع ٢/ ١٨، ٤١.

والضمير في قوله ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾، قيل: يرجع إلى الجنِّ الذين تقدم ذكرهم ووصفهم أي: هؤلاء القاسطون لو أسلموا لفعلنا بهم كذا وكذا.

وقيل: بل المراد الإنس لأن الترغيب في الانتفاع بالماءِ الغدقِ، إنما يليق بالإنس، لا بالجن وأيضاً أن هذه الآية إنَّما نزلت بعد ما حبس الله المطر عن أهل مكة سنين، أقصى ما في الباب أنَّه لم يتقدم ذكر الإنس، ولكنه لما كان ذلك معلوماً جرى مَجْرى قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ١].

وقال القاضي: الأقرب أن الكل يدخلون فيه.

قال ابن الخطيب[(١)]: «ويدل على صحة قول القاضي، أنه تعالى أثبت حكماً معللاً بعلة، وهي الاستقامةُ فوجب أن يعم الحكم لعموم العلة».

والغدق ـ بفتح الدال وكسرها ـ: لغتان في الماء الغزير، ومنه الغداق: للماء الكثيرِ وللرجل الكثير الغدق، والكثير النطق.

ويقال: غدقت عينه تغدق أي: هطل دمعها غدقاً.

وقرأ العامة: «غَدَقاً» بفتحتين.

وعاصم فيما يروي[(٢)] **عنه الأعشى، بفتح الغين وكسر الدال**، وقد تقدم أنهما لغتان.

قوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾.

قال ابن الخطيب[(٣)]: إن قلنا: إن الضمير راجعٌ إلى الجنِّ ففيه قولان:

أحدهما: أن المعنى لو ثبت أبوهم على عبادته وسجد لآدم، ولم يكفر وتبعه ولده على الإسلام لأنعمنا عليهم كقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] الآية، ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ [المائدة: ٦٦] الآية، وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢]. وقوله: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم﴾، إلى قوله: ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢] الآية.

وإنَّما ذكر الماء كناية عن طيب العيش وكثرة المنافعِ وهذا هو اللائق بالجنِّ لا الماء المشروب.

الثاني: أن المعنى لو استقام الجنُّ أي الذين سمعوا القرآن على طريقتهم التي كانوا عليها، ولم ينتقلوا عن الإسلام لوسعنا عليهم الدنيا كقوله: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ﴾ [الزخرف: ٣٣] الآية.

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١٤٢.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٣، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٥، والدر المصون ٦/ ٣٩٥.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١٤٢.

والقول الأول: اختيار الزجاج، قال: لأنَّه تعالى ذكر الطريقة معرفة بالألف واللام فيرجع إلى الطريقة المعروفة، وهي طريقة الهدى.

ومعنى: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾ أي: لنختبرهم هل يقومون بشكرها أم لا، وإن قلنا: إنَّ الضمير يعود على الإنس فالاحتمالان كما هما.

قوله: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾، دليلٌ على أنه تبارك وتعالى يضل عباده. وأجاب المعتزلة، بأنَّ الفتنة هي الاختبار، كما يقال: فتنت الذهب بالنار لا خلق الضلالة.

واستدلت المعتزلة بقوله تعالى ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾ على أنه تعالى إنما يفعل لغرض.

وأجيبوا: بأن الفتنة بالاتفاق ليست مقصودة فدلَّت هذه الآية على أن اللام ليست للغرض في حق الله تبارك وتعالى.

فصل في التحذير من الدنيا

روى مسلمُ عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «أخْوفُ ما أخَافُ عليْكمْ ما يُخْرجُ اللَّهُ لكم مِنْ زهرةِ الدُّنيَا» قالوا: ومَا زَهْرةُ الدُّنيَا؟.

قال: «بَركَاتُ الأرْضِ»[(١)]. وذكر الحديث.

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «فواللَّهِ مَا الفَقْرَ أخْشَى عليْكم، وإنَّما أخْشَى علَيكُمْ أنْ يبسِطَ اللَّهُ عَليكُم الدُّنْيَا فتَنَافسُوا فيها كما تَنَافَسَ فِيهَا مَنْ كَانَ قَبلكُمْ، فيُهلِكَكُمْ كَمَا أهْلَكَهُمْ»[(٢)].

قوله: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾، أي: عن عبادته، أو عن موعظته، أو عن وحيه.

وقال ابن زيدٍ: يعني القرآن[(٣)]، وفي إعراضه وجهان:

الأول: عن القبول إن قيل إنها في الكفار والثاني عن العمل، إن قيل إنَّها في أهل الإيمان.

وقيل: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾، أي: لم يشكره.

قوله: ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾.

قرأ الكوفيون[(٤)]: «يَسْلكْهُ» ـ بياء الغيبة ـ لإعادة الضمير على الله تعالى، وباقي السبعة: بنون العظمة على الالتفات.

وهذا كما تقدم في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾، ثم قال: ﴿بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١].

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٧٢٨) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٢/ ٥٣٩).

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١١٨) والقرطبي (١٩/ ٢١٤).

(٤) ينظر: السبعة ٦٥٦، والحجة ٦/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣، وإعراب القراءات ٢/ ٤٠١، وحجة القراءات ٧٢٩.

وقرأ مسلم بن جندب[١]: **«نسلكه» بنون العظمة مضمومة** من «أسلكه». وبعضهم[٢]: بالياء من تحت مضمومة، وهما لغتان، يقال: سلكه وأسلكه.

وأنشد: [البسيط]

٤٩١١ ـ حَتَّى إذَا أسْلكُوهُم فِي قَتَائِدَةٍ[٣]

و «سلك، وأسلك» يجوز أن يكونا فيهما ضُمِّنا معنى الإدخال، فلذلك يتعديان لاثنين ويجوز أن يقال: يتعديان إلى أحد المفعولين، بإسقاط الخافض، كقوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

فالمعنى: ندخله عذاباً، أو نسلكه في عذابٍ، هذا إذا قلنا: إن «صَعَداً» مصدر.

قال الزمخشريُّ: يقال: صَعَداً وصُعُوداً، فوصف به العذاب لأنه يتصعد للمعذب، أي: يعلوه، ويغلبه، فلا يطيقه، ومنه قول عمر ـ رضي الله عنه ـ: ما تصعد شيء ما تصعدتني خطبةُ النِّكاح يقول: ما شقَّ عليَّ، ولا غلبني.

وأما إذا جعلناه اسماً لصخرة في جهنم، كما قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره، فيجوز فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون «صعداً» مفعولاً به أي «يسلكه» في هذا الموضع ويكون «عذاباً» مفعولاً من أجله.

الثاني: أن يكون «عذاباً» مفعولاً ثانياً كما تقدم، و «صعداً» بدلاً من عذاباً، ولكن على حذف مضاف أي: عذاب صعد، وقرأ العامة بفتحتين، وقرأ ابن عباس والحسن بضم الصاد وفتح العين، وهو صفة تقتضي المبالغة كحُطَم ولُبَد، وقرىء بضمتين وهو وصف أيضاً كـ «جُنُب» و «شُلُل».

فصل

ومعنى عذاباً صعداً: أي شاقاً شديداً.

[وقيل عن ابن عباس:] هو جبل في جهنم[٤]، قال الخدريُّ: كلما جعلوا أيديهم عليه ذابت[٥].

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٤٥، والدر المصون ٦/ ٣٩٥.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٣، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٥، والدر المصون ٦/ ٣٩٥.

(٣) تقدم.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٧٠) والحاكم (٢/ ٥٠٤) من طريق عكرمة عن ابن عباس.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٣٦) وزاد نسبته إلى هناد وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٤).

وعن ابن عباس: إن المعنى مشقّة من العذاب[١]، لأن الصعد في اللغة هو المشقة، تقول: تصعدني الأمر إذا شقَّ عليك، ومنه قول عمر المتقدم، والمشي في الصعود يشق، وصعود العقبة الكئودِ.

وقال عكرمةُ: هي صخرة في جهنم ملساء يكلف صعودها، فإذا انتهى إلى أعلاها حُدِر إلى جهنم.

وقال: يكُلَّفُ الوليدُ بن المغيرة أن يصعد جبلاً في النار من صخرةٍ ملساءَ يجذب من أمامه بسلاسل، ويضرب من خلفه بمقامع، حتَّى يبلغ أعلاها ولا يبلغ في أربعين سنة فإذا بلغ أعلاها أحدر إلى أسفلها، ثم يكلف صعودها، فذلك دأبه أبداً، وهو قوله: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧].

قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾. قد تقدم أن السبعة أجمعت على الفتح، بتقدير: وأوحي إليَّ أن المساجد للَّهِ.

وقال الخليل: أي ولأن المساجد، فحذف الجارُّ، ويتعلق بقوله «فلا تدعُوا».

وجعلوه كقوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١] فإنه متعلق بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟﴾ كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وقرأ طلحة[٢] **وابن هرمز**: «وإنَّ المسَاجِدَ» ـ بالكسر ـ، وهو يحتمل الاستئناف والتعليل، فيكون في المعنى كتقدير الخليل.

فصل في المراد بـ «المساجد»

المساجدُ: قيل هي جمع «مسجد» ـ بالكسر ـ وهو موضع السجود، وقد تقدم أن قياسه الفتح.

وقيل: هو «مسجد» ـ بالفتح ـ مراداً بها الأعضاء الواردة في الحديثِ: «الجبهة والأنف والركبتان واليدان والقدمان»، وهو قول سعيد بن المسيب.

والمعنى: إن هذه الأعضاء أنعم الله بها عليكم فلا تسجد لغيره فتجحد نعمة الله، وقال عطاء: مساجدك أعضاؤك التي أمرت بالسجود عليها لا تذللها لغير خالقها.

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ «أمرت أن أسجد على سبعة أعظم» وذكر الحديث، وقال عليه الصلاة والسلام: «إذَا سَجَدَ العَبْدُ سَجَدَ مَعهُ سَبعةُ أعْضَاءٍ»[٣] وقيل: بل جمع مسجد، وهو مصدر بمعنى السجودِ، ويكون الجمع لاختلاف الأنواع.

---

(١) ينظر المصدر السابق.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٤٥، والدر المصون ٦/ ٣٩٦.

(٣) أخرجه البخاري (٢/ ٢٩٧) كتاب الأذان، باب: السجود على الأنف حديث (٨١٢) ومسلم (١/ ٣٥٤) كتاب الصلاة، باب: أعضاء السجود والنهي عن كف الشعر (٢٣٠/ ٤٩٠) من حديث ابن عباس.

وقال القرطبي[١]: «المراد بها البيوت التي تبنيها أهل المللِ للعبادة».

قال سعيد بن جبير رضي الله عنه: قالت الجن: كيف لنا أن نأتي المساجد ونشهد معك الصلاة ونحن ناؤون عنك؟ فنزلت: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾، أي: بنيت لذكر الله ولطاعته[٢].

وقال ابن عبَّاسٍ: المساجد هنا مكة التي هي القبلة، وسميت مكة مساجد، لأن كلَّ أحد يسجد إليها[٣].

قال القرطبيُّ[٤]: «والقول بأنها البيوت المبنية للعبادة، وهذا أظهر الأقوال، وهو مروي عن ابن عباس».

قال ابن الخطيب[٥]: «قال الواحديُّ: وواحد المساجد ـ على الأقوال كلِّها ـ «مسجد» ـ بفتح الجيم ـ إلا على قول من يقول: إنها المواضع التي بنيت للصلاةِ، فإنَّ واحدها «مسجِد» ـ بكسر الجيم ـ لأنَّ المواضع، والمصادر كلَّها من هذا الباب ـ بفتح العين ـ إلا في أحرف معدودة وهي: المسجِد، والمطلِع، والمنسِك، والمسكِن، والمنبِت، والمفرِق، والمسقِط، والمجزِر، والمحشِر، والمشرِق، والمغرِب وقد جاء في بعضها الفتح، وهي: المنسك والمطلع والمسكن والمفرق، وهو جائز في كلِّها وإن لم يسمع».

قوله: «للَّهِ». إضافة تشريف وتكريم، ثم خص بالذِّكر منها البيت العتيق، فقال تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦]. وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلاَّ إلى ثلاثةِ مساجدَ»[٦].

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «صَلاةٌ فِي مَسْجِدِي هذا خَيْرٌ مِنْ ألْفِ صلاةٍ فيما سواهُ إلاَّ المَسجد الحَرامَ»[٧].

وقد روي من طريق آخر لا بأس بها أن النبي ﷺ قال: «صَلاةٌ في مَسْجِدِي هذا خَيْرٌ من ألفِ صلاةٍ فِيمَا سِواهُ إلاَّ فِي المَسْجِد الحَرامِ، فإنَّ صلاةً فِيهِ خَيْرٌ مِنْ مائةِ ألفِ صلاةٍ في مَسْجديْ هَذَا»[٨].

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٤.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٧١) عن سعيد بن جبير وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٣٦).

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١١٩) والقرطبي (١٩/ ١٥).

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٤.

(٥) ينظر الرازي ٣٠/ ١٤٤.

(٦) تقدم.

(٧) أخرجه البخاري ٣/ ٦٣ كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة: (١١٩٠) ومسلم (٢/ ١٠١٢) كتاب الحج باب فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة (٥٠٥/ ١٣٩٤) ومالك في الموطأ ١/ ١٩٦ في كتاب القبلة، باب: ما جاء في مسجد النبي ﷺ.

(٨) هذا الحديث ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٥) وقال: لو صح ولم يصححه كما قال المؤلف عقب الحديث.

قال القرطبي[١]: «وهذا حديث صحيحٌ».

فصل في نسبة المساجد إلى غير الله

فإن قيل: المساجد وإن كانت لله ملكاً وتشريفاً فإنَّها قد تنسب إلى غيره تعالى تعريفاً كما قيل في الحديث: «سابق بين الخيل التي لم تضمر من الثنية إلى مسجد بني زريق».

ويقال: مسجد فلان، لأنه حبسه، ولا خلاف بين الأمة في تحبيس المساجدِ والقناطرِ والمقابرِ، وإن اختلفوا في تحبيس غير ذلك.

فصل في معنى الآية

معنى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ لا يذكرُ فيها إلا اللَّهُ تعالى فإنَّه يجوز قسمةُ الأموالِ فيها، ويجوز وضعُ الصدقات فيها، على رسم الاشتراك بين المساكين، والأكل فيها، ويجوز حبسُ الغريمِ فيها والنوم، وسكن المريضِ فيه، وفتح الباب للجار إليها وإنشاد الشعر فيه إذا عري عن الباطل.

قوله: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾. وهذا توبيخٌ للمشركين، في دعواهم مع الله غيره في المسجد الحرام.

وقال مجاهد: كانت اليهودُ، والنصارى إذا دخلوا كنائسهم، وبيعهم أشركوا بالله تعالى، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين أن يخلصوا لله الدعوة الحق إذا دخلوا المساجد كلها، فلا تشركوا فيها صنماً وغيره مما يعبد[٢].

وقيل: المعنى أفردوا المساجدَ لذكر الله، ولا تجعلوا لغير الله فيها نصيباً، وفي الحديث: «مَنْ نَشدَ ضالَّةً في المسجد فقولوا: لا ردَّها اللَّه عليكَ، فإنَّ المساجد لم تُبْنَ لهذا».

وقال الحسن: من السنة إذا دخل رجل المسجد أن يقول: لا إله إلا الله، لأن قوله تعالى ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ في ضمنه أمر بذكر الله ودعائه.

وروى الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ كان إذا دخل المسجد قدَّم رجله اليمنى وقال: «وأنَّ المسَاجِدَ لِلَّهِ فلا تَدْعُوا مع اللَّهِ أحداً، اللَّهُمَّ إني عبدُكَ وزائِرُكَ وعلى كُلِّ مزُورٍ حقٌّ لزائره، وأنْتَ خَيْرُ مزُورٍ، فأسْألُكَ بِرحْمتكَ أنْ تَفُكَّ رقَبَتِي من النَّارِ» فإذا خرج من المسجد قدم رجله اليسرى وقال: «اللَّهُمَّ صُبَّ عليَّ الخَيْرَ صباً

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٥.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٥) عن مجاهد.

ولا تَنزعْ عنِّي صالحَ ما أعْطَيْتنِي أبداً، ولا تَجْعَلْ معِيْشتِي كدًّا، واجعل لِي في الأرضِ جداً»[١].

قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾.

يجوز الفتحُ، أي: أوحى الله إليه أنه، ويجوز الكسر على الاستئناف، و «عَبْدُ اللَّهِ» هو محمد ﷺ حين كان يصلي ببطن نخلة ويقرأ القرآن حسب ما تقدم أول السورة. «يَدعُوهُ»، أي: يعبده.

وقال ابن جريج: «يَدْعوهُ»، أي: قام إليهم داعياً إلى الله تعالى، فهو في موضع الحالِ، أي: يوحد الله.

﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾.

قال الزُّبيرُ بن العوام: هم الجنُّ حين استمعوا القرآن من النبي ﷺ أي: كاد يركب بعضهم بعضاً ازدحاماً عليه ويسقطون حرصاً على سماعِ القرآنِ العظيم[٢].

وقيل: كادوا يركبونه حرصاً، قاله الضحاكُ[٣].

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: رغبة في سماع القرآن[٤].

يروى عن مكحول: أن الجنَّ بايعوا رسول الله ﷺ في هذه الليلة، وكانوا سبعين ألفاً، وفرغوا من بيعته عند الفجر[٥].

وعن ابن عباس أيضاً: أن هذا من قول الجنِّ لما رجعوا إلى قومهم أخبروهم بما رأوا من طاعة أصحاب النبي ﷺ وائتمامهم به في الركوع والسجود[٦].

وقيل: كاد الجنُّ يركب بعضهم بعضاً حرصاً على النبي ﷺ.

وقال الحسن وقتادة وابن زيد: «لمَّا قَامَ عبدُ اللَّهِ» محمد بالدعوة تلبدت الإنس، والجن على هذا الأمر ليطفئوه فأبى اللَّهُ تعالى إلاَّ أن ينصره ويتم نوره[٧]، واختار الطبريُّ

---

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٢٠) والقرطبي (١٩/ ١٥).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٣٧) وعزاه إلى ابن أبي حاتم عن الزبير.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٧٢). (٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٦).

(٥) ينظر المصدر السابق.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٧٢) والترمذي (٣٣٢٣) والحاكم (٢/ ٥٠٤) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٣٧) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن مردويه والضياء في «المختارة».

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣) عن قتادة وابن زيد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٣٧) عن قتادة وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

أن يكون المعنى كادت العربُ يجتمعون على النبي ﷺ ويتظاهرون على إطفاء النورِ الذي جاء به.

قال مجاهد: اللِّبَد: الجماعات[١].

قوله «لِبَداً». قرأ هشام[٢]: بضم اللام، والباقون: بكسرها.

فالأولى: جمع «لُبْدَة» ـ بضم اللام ـ نحو «غُرفَة وغُرَف».

وقيل: بل هو اسم مفرد صفة من الصفات نحو «حطم» وعليه قوله تعالى ﴿مَالًا لُّبَدًا﴾ [البلد: ٦].

وأما الثانية: فجمع «لِبْدة» ـ بالكسر ـ نحو «قربة وقِرَب».

واللبدة: الشيء المتلبد، أي: المتراكب بعضه على بعض، ومنه قولهم «لبدة الأسد». كقول زهير: [الطويل]

٤٩١٢ ـ لَدَى أَسَدٍ شَاكِ السِّلاحِ مُقذَّفٍ لَـهُ لِـبَـدٌ أظـفَـارُهُ لـم تُـقَـلَّـمِ[٣]

ومنه: اللبد؛ لتلبُّد بعضه فوق بعض، ولبد: اسم نسر لقمان بن عاد، عاش مائتي سنةٍ، حتى قالوا: أطال اللَّهُ الأمد على لبد.

والمعنى: كادت الجنُّ يكونون عليه جماعات متراكمة متزاحمين عليه كاللبد.

وقرأ الحسن[٤] **والجحدريُّ**: «لُبُداً» ـ بضمتين ـ ورواها جماعة عن أبي عمرو.

وهي تحتمل وجهين:

أحدهما: أنه جمع «لَبْد» نحو «رَهْن» جمع «رُهُن».

والثاني: أنه جمع «لَبُود» نحو «صَبُور، وصُبُر» وهو بناء مبالغة أيضاً.

وقرأ ابن محيصن[٥]: بضمة وسكون، فيجوز أن تكون هذه مخففة من القراءة التي قبلها ويجوز أن يكون وصفاً برأسه.

وقرأ الحسن[٦] **والجحدريُّ أيضاً**: «لُبَّداً» ـ بضم اللام وتشديد الباء، وهي غريبة جداً.

وقيل: وهو جمع «لابد» كـ «ساجد وسُجَّد، وراكع ورُكَّع».

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٧٣).

(٢) ينظر: السبعة ٦٥٧، والحجة ٦/ ٣٣٣، وإعراب القراءات ٢/ ٤٠٢، وحجة القراءات ٧٢٩.

(٣) تقدم.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٦، والدر المصون ٦/ ٣٩٦.

(٥) ينظر السابق. (٦) ينظر السابق.

وقرأ أبو رجاء[١]: بكسر اللام، وكسر الباء، وهي غريبة أيضاً.

وقيل: اللُّبَد ـ بضم اللام وفتح الباء ـ: الشيء الدائم، واللبد أيضاً: الذي لا يسافر ولا يبرح؛ قال الشاعر: [البسيط]

٤٩١٣ ـ من امْرِىءٍ ذِي سماحٍ لا تزَالُ لَهُ بَـزْلاءُ يَـعْـيَـا بِـهَـا الـجـثَّـامـةُ الـلُّـبَـدُ[٢]

ويروى: اللَّبد، قال أبو عبيد: وهو أشبه، ويقال: ألبدت القربة جعلتها في لبيد. ولبيد: اسم شاعر من بني عامر.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾

قوله: ﴿إِنَّمَآ أَدْعُواْ﴾، قرأ عاصم وحمزةُ: بلفظ الأمر التفاتاً، أي: قل يا محمد، **والباقون**[٣]: «قال» إخباراً عن «عبد الله» وهو محمد ﷺ.

قال الجحدريُّ: وهي في المصحف كذلك. وقد تقدم لذلك نظائر في «قل سبحان ربي»[٤] آخر «الإسراء»، وكذا في أول «الأنبياء»[٥] وآخرها[٦]، وآخر «المؤمنون»[٧].

قال المفسرون: سبب نزولِ هذه الآية أنَّ كفار قريش قالوا له: إنَّك جئت بأمر عظيم، وقد عاديت الناس كلهم، فارجع عن هذا ونحن نجيرك، فنزلت.

قوله: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾.

قرأ الأعرج[٨]: «رُشُداً» ـ بضمتين ـ. وجعل الضر عبارة عن الغي؛ لأن الضرر سبب عن الغي وثمرته، فأقام المسبب مقام السبب، والأصل: لا أملك غياً، ولا رشداً، فذكر الأهم.

وقيل: بل في الكلام حذف، والأصل: لا أملكُ لَكُمْ ضراً ولا نَفْعاً ولا غيًّا ولا رشداً فحذف من كل واحدٍ ما يدل مقابله عليه.

فصل في معنى الآية

المعنى لا أقدر أن أدفع عنكم ضراً ولا أسوق لكم خيراً.

---

(١) ينظر السابق. (٢) ينظر: القرطبي ١٩/ ١٧.

(٣) ينظر السبعة ٦٥٧، والحجة ٣٣٣، وإعراب القراءات ٢/ ٤٠٢، وحجة القراءات ٧٢٩.

(٤) آية ٩٣. (٥) آية ٤.

(٦) آية١١٢. (٧) آية ١١٨.

(٨) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٦، والدر المصون ٦/ ٣٩٧.

وقيل: «لا أملك لكم ضرّاً»، أي: كفراً «ولا رَشداً» أي: هُدَى، أي: إنما عليَّ التبليغ.

وقيل: الضَّرُّ: العذاب، والرشدُ: النعيم، وهو الأول بعينه.

وقيل: الضرُّ: الموت، والرشد الحياة.

قوله: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾، أي: لن يدفع عني عذابه أحدٌ إن استحفظته وذلك أنهم قالوا: اترك ما تدعو إليه، ونحن نجيرُك.

وروى أبو الجوزاء عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: انطلقتُ مع رسول الله ﷺ ليلة الجن حتى أتى الحجُون فخطَّ علينا خطًّا، ثم تقدم إليهم فازدحموا عليه فقال سيد يقال له وِرْدان: أنا أزجلهم عنك، فقال: ﴿إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾، ذكره الماورديُّ رحمة الله عليه، قال: ويحتمل معنيين:

أحدهما: لن يجيرني مع إجارة الله لي أحد.

الثاني: لن يجيرني مما قدره الله تعالى علي أحدٌ، ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾[(١)] أي: ملجأ الجأ إليه، قاله قتادة، وعنه نصيراً ومولى.

وقال السدي: حِرْزاً[(٢)]، وقال الكلبيُّ: مدخلاً في الأرض مثل السِّرب[(٣)]، وقيل: مذهباً ولا مسلكاً، حكاه ابن شجرة؛ قال الشاعر: [البسيط]

٤٩١٤ ـ يَا لَهْفَ نَفْسِي ولَهْفِي غَيْرُ مُجْزِيَةٍ عَنِّي ومَا مِنْ قَضَاءِ اللهِ مُلتَحَدُ[(٤)]

و «مُلتَحَداً» مفعول «أحد» لأنها بمعنى «أصيب».

قوله ﴿إِلَّا بَلَٰغًا﴾، فيه وجوه:

أحدها: أنه استثناء منقطع، أي: لكن إن بلغت عن الله رحمتي، لأن البلاغ من الله ـ تبارك وتعالى ـ لا يكونُ داخلاً تحت قوله: ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾. لأنه لا يكون من دون الله ـ عز وجل ـ وبعنايته وتوفيقه.

والثاني: أنَّه متصل، وتأويله، أن الإجارة مستعارة للبلاغ، أو هو سببها أو بسبب رحمته تعالى، والمعنى لن أجِدَ شيئاً أميل إليه وأعتصمُ به إلا أن أبلغ وأطيع فيجيرني، وإذا كان متصلاً جاز نصبه من وجهين:

أحدهما: أن يكون بدلاً من «مُلتحَداً» لأن الكلام غير موجب، وهذا اختيار الزَّجاجِ.

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٣٨) وعزاه إلى ابن مردويه والبيهقي في «الدلائل».

(٢) ذكره القرطبي (١٩/ ١٨). (٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) ينظر: القرطبي ١٩/ ١٨، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٦، والدر المصون ٦/ ٣٩٧، وروح المعاني ٢٩/ ١١٦.

والثاني: أنه منصوب على الاستثناء.

الثالث: أنه مستثنى منقطع من قوله «لا أَمْلِكُ لكُمْ ضَراً».

قال قتادة: أي: لا أملك إلا بلاغاً إليكم[١]، وقرره الزمخشري، فقال: أي: لا أملك لكم إلا بلاغاً من الله، وقيل: «إنِّي لَنْ يُجِيرنِي من الله» جملة معترضة اعترض بها لتأكيد نفي الاستطاعة وعلى هذا فالاستثناء منقطع.

الرابع: أنَّ الكلام ليس استثناء، بل شرطاً، والأصل: «إن لا» فـ «إنْ» شرطية وفعلها محذوفٌ، لدلالة مصدره، والكلام الأول عليه، و «لا» نافية، والتقدير: «إن لا أبلغ بلاغاً من الله فلن يجيرني من الله أحدٌ».

وجعلوا هذا كقول الآخر: [الوافر]

٤٩١٥ ـ فَطلِّقْهَا فلسْتَ لهَا بِكُفءٍ وإلاَّ يَـعْـلُ مـفْـرِقَـكَ الـحُـسَـامُ[٢]

أي: وإن لا تطلقها يعلُ، فحذف الشرط ونفى الجواب، وفي هذا الوجه ضعف من وجهين:

أحدهما: أن حذف الشرط دون أدلته قليل جداً.

والثاني: أنَّه حذف الجزءان هنا، أعني الشرط والجزاء.

فيكون كقول الشاعر: [الرجز]

٤٩١٦ ـ قَالتْ بنَاتُ العَمِّ: يا سَلْمَى وإنْ كَـانَ فَـقِـيراً مُـعـدمـاً، قـالـتْ: وإنْ[٣]

أي قالت: وإن كان فقيراً معدماً فقد رضيته.

وقد يقال: إن الجواب مذكور عند من يرى جواز تقديمه، وإما في قوة المنطوق به لدلالة ما قبله عليه.

وقال الحسنُ: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾. فإن فيه النجاة والأمان[٤].

قوله ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾. فيه وجهان:

أحدهما: أن «مِنْ» بمعنى «عَنْ» لأن «بلغ» يتعدى بها، ومنه قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «ألاَ بلِّغُوا عنِّي»[٥].

والثاني: أنه متعلق بمحذوف على أنه صفة لـ «بلاغ».

قال الزمخشري: «مِنْ» ليست للتبليغ وإنما هي بمنزلة «مِنْ» في قوله تعالى ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: ١]، بمعنى: «بلاغاً كائناً من اللَّهِ».

---

(١) ينظر القرطبي (١٩/١٨).
(٢) تقدم.
(٣) ينظر: القرطبي ١٩/١٩.
(٤) ينظر: القرطبي (١٩/١٨).
(٥) تقدم.

قوله ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾. فيه وجهان:

أحدهما: أنها منصوبة نسقاً على «بلاغاً»، كأنه قيل: لا أملك لكم إلا التبليغ، والرسالات ولم يقل الزمخشري غيره.

والثاني: أنها مجرورة نسقاً على الجلالة، أي: إلا بلاغاً عن الله وعن رسالاته، قدره أبو حيَّان وجعله هو الظاهر(١)، ويجوز في جعله «مِنْ» بمعنى «عَنْ»، والتجوز في الحروف رأي الكوفيين ومع ذلك فغير متعارف عندهم.

قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، في التوحيد، والعبادة ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾، العامة: على كسر «إن» جعلوها جملة مستأنفة بعد فاء الجزاء.

قال الواحديُّ: «إن» مكسورة الهمزة لأن ما بعد فاء الجزاء موضع ابتداء.

ولذلك حمل سيبويه قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۚ﴾ [المائدة: ٩٥]، ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ [البقرة: ١٢٦] ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ على أن المبتدأ فيها مضمر تقديره: فجزاؤه أنَّ له نار جهنَّم، أو فحكمه أنَّ له نار جهنَّم.

قال ابن خالويه: «سمعت ابن مجاهد يقول: لم يقرأ به أحدٌ، وهو لحنٌ، لأنه بعد فاء الشرط، قال: سمعتُ ابن الأنباري يقول: هو صواب، ومعناه: فجزاؤه أنَّ لهُ نار جهنَّم».

قال شهاب الدين(٢): ابن مجاهد، وإن كان إماماً في القراءات إلا أنه خفي عليه وجهها، وهو عجيبٌ جداً كيف غفل عن قراءتي ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤] في «الأنعام»، لا جرم أن ابن الأنباري استصوب القراءة لطول باعه في العربية.

قوله «خالدينَ». حالٌ من الهاء في «له»، والعامل الاستقرار الذي تعلق به هذا الجار وحمل على معنى «مِنْ» فلذلك جمع؛ لأن المعنى لكل من فعل ذلك فوحد أولاً اللفظ، ثم جمع المعنى.

فصل في رد كلام المعتزلة

استدل جمهور المعتزلة بهذه الآية الكريمة على أن فُسَّاق أهل الصلاة يخلدون في النار؛ لأن هذا العموم أقوى في الدلالة على المطلوب من سائرِ العمومات، وأيضاً: فقوله «أبداً» ينفي قول المخالف بأن المراد بالخلود المكثُ الطويلُ.

والجوابُ(٣): أنَّ السياقَ في التبليغ عن الله، والرسالة، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ وإذا كان هنا محتملاً سقط الاستدلال، أو نقول: هذه الصورة لا بد

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٥٤. (٢) الدر المصون ٦/ ٣٩٨.
(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١٤٦.

وأن تندرج في العموم، وترك التبليغ عن الله تعالى أعظم، فلا يجوز أن تساويه الذنوب التي ليست مثله في العقوبة، فلا يتعدى هذا الحكمُ إلى غيره من الذنوب، أو نقول: إن الله تعالى لم يقيد في سائر عمومات الوعيد في القرآن بالتأبيد إلا في هذه الآيةِ الكريمة فلا بد وأن يكون لهذا التخصيص فائدة، ومعنى، وليس المعنى إلا أن يكون هذا الذنب أعظم الذُّنوبِ، وإذا كان السبب في هذا التخصيصِ هذا المعنى، علمنا أن هذا الوعيد مختص بهذا الذنب، فلا يتعدى إلى غيره من الذنوب فدلت هذه الآيةُ على أن حال سائر المذنبين مخالف لذلك، أو نقول: «ومَنْ يعْصِ اللَّهَ» إلا في الكفر وإلا في الزنا وإلا في شرب الخمر، فإن مذهب القائلين بالوعيد أنَّ الاستثناءَ إخراج ما لولاه كان داخلاً تحت اللفظ، وإذا كان كذلك وجب أن يكون قوله تعالى ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ﴾ متناولاً لكل من أتى بكل المعاصي.

فإن قيل: يستحيلُ العموم هنا لأن من جملة المعاصي التجسيم والتعطيل، والقائل بالتجسيم يمتنع أن يكون مع ذلك قائلاً بالتعطيل.

قلنا: يخص هذا بدليل الفعل فيحمل على جميع ما لا يستحيل اجتماعه.

فصل في أن الأمر للوجوب

دلت هذه الآية على أن الأمر مقيد بالوجوب لأن تارك المأمورية عاص لقوله: ﴿أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾ [طه: ٩٣]، ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ [مريم: ٦]، ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ [الكهف: ٦٩].

والعاصي مستحق للعقاب لقوله تعالى ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾.

قال الزمخشريُّ: فإن قلت: بم تعلق حتى، وجعل ما بعده غاية له؟.

قلت: بقوله: «يكُونُونَ عليْهِ لِبَداً» على أنهم يتظاهرون عليه بالعداوة، ويستضعفون أنصاره، ويستقلون عددهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ من يوم بدر، وإظهار الله عليهم، أو من يوم القيامة ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾ حينئذٍ ﴿مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا﴾.

قال: ويجوز أن يتعلق بمحذوف دلت عليه الحال من استضعاف الكفار، واستقلالهم لعددهم، كأنه قال لا يزالون على ما هم عليه، حتى إذا رأوا ما يوعدون، قال المشركون: متى هذا الوعد؟ إنكاراً له.

فقال: «قُلْ»: إنه كائن لا ريب فيه.

قال أبو حيان(١): قوله: بم تعلق، إن عنى تعلق حرف الجر فليس بصحيح لأنها

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٥٤.

حرف ابتداءٍ، فما بعدها ليس في موضع جر خلافاً للزجاج، وابن درستويه، فإنهما زعما أنها إذا كانت حرف ابتداءٍ فالجملة الابتدائية بعدها في موضع جر، وإن عنى بالتعلق اتصال ما بعدها بما قبلها وكون ما بعدها غاية لما قبلها، فهو صحيح، وأما تقديره: أنها تتعلق بقوله: ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ فهو بعيد جداً لطول الفصل بينهما بالجمل الكثيرة وقدر بعضهم ذلك المحذوف، فقال: تقديره: دعهم حتَّى إذا رأوا.

وقال التبريزي: جاز أن يكون غاية لمحذوف، ولم يبيِّن ما هو.

قال أبو حيان[1]: «والذي يظهر لي أنها غاية لما تضمنته الجملة التي قبلها من الحكم لكينونة النار لهم كأنه قيل: إن العاصي يحكم له بكينونة النار، والحكم بذلك هو وعيد حتى إذا رأوا ما حكم بكينونته لهم فسيعلمون».

قوله: ﴿مَنْ أَضْعَفُ﴾. يجوز في «مَنْ» أن تكون استفهامية فترفع بالابتداء، و «أضْعَفُ» خبره، والجملة في موضع نصب سادَّةٌ مسدَّ المفعولين لأنها معلقة للعلم[2] قبلها.

وأن تكون موصولة، و «أضعف» خبر مبتدأ مضمر، أي: هو أضعف، والجملة صلة وعائدٌ وحسن الحذف طول الصلة بالتمييز، والموصول مفعول للعلم بمعنى العِرفَان.

قال القرطبي[3]: «حتى» هنا مبتدأ، أي «حتى إذا رأوا ما يوعدون» من عذاب الآخرة أو ما يوعدون من عذاب الدنيا، وهو القتل يوم بدر ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا﴾. و «مَنْ» يظهر أنها غاية لما تضمنته الجملة التي قبلها من الحكم، بكينونة النار لهم، كأنه قيل: إن العاصي أهم أم المؤمنون؟، و «أقلُّ عدداً» معطوف.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾

قوله: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾، يعني: قيام الساعة لا يعلمه إلاَّ اللَّهُ فهو غيب لا أعلم منه إلا ما يعلمنيه الله تعالى جلت قدرتهُ.

قوله: ﴿أَقَرِيبٌ﴾، خبرٌ مقدمٌ، و ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾ مبتدأ مؤخر، ويجوز أن يكون «قَرِيبٌ» مبتدأ لاعتماده على الاستفهام و «مَا تُوعَدُون» فاعل به، أي: أقريب الذي توعدون، نحو «أقَائِمٌ أبواك»، و «مَا» يجوز أن تكون موصولة فالعائد محذوف، وأن تكون مصدرية فلا عائد، و «أمْ» الظاهر أنها متصلة.

وقال الزمخشريُّ: «فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾، والأمد

(١) السابق ٨/ ٣٥٥.
(٢) في أ: للفعل.
(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٨.

يكون قريباً وبعيداً، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، قلت: كان النبي ﷺ يستقرب الموعد، فكأنه قال: ما أدري أهو حالٌّ متوقع في كُلِّ ساعة، أم مؤجل ضربت له غاية؟».

وقرأ العامة: بإسكان الياء من «ربِّي».

وقرأ الحرميان[1] **وأبو عمرو**: بالفتح.

فصل في تعلق الآية بما قبلها

قال مقاتل: لما سمعوا قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾. قال النضر بن الحارث: متى يكون هذا الذي توعدنا به؟.

فقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ إلى آخره[2]، والمعنى أنَّ وقوعه متيقن، وأما وقت وقوعه فغير معلوم.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾، أي: غاية وبعداً، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾.

فإن قيل: أليس أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «بُعِثْتُ أنَا والسَّاعَةُ كهَاتيْنِ»[3]، فكان عالماً بقُربِ وقُوعِ القيامةِ، فكيف قال ـ هاهنا ـ: لا أدري أقريب أم بعيد؟.

فالجواب[4]: أن المراد بقرب وقوعه، هو أن ما بقي من الدنيا أقل مما انقضى فهذا القدر من القرب معلوم، فأما معرفة القرب المرتب وعدم ذلك فغير معلوم.

قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾، العامة: على رفعه، إما بدلاً من «ربِّي» وإما بياناً له وإما خبراً لمبتدأ مضمر، أي هو عالم.

وقرىء: بالنصب[5] **على المدح**.

وقرأ السديُّ[6]: علم الغيب، فعلاً ماضياً ناصباً للغيب.

قوله: «فلا يُظهرُ». العامة: على كونه من «أظْهَر»، و «أحَداً» مفعول به.

---

(١) ينظر: السبعة ٦٥٧، والحجة ٦/ ٣٣٤، وإعراب القراءات ٢/ ٤٠٣.

(٢) ذكره الرازي في «تفسيره (٣٠/ ١٤٨).

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ٥٦٠) كتاب التفسير، باب: من سورة النازعات رقم (٤٩٣٦)، (٥٣٠١، ٦٥٠٣) ومسلم (٤/ ٢٦٨) كتاب الفتن، باب: قرب الساعة حديث (١٣٢/ ٢٩٥٠) من حديث جابر.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١٤٨.

(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٤٨، والدر المصون ٦/ ٣٩٩.

(٦) ينظر: السابق، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٨٥.

وقرأ **الحسن**[١]: «**يَظْهرُ**» بفتح الياء والهاء من «ظهر» ثلاثياً، و «أحد» فاعل به.

فصل في تفسير الغيب

الغيب ما غاب عن العباد[٢].

وقد تقدم الكلام عليه أول البقرة.

قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾. يجوز أن يكون استثناء منقطعاً، أي لكن من ارتضاه فإنه يظهره على ما يشاء من غيبه بالوحي، و «مِنْ» في قوله: «مِنْ رسُولٍ» لبيان المرتضين وقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ بيان لذلك.

وقيل: هو متصل، و «رَصَداً» تقدم الكلام عليه.

ويجوز أن تكون «مِنْ»، شرطية، أو موصولة مضمنة معنى الشرط، وقوله «فإنَّهُ» خبر المبتدأ على القولين؛ وهو من الاستثناء المنقطع أيضاً، أي: لكن، والمعنى: لكن من ارتضاه من الرسل، فإنَّه يجعل له ملائكة رصداً يحفظونه.

فصل في الكرامات

قال الزمخشريُّ: «في إهذه الآية إبطال الكرامات؛ لأن الذين تضاف إليهم الكرامات، وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل، وقد خصَّ الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب وفيها أيضاً إبطال الكهانة والتنجيم لأن أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء، وأدخل في السخط».

قال الواحديُّ: وفيها دليل على أن من ادعى أنَّ النجوم تدل على ما يكون من حياة، أو موت، أو غير ذلك فقد كفر بما في القرآن.

قال ابن الخطيب[٣]: واعلم أن الواحديَّ يجوز الكرامات، وأن يلهم الله أولياءه وقوع بعد الوقائع في المستقبل ونسبة الآية في الصورتين واحدة فإن جعل الآية دالة على المنع من أحكام النجوم، فينبغي أن يجعلها دالة على المنع من الكرامات على ما قاله الزمخشريُّ، فإن جوَّز الكرامات لزمه تجويز علم النجوم وتفريقه بينهما تحكم محض.

قال ابن الخطيب: وعندي لا دلالة في الآية على شيء مما قالوه، إذ لا صيغة عموم في عينه لأنه لفظ مفرد مضاف فيحمل على غيب واحد، وهو وقت القيامة لأنه واقع بعد قوله ﴿أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ الآية.

فإن قيل: فما معنى الاستثناء حينئذ؟.

---

(١) ينظر: السابق.

(٢) في أ: العيان.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ١٤٨/٣٠.

قلنا: لعله إذا قربت القيامةُ يظهر، وكيف لا، وقد قال: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥] فتعلم الملائكة حينئذ قيام القيامة، أو هو استثناء منقطع، أي: من ارتضاه من رسول يجعل من بين يديه، ومن خلفه حفظة يحفظونه بأمر الله من شر مردة الجنّ والإنس، ويدل على أنه ليس المراد منه ألا يطلع أحد على شيء من المغيبات أنه ثبت بما يقارب التواتر أن «شقًّا وسطيحاً» كانا كاهنين وقد عرفا بحديث النبي ﷺ قبل ظهوره وكانا مشهورين بهذا العلم عند العرب حتَّى يرجع إليهما كسرى، وربيعة بن مضر، فثبت أن اللّه تعالى قد يطلع غير الرسل على شيء من المغيبات، وأيضاً أهل المللِ على أن معبر الرؤيا، يخبر عن أمور مستقبلة، ويكون صادقاً فيه، وأيضاً: قد نقل السلطان سنجر بن ملك شاه كاهنة من بغداد إلى خراسان وسألها عن أمور مستقبلة فأخبرته بها فوقعت على وفق كلامها.

قال ابن الخطيب(١): وأخبرني أناس محققون في علم الكلام والحكمة أنها أخبرت عن أمور غائبة بالتفصيل فكانت على وفق خبرها.

وبالغ أبو البركات في كتاب «المعتبر» في شرح حالها وقال: تفحصت عن حالها ثلاثين سنة، فتحققت أنها كانت تخبر عن المغيبات إخباراً مطابقاً، وأيضاً فإنّا نشاهد ذلك في أصحاب الإلهامات الصادقة، وقد يوجد ذلك في السحرة أيضاً، وقد ترى الأحكام النجومية مطابقة وإن كانت قد تتخلف، فإن قلنا: إن القرآن يدل على خلاف هذه الأمور المحسوسة لتطرق الطعن إلى القرآن فيكون التأويل ما ذكرناه.

فصل في معنى الآية

قال القرطبيُّ(٢): المعنى «فلا يُظهِرُ على غَيْبِهِ أحداً إلاّ من ارْتضَى مِنْ رسُولٍ» فإنه يظهره على ما يشاء من غيبه، لأن الرسل مؤيدون بالمعجزات، ومنها الإخبار عن بعض الغائبات كما ورد في التنزيل في قوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وقال ابن جبير: «إلاّ من ارْتضَى من رسُولٍ» هو جبريل ـ عليه السلام ـ وفيه بعد، والأولى أن يكون المعنى لا يظهر على غيبه إلا من ارتضى، أي: اصطفاه للنبوة فإنه يطلعه على ما يشاء من غيبه ليكون ذلك دالاّ على نبوته.

فصل في استئثار الله بعلم الغيب

ذكر القرطبيُّ(٣) أن العلماء قالوا: لما تمدح الله سبحانه وتعالى بعلم الغيب واستأثره

---

(١) السابق ١٤٩/٣٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩/١٩. (٣) السابق.

دون خلقه، كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه، ثم استثنى من ارتضاه من الرسل، فأعلمهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم، ودلالة صادقة على نبوتهم، وليس المنجم ومن ضاهاه ومن يضرب بالحصى وينظر في الكواكب ويزجر بالطير من ارتضاه من رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه بل هو كافر بالله مفتر عليه بحدسه وبتخمينه وكذبه.

قال بعض العلماء: وليت شعري ما يقول المنجم في سفينة ركب فيها ألف إنسان مختلفو الأحوال والرتب فيهم الملك، والسوقة، والظالم، والجاهل، والعالم، والغني، والفقير، والكبير مع اختلاف طوالعهم، وتباين مواليدهم، ودرجات نجومهم، فعمهم حكم الغرق في ساعة واحدة، فإن قال: إنما أغرقهم الطالع الفلاني الذي ركبوا فيه، فيكون على مقتضى ذلك أن هذا الطالع أبطل أحكام هذه الطوالع كلِّها على اختلافها عند ولادة كل واحد منهم، وما يقتضيه طالعه المخصوص به، فلا فائدة إذ ذاك في عمل المواليد، ولا دلالة فيها على شقي، ولا سعيد، ولم يبق إلا معاندة القرآن الكريم؛ ولقد أحسن القائل: [الكامل]

٤٩١٧ ـ حَكَمَ المُنجِّمُ أنَّ طَالعَ مَولِدِي ... يَقْضِي عَلَيَّ بِمَيْتَةِ الغَرقِ
قُلْ لِلمُنَجِّمِ صَبْحَةَ الطُّوفانِ هَلْ ... وَلِدَ الجَمِيعُ بِكَوكَبِ الغَرقِ؟[١]

وقيل لعلي ـ رضي الله عنه ـ لما أراد لقاء الخوارج: أتلقاهم والقمر لفي العقرب؟ فقال: فأين قمرهم[٢]؟ وكان ذلك في آخر الشهر[٣]. فانظر إلى هذه الكلمة التي أجاب بها، وما فيها من البلاغة في الرد على من يقول بالتنجيم، وقال له مسافر بن عوف: يا أمير المؤمنين، لا تسرِ في هذه الساعة وسِرْ بعد ثلاث ساعات يمضين من النهار، فقال له علي ـ رضي الله عنه ـ: ولم؟.

قال: إنك إن سرت في هذه الساعة أصابك، وأصاب أصحابك بلاءٌ، وضر شديد، وإن سرت في الساعة التي أمرتك بها ظفرت، وظهرت وأصبت ما طلبت، فقال علي ـ رضي الله عنه ـ: ما كان لمحمد ﷺ ولا لأصحابه منجم، ولا لنا من بعده. ثم قال: فمن صدقك في هذا القول لن آمن عليه أن يكون كمن اتخذ من دون الله نداً، وضداً، اللَّهُمَّ لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ثم قال للمتكلم: نكذبك، ونخالفك، ونسير في الساعة التي تنهانا عنها، ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس، إياكم وتعلم النجوم إلا ما تهتدوا به في ظلمات البر والبحر، إنما المنجم كافر، والكافر في النار، والمنجم كالساحر، والساحر في النار، والله لئن بلغني أنك تنظر في النجوم، أو تعمل بها لأخلدنك في

---

(١) ينظر: القرطبي ١٩/ ١٩.
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره (١٩/ ١٩)». (٣) في أ: السنة.

الحبس ما بقيتُ، وبقيتَ، ولأحرمنَّك العطاء، ما كان لي سلطان، ثم سافر في الساعة التي نهاه عنها فلقي القوم فقتلهم، وهي وقعة «النَّهروان» الثابتة في «صحيح مسلم»، ثم قال: لو سرنا في الساعة التي أمرنا بها، وظفرنا، وظهرنا لقال: إنَّما كان ذلك تنجيمي وما كان لمحمد ﷺ منجم، ولا لنا من بعده، وقد فتح الله علينا بلاد كسرى وقيصر وسائر البلدان، ثم قال: يا أيها الناسُ، توكلوا على الله وثقوا به، فإنه يكفي ممن سواه.

قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾، يعني: ملائكة يحفظونه من أن يقرب منه شيطان، فيحفظ الوحي من استراق الشياطين والإلقاء إلى الكهنة.

قال الضحاك: ما بعث الله نبياً إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين، أن يتشبهوا له بصورة الملك فإذا جاءه شيطان في صورة الملك، قالوا: هذا شيطان فاحذره، وإن جاء الملك قالوا: هذا رسول ربِّك[(١)].

وقال ابن عباس وابن زيد: «رَصَداً»، أي: حفظةٌ يحفظون النبي ﷺ من أمامه، وورائه من الجن، والشياطين[(٢)].

وقال قتادة وسعيد بن المسيِّب: هم أربعة من الملائكة حفظة يحفظون الوحي بما جاء من عند الله[(٣)].

وقال الفرَّاءُ: فالمراد جبريل كان إذا نزل بالرسالة نزل معه ملائكة يحفظونه من أن يستمع الجن الوحي، فيلقونه إلى كهنتهم، فيسبقوا به الرسول.

وقال السديُّ: «رَصَداً» أي: حفظة يحفظون الوحي، مما جاء من عند الله، وما ألقاه الشيطان قالوا: إنه من الشيطان، و «رَصَداً» نصب على المفعول.

قال الجوهريُّ[(٤)]: «والرَّصدُ: القوم يرصدون كالحرس، يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث وربما قالوا: أرصاد، والراصد للشيء: الراقب له، يقال: رصده يرصده رَصْداً ورَصَداً، والترَّصُّد: الترقب، والمرصد: موضع الرصد».

قوله: ﴿لِّيَعْلَمَ﴾. متعلق بـ «يَسْلكُ».

والعامة: على بنائه للفاعل، وفيه خلاف. أي: ليعلم محمد ﷺ أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة، قاله مقاتل وقتادة.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٧٦) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٣٩) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٧٦).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٧٧) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٣٨) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ في «العظمة».

(٤) ينظر: الصحاح ٢/ ٤٧٤.

قال القرطبيُّ[(١)]: «وفيه حذف تتعلق به اللام، أي: أخبرناه بحفظنا الوحي، ليعلم أن الرسل قبله كانوا على مثل حاله من التبليغ بالحق والصدق».

وقيل: ليعلم محمد أن قد أبلغ جبريل ومن معه إليه رسالة ربه.

قاله ابن جبير، قال: ولم ينزل الوحي إلا ومعه أربعة حفظة من الملائكة ـ عليهم السلام ـ.

وقيل: ليعلم الرسول أن الرسل سواه بلغوا.

وقيل: ليعلم الله، [أي: ليظهر علمه للناس أنّ الملائكة بلغوا رسالات ربهم.

وقيل: ليعلم الرسول، أي رسولٍ كان أنَّ الرسل سواه بلغوا][(٢)].

وقيل: ليعلم إبليس أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم سليمة من تخليطه واستراق أصحابه.

وقال ابن قتيبة: أي: ليعلم الجن أن الرسل قد بلغوا ما أنزل إليهم، ولم يكونوا هم المبلغين باستراق السمع عليهم.

وقال مجاهد: ليعلم من كذب الرسل أن المرسلين، قد بلغوا رسالات ربهم[(٣)].

وقيل: ليعلم الملائكة. وهذان ضعيفان، لإفراد الضمير.

والضمير في «أبْلَغُوا» عائد على «من» في قوله: «من ارْتَضَى» راعى لفظها أولاً، فأفرد في قوله ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾، ومعناها ثانياً، فجمع في قوله «أبْلَغُوا» إلى آخره.

وقرأ ابن عباس[(٤)] **ومجاهد** وزيد بن علي وحميد ويعقوب ليعلم مبنياً للمفعول أي ليعلم الناس أن الرسل قد بلغوا رسالاته.

وقرأ ابن أبي عبلة[(٥)] **والزهري**: «لِيُعلم» ـ بضم الياء وكسر اللام ـ أي: ليعلم الله رسوله بذلك.

وقرأ أبو حيوة[(٦)]: «رِسَالة» بالإفراد، والمراد الجمع.

وقرأ ابن أبي عبلة[(٧)]: «وأحيط، وأحصي» مبنيين للمفعول، «كل» رفع بـ «أحصي». قوله: «عَدَداً»، يجوز أن يكون تمييزاً منقولاً من المفعول به، والأصل: أحصى عدد كل شيء، كقوله تعالى: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ [القمر: ١٢]، أي: عيون الأرض على خلاف سبق.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٢٠. (٢) سقط من أ.

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٢٣).

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٥، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٩، والدر المصون ٦/ ٤٠٠.

(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٤٩، والدر المصون ٦/ ٤٠٠.

(٦) ينظر: السابق.

(٧) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٥، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٩، والدر المصون ٦/ ٤٠٠.

ويجوز أن يكون منصوباً على المصدر من المعنى، لأن «أحْصَى» بمعنى «عَد»، فكأنه قيل: وعد كل شيء عدداً.

أو يكون التقدير: وأحصى كلَّ شيء إحصاء، فيرد المصدر إلى الفعل، أو الفعل إلى المصدر.

ومنع مكي كونه مصدراً للإظهار، فقال: «عَدَداً» نصب على البيان، ولو كان مصدراً لأدغم.

يعني: أن قياسه أن يكون على «فَعْل» بسكون العين؛ لكنه غير لازم، فجاء مصدره بفتح العين.

ولما كان «لِيعْلَمَ» مضمناً معنى «قَد عَلِمَ ذلِكَ» جاز عطف «وأحَاطَ» على ذلك المقدر.

قال القرطبي[١]: «عَدَداً»، نصب على الحال، أي: أحصى كل شيء.

فصل في معنى الإحاطة في الآية

المعنى: أحاط علمه بما عند الرسل، وما عند الملائكة.

وقال ابن جبير: المعنى ليعلم الرسل أن ربهم قد أحاط بما لديهم، فيبلغوا رسالاته ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ أي: علم كل شيء وعرفه فلم يخف عليه منه شيء، وهذه الآية تدل على أنه تعالى عالم بالجزئيات، وبجميع الموجودات.

روى الثعلبي عن أبيٍّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ سُورَةَ الجِنِّ أُعْطِيَ بعَددِ كُلِّ جنّي وشيْطانٍ صدَّق بمُحمَّدٍ ﷺ وكذَّب بِهِ عِتْقُ رَقبةٍ»[٢]. والله تعالى أعلم بالصواب.

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٢١.

(٢) تقدم تخريجه.

سورة المزمل

مكية في قول الحسن رضي الله عنه وعكرمة وعطاء وجابر، وقال ابن عباس وقتادة: إلا آيتين منها: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، والتي تليها[١] [الآية: ١٠، ١١]، ذكره الماورديُّ وغيره.

وقال الثعلبيُّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ [المزمل: ١٠، ١١]، إلى آخر السورة، فإنه نزل بالمدينة[٢]. وهي سبع وعشرون آية، ومائتان وخمس وثمانون كلمة، وثماني مائة وثمانية وثلاثون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، أصله «المُتزمِّلُ» فأدغمت التاء في الزاي، يقال: تزمَّل يتزمل تزملاً، فإذا أريد الإدغام: اجتلبت همزة الوصل، وبهذا الأصل قرأ أبي بن[٣] كعب.

وقرأ عكرمة[٤]: «المُزمِّل» ـ بتخفيف الزاي وتشديد الميم ـ اسم فاعل، وعلى هذا فيكون فيه وجهان:

أحدهما: أن أصله «المُزتمِل» بوزن «مفتعل» فأبدلت التاء ميماً وأدغمت، قاله أبو البقاء، وهو ضعيف.

والثاني: أنه اسم فاعل من «زمل» مشدداً، وعلى هذا، فيكون المفعول محذوفاً، أي: المزمل جسمه. وقرىء[٥] كذلك إلا أنه بفتح الميم اسم مفعول منه أي: المُلفَّفُ،

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٢٤). (٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٢٢).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٦، والبحر المحيط ٨/ ٣٥٣، والدر المصون ٦/ ٤٠١.

(٤) ينظر: السابق.

(٥) ينظر: الكشاف ٤/ ٦٣٤، والبحر المحيط ٨/ ٣٥٣، والدر المصون ٦/ ٤٠١.

والتزمل: التلفف، يقال: تزمل زيد بكساء، أي: التف به؛ وقال ذو الرُّمَّة: [الطويل]

٤٩١٨ ـ وكَائِنْ تَخطَّتْ نَاقتِي مِنْ مفَازةٍ ... ومِـنْ نَـائِـمٍ عَـنْ لـيْـلِـهَـا مُـتـزمِّـلِ[١]

وقال امرؤ القيس: [الطويل]

٤٩١٩ ـ كَأنَّ ثَبِيراً فِي أفَانِينِ ودقِهِ ... كَـبِـيـرُ أنَـاسٍ فـي بـجَـادٍ مُـزمَّـلِ[٢]

وهو كقراءة بعضهم المتقدمة.

فصل في بيان لمن الخطاب في الآية

هذا خطاب للنبي ﷺ وفيه ثلاثةُ أقوالٍ:

الأول: قال عكرمة: «يا أيُّهَا المزمِّلُ» بالنبوة المتزمل بالرسالة[٣]، وعنه: يا أيها الذي زمل هذا الأمر[٤]، أي: حمله ثم فتر، وكان يقرأ: **﴿يأيُّهَا المُزَمَّلُ﴾** ـ بتخفيف الزاي وفتح الميم وتشديدها، على حذف المفعول، وكذلك: «المدثر»، والمعنى: المزمل نفسه والمدثر نفسه، والذي زمله غيره.

الثاني: قال ابن عباس: يا أيها المزمل بالقرآن[٥].

الثالث: قال قتادة: يا أيها المزمل بثيابه[٦].

قال النخعيُ: كان متزملاً بقطيفة عائشة رضي الله عنها بمرط طوله أربعة عشر ذراعاً نصفه عليّ، وأنا نائمة ونصفه على النبي ﷺ وهو يصلي، والله ما كان خزاً ولا قزاً ولا مرعزاء ولا إبريسم ولا صوفاً، كان سداه شعراً ولحمته وبراً[٧]، ذكره الثعلبي.

قال القرطبيُ[٨]: «وهذا القول من عائشة يدل على أنَّ السورة مدنية، فإنَّ النبي ﷺ لم يبنِ بها إلاَّ بالمدينة، والقول بأنها مكية لا يصح».

---

(١) ينظر: ديوانه (١٦٠٠) والكشاف ٤/ ٦٣٤، والبحر ٨/ ٣٥٢ والدر المصون ٦/ ٤٠١.

(٢) ينظر: ديوانه ص ٢٥، وتذكرة النحاة ص ٣٠٨، ٣٤٦، وخزانة الأدب ٩٨/٥، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢، ٣٧/٩، وشرح شواهد المغني ٢/ ٨٣٣، واللسان (زمل)، (خزم)، ومغني اللبيب ٢/ ٥١٥، والأشباه والنظائر ٢/ ١٠، والمحتسب ٢/ ١٣٥.

(٣) ينظر: القرطبي (١٩/ ٢٢).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٧٨) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤١) وعزاه إلى ابن أبي شيبة وابن نصر.

(٥) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٢٥) والقرطبي (١٩/ ٢٢).

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٧٨) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤١) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن نصر.

(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٢٢) عن النخعي.

(٨) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٢٣).

وقال الضحاكُ: تزمل لمنامه.

وقيل: بلغه من المشركين سوء قول فيه، فاشتد عليه فتزمل، وتدثر، فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾.

وقيل: كان هذا في ابتداء أمر ما أوحي إليه فإنه لما سمع صوت الملك، ونظر إليه أخذته الرعدة، فأتى أهله، وقال: زمّلوني، دثّروني.

روي معناه عن ابن عباس، قال: أول ما جاءه جبريل خافه، وظن أن به مساً من الجنّ، فناداه، فرجل من الجبل مرتعداً وقال: زمّلُوني، زمّلُوني[١].

وقال الكلبيُّ: إنما تزمل النبي بثيابه ليتهيأ للصلاة[٢]، وهو اختيار الفراءِ.

وقيل: إنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان نائماً بالليل متزملاً في قطيفة فنودي بما يهجر تلك الحالة، فقيل له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ قم واشتغل بالعبودية.

وقيل: معناه يا من تحمل أمراً عظيماً، والزمل: الحمل.

قال البغويُّ: قال الحكماء: كان هذا الخطاب للنبي ﷺ في أول الوحي قبل تبليغ الرسالة، ثم خوطب بعد بالنبي، والرسول.

فصل في نفي كون «المزمل» اسماً للنبي ﷺ

قال السهيليُّ: ليس المزمل باسم من أسماء النبي ﷺ كما ذهب إليه بعض الناس، وعدوه في أسمائه ﷺ وإنما «المُزمِّلُ» اسم مشتق من حالته التي كان عليها حين الخطاب، وكذلك كان المُدثِّرُ.

وفي خطابه بهذا الاسم فائدتان: **إحداهما**: الملاطفة، فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة، سموه باسم مشتق من حالته التي هو عليها لقول النبي ﷺ لعلي ـ رضي الله عنه ـ حين غاضب فاطمة ـ رضي الله عنها ـ فأتاه وهو نائم وقد لصق جنبه بالتراب، فقال له: «قُمْ أبَا تُرابٍ»، إشعاراً له بأنه غير عاتب عليه، وملاطفة له وإشعاراً بترك العتب، [وملاطفاً له وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام لحذيفة: قم يا نومان ملاطفة له، وإشعاراً بترك العتب والتأنيب] ـ وكان نائماً ـ فقول الله تعالى لمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ قُمِ﴾ فيه تأنيس له، وملاطفة ليستشعر أنه غير عاتب عليه.

والفائدة الثانية: التنبيه لكل متزمل راقد ليله ليتنبه إلى قيام الليل، وذكر الله تعالى فيه لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل، واتصف بتلك الصفة.

(١) ينظر: القرطبي (١٩/ ٢٢) عن النخعي. (٢) ينظر المصدر السابق.

قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾. العامة: على كسر الميم لالتقاء الساكنين.

وأبو السمال[(١)]: بضمها، إتباعاً لحركة القاف.

وقرىء[(٢)]: بفتحها طلباً للخفة.

قال أبو الفتح: الغرض: الهرب من التقاء الساكنين، فبأيِّ حركة تحرك الأول حصل الغرض.

قال شهاب الدين[(٣)]: «إلا أن الأصل: الكسر، لدليل ذكره النحويون، و «الليل» ظرف للقيام وإن استغرقه الحدث الواقع فيه، هذا قول البصريين، وأما الكوفيون فيجعلون هذا النوع مفعولاً به».

قال القرطبي[(٤)]: «وهو من الأفعال القاصرة الغير متعدية إلى مفعول، فأما ظرف المكان والزمان فسائغ فيه، إلا أن ظرف المكان لا يتعدى إليه إلا بواسطة، لا تقول: «قمت الدار» حتى تقول: «قُمْتُ وسَط الدَّارِ، وخارج الدارِ»، وقد قيل هنا: إن «قم» معناه: صل، عبر به هنا واستعير له حتى صار عرفاً بكثرة الاستعمال».

فصل في حد الليل

الليل: حده من غروب الشمس إلى طلوع الفجر وقد تقدم بيانه في البقرة.

قال القرطبيُ[(٥)]: «واختلف هل كان قيامه فرضاً أو نفلاً؟ والدلائل تقوي أن قيامه كان فرضاً لأن الندب لا يقع على بعض الليل دون بعض لأن قيامه ليس مخصوصاً بوقت دون وقتٍ».

واختلف هل كان فرضاً على النبي ﷺ وحده، أو عليه وعلى من كان قبله من الأنبياء، أو عليه وعلى أمته، ثلاثة أقوالٍ:

الأول: قول سعيد بن جبيرٍ لتوجه الخطاب إليه.

الثاني: قول ابن عباسٍ، قال: كان قيامُ الليل فريضة على النبي ﷺ والأنبياء قبله.

الثالث: قول عائشة وابن عباس أيضاً وهو الصحيح أنه كان فرضاً عليه وعلى أمته، لما روى «مسلم»: «أن سعد بن هشام بن عامر قال لعائشة رضي الله عنها: أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ فقالت: ألست تقرأ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ قلت: بلى، قالت: فإن الله ـ عز

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٧، والبحر المحيط ٨/ ٣٥٣، والدر المصون ٦/ ٤٠١.

(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٦٣٦، والبحر المحيط ٨/ ٣٥٣، والدر المصون ٦/ ٤٠١.

(٣) الدر المصون ٦/ ٤٠١.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٢٣.

(٥) السابق ١٩/ ٢٤.

وجل ـ افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام النبي ﷺ وأصحابه حولاً، وأمسك الله ـ عز وجل ـ خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء، حتى أنزل الله ـ عز وجل ـ في آخر السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعاً بعد أن كان فريضة»[١].

وروى وكيع، ويعلى عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان حتى نزل آخرها، وكان بين نزول أولها وآخرها نحو من سنة[٢].

وقال سعيد بن جبير: مكث النبي ﷺ وأصحابه عشر سنين يقومون الليل، فنزلت بعد عشر سنين ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ﴾ [المزمل: ٢٠] فخفف الله عنهم[٣].

وقيل: كان قيام الليل واجباً، ثم نسخ بالصلوات الخمس.

وقيل: عسر عليهم تمييز القدر الواجب فقاموا الليل كلَّه فشق ذلك عليهم فنسخ بقوله في آخرها ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ وكان بين الوجوب ونسخه سنة.

وقيل: نسخ التقدير بمكة وبقي التهجد، حتى نسخ بالمدينة.

وقيل: لم يجب التهجد قط لقوله ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، ولأنه لو وجب عليه ﷺ لوجب على أمته لقوله تعالى ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، والنسخ على خلاف الأصل، ولأنه فرض تعيين المقدار أي المكلف وذلك ينافي الوجوب.

قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾. للناس في هذا كلام كثير، واستدلال على جواز استثناء الأكثر، والنصف، واعتراضات وأجوبة.

قال شهاب الدين[٤]: وها أنا أكذر ذلك محرراً له بعون الله تعالى: اعلم أن في هذه الآية ثمانية أوجه:

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٢٥٢ ـ ٥١٣) صلاة المسافرين: باب جامع صلاة الليل حديث رقم (١٣٩/ ٧٤٦).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٠٥) من طريق داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤١) وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن نصر والطبراني.
وقد أخرجه أبو داود (١/ ١٤٦) كتاب الصلاة: باب نسخ قيام الليل والتيسير فيه حديث (١٣٠٥) من طريق سماك الحنفي عن ابن عباس بنحوه.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٧٩) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤١) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٤٠١.

أحدها: أن «نِصْفهُ» بدل من «اللَّيْلِ» بدل بعض من كل، و «إلاَّ قَلِيْلاً» استثناء من النصف، كأنه قيل: [قُم أقل من نصف الليل، والضمير في «مِنْهُ» و «عليه» عائد على النصف، والمعنى: التخيير بين أمرين: بين أن يقوم أقل من نصف الليل على البت][١]، وبين أن يختار أحد الأمرين وهما النقصان من النصف، والزيادة عليه، قاله الزمخشريُّ.

وناقشه أبو حيَّان: «بأنه يلزم منه تكرار اللفظ، ويصير التقدير: قم نصف الليل إلا قليلاً من نصف الليل، قال: وهذا تركيب ينزه القرآن عنه».

قال شهاب الدين[٢]: والوجه فيه إشكال، لكن لا من هذه الحيثية، فإن الأمر فيها سهل بل لمعنى آخر ـ سأذكره إن شاء الله تعالى قريباً ـ، وجعل أبو البقاء هذا الوجه مرجوحاً فإنه قال: والثاني: هو بدل من «قليلاً» ـ يعني النصف ـ قال: وهو أشبه بظاهر الآية لأنه قال: «أو انقُصْ مِنْهُ»، «أو زِدْ عليْهِ»، والهاء فيهما للنصف، فلو كان الاستثناء من النصف لصار التقدير: قم نصف الليل إلا قليلاً، أو انقص منه قليلاً، والقليل المستثنى غير مقدر فالنقصان منه لا يعقل.

قال شهاب الدين: «والجواب عنه: أن بعضهم قد عين هذا القليل، فعن الكلبي، ومقاتل: هو الثلث فلم يكن القليل غير مقدر، ثم إن في قوله تناقضاً فإنه قال: «والقليل المستثنى غير مقدر فالنقصان منه لا يعقل»، فأعاد الضمير على القليل، وفي الأول أعاده على النصف، ولقائل أن يقول: قد ينقدح هذا الوجه بإشكال قوي، وهو أنه يلزم منه تكرار المعنى الواحد، وذلك أن قوله: قُمْ نصف الليل إلا قليلاً، بمعنى انقص من نصف الليل، لأن ذلك القليل، هو بمعنى النقصان وأنت إذا قلت: «قم نصف الليل إلا القليل من النصف، وقم نصف الليل، أو انقص من النصف» وجدتهما بمعنى واحد، وفيه دقة فتأمله، ولم يذكر الحوفيُّ غير هذا الوجه المتقدم، وقد عرف ما فيه، وممن ذهب إليه أيضاً الزجاجُ فإنه قال: «نِصفَهُ» بدل من «الليل» و «إلاَّ قَلِيلاً» استثناء من النصف، والضمير في «مِنْهُ» و «عَلَيْهِ» عائد للنصف، والمعنى: قُم نصف الليل، أو انقص من النصف قليلاً إلى الثلث، أو زد عليه إلى الثلثين، فكأنه قال: قم ثلثي الليل، أو نصفه، أو ثلثه».

قال شهاب الدين: «والتقديرات التي يبرزونها ظاهرة حسنة إلا أن التركيب لا يساعد عليها لما عرفت من الإشكال المذكور آنفاً».

الثاني: أن يكون «نِصفَهُ» بدلاً من «قَلِيْلاً» وإليه ذهب الزمخشري وأبو البقاء، وابن عطية.

---

(١) سقط من أ.
(٢) الدر المصون ٦/ ٤٠٢.

قال الزمخشريُّ: «وإن شئت جعلت «نِصفَهُ» بدلاً من «قَلِيْلاً» وكان تخييراً بين ثلاث: بين قيام النصف بتمامه، وبين قيام الناقص منه، وبين قيام الزائد عليه، وإنَّما وصف النصف بالقلة بالنسبة إلى الكل».

وهذا هو الذي جعله أبو البقاء أشبه من جعله بدلاً من «اللَّيْلِ» كما تقدم.

إلا أن أبا حيان اعترض هذا، فقال[١]: «وإذا كان «نِصفَهُ» بدلاً من «إلاَّ قليلاً»، فالضميرُ في «نصفهُ» إما أن يعود على المبدل منه، أو على المستثنى منه، وهو «الليْل» لا جائز أن يعود على المبدل منه؛ لأنه يصير استثناء مجهول من مجهول، إذ التقدير: إلا قليلاً نصف القليل، وهذا لا يصح له معنى ألبتَّة، وإن عاد الضمير إلى «اللَّيْلِ» فلا فائدة في الاستثناء من «الليْلِ»، إذ كان يكون أخصر، وأفصح، وأبعد عن الإلباس: قم الليل نصفه، وقد أبطلنا قول من قال: «إلاَّ قَليلاً» استثناء من البدل، وهو «نِصْفَهُ» وأنَّ التقدير: قم الليل نصفه إلا قليلاً منه، أي من النصف، وأيضاً ففي دعوى أن «نِصفَهُ» بدل من «إلاَّ قَلِيلاً»، والضمير في «نِصْفَهُ» عائد على «الليْلِ»، إطلاق القليل على النصف، ويلزم أيضاً أن يصير التقدير: إلا نصفه فلا تقمه، أو انقص من النصف الذي لا تقومه، وهذا معنى لا يصلح، وليس المراد من الآية قطعاً».

قال شهاب الدين[٢]: يقول بجواز عوده على كل منهما، ولا يلزم محذور، أما ما ذكره من أنه يكون استثناء مجهول من مجهول فممنوع، بل هو استثناء معلوم من معلوم؛ لأنا بينا أن القليل قدر معين وهو الثلث، والليل ليس بمجهول، وأيضاً فاستثناء المبهم قد ورد، قال الله تعالى: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وكان حقه أن يقول: لأنه بدل مجهول من مجهول، وأما ما ذكره من أنه «أخصر منه، وأوضح» كيت وكيت، أما الأخصر، فمسلم وأما أنه يلبس، فممنوع، وإنما عدل عن اللفظ الذي ذكره لأنه أبلغ، وبهذا الوجه استدل من قال: يجوز استثناء النصفِ، والأكثر، [ووجه الدلالة على الأول أنه جعل قليلاً مستثنى من الليل ثم فسَّر ذلك القليل بالنصف، فكأنه قيل قم الليل إلا نصفه][٣] ووجه الدلالة على الثاني، أنه عطف «أوْ زِدْ عليْهِ» على «انْقُصْ مِنْهُ»، فيكون قد استثنى الزائد على النصف، لأن الضمير في «مِنْهُ» وفي «عَليْهِ» عائد على النصف وهو استدلال ضعيف لأن الكثرة إنَّما جاءت بالعطف، وهو نظير أن يقول: له عندي عشرةٌ إلا خمسة درهماً درهماً، فالزيادة على النصف بطريق العطف، لا بطريق أن الاستثناء أخرج الأكبر بنفسه.

الثالث: إن «نِصفَهُ» بدل من «الليل» [أيضاً كما تقدَّم في الوجه الأول، إلا أن

---

(١) البحر المحيط ٨/٣١٦.

(٢) ينظر: الدر المصون ٦/٤٠٢.

(٣) سقط من ب.

الضمير في «مِنْهُ» و «عَلَيْهِ» عائد على الأقل من النصف،](١) وإليه ذهب الزمخشريُّ، فإنه قال: «وإن شئت قلت: لما كان معنى ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا نِّصۡفَهُۥٓ﴾ إذا أبدلت النصف من الليل يكون المعنى: قم أقل من نصف الليل، فيرجع الضمير في «مِنْهُ» و «عَلَيْهِ»، إلى الأقل من النصف، فكأنه قيل: قم أقل من نصف الليل، أو قم أنقص من ذلك الأقل، أو أزيد منه قليلاً، فيكون التخيير فيما وراء النصف بينه وبين الثلث».

الرابع: أن يكون «نِصفَهُ» بدلاً من «قَلِيْلاً» كما تقدم؛ إلا أنك تجعل القليل الثاني ربع الليلِ، وقد أوضح الزمخشري هذا أيضاً، فقال: «ويجوز إذا أبدلت «نِصْفَهُ» من «قَلِيْلاً» وفسرته به أن تجعل «قَلِيلاً» الثاني بمعنى نصف النصف بمعنى الربع، كأنه قيل: أو انقص منه قليلاً نصفه، وتجعل المزيد على هذا القليل أعني الربع نصف الربع، كأنه قيل: أو زد عليه قليلاً نصفه، ويجوز أن تجعل الزيادة لكونها مطلقة تتمة الثلث، فيكون تخييراً بين النصف، والثلث، والربع» انتهى.

واختار ابن الخطيب هذا الوجه مع الوجه الثاني، فقال(٢): وقد أكثر الناس في هذه الآية، وفيها وجهان ملخصان:

أحدهما: أن القليل في قوله: «إلاَّ قَلِيْلاً»، هو الثلث، لأن قوله تعالى في آخر السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ﴾، يقتضي أن أكثر المقادير الواجبة هو الثلثان، فيكون قيامُ الثلث جائزاً، وهو قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ فكأنه قيل: قم ثلثي الليل، ثم قال: «نِصْفَهُ» فمعناه: أو قم نصفه، من باب قولهم: «جالس الحسن، أو ابن سيرين» على الإباحة، فحذف العاطف، فالتقدير: قم الثلثين، أو قم النصف، أو انقص من النصف، أو زد عليه، فعلى هذا يكون الثلثان أقصى الزيادة، والثلث أقصى النقصان، فيكون الواجب هو الثلث، والزائد عليه مندوباً، فإن قيل: فيلزم على قراءة الخفض في «نصفه» و «ثلثه» أن يكون النبي ﷺ ترك من الواجب الأدنى، لأنه تعالى قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفِهِۦ وَثُلُثِهِۦ﴾ فيكون المعنى أنك تقوم أقل من الثلثين، وأقل من النصف وأقل من الثلث، فإذا كان الثلث واجباً كان النبي ﷺ تاركاً للواجب؟.

قلنا: المقدر للشيء قد ينقص منه لعدم انضباطه لأنه باجتهاد فربما أخطأ، فهو كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ [المزمل: ٢٠].

الثاني: أن «نِصْفَهُ» تفسير لـ «قَلِيْلاً» لأن النصف قليل بالنسبة إلى الكل لأن المكلف بالنصف لا يخرج عن العهدة بيقين، إلا بزيادة شيء قليل عليه فيصير في الحقيقة نصفاً وشيئاً، فيكون الباقي بعد ذلك أقل من النصف، فالمعنى: قم نصف الليل، أو انقص منه

---

(١) سقط من أ.

(٢) الفخر الرازي ٣٠/ ١٥٢.

نصفه، وهو الربع، أو زد عليه نصفه، وهو الربع، فيصير المجموع ثلاثة أرباع، فيكون مخيراً بين أن يقوم تمام النصف، أو ربع الليل، أو ثلاثة أرباعه، وحينئذ يزول الإشكال بالكلية، لأن الربع أقل من الثلث، وذلك أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ يدل على أنه ﷺ لم يقم ثلثي الليل، ولا نصفه ولا ثلثه، لأن الواجب لما كان هو الربع فقط، لم يلزم ترك قيام الثلث.

الوجه الخامس: أن يكون ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء من القيام، فيجعل «اللَّيْل» اسم جنس، ثم قال: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: إلا الليالي التي تُخِلّ فيها، أي تترك في قيامها القدر البين ونحوه، وهذا النظر يحسن مع القول بالندب، قاله ابن عطية، احتمالاً من عنده وهذا خلافُ الظاهرِ، وهو تأويل بعيد.

السادس: قال الأخفش: الأصل قم الليل إلا قليلاً أو نصفه، قال: كقولك: «أعطه درهماً درهمين ثلاثة».

وهذا ضعيف جداً، لأن فيه حذف حرف العطفِ، وهو ممنوعٌ، لم يردْ منه إلا شيء شاذ ممكن تأويله، كقولهم: «أكَلتُ لحْماً سَمَكاً تَمْراً».

وقول الآخر: [الخفيف]

٤٩٢٠ ـ كَيْفَ أصْبحْتَ كيفَ أمْسيْتَ ممَّا يَـنْـزِعُ الـوُدَّ فـي فُـؤَادِ الـكَـريـمِ[1]

أي: «لحماً وسمكاً وتمراً»، وكذا: كيف أصبحت، وكيف أمسيت، وقد خرج الناس هذا على بدل النداء.

السابع: قال التبريزي: الأمر بالقيام، والتخيير في الزيادة، والنقصان وقع على الثلثين في آخر الليل، لأن الثلث الأول وقت العتمة، والاستثناء وارد على المأمورية، فكأنه قال: قم ثلثي الليل إلا قليلاً أي ما دون نصفه «أو زِدْ عليْهِ»، أي على الثلثين، فكان التخيير في الزيادة، والنقصان واقعاً على الثلثين، وهذا كلام غريب لا يظهر من هذا التركيب.

الثامن: أن «نِصْفَهُ» منصوب على إضمار فعل، أي: قم نصفه، حكاه مكي عن غيره، فإنه قال: «نِصْفَهُ» بدل من «اللّيْلِ».

وقيل: «انتصب على إضمار: قم نصفه».

قال شهاب الدين[2]: «وهذا في التحقيق، هو وجه البدل الذي ذكره أولاً، لأن البدل على نية تكرار العامل».

---

(١) تقدم.

(٢) ينظر: الدر المصون ٦/ ٤٠٤.

فصل في نسخ الأمر بقيام الليل

اختلفوا في الناسخ للأمر بقيام الليل، فعن ابن عباس وعائشة: أن الناسخ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ إلى آخرها، وقيل: قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ وعن ابن عباس أيضاً: أنه منسوخ بقوله «عَلِمَ أن سيَكُونُ مِنْكُم مرْضَى»[١]، وعن عائشة أيضاً، والشافعي وابن كيسان: هو منسوخ بالصلوات الخمس[٢]، وقيل: الناسخ قوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ﴾.

قال أبو عبد الرحمن السلمي: لما نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ قاموا حتى ورمت أقدامهم وسوقهم ثم نزل قوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ﴾[٣].

قال بعض العلماء: وهو فرض نسخ به فرض كان على النبي ﷺ خاصة لفضله كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾.

قال القرطبيُّ[٤]: «والقول الأول يعم جميع هذه الأقوال، وقد قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]. فدخل فيها قول من قال: إن الناسخ الصلوات الخمس، وذهب الحسن وابن سيرين إلى أن صلاة الليل كانت فريضة على كلِّ مسلم، ولو على قدر حلب شاة، وعن الحسن أيضاً أنه قال في هذه الآية: الحمد لله تطوع بعد الفَريضة، وهو الصحيح ـ إن شاء الله تعالى ـ لما جاء في قيامه من الترغيب، والفضل في القرآن، والسنة».

قالت عائشة رضي الله عنها: كنت أجعل للنبي ﷺ حصيراً يصلي عليه من الليل، فتسامع الناس به فلما رأى جماعتهم كره ذلك، وخشي أن يكتب عليهم قيام الليل، فدخل البيت كالمغضب، فجعلوا يتحنحون، ويتفلون، فخرج إليهم فقال: «أيُّهَا النَّاسُ تكلَّفُوا مِن العمل ما تُطيقُونَ، فإنَّ اللَّه لا يمَلُّ من الثواب حتَّى تَملُّوا من العملِ، وإنَّ خَيْرَ العَملِ أدومهُ، وإنْ قَلَّ»، فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾[٥]، فكتب عليهم، وأنزل بمنزلة الفريضة حتى إن كان أحدهم ليربط الحبل، فيتعلق به، فمكثوا ثمانية أشهرٍ، فنزل قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾، فردهم الله إلى الفريضة، ووضع عنهم قيام الليل، إلا ما تطوعوا به.

قال القرطبيُّ[٦]: ومعنى حديث عائشة رضي الله عنها ثابت في الصحيح، إلى

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٢٥).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٨٠) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤١) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر ومحمد بن نصر.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٢٥.

(٥) أخرجه البخاري (١/ ١٠٩ ـ ١١٠) ومسلم (٨٧٢) ومالك في «الموطأ» (١/ ١١٨ وأبو داود (١/ ٢١٨) من حديث عائشة.

(٦) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٢٥.

قوله: «وإنْ قَلَّ» وباقيه يدل على أن قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ نزل بالمدينة، وأنهم مكثوا ثمانية أشهرٍ يقومون، وقد تقدم عنها في «صحيح مسلم» حولاً.

وحكى الماورديُّ عنها قولاً ثالثاً: وهو ستة عشر شهراً لم يذكر غيره عنها، وذكر عن ابن عباس رضي الله عنه: أنه كان بين أول «المُزمِّل» وآخرها سنة، قال: فأما رسول الله ﷺ فقد كان فرضاً عليه، وقيل في نسخه عنه قولان:

أحدهما: أنه كان فرضاً عليه إلى أن مات.

والثاني: أنه نسخ عنه كما نسخ عن أمته، وفي مدة فرضه إلى أن نسخ قولان:

أحدهما: المدة المفروضة على أمته في القولين الماضيين، يريد قول ابن عباس حولاً[١]، وقول عائشة ستة عشر شهراً[٢].

الثاني: «أنها عشر سنين إلى أن خفف عنه بالنسخ».

قوله: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾، أي: لا تعجل في قراءة القرآنِ بل اقرأة على مهل وهينة، وبينه تبييناً مع تدبر المعاني.

قال المبرد: أصله من قولهم: «ثغر رتل ورتل» بفتح العين وكسرها إذا كان حسن التنضيد، ورتلت الكلام ترتيلاً: إذا جملت[٣] فيه، ويقال: ثغر رتل إذا كان بين الثنايا افتراق قليل.

فقوله تعالى: ﴿تَرۡتِيلًا﴾ تأكيد في إيجاب الأمر به، وأنه مما لا بد منه للقارىء.

روى الحسن: أن النبي ﷺ مر برجل يقرأ آية ويبكي، فقال: «ألَمْ تَسمعُوا إلى قولِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾، هذا الترتيل»[٤].

وروى «أبو داود» عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤتَى بِقَارِىء القُرآنِ يَوْم القِيامةِ، فيُوقَفُ فِي أول دَرجِ الجنَّةِ، ويقال له: اقْرأ وارْقَ ورتلْ كَمَا كُنْتَ تُرتِّلُ في الدُّنيا فإنَّ منزلتك عِنْدَ آخِرِ آية تقرؤها»[٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩﴾

---

(١) تقدم. (٢) تقدم.

(٣) في أ: تمهلت.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤٢) وعزاه إلى ابن أبي شيبة.

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٤٧١) والترمذي (٢٩١٥) وأبو داود (١٤٦٤) والحاكم (١/ ٥٥٢ ـ ٥٥٣) والبيهقي (٢/ ٥٣) وابن حبان (١٧٩٠ ـ موارد) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح وسكت عنه الحاكم وقال الذهبي صحيح.
وأخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٤٩٨) رقم (١٠١٠٥) عن ابن عمرو موقوفاً.

قوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، الجملة من قوله: «إِنَّا سَنُلْقي» مستأنفة.

وقال الزمخشريُّ: «وهذه الآية[1] اعتراض» ثم قال: «وأراد بهذا الاعتراض أن ما كلفه من قيام الليل من جملة التكاليف الثقيلة الصعبة التي ورد بها القرآن، لأن الليل وقت السبات، والراحة، والهدوء فلا بد لمن أحياه من مضادة لطيفة، ومجاهدة لنفسه» انتهى.

يعني بالاعتراض من حيثُ المعنى، لا من حيث الصناعة، وذلك أن قوله: «إنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هيَ أَشَدُّ وطْأً» مطابق لقوله: «قُمِ اللَّيْل»، فكأنه شابه الاعتراض من حيث دخوله بين هذين المناسبتين.

فصل في معنى الآية

المعنى: سنلقي عليك بافتراض صلاة الليل «قَوْلاً ثَقِيْلاً» يثقل حمله، لأن الليل للمنام فمن أجر بقيام أكثره، لم يتهيأ له ذلك إلا بحمل مشقة شديدة على النفس، ومجاهدة الشيطان فهو أمر يثقل على العبد.

وقيل: المعنى سنوحي إليك القرآن وهو ثقيل يثقل العمل بشرائعه قال قتادة: ثقيل ـ والله ـ فرائضه وحدوده[2].

وقال مجاهد: حلاله وحرامه[3].

وقال الحسن: العمل به[4].

وقال أبو العالية: ثقيل بالوعد، والوعيد، والحلال والحرام[5].

وقال محمد بن كعب: «ثقيل على المنافقين لأنه يهتك أسرارهم، ويبطل أديانهم»[6].

وقيل: على الكفار لما فيه من الاحتجاج عليهم والبيان لضلالتهم وسب آلهتهم.

وقال السديُّ: ثقيل بمعنى كريم، مأخوذ من قولهم: فلان ثقيل عليَّ، أي يكرم عليّ[7].

وقال الفراءُ: «ثَقِيْلاً» أي: رزيناً.

---

(١) في أ: الجهلة.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره (١٢/ ٢٨١) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤٣) وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن نصر.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٢٦) عن مجاهد.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤٣) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن نصر.

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٢٦).

(٦) ينظر: المصدر السابق.

(٧) ينظر: المصدر السابق.

وقال الحسن بن الفضل: ثقيل لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق ونفس مزينة بالتوحيد[١].

وقال ابن زيد: هو ثقيل مبارك كما ثقل في الدنيا يثقل في الميزان يوم القيامة[٢].

وقيل: ثقيل: أي ثابت كثبوت الثقيل في محله، ومعناه أنه ثابت الإعجاز لا يزول إعجازه أبداً.

[وقيل: ثقيل: بمعنى أن العقل الواحد لا يفي بإدراك فوائده، ومعانيه بالكلية، فالمتكلمون غاصوا في بحار معقولاته، والفقهاء بحثوا في أحكامه، وكذا أهل اللغة، والنحو، وأرباب المعاني، ثم لا يزال كل متأخر يفوز منه بفوائد ما وصل إليها المتقدمون فعلمنا أن الإنسان الواحد لا يقوى على الاشتغال بحمله، فصار كالجبل الثقيل الذي يعجز الخلق عن حمله][٣].

وقيل: هو الوحي، كما جاء في الخبر أن النبي ﷺ كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته، وضعت جرانها ـ يعني صدرها ـ على الأرض فما تستطيع أن تتحرك، حتى يُسَرَّى عنه».

وقال القشيري: القول الثقيل هنا: هو قول: «لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ»، لأنه ورد في الخبر: «لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ خَفيفَةٌ على اللِّسانِ ثَقيلةٌ في المِيزَانِ».

قوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾. في الناشئة أوجه:

أحدها: أنها صفة لمحذوف، أي: النفس الناشئة بالليل التي تنشأ من مضجعها للعبادة، أي تنهض وترفع من «نشأت السحابة» إذا ارتفعت، ونشأ من مكانه ونشر إذا نهض، قال: [الطويل]

٤٩٢١ ـ نَشَأنَا إلى خُوصٍ بَرَى نيَّهَا السُّرَى وألْـصَـقَ مِـنْـهَـا مُـشْـرِفَـاتِ الـقَـمَـاحِـدِ[٤]

الثاني: أنها مصدر بمعنى قيام الليلِ، على أنها مصدر من «نشأ» إذا قام ونهض، فيكون كالعافية والعاقبة. قالهما الزمخشري.

الثالث: أنها بلغة الحبشةِ نشأ الرجل، أي: قام من الليل.

قال أبو حيان[٥]: فعلى هذا هي جمع ناشىء، أي: قائم، يعني: أنها صفة لشيء يفهم الجمع، أي: طائفة، أو فرقة ناشئة، وإلا فـ «فاعل» لا يجمع على «فاعلة».

قال القرطبي[٦]: «قال ابن مسعود: «الحبشة» [يقولون: نشأ، أي قام. فلعله أراد

---

(١) ينظر: المصدر السابق. (٢) ينظر: المصدر السابق.
(٣) سقط من أ.
(٤) ينظر: الكشاف ٤/ ٦٣٨، والبحر ٨/ ٣٥٤، والدر المصون ٦/ ٤٠٤، وروح المعاني ٢٩/ ١٣١.
(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٦٢. (٦) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٢٧.

أن الكلمة عربية، ولكنها شائعة في كلام الحبشة] غالبة عليهم، وإلاَّ فليس في القرآن ما ليس من لغة العرب».

الرابع: «إنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ»: ساعاته، وأوقاته؛ لأنها تنشأ شيئاً بعد شيء.

قال القرطبيُّ[(١)]: «لأنها تنشأ أولاً فأولاً، يقال: نشأ الشيء ينشأ إذا ابتدأ، وأقبل شيئاً بعد شيء فهو ناشيء، وأنشأه اللهُ فنشيء، فالمعنى: ساعات الليل الناشئة، فاكتفى بالوصف عن الاسم فالتأنيث للفظ الساعة، لأن كل ساعة تحدث».

وقيدها الحسن وابن عبَّاسٍ: بما كان بعد العشاء، وإن كان قبلها فليس بناشئة[(٢)]، وخصصتها عائشة رضي الله عنها بأن تكون بعد[(٣)] النوم، فلو لم يتقدَّمها نوم لم تكن ناشئة[(٤)].

قوله: ﴿هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾.

قرأ أبو عمرو وابن عامرٍ[(٥)]: بكسر الواو، وفتح الطاء بعدها ألف، والباقون: بفتح الواو وسكون الطاء.

وقرأ قتادة وشبل[(٦)] **عن أهل مكة**: «وِطْأً»، بكسر الواو وسكون الطاء.

وظاهر كلام أبي البقاء يؤذن أنه قرىء بفتح الواو مع المد، فإنه قال: «وِطْأ» بكسر الواو بمعنى مواطأة، وبفتحها اسم للمصدر، ووطأ على «فعل» وهو مصدر وطيء، والوطاء: مصدره «وِطَاء» كـ «قِتَال» مصدر «قَاتلَ»، والمعنى: أنها أشد مُواطأة، أي: يواطيء قلبها لسانها إن أردت النفس، ويواطيء قلب النائم فيها لسانه إن أردت القيام، أو العبادة، أو الساعات، أو أشد موافقة لما يراد من الخشوع والإخلاص.

والوطء ـ بالفتح والكسر ـ: على معنى أشد ثبات قدم، وأبعد من الزلل وأثقل وأغلظ من صلاة النهار على المصلي من قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «اللَّهُمَّ اشدُدْ وطْأتَكَ على مُضَر». وعلى كل تقدير: فانتصابه على التمييز.

قوله: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾.

---

(١) السابق.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٨٣) عن ابن مجلز وقتادة.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤٤) عن قتادة وعزاه إلى عبد بن حميد.
وذكره عن أبي مجلز وعزاه إلى عبد بن حميد وابن نصر.

(٣) في أ: قبل.

(٤) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/ ٢٨).

(٥) ينظر: السبعة ٦٥٨، والحجة ٦/ ٣٣٥، وإعراب القراءات ٢/ ٤٠٥، وحجة القراءات ٧٣٠.

(٦) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٥٥، والدر المصون ٦/ ٤٠٤.

حكى الزمخشريُّ: أن أنساً قرأ[١]: «وأصوب قِيْلاً»، فقيل له: يا أبا حمزة إنما هي «وأقْوَمُ»، فقال: إن أقوم، وأصوب وأهيأ، واحد. وأنَّ أبا السرار الغنوي كان يقرأ: ﴿فَحَاسُوا خِلَٰلَ الدِّيَارِ﴾ [الإسراء: ٢٥] ـ بالحاء المهملة ـ فقيل له: هي بالجيم فقال: جَاسوا وحاسوا واحد.

قال شهاب الدين[٢]: «وغرضه من هاتين الحكايتين، جواز قراءة القرآن بالمعنى، وليس في هذا دليل؛ لأنه تفسيرُ معنى، وأيضاً، فالذي بين أيدينا قرآن متواتر، وهذه الحكاية آحاد، وقد تقدم أن أبا الدرداء كان يُقْرِىءُ رجلاً: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣]، فجعل الرجل يقول: طعام اليتيم، فلما تبرم منه قال: طعام الفاجر يا هذا، فاستدل به على ذلك من يرى جوازه، وليس فيه دليل، لأن مقصود أبي الدرداء بيان المعنى فجاء بلفظ مبين».

قال الأنباري: وذهب بعض الزائغين إلى أن من قال: إن من قرأ بحرف يوافق معنى حرف من القرآنِ، فهو مصيب إذا لم يخالف ولم يأت بغير ما أراد الله، واحتجوا بقول أنس هذا، وهذا قول لا يعرج عليه، ولا يلتفت إلى قائله، لأنه لو قرىء بألفاظ القرآن إذا قاربت معانيها، واشتملت على غايتها لجاز أن يقرأ في موضع «الحَمْدُ للَّهِ ربِّ العَالمينَ»: الشكر للباري ملك المخلوقين، ويتسع الأمر في هذا، حتى يبطل لفظ جميع القرآن، ويكون التالي له مفترياً على الله ـ تعالى ـ كاذباً على رسوله ﷺ ولا حجة لهم في قول ابن مسعود: «نَزلَ القرآنُ على سَبْعَةِ أحْرُفٍ، إنما هو كقول أحدكم: تعلم، وتعال، وأقبل»؛ لأن هذا الحديث يوجب أن القراءات المنقولة بالأسانيد الصحاح عن النبي ﷺ إذا اختلفت ألفاظها، واتفقت معانيها، كان ذلك فيها بمنزلة الخلاف في «هَلُمَّ، وتعال، وأقبل»، فأما ما لم يقرأ به النبي ﷺ وأصحابه، وتابعوهم، فإن من أورد حرفاً منه في القرآن بهت، ومال، وخرج عن مذهب الصواب، وحديثهم الذي جعلوه قاعدتهم في هذه الضلالة لا يصححه أهل العلم. انتهى.

فصل في فضل صلاة الليل

بيَّن تعالى في هذه الآية فضل صلاةِ الليل على صلاة النَّهار، وأن الاستكثار من صلاة الليل بالقراءة فيها ما أمكن أعظم للأجر، وأجلب للثواب، كان علي بن الحسين يصلي بين المغرب، والعشاء، ويقول: هذه ناشئة الليل.

وقال عطاء وعكرمة: هو بدوام الليل[٣]. قال في الصحاح[٤]: «ناشئة الليل» أول ساعاته.

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٦٣٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٨٨، والدر المصون ٦/ ٤٠٤.
(٢) الدر المصون ٦/ ٤٠٤.
(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٨٢) عن عكرمة.
(٤) ينظر: الصحاح ١/ ٧٨.

وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: هي الليل كلهُ، لأنه ينشأ بعد النهار[١]، وهو اختيار مالك.

قال ابن العربي: «وهو الذي يعطيه اللفظ ويقتضيه اللغة».

وقالت عائشة رضي الله عنها وابن عباس ـ أيضاً ـ ومجاهد: إنما الناشئة القيام بالليل بعد النوم، ومن قال قبل النوم فما قام ناشئة[٢].

وقال يمان وابن كيسان: هو القيام من آخر الليل.

وأما قوله: ﴿أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾، أي: أثقل على المصلي من ساعات النهار، لأن الليل وقت منام وراحة فإذا قام إلى صلاة الليل، فقد تحمل المشقة العظيمة، هذا على قراءة كسر الواو، وفتح الطاء، وأما على قراءة المد: فهو مصدر «واطَأتْ وِطاءَ ومُواطَأةً»، أي: وافقت على الأمر من الوفاق، تقول: فلان مواطىء اسمه اسمي، أي: موافقه، فالمعنى أشد موافقة بين القلب، والبصر، والسمع واللسان لانقطاع الأصوات، والحركات، قاله مجاهد وابن مليكة وغيرهما، قال تعالى: «ليواطؤوا عدَّةَ ما حرم الله» [التوبة: ٣٧]، أي: ليوافقوا، وقيل: أشدّ مهاداً للتصرف في التفكر والتدبر.

وقيل: أشد ثباتاً من النهار، فإن الليل يخلو فيه الإنسان بما يعمله فيكون ذلك أثبت للعمل، والوطء: الثبات، تقول: وطئتُ الأرض بقدمي.

وقوله: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي: القراءة بالليل أقوم منها بالنهار، أي: أشد استقامة واستمراراً على الصواب، لأن الأصوات هادئة، والدنيا ساكنة، فلا يضطرب على المصلي ما يقرأه.

وقال قتادة ومجاهد: أصوب للقراءة وأثبت للقول؛ لأنه زمان التفهم[٣].

وقيل: أشد استقامة لفراغ البال بالليل.

وقيل: أعجل إجابة للدعاء، حكاه ابن شجرة.

وقال عكرمة: عبادة الليل أتم نشاطاً وأتم إخلاصاً، وأكثر بركة[٤].

قوله: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾.

---

(١) أخرجه الطبري (١٢/ ٢٨٢) عن ابن عباس ومجاهد وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤٤) عن ابن عباس وعزاه إلى عبد بن حميد وابن نصر.

(٢) تقدم.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٨٣) عن قتادة.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤٥) وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن نصر.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٢٨) عن عكرمة.

قرأ العامة: بالحاء المهملة، وهو مصدر «سَبح»، وهو استعارة للتصرف في الحوائج من السباحة في الماء، وهي البعد فيه.

وقال القرطبيُّ[١]: «السَّبْحُ» الجري، والدوران، ومنه السباحة في الماء لتقلبه بيديه ورجليه، وفرس سابح «شديد الجري».

قال امرؤ القيس: [الطويل]

٤٩٢٢ ـ مِسَحٌ إذَا ما السَّابحَاتُ عَلى الوَنَىٰ أَثَرْنَ غُبَاراً بالكَدِيدِ المُرَكَّلِ[٢]

وقيل: السبح: الفراغ، أي: إن لك فراغاً للحاجات بالنهار.

وعن ابن عباس وعطاء: «سَبْحاً طَوِيْلاً» يعني فراغاً طويلاً يعني لنومك، وراحتك فاجعل ناشئة الليل لعبادتك[٣].

وقرأ يحيى بن يعمر[٤]**، وعكرمة وابن أبي عبلة**: «سَبْخاً» بالخاء المعجمة.

واختلفوا في تفسيرها: فقال الزمخشريُّ: «استعارة من سبخ الصوف، وهو نفشه، ونشر أجزائه لانتشار الهمِّ، وتفريق القلب بالشواغل».

وقيل: التسبيخ، التخفيف، حكى الأصمعيُّ: «سبخ الله عنك الحمى، أي: خففها عنك».

قال الشاعر: [الطويل]

٤٩٢٣ ـ فَسَبِّخْ عليْكَ الهَمَّ واعْلَمْ بأنَّهُ إذَا قدَّر الرَّحمنُ شَيْئاً فكَائِنُ[٥]

أي: خفف، ومنه قول النبي ﷺ لعائشةَ، وقد دعت على سارق ردائها: «لا تُسبِّخِي بدُعَائكِ عليْهِ»، أي: لا تخففي إثمه[٦].

وقيل: التسبيخ: المد، يقال: سبخي قُطنكِ، أي: مديه، والسبيخة: قطعة من القطن، والجمع: سبائخ؛ قال الأخطل يصف صائداً وكلاباً: [البسيط]

٤٩٢٤ ـ فَأرْسلُوهُنَّ يُذْرِينَ التُّرابَ كمَا يُذْرِي سَبائِخَ قُطْنٍ نَدْفُ أوْتَارِ[٧]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٢٩. (٢) ينظر: ديوانه (٢٠) والقرطبي ١٩/ ٢٩.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٨٥) عن ابن عباس ومجاهد وقتادة.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤٥) عن ابن عباس وعزاه إلى عبد بن حميد وابن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم في «الكنى».

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٨، والبحر المحيط ٨/ ٣٥٥، والدر المصون ٦/ ٤٠٥.

(٥) ينظر: اللسان (سبخ)، والقرطبي ١٩/ ٢٩، والبحر ٨/ ٣٥٥، والدر المصون ٦/ ٤٠٥، وروح المعاني ٢٩/ ١٣٢.

(٦) أخرجه أبو داود (١/ ٤٧٠) كتاب الصلاة: باب الدعاء رقم (١٤٩٧) وفي كتاب الأدب: باب فيمن دعا على من ظلم رقم (٤٩٠٩) والبغوي في شرح السنة (٣/ ١٣٩) من حديث عائشة.

(٧) ينظر: ديوانه (١٤٠) واللسان (سبخ)، والبحر ٨/ ٣٥٥، والقرطبي ١٩/ ٢٩، والدر المصون ٦/ ٤٠٥، وروح المعاني ٢٩/ ١٣٢.

وقال أبو الفضل الرازي: «قرأ ابن يعمر وعكرمة: «سَبْخاً» ـ بالخاء المعجمة ـ وقالا: معناه نوماً، أي: ينام بالنهار؛ ليستعين به على قيام الليل، وقد تحتمل هذه القراءة غير هذا المعنى، لكنهما فسراها: فلا تجاوز عنه».

قال شهاب الدين[1]: «في هذا نظرٌ، لأنهما غاية ما في الباب أنهما نقلا هذه القراءة، وظهر لهما تفسيرها بما ذكر، ولا يلزم من ذلك أنه لا يجوز غير ما ذكر من تفسير اللفظة».

وقال ثعلب: «السَّبْخُ ـ بالخاء المعجمة ـ التردد والاضطراب، والسبح: السكون».

ومنه قول النبي ﷺ: «الحُمَّى من فَيْحِ جَهنَّمَ فَسبِّخُوهَا بالمَاء»، أي فسكِّنُوهَا بالمَاءِ[2].

وقال أبو عمرو: السَّبْخُ: النوم والفراغ، فعلى هذا يكون من الأضداد، ويكون بمعنى السبح بالحاء المهملة.

قوله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾، أي: ادعه بأسمائه الحسنى ليحصل لك مع الصلاة محمود العاقبة.

وقيل: اقصد بعملك وجه ربِّك.

وقال سهل: اقرأ باسم الله الرحمن الرحيم في ابتداء صلاتِك توصلك بركة قراءتها إلى ربك وتقطعك عما سواه.

وقيل: اذكر اسم ربِّك في وعده، ووعيده؛ لتتوفَّر على طاعته وتعدل عن معصيته.

وقال الكلبي: صلِّ لربِّك، أي: بالنهار.

قال القرطبيُّ[3]: وهذا حسن، لأنه لما ذكر الليل ذكر النهار، إذ هو قسيمه، وقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ [الفرقان: ٦٢].

قوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾، هذا مصدر على غير المصدر، وهو واقع موقع التبتل، لأن مصدر «تفعَّل» «تفعُّل» نحو «تصرَّف تصرُّفاً، وتكرَّم تكرُّماً»، وأما «التفعيل» فمصدر «فعَّل» نحو «صرَّف تصريفاً»؛ كقول الآخر: [الرجز]

٤٩٢٥ ـ وقَدْ تَطَوَّيْتَ انْطواءَ الحِضْبِ[4]

فأوقع «الانفعال» موقع «التفعل».

قال الزمخشريُّ: لأنَّ معنى «تبتَّل» بتل نفسه، فجيء به على معناه مراعاةً لحق الفواصل.

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٤٠٥.

(٢) تقدم.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٣٠.

(٤) تقدم.

والبَتْلُ: الانقطاع، ومنه امرأة بتول، أي: انقطعت من النكاح، وبتلت الحبل: قطعته.

قال الليثُ: التبتل: تمييز الشيء من الشيء، وقالوا: طَلْقَةٌ بَتْلَةٌ، يعنون انقطاعها عن صاحبها، فالتبتُّل: ترك النكاح والزهد فيه، ومنه سمي الراهب متبتلاً لانقطاعه عن النكاح؛ قال امرؤ القيس: [الطويل]

٤٩٢٦ ـ تُضِيءُ الظَّلامَ بِالعشَاءِ كأنَّها مَنارةُ مُمْسَى رَاهِبٍ مُتبتِّلِ[(١)]

ومنه الحديث: أنه نهى عن التبتل، وقال: «يَا مَعْشَر الشَّبابِ، من اسْتطَاعَ مِنْكمُ البَاءَةَ فَليتَزوَّجْ»[(٢)] والمراد به في الآية الكريمة: الانقطاع إلى عبادة الله تعالى دون ترك النكاح.

والتبتل في الأصل: الانقطاع عن الناس، والجماعات، وقيل: إن أصله عند العرب التفرد. قاله ابن عرفة.

قال ابن العربي: «هذا فيما مضي، وأما اليوم، وقد مرجت عهود الناس، وخفت أماناتهم، واستولى الحرام على الحطام، فالعزلة خير من الخلطة، والعُزبة أفضل من التأهل، ولكن معنى الآية: وانقطع عن الأوثان، والأصنام، وعن عبادة غير الله.

وكذلك قال مجاهد: معناه: أخلص له العبادة، ولم يرد التبتل، فصار التبتُّلُ مأموراً به في القرآن، مَنْهِيًّا عنه في السنَّةِ، ومتعلق الأمر غير متعلق النهي فلا يتناقضان، وإنما بعث ليبينَ للناس ما نزل إليهم، والتبتل المأمور به: الانقطاع إلى الله بإخلاص كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، والتبتل المنهي عنه: سلوك مسلك النصارى في ترك النكاحِ، والترهب في الصوامع، لكن عند فساد الزمان يكون خير مال المسلمِ غنماً يتبع بها شعَف الجبال، ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن».

قوله: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾.

قرأ الأخوان وأبو بكر[(٣)] **وابن عامرٍ**: بجر «ربِّ» على النعت لـ «ربِّك»، أو البدل منه، أو البيان له.

وقال الزمخشري: وعن ابن عباس: على القسم بإضمار حرف القسمِ، كقولك: «والله لأفعلنَّ» وجوابه «لا إله إلاَّ هُو»، كما تقول: «والله لا أحد في الدار سوى زيد».

---

(١) ينظر: ديوانه (١٧٤) وشرح المعلقات للزوزني (٢٤)، والقرطبي ١٩/ ٣٠، والبحر ٨/ ٣٥٢، والدر المصون ٦/ ٤٠٦.

(٢) تقدم.

(٣) ينظر: السبعة ٦٥٨، والحجة ٦/ ٣٣٦، وإعراب القراءات ٢/ ٤٠٧، وحجة القراءات ٧٣١.

قال أبو حيّان[١]: لعل هذا التخريج لا يصح عن ابن عباس، لأن فيه إضمار الجار، ولا يجيزه البصريون إلاَّ مع لفظ الجلالةِ المعظمة خاصة، ولأن الجملة المنفية في جواب القسم إذا كانت اسمية فإنما تنفى بـ «مَا»، وحدها، فلا تنفى بـ «لا» إلا الجملة المصدرة بمضارع كثيراً، أو بماض في معناه قليلاً.

نحو قول الشاعر: [البسيط]

٤٩٢٧ ـ رِدُوا فَوالـلَّـهِ لا زُرْنَاكُمُ أبَـداً مَـا دَامَ فـي مـائـنَـا وِرْد لِـوُرَّادِ[٢]

والزمخشري أورد ذلك على سبيل التجويزِ، والتسليم، والذي ذكره النحويون هو نفيها بـ «مَا»؛ كقوله: [الطويل]

٤٩٢٨ ـ لَعَمْرُكَ ما سَعْدٌ بِخُلَّةِ آثمٍ ولا نَـأنَـإٍ يَـوْمَ الـحِـفَـاظِ ولا حَـصِـرْ[٣]

قال شهاب الدين[٤]: «قد أطلق ابن مالك أن الجملة المنفية سواء كانت اسمية، أم فعلية تنفى بـ «ما»، أو «لا»، أو «إن» بمعنى: «ما»، وهذا هو الظاهر».

وباقي السبعة: ترفعه، على الابتداء وخبره الجملة من قوله «لا إله إلا الله»، أو على خبر ابتداء مضمر، أي: «هُو ربُّ»، وهذا أحسن لارتباط الكلام بعضه ببعض.

وقرأ زيد[٥] **بن علي**: «ربَّ» بالنصب على المدح.

وقرأ العامة: «المشرِق والمَغرِب» موحدين.

وعبد الله وابن عباس: «المشَارِق والمغَارِب»[٦].

ويجوز أن ينصب «ربَّ» في قراءة زيد من وجهين:

أحدهما: أنه بدل من «اسم ربِّك»، أو بيان له، أو نعت له، قاله أبو البقاء، وهذا يجيء على أن الاسم هو المسمى.

والثاني: أنه منصوب على الاشتغال بفعل مقدر، أي: فاتخذ ربَّ المشرق فاتخذه، وما بينهما اعتراض.

والمعنى: أن من علم أنه رب المشارق، والمغارب انقطع بعمله إليه «واتَّخذهُ وَكِيْلاً»، أي: قائماً وقيل: كفيلاً بما وعدك.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٦٤.

(٢) ينظر: الهمع ٢/ ٤١، والبحر ٨/ ٣٥٦، والدر المصون ٦/ ٤٠٦.

(٣) البيت لامرئ القيس. ينظر: ديوانه (٧٤)، والبحر ٨/ ٣٥٧، والدر المصون ٦/ ٤٠٦.

(٤) الدر المصون ٦/ ٤٠٦.

(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٥٥، والدر المصون ٦/ ٤٠٦.

(٦) ينظر: الكشاف ٤/ ٦٤٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٥٥، والبحر المحيط ٨/ ٣٥٥.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾

قوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، أي: من الأذى، والسب، والاستهزاء، ولا تجزع من قولهم، ولا تمتنع من دعائهم، وفوض الأمر إليّ، فإني إذا كنت وكيلاً لك، أقوم بإصلاح أمرك أحسن من قيامك بأمور نفسك ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾، الهجر: ترك المخالطةِ، أي: لا تتعرض لهم، ولا تشتغل بمكافأتهم فإن ذلك ترك للدعاء إلى الله تعالى، وكان هذا قبل الأمر بالقتال، ثم أمر بعد ذلك بقتالهم.

قال قتادة وغيره: نسختها آية القتال(١).

وقال أبو الدرداء: إنا لنكشر في وجوه [أقوام] ونضحك إليهم وإن قلوبنا لتلعنهم(٢).

قال ابن الخطيب(٣): وقيل وهو الأصح إنّها محكمة.

قوله: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾. يجوز نصب «المُكذِّبِيْنَ» على المعية، وهو الظاهر، ويجوز على النسق وهو أوفق للصناعة.

والمعنى: ارض بي لعقابهم، نزلت في صناديد قريش ورؤساء مكة من المستهزئين.

وقال مقاتل: نزلت في المطعمين يوم بدر، وهم عشرة(٤) تقدم ذكرهم في الأنفال.

وقال يحيى بن سلام: إنهم بنو المغيرة.

وقال سعيد بن جبير: أخبرت أنهم اثنا عشرة رجلاً(٥) «أولي النعمة» أي: أولي الغنى، والترفه واللذة في الدنيا ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ يعني إلى مدة آجالهم، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: لما نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسيراً حتى وقعت وقعة بدر(٦).

وقيل: «ومَهِّلهُمْ قَلِيلاً» مدة الدنيا.

قوله: «أوْلِي النَّعمَةِ»، نعت للمكذبين. و «النعمة» ـ بالفتح ـ: التنعم، وبالكسر: الإنعام، وبالضم: المسرَّةُ، يقال: نِعْمة ونُعْمة عين.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٨٧) عن قتادة.
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٣١). (٣) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١٥٩.
(٤) ينظر: القرطبي (١٩/ ٣١). (٥) ينظر: المصدر السابق.
(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٨٨) وأبو يعلى (٨/ ٥٦) رقم (٤٥٧٨).
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٣٠) وقال: رواه أبو يعلى وفيه جعفر بن مهران وعبد الله بن محمد بن عقيل وفيهما ضعف وقد وثقا.

وقوله: «قَلِيلاً»، نعت لمصدر، أي: تمهيلاً، أو لظرف زمان محذوف، أي: زماناً قليلاً.

قوله: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾، جمع نكل، وفيه قولان:

أشهرهما: أنه القيد.

وقيل: الغل؛ وقالت الخنساء: [المتقارب]

٤٩٢٩ ـ دَعَاكَ فَقَطَّعْتَ أَنْكَالَهُ وقَدْ كُنَّ مِنْ قَبْلُ لا تُقْطَعُ[١]

قال الحسن ومجاهد وغيرهما: الأنكال: القيود[٢]، واحدها: نكل، وهو ما منع الإنسان من الحركة، وقيل: سمي نكلاً، لأنه ينكل به.

قال الشعبي: أترون أن الله جعل الأنكال في أرجل أهل النار خشية أن يهربوا ـ لا والله ـ ولكنهم إذا أراد أن يرتفعوا اشتعلت بهم[٣].

وقال الكلبيُّ: الأنكال: الأغلال.

وقال مقاتل: الأنكال: أنواع العذاب الشديد[٤].

وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ النَّكلَ على النَّكلِ»[٥] ـ قال الجوهريُّ: بالتحريك ـ قيل: وما النكل؟ قال: «الرجل القوي المجرب على الفرس القوي المجرب». ذكره الماورديُّ، قال: ومن ذلك سمي القَيْدُ نِكلاً لقوته وكذلك الغُلّ وكل عذاب قوي.

قال ابن الأثير: «النَّكَلُ ـ بالتحريك ـ من التنكيل، وهو المنع، والتنحية عما يريد يقال: رجل نَكَلٌ ونِكْلٌ، كشبه وشبهٌ، أي: ينكل به أعداؤه، وقد نكل الأمر ينكل، ونكل ينكل: إذا امتنع، ومنه النكول في اليمين وهو الامتناع منها وترك الإقدام عليها».

والجحيم: النار المؤجَّجَةُ.

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾. «الغُصَّةُ»: الشجى، وهو ما ينشب في الحلق فلا ينساغ، ويقال: «غَصِصتُ» ـ بالكسر ـ فأنت غَاصٌّ وغصَّان، قال: [الرمل]

---

(١) رواية الديوان:

دعاك فهتكت أغلاله وقد ظن قبلك لا تقطع

ينظر: ديوانها (٦٧)، والقرطبي ١٩/ ٣١، والبحر ٨/ ٣٥٦، والدر المصون ٦/ ٤٠٧.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٨٨) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤٦) وزاد نسبته إلى أحمد في «الزهد» وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٣١). (٤) ينظر: المصدر السابق.

(٥) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٣٠) وتبعه القرطبي (١٩/ ٣١).

٤٩٣٠ ـ لَو بِغَيرِ المَاءِ حَلْقِي شَرِقٌ كُنْتُ كالغَصَّانِ بالمَاءِ اعتِصَارِي[١]

والمعنى: طعاماً غير سائغ يأخذ بالحلق، لا هو نازل، ولا هو خارج وهو كالغسلين، والزَّقُّوم والضريع. قاله ابن عباس. وعنه أيضاً: أنه شوك يدخل الحلق فلا ينزل ولا يخرج[٢].

وقال الزجاجُ: أي: طعامهم الضريع، وهو شوك كالعوسج.

وقال مجاهد: هو كالزقوم[٣].

والغصة: الشجى، وهو ما ينشب في الحلق من عظم، أو غيره، وجمعها: غُصَص، والغَصَصُ ـ بالفتح ـ مصدر قولك: «غَصِصْتَ يا رجل تَغُصُّ، فأنت غاصٌّ بالطعام وغصَّان وأغْصصتُهُ أنا، والمنزل غاص بالقوم أي ممتلىء بهم».

ومعنى الآية: أن لدينا في الآخرة ما يضادّ تنعمهم في الدنيا، وهذه هي الأمور الأربعة: الأنكال، والجحيم، والطعام الذي يغص به، والعذاب الأليم، والمراد به: سائرُ أنواع العذاب.

قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾. أي: تتحرك، وفي نصب «يوم» أوجه:

أحدها: أنه منصوب بـ «ذرني»، وفيه بعد.

والثاني: أنه منصوب بنزع الخافض أي: هذه العقوبة في يوم ترجف.

الثالث: أنه منصوب بالاستقرار المتعلق به «لَدَيْنَا».

والرابع: أنه صفة لـ «عَذاباً» فيتعلق بمحذوف، أي عذاباً واقعاً يوم ترجف.

الخامس: أنه منصوب بـ «أَلِيْم».

والعامة: «تَرجُف» ـ بفتح التاء، وضم الجيم ـ مبنياً للفاعل.

وزيد بن علي[٤]: مبنياً للمفعول، من أرجفها: والرجفة: الزلزلة والزعزعة الشديدة.

---

(١) تقدم.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٨٩) والحاكم (٢/ ٥٠٥ ـ ٥٠٦) من طريق شبيب عن عكرمة عن ابن عباس.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ورده الذهبي بقوله: قلت: شبيب ضعفوه.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤٦) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في «صفة النار» وعبد الله في «زوائد الزهد» وابن المنذر والبيهقي في «البعث».

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٨٩) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤٦) وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٤) ينظر البحر المحيط ٨/ ٣٥٦، والدر المصون ٦/ ٤٠٧.

قوله: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ﴾، أي: وتكون الجبال ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾، الكثيب: الرمل المجتمع.

قال حسان: [الوافر]

٤٩٣١ ـ عَرفْتُ دِيَارَ زَينَبَ بالكَثِيبِ كخَطِّ الوحْيِ في الورَقِ القَشِيبِ[١]

والجمع في القلة: «أكْثِبَةٌ»، وفي الكثرة: «كثبان» و «كُثُب» كـ «رَغيف وأرغِفَة، ورُغْفَان ورُغُف».

قال ذو الرمة: [الطويل]

٤٩٣٢ ـ فَقلْتُ لهَا: لا إنَّ أهلِي لَجيرةٌ لأكْثِبَةِ الدَّهْنَا جَمِيعاً ومَالِيَا[٢]

قال الزمخشري: من كثبت الشيء إذا جمعته، ومنه الكثبة من اللبن؛ قالت الضائنة: أجَزُّ جُفالاً، وأحلبُ كُثَباً عُجَالاً.

[والمهيل: أصله «مهيول» كـ «مضروب» استثقلت الضمة على الياء][٣] فنقلت إلى الساكن قبلها، وهو الهاء فالتقى ساكنان، فاختلف النحاة في العمل في ذلك: فسيبويه، وأتباعه حذفوا الواو، وكانت أولى بالحذف، لأنها زائدة، وإن كانت القاعدة إنما تحذف لالتقاء الساكنين الأول، ثم كسروا الهاء لتصح الياء، ووزنه حينئذ «مفعل».

والكسائي والفراء والأخفش: حذفوا الياء، لأن القاعدة في التقاء الساكنين: إذا احتيج إلى حذف أحدهما حذف الأول، وكان ينبغي على قولهم أن يقال فيه: «مهول» إلا أنهم كسروا الهاء لأجل الياء التي كانت فقلبت الواو ياء، ووزنه حينئذ «مفعول» على الأصل، و «مفيل» بعد القلب.

قال مكي: «وقَدْ أجَازُوا كلهم أن يأتي على أصله في الكلام، فتقول: مهيول ومبيوع»، وما أشبه ذلك من ذوات الياء، فإن كان من ذوات الواو لم يجز أن يأتي على أصله عند البصريين، وأجازه الكوفيون، نحو: مقوول، ومصووغ.

وأجازوا كلهم: مهول ومبوع، على لغة من قال: بوع المتاع، وقول القول، ويكون الاختلاف في المحذوف منه على ما تقدم.

قال شهاب الدين[٤]: «التمام في «مبيوع، ومهيول» وبابه، لغة تميم، والحذف لغة سائر العرب».

---

(١) ينظر: ديوانه ص ١٣٤، وفيه «الرق القشيب» بدل «الورق القشيب» شرح الشواهد الكبرى ٤/ ٧٧، القرطبي ١٩/ ٣٢.

(٢) ينظر: ديوانه ص ٧٣٢، وشرح شواهد المغني ١/ ١٣٩، واللسان (دهن) ورصف المباني ص ٩٤، ومغني اللبيب ١/ ٤٨، والبحر ٨/ ٣٥٢، والدر المصون ٦/ ٤٠٨.

(٣) سقط من أ.

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٤٠٧.

ويقال: هلتُ التراب أهيله هيلاً، فهو مهيل فيه.

وفيه لغة: أهلتُه ـ رباعيًا ـ إهالةً فهو مُهال، نحو أبعته إباعة فهو مباع. والمهيل من هال تحته القدم أي انصب أي هلت التراب أي طرحته.

وقال القرطبيُّ[(١)]: والمَهِيلُ: الذي يمر تحت الأرجل، قال الضحاك والكلبي: المهيل: الذي إذا وطئته بالقدم زل من تحتها، فإذا أخذت أسفله انهال.

وقال ابن عباس: «مهيلاً» أي: رملاً سائلاً متناثراً[(٢)].

قال القرطبيُّ[(٣)]: وأصله مَهْيُول، وهو «مفعُول» من قولك: هلت التراب عليه أهيلة إهالة وهيلاً، إذا صببته.

يقال: مَهِيل ومَهْيُول، ومَكِيل ومكيول، ومَدِين ومديُون ومَعِين ومَعْيُون.

قال الشاعر: [الكامل]

٤٩٣٣ ـ قَدْ كَانَ قَومُكَ يَحسبُونكَ سيِّداً وإخَالُ أنَّكَ سيِّدٌ مَعْيُونُ[(٤)]

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين شكوا إليه الجدوبة: «أتكِيلُون أمْ تَهِيلُون»؟ قالوا: نهيل. قال: «كِيلُوا طَعامَكُم يُبارِكْ لَكُمُ الله فِيْهِ»[(٥)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما خوف المكذبين أولي النَّعمةِ بأهوال يوم القيامة خوفهم بعد ذلك بأهوال الدنيا، فقال:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ يريد النبي ﷺ أرسله إلى قريش ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ وهو موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهذا تهديد لأهل مكة بالأخذ الوبيل.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٣٢.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٩٠) عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤٦) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٣٢. (٤) تقدم.

(٥) أخرجه البخاري (٤/ ٢٤٥) كتاب البيوع: باب ما يستحب من الكيل حديث (٢١٢٨) وابن ماجه (٢٢٣١، ٢٢٣٢) وأحمد (٤/ ١٣١) والبغوي في «شرح السنة» (٦/ ١٠٣) من حديث المقدام بن معديكرب.

قال مقاتل: وإنما ذكر مرسى وفرعون دون سائر الرسل لأن أهل «مكة» ازدروا محمداً ﷺ واستخفوا به؛ لأنه ولد فيهم كما أن فرعون ازدرى بموسى؛ لأنه ربَّاه، ونشأ فيما بينهم كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾(١) [الشعراء: ١٨].

وذكر ابن الخطيب هذا السؤال والجواب(٢) وليس بالقوي لأن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولد، ونشأ فيما بين قوم نمرود، وكان «آزَر» وزير نمرود على ما ذكره المفسرون، وكذلك القول في نوح وهود وصالح ولوط، لقوله تعالى في قصة كل واحد منهم لفظة «أخاهم» لأنه من القبيلة التي بعث إليها.

قوله: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾، إنما عرفه لتقدم ذكره، وهذه «أل» العهدية، والعرب إذا قدمت اسماً ثم حكت عنه ثانياً، أتوا به معرفاً بـ «أل»، أو أتوا بضميره لئلا يلتبس بغيره نحو «رأيت رجلاً فأكرمتُ الرجل، أو فأكرمته»، ولو قلت: «فأكرمت رجلاً» لتوهم أنه غير الأول وسيأتي تحقيق هذا عند قوله تعالى ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦] وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لَنْ يغْلِبَ عسرٌ يُسرين»(٣).

قال المهدوي هنا: ودخلت الألف واللام في «الرسول» لتقدم ذكره، ولذلك اختير في أول الكتب «سَلامٌ عَلَيْكُم»، وفي آخرها «السَّلام عليْكُم».

قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾، أي: شديداً، وضرب وبيل، وعذاب وبيل، أي: شديد.

قاله ابن عباس ومجاهد، ومنه: «مطر وابل»، أي: شديد(٤)، قاله الأخفش.

وقال الزَّجاجُ: أي: ثقيلاً غليظاً، ومنه قيل للمطر وابل. وقيل: مهلكاً، قال: [الكامل]

٤٩٣٤ ـ أكَلْتِ بَنِيكِ أكْل الضَّبِّ حتَّى ... وجَدْتِ مرارة الكَلأ الوَبِيلِ(٥)

واستوبل فلان كذا: أي: لم يحمد عاقبته، وماء وبيل: أي: وخيم غير مريء وكلأ مستوبل، وطعام وبيل ومستوبل إذا لم يُمرأ ولم يستمرأ؛ قال زهير: [الطويل]

٤٩٣٥ ـ فَقضَوا مَنايَا بَينَهُمْ ثُمَّ أصْدَرُوا ... إلى كَلأٍ مُستَوبَلٍ مُتوخِمِ(٦)

وقالت الخنساء: [الوافر]

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٣٣).

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١٦١. (٣) سيأتي تخريجه في «سورة الشرح».

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٩٠) عن ابن عباس ومجاهد.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤٦) عن ابن عباس وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٥) قائله هو العملس بن عقيل. ينظر الحيوان ٤٩١٦، والمعاني الكبير ص ٦٤٢، والأغاني ١٢/ ٢٧١، وشرح شواهد المغني ٢/ ٧٨٣، ومغني اللبيب ٢/ ٣٦٦، والقرطبي ١٩/ ٣٣.

(٦) ينظر: شرح ديوان زهير ص (٢٤)، واللسان (وخم) والقرطبي ١٩/ ٣٣.

٤٩٣٦ ـ لَقَدْ أَكَلتْ بجِيلَةُ يَوْمَ لاقَتْ ... فَوارِسَ مالِكٍ أَكْلاً وبِيلا[١]

والوبيل أيضاً: العصا الضخمة؛ قال: [الطويل]

٤٩٣٧ ـ لَوَ اَصْبَحَ فِي يُمْنَى يَدَيَّ زِمامُهَا ... وفِي كَفِّيَ الأخْرَى وبِيلاً نُحَاذِرُهْ[٢]

وكذلك: «الوبل» بكسر الباء، و «الوبل» أيضاً: الحزمة من الحطب وكذلك «الوبيل».

قال طرفة: [الطويل]

٤٩٣٨ .... عَقِيلَةُ شَيْخٍ كالوَبِيلِ يَلَنْدَدِ[٣]

فصل في الاستدلال بالآية على «القياس»

قال ابن الخطيب[٤]: هذه الآية يمكن الاستدلال بها على إثبات القياس، لأن الكلام إنما ينتظم لو قسنا إحدى الصورتين على الأخرى.

فإن قيل هنا: هب أن القياس في هذه الصورة حجة، فلم قلتم: إنه في سائر الصور حجة، حينئذ يحتاج إلى سائر القياسات على هذا القياسِ، فيكون ذلك إثباتاً للقياس بالقياس؟.

قلنا: لا نثبت سائر القياسات بالقياس على هذه الصورة، وإلا لزم المحذور الذي ذكرتم بل وجه التمسك أن نقول: لولا أنه تمهد عندهم أن الشيئين اللذين يشتركان في مناط الحكم ظنًّا يجب اشتراكهما في الحكم، وإلا لما أورد هذا الكلام في هذه الصورة وذلك لأن احتمال الفرق المرجوح قائم هنا، فإنَّ لقائلٍ أن يقول: لعلهم إنما استوجبوا الأخذ الوبيل بخصوصية حال العصيان في تلك الصورة وتلك الخصوصية غير موجودة ـ هاهنا ـ، ثم إنه تعالى مع قيام هذا الاحتمال جزم بالتسوية في الحكم [فهذا الجزم لا بد وأن يقال إنه كان مسبوقاً بتقدير أنه متى وقع اشتراك في المناط الظاهر وجزم الاشتراك في الحكم]، وإن الفرق المرجوح من أن ذلك المرجوح لخصوص تلك الواقعةِ لا عبرة به لم يكن لهذا الكلام كثير فائدة، ولا معنى لقولنا القياس حجة إلا لهذا.

فصل في معنى شهادة الرسول عليهم

قال ابن الخطيب[٥]: ومعنى كون الرسول شاهداً عليهم من وجهين:

---

(١) ينظر: القرطبي ١٩/ ٣٣.

(٢) ينظر: اللسان (وبل) والقرطبي ١٩/ ٣٣.

(٣) يروى يلندد مكان المبدد.

ينظر: ديوان طرفة ص ٣٨، واللسان (وبل) والقرطبي ١٩/ ٣٣.

(٤) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١٦١.

(٥) السابق.

الأول: أنه شاهد عليهم يوم القيامة بكفرهم، وتكذيبهم.

الثاني: أن المراد بكونه شاهداً كونه مبيناً للحق في الدنيا ومبيناً لبطلان ما هم عليه من الكفر، لأن الشاهد بشهادته يبين الحق، ولذلك وصفت بأنها بينة، ولا يمتنع أن يوصف ﷺ بذلك من حيث إنه يبين الحق.

قال ابن الخطيب[1]: وهذا بعيد، لأن الله تعالى قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي: عُدُولاً خياراً، ويكون الرسول عليكم شهيداً، فبين أنه شاهد عليهم في المستقبل لأن حمله الشهادة في الآخرة حقيقة، وحمله على البيان مجاز، والحقيقة أولى من المجاز.

قوله: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾.

«يوماً» إما منصوب بـ «تَتَّقُونَ» على سبيل المفعول به تجوزاً.

وقال الزمخشري: «يوماً مفعول به، أي: فكيف تتقون أنفسكم يوم القيامة وهَوْلَهُ إن بقيتم على الكفر».

وناقشه أبو حيان فقال[2]: «وتتقون مضارع «اتقى» و «اتقى» ليس بمعنى «وقى» حتى يفسره به و «اتقى» يتعدى إلى واحد و «وقى» يتعدى إلى اثنين، قال تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الطور: ١٨] ولذلك قدره الزمخشريُّ: تقون أنفسكم لكنه ليس «تتقون» بمعنى «تقون»، فلا يعدى تعديته» انتهى.

ويجوز أن ينتصب على الظرف، أي: فكيف لكم بالتقوى يوم القيامة، إن كفرتم في الدنيا. قاله الزمخشري.

ويجوز أن ينتصب مفعولاً بـ «كفرتم» إن جعل «كفَرْتُمْ» بمعنى «جَحدتُمْ» أي: فكيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة.

ولا يجوز أن ينتصب ظرفاً لأنهم لا يكفرون ذلك اليوم بل يؤمنون لا محالة.

ويجوز أن ينتصب على إسقاط الجار، أي: كفرتم بيوم القيامة.

فصل في المراد بالآية

قال القرطبيُّ[3]: وهذا تقريع وتوبيخ، أي: كيف تتقون العذاب إن كفرتم، وفيه تقديم وتأخير، أي: كيف تتقون يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم، وكذا قراءة[4] عبد الله وعطية.

---

(١) السابق ٣٠/ ١٦٢.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٦٥.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٣٣.

(٤) ينظر: السابق.

قال الحسن: بأي صلاة تتقون العذاب؟ بأي صوم تتقون العذاب؟[١] وفيه إضمار، أي: كيف تتقون عذاب يوم القيامة.

وقال قتادة: والله ما يتقى من كفر ذلك اليوم بشيء[٢]، و «يَوْماً» مفعول بـ «تتقون» على هذه القراءة وليس بظرف، وإن قدر الكفر بمعنى الجحود كان اليوم مفعول «كفرتم»، وقال بعض المفسرين: وقف التمام على قوله «كَفرْتُمْ» والابتداء «يَوْماً» يذهب إلى أن «اليوم» مفعول «يَجْعَلُ» والفعل لله ـ عز وجل ـ كأنه قال: يجعل الله الولدان شيباً في يوم.

قال ابن الأنباري: وهذا لا يصح؛ لأن اليوم هو الذي يفعل هذا من شدة هوله.

وقال المهدوي: والضمير في «يَجْعلُ» يجوز أن يكون لله ـ عز وجل ـ ويجوز أن يكون لليوم، وإذا كان لليوم، صلح أن تكون صفة له، ولا يصلح ذلك إذا كان الضمير لله ـ عز وجل ـ إلا مع تقدير حذف، كأنه قيل: يوماً يجعل الله الولدان فيه شيباً.

وقال ابن الأنباري: ومنهم من نصب «اليوم» بـ «كَفرتُم»، وهذا قبيح؛ لأن اليوم إذا علق بـ «كفرتم» احتاج إلى صفة، أي: كفرتم بيوم، فإن احتج محتج بأن الصفة قد تحذف، وينصب ما بعدها، احتججنا **عليه بقراءة عبد الله**[٣]: «فَكَيْفَ تَتَّقُونَ يَوْماً».

قال القرطبيُّ[٤]: «هذه القراءة ليست بمتواترة، وإنما جاءت على وجه التفسير، وإذا كان الكفر بمعنى الجحود فـ «يوم» مفعول صريح من غير صفة، ولا حذفها، أي: فكيف تتقون الله، وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة، والجزاء».

والعامة: على تنوين «يَوْماً»، وجعل الجملة بعده نعتاً له، والعائد محذوف، أي: جعل الولدان فيه. قاله أبو البقاء، ولم يتعرض للفاعل في «يَجْعلُ»، وهو على هذا ضمير الباري تعالى، أي: يوماً يجعل الله فيه، وأحسن من هذا أن يجعل العائد مضمراً في «يَجْعَلُ» هو فاعله، وتكون نسبة الجعل إلى اليوم من باب المبالغة، أي: نفس اليوم يجعل الولدان شيباً.

وقرأ زيد[٥] **بن علي**: «يَوْمَ يَجْعَلُ» بإضافة الظرف للجملة، والفاعل على هذا هو ضمير الباري ـ تعالى ـ والجعل ـ هنا ـ بمعنى التصيير، فـ «شيباً» مفعول ثان.

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤٧) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٩١) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤٧) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٣٤.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٣٤.

(٥) ينظر: الدر المصون ٦/ ٤٠٨.

وقرأ أبو السمال[١]: «فكيف تتَّقُون» بكسر النون على الإضافة.

والولدان: الصبيان.

وقال السديُّ: هم أولاد الزنا[٢].

وقيل: أولاد المشركين، والعموم أصح أي يوم يشيب فيه الصغير من غير كبر، وذلك حين يقال لآدم: يا آدَمُ قَمْ فابْعَثْ بعثاً للنارِ. قال القشيريُّ: هم أهل الجنة، يُغيِّرُ اللَّهُ أحوالهم، وأوصافهم على ما يريد.

وقيل: هذا ضرب مثل لشدة ذلك اليوم، وهو مجاز لأن يوم القيامة لا يكون فيه ولدان، لكن معناه: أن هيبة ذلك اليوم بحال لو كان فيه هناك صبي لشاب رأسه من الهيبة، ويقال: هذا وقت الفزع قبل أن ينفخ في الصور نفخة الصعقِ. والله أعلم.

و «شيباً»: جمع «أشْيَب»، وأصل الشين الضم فكسرت لتصح الياء، نحو: أحْمَر وحُمْرٌ؛ قال الشاعر: [البسيط]

٤٩٣٩ ـ مِنَّا الذِي هُوَ مَا إنْ طَرَّ شَارِبُهُ والعَانِسُونَ، ومنَّا المُرْدُ والشِّيبُ[٣]

وقال آخر: [الطويل]

٤٩٤٠ ـ .... لَعِبْنَ بِنَا شِيباً، وشَيَّبْنَنَا مُرْدَا[٤]

قال الزمخشريُّ: وفي بعض الكتب أن رجلاً أمسى فاحم الشعر كحنكِ الغراب، فأصبح وهو أبيض الرأس واللحية كالثغامة، فقال: رأيت القيامة والجنة والنار في المنام، ورأيت الناس يقادون في السلاسل إلى النار، فمن هول ذلك أصبحت كما ترون.

ويجوز أن يوصف اليوم بالطول فإن الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة والشيب.

قال ابن الخطيب[٥]: إن الله تعالى ذكر من هول ذلك اليوم أمرين:

الأول: جعل الولدان شيباً وفيه وجهان:

الأول: أنه مثلٌ في الشدة، يقال في اليوم الشديد: يوم يشيِّبُ نواصي الأطفال، والأصل فيه أن الهموم، والأحزان إذا تفاقمت[٦] على الإنسان، أسرع فيه الشيبُ لأن

---

(١) ينظر: القرطبي ١٩/ ٣٤.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٣٤) عن السدي.

(٣) نسب البيت لأبي قيس بن رفاعة، كما نسب إلى أبي قيس بن الأسلت.

ينظر إصلاح المنطق ص ٣٤١، والدرر ١/ ١٣١، وشرح شواهد المغني ص ٧١٦، والمقاصد النحوية ١/ ١٦٧، وأمالي القالي ٢/ ٦٧، وسر صناعة الإعراب ص ٦٨٣، وشرح الأشموني ١/ ٣٥، والأزهية ٩٧، ومغني اللبيب ص ٣٠٤، وهمع الهوامع ١/ ٤٥، وابن الشجري ٢٣٨١.

(٤) تقدم.

(٥) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١٦٢.

(٦) في أ: تعاظمت.

كثرة الهموم؛ توجب انكسار الروح إلى داخل القلب، وذلك الانكسار يوجب انطفاء الحرارة الغريزية، وضعفها يوجب بقاء الأجزاء الغذائية غير تامة النضج، وذلك يوجب استيلاء البلغم على الأخلاط، وذلك يوجب ابيضاض الشعر، فلما رأوا أن حصول الشيب من لوازم كثرة الهموم جعلوا الشيب كناية عن الشدة والهموم، وليس المراد أن هول ذلك اليوم يجعل الولدان شيباً حقيقة لأن إيصال الألم أو الخوف إلى الأطفال غير جائز يوم القيامة.

الثاني: ما تقدم من طول اليوم وأن الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة، والشيب.

قوله: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾. صفة أخرى، أي: متشققة بسبب هوله وشدته، فتكون الباء سببية، وجوز الزمخشريُّ أن تكون للاستعانة، فإنه قال: والباء في «به» مثلها في قولك: «فطرت العود بالقدُوم فانفَطرَ بِهِ».

وقال القرطبيُّ[1]: ومعنى «به»، أي: فيه، أي: في ذلك اليوم لهوله، هذا أحسن ما قيل فيه، ويقال: مثقلة به إثقالاً يؤدي إلى انفطارها لعظمته عليها، وخشيته من وقوعها، كقوله تعالى ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقيل: «به»؛ أي: له، أي: لذلك اليوم، يقال: فعلت كذا بحرمتك، أو لحرمتك، والباء واللام وفي متقاربة في مثل هذا الموضع، قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، أي: في يوم القيامة، وقيل: «به» أي بالأمر، أي: السماء منفطر بما يجعل الولدان شيباً.

وقيل: السَّماءُ منفطر بالله، أي: بأمره. وإنما لم تؤنث الصفة لوجوه منها:

قال أبو عمرو بن العلاء: لأنها بمعنى السقفِ تقول: هذا سماء البيت، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

ومنها: أنها على النسب، أي: ذات انفطار، نحو: امرأة مرضع وحائض، أي: ذات إرضاع، وذات حيض.

ومنها أنها تذكر، وتؤنث؛ أنشد الفراء: [الوافر]

٤٩٤١ ـ فَلَوْ رَفَعَ السَّماءُ إليه قَوماً لَخُضْنَا بالسَّماءِ وبالسَّحَابِ[2]

ومنها: اسم الجنس، يفرق بينه وبين واحده بالتاء، فيقال: سماة، وقد تقدم أن اسم الجنس يذكر ويؤنث.

ولهذا قال أبو علي الفارسي: هو كقوله: ﴿جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧]، و ﴿ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾ [يس: ٨٠] و ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠] يعني: فجاء على أحد الجائزين.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٣٤.
(٢) تقدم.

وقيل: لأن تأنيثها ليس بحقيقي، وما كان كذلك جاز تذكيره وتأنيثه؛ قال الشاعر: [البسيط]

٤٩٤٢ ـ .... والعَيْنُ بالإثْمِدِ الحَارِيِّ مَكْحُولُ[١]

قوله: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾، يجوز أن يكون الضميرُ لله تعالى، وإن لم يجر له ذكر للعلم به، فيكون المصدر مضافاً لفاعله، ويجوز أن يكون لليوم، فيكون مضافاً لمفعوله والفاعل وهو «اللَّهُ» مقدر.

فصل في المراد بالوعد

قال المفسرون: كان وعده بالقيامة والحساب والجزاء مفعولاً كائناً لا محالة ولا شك فيه ولا خلاف، وقال مقاتل: كان وعده بأن يظهر دينه على الدين كله[٢].

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾، أي: هذه السورة والآيات عظة، وقيل: آيات القرآن إذ هو كالسورة الواحدة ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾؛ لأن هذه الآيات مشتملة على أنواع الهداية، والإرشاد، فمن شاء أن يؤمن، ويتخذ بذلك إلى ربِّه سبيلاً، أي: طريقاً إلى رضاه، ورحمته فليرغب، فقد أمكن له؛ لأنه أظهر له الحجج، والدلائل.

قيل: نسخت بآية السيف، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾.

قال الكلبيُّ: والأشبه أنه غير منسوخ.

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ﴾.

العامة: على ضم «اللام» من «ثلثي» وهو الأصل، كالربع والسدس.

---

(١) عجز بيت للطفيل الغنوي وصدره:

إذ هي أحوى من الرِّبْعيِّ حاجِبُهُ

ينظر ديوانه ص ٥٥، والإنصاف ٧٧٥١٢، وشرح أبيات سيبويه ١/ ١٨٧، وشرح شواهد الإيضاح ص ٣٤٢، والكتاب ٤٦١٢، واللسان (صرخد)، وسر صناعة الإعراب ٢/ ٩٦٦، وشرح المفصل ١/ ١٨.

(٢) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٣١) وينظر المصدر السابق.

وقرأ هشام[١]: بإسكانها تخفيفاً.

قوله: ﴿وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾، **قرأ الكوفيون**[٢] **وابن كثير**: بنصبهما، والباقون: بجرهما. وفي الجر إشكال يأتي إن شاء الله تعالى.

فالنصبُ: نسق على «أدْنَى»؛ لأنه بمعنى وقت أدنى، أي: أقرب، استعير الدنو لقرب المسافة في الزمان، وهذا مطابق لما في أول السورة من التقسيم، وذلك أنه إذا قام أدنى من ثلثي الليل، فقد صدق عليه أنه قام الليل إلا قليلاً، لأن الزمان لم يقم فيه، فيكون الثلث، وشيئاً من الثلثين، فيصدق عليه قوله: «إلاَّ قَلِيلاً».

وأما قوله: «ونصفهُ» فهو مطابق لقوله: «ولا نِصْفهُ»، وأما قوله: «وثُلثهُ» فإنَّ قوله: «أو انقُصْ منهُ قَلِيلاً» قد ينتهي النقص في القليل إلى أن يكون الوقت ثلثي الليل، وأما قوله: «أو زِدْ عليْهِ» فإنَّه إذا زاد على النصف قليلاً كان الوقت أقل من الثلثين. فيكون قد طابق أدنى من ثلثي الليل، ويكون قوله تعالى: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ شرطاً لمبهم ما دل عليه قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وعلى قراءة النصب: فسر الحسن «تحصُوهُ» بمعنى تطيقوه، وأما قراءة الجر: فمعناها أنه قيام مختلف مرة أدنى من الثلثين، ومرة أدنى من الثلث وذلك لتعذر معرفة البشر بمقدار الزمان مع عذر النوم، وقد أوضح هذا كله الزمخشري، فقال: وقرىء: «نصفه وثلثه» بالنصب، على أنك تقوم أقل من الثلثين، وتقوم النصف والثلث، وهو مطابق لما مر فيه أول السورة في التخيير بين قيام النصف بتمامه، وبين قيام الناقص وهو الثلث، وبين قيام الزائد عليه وهو الأدنى من الثلثين.

وقرىء بالجر أي تقوم أقل من الثلثين وأقل من النصف والثلث، وهو مطابق للتخيير بين النصف، وهو أدنى من الثلثين، والثلث، وهو أدنى من النصف، والربع وهو أدنى من الثلث، وهو الوجه الأخير، انتهى.

يعني بالوجه الأخير ما قدمه أول السورة من التأويلات. وقال أبو عبد الله الفارسي: وفي قراءة النصب إشكال إلا أن يقدر نصفه تارة، وثلثه تارة، وأقل من النصف، والثلث تارة، فيصح المعنى.

فصل في بيان أن هذه الآية تفسير للقيام في أول السورة

قال القرطبيُّ[٣]: هذه الآية تفسير لقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ أو زد عليه ـ كما تقدم ـ وهي الناسخة لفريضة قيام الليل كما تقدم، ومعنى قوله تعالى «تَقُومُ» أي: تصلي، و «أدْنَى»، أي: أقل.

---

(١) ينظر: السبعة ٦٥٨، والحجة ٦/ ٣٣٧، وإعراب القراءات ٢/ ٤٠٧.

(٢) ينظر: السابق، وإعراب القراءات ٢/ ٤٠٧. (٣) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٣٥.

وقرأ ابن السميقع وأبو حيوة وهشام عن أهل الشام: «ثلثي» بإسكان اللام، و «نصفه وثلثه» بالخفض: قراءة العامة ـ كما تقدم ـ، عطفاً على «ثلثي» والمعنى: تقوم أدنى من ثلثي الليل، ومن نصفه، وثلثه، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم، لقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ فكيف تقيمون نصفه أو ثلثيه، وهو لا تحصونه؟! وأما قراءة النصف عطفاً على «أدنى»، والتقدير: تقوم أدنى من ثلثيه وتقوم نصفه وثلثه. قال الفراءُ: وهو أشبه بالصوابِ؛ لأنه قال: أقلّ من الثلثين، ثم ذكر نفس القلة لا أقل من القلة.

قال القشيريُّ: وعلى هذه القراءة يحتمل أنهم كانوا يصيبون الثلث والنصف لخفة القيام عليهم بذلك القدر، وكانوا يزيدون، وفي الزيادة إصابة المقصود، فأما الثلثان فكان يثقل عليهم قيامه فلا يصيبونه، وينقصون منه، ويحتمل أنهم أمروا بالقيام نصف الليل، ورخص لهم في الزيادة والنقصان، وكانوا ينتهون في الزيادة إلى قريب من الثلثين، وفي النصف إلى قريب من الثلث، ويحتمل أنَّهُم قدر لهم النصف وأنقص إلى الثلث، والزيادة إلى الثلثين، وكان فيهم من يفي بذلك، وفيهم من يترك ذلك إلى أن نسخ عنهم، وقيل: إنَّما فرض عليهم الربع، وكانوا ينقصون من الربع.

قال القرطبيُّ[1]: «وهَذَا تَحكُّمٌ».

قوله: ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾. رفع بالعطف على الضمير في «تقُومُ»، وجوز ذلك الفصل بالظرف، وما عطف عليه.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ﴾.

قال الزمخشريُّ: «تقديم اسم الله ـ عز وجل ـ مبتدأ مبنياً عليه «يقدر» هو الدال على معنى الاختصاص بالتقدير».

ونازعه أبو حيَّان في ذلك، وقال[2]: «لو قيل: زيدٌ يحفظ القرآن، لم يدل ذلك على اختصاصه».

وقيل: الاختصاص في الآية مفهوم من السياق، والمعنى: ليعلم مقادير الليل، والنهار على حقائقها، وأنتم تعلمون بالتحري، والاجتهاد الذي يقع فيه الخطأ.

قوله: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾، «أنْ لَنْ» و «أنْ سَيكُون» كلاهما مخففة من الثقيلة والفاصل للنفي، وحرف التنفيس.

والمعنى: علم أن لن تطيقُوا معرفة حقائق ذلك، والقيام به، أي: أن الله هو الذي يعلم مقادير الليل والنهار على حقيقته.

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٣٥.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٦٧.

وقيل: المعنى: لن تطيقوا قيام الليل، والأصح الأول، لأن قيام الليل ما فرض كله قط.

قال مقاتل وغيره: لما نزل ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ شق ذلك عليهم، وكان الرجل لا يدري متى نصف الليل، من ثلثه، فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطىء، وانتفخت أقدامهم، وانتقعت ألوانهم، فخفف الله عليهم، وقال: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾، أي: علم أنكم إن زدتم ثقل عليكم، واحتجتم إلى تكليف ما ليس فرضاً، وإن نقصتم شق معرفة ذلك عليكم(١).

قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾، أي: فعاد عليكم بالعفو، وهذا يدل على أنه كان فيهم من ترك بعض ما أمر به.

وقيل: «فتَابَ علَيْكمْ» من فرض القيام أو عن عجزكم، وأصل التوبة الرجوع ـ كما تقدم ـ فالمعنى: رجع لكم من تثقيل إلى تخفيف، ومن عسر إلى إيسار، وإنما أمروا بحفظ الأوقات بالتحري، فخفف عنهم ذلك التحري.

وقيل: معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، أي: يخلقهما مقدرين، كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢].

قال ابنُ العربي: تقدير الخلقة لا يتعلق به حكم وإنما يربط الله به ما يشاء من وظائف التكليف. قوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾.

قيل: المراد نفس القراءةِ، أي: فاقرأوا فيما تصلون به بالليل ما خف عليكم.

قال السديُّ: مائة آية(٢).

وقال الحسنُ: من قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجه القرآن(٣).

وقال كعبٌ: من قرأ في ليلةٍ مائة آيةٍ كتب من القانتين(٤).

وقال سعيد بن جبير: خمسون آية(٥).

قال القرطبي(٦): قول كعب أصح، لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مَنْ قَامَ بِعشْرِ

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٣٥ ـ ٣٦) عن مقاتل.
(٢) ينظر المصدر السابق وقد ورد هذا مرفوعاً من حديث ابن عباس ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٣٣) وقال: رواه الطبراني وفيه عبد الرحمن بن طاووس ولم أعرفه وبقية رجاله وثقوا.
وذكره أيضاً السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤٨) وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه.
(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٩٤) وذكره القرطبي (١٩/ ٣٦).
(٤) ينظر المصدر السابق.
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٣٦).
(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٣٦).

آيَاتٍ لَمْ يُكتَبْ مِنَ الغَافِلِينَ، ومَنْ قَامَ بِمائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ القَانِتِيْنَ، ومَنْ قَامَ بألفِ آيةٍ كُتِبَ من المُقنطرينَ»(١). خرجه أبو داود الطيالسي.

وروى أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ قَرَأ خَمْسين آيَةً فِي يَوم أوْ فِي لَيْلةٍ لَمْ يُكتَبْ مَنَ الغَافلِيْنَ، ومَنْ قَرأ مِائةَ آيةٍ كُتِبَ مِنَ القَانِتين، ومَنْ قَرَأ مائَتَي آيةٍ لَمْ يُحَاجِهِ القرآنُ إلى يَوْمِ القيامة، ومن قرأ خَمْسمائةِ آيةٍ كُتِبَ لَهُ قِنطارٌ مِنَ الأجْرِ»(٢).

فقوله: «مَنَ المقَنْطرِيْنَ»، أي: أعطي قنطاراً من الأجر.

وجاء في الحديث: أن القنطار: ألف ومائتا أوقية، والأوقية خير مما بين السماء والأرض.

وقال أبو عبيدة: القناطيرُ، واحدها قنطار، ولا تجد العرب تعرف وزنه، ولا واحد للقنطار من لفظه.

وقال ثعلب: المعمول عليه عند العربِ أنه أربعة آلافِ دينارٍ، فإذا قالوا: قناطير مقنطرة فهي اثنا عشر ألف دينار.

وقيل: إن القنطار: ملء جلد ثور ذهباً.

وقيل: ثمانون ألفاً.

وقيل: هي جملة كثيرة مجهولة من المال، نقله ابن الأثير.

وقيل: المعنى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ﴾، أي: فصلوا ما تيسر عليكم، والصلاة تسمى قرآناً، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، أي: صلاة الفجر.

قال ابن العربي: «والأول أصح، لأنه أخبر عن الصلاة وإليها يرجع القول».

قال القرطبيُّ(٣): «الأول أصح حملاً للخطاب على ظاهر اللفظ، والقول الثاني مجاز لأنه من تسمية الشيءِ ببعض ما هو من أعماله».

فصل في بيان أن الآية ناسخة

قال بعض العلماءِ: قوله تعالى ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ﴾ نسخ قيام الليل ونصفه،

---

(١) أخرجه أبو داود (١٣٩٨) وابن خزيمة (٢/ ١٨١) رقم (١١٤٤) وابن حبان (٦٦٢ ـ موارد) وابن السني في «عمل اليوم الليلة» رقم (٧٠١) من حديث عبد الله بن عمرو.

وله شاهد من حديث ابن عمر بمثله إلا أنه قال في الجملة الأخيرة: «ومن قرأ بمائتي آية كتب من الفائزين» أخرجه الدارمي (٢/ ٤٦٥ ـ ٤٦٦) والحاكم (١/ ٥٥٥ ـ ٥٥٦) وصححه ورده الذهبي بقوله: قلت: إسناده واه.

(٢) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (٦٩٤) من حديث أنس.

(٣) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٣٦.

والنقصان من النصف، والزيادة عليه، ثم يحتمل قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ معنيين:

أحدهما: أن يكون فرضاً ثانياً لأنه أزيل به فرض غيره.

والآخر: أن يكون فرضاً منسوخاً أزيل بغيره كما أزيل به غيره، وذلك بقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، فاحتمل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: تتهجد بغير الذي فرض عليك مما تيسر منه.

قال الشافعيُّ: فكان الواجب طلب الاستدلال بالسنة على أحد المعنيين فوجدنا سنّة رسول الله ﷺ تدل على أن لا واجب من الصلاة إلا الخمس.

فصل في أن النسخ هنا خاص بالأمة

قال القشيريُّ: والمشهورُ أنَّ نسخ قيامِ الليل كان في حق الأمةِ، وبقيت الفريضةُ في حق النبي ﷺ.

وقيل: إنما النسخ: التقدير بمقدار، وبقي أصل الوجوب كقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، فالهدي لا بد منه، كذلك لا بد من الصلاة في الليل ولكن فوض تقديره إلى اختيار المصلي، وعلى هذا فقال قوم: فرض قيام الليل بالقليل باق، وهو مذهب الحسنِ.

قال الشافعيُّ: بل نسخ بالكلية، فلا تجب صلاة الليل أصلاً، ولعل الفريضة التي بقيت في حق النبي ﷺ هي هذه، وهو قيامه، ومقداره مفوض إلى خيرته، وإذا ثبت أن القيام ليس فرضاً، فقوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾، معناه: اقرأوا إن تيسر عليكم ذلك وصلوا إن شئتم.

وقال قوم: إنَّ النسخ بالكلية تقرر في حق النبي ﷺ أيضاً، فما كانت صلاة الليل واجبة عليه، وقوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ محمول على حقيقة النفل، ومن قال: نسخ المقدار وبقي أصل وجوب قيام الليل لم ينسخ، فهذا النسخ الثاني وقع ببيان مواقيت الصلاة كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨] الآية، وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ [الروم: ١٧] الآية، ما في الخبر من أن الزيادة على الصلوات الخمس تطوع.

وقيل: وقع النسخ بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾، والخطاب للنبي ﷺ وللأمة كما أن فرضية الصلاة، وإن خوطب بها النبي ﷺ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ فهي عامة له ولغيره.

وقد قيل: إن فريضة قيام الليل امتدت إلى ما بعد الهجرةِ، ونسخت بالمدينة لقوله

تـعـالـى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وإنما فرض القتال بالمدينة، فعلى هذا بيان المواقيت جرى بمكة، فقيام الليل نسخ بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩].

وقال ابن عباس: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نسخ قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾، وجوب قيام الليل(١).

فصل في علة تخفيف قيام الليل

قوله: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ بيَّن سبحانه علة تخفيف قيام الليل، فإن الخلق منهم المريض، ويشق عليه قيام الليل، ويشق عليه أن تفوته الصلاة، والمسافر في التجارات قد لا يطيق قيام الليل، والمجاهد كذلك، فخفَّف الله عن الكل لأجل هؤلاء.

وقال ابن الخطيب(٢): لمَّا علم الله تعالى أعذار هؤلاء، يعني المريض، والمسافر، والمجاهد، فلو لم يناموا بالليل لتوالت عليهم أسباب المشقة، وهذا السبب ما كان موجوداً في حق النبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ فلا جرم لم ينسخ وجوب التهجد في حقه عليه الصلاة والسلام.

و «أن» في قوله: «أنْ سيَكونُ» مخففة من الثقيلة، أي: علم أنه سيكون.

قوله: «وآخَرُونَ» عطف على «مَرْضَى»، أي: علم أن سيوجد منكم قوم مرضى، وقوم آخرون مسافرون، فـ «يَضْرِبُونَ» نعت لـ «آخَرُونَ» وكذلك «يَبْتَغُونَ»، ويجوز أن يكون «يبتغون» حالاً من فاعل «يَضْرِبُونَ»، و «آخَرُونَ» عطف على «آخَرُونَ» و «يُقَاتلُونَ» صفته.

فصل في بيان أن الكسب الحلال كالجهاد

سوى الله تعالى في هذه الآية(٣) بين درجة المجاهدين، والملتمسين للمال الحلال للنفقة على نفسه، وعياله، والإحسان، فكان هذا دليلاً على أن كسب المال بمنزلة الجهاد؛ لأنّ جمعه من الجهاد في سبيل الله.

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مَا مِنْ جَالبٍ يَجلبُ طَعاماً مِنْ بَلدٍ إلى بَلدٍ، فيَبيعُهُ بِسْعرِ يَومِهِ إلاَّ كَانتْ مَنزلتُهُ عندَ اللَّهِ تعالى مَنْزلةَ الشُّهداءِ» ثُمَّ قَرأ رسُولُ الله ﷺ: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٤).

---

(١) تقدم. (٢) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١٦٥.

(٣) في أ: السورة.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤٩) وعزاه إلى ابن مردويه.

وقال ابن مسعود: أيما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً، فباعه بسعر يومه كان له عند الله منزلة الشهداء، وقرأ: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(١).

وقال ابن عمر: ما خلق الله موتة أموتها بعد الموت في سبيل الله أحب إليَّ من الموت بين شعبتي رحْلي، أبتغي من فضل الله، ضارباً في الأرض(٢).

وقال طاووس: الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله(٣).

قوله: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾، أي: صلُّوا ما أمكن فأوجب الله تعالى من صلاة الليل، ما تيسَّر، ثم نسخ ذلك بإيجاب الصلوات الخمس على ما تقدم.

وقال عبد الله بن عمرو: قال لي رسول الله ﷺ: «يَا عَبْدَ الله، لا تكُنْ مِثْلَ فُلانٍ كَانَ يقُومُ اللَّيْلَ، فتركَ قِيامَ اللَّيْلِ»، ولو كان فرضاً ما أقره النبي ﷺ ولا أخبر بمثل هذا الخبر عنه، بل كان يذمه غاية الذم(٤).

فصل في القدر الذي يقرأ به في صلاته

إذا ثبت أنَّ قيام الليل ليس بفرض، وأن قوله ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾، ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ محمول على ظاهره من القراءة في الصلاة، فاختلف العلماء في قدر ما يلزمه أن يقرأ به في الصلاة.

فقال مالك والشافعيُّ: فاتحة الكتابِ لا يجوز العدول عنها ولا الاقتصار على بعضها، وقدره أبو حنيفة بآية واحدة من أي القرآن كانت، وعنه ثلاث آياتٍ لأنها أقل سورة، وقيل المراد به قراءة القرآن في غير الصلاة.

قال الماورديُّ: فعلى هذا القول يكون مطلق الأمر محمولاً على الوجوب ليقف بقراءته على إعجازه وما فيه من دلائل التوحيد، وبعث الرسل، ولا يلزمه إذا قرأه وعرف إعجازه، ودلائل التوحيد أن يحفظه؛ لأن حفظ القرآن من القرب المستحبة دون الواجبة والأكثرون على أنه للاستحباب، لأنه لو وجب علينا قراءته لوجب حفظه. وفي قدر الواجب أقوال:

الأول: قال الضحاكُ: جميع القرآن، لأن الله تعالى يسره على عباده(٥).

الثاني: قال جويبر: ثلث القرآن(٦).

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٣٧). (٢) ينظر المصدر السابق.
(٣) ينظر المصدر السابق. (٤) تقدم تخريجه.
(٥) ذكره الماوردي في «تفسيره (٦/ ١٣٣) والقرطبي (١٩/ ٣٩).
(٦) ينظر المصدر السابق.

الثالث: قال السديُّ: مائتا آية[١].

الرابع: قال ابن عباسٍ: مائة آية[٢].

الخامس: قال أبو خالد الكناني: ثلاث آياتٍ كأقصر سورة[٣].

قوله ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، يعني الخمس المفروضة، وهي الخمس لوقتها، ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبة في أموالكم.

قاله عكرمة وقتادة، وقال الحارث العكلي: صدقة الفطر، لأن زكاة الأموال وجبت بعد ذلك[٤]، وقيل: صدقة التطوع.

وقيل: كل فعل خير.

وقال ابن عباسٍ: طاعة الله الإخلاص[٥].

قوله: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾. القرض الحسن ما أريد به وجه الله تعالى خالصاً من المال الطيب وقال زيد بن أسلم: القرض الحسن، النفقة على الأهل[٦]، وقيل: صلةُ الرَّحِمِ، وقرى الضيف، وقال عمر بن الخطاب: هو النفقة في سبيل الله[٧].

قوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ تقدم بيانه في سورة «البقرة».

قوله: ﴿هُوَ خَيْرًا﴾، العامة على نصب الخير مفعولاً ثانياً، و «هُوَ» إما تأكيد للمفعول الأول، أو فصل.

وجوَّز أبو البقاء: أن يكون بدلاً، وهو غلط، لأنه كان يلزم أن يطابق ما قبله في الإعراب فيقال: إياه.

وقرأ أبو السمال[٨] **وابن السميقع**: «خير» على أن يكون «هو» مبتدأ، و «خير» خبره، والجملة مفعول ثان لـ «تَجِدُوه».

قال أبو زيد: هي لغة تميم، يرفعون ما بعد الفصل.

وأنشد سيبويه: [الطويل]

٤٩٤٣ ـ تَحِنُّ إلى لَيْلَى وأنْتَ تَرَكْتَهَا وكُنْتَ عَلَيْهَا بالمَلا أنْتَ أقْدَرُ[٩]

والقَوافِي مرفوعةٌ، ويروى: «أقدرا» بالنصب.

---

(١) ينظر المصدر السابق.
(٢) ينظر المصدر السابق.
(٣) ينظر المصدر السابق.
(٤) ينظر المصدر السابق.
(٥) ينظر المصدر السابق.
(٦) ينظر المصدر السابق.
(٧) ينظر المصدر السابق.
(٨) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٩١، والبحر المحيط ٨/ ٣٥٩، والدر المصون ٦/ ١٤٠.
(٩) تقدم.

[وقال الزمخشريُّ: وهو فصل][1]، وجاز، وإن لم يقع بين معرفتين، لأن «أفعل من» أشبه في امتناعه من حرف التعريف، المعرفة.

قال شهاب الدين[2]: «هذا هو المشهورُ، وبعضهم يجوزه في غير أفعل من النكرات».

وقال القرطبي[3]: «ونصب «خيراً، وأعظم» على المفعول الثاني لـ «تَجِدُوهُ» و «هُوَ» فصل عند البصريين، وعماد عند الكوفيين، لا محلَّ له من الإعراب، و «أجْراً» تمييز».

فصل في معنى الآية

المعنى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾ من الذي تؤخرونه إلى الوصية عند الموت. قاله ابن عباس[4].

وقال الزجاجُ: «خير لكم من متاع الدنيا».

قوله: ﴿وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾، قال أبو هريرة: يعني الجنَّة[5]، ويحتمل أن يكون «أعظم أجراً» لإعطائه بالحسنة عشراً ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي سلوه المغفرة لذنوبكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لما كان على التوبة رحيم لكم بعدها، قاله سعيد بن جبير[6] وقيل: غفور لمن لم يصرّ على الذنوب.

وقال مقاتل: غفور لجميع الذنوب لأن قوله «غَفُورٌ» يتناول التائب والمصر، بدليل أنه يصح استثناء كل واحد منهما وحده، والاستثناء حكمه إخراج ما لولاه لدخل.

وأيضاً: غفران التائب واجب عند الخصم فلا يحصل المدح بأداء الواجبِ، والغرض من الآية تقرير المدح فوجب حمله على الكل تحقيقاً للمدح.

روى الثعلبي عن أبيِّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ سُوْرَةَ يا أيُّهَا المُزَّمِّل رُفِعَ عنهُ العُسْرُ في الدُّنيَا والآخِرَةِ»[7]، والله أعلم.

---

(١) سقط من أ.
(٢) الدر المصون ٦/ ٤١٠.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٣٩.
(٤) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٠/ ١٦٦).
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٣٩).
(٦) ينظر المصدر السابق.
(٧) تقدم تخريجه مراراً.

سورة المدثر

مكية، وهي ستٌّ وخمسون آية، ومائتان وخمس وخمسون كلمة، وألف وعشرة أحرف.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ (٧)﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾؛ يا أيها الذي قد دثر ثيابه، أي: تغشى بها ونام.

وقرأ العامة: بتشديد الدال وكسر الثاء، اسم فاعل من «تدثَّر» وأصله: المتدثر فأدغم كـ «المزمّل». وفي حرف أبي[1]: «المتدثر» على الأصل المشار إليه.

وقرأ عكرمة[2]: **بتخفيف الدال**، اسم فاعل من «دثّر» ـ بالتشديد ـ ويكون المفعول محذوفاً أي: المدثر نفسه، كما تقدم.

وعنه أيضاً: فتح الثاء.

ومعنى «تَدثَّر» لبس الدِّثَار، وهو الثوب الذي فوق الشِّعار، «والشِّعَار»: ما يلي الجسد، وفي الحديث: «الأنْصَارُ شِعَارٌ والنَّاسُ دِثَارٌ».

و «سيف دَاثِر»: بعيد العَهْد بالصِّقال.

ومنه قيل للمنزل الدارس: داثر لذهاب أعلامه وفلان داثرُ المال، أي: حسن القيام به.

قوله: «قُمْ»، إما أن يكون من القيام المعهود، فيكون المعنى: قم من مضجعك، وإما من «قام» بمعنى الأخذ في القيام، كقوله: [الطويل]

٤٩٤٤ ـ فَقَامَ يَذُودُ النَّاسَ عَنْهَا بِسَيْفِهِ ....[3]

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٩٢، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٢، والدر المصون ٦/ ٤١١.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٦٢، والدر المصون ٦/ ٤١١.

(٣) تقدم.

وقوله: [الوافر]

٤٩٤٥ ـ عَلَى مَا قَامَ يَشْتُمُنِي لَئِيمٌ ....(١)

في أحد القولين، فيكون المعنى: قيام عزم وتصميم، والقول الآخر: أن «قام» مزيدة، وفي جعلها بمعنى الأخذ في القيام نظر؛ لأنه حينئذ يصير من أخوات «عَسَى» فلا بد له من خبر يكون فعلاً مضارعاً مجرداً.

قوله: ﴿فَأَنذِرْ﴾، مفعوله محذوف، أي: أنذر قومك عذاب الله، والأحسن أن لا يقدر له، أي: أوقع الإنذار.

فصل في معنى الآية

المعنى: يا أيها الذي قد دُثِّر ثيابه، أي: تغشى بها ونام.

وقيل: ليس المراد التدثر بالثوب، فإن قلنا: التدثر، ففيه وجوه:

أحدها: أن هذا من أوائل ما نزل من القرآن.

روى جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «كُنْتُ عَلى جَبلِ حِراءَ، فنُودِيتُ يا مُحَمَّدُ، إنَّكَ لرَسُولٌ، فنَظرْتُ عَنْ يَمِينِي، ويسَارِي، فَلمْ أرَ أحَداً فنَظرْتُ فَوْقِي فَرأيتُ المَلكَ الذي جَاءَنِي بحِراءَ جَالِساً عَلى كُرسِي بَيْنَ السَّماءِ والأرْضِ، فَخِفْتُ فَرجَعْتُ إلى خَدِيْجَةَ، فقلتُ: دَثِّرُونِي، وصبُّوا عليَّ ماءاً بارداً، فأنزلَ اللَّهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾»(٢).

وثانيها: أن أبا جهل، وأبا لهب، وأبا سفيان، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، وأميَّة بن خلف، والعاص بن وائل والمطعم بن عدي، اجتمعوا وقالوا: إنَّ وفود العرب مجتمعون في أيام الحج، وهم يسألون عن أمر محمدٍ ﷺ وقد اختلفتم في الإخبار عنه، فمن قائل هو مجنون. وقائل: كاهن. وقائل: ساحر، وتعلم العرب أن هذا كله لا يجتمع في رجل واحد، فيستدلون باختلاف الأجوبة على أنها أجوبة باطلة، فسمُّوا محمداً باسم واحد يجتمعون عليه، وتسميه العرب به فقدم رجل منهم فقال: إنه شاعر، فقال الوليد: سمعت كلام عبيدة بن الأبرص [وكلام أمية بن أبي الصلت، وكلامه ما يشبه كلامهما، فقالوا: كاهن، فقال:] الكاهن يصدق ويكذب، وما كذب محمد ﷺ

---

(١) تقدم.

(٢) أخرجه البخاري (١/ ٢٥ ـ ٢٦) كتاب: بدء الوحي رقم (٢) ومسلم (٤/ ١٨١٦ ـ ١٨١٧) كتاب الفضائل: باب عرق النبي ﷺ في البرد (٨٧ ـ ٢٣٣٣) والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٩٦) والترمذي (٥/ ٣٩٩) رقم (٣٣٢٥). وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٥٠) وزاد نسبته إلى الطيالسي وعبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد وابن الضريس وابن المنذر وابن مردويه.

قط، فقال آخر: إنه مجنون، فقال الوليد: الجنون يخنق الناس وما خنق محمد قط، ثم قام الوليد فانصرف إلى بيته، فقال الناس: صبأ الوليد بن المغيرة، فدخل عليه أبو جهل فقال: ما لك يا أبا عبد شمس، هذه قريش تجمع لك شيئاً يعطونكه، زعموا أنك قد احتجت وصبأت، فقال الوليد: ما لي إليه حاجة، ولكني فكرت في محمد، فقلت: إنه ساحر لأن الساحر هو الذي يفرق بين الأب وابنه، وبين الأخ وأخيه، وبين المرأة وزوجها، فشاع ذلك في الناس، فصاحوا يقولون: محمد ساحر والناس مجتمعون، فوقعت الصيحةُ في الناس فلما سمع رسول الله ﷺ ذلك اشتد عليه ورجع إلى بيته محزوناً، فتدثر بقطيفة فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾.

وثالثها: أنه ﷺ كان نائماً، متدثراً بثيابه، فجاءه جبريل ـ عليه السلام ـ وأيقظه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ كأنه قال: اترك التدثر بالثياب، واشتغل بهذا المنصب الذي نصبك الله تعالى له.

وإن قلنا: ليس المراد منه التدثر بالثياب ففيه وجوه:

الأول: قال عكرمة: يا أيها المدثر بالنبوة، والرسالة[١] انقُلْها، من قولهم: ألبسه اللّهُ لباس التقوى وزيَّنَهُ برداء العلم.

قال ابن العربي: «وهذا مجاز بعيد، لأنه لم يكن تنبأ بعد، وإن قلنا: إنها أول القرآن لم يكن نبياً بعد إلا إن قلنا: إنها ثاني ما نزل».

الثاني: أن المدثر بالثوب يكون كالمتخفي فيه، فإنه ﷺ كان في جبل حراء كالمتخفي من النَّاس، فكأنه قال: يا أيها المدثِّر بدثار الاختفاء قم بهذا الأبر واخرج من زاوية الخمول، واشتغل بإنذار الخلق، والدعوة إلى معرفة الحقِّ.

الثالث: أنه تعالى جعله رحمة للعالمين، فكأنه قيل له: يا أيها المدثِّر بأثواب العلم العظيم، والخلق الكريم، والرحمة الكاملة: «قُمْ فأنْذِرْ» عذاب ربّك.

فصل في لطف الخطاب في الآية

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ ملاطفة في الخطاب من الكريم إلى الحبيب إذ ناداه بحاله وعبر عنه بصفته، ولم يقل: يا محمدُ، كما تقدم في المزمل.

فصل في معنى «فأنذر»

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَأَنذِرْ﴾، أي: خوِّفْ أهل مكة، وحذرهم العذاب إن لم يسلموا.

---

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٣٥) والقرطبي (١٩/ ٤١).

وقيل: الإنذار هنا: إعلامهم بنوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأنها مقدمة الرسالة.

وقيل: هو دعاؤهم إلى التوحيد لأنه المقصود.

وقال الفراء: قم فصلِّ ومر بالصلاة.

قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾، قدم المفعول، وكذا ما بعد، إيذاناً بالاختصاص عند من يرى ذلك، أو للاهتمام به.

قال الزمخشري: «واختص ربَّك بالتكبير».

ثم قال: «ودخلت الفاء لمعنى الشرط كأنه قيل: ومهما تكن فلا تدع تكبيره» وقد تقدم الكلام في مثل هذه الفاء في البقرة عند قوله تعالى ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

قال أبو حيان: «وهو قريب مما قدره النحاة في قولك: «زيداً فاضرب»، قالوا: تقديره: «تنبَّهْ فاضرب زيداً» فالفاء هي جواب الأمر، وهذا الأمر إما مضمن معنى الشرط، وإما الشرط محذوف على الخلاف الذي فيه عند النحاة».

قال أبو الفتح الموصلي: يقال: «زيداً اضرب، وعمراً اشكر» وعنده أن الفاء زائدة.

وقال الزجاج: ودخلت الفاء لإفادة معنى الجزائية، والمعنى: قم فكبِّر ربَّك، وكذلك ما بعده.

فصل في معنى الآية

معنى قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾، أي سيدك ومالكك ومصلح أمرك فعظمه، وصفه بأنه أكبر من أن يكون له صاحبة، أو ولد، وفي الحديث: أنهم قالوا: بم تفتتح الصلاة؟ فنزلت: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾(١). أي: صفه بأنه أكبر.

قال ابن العربي: وهذا القول وإن كان يقتضي بعمومه تكبير الصلاة فإنه مراد به تكبيره بالتقديس، والتنزيه بخلع الأنداد، والأصنام دونه، ولا تتخذ ولياً غيره، ولا تعبد سواه، وروي أن أبا سفيان قال يوم أحد: «أعْلُ هُبَل»، فقال: ﷺ «قُولُوا اللَّهُ أعْلَى وأجَلُّ»(٢)، وقد صار هذا القول بعرف الشرع في تكثير العبادات كلها أذاناً، وصلاة بقوله «اللَّهُ أكبرُ» وحمل عليه لفظ النبي ﷺ الوارد على الإطلاق في موارد منها قوله: «تَحْرِيمُهَا التَّكْبيرُ، وتَحْلِيلُهَا التَّسلِيمُ»(٣)، والشَّرعُ يقتضي معرفة ما يقتضي بعمومه، ومن موارده

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٥١) وعزاه إلى ابن مردويه عن أبي هريرة.

(٢) تقدم.

(٣) أخرجه أبو داود (١/ ٤٩) كتاب الطهارة: باب فرض الطهارة حديث (٦١) والترمذي (١/ ٨ ـ ٩) كتاب الطهارة: باب مفتاح الصلاة الطهور وابن ماجه (١/ ١٠١) كتاب الطهارة: باب مفتاح الصلاة الطهور حديث (٢٧٥) والشافعي في الأم (١/ ١٠٠) كتاب الصلاة: باب ما يدخل به في الصلاة من التكبير، وأحمد (١/ ١٢٣، ١٢٩) والدارمي (١/ ١٧٥) كتاب الوضوء: باب مفتاح الصلاة الطهور.

أوقات الإهلال بالذبائح تخليصاً له من الشرك، وإعلاناً باسمه بالنسك، وإفراداً لما شرع من أمره بالسفك.

والمنقول عن النبي ﷺ في التكبير في الصلاة هو لفظ «اللَّهُ أكبَرُ».

وقال المفسرون: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ قام النبي ﷺ وقال: اللَّهُ أكبر، فكبرت خديجة ـ رضي الله عنها ـ وعلمت أنه وحي من الله تعالى ذكره القشيري.

وقال الكلبيُّ: فعظم ربَّك عما يقوله عبدة الأوثان[١].

قال مقاتل: هو أن يقال: الله أكبر[٢].

وقيل: المرادُ منه التكبير في الصلاة.

فإن قيل: هذه السورة نزلت في أول البعث، ولم تكن الصلاة واجبة.

فالجواب: لا يبعد أنه كانت له ـ عليه الصلاة والسلام ـ صلوات تطوع فأمر أن يُكبِّر ربَّه فيها قال ابن الخطيب[٣]: وعندي أنه لما قيل له: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ قيل بعد ذلك: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ عن اللغو والرفث.

قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾.

قيل: المراد الثياب الملبوسة، فعلى الأول يكون المعنى: وعملك فأصلح، قاله مجاهد وابن زيد والسديُّ، وروى منصور عن أبي رزين، قال: يقول: وعملك فأصلح، وإذا كان الرجل خبيث العمل، قالوا: إن فلاناً خبيث الثيابِ، وإذ كان الرجل حسن العمل، قالوا: إنَّ فلاناً طاهر الثياب، ومنه قول النبي ﷺ: «يُحْشرُ المَرءُ فِي ثَوبَيْهِ الَّذي مَاتَ فِيْهِمَا»[٤]، يعني: عمله الصالح والطالح، ذكره الماوردي.

ومن قال المراد به القلب، فالمعنى: قلبك فطهر، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير رضي الله عنهما؛ ومنه قول امرىء القيس: [الطويل]

٤٩٤٦ ـ .... فَسُلِّي ثِيَابِي مِن ثِيابِكِ تَنْسُلِ[٥]

أي: قلبي من قلبك.

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٠/ ١٦٨). (٢) ينظر المصدر السابق.

(٣) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ١٦٨.

(٤) ذكره بهذا اللفظ الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٣٦) ولم أجده لكن له شاهد من حديث أبي سعيد الخدري أخرجه أبو داود (٣١١٤) وعبد الرزاق (٦٢٣) والحاكم (١/ ٣٤٠) وصححه والبيهقي (٣/ ٣٨٤).

(٥) عجز بيت وصدره:

فَإِنْ يكُ قَدْ ساءَتْكِ مِنِّي خَلِيقَةٌ

ينظر ديوانه ص ١٣، وزاد المسير ٨/ ٤٠، والقرطبي ١٩/ ٤٢.

قال الماورديُّ: ولهم في تأويل الآية وجهان:

أحدهما: المعنى: وقلبك فطهر من الإثم والمعاصي قاله ابن عباس وقتادة[١].

الثاني: وقلبك فطهر من القذر، أي: لا تقذر فتكون دنس الثياب وهو ما يروى عن ابن عباس أيضاً[٢]، واستشهدوا بقول غيلان بن سلمة الثقفي: [الطويل]

٤٩٤٧ ـ فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ لا ثَوْبَ غَادِرٍ لَبِسْتُ وَلا مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ[٣]

ومن قال: المراد به النفس، قال: معناه ونفسك فطهر، أي: من الذنوب، والعرب تكني عن النفس بالثياب. قاله ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ؛ ومنه قول عنترة: [الكامل]

٤٩٤٨ ـ فَشَكَكْتُ بالرُّمْحِ الطَّويلِ ثِيابَهُ لَيْسَ الكَرِيمُ على القَنَا بِمُحَرَّمِ[٤]

وقول امرىء القيس المتقدم. ومن قال: بأنه الجسم قال: المعنى وجسمك فطهر من المعاصي الظاهرة، ومنه قول ليلى تصف إبلاً: [الطويل]

٤٩٤٩ ـ رَمَوْهَا بأثْوابٍ خِفافٍ فلا تَرَى لَهَا شَبَهاً إلاَّ النَّعامَ المُنفَّرَا[٥]

أي: ركبوها فرموها بأنفسهم.

ومن قال: المراد به الأهل، قال: معناه: وأهلك طهرهم من الخطايا بالموعظة والتأديب، والعرب تسمي الأهل ثوباً وإزاراً ولباساً، قال تعالى ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

قال الماورديُّ: ولهم في تأويل الآية وجهان:

الأول: معناه: ونساءك فطهر باختيار المؤمنات العفائف.

الثاني: الاستمتاع بهن في القبل دون الدبر في الطهر إلا في الحيض حكاه ابن بحر.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩) عن ابن عباس وقتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٥١) عن مجاهد وعزاه إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٩٨) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٥١) وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في «الوقف والابتداء» وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس.

(٣) يروى لا ثوب فاجر مكان لا ثوب غادر. ويروى ولا من خزية أتقنع، مكان ولا من غدرة أتقنع.
ينظر: اللسان (ثوب)، ومجمع البيان ١٠/ ٥٨٠، وزاد المسير ٨/ ٤٠٠، والقرطبي ١٩/ ٤٢.

(٤) ويروى بالرمح الأصم مكان بالرمح الطويل.
ينظر ديوانه ص ٢٦، وشرح المعلقات السبع للزوزني ص ١٤٨، والقرطبي ١٩/ ٤٢.

(٥) ينظر: زاد المسير ٨/ ٤٠٠، والقرطبي ١٩/ ٤٣، والفائق ١/ ٢٨، والمعاني الكبير ١/ ٤٨٦، واللسان (ثوب)..

قال ابن الخطيب[١]: «وحمل الآية على هذا التأويل يعسر لأنه على هذا الوجه لا يحسن اتصال الآية بما قبلها».

ومن قال المراد به الخلق قال معناه: وخلقك فحسِّنْ قاله الحسن والقرظي؛ لأن خلق الإنسان مشتمل على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه؛ قال الشاعر: [الطويل]

٤٩٥٠ ـ فَلاَ أَبَ وابْناً مِثْلَ مَرْوانَ وابْنِهِ إذَا هُوَ بِالمَجْدِ ارتَدَى وتَأَزَّرَا[٢]

والسبب في حسن هذه الكناية وجهان:

الأول: أن الثوب كالشيء الملازم للإنسان فلهذا جعلوا الأثواب كناية عن الإنسان، فيقال: المجد في ثوبه والعفة في إزاره.

الثاني: أنه من طهر باطنه غالباً طهر ظاهره، ومن قال: المراد به الدين فمعناه: ودينك فطهر.

جاء في الصحيح: أنه ﷺ قال: «ورأيتُ النَّاس وعَلَيْهِمْ ثِيابٌ مِنْهَا ما يَبلغُ الثُّدِيَّ، ومِنْهَا دونَ ذلِكَ، ورَأَيْتُ عُمر بن الخطَّاب، وعليْهِ إزارٌ يَجُرُّهُ، قالوا: يا رسُولَ اللَّهِ فَمَا أَوَّلتَ ذلِكَ؟ قال: الدِّينُ»[٣].

وروي عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ في قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ قال: معناه لا تلبس ثيابك على عذرة[٤]؛ قال ابن أبي كبشة: [الطويل]

٤٩٥١ ـ ثِيَابُ بَنِي عَوْفٍ طَهارَىٰ نَقيَّةٌ وأوْجُهُهُمْ عِنْدَ المُشاهِدِ غُرَّانُ[٥]

---

(١) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ١٧٠.

(٢) نسب البيت إلى الربيع بن ضبع الفزاري، وإلى الفرزدق، وإلى رجل من عبد مناة ينظر الكتاب ٢/ ٢٨٥، وشرح التصريح ١/ ٢٤٣، شرح شواهد الإيضاح ص ٢٠٧، والمقاصد النحوية ٢/ ٣٥٥، وخزانة الأدب ٤/ ٦٧، ٦٨ وأمالي ابن الحاجب ١/ ٤١٩، ٢/ ٥٩٣، ٨٤٧، والدرر ٦/ ١٧٢، وأوضح المسالك ٢/ ٢٢، وجواهر الأدب ص ٢٤١، وشرح الأشموني ١/ ١٥٣، وشرح قطر الندى ص ١٦٨، وشرح المفصل ٢/ ١٠١، ١١٠، واللامات ص ١٠٥، واللمع ص ١٣٠، والمقتضب ٤/ ٣٧٢.

(٣) أخرجه البخاري (١/ ٩٣) كتاب الإيمان: باب تفاضل أهل الإيمان (٢٣) ومسلم (٤/ ١٨٩٥) كتاب الفضائل: باب فضل عمر حديث (١٥/ ٢٣٩٠) والترمذي (٤/ ٤٦٧) كتاب الرؤيا: باب في رؤيا النبي ﷺ رقم (٢٢٨٥) والنسائي (٨/ ١١٣ ـ ١١٤) كتاب الإيمان وشرائعه، باب: زيادة الإيمان رقم (٥٠١١) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٤) تقدم.

(٥) البيت ليس لابن أبي كبشة، وإنما هو لامرىء القيس من قصيدة يمدح يها عويمر بن شجنة بن عطارد من بني تميم. ينظر ديوانه (٨٣)، ورواية الديوان «غمّان» مكان «غران». ويروى الشطر الثاني في غير الديوان: وأوجههم بيض المُسافِرِ غُرّان.
ينظر القرطبي ١٩/ ٤٣، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٣.

يعني بطهارة ثيابهم: سلامتهم عن الدناءات ويعني بعزة وجوههم: تنزيههم عن المحرمات، أو جمالهم في الخلقة، أو كليهما. قاله ابن العربي.

وقال سفيانُ بن عيينة: لا تلبس ثيابك على كذب ولا جور ولا غدر ولا إثم، قاله عكرمة.

ومن قال: إن المراد به الثياب الملبوسة، فلهم أربعة أوجهٍ:

الأول: وثيابك فأنق.

الثاني: وثيابك فشمِّر، أي قصِّر، فإن تقصير الثياب أبعد من النجاسة فإذا جُرَّت على الأرض لم يؤمن أن يصيبها نجاسة، قاله الزجاج وطاووس.

الثالث: وثيابك فطهر من النجاسة بالماء، قاله محمد بن سيرين وابن زيد والفقهاء.

الرابع: لا تلبس ثيابك إلا من كسبِ الحلال ليكون مطهرة من الحرام.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ لا يكون ثيابك التي تلبس من ملبس غير طاهر.

قال ابن العربي: وليس بممتنع أن تحمل الآية على عمومها، من أن المراد بها الحقيقة، والمجاز، وإذا حملناها على الثياب الطاهرةِ المعلومة، فهي تتناول معنيين:

أحدهما: تقصير الأذيال، فإنها إذا أرسلت تدنست، ولهذا قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لغلام من الأنصار، وقد رأى ذيله مسترخياً: ارفع إزارك، فإنه أتْقَى، وأبْقَى، وأنقى.

وقال ﷺ: «إزْرَةُ المُؤمِنِ إلى أنْصَافِ سَاقيْهِ، لا جُناحَ عليْهِ فِيمَا بَينهُ وبيْنَ الكعْبَيْنِ ومَا كَانَ أسْفل مِنْ ذلِكَ ففِي النَّارِ»(١). فقد جعل النبي ﷺ الغاية في لباس الإزار الكعب، وتوعد ما تحته بالنار، فما بال رجال يرسلون أذيالهم، ويطيلون ثيابهم، ثم يتكلفون رفعها بأيديهم وهذه حالة الكبر، وقال ﷺ: «لا يَنْظرُ اللَّهُ تعالى إلى مَنْ جَرَّ ثَوبَهُ خيلاء»، وفي رواية: «منْ جرَّ إزارهُ خُيَلاء لَمْ ينظُرِ اللَّهُ إليْهِ يَوْمَ القِيامةِ»(٢) قال أبو بكر ـ رضي الله

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩١٤ ـ ٩١٥، في كتاب اللباس: باب ما جاء في إسبال الرجل ثوبه، وأحمد في المسند ٣/ ٩٧، وأبو داود ٤/ ٣٥٣ في اللباس: باب في قدر موضع الإزار ٤٠٩٣، وذكره المنذري في مختصر سنن أبي داود ٦/ ٥٥ ـ ٥٦، (٣٩٣٥)، وعزاه للنسائي وأخرجه ابن ماجه ٢/ ١١٨٣، في اللباس: باب طول القميص (٣٥٧٦).

(٢) أخرجه البخاري ١٠/ ٢٦٦ في اللباس: باب من جرا إزاره من غير خيلاء (٥٧٨٤)، وفيه من الفقه أنه لا حرج على من انجر إزاره بغير قصده مطلقاً؛ وأما ما أخرجه ابن أبي شيبة عن ابن عمر رضي الله عنه أنه كان يكره جر الإزار على كل حال. فقال ابن بطال: هو من تشديداته والإ فقد روى هو حديث الباب فلم يخف عليه الحكم قال الحافظ: بل كراهة ابن عمر محمولة على من قصد ذلك سواء كان عن مخيلة أم لا وهو المطابق لروايته، ولا يظن بابن عمر رضي الله عنه أنه يؤاخذ من لم يقصد شيئاً وإنما يريد بالكراهة من انجر إزاره بغير اختياره ثم تمادى على ذلك ولم يتداركه وهذا=

عنه ـ: يا رسول الله إني أجد شِقّ إزاري يسترخي إلا أني أتعاهد ذلك منه، فقال رسول الله ﷺ: «لَسْتَ ممَّنْ يَصْنعهُ خيلاء».

والمعنى الثاني: غسلها بالماء من النجاسة، وهو الظاهر.

قال المهدوي: واستدل به بعض العلماء على وجوب طهارة الثوب، وليس ذلك بفرض عند مالك وأهل المدينة، وكذلك طهارة البدن، للإجماع على جواز الصلاة بالاستجمار من غير غسل.

قال ابن الخطيب[١]: إذا حملنا لفظ التطهير على حقيقته، فنقول: المراد منه أنه ﷺ أمر بتطهير ثيابه من الأنجاس والأقذار، وعلى هذا التقدير ففي الآية ثلاثة احتمالاتٍ:

الأول: قال الشافعي ـ رضي الله عنه ـ: المقصود من الآية الإعلام بأن الصلاة لا تجوز إلا في ثياب طاهرة من الأنجاس.

وثانيها: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان المشركون لا يصونون ثيابهم عن النجاسات، فأمره الله تعالى بأن يصون ثيابه عن النجاسات.

وثالثها: روي أنهم ألقوا على رسول الله ﷺ سَلَى شاةٍ، فشق عليه فرجع إلى بيته حَزيناً وتدثر في ثيابه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ ولا تمنعك تلك السفاهة عن الإنذار ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ على أن لا ينتقم منهم ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ عن تلك النجاسات والقاذورات.

قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ﴾. قرأ حفص ومجاهد وعكرمة وابن محيصن: بضم الراء، والباقون[٢]: بكسرها.

فقيل: لغتان بمعنى، وعن أبي عبيدة: الضم أقيس اللغتين، وأكثرهما.

وقال مجاهدٌ: هو بالضم اسم صنم، ويعزى للحسن البصري أيضاً، وبالكسر ويذكر: اسم للعذاب، وعلى تقدير كونه العذاب، فلا بد من حذف مضاف، أي: اهجر أسباب العذاب المؤدية إليه، أقام السبب مقام المسبب، وهو مجاز شائع بليغ.

وقال السديُّ: «الرَّجْز»، بنصب الراء: الوعيد.

وقال مجاهد وعكرمة: المراد بالرجز: الأوثان، لقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾[٣] [الحج: ١٠]، وقال ابن عباس أيضاً: والمأثم فاهجر، أي

= متفق عليه وإن اختلفوا هل الكراهة فيه للتحريم أو للتنزيه وفي الحديث أيضاً: اعتبار أحوال الأشخاص في لأحكام باختلافها، وهو أصل مطرد غالباً. الفتح ١٠/ ٢٦٧.

(١) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ١٦٩.

(٢) ينظر: السبعة ٦٥٩، والحجة ٦/ ٣٣٨، وإعراب القراءات ٢/ ٤١٠، وحجة القراءات ٧٣٣.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٠٠) عن مجاهد وعكرمة والزهري وقد ورد مرفوعاً من حديث جابر. أخرجه الحاكم (٢/ ٢٥٧) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٥٢) وزاد نسبته إلى ابن مردويه.

فاترك، وكذلك روى مغيرة عن إبراهيم النخعي، قال: الرجز: الإثم.

وقال قتادة: الرجز إساف، ونائلة[١].

وأصل «الرُّجْز»: العذابُ، قال تعالى: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤].

وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

قوله: ﴿وَلَا تَمْنُن﴾، العامة: على فك الإدغام والحسن وأبو السمال[٢] والأشهب العقيلي: بالإدغام.

وقد تقدم أن المجزوم، والموقوف من هذا النوع يجوز فيهما الوجهان، وتقدم تحقيقه في «المائدة»، عند قوله تعالى ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ [المائدة: ٥٤].

والمشهور أنه من المنّ، وهو الاعتداد على المعطى بما أعطاه، وقيل: معناه «ولا تضعف» من قولهم: حبل متين، أي: ضعيف.

قوله: ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾، العامة على رفعه، وفيه وجهان:

أحدهما: أنه في موضع الحال، أي: لا تمنن مستكثراً ما أعطيت.

وقيل: معناه لا تأخذ أكثر مما أعطيت.

الثاني: على حذف «أن» يعني أن الأصل ولا تمنن أن تستكثر، فلما حذفت «أن» ارتفع الفعل، كقوله: [الطويل]

٤٩٥٢ ـ ألاَ أيُّهَذَا الزَّاجِري أحْضُرُ الوغَى ....[٣]

في إحدى الروايتين. قاله الزمخشريُّ.

ولم يبين ما محل «أن» وما في خبرها. وفيه وجهان:

أظهرهما ـ وهو الذي يريده ـ هو أنها إما في محل نصب، أو جر على الخلاف فيها؛ حذف حرف الجر وهو هنا لام العلة، تقديره: ولا تمنن لأن تستكثر.

والثاني: أنها في محل نصب فقط مفعولاً بها، أي: لا تضعف أن تستكثر من الخير، قاله مكي.

وقد تقدم أن «تَمْنُنْ» بمعنى تضعف، وهو قول مجاهد.

إلا أنَّ أبا حيان قال[٤] ـ بعد كلام الزمخشريِّ ـ: «وهذا لا يجوز أن يحمل القرآن عليه لأنه لا يجوز ذلك إلا في الشعر، ولنا مندوحة عنه مع صحته معنى».

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٤٤) عند قتادة.

(٢) ينظر: الكشاف (٤/ ٦٤٦)، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٩٣، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٤، والدر المصون ٦/ ٤١٢.

(٣) تقدم.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٧٢.

والكوفيون يجيزون ذلك، وأيضاً: **فقد قرأ الحسن والأعمش**[١]: «تَسْتكثِرَ» أيضاً على إضمار «أن»، كقولهم: «مُرْهُ يحفرها».

وأبلغ من ذلك التصريح **بأن في قراء عبد الله**[٢]: «ولا تمنن أن تستكثر».

وقرأ الحسن[٣] ـ **أيضاً** ـ **وابن أبي عبلة** تستكثرْ جزماً، وفيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون بدلاً من الفعل قبله. كقوله: «يَلْقَ أثاماً يُضاعفْ» فـ «يُضَاعَفْ» بدلاً من «يَلْقَ»؛ وكقوله: [الطويل]

٤٩٥٣ ـ مَتَى تَأتِنَا تُلْمِمْ بنَا في دِيَارنَا ... تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً ونَاراً تَأجَّجَا[٤]

ويكون من المنِّ الذي في قوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

الثاني: أن يشبه «ثرو» بعضد فيسكن تخفيفاً. قاله الزمخشري.

يعني: أنه يأخذ من مجموع «تستكثر» [ومن الكلمة التي بعده وهو الواو ما يكون فيه شبهاً بعضد، ألا ترى أنه قال: **أن** يشبه ثرو، **فأخذ بعض** «تستكثر»] وهو الثاء، والراء وحرف العطف من قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾؛ وهذا كما قالوا في قول امرىء القيس: [السريع]

٤٩٥٤ ـ فَالْيَوْمَ أشْرَبْ غَيْرَ مُسْتحقِبٍ ... إثْماً مِنَ اللَّهِ ولا واغِلِ[٥]

بتسكين «أشْرَبْ» ـ أنهم أخذوا من الكلمتين رَبْغَ كـ «عضد» ثم سكن.

وقد تقدم في سورة «يوسف» في قراءة قُنبل: «من يَتّقي»، بثبوت الياء، أن «مَنْ» موصولة، فاعترض بجزم «يَصْبِر»؟.

فأجيب بأنه شبه بـ «رف»، أخذوا الباء والراء من «يَصْبِر» والفاء من «فإنَّه»، وهذه نظير تيك سواء.

الوجه الثالث: أن يعتبر حال الوقف، ويجرى الوصل مجراه، قاله الزمخشري أيضاً.

يعني أنه مرفوع، وإنما سكن تخفيفاً، أو أجري الوصل مُجْرَى الوقفِ.

قال أبو حيان[٦]: «وهذان لا يجوز أن يحمل عليهما مع وجود أرجح منهما، وهو البدل معنى وصناعة».

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/٦٤٦، والمحرر الوجيز ٥/٣٩٣، والبحر المحيط ٨/٣٦٤، والدر المصون ٦/٤١٢.

(٢) ينظر: السابق.

(٣) ينظر السابق.

(٤) تقدم.

(٥) تقدم.

(٦) ينظر: البحر المحيط ٨/٣٧٢.

فصل في تعلق الآية بما قبلها

في اتصال هذه الآية بما قبلها أنه تعالى أمره قبل هذه الآية بأربعة أشياء: إنذار القوم، وتكبير الرب، وتطهير الثياب، وهجر الرجز، ثم قال ـ جلَّ ذكره ـ: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾، أي: لا تمن على ربِّك بهذه الأعمال الشاقة كالمستكثر لما يفعله بل اصبر على ذلك كله لوجه ربِّك متقرباً بذلك إليه غير ممتن به عليه.

قال الحسن ـ رحمه الله ـ: بحسناتك، فتستكثرها(١).

وقال ابن عباس وقتادة وعكرمةُ: ولا تعط عطية تلتمس بها أفضل منها(٢).

وقيل: لا تمنن على الناس بما تعلمهم من أمر الدين والوحي مستكثراً بذلك الإنعام، فإنَّما فعلت ذلك بأمر الله تبارك وتعالى، فلا منة لك عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.

وقيل: لا تمنن عليهم بنبوتك، أي: لتستكثر، أي: لتأخذ منهم على ذلك أجراً تستكثر به مالك.

وقال مجاهدٌ: لا تضعف أنْ تستكثر من الخير(٣)، من قولك: حبل منين، إذا كان ضعيفاً، ودليله قراءة ابن مسعود: ولا تمنن تستكثر من الخير وعن مجاهد أيضاً، والربيع: لا تعظم عملك في عينك أن تستكثر من الخير فإنه مما أنعم الله عليك(٤).

وقال ابن كيسان: لا تستكثر عملك فتراه من نفسك، إنما عملك منة من الله عليك، إذ جعل الله لك سبيلاً إلى عبادته.

وقال زيد بن أسلم إذا أعطيت عطية فأعطها لربِّك، لا تقل: دعوت فلم يستجب لي.

وقيل: لا تفعل الخير لترائي به الناس.

فإن قيل هذا النهي مختص بالرسول ﷺ أو يتناول الأمة؟.

فالجوابُ: أن ظاهر اللفظ قرينة الحال لا تفيد العموم؛ لأنه ﷺ إنما نهي عن ذلك تنزيهاً لمنصب النبوة، وهذا المعنى غير موجود في الأمة.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٠٢).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٠١) عن ابن عباس وعكرمة وقتادة وغيرهم.
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٣٤) وقال رواه الطبراني وفيه عطية العوفي وهو ضعيف.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٥٢) عن عكرمة وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) أخرجه الطبري في «تفيسره» (١٢/ ٣٠٣) عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٠٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٥٢) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

وقيل: المعنى في حقِّ الأمة هو الرياءُ، واللَّهُ تعالى منع الكل من ذلك.

فإن قيل: هل هذا نهي تحريم أو تنزيه؟.

فالجواب: أن ظاهر النهي التحريم.

فصل في المقصود من الآية

قال القفال[1]: يحتمل أن يكون المقصود من الآية أن يحرم على النبي ﷺ أن يعطي أحداً شيئاً لطلب عوض سواء كان العوض زائداً أو ناقصاً، أو مساوياً، ويكون معنى قوله تعالى ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾، أي: طالباً للكثرة كارهاً أن ينتقص المال بسبب العطاءِ، فيكون الاستكثار ـ هاهنا ـ عبارة عن طلب العوض كيف كان، وإنما حسنت هذه العبارةُ، لأن الغالب أن الثواب زائد على العطاء، فسمى طلب الثواب استكثاراً، حملاً للشيء على أغلب أحواله، كما أن الأغلب أن المرأة إنما تتزوج، ولها ولد للحاجة إلى من يربي ولدها، فسمي الولد ربيباً، ثم اتسع الأمر، وإن كان حين تتزوج أمه كبيراً، ومن ذهب إلى هذا القول قال: السبب فيه أن يصير عطاء النبي ﷺ خالياً عن انتظار العوض، والتفات النفس إليه فيكون ذلك خالصاً مخلصاً لوجه الله تعالى.

قال القرطبي ـ رحمه الله[2] ـ: «أظهر الأقوال قول ابن عباس «لا تعط لتأخذ أكثر مما أعطيت من المال» يقال: مننت فلاناً كذا، أي: أعطيته، ويقال للعطية: المنة فكأنه أمر بأن تكون عطاياه لله، لا لارتقاب ثواب من الخلق عليها، لأنه ﷺ ما كان يجمع للدنيا، ولهذا قال: «مَا لي ممَّا أفَاءَ اللَّهُ عليَّ إلا الخُمُسَ، والخمس مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ» وكان ما يفضل عن نفقة عياله مصروفاً إلى مصالح المسلمين، ولهذا لم يورث».

قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ التقديم على ما تقدم. وحسنه كونه رأس فاصلة موافياً لما تقدم.

﴿وَلِرَبِّكَ﴾ يجوز فيه وجهان:

أحدهما: أن تكون لام العلة، أي: لوجه ربِّك فاصبر، أي: على أذى الكفار وعلى عبادة ربك، وعلى كل شيء مما لا يليق فترك المصبور عليه، والمصبور عنه للعلم بهما، والأحسن أن لا يقدر شيء خاص بل شيء عام.

والثاني: أن يضمن «صبر» معنى: «أذعن»، أي: أذعن لربِّك، وسلم له أمرك صابراً، لقوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ [القلم: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ۝١٠﴾

قوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾.

(١) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ١٧٢.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٤٥.

قال الزمخشري: «الفاء» في قوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ للتسبيب، كأنه قال: اصبر على أذاهم، فبين أيديهم يوم عسير يلقون فيه عاقبة أذاهم وتلقى فيه عاقبة صبرك عليه. والفاء في «فإذا» متعلقة بـ «أنذر»، أي: فأنذرهم إذا نقر في الناقور. قاله الحوفيُّ.

وفيه نظر من حيث أن الفاء تمنع من ذلك، ولو أراد تفسير المعنى لكان سهلاً، لكنه في معرض تفسير الإعراب لا تفسير المعنى.

الثاني: أن يتتصب بما دل عليه قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾.

قال الزمخشري: فإن قلت: بم انتصب «إذا»، وكيف صح أن يقع «يومئذ» ظرفاً لـ «يوم عسير»؟.

قلت: انتصب «إذا» بما دل عليه الجزاء؛ لأن المعنى: فإذا نقر في الناقور عسر الأمر على الكافرين والذي أجاز وقوع «يومئذ» ظرفاً لـ ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾، إذ المعنى فذلك يوم النقر وقوع يوم عسير لأن يوم القيامة يقع، ويأتي حين يُنقر في النَّاقُور، انتهى.

ولا يجوز أن يعمل فيه نفس «عسير»؛ لأن الصفة لا تعمل فيما قبل موصوفها عند البصريين، ولذلك رد على الزمخشري قوله: أن «في أنفسهم» متعلق بـ «بَلِيغاً» في سورة «النساء» في قوله تعالى ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣] والكوفيون يجوزون ذلك وتقدم تحريره.

الثالث: أن ينتصب بما دل عليه «فذلك»؛ لأنه إشارة إلى النقر، قاله أبو البقاء، ثم قال: «و «يومئذ» بدل من «إذا»، و «ذلك» مبتدأ، والخبر ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾، أي: نقر يوم».

الرابع: أن يكون «إذا» مبتدأ، و «فذلك» خبره، والفاء مزيدة فيه، وهو رأي الأخفش.

وأما «يَومَئذٍ» ففيه أوجه:

أحدها: أن يكون بدلاً من «إذا»، وقد تقدم ذلك في الوجه الثالث.

الثاني: أن يكون ظرفاً لـ ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ كما تقدم في الوجه الثاني.

الثالث: أن يكون ظرفاً لـ «ذلك» لأنه أشار به إلى النقر.

الرابع: أنه بدل من «فذلك» ولكنه مبنيّ لإضافته إلى غير متمكن.

الخامس: أن يكون «فذلك» مبتدأ، و ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ خبره، والجملة خبر «فَذلِكَ».

قوله: «نُقِرَ»، أي: صوت، يقال: نقرت الرجل إذا صوت له بلسانك، وذلك بأن تلصق لسانك بنقرة حنكك، ونقرتُ الرجل: إذا خصصته بالدعوة كأنك نقرت له بلسانك مشيراً إليه، وتلك الدعوة يقال لها: النقرى، وهي ضد الدعوة الجفلى؛ قال الشاعر: [الرمل]

٤٩٥٥ ـ نَحْنُ فِي المشْتَاةِ نَدْعُو الجَفلَى لا تَـرَى الآدِبَ فِـيـنَـا يَـنْـتَـقِـرْ[1]

وقال امرؤ القيس: [الرجز]

٤٩٥٦ ـ أنَـا ابْـنُ مَـاوِيَّـةَ إذْ جَـدَّ الـنَّـقُـرْ[2]

يريد: النقر، أي الصوت، والنقر في كلام العرب: الصوت؛ قال امرؤ القيس: [الطويل]

٤٩٥٧ ـ أخَـفِّـضُـهُ بـالـنَّـقْـرِ لـمَّـا عَـلـوْتـهُ ويَـرْفـعُ طَـرْفـاً غَـيْـرَ جَـافٍ غَـضِـيـضِ[3]

والناقور: «فاعول» منه كالجاسوس من التجسس، وهو الشيء المصوّت فيه.

قال مجاهد وغيره: هو كهيئة البوق، وهو الصور الذي ينفخ فيه الملك[4].

والنقير: فرع الشيء الصلب، والمنقار: الحديدة التي ينقر بها، ونقرت عينه: بحثت على أخباره استعارة من ذلك، ونقرته: أعبته.

ومنه قول امرأة لزوجها: مر بي على بني نظر، ولا تمر بي على بنات نقر، أرادت: ببني نظر الرجال لأنهم ينظرون إليها، وبينات نقر: النساء، لأنهن يعبنها وينقرن عن أحوالها.

قوله: ﴿عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾. فيه خمسة أوجه:

أحدها: أن يتعلق بـ «عسير».

الثاني: أن يتعلق بمحذوف على أنه نعت لـ «عَسِيرٌ».

الثالث: أنه في موضع نصب على الحال من الضمير المستكنّ في «عَسِيرٌ».

الرابع: أن يتعلق بـ «يسير»، أي: غير يسير على الكافرين قاله أبو البقاء.

إلا أن فيه تقديم معمول المضاف إليه على المضاف، وهو ممنوع، وقد جوزه بعضهم إذ كان المضاف «غير» بمعنى النفي، كقوله: [البسيط]

٤٩٥٨ ـ إنَّ امْـرأً خَـصَّـنِـي يَـوْمـاً مـودَّتـهُ عَـلـى الـتَّـنَـائِـي لـعِـنْـدِي غَـيْـرُ مَـكْـفُـورِ[5]

---

(١) البيت لطرفة بن العبد في ديوانه ص ٥٥، والنوادر في اللغة لأبي زيد ٣٠٩، والاقتضاب ص ٢٥٧، واللسان (جعل)، و (نقر). والدر المصون (٦/ ٤١٤).

(٢) نسب الرجز إلى عبيد الله بن ماوية، ولفدكي بن عبد الله، ولبعض السعديين ينظر الكتاب ٤/ ١٧٣، والدرر ٦/ ٣٠٠، والمقاصد النحوية ٤/ ٥٥٩، وأسرار العربية ص ٤١٤، والإنصاف ٢/ ٧٣٢، وأوضح المسالك ٤/ ٣٤٦، وشرح التصريح ٢/ ٣٤١، واللسان (حلق)، ومغني اللبيب ٢/ ٤٣٤، وهمع الهوامع (٢/ ١٠٧، ١٠٨).

(٣) ينظر الديوان ص ٧٥، واللسان (طرف)، و(غضض)، والقرطبي ١٩/ ٤٦، والدر المصون (٦/ ٤١٤).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٠٤) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٥٢) وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٥) تقدم.

وتقدم تحرير هذا آخر الفاتحة.

الخامس: أن يتعلق بما دل عليه «غَيرُ يَسيرٍ»، أي: لا يسهل على الكافرين.

قال الزمخشريُّ: فإن قلت: فما فائدة قوله: «غير يسير»، و «عسير» مغن عنه؟.

قلت: لما قال ـ سبحانه وتعالى ـ: «على الكافرين» فقصر العسر عليهم، قال: «غَيرُ يَسِيرٍ» ليؤذن بأنه لا يكون عليهم كما يكون على المؤمنين يسيراً هيناً، ليجمع بين وعيد الكافرين، وزيادة غيظهم، وتيسيراً للمؤمنين، وتسليتهم، ويجوز أن يراد أنه عسير لا يرجى أن يرجع يسيراً كما يرجى تيسير العسير من أمور الدنيا.

فصل في تعلق الآية بما بعدها

لما ذكر ما يتعلق بإرشاد النبي ﷺ ذكر بعده وعيد الأشقياء قيل: المراد بهذه الآية هو النفخة الثانية.

وقيل: الأولى، قال الحليمي في كتاب «المنهاج»: إنه تعالى سمى الصور اسمين، وإن كان هو الذي ينفخ فيه النفختان معاً، فإن نفخة الإصعاق غير نفخة الإحياء، وجاء في الأخبار أن في الصور ثقباً بعدد الأرواح كلِّها، وأنها تجمع في ذلك الثقب في النفخة الثانية، فيخرج عن النفخ من كل ثقبة روح إلى الجسد الذي نزع منه، فيعود الجسد حياً بإذن الله تعالى.

قال ابن الخطيب[١]: وهذا مردود، لأن الناقور اسم لما ينقر به لا لما ينقر فيه، ويحتمل أن يكون الصور محتوياً على ثقبين: ينقر في إحداهما، وينفخ في الأخرى، فإذا نفخ فيه للإصعاق جمع بين النقر، والنفخ، لتكون الصيحة أشد، وأعظم، وإذا نفخ فيه للإحياء، لم ينقر فيه بل يقتصر على النفخ لأن المراد إرسال الأرواح من ثقب الصور إلى أجسادها بنقرها من أجسادها بالنفخة الأولى للنقير، وهو نظير صوت الرعد؛ فإنه إذا اشتد فربما مات بسماعه، والصيحة الشديدة التي يصيحها رجل بصبي فيفزع منه فيموت.

قال ابن الخطيب: وفيه إشكال، وهو أن هذا يقتضي أن يكون النقر إنما يحصل عند صيحة الإصعاق وذلك اليوم غير شديد على الكافرين؛ لأنهم يموتون في تلك الساعة، إنما اليوم الشديد على الكافرين صيحة الإحياء، ولذلك يقول: ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٧]، أي: يا ليتنا بقينا على الموتة الأولى.

وقوله: «فَذلِكَ»، أي: فذلك اليوم يوم شديد على الكافرين «غير يَسيرٍ» أي: غير سهل، ولا هين وذلك أن عقدهم لا تنحل، إلا إلى عقد أشد منها، فإنهم يناقشون الحساب ويعطون كتبهم بشمائلهم، وتسودُّ وجوههم، ويحشرون زرقاً، وتتكلم

(١) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ١٧٣.

جوارحهم، ويفضحون على رؤوس الأشهاد بخلاف المؤمنين الموحدين المذنبين فإنها تنحل إلى ما هو أخف، حتى يدخلوا الجنة برحمة الله تعالى فإنهم لا يناقشون الحساب، ويحشرون بيض الوجوه، ثِقال الموازين.

قال ابن الخطيب[١]: ويحتمل أن يكون عسيراً على المؤمنين، والكافرين، على ما روي أن الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ يفزعون يومئذ، وأن الولدان يشيبون، إلا أنه يكون على الكفار أشد فعلى الأول: لا يحسن الوقف على قوله ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾، فإن المعنى: إنه على الكافرين عسير وغير يسير.

وعلى الثاني: يحسن الوقف، لأنه في المعنى: أنه في نفسه عسير على الكل ثم الكافر فيه مخصوص بزيادة تخصه، وهي أنه عليه عسير.

فصل في دليل الخطاب

قال ابن الخطيب[٢]: استدل بهذه الآية القائلون بدليل الخطاب، قالوا: لولا أن دليل الخطاب حجة[٣] وإلا فما فهم ابن عباس من كونه غير يسير على الكافرين كونه يسيراً على المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)﴾

قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾، الواو في قوله: ﴿وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾، كقوله: «والمُكَذبين» في الوجهين المتقدمين في السورة قبلها.

وقوله تعالى: ﴿وَحِيدًا﴾ فيه أوجه:

---

(١) الفخر الرازي ٣٠/ ١٧٤.　　(٢) السابق.

(٣) ينظر: البحر المحيط للزركشي ٤/ ١٣، البرهان لإمام الحرمين ١/ ٤٤٩، غاية الوصول للشيخ زكريا الأنصاري ٣٨، المنخول للغزالي ٢٠٨، حاشية البناني ١/ ٢٤٥، الآيات البينات لابن قاسم العبادي ٢/ ٢٣، حاشية العطار على جمع الجوامع ١/ ٣٢٦، تيسير التحرير لأمير بادشاه ١/ ٩٨، حاشية التفتازاني والشريف على مختصر المنتهى ٢/ ١٧٣، شرح التلويح على التوضيح لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني ١/ ١٤١، الوجيز للكراماستي ٢٤، ميزان الأصول للسمرقندي ١/ ٥٧٩، نشر البنود للشنقيطي ١/ ٩١، التقرير والتحبير لابن أمير الحاج ١/ ١١٥.

أحدها: أنه حال من الياء في «ذَرْنِي»، أي: ذرني وحدي معه فأنا أكفيك في الانتقام منه.

الثاني: أنه حال من التاء في «خَلقْتُ»، أي خلقته وحدي لم يشركني في خلقه أحد فأنا أهلكه.

الثالث: أنه حال من «مَن».

الرابع: أنه حال من عائده المحذوف، أي خلقته وحيداً، فـ «وَحِيْداً» على هذا حال من ضمير المفعول المحذوف، أي: خلقته وحده لا مال له ولا ولد، ثم أعطيته بعد ذلك ما أعطيته؛ قاله مجاهد[1].

الخامس: أن ينتصب على الذَّمِّ، لأنه يقال: إن وحيداً كان لقباً للوليد بن المغيرة، ومعنى «وَحِيْداً» ذليلاً.

قيل: كان يزعم أنه وحيد في فضله، وماله، وليس في ذلك ما يقتضي صدق مقالته لأن هذا لقب له شهر به، وقد يلقب الإنسان بما لا يتصف به، وإذا كان لقباً تعين نصبه على الذم.

فصل في معنى «ذرني»

معنى «ذرني» أي: دعني، وهي كلمة وعيد وتهديد، «ومَنْ خَلقْتُ» هذه واو المعية، أي: دعني والذي خلقته وحيداً.

قال المفسرون: هو الوليد بن المغيرة المخزومي، وإن كان الناس خلقوا مثل خلقه فإنما خص بالذكر لاختصاصه بكفر النعمة، وأذى الرسول ﷺ وكان يسمى الوحيد في قومه.

قال ابن عباس: كان الوليد يقول: أنا الوحيد ابن الوحيد، ليس لي في العرب نظير، ولا لأبي المغيرة نظير، فقال الله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ بزعمه «وَحِيْداً» لأن الله تعالى صدقه، بأنه وحيد[2].

قال ابن الخطيب[3]: ورد هذا القول بعضهم بأنه تعالى لا يصدقه في دعواه بأنه وحيد لا نظير له، ذكره الواحدي، والزمخشري، وهو ضعيف من وجوه:

الأول: لأنه قد يكون الوحيد علماً فيزول السؤال، لأن اسم العلم لا يفيد في المسمى صفة، بل هو قائم مقام الإرشاد.

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره ١٩/٤٧. (٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/٤٧).

(٣) الفخر الرازي ٣٠/ ١٧٥.

الثاني: أن يكون ذلك بحسب ظنه، واعتقاده، كقوله ـ عز وجل ـ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

الثالث: أنه وحيد في كفره، وعناده وخبثه؛ لأن لفظ الوحيد ليس فيه أنه وحيد في العلو والشرف.

الرابع: أنه إشارة إلى وحدته عن نفسه.

قال أبو سعيد الضرير: الوحيد الذي لا أب له كما تقدم في «زَنِيْمٌ».

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾، أي: خولته، وأعطيته مالاً ممدوداً.

قال ابن عباس: هو ما كان للوليد بين مكة والطائف من الإبل والنعم والخيول والعبيد والجواري.

وقال مجاهد وسعيد بن جبير وابن عباس ـ أيضاً ـ: ألف دينار(١).

وقال قتادة: ستة آلاف دينار(٢).

وقال سفيان الثوري: أربعة آلاف دينار(٣).

وقال الثوري ـ أيضاً ـ: ألف ألف دينار(٤).

وقال ابن الخطيب(٥): المال الممدود: هو الذي يكون له مدد يأتي منه الجزء بعد الجزء دائماً، ولذلك فسره عمر ـ رضي الله عنه ـ غلة شهر بشهر وقال النعمان(٦): الممدود بالزيادة كالزرع والضرع، وأنواع التجارات.

قال مقاتل: كان له بستان لا ينقطع شتاء ولا صيفاً، كما في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠]، أي: لا ينقطع والذي يظهر أنه المال الكثير، والتقديرات تحكم.

قوله: ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾، أي: حضوراً لا يغيبون، ولا يفارقونه ـ ألبتة ـ طَيِّبَ القلب بحضورهم.

وقيل: معنى كونهم شهوداً، أي: يشهدون معه المجامعَ والمحافلَ.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٠٦) عن مجاهد وسعيد بن جبير ومثله عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٥٤) وعزاه إلى ابن المنذر.

(٢) ذكره الماوردي (٦/ ١٣٩) والقرطبي (١٩/ ٤٧).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٠٦).

(٤) ذكره السيوطي (٦/ ٤٥٤) وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٥) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ١٧٥.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٠٦) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٥٤) وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه والدينوري في «المجالسة».

وقيل: «شهوداً» أي: صاروا مثلهُ في شهود ما كان يشهدُ، والقيام بما كان يباشره.

قال مجاهد وقتادة: كانوا عشرة[١].

وقال السديُّ والضحاكُ: كانوا اثني عشر رجلاً[٢]، وعن الضحاك: سبعة ولدُوا بمكة، وخمسة بالطائف[٣].

وقال مقاتل: كانوا سبعة أسلم منهم ثلاثةٌ: خالد، وهشام، والوليد بن الوليد، قال: فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتى هلك قال ابن الخطيب كانوا سبعة الوليد بن الوليد وخالد وعمارة وهشام والعاص، وعبد القيس، وعبد شمس أسلم منهم ثلاثة: خالد، وعمارة، وهشام[٤].

قوله: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾، أي: بسطتُ له في العيش بسطاً في الجاه العريض والرياسة في قومه.

والتمهيدُ عند العرب: التوطئة والتهيئة.

ومنه: مهدُ الصبيّ.

وقال ابن عباس: «ومَهَّدتُ لهُ تَمْهِيداً» أي: وسعّتُ له ما بين «اليمن» إلى «الشام»[٥]، وهو قول مجاهدٍ وعن مجاهد أيضاً: أنه المال بعضه فوق بعض كما يمهد الفراش[٦].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ كَلَّآ﴾. لفظة «ثُمَّ» ـ هاهنا ـ معناها: التعجب كقولك لصاحبك: أنزلتك داري وأطعمتك وأسقيتك ثم أنت تشتمني، ونظيره: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، فمعنى «ثُمَّ» ـ هاهنا ـ الإنكارُ والتعجبُ، أي: ثم الوليد يطمعُ بعد هذا كله أن أزيدهَ في المالِ والولدِ، وقد كفر بِي! قاله الكلبي ومقاتل، ثم قال: «كَلاَّ» ليس يكون ذلك مع كفرهِ بالنعمِ[٧].

قال الحسنُ وغيره: أي: ثُمَّ يطمعُ أن أدخلهُ الجنة، وكان الوليد يقولُ: إنْ كَانَ محمدٌ صادقاً فما خلقتِ الجنة إلا لي، فقال الله عزَّ وجلَّ رداً عيه وتكذيباً له: «كلاَّ» لستُ أزيدهُ، فلمْ يزلْ في نقصانٍ بعد قوله: «كلاَّ» حتى افتقر ومات فقيراً[٨].

وقيل: أي: ثم يطمع أن أنصره على كفره، «كَلا» قطع للرجاء عما كان يطمع فيه من الزيادة، فيكون متصلاً بالكلام الأول.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٠٧) عن مجاهد.
(٢) ذكره القرطبي (١٩/ ٤٧).
(٣) ذكره الماوردي (٦/ ١٤٠) وينظر المصدر السابق.
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٤٧).
(٥) ينظر المصدر السابق.
(٦) ينظر المصدر السابق.
(٧) ينظر المصدر السابق.
(٨) ينظر المصدر السابق.

وقيل: «كَلاَّ» بمعنى «حقاً»، ويبتدىء بقوله «إِنَّهُ» يعني الوليد ﴿ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴾، أي: معانداً للنبي ﷺ وما جاء به.

قال الزمخشريُّ: «إنَّه كان لآيَاتِنَا» استئناف جواب لسائل سأل: لم لا يزداد مالاً، وما باله ردع عن طبعه؟.

فأجيب بقوله: «إنَّه كانَ لآيَاتِنَا عَنيداً»، انتهى.

فيكون كقوله ﷺ في الهرة: «إنَّها ليْسَتْ بنجسٍ، إنَّها مِنَ الطوَّافِيْنَ عَليْكُمْ»[١].

والعنيد: المعاند.

يقال: عاند فهو عنيد وعانِد، والمعاند: البعير الذي يجور عن الطريق ويعدل عن القصد، والجمع: عند مثل: «راكع وركع»، قاله أبو عبيدة؛ وأنشد قول الحازميِّ: [الرجز]

٤٩٥٩ ـ إذَا رَكِبتُ فاجْعَلانِي وَسَطا إنِّي كَبِيرٌ لا أطِيقُ العُنَّدا[٢]

وقال أبو صالح: «عنيداً» معناه: مباعداً؛ قال الشاعر: [الطويل]

٤٩٦٠ ـ أرَانَا على حَالٍ تُفَرِّقُ بَيْنَنَا نَوَى غُرْبَةٌ إنَّ الفِراقَ عَنُودُ[٣]

وقال قتادة: جاحداً[٤].

وقال مقاتل: معرضاً[٥].

وقيل: إنه المجاهر بعداوته.

وعن مجاهد: أنه المجانب للحق[٦].

قال الجوهري: ورجل عنود: إذا كان لا يخالط الناس، والعنيد من التجبر، وعرق عاند: إذا لم يرقأ دمه، وجمع العنيد عُنُد مثل رغيف ورغف، والعنود من الإبل: الذي لا يخالط الإبل إنما هو في ناحية، والعنيد في معنى المعاند كالجليس والأكيل والعشير.

فصل في بيان فيما كانت المعاندة

في الآية إشارة إلى أنه كان يعاند في أمور كثيرة:

---

(١) تقدم.

(٢) ينظر المقتضب (١/ ٢١٨)، وابن الشجري (١/ ٢٧٦)، والاقتضاب ص ٤١٥، وشرح الجمل لابن عصفور ٢/ ٦٠٠، ومجاز القرآن ١/ ٢٩٠، والطبري ٢٩/ ٩٧، ومجمع البيان ١٠/ ٥٨٣، والقرطبي ١٨/ ٤٨.

(٣) ينظر اللسان (غرب)، (وعند)، والقرطبي (١٩/ ٤٨).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٠٨).

(٥) ذكره الماوردي (٦/ ١٤١) والقرطبي (١٩/ ٤٨).

(٦) ينظر المصدر السابق.

منها أنه كان يعاند في دلائل التوحيد، والعدل، والقدرة، وصحة النبوة وصحة البعث.

ومنها: أن كفره كان عناداً لأنه كان يعرف هذه الأشياء بقلبه وينكرها بلسانه. وكفر المعاند أفحش أنواع الكفر.

ومنها: أن قوله «كان» يدل على أن هذه حرفته من قديم الزمان.

ومنها: أن هذه المعاندة، كانت مختصة منه بآيات الله تعالى.

قوله: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾، أي: سأكلفه، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: سألجئه، والإرهاق في كلام العرب: أن يحمل الإنسان الشيء.

والصعود: جبل من نار يتصعد فيه سبعين خريفاً، ثم يهوي به كذلك فيه أبداً. رواه الترمذي.

وفي رواية: صخرة في جهنم، إذا وضعوا أيديهم عليها ذابت، فإذا رفعوها عادت.

وقيل: هذا مثل لشدة العذاب الشاق الذي لا يطاق، كقوله: عقبة صعود وكؤود، أي: شاقة المصعدِ.

ثم إنه تعالى حكى كيفية عناده، وهو قوله تعالى:

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾: يجوز أن يكون استئناف تعليل لقوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾، ويجوز أن يكون بدلاً من ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾.

يقال: فكر في الأمر، وتفكر إذا نظر فيه وتدبر، ثم لما تفكر رتب في قلبه كلاماً وهيأه، وهو المراد من قوله «وقَدَّرَ».

والعرب تقول: قدرت الشيء إذا هيأته.

فصل في معنى الآية

معنى الآية: أن الوليد فكر في شأن النبي ﷺ والقرآن لما نزل: ﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر: ١ ـ ٣]، سمعه الوليد يقرأها، فقال: والله لقد سمعت منه كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجنِّ، وإنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أعلاه لمثمر، وإنَّ أسفله لمغدق وإنه ليعلو، وما يعلى عليه، وما يقول هذا بشر، فقالت قريش: صبأ الوليد لتصبونَّ قريش كلها، وكان يقال للوليد: ريحانة قريش، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه فانطلق إليه حزيناً، فقال له: ما لي أراك حزيناً، فقال: وما لي لا أحزن، وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينوك بها، ويزعمون أنك زينت كلام محمدٍ، وتدخل على ابن أبي كبشة، وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهما، فغضب الوليدُ ـ لعنهُ الله ـ وتكبَّر،

وقال: أنا أحتاجُ إلى كسرِ محمدٍ وصاحبه، وأنتم تعلمون قدر مالي، واللاتِ والعُزّى ما بي حاجةٌ إلى ذلك وأنتم تزعمُون أن محمداً مجنون، فهل رأيتموه قط يخنق؟.

قالوا: لا والله، قال: وتزعمون أنه كاهنٌ، فهل رأيتموه تكهن قط؟ ولقد رأينا للكهنةِ أسجاعاً وتخالجاً، فهل رأيتموهُ كذلك؟.

قالوا: لا والله. وقال: تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه نطق بشعر قط؟ قالوا: لا والله.

قال: وتزعمون أنه كذّاب، فهل جربتمْ عليه كذباً قط؟.

قالوا: لا والله. وكان النبي ﷺ يُسمّى الصادق والأمين من كثرة صدقه، فقالت قريش للوليدِ: فما هو؟ ففكّر في نفسه ثم نظر ثم عبس، فقال: ما هذا إلا سحرٌ أما رأيتموه يفرق بين الرجل وولده فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾ أي في أمر محمدٍ والقرآن «وقدر» في نفسه ماذا يمكنهُ أن يقول فيهما.

قوله: ﴿فَقُتِلَ﴾، أي: لعنَ.

وقيل: قُهِرَ وغلبَ.

وقال الزهري: عذب، وهو من باب الدعاء.

قال ابن الخطيب[١]: وهذا إنما يذكرُ عند التعجب والاستعظام.

ومثله قولهم: قتلهُ اللّهُ ما أشجعهُ، وأخزاه الله ما أفجره، ومعناهُ: أنه قد بلغ المبلغ الذي هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسدهُ بذلك، وإذا عرف ذلك، فنقول: هنا يحتملُ وجهين:

الأول: أنه تعجب من قوة خاطره، يعني أنه لا يمكن القدحُ في أمر محمدٍ ﷺ بشبهةٍ أعظم ولا أقوى مما ذكرهُ هذا القائلُ.

الثاني: الثناءُ عليه على طريقةِ الاستهزاء، يعني أن هذا الذي ذكره في غاية الركاكة والسقوط.

قوله: ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾، أي: كيف فعل هذا، كقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الإسراء: ٤٨] ثم قيل: بضرب آخر من العقوبة. «كيف قدَّر» على أيّ حال قدَّر. «ثم نظر» بأي شيء يردّ الحق ويدفعهُ.

قال ابن الخطيب[٢]: والمعنى أنه أولاً فكّر. وثانياً: قدَّر. وثالثاً: نظر في ذلك المقدرِ، فالنظر السابق للاستخراج، والنظر اللاحق لتمام الاحتياطِ، فهذه المرات الثلاث متعلقة بأحوال ثلاث.

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣/ ١٧٧.　　(٢) ينظر: السابق.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾، يقال: عبس يعبس عبساً، وعبوساً: أي: قطب وجهه.

وقال الليث: عبس يعبس فهو عبس إذا قطب ما بين عينيه، فإذا أبدى عن أسنانه في عبوسه قيل: كلح، فإن اهتم لذلك، وفكر فيه قيل: بسر، فإن غضب مع ذلك قيل: بسل. واعلم أنه ذكر صفات جسمه بعد صفات قلبه، وهذا يدل على عناده، لأن من فكر في أمر حسن يظهر عليه الفرح لا العبوس، والعبس أيضاً: ما يبس في أذناب الإبل من البعر، والبول؛ قال أبو النجم: [الرجز]

٤٩٦١ ـ كَأنَّ فِي أذْنَابِهِنَّ الشُّوَّلِ مِنْ عَبَسِ الصَّيْفِ قُرونَ الأيَّلِ(١)

فصل في معنى الآية

معنى الآية: قطب وجهه في وجوه المؤمنين، وذلك أنه لما قال لقريش: إن محمداً ساحر مرَّ على جماعة من المسلمين، فدعوه إلى الإسلام، فعبس في وجوههم.

وقيل: عبس على النبي ﷺ حين دعاه، والعبس: مصدر «عبس» مخففاً، كما تقدم.

قوله: «وبَسَرَ»، يقال: بَسَر يَبسُرُ بسراً وبُسُوراً: إذا قبض ما بين عينيه كراهة للشيء واسود وجهه منه، يقال: وجه باسر، أي منقبض مسود كالح متغير اللون، قاله قتادة والسدي؛ ومنه قول بشير بن الحارث: [المتقارب]

٤٩٦٢ ـ صَبَحْنَا تَمِيماً غَداةَ الجِفَارِ بِشَهْبَاءَ مَلْمُومَةٍ بَاسِرَهْ(٢)

وأهل اليمن يقولون: بسر المركب بسراً، أي: وقف لا يتقدم، ولا يتأخر، وقد أبسرنا: أي صرنا إلى البسور.

وقال الراغب: البسر استعجال الشيء قبل أوانه، نحو: بسر الرجل حاجته طلبها في غير أوانها، وماء بسر: متناول من غديره قبل سكونه، ومنه قيل للذي لم يدرك من التمر: بسر، وقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَبَسَرَ﴾، أي: أظهر العبوس قبل أوانه، وقبل وقته.

قال: فإن قيل: فقوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٤]، ليس يفعلون ذلك قبل الموت، وقد قلت: إن ذلك يكون فيما يقع قبل وقته.

قيل: أشير بذلك إلى حالهم قبل الانتهاء بهم إلى النار، فخص لفظ البسر تنبيهاً على أن ذلك مع ما ينالهم من بعد، يجري مجرى التكلف، ومجرى ما يفعل قبل وقته، ويدل على ذلك ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٥].

---

(١) ينظر اللسان (شول)، و (عبس)، و (أول)، والقرطبي (١٩/ ٥٠).

(٢) ينظر اللسان (حضر) و (شهب)، و (لمم)، و(بسر)، والقرطبي ١٩/ ٥٠، والدر المصون ٦/ ٤١٦.

وقد عطف في هذه الجمل بحروف مختلفة، ولكل منها مناسبة، أما ما عطف بـ «ثُمَّ» فلأن بين الأفعال مهلة، وثانياً: لأن بين النظر، والعبوس، وبين العبوس، والإدبار تراخياً.

قال الزمخشريُّ: و «ثمّ نظر» عطف على «فكَّر» و «قدَّر»، والدعاء اعتراض بينهما، يعني بالدعاء قوله: «فَقُتِل»، ثم قال: فإن قلت: ما معنى «ثُمَّ» الداخلة على تكرير الدعاء؟.

قلت: الدلالة على أن الكرة الثانية أبلغ من الأولى؛ ونحوه قوله: [الطويل]

٤٩٦٣ ـ ألاَ يَا اسْلمِي ثُمَّ اسْلمِي ثُمَّتَ اسْلَمِي ....[1]

فإن قلت: ما معنى المتوسطة بين الأفعال التي بعدها؟.

قلت: للدلالة على أنه تأنَّى في التأمل، والتمهل، وكأن بين الأفعال المتناسقة تراخٍ، وتباعد، فإن قلت: فلم قال: «فَقَالَ» ـ بالفاء ـ بعد عطف ما قبله بـ «ثُمَّ»؟.

قلت: لأن الكلمة لما خطرت بباله بعد التطلب لم يتمالك أن نطق بها من غير تلبث، فإن قلت: فلم لم يتوسط حرف العطف بين الجملتين؟.

قلت: لأن الأخرى جرت من الأولى مجرى التأكيد من المؤكد.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾، أي: ولى وأعرض ذاهباً عن سائر الناس إلى أهله.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ حين دعي إلى الإيمان، أي: تعظم.

﴿إن هذا﴾ أي: ما هذا الذي أتى به محمد ﷺ ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾، أي: تأثره عن غيره.

والسحر: الخديعة.

وقيل: السحر إظهار الباطل في صورة الحق.

والأثر: مصدر قولك: أثرت الحديث آثره، إذا ذكرته عن غيرك؛ ومنه قيل: حديث مأثور، أي: ينقله خلف عن سلف؛ قال الأعشى: [السريع]

٤٩٦٤ ـ إنَّ الَّذي فيه تَمَارَيْتُمَا بُيِّنَ لِلسَّامِعِ والآثِرِ[2]

قال ابن الخطيب[3]: فيه وجهان:

---

(١) صدر بيت لحميد بن ثور الهلالي وعجزه:

ثلاث تحيات وإن لم تكلم

ينظر ديوانه ص ١٣٣، ورصف المباني ص ٤٥٣، وشرح المفصل ٣/ ٣٩، والحماسة ٢/ ١٣٧، والكشاف ٤/ ٦٤٩، والدر المصون ٦/ ٤١٦.

(٢) ينظر ديوان الأعشى ص ٩٣، واللسان (أثر)، والقرطبي ١٩/ ٥٠.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١٧٨.

الأول: أنه من قولهم: أثرت الحديث آثره، أثراً، إذا حدثت به عن قوم في آثارهم، أي: بعدما ماتوا، هذا هو الأصل، ثم صار بمعنى الرواية عما كان.

والثاني: يؤثر على جميع السحر، وهذا يكون من الإيثارِ.

وقال أبو سعيد الضرير: يؤثر، أي: يُورَثُ.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾، أي: هذا إلا كلام المخلوقين تختدع به القلوب كما يخدع بالسحر.

قال ابن الخطيب[١]: ولو كان الأمر كذلك لتمكنوا من معارضته إذ طريقتهم في معرفة اللغة متقاربة.

قال السديُّ: يعني أنه من قول سيَّار عبد لبني الحضرمي، كان يجالس النبي ﷺ فنسبوه إلى أنه تعلم منه ذلك[٢].

وقيل: إنه أراد أنه تلقنه ممن ادعى النبوة قبله، فنسج على منوالهم.

قال ابن الخطيب[٣] وهذا الكلام يدل على أن الوليد كان يقولُ هذا الكلام عناداً، لما روي في الحديث المتقدم: «أنه لما سمع من رسول الله ﷺ «حم» ثم خرج من عند النبي ﷺ يقول: لقد سمعتُ من محمدٍ كلاماً، ليس من كلام الجنِّ، ولا من كلام الإنسِ» الحديث، فلمَّا أقر بذلك في أول الأمر علمنا أن قوله ـ هاهنا ـ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾، إنَّما ذكره عناداً، أو تمرداً لا اعتقاداً.

قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾، هذا بدل من قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾. قاله الزمخشري.

فإن كان المراد بالصعود: المشقة، فالبدل واضح، وإن كان المراد: صخرة في جهنم ـ كما جاء في التفسير ـ فيعسر البدل، ويكون فيه شبه من بدل الاشتمال، لأن جهنم مشتملة على تلك الصخرة.

فصل في معنى الآية

المعنى: سأدخله سقر كي يصلى حرها، وإنما سميت «سَقَرَ» من سقرته الشمس: إذا أذابته ولوحته، وأحرقت جلدة وجهه، ولا ينصرف للتعريف والتأنيث قال ابن عباس: «سقر» اسم للطبقة السادسة من «جهنم»[٤].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾. هذا مبالغة في وصفها، أي: وما أعلمك أي شيء هي؟ وهي

---

(١) السابق.
(٢) ينظر الرازي ٣٠/ ١٧٧.
(٣) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ١٧٨.
(٤) ينظر الرازي ٣٠/ ١٧٧.

كلمة تعظيم، وتهويل، ثم فسر حالها، فقال ـ جل ذكره ـ: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ أي: لا تترك لهم لحماً، ولا عظماً، ولا دماً إلا أحرقته.

قوله: ﴿لَا تُبْقِي﴾، فيها وجهان:

أحدهما: أنها في محل نصب على الحال، والعامل فيها معنى التعظيم، قاله أبو البقاء.

يعني أن الاستفهام في قوله: «مَا سَقَرُ» للتعظيم، والمعنى: استعظموا سقر في هذه الحال.

ومفعول «تُبْقِي، وتَذرُ» محذوف أي لا تبقي ما ألقي فيها، ولا تذره، بل تهلكه.

وقيل: تقديره لا تُبْقِي على من ألقي فيها، ولا تذر غاية العذاب إلا وصلته إليه.

والثاني: أنها مستأنفة.

قال ابن الخطيب[١]: واختلفوا في قوله: «لا تبقي ولا تذر».

فقيل: هما لفظان مترادفان بمعنى واحد، كرر للتأكيد والمبالغة، كقولك صدَّ عني وأعرض عني، بل بينهما فرق، وفيه وجوه:

الأول: لا تبقي من اللحم، والعظم، والدم شيئاً، ثم يعادون خلقاً جديداً، «ولا تَذرُ» أن تعاود إحراقهم بأشد مما كانت، وهكذا أبداً، رواه عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما[٢].

وقال مجاهد: لا تبقي فيها حياً ولا تذره ميتاً بل تحرقهم كلما جُدِّدوا[٣]. وقال السديّ: لا تبقي لهم لحماً ولا تذر لهم عظماً[٤]. وقيل: لا تبقي من المعذبين، ولا تذر من فوقها شيئاً، إلا تستعمل تلك القوة في تعذيبهم.

قوله تعالى: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾، قرأ العامة: بالرفع، خبر مبتدأ مضمر، أي هي لواحة، وهذه مقوية للاستئناف في «لا تُبْقِي».

وقرأ الحسن، وابن أبي عبلة وزيد بن[٥] **علي وعطية العوفي** ونصر بن عاصم وعيسى بن عمر: بنصبهما على الحال، وفيها ثلاثة أوجه:

أحدها: أنها حال من «سَقرُ»، والعامل معنى التعظيم كما تقدم.

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/١٧٨.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٥٥) وعزاه إلى ابن المنذر.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣١١) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٥٥) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٥١) عن السدي.

(٥) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٩٦، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٧، والدر المصون ٦/ ٤١٧.

والثاني: أنها حال من «لا تُبْقِي».

والثالث: من «لا تَذرُ».

وجعل الزمخشري: نصبها على الاختصاص للتهويل.

وجعلها أبو حيان حالاً مؤكدة.

قال: «لأن النار التي لا تبقي ولا تذر، لا تكون إلاَّ مُغيرة للأبشار».

و «لوَّاحةٌ» هنا مبالغة، وفيها معنيان:

أحدهما: من لاح يلوح، أي: ظهر، أي: أنها تظهر للبشر، [وهم الناس، وإليه ذهب الحسن وابن كيسان، فقال: «لوَّاحةٌ» أي: تلوح للبشر][1] من مسيرة خمسمائة عام، وقال الحسن: تلوح لهم جهنم حتى يرونها عياناً، ونظيرة: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦].

والثاني: وإليه ذهب جمهور الناس، أنها من لوّحه أي: غيَّرهُ، وسوَّدهُ.

قال الشاعر: [الرجز]

٤٩٦٥ ـ تقُولُ: ما لاحَكَ يا مُسَافِرُ يَا بْنَةَ عَمِّي لاحَنِي الهَواجِرُ[2]

وقال رؤبة بن العجَّاج: [الرجز]

٤٩٦٦ ـ لُوِّحَ مِنهُ بَعْدَ بُدْنٍ وسَنَقْ تَلْويحكَ الضَّامرَ يُطْوى للسَّبَقْ[3]

وقال آخر: [الطويل]

٤٩٦٧ ـ وتَعْجَبُ هِنْدٌ إنْ رأتْنِي شَاحِباً تقُولُ لشَيءٍ لوَّحتهُ السَّمائِمُ[4]

ويقال: لاحَهُ يلُوحُه: إذا غير حليته.

قال أبو رزين: تلفح وجوههم لفحة تدعهم أشد سواداً من الليل، قال تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

وطعن القائلون بالأول في هذا القول، فقالوا: لا يجوز أن يصفهم بتسويد الوجوهِ، مع قوله: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾.

---

(١) سقط من أ.

(٢) ينظر الكشاف ١٨٣/٤، وشرح شواهده ص ٤٢٤، ومجاز القرآن ٢/ ٢٥، ٢٧٥، والقرطبي ١٩/ ٥١، والبحر ٨/ ٣٦١، والدر ٦/ ٤١٧، وروح المعاني ٢٩/ ١٥٧.

(٣) ينظر ديوان رؤبة ص ١٠٤، والقرطبي ١٩/ ٥١.

(٤) ينظر اللسان (شحب)، و (لوح) و (سمم) والقرطبي ١٩/ ٥١، والبحر ٨/ ٣٦١، والدر المصون ٦/ ٤١٧.

وقيل: اللوح شدة العطش، يقال: لاحه العطش ولوحه: أي غيره، قال الأخفش: والمعنى أنها معطشة للبشر، أي: لأهلها؛ وأنشد: [الطويل]

٤٩٦٨ ـ سَقَتْنِي على لَوْحٍ من المَاءِ شَرْبةً سَقَاهَا بِهِ اللَّهُ الرِّهَامَ الغَوادِيَا[١]

يعني باللوح: شدة العطش. والرهام جمع رهمة ـ بالكسر ـ وهي المطرة الضعيفة وأرهمت السحابة: أتت بالرهام.

واللُّوح ـ بالضم ـ الهواء بين السماء والأرض، والبشر: إما جمع بشرة، أي: مغيرة للجلود. قاله مجاهد وقتادة، وجمع البشر: أبشار، وإما المراد به الإنس من أهل النار، وهو قول الجمهور.

واللام في «البشر»: مقوية، كهي في ﴿لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

وقراءة النصب في «لوَّاحَةً» مقوية، لكون «لا تُبْقِي» في محل الحال.

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾، هذه الجملة فيها الوجهان:

أعني: الحالية، والاستئناف وفي هذه الكلمة قراءات شاذة، وتوجيهات مشكلة.

فقرأ أبو جعفر[٢] **وطلحة**: «تِسعَة عْشرَ» ـ بسكون العين من «عشر»؛ تخفيفاً؛ لتوالي خمس حركات من جنس واحد، وهذه كقراءة ﴿أَحَدَ عْشَرَ كَوْكَباً﴾ [يوسف: ٤] وقد تقدمت. **وقرأ أنس**[٣] **وابن عباس** رضي الله عنهما «تِسعَةُ عشَر» بضم التاء، «عَشَر» بالفتح.

وهذه حركة بناء، لا يجوز أن يتوهم كونها إعراباً، إذ لو كانت للإعراب لجعلت في الاسم الأخير لتنزل الكلمتين منزلة الكلمة الواحدة، وإنما عدل إلى التسكين كراهة توالي خمس حركات.

وعن المهدوي: «من قرأ: «تِسْعَةُ عَشَرْ» فكأنه من التداخل، كأنه أراد العطف، فترك التركيب، ورفع هاء التأنيث، ثم راجع البناء، وأسكن» انتهى.

فجعل الحركة للإعراب، ويعني بقوله: أسكن راء «عَشَرْ» فإنه في هذه القراءة كذلك.

وعن أنس ـ رضي الله عنه[٤] **ـ أيضاً**: «تِسْعَةُ أعْشُرٍ» بضم «تِسْعَة» و «أعْشُر» بهمزة مفتوحة، ثم عين ساكنة، ثم شين مضمومة، وفيها وجهان:

---

(١) البيت لسحيم عبد بني الحسحاس.
ينظر ديوانه (٢٠)، والقرطبي ١٩/ ٥١، والبحر ٨/ ٣٦١، والدر المصون ٦/ ٤١٧.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٩٦، والبحر المحيط ٨/ ٣٦٨، والدر المصون ٦/ ٤١٨.

(٣) ينظر: السابق. (٤) ينظر: السابق.

قال أبو الفضل: يجوز أن يكون جمع «العشيرة» على «أعْشُر»، ثم أجراه مجرى «تِسْعَة عشر».

وقال الزمخشريُّ: جمع «عَشِير» مثل: يَمِين وأيْمُن.

وعن أنس ـ أيضاً[١] ـ: «تِسْعَةُ وعْشُرْ» بضم التاء وسكون العين وضم الشين وواو مفتوحة بدل الهمزة.

وتخريجها كتخريج ما قبلها، إلا أنه قلب الهمزة واواً مبالغة في التخفيف، والضمة ـ كما تقدم ـ للبناء لا للإعراب.

ونقل المهدوي: أنه قرىء: «تِسْعَةٌ وعَشْرْ»، قال: «فجاء به على الأصل قبل التركيب وعطف «عَشْر» على «تِسْعَة»، وحذف التنوين، لكثرة الاستعمال، وسكون الراء من «عشر» على نية الوقف».

وقرأ سليمان بن قتة: بضم[٢] **التاء وهمزة** مفتوحة، وسكون العين، وضم الشين وجر الراء من «أعْشُرِ».

والضمة على هذا ضمة إعراب، لأنه أضاف الاسم لها بعده فأعربهما إعراب المتضايفين وهي لغة لبعض العرب يفكون تركيب الأعداد، ويعربونها كالمتضايفين؛ كقوله: [الرجز]

٤٩٦٩ ـ كُلِّفَ مِنْ عَنائِهِ وشِقْوتِهْ بِنْتَ ثَمانِي عَشْرةٍ مِنْ حِجَّتِهْ[٣]

قال أبو الفضل: ويجيء على هذه القراءة، وهي قراءة من قرأ: «أعشر» مبنياً، أو معرباً من حيث هو جمع، أن الملائكة الذين هم على «سَقَر» تسعون ملكاً.

فصل في معنى الآية

معنى الآية: أنه يلي أمر تلك النار تسعة عشر من الملائكة يلقون فيها أهلها.

قيل: هم خزنة النار، مالك وثمانية عشر ملكاً.

وقيل: التسعة عشر نقيباً، وقال أكثر المفسرين: تسعة عشر ملكاً بأعيانهم.

قال القرطبي[٤]: وذكر ابن المبارك عن رجل من بني تميم، قال كنا عند أبي العوام

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٤١٨.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٦٨، والدر المصون ٦/ ٤١٨.

(٣) الرجز لنفيع بن طارق ينظر الحيوان ٦/ ٤٦٣، والدرر ٦/ ١٩٧، وشرح التصريح ٢/ ٢٧٥، والمقاصد النحوية ٤/ ٤٨٨، والإنصاف ١/ ٣٠٩، وأوضح المسالك ٤/ ٢٥٩، وخزانة الأدب ٦/ ٤٣٠، ٤٣٢، وشرح الأشموني ٣/ ٦٢٧، واللسان (شقا)، وهمع الهوامع ٢/ ١٤٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٥٢.

فقرأ هذه الآية، فقال: ما تسعة عشر تسعة عشر ألف ملك أو تسعة عشر ملكاً؟ قال: قلت: لا بل تسعة عشر ملكاً، قال: وأنى تعلم ذلك؟.

فقلت: لقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

قال: صدقت، هم تسعة عشر ملكاً.

قال ابنُ جريج: نعت النبي ﷺ خزنة جهنم، فقال رسول الله ﷺ: «أعْينُهُمْ كالبَرْقِ، وأنْيابُهمْ كالصَّيَاصي، وأشْعارُهمْ[1] تَمَسُّ أقْدامَهُمْ يَخرجُ لهَبُ النَّارِ مِنَ أفْواهِهِمْ»[2]، الحديث.

قال ابن الأثير: «الصَّياصِي: قرون البقر».

وروى الترمذي عن عبد الله قال: قال ناس من اليهود لأناس من أصحاب النبي ﷺ: هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم؟.

قالوا: لا ندري حتى نسأله فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد غلب أصحابك اليوم، فقال: وبماذا غلبوا؟.

قال: سألهم يهود، هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم؟.

قال: فماذا قالوا؟ قال: فقالوا: لا ندري حتى نسأل نبينا ﷺ قال ﷺ: أيغلب قومٌ سئلوا عما لا يعلمون، فقالوا: لا نعلم حتى نسأل نبينا ﷺ؟ لكنهم قد سألوا نبيهم، فقالوا: أرنا الله جهرة، عليّ بأعداء الله، إني سائلهم عن تربة الجنة، وهي الدرمك، فلما جاءوا، قالوا: يا أبا القاسم، كم عدد خزنة جهنم؟.

قال رسول الله ﷺ: «هَكذَا، وهَكذَا»، في مرة عشرة، وفي مرة تسعة، قالوا: نعم فقال لهم رسول الله ﷺ: «مَا تُربَةُ الجنَّةِ»؟ فسكتوا، ثم قالوا: أخبرنا يا أبا القاسم، فقال رسول الله ﷺ: «الخُبْزُ مِنَ الدَّرْمكِ»[3].

قال ابن الأثير: الدرمك: هو الدقيق الحوارى.

قال القرطبيُّ: الصحيح ـ إن شاء الله ـ أن هؤلاء التسعة عشر، هم الرؤساء، والنقباء، وأما جملتهم فكما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤتَى بجَهنَّم يَومئِذٍ، لها سبعُونَ ألفَ زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يَجرُّونها»[4].

---

(١) في أ: أشفارهم.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٥٢).

(٣) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٤٠٢)، وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير مجالد وثقه غير واحد.

وذكره في موضع آخر (١٠/ ٤١٥) وقال: رواه أحمد وإسناده حسن.

(٤) تقدم تخريجه.

وقال ابن عباس وقتادة والضحاك: لما نزل قوله ـ عز وجل ـ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، أسمعُ ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة جهنم: «تسعة عشر» وأنتم الدهماء ـ أي العدد العظيم ـ والشجعان، فيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم(١).

قال السدي: فقال أبو الأسود بن كلدة الجمحي: لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة من الملائكة وبمنكبي الأيسر التسعة، ثم تمرون إلى الجنة، يقولها مستهزءاً(٢).

وفي رواية: أن الحارث بن كلدة قال: أنا أكفيكم سبعة عشر، واكفوني أنتم اثنين(٣)، فلما قال أبو الأسود ذلك، قال المسلمون: ويحكم، لا يقاس الملائكة بالحدادين، فجرى هذا مثلاً في كل شيئين لا تساوي بينهما، ومعناه: لا يقاس الملائكة بالسجّانين، والحداد: السجان.

فصل في تقدير عدد الملائكة

ذكر أرباب المعاني في تقدير هذا العدد وجوهاً:

منها ما قاله أرباب الحكمةِ: أنّ سبب فساد النفس الإنسانية في قوتها النظرية والعملية، هو القوى الحيوانية والطبيعية، فالقوى الحيوانية: فهي الخمسة الظاهرة، والخمسة الباطنة، والشَّهوة، والغضب فهذه اثنا عشر، وأما القوى الطبيعية: فهي الجاذبة، والماسكة، والهاضمة، والدافعة والعادية، والنافية، والمولدة، فالمجموع تسعة عشر، فلما كانت هذه منشآت الآفات لا جرم كان عدد الزبانية هكذا.

ومنها: أن أبواب جهنم سبعة، فستة منها للكفار وواحد للفسَّاق، ثم إنَّ الكفَّار يدخلون النار لأمور ثلاثة: ترك الاعتقاد، وترك الإقرار، وترك العمل، فيكون لكل باب من تلك الأبواب الستة ثلاثة، فالمجموع: ثمانية عشر.

وأما باب الفساق: فليس هناك إلا ترك العمل، فالمجموع: تسعة عشر مشغولة بغير العبادة، فلا جرم صار عدد الزبانية تسعة عشر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣١٢) عن ابن عباس وقتادة وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٥٦) عن قتادة وزاد نسبته إلى عبد بن حميد.
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٥٣). (٣) ينظر المصدر السابق.

فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾

قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾.

روي أن أبا جهل لما نزل قول الله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال: أيعجز كل مائة أن يبطشوا بواحدٍ منهم ثم يخرجون من النار؛ فنزل قوله عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: لم نجعلهم رجالاً فتغالبوهم.

وقيل: جعلهم ملائكة لأنهم خلاف المعذبين من الجن والإنس، فلا تأخذهم مآخذ المجانس من الرقة والرأفة، ولا يستريحون إليهم، ولأنهم أشد الخلق بأساً، وأقواهم بطشاً، ولذلك جعل ـ تعالى ـ الرسول إلى البشر من جنسهم ليكون رأفة ورحمة بنا.

وقيل: لأنَّ قوتهم أعظم من قوة الإنس والجن.

فإن قيل: ثبت في الأخبار أنَّ الملائكة مخلوقون من النور، والمخلوق من النور كيف يطيق المكث في النار؟.

فالجواب: أن الله ـ تعالى ـ قادر على كل الممكنات، فكما أنه لا استبعاد في [إبقاء الحي في مثل ذلك العذاب أبد الآباد ولا يموت، فكذا لا استبعاد][1] في بقاء الملائكة هناك من غير ألم.

قوله ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. أي: بليّة.

روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: المعنى: ضلالة للذين كفروا[2].

وقوله تعالى ﴿فِتْنَةً﴾ مفعول ثانٍ على حذف مضاف، أي إلا سبب فتنة، و «الذين» صفة لـ «فتنة»، وليست «فتنة» مفعولاً له.

فصل في علة ذكر العدد

قال ابن الخطيب[3]: هذا العدد إنَّما صار سبباً لفتنة الكفار من وجهين:

الأول: أن الكفار يستهزئون ويقولون: لم لم يكونوا عشرين، وما المقتضي لتخصيص هذا العدد؟.

والثاني: أن الكفار يقولون: هذا العدد القليل، كيف يكونون وافين بتعذيب أكثر خلق العالم من الجن والإنس من أول ما خلقهم الله إلى قيام القيامة؟.

---

(١) سقط من أ.

(٢) ينظر تفسير القرطبي (١٩/ ٥٣).

(٣) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ١٨٠.

والجواب عن الأول: أن هذا السؤال لازمٌ على كل عددٍ يفرض.

وعن الثاني: أنه لا يبعد أن الله يرزق ذلك العدد القليل قوة تفي بذلك، فقد اقتلع جبريل ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مدائن قوم لوطٍ على أحدِ جناحيه، ورفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء صياح ديكتهم، ثم قلبها وجعل عاليها سافلها.

وأيضاً: فأحوال القيامة لا تقاس بأحوال الدنيا، ولا للعقل فيها مجال.

فصل في أن الله تعالى يريد الفتنة

دلت هذه الآية على أن الله ـ تعالى ـ يريد الفتنة.

وأجاب الجبائي: بأن المراد من الفتنة تشديدُ التعبد ليستدلوا على أنه ـ تعالى ـ قادرٌ على تقوية هؤلاء التسعة عشر على ما لا يقوى عليه مائةُ ألفِ ملكٍ أقوياء.

وأجاب الكعبي: بأن المراد من الفتنة الامتحانُ حتَّى يفوضَ المؤمنون حكمة التخصيص بالعدد المعين إلى علم الله تعالى، وهذا من المتشابه الذي أمروا بالإيمان به، أو يكون المراد من الفتنة ما وقعوا فيه من الكفر بسبب تكذيبهم بعدد الخزنة، وحاصله ترك الألطاف.

والجواب: أن نقول: هل لا يزال لهذه المتشابهات أثرٌ في تقوية داعية الكفر أم لا؟ فإن لم يكن له أثرٌ في تقوية داعية الكفر لم يكن إنزال هذه المتشابهات فتنة للذين كفروا ألبتة وإن كان له أثرٌ في تقوية داعية الكفر، فقد حصل المقصود؛ لأنه إذا ترجَّحت داعية الفعل صارت داعيةُ الترك مرجوحة، والمرجوح يمتنع تأثيره، فيكون الترك ممتنع الوقوع، فيصير الفعل واجب الوقوع. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ﴾. متعلق بـ «جعلنا» لا بـ «فتنة».

وقيل: بفعل مضمر، أي: فعلنا ذلك ليستيقن.

فصل في المراد بالآية

معنى الكلام: ليُوقنَ الذين أعطوا التوراة والإنجيل أن عدَّة خزنة جهنَّم مُوافقةٌ لما عندهم. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم[١]. ثم يحتمل أن يريد الذين آمنوا منهم كعبد الله بن سلام، ويحتمل أن يريد الكُلَّ، ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ لتصديقهم بعدد خزنة النار.

قال ابن الخطيب[٢]: فإن قيل: حقيقة الإيمان عندكم لا تقبل الزيادة والنقصان، فما قولكم في هذه الآية؟.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣١٣) عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٥٧) عن مجاهد وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٢) ينظر الرازي ٣٠/ ١٨٢.

فالجواب: نحملُه على ثمرات الإيمان، وعلى آثاره ولوازمه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْتَابَ﴾، أي: ولا يشك ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟﴾ أي: أعطوا ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: المُصدِّقُون من أصحاب رسول الله ﷺ في أنَّ خزنة جهنَّم تسعة عشر.

فإن قيل: لما أثبت الاستيقان لأهل الكتاب، وأثبت زيادة الإيمان للمؤمنين، فما الفائدة في قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؟.

فالجواب: أن الإنسان إذا اجتهد في أمرٍ غامضٍ دقيقِ الحُجَّة كثير الشُّبه، فحصل له اليقين، فربَّما غفل عن مقدمةٍ من مقدِّمات ذلك الدليل الدقيق، فيعود الشرك، فإثبات اليقين في بعض الأحوال لا ينافي طريان الارتياب بعد ذلك، ففائدة هذه الإعادة نفي ذلك الشكِّ، وأنه حصل له يقينٌ جازمٌ، لا يحصل عقيبه شكٌّ ألبتة.

قوله تعالى: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أي: في صدورهم شكٌّ ونفاقٌ من منافقي أهل «المدينة» الذين يجيئون في مستقبل الزمان بعد الهجرة، وهذا إخبار عما سيكون، ففيه معجزة ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: اليهود والنصارى ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ يعني: بعدد خزنةِ جهنَّم، وهذا قول أكثر المفسرين.

وقال الحسن بن الفضل: السورة مكيّة، ولم يكن بـ «مكة» نفاقٌ، فالمرض في هذه الآية الخلاف، والمراد بالكافرين: مشركو العرب، ويجوز أن يُراد بالمرض الشكُّ والارتياب لأن أهل «مكة» كان أكثرهم مشركين، وبعضهم قاطعين بالكذب، وقوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾؟ أي: هذا العدد الذي ذكره حديثاً، أي ما هذا من الحديث.

قال الليث رحمه الله: المثل الحديث، ومنه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [محمد: ١٥]، أي: حديثها والخبر عنها.

وقال ابن الخطيب[١]: إنما سمَّوه مثلاً؛ لأنه لمَّا كان هذا العدد عدداً عجيباً ظن القوم أنه رُبَّما لم يكن مراداً لله منه ما أشعر به ظاهره بل جعله مثلاً لشيء آخر تنبيهاً على مقصود آخر ـ لا جَرمَ سمَّوه مثلاً ـ لأنهم لمَّا استغربوه ظنُّوا أنه ضرب مثلاً لغيره، و «مَثَلاً» تمييزٌ أو حالٌ، وتسمية هذا مثلاً على سبيل الاستعارة لغرابته.

فصل في لام: «وليقول»

«اللام» في قوله تعالى: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ جار على أصول أهل السُّنة؛ لأن ذلك مراد، وعند المعتزلة: هي لام العاقبة، ونسبوه إلى الله ـ عز وجل ـ مع أنهم ينكرون ذلك، إما على سبيل التَّهكُم، وإما على ما يقولونه.

(١) ينظر المصدر السابق.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾: نعتٌ لمصدر، أو حالٌ منه على ما عرف، وذلك إشارة إلى ما تقدم من الإضلال والهدى أي: مثل ذلك الإضلال والهدى ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ كإضلال الله أبا جهل وأصحابه المنكرين لخزنة جهنم «يُضِلُّ» أي: يُعمي ويُخزي من يشاء، ويهدي من يشاء أي ويرشد من يشاء كإرشاد أصحاب رسول الله ﷺ، وهذه الآية تدل على مذهب أهل السنة؛ لأنه ـ تعالى ـ قال في أول هذه الآية: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وقال ـ جل ذكره ـ في آخر الآية: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾، ثم قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾.

وأما المعتزلة فذكروا تأويلاتهم المشهورة، وتقدم أجوبتها.

قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، «جُنُود ربِّك»: مفعولٌ واجبُ التقديم لحصر فاعله ولعود الضمير على ما اتصل بالمفعول.

فصل في تفسير الآية

أي: وما يدري عدد ملائكة ربك الذين خلقهم لتعذيب أهل النار «إلاَّ هُوَ» أي: الله عز وجل، وهذا جواب لأبي جهل حين قال: ما لإله محمد ﷺ من الجنود إلاَّ تسْعةَ عشرَ إلاَّ أنَّ لكلِّ واحد منهم من الأعوان والجنود ما لا يعلم عددهم إلا هو، ويحتمل أن يكون المعنى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ لفرط كثرتها ﴿إِلَّا هُوَ﴾ فلا يعز عليه تتميم الخزنة عشرين، ولكن له في هذا العدد حكمة لا يعلمها الخلق، وهو جل جلاله يعلمها.

ويكون المعنى: أنه لا حاجة بالله ـ سبحانه ـ في تعذيب الكفار والفساق إلى هؤلاء الخزنة، بل هو الذي يُعذِّبهم في الحقيقة، وهو الذي يخلق الألم فيهم، ولو أنه ـ تعالى ـ قلب شعرة في عين ابن آدم أو سلط الألم على عرق واحد من عروق بدنه لكفاه ذلك بلاء ومحنة، فلا يلزم من تقليل عدد الخزنة قلَّةُ العذاب فجنود الله تعالى غير متناهية لأن مقدوراته غير متناهية.

قال ﷺ: «أطَّتِ السَّماءُ وحَقَّ لَهَا أن تَئِطَّ، مَا فيهَا مَوضع أرْبَعِ أصَابعَ إلاَّ وفِيهَا مَلَكٌ سَاجِدٌ»[١].

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا هِىَ﴾، يجوز أن يعود الضمير على «سَقَر» أي: وما سقر إلاَّ تذكرةٌ أي عظةٌ للبشر، وأن يعود على الآيات المذكورة فيها، أو النار لتقدمها، أو الجنود لأنه أقربُ مذكور، أو نار الدنيا، وإن لم يجرِ لها ذكر تذكرة لنا بالآخرة. قاله الزجاج أو ما هذه العدة ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي ليتذكروا ويعلموا كمال قدرة الله تعالى، وأنه سبحانه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار.

---

(١) حديث الأطيط تقدم تخريجه.

والبشر: مفعول بـ «ذكرى» و «اللام» فيه مزيدة.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧)﴾

قوله: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾.

قال الفراء: «كَلاًّ» أصله للقسم، التقدير: أي: والقمر.

وقيل: المعنى حقًّا والقمر، فلا يوقف على هذين التقديرين على «كلا».

وأجاز الطبري الوقف عليها، وجعلها ردًّا على الذين زعموا أنهم يقاومون خزنة جهنم أي: ليس الأمر كما يقول من زعم أنه يقاوم خزنة النار، ثم أقسم على ذلك بالقمر، وبما بعده.

وقيل: هذا إنكار بعد أن جعلها ذكرى أن يكون لهم ذكرى؛ لأنهم لا يتذكرون.

وقيل: هو ردعٌ لمن ينكر أن يكون الكبر نذيراً.

وقيل: ردع عن الاستهزاء بالعدة المخصوصة.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾.

قرأ نافع[١] **وحمزة وحفص**: «إذ» ظرفاً لما مضى من الزمان «أدبر» بزنة «أَكْرَمَ».

والباقون: «إذا» ظرفاً لما يستقبل «دَبَرَ» بزنة «ضَرَبَ».

والرَّسْمُ محتمل لكلتيهما، فالصورة الخطية لا تختلف.

واختار أبو عبيد قراءة «إذا»، قال: لأن بعده «إذَا أسْفرَ»، قال: «وكذلك هي في حرف عبد الله»، يعني: أنه مكتوب بألفين بعد الذال؛ أحدهما: ألف «إذا» والأخرى همزة «أدبر».

قال: وليس في القرآن قسم يعقبه «إذ»، وإنما يعقبه «إذا».

واختار ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: «إذا».

ويحكى عنه: أنه لما سمع «دَبَرَ» قال: «إنَّما يدبُر ظهر البعير».

واختلفوا: هل «دبر، وأدبر» بمعنى أم لا؟.

فقيل: هما بمعنى واحد، يقال: دبر الليل والنهار وأدبر، وقبل وأقبل؛ ومنه قولهم: «أمس الدابر» فهذا من «دَبَرَ» و «أمس المُدبِر»؛ قال صَخرُ بن عمرو بن الشَّريدِ السُّلمِيُّ: [الكامل]

٤٩٧٠ ـ ولَقَدْ قَتلْتُكمُ ثُنَاءَ ومَوْحَداً وتَركْتُ مُرَّةَ مِثْلَ أمْسِ الدَّابِرِ[٢]

---

(١) ينظر: السبعة ٢٥٩، والحجة ٦/٣٣٨، وإعراب القراءات ٢/ ٤١٠، وحجة القراءات ٧٣٣.

(٢) قال البطليوسي في كتابه الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ص ٢٧٠ كذا وقع في النسخ أي مثل أمس الدابر والصواب المدبر، لأن بعده:

=

ويروى: «المُدْبِر». وهذا قول الفرَّاء والأخفش والزجاج.
وأما: «أدبر الراكب» وأقبل فرباعي لا غير.
وقال يونس: «دبر» انقضى، و «أدبر» تولى، ففرق بينهما.
وقال الزمخشري: «ودبر: بمعنى أدبر» كـ «قبل بمعنى أقبل».
وقيل منه: صاروا كأمسِ الدابر.
وقيل: هو من دبر الليل بالنهار، إذا خلفه.
وذكر القرطبي[١] عن بعض أهل اللغة: «دبر الليل: إذا مضى، وأدبر: أخذ في الإدبار».

وقرأ محمد[٢] **بن السميفع**: «والليل إذا أدبر» بألفين، وكذلك هي في مصحف عبد الله وأبيّ.

وقال قطرب: من قرأ «دبر» فيعني أقبل، من قول العرب: دبر فلان، إذا جاء من خلفي.
قال أبو عمرو: وهي لغة قريش.
قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾. أي أضاء، وفي الحديث: «أسِفرُوا بالفَجْرِ».
ومنه قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨].
وقرأ العامة: «أسْفَرَ» بالألف، **وعيسى بن الفضل وابن**[٣] **السميفع**: «سَفَر» ثلاثياً.
والمعنى: طرح الظُّلمة عن وجهه على وجه الاستعارة، وهما لغتان.
ويقال: سَفَرَ وجه فلان إذا أضاء، وأسفر وجهه حسناً: أي أشرق، وسفرت المرأة، أي كشفت عن وجهها، فهي سافرة.
قال القرطبي[٤]: ويجوز أن يكون سَفَرَ الظلام، أي كنسه، كما يسفر البيت أي: يُكنس، ومنه السفير: لما يسقط من ورق الشجر ويتحاتّ، يقال: إنما سمي سفيراً لأن الريح تُسْفره، أي: تكنسه، والمُسْفرة: المكنسة».
قوله: ﴿إِنَّهَا﴾. أي: إن النار.

وقيل: إن قيام الساعة كذا حكاه أبو حيان[٥]. وفيه شيئان: عوده على غير مذكور، وكونُ المضاف اكتسب تأنيثاً.

= وَلَقَدْ دَمَغْتُ إِلَى دُرَيْدٍ طَعْنَةً نَجْلاءَ تُزغِلُ مثل عطِّ المَنْجِرِ

ينظر العقد الفريد لابن عبد ربه ٥/١٦٦، والاقتضاب ص ٢٧٠، ٤٦٦، ومجاز القرآن ١/١١٥، ٢/١٥٢، واللسان (دبر).

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٥٥.
(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٦٩، والدر المصون ٦/ ٤١٩.
(٣) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٩٧، والبحر الميحط ٨/ ٣٧٠، والدر المصون ٦/ ٤١٩.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٥٥.
(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٧٨.

وقيل: إنه النذارة، وقيل: هي ضمير القصّة، وهذا جواب القسم وتعليل لـ «كَلاًّ»، والقسم معترض للتوكيد. قاله الزمخشري.

قال شهاب الدين[1]: «وحينئذ يحتاج إلى تقدير جوازه، وفيه تكلف وخروج عن الظاهر».

قوله: ﴿لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾. قرأ العامَّةُ: «لإحْدَى الكُبَر» بهمزة، وأصلها واو من الوحدة.

وقرأ نصر[2] **بن عاصم، وابن محيصن**، ويروى عن ابن كثير: «لَحدى» بحذف الهمزة.

وهذا من الشُّذوذ بحيث لا يقاس عليه.

وتوجيهه: أن يكون أبدلها ألفاً ثُمَّ حذف الألف لالتقاء الساكنين، وقياس تخفيف مثل هذه الهمزة أن تجعل بَيْنَ بَيْنَ.

قال الواحدي: ألف إحدى مقطوع لا تذهب في الوصل و «الكُبَر»: جمع «كُبْرَى» كـ «الفُضَل» جمع «فُضْلَى».

قال الزمخشري: «الكُبَر: جمع الكُبْرى». جعلت ألف التأنيث كتاء التأنيث، فكما جمعت «فُعْلة» على «فُعَل» جمعت «فُعْلى» عليها، ونظير ذلك: «السَّوافِي» في جمع «السَّافِيَاء» وهو التراب التي تسفّه الريح، و «القَواصع» في جمع «القَاصِعَاء» كأنها جمع «فاعلة» قاله ابن الخطيب[3].

فصل في معنى الآية

معنى «إحْدَى الكُبَرِ» أي إحدى الدواهي؛ قال: [الرجز]

٤٩٧١ ـ يَا ابْنَ المُعلَّى نزَلتْ إحْدَى الكُبَرْ دَاهِيَةُ الدَّهْرِ وصَمَّاءُ الغِيَرْ[4]

ومثله: هو أحد الرجال، وهي إحدى النساء، لمن يستعظمونه. والمراد من «الكبر» دركات جهنم، وهي سبعة: جَهَنَّم، ولَظَى، والحطمة، والسَّعير، والجَحِيم، والهَاوية، وسَقَر. أعاذنا الله منها.

وفي تفسير مقاتل: «الكُبَر» اسم من أسماء النار.

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/ ٤١٩.

(٢) ينظر: السبعة ٦٥٩، ٦٦٠، والحجة ٦/ ٣٣٩، وإعراب القراءات ٢/ ٤١١.

(٣) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١٨٤.

(٤) الرجز للعجاج، ينظر ديوانه (١٦)، والقرطبي ١٩/ ٥٥، والبحر ٨/ ٣٧٠، والدر المصون ٦/ ٤١٩.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما «إنها» أي إن تكذيبهم بمحمد ﷺ «لإحْدَى الكُبَر» أي: الكبيرة من الكبائر[1].

قوله: ﴿نَذِيرًا﴾. فيه أوجه:

أحدها: أنه تمييز من «إحدى» لما ضمنت معنى التعظيم، كأنه قيل: أعظم الكبر إنذاراً، فـ «نذير» بمعنى «الإنذار» كالنكير بمعنى الإنكار، كأنه قيل: إنها لإحدى الدواهي إنذاراً، ومثله: هي إحدى النساء عفافاً.

الثاني: أنه مصدر بمعنى الإنذار أيضاً ولكنه نصب بفعل مقدَّر، قاله الفراء.

الثالث: أنه «فعيل» بمعنى «مُفْعِل» وهو حال من الضمير في «إنها». قاله الزجاج، وذُكّرَ لأن معناه معنى العذاب أو أراد أنَّها «ذات إنذارٍ» على معنى النسب، كقولهم: امرأة طالق وطاهر.

قال الحسن رضي الله عنه: والله ما أنذرَ الخلائق بشيءٍ أدهى منها.

الرابع: أنه حال من الضمير في «إحدى» لتأويلها بمعنى العظم.

الخامس: أنه حال من فاعل «قُمْ» أول السورة، والمراد بالنذير: محمدٌ ﷺ أي: قُمْ نذيراً للبشر، أي: مخوفاً لهم. قاله أبو علي الفارسي.

وروي عن ابن عباس، وأنكره الفراء.

قال ابن الأنباري: قال بعض المفسرين: معناه يا أيُّها المدثِّر، قُم نذيراً للبشر، وهذا قبيح لطول ما بينهما.

السادس: أنه مصدر منصوب بـ «أنذِر» أول السورة، كأنه قال: إنذاراً للبشر.

قال الفراء: يجوز أن يكون النذير بمعنى الإنذار، أي: أنذر إنذاراً، فهو كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٧]. أي: إنذاري، فعلى هذا يكون راجعاً إلى أول السورة.

السابع: هو حالٌ من «الكُبَر».

الثامن: حالٌ من ضمير «الكُبَرِ».

التاسع: أنه منصوب بإضمار «أعني».

العاشر: أنه حال من «لإحدى». قاله ابن عطية.

الحادي عشر: أنَّه منصوب بـ «ادع» مقدَّراً، إذ المراد به الله تبارك وتعالى.

روى أبو معاوية الضرير: حدثنا إسماعيل بن سميع عن أبي رزين: «نذيراً للبشر»، قال: يقول الله عز وجل: أنا لكم منها نذير فاتقوها.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٥٥).

و «نذيراً» على هذا نصب على الحال، أي بـ ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ منذراً بذلك البشر.

الثاني عشر: أنَّه منصوب بـ «نادى، أو ببلِّغ» إذ المراد به الرسول ﷺ.

الثالث عشر: أنَّه منصوب بما دلَّت عليه الجملة، تقديره: عظُمتْ نذيراً.

الرابع عشر: هو حال من الضمير في «الكُبَرِ».

الخامس عشر: أنَّها حال من «هو» في قوله ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

السادس عشر: أنَّها مفعول من أجله، النَّاصب لها ما في «الكُبَرِ» من معنى الفعل.

قال أبو البقاء: «إنَّها لإحدى الكبر لإنذار البشر». فظاهرُ هذا أنه مفعول من أجله.

واعلم أنَّ النصب: قراءةُ العامَّة.

وقرأ أبي بن كعب(١)، وابن أبي عبلة: بالرفع.

فإن كان المراد النار جاز فيه وجهان:

أن يكون خبراً بعد خبرٍ، وأن يكون خبر مبتدإ مضمرٍ، أي: هي نذير، والتذكِر ـ لما تقدم ـ من معنى النَّسبِ. وإن كان الباري تعالى أو رسوله ﷺ كان على خبر مبتدإ مضمر، أي: هو نذير.

و «للبشر»: إما صفة، وإما مفعول لـ «نذير» واللام مزيدة لتقوية العامل.

قوله: ﴿لِمَن شَآءَ﴾، فيه وجهان:

أحدهما: أنه بدل من البشر بإعادة العامل كقوله: ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ﴾ [الزخرف: ٣٣]، و ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ﴾ [الأعراف: ٧٥]، وأن يتقدم مفعول «شاء» أي: نذيراً لمن شاء التقدم أو التأخر، وفيه ذكر مفعول «شاء» وقد تقدم أنه لا يذكر إلا إذا كان فيه غرابة.

الثاني: وبه بدأ الزمخشري: أن يكون «لمن شاء» خبراً مقدماً، و «أن يتقدم» مبتدأ مؤخر.

قال: كقولك: لمن توضأ أن يصلي، ومعناه: مطلق لمن شاء التقدم أو التأخر أن يتقدم، أو يتأخر انتهى.

فقوله: «التقدم أو التأخر» وهو مفعول «شاء» المقدر.

قال أبو حيَّان رحمه الله: قوله: «أن يتقدم» هو المبتدأ معنى لا يتبادر إلى الذهن، وفيه حذف.

قال القرطبي(٢): اللام في «لمن شاء» متعلقة بـ «النذير»، أي: نذيراً لمن شاء منكم

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/٣٩٨، والبحر المحيط ٨/ ٣٧٠، والدر المصون ٦/ ٤٢٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٥٦.

أن يتقدم إلى الخير والطاعة أو يتأخر إلى الشر والمعصية، نظيره: «ولقد علمنا المستقدمين منكم»، أي: في الخير ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ [الحجر: ٢٤] عنه، قال الحسن: هذا وعيد وتهديد وإن خرج مخرج الخبر، كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[١] [الكهف: ٢٧].

وقيل: المعنى لمن شاء الله أن يتقدم أو يتأخر، فالمشيئة متصلة بالله ـ عز وجل ـ والتقديم بالإيمان والتأخير بالكفر.

وكان ابن عباس يقول: هذا تهديد وإعلام أنَّ من تقدم إلى الطاعة والإيمان بمحمد ﷺ تسليماً كثيراً جوزي بثوابٍ لا ينقطع، ومن تأخر عن الطاعة، وكذب محمداً ﷺ عوقب عقاباً لا ينقطع[٢].

وقال السديُّ: «لمن شاء منكم أن يتقدم إلى النار المتقدم ذكرها، أو يتأخر عنها إلى الجنة»[٣].

فصل فيمن استدل بالآية على كون العبد متمكناً من الفعل

احتج المعتزلة بهذه الآية على كون العبد متمكناً من الفعل غير مجبور عليه.

وجوابه: أنَّ هذه الآية دلَّت على أن فعل العبد معلق على مشيئته، لكن مشيئة العبد معلقة على مشيئة الله ـ تعالى جل ذكره ـ كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

وحينئذ تصير الآية حجة عليهم.

قال ابن الخطيب[٤]: وذكر الأصحاب جوابين آخرين:

الأول: معنى إضافة المشيئة إلى المخاطبين، التهديد، كقوله عز وجل: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

الثاني: أنَّ هذه المشيئة لله ـ تبارك وتعالى ـ على معنى: لمن شاء الله منكم أن يتقدم، أو يتأخر.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾

قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾. فيه أوجه:

---

(١) ينظر المصدر السابق ١٩/٥٥.
(٢) ينظر المصدر السابق.
(٣) ينظر المصدر السابق.
(٤) ينظر الفخر الرازي ٣٠/١٨٥.

أحدها: أنَّ «رَهِينَةٌ» بمعنى «رَهْنٍ» كـ «الشَّتِيمة» بمعنى «الشَّتْم».

قال الزمخشري: ليست كتأنيث «رهين» في قوله: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] لتأنيث النفس، لأنه لو قصدت الصفة لقيل: رهين؛ لأن «فعيلاً» بمعنى «مفعول» يستوي فيه المذكر والمؤنث، وإنَّما هي اسم بمعنى «الرهن» كالشتيمة بمعنى «الشّتم» كأنه قيل: كل نفس بما كسبت رهن، ومنه بيت الحماسة: [الطويل]

٤٩٧٢ ـ **أَبَعْدَ الذي بالنَّعْفِ نَعْفِ كُويكِبٍ رَهِينَةِ رَمْسٍ ذي تُرابٍ وجَنْدَلِ**[١]

كأنَّه قال: «رَهْنِ رَمْسٍ».

الثاني: أن الهاء للمبالغة.

الثالث: أنَّ التأنيث لأجل اللفظ.

واختار أبو حيان[٢]: أنها بمعنى «مفعول» وأنها كالنَّطيحة، وقال: ويدل على ذلك أنَّه لما كان خبراً عن المذكر كان بغير هاء، وقال تعالى: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[٣] فأنَّثَ حيث كان خبراً عن المذكر أتى بغير تاء، وحيث كان خبراً عن مؤنث أتى بالتاء كما في هذه الآية فأمّا التي في البيت فأنَّثَ على معنى النَّفْسِ.

فصل في معنى رهينة

ومعنى «رهينة» أي: مُرتهَنَة بكسبها، مأخوذة بعملها، إمَّا خلَّصهَا وإمَّا أوبقها.

قوله: ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾. فيه وجهان:

أحدهما: أنَّه استثناء متصل إذ المراد بهم المسلمون الخالصون الصالحون، فإنَّهم فكُّوا رقاب أنفسهم بأعمالهم الحسنة كما يخلِّص الراهن رهنه بإيفاءِ الحق.

والثاني: أنَّه منقطع، إذا المراد بهم الأطفال والملائكة.

قال ابن عباس: المراد بهم الملائكة[٤].

وقال عليٌّ بن أبي طالب وابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ هم أولاد المسلمين لم يكتسبوا فيُرْتهَنُوا[٥].

---

(١) البيت لمسور بن زيادة الحارثي وقيل لعبد الرحمن بن زيد.
ينظر ديوان الحماسة ١/ ٩٠، والكشاف ٤/ ٦٥٤، والقرطبي ١٩/ ٥٦، والبحر ٨/ ٣٧١، والدر المصون ٦/ ٤٢١.

(٢) ينظر البحر المحيط ٨/ ٣٧٩.

(٣) سورة الطور، آية ٢١.

(٤) ينظر القرطبي ١٩/ ٥٥.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣١٨) والحاكم (٢/ ٥٠٧) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجه ووافقه الذهبي. =

وقال الضحاك: هم الذين سبقت لهم منا الحسنى[١]، ونحوه عن ابن جريج قال: كل نفس بعملها محاسبة إلا أصحاب اليمين، وهم أهل الجنة فإنَّهم لا يحاسبون.

وكذا قال مقاتل والكلبي أيضاً: هم أصحاب الجنة الذين كانوا عن يمين آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ يوم الميثاق حين قال الله تعالى لهم: «هؤلاء في الجنة ولا أبالي».

قال الحسن وابن كيسان: هم المسلمون المخلصون ليسوا بمرتهنين، لأنهم أدَّوا ما كان عليهم[٢].

وعن أبي ظبيان عن ابن عباس قال: هم المسلمون[٣].

وقيل: إلا أصحاب الحق وأهل الإيمان.

وقيل: هم الذين يُعطون كتبهم بأيمانهم.

وقال أبو جعفر الباقرُ: نحن وشيعتنا أصحاب اليمين، وكل من أبغضنا أهل البيت فهم المرتهنون.

قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾. يجوز أن يكون خبر مبتدأ مضمرٍ، أي: هم في جنات، وأن يكون حالاً من «أصحاب اليمين»، وأن يكون حالاً من فاعل «يتساءلون». ذكرهما أبو البقاء. ويجوز أن يكون ظرفاً لـ «يتساءلون»، وهو أظهر من الحالية من فاعله.

و «يتساءلون» يجوز أن يكون على بابه، أي: يسأل بعضهم بعضاً، ويجوز أن يكون بمعنى «يسألون» أي يسألون غيرهم، نحو «دَعوْتُه وتَداعَيْتُه».

قوله: ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فيه وجهان:

الأول: أن تكون كلمة «عن» صلة زائدة، والتقدير: يتساءلون المجرمين، فيقولون لهم: «مَا سَلَكَكُمْ في سَقرَ»، فإنه يقال: سألته كذا، وسألته عن كذا.

الثاني: أن يكون المعنى: أن أصحاب اليمين يسأل بعضهم بعضاً عن أحوال المجرمين.

فإن قيل: فعلى هذا يجب أن يقولوا: «مَا سَلَكَكُمْ في سَقَرَ»؟.

فأجاب الزمخشري عنه فقال: «المرادُ من هذا أن المشركين يلقون ما جرى بينهم وبين المؤمنين، فيقولون: قلنا لهم: مَا سلَكَكُمْ في سَقَرَ».

= وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٥٩) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.
وذكره أيضاً عن ابن عمر ونسبه إلى سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر.

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٥٧).
(٢) ينظر المصدر السابق.
(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٥٩) وعزاه إلى ابن المنذر.

وفيه وجه آخر وهو: أنَّ المراد أن أصحاب اليمين كانوا يتساءلون عن المجرمين أين هم؟ فلما رأوهم، قالوا لهم: ما سلككم في سقر؟ والإضمارات كثيرة في القرآن.

قوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾: يجوز أن يكون على إضمار القول، وذلك في موضع الحال، أي: يتساءلون عنهم قائلين لهم: ما سلككم؟ قال الزمخشري: فإن قلت: كيف طابق بعد قوله: «ما سلككم» وهو سؤال المجرمين، قوله: ﴿يَتَسَآءَلُونَ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، وهو سؤال عنهم، وإنما كان يتطابق ذلك لو قيل: يتساءلون المجرمين: ما سلككم؟.

قلت: قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ ليس ببيانٍ للتساؤل عنهم وإنما هو حكاية قول المسئولين عنهم؛ لأن المشركين يلقون إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين، فيقولون: قلنا لهم: ما سلككم في سقر؟ أي: أدخلكم في سقر، كما تقول: سَلَكْتُ الخَيْط في كذا إذا أدخلته فيه، والمقصود من هذا: زيادة التوبيخ والتخجيل، والمعنى: ما أدخلكم في هذه الدركةِ من النار؟ فأجابوا: أن العذاب لأمور أربعة، ثم ذكروها وهي قولهم: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾.

قال الكلبيُّ رحمه الله: يسألُ الرجلُ من أهل الجنة الرجلَ من أهل النار باسمه فيقول له: يا فلانُ.

وفي قراءة عبد الله بن الزبير: يا فلان، ما سلككم في سقر؟ وهي قراءة على التفسير؛ لا أنها قرآن كما زعم من طعن في القرآن. قاله ابن الأنباري.

وقيل: إن المؤمنين يسألون الملائكة عن أقربائهم، فتسأل الملائكة المشركين، فيقولون لهم: ما سلككم في سقر؟.

قال الفراء: في هذا ما يقوي أن أصحاب اليمين هم الولدان؛ لأنهم لا يعرفون الذنوب.

قوله: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾، هذا هو الدالُّ على فاعل «سلكنا كذا» الواقع جواباً لقول المؤمنين لهم: «ما سلككم» [والتقدير[1]: سلكنا عَدمُ صلاتنا كذا وكذا.

قال أبو البقاء: هذه الجملة سدّت مسدّ الفاعل، وهو جواب: ما سلككم، وهو نظير «مناسككم»، وقد تقدم في «البقرة»].

فصل في تفسير الآية

قال القرطبي[2]: معنى قولهم: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ أي: المؤمنين الذين يصلون ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ أي: لم نكن نتصدق.

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٥٧). (٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٥٧.

قال ابن الخطيب[1]: «وهذان يجب أن يكونا محمولين على الصلاة الواجبة، والزكاة؛ لأن ما ليس بواجب لا يجوز أن يعذَّبوا على تركه».

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾، أي: في الأباطيل.

وقال ابن زيد: «نَخوضُ مَعَ الخَائِضينَ» في أمر محمد ﷺ وهو قولهم ـ لعنهم الله ـ: إنه ساحر، كاهن، مجنون، شاعر كذبوا ـ والله ـ لم يكن فيه شيءٌ من ذلك ﷺ[2].

وقال قتادة: كلما غوى غاوٍ غوينا معه[3].

وقيل: معناه: وكنا أتباعاً ولم نكن متبوعين، وقولهم: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: نكذّب بيوم القيامة، يوم الجزاء والحكم.

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ أي: جائنا الموت، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

وهذه الآية تدل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة.

فإن قيل: لم أخر التكذيب وهو أفحش تلك الخصال الأربع؟.

فالجواب: أريد أنهم بعد اتصافهم بتلك الأمور الثلاثة كانوا مكذِّبين بيوم الدين، والغرض تعظيم هذا الذنب كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البلد: ١٧].

قوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾؛ كقوله: [الطويل]

٤٩٧٣ ـ عَلَى لاَحِبٍ لا يُهتَدَى بِمنَارِهِ ....[4]

في أحد وجهيه، أي: لا شفاعة لهم فلا انتفاع بها، وليس المراد أن ثَمَّ شفاعةً غير نافعة كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] الآية.

وهذه الآية تدلُّ على صحة الشفاعة للمذنبين من هذه الأمة بمفهومها؛ لأن تخصيص هؤلاء بأنهم لا تنفعهم شفاعة الشافعين يدلُّ على أن غيرهم تنفعهم شفاعة الشافعين.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: يشفع نبيكم ﷺ رابع أربعة: جبريل، ثم إبراهيم، ثم موسى، أو عيسى، ثم نبيكم ﷺ ثم الملائكة، ثم النبيون، ثم الصديقون، ثم الشهداء، ويبقى قوم في جهنم، فيقال لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾؟ قالوا: لم نك من المصلين، إلى قوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾.

قال عبد الله بن مسعود: فهؤلاء الذين في جهنم[5].

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/١٨٦.
(٢) ينظر تفسير القرطبي ١٩/٥٧.
(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣١٩).
(٤) تقدم.
(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣١٩) عن ابن مسعود.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (٥٢) كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ (٥٣) كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ (٥٦)﴾

قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ عن القرآن، أي: فما لأهل «مكة» قد أعرضوا وولَّوا.

قال مقاتل: معرضين عن القرآن من وجهين:

أحدهما: الجحود والإنكار.

والثاني: ترك العمل بما فيه(١).

وقيل: المراد بالتذكرة: العظة بالقرآن، وغيره من المواعظ.

و «مُعرِضيْنَ» حال من الضمير في الجار الواقع خبراً عن «ما» الاستفهامية، وقد تقدم أن مثل هذه الحال تسمى حالاً لازمة وقد تقدم بحث حسن.

و «عن التذكرة» متعلق به.

قال القرطبي(٢): «وفي «اللام» معنى الفعل، فانتصاب الحال على معنى الفعل».

قال ابن الخطيب(٣): «هو كقولك: ما لك قائماً».

قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ﴾، هذه الجملة يجوز أن تكون حالاً من الضمير في الجار، وتكون بدلاً من «معرضين». قاله أبو البقاء. يعني: أنها كالمشتملة عليها، وأن تكون حالاً من الضمير في «معرضين» فيكون حالاً متداخلة.

وقرأ العامة: حُمُر ـ بضم الميم ـ، والأعمش(٤): بإسكانها.

وقرأ نافع وابن عامر(٥): «مُسْتَنْفَرَةٌ» ـ بفتح الفاء ـ على أنه اسم مفعول، أي: نفَّرها القنَّاص.

والباقون: بالكسر، بمعنى نافرة.

يقال: استنفر ونفر بمعنى نحو عجب واستعجب، وسخر واستسخر؛ قال الشاعر: [الكامل]

٤٩٧٤ ـ إمْسِكْ حِمارَكَ إنَّهُ مُسْتَنفِرٌ فِي إثْرِ أحْمِرةٍ عَمدْنَ لِغُرَّبِ(٦)

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (١٩/ ٥٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٥٨. (٣) الفخر الرازي ٣٠/ ١٨٦.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٩٩، والبحر المحيط ٨/ ٣٧٢، والدر المصون ٦/ ٤٢٢.

(٥) ينظر: السبعة ٦٦٠، والحجة ٦/ ٣٤١، وإعراب القراءات ٢/ ٤١١، وحجة القراءات ٧٣٤.

(٦) ينظر الطبري ١٩/ ١٠٦، ومجمع البيان ١/ ٥٨٩، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٣٠٦ واللسان (لغز)، والقرطبي ١٩/ ٥٨، والبحر ٨/ ٣٧٢ والدر المصون ٦/ ٤٢٢.

وقال الزمخشري: «وكأنها تطلب النِّفار في نفوسها، في جمعها له وحملها عليه».

فأبقى السِّين على بابها من الطلب، وهو معنى حسنٌ.

قال أبو علي الفارسي: «الكسر في «مستنفرة» أولى لقوله: «فرَّت» للتناسب، لأنه يدل على أنها استنفرت، ويدل على صحة ذلك ما روى محمد بن سلام قال: سألت أبا سوار الغنوي ـ وكان عربياً فصيحاً ـ فقلت: كأنهم حمرٌ ماذا؟ فقال: مستنفرة طردها قسورة، فقلت: إنما هي فرَّت من قسورة، فقال: أفرت؟ قلت: نعم، قال: فمستنفِرة إذاً» انتهى.

يعني: أنها مع قوله طرد، تناسب الفتح، لأنها اسم مفعول، فلما أخبر بأن التلاوة «فرّت من قسورة» رجع إلى الكسر للتناسب إلا أنَّ بمثلِ هذه الحكاية لا تردُّ القراءة المتواترة.

والقَسْورة: قيل: الصَّائد، أي: نفرت وهربت من قسورة، أي: من الصائد.

وقيل: الرُّماة يرمُونها.

وقيل: هو اسم جمع لا واحد له.

وقال بعض أهل اللغة: إن «القَسْوَرة»: الرامي، وجمعه: القساورة.

ولذا قال سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك وابن كيسان: «القسورة» وهم الرماة والصيَّادون[1]، ورواه عطاء عن ابن عباس وأبو ظبيان عن أبي موسى الأشعري، وأنشدوا للبيد بن ربيعة: [الطويل]

٤٩٧٥ ـ إِذَا مَا هَتفْنَا هَتْفَةً في نَدِيِّنَا أَتَانَا الرِّجَالُ العَائِدُون القَساوِرُ[2]

وقيل: «القسورة»: الأسد. قاله أبو هريرة، وابن عباس أيضاً رضي الله عنه.

قال ابن عرفة: من القسْرِ بمعنى القهْرِ، أي: أنه يقهرُ السِّباع والحمر الوحشيَّة تهرب من السباع؛ ومنه قول الشاعر: [الرجز]

٤٩٧٦ ـ مُضمرٌ يَحْذَرُهُ الأبطَالُ كَأنَّهُ القَسْوَرَةُ الرِّئْبَالُ[3]

أي: الأسد، إلا أن ابن عباس أنكره، وقال لا أعرف القسورة أسد في لغة أحد من العرب، وإنما القسورة: عصبُ الرجال؛ وأنشد: [الرجز]

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٢٠ ـ ٣٢١) عن ابن عباس وأبي موسى وعكرمة وقتادة.
وأخرجه الحاكم (٢/ ٥٠٨) عن أبي موسى. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٦٠) وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم. وذكره عن ابن عباس وعزاه إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٢) ينظر ذيل ديوان لبيد بن ربيعة ص ٢٢٦، والقرطبي ١٩/ ٥٨، والبحر ٨/ ٣٦٢، والدر المصون ٦/ ٤٢٣.

(٣) ينظر البحر ٨/ ٣٦٢، والدر المصون ٦/ ٤٢٣.

٤٩٧٧ ـ يَا بِنْتُ كُونِي خَيرةً لِخَيِّرهْ أَخْوالُهَا الجِنُّ وأهلُ القَسْوره[١]

وقيل: القَسْورةُ: ظُلمَة الليل، قال ابن الأعرابي: وهو قول عكرمة.

وعن ابن عباس: ركز الناس؛ أي حسُّهم وأصواتهم[٢].

وعنه أيضاً: «فَرَّتْ من قَسْورةٍ» أي: من حبال الصيادين[٣]، وعنه أيضاً: القسورة بلسان «الحَبَشَة» الأسد[٤]، وخالفه عكرمة فقال: الأسد بلسان «الحبشة»: عَنْبَسة، وبلسان «الحبشة»: الرُّماة، وبلسان «فارس»: شير، وبلسان «النَّبط»: أريا[٥].

وقيل: هو أوَّل سواد الليل، ولا يقال لآخر سواد الليل: قسورة.

فصل في المراد بالحمر المستنفرة

قال ابن عباس: كأن هؤلاء الكفار في فرارهم من محمد ﷺ حمر مستنفرة، قال ابن عباس: أراد الحمر الوحشية[٦].

قال الزمخشري: وفي تشبيههم بالحمر شهادة عليهم بالبله، ولا يرى مثلُ نفار حمر الوحش، واطرادها في العدوِ إذا خافت من شيء.

قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾، أي: يُعطى كُتُباً مفتوحةً، وذلك أن أبا جهل وجماعةً من قريش قالوا: يا محمد، لا نُؤمِنُ بك حتى تأتي كل واحد منا بكتاب من السماء عنوانه: «من رب العالمين»، إلى فلان ابن فلان، ونُؤمر فيه باتباعك، ونظيره: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٣].

وقال ابن عباس: كانوا يقولون: إن كان محمد صادقاً فليصبح عند رأس كل واحدٍ منا صحيفةٌ فيها براءةٌ من النار[٧].

وقال مطرٌ الوراق: أرادوا أن يعطوا بغير عمل[٨].

---

(١) يروي الشطر الثاني كما في الطبري:

أَحْوالُهَا فِي الحيِّ مِثْلُ القَسْوره

ينظر الطبري ١٩/١٠٧، والقرطبي ١٩/٥٨، والدر المصون ٦/٤٢٣، وفتح القدير ٥/٣٣٣.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٣٣٢) عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤٦١) وعزاه إلى سفيان بن عيينة في «تفسيره» وعبد الرزاق وابن المنذر.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤٦١) وعزاه إلى ابن المنذر.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤٦١) وعزاه إلى ابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٣٢١) عن عكرمة.

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/٥٨) عن ابن عباس.

(٧) ينظر المصدر السابق. (٨) ينظر المصدر السابق.

وقال الكلبي: قال المشركون: بلغنا أن الرجل من بني إسرائيل كان يصبح عند رأسه مكتوباً ذنبه وكفارته فأتنا بمثل ذلك[١].

قال ابن الخطيب[٢]: وهذا من الصُّحف المنشَّرة بمعزل.

وقيل المعنى: أن يذكر بذكرٍ جميلٍ، فجعلت الصُّحفُ موضعَ الذِّكر مجازاً، فقالوا: إذا كانت ذنوب الإنسان تُكتَب عليه فما بالنا لا نرى ذلك؟!.

قوله: «مُنشَّرة».

العامة: على التشديد، من «نشَّرهُ» بالتضعيف.

وابن جبير[٣]: «**مُنْشرَةً» بالتخفيف**، و «نشَّر، وأنشر» بمنزلة «نزّل وأنزَل»: والعامة أيضاً على ضمِّ الحاء من «صحُف».

وابن جبير[٤]: على تسكينها.

قال أبو حيان[٥]: «والمحفوظ في الصحيفة والثوب: «نشَر» مخففاً ثلاثياً، وهذا مردود بالقرآن المتواتر».

وقال أبو البقاء في قراءة ابن جبير: «من أنشرت، إما بمعنى أمر بنشرها مثل ألحمت عرض فلان، أو بمعنى منشورة، مثل: أحمدت الرجل، أو بمعنى: أنشر الله الميِّت أي: أحياه، فكأنه أحياها فيها بذكره».

قوله: ﴿كَلَّآ﴾، أي: ليس يكون ذلك.

وقيل: حقًّا، والأول أجود، لأنه ردٌّ لقولهم. ثم قال: ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ أي: لا أعطيهم ما يتمنَّون لأنهم لا يخافون الآخرة فلذلك أعرضوا عن التأمُّل اغتراراً بالدنيا؛ فإنه لمَّا حصلت المعجزات الكثيرة في الدلالة على صحَّة النبوةِ فطلبُ الزيادة يكون عبثاً.

قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾. أي: حقًّا أنَّ القرآن عظة.

وقيل: هذا ردع لهم عن إعراضهم عن التذكرة ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ بليغة «فمن شاء ذكره» أي: اتعظ به، وجعله نصب عينه.

والضمير في «إنه، وذكره» للتذكرة في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ وإنما ذُكِّرا؛ لأنهما في معنى الذِّكر والقرآن.

---

(١) ينظر المصدر السابق. (٢) ينظر الرازي ٣٠/ ١٨٧.
(٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٦٥٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٠٠، والبحر المحيط ٨/ ٣٧٢.
(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٠، والدر المصون ٦/ ٤٢٣.
(٥) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٨١.

وقيل: الضمير في «إنه» للقرآن أو الوعيد.

قوله: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾.

قرأ نافع[١]: بالخطاب، وهو التفات من الغيبة إلى الخطاب والباقون: بالغيبة حملاً على ما تقدم من قوله: «كُل امرىءٍ» ولم يُؤثِرُوا الالتفات.

وقراءة الخطاب، وهي اختيار أبي حاتم لأنه أعم.

وأما قراءة الغيبة فهي اختيار أبي عبيد لقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ﴾ واتفقوا على تخفيفها.

قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، بمعنى إلاَّ وقت مشيئته، لا أن ينوب عن الزمان، بل على حذف مضاف.

قالت المعتزلة: بل معناه: إلا أن يقدرهم الله ـ تعالى ـ على الذِّكر ويُهمِّهم إليه.

وأجيبوا: بأنه تعالى أبقى الذكر مطلقاً، واستثنى منه حال المشيئة المطلقة، فيلزم أنه متى حصلت المشيئةُ أن يحصلَ الذِّكرُ مطلقاً، فحيث لم يحصل الذكر علمنا أنه لم تحصُلِ المشيئة وتخصيص المشيئة بالمشيئة القهريَّة ترك للظاهر.

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾، أي: حقيقٌ بأن يتَّقيه عبادُه ويخَافُوا عِقابه فيُؤمِنوا ويُطِيعُوا، وحقيقٌ بأن يغفر لهم ما سلف من كفرهم إذا آمنوا وأطاعوا.

روى الترمذي وابن ماجة عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال في قوله تعالى: «هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وأَهْلُ المَغْفِرَة» قال: قال الله تعالى: «أنَّا أَهْلُ أنْ أُتَقَى فَمَن اتَّقَى فَلَمْ يَجْعَلْ مَعِي إلٰهاً فَأنَا أهْل أنْ أغْفِرَ لَهُ»[٢].

وقال بعض المفسرين: أهل المغفرة لمن تاب إليه من الذنوب الكبائر، وأهل المغفرة أيضاً للذنوب الصغائر.

روى الثعلبي عن أبيٍّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ أعْطِيَ من الأجْرِ عَشْرَ حَسناتٍ بعَددِ من صَدَّقَ بمُحمَّدٍ ﷺ وكذَّبه بـ «مكة»»[٣]. والله أعلم.

---

(١) ينظر: إعراب القراءات ٢/ ٤١٣، وحجة القراءات ٧٣٥.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٤٢، ٢٤٣) وابن ماجه (٤٢٩٩) والترمذي (٣٣٢٥) والدارمي (٢/ ٣٠٢، ٣٠٣) والحاكم (٢/ ٥٠٨)، وأبو يعلى (٦/ ٦٦) رقم (٣٣١٧) من طرق عن سهيل بن أبي حزم عن ثابت عن أنس.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب وسهيل ليس بالقوي في الحديث وقد تفرد سهيل بهذا الحديث عن ثابت.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٣) تقدم تخريجه.

سورة القيامة

مكيَّة، وهي تسع وثلاثون آية، [وهي في المصحف أربعون آية] ومائة وسبع وتسعون كلمة، وستمائة واثنان وخمسون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

العامَّة: على «لاَ» نافية، واختلفوا حينئذ فيها على أوجه:

أحدها: أنَّها نافية لكلامٍ تقدم، كأنَّ الكفَّار ذكروا شيئاً، فقيل لهم: «لا» ثم ابتدأ الله قسماً.

قال القرطبي[1] رحمه الله: «إنَّ القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث والجنة والنار، فجاء الإقسام بالردِّ عليهم كقوله: «والله لا أفعل» فـ «لا» ردٌّ لكلام قد مضى، وذلك كقولك: لا والله إن القيامة. لحق، كأنك أكذبت قوماً أنكروه».

والثاني: أنها مزيدة. قال الزمخشري: قالوا: إنها مزيدة، مثلها في ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩]، وفي قوله ـ عز وجل ـ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢]؛ وقوله: [الرجز]

٤٩٧٨ ـ فِي بِئْرِ لا حُورٍ سَرَىٰ وما شَعَرْ[2]

قال ابن الخطيب[3]: وهذا القولُ عندي ضعيفٌ من وجوه:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٦٠.

(٢) الرجز للعجاج في ديوانه ١/ ٢٠، والأزهية ص ١٥٤، والأشباه والنظائر ٢/ ١٦٤ وخزانة الأدب ٤/ ٥١، ٥٢، ٥٣، وشرح المفصل ٨/ ١٣٦، ولسان العرب (حور)، وجمهرة اللغة ص ٥٢٥، والخصائص ٢/ ٤٧٧، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٧٨.

(٣) ينظر الرازي ٣٠/ ١٨٩.

أحدها: أنَّ تجويز هذا يفضي إلى الطعن في القرآن، لأن على هذا التقدير يجوز جعل النفي إثباتاً، والإثبات نفياً، وذلك ينفي الاعتماد على الكلام نفياً وإثباتاً.

وثانيها: أن الحرف إنما يزاد في وسط الكلام، فإن امرأ القيس زادها في مستهل قصيدته؛ وهي قوله: [المتقارب]

٤٩٧٩ ـ فَلاَ ـ وأبِيكِ ـ ابنَةَ العَامِرِيـ ـي لا يَـدَّعِـي الـقَـوْمُ أنِّـي أفِـرّ[1]

وأيضاً: هَبْ أنَّ هذا الحرف في أول الكلام إلا أنَّ القرآن كله كالسُّورة الواحدة لاتصال بعضه ببعض بدليل أنه قد يذكر الشيء في سورة ثم يجيء جوابه في سورة أخرى كقوله تعالى ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] ثم جاء جوابه في سورة أخرى وهو قوله ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢]، وإذا كان كذلك، كان أوّل هذه السورة جارياً مجرى وسط الكلام.

والجواب عن الأول: أنَّ قوله: لا وأبيك، قسمٌ عن النفي، وقوله: «لا أُقْسِمُ» نفي للقسم، لأنه على وزان قولنا: «لا أقبل، لا أضرب، لا أنصر» وذلك يفيد النفي، بدليل أنه لو حلف لا يقسم كان البرُّ بترك القسم، والحنث بفعل القسم، فظهر أن البيت المذكور ليس من هذا الباب.

وعن الثاني: أن القرآن الكريم كالسُّورة الواحدة في عدم التناقض، فإما أن يقرن في كل آية ما أقرن في الأخرى، فذلك غير جائز؛ لأنه يلزم جوازه أن يقرن بكل إثبات حرف النفي الوارد في سائر الآيات، وذلك يقتضي انقلاب كل إثبات نفياً وانقلاب كل نفي إثباتاً، وأنه لا يجوز.

وثالثها: أن المراد من قولنا: «لا» صلة أنَّه لغو باطل يجب طرحه وإسقاطه حتى ينتظم الكلام ووصف كلام الله[2] ـ تعالى ـ بذلك لا يجوز.

الوجه الثالث: قال الزمخشري: «إدخال لا النافية على فعل القسم مستفيض في كلامهم وأشعارهم؛ قال امرؤ القيس: [المتقارب]

٤٩٨٠ ـ فَـلاَ ـ وأبِـيـكِ ـ ابْـنَـةَ الـعَـامِـرِي[3]

البيت المتقدِّم.

وقال غويةُ بنُ سلمَى: [الوافر]

٤٩٨١ ـ ألاَ نَـادتْ أمَـامَـةُ بـاخْـتِـمَـالِ لِـتَـحْـزُنَـنِـي فَـلا بِـكِ مـا أُبَـالِـي[4]

---

(١) تقدم. (٢) في أ: الباري. (٣) تقدم.

(٤) ينظر جواهر الأدب ص ٢٥٣، والخصائص ٢/ ١٩، ورصف المباني ص ١٤٦، وسر صناعة الإعراب ١/ ١٠٤، ١٤٤، وشرح المفصل ٨/ ٣٤، ٩/ ١٠١، والصاحبي في فقه اللغة ص ١٠٧، واللسان (أهل)، واللمع ص ٥٨، ٢٥٦.

وفائدتها: توكيد القسم في الردِّ». ثمَّ قال بعد أن حكى وجه الزيادة والاعتراض والجواب كما تقدم: والوجه أن يقال: هي للنَّفي، والمعنى في ذلك: أنَّه لا يقسم بالشيء إلاَّ إعظاماً له، يدُلُّك عليه قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٧٦] فكأنه بإدخال حرف النَّفي يقول: إن إعظامي له بإقسامي به كلا إعظام، يعني أنه يستأهل فوق ذلك.

وقيل: إنَّ «لا» نفيٌ لكلام ورد قبل ذلك انتهى.

قال ابن الخطيب[١]: كأنَّهم أنكروا البعث فقيل: «لا» ليس الأمر على ما ذكرتم، ثم قيل: أقسم بيوم القيامة.

قال: وهذا فيه إشكال؛ لأن إعادة حرف النفي أحرى في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ مع أن المراد ما ذكروه يقدح في فصاحة الكلام.

قال شهاب الدين[٢] رحمه الله: «فقول الزمخشري: والوجه أن يقال إلى قوله: يعني أنه يستأهل فوق ذلك، تقرير لقوله: إدخال «لا» النافية على فعل القسم مستفيض إلى آخره وحاصل الكلام يرجع إلى أنها نافية، وأنَّ النَّفي متسلّط على فعل القسم بالمعنى الذي شرحه، وليس فيه منع لفظاً ولا معنى».

ثم قال: فإن قلت: قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [النساء: ٦٥] والأبيات التي أنشدتها المقسم عليه فيها منفي، فهلا زعمت أنَّ «لا» التي قبل القسم زيدت موطِّئة للنَّفي بعده، ومؤكدة له، وقدَّرت المقسم عليه المحذوف ـ هاهنا ـ منفياً كقولك: لا أقسم بيوم القيامة لا تتركُونَ سُدًى؟.

قلت: لو قصَرُوا الأمر على النَّفي دون الإثبات لكان لهذا القول مساغ، ولكنه لم يقصر، ألا ترى كيف نفى ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ [البلد: ١] بقوله: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ [البلد: ٤] وكذلك قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥] بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [الواقعة: ٧٧]، وهذا من محاسن كلامه تعالى.

وقرأ قنبل والبزِّي ـ بخلاف عنه[٣] ـ: «لأقسم» بلام بعدها همزة دون ألف، وفيها أوجه:

أحدها: أنها جوابٌ لقسم مقدر، تقديره: «والله لأقسم» والفعل للحالِ، فلذلك لم تأت نونُ التوكيد، وهذا مذهبُ الكوفيين.

وأمَّا البصريون: فلا يجيزون أن يقع فعل الحال جواباً للقسم فإن ورد ما ظاهره ذلك جعل الفعل خبراً لمبتدإ مضمر، فيعود الجواب جملة اسمية قدر أحد جزأيها

(١) الفخر الرازي ٣٠/ ١٩٠. (٢) الدر المصون ٦/ ٤٢٥.

(٣) ينظر: السبعة ٦٦١، والحجة ٦/ ٣٤٣، وإعراب القراءات ٢/ ٤١٤، وحجة القراءات ٤٣٥.

وهذا عند بعضهم، من ذلك التقدير: والله لأنا أقسم.

الثاني: أنه فعل مستقبل، وإنَّما لم يأتِ بنون التوكيدِ؛ لأنَّ أفعال الله ـ تعالى ـ حقٌّ وصدقٌ فهي غنيةٌ عن التأكيد بخلاف أفعال غيره، على أن سيبويه حكى حذف النون، إلا أنه قليل، والكوفيون: يجيزون ذلك من غير قلَّة، إذ من مذهبهم جواز تعاقب اللام والنون فمن حذف اللام قوله: [الكامل]

٤٩٨٢ ـ وقَتيلُ مُرَّةَ أثأرنَّ فإنَّهُ فَزغٌ وإنَّ أخاكُمُ لَمْ يَثْأرِ[1]

أي لأثأرن، ومن حذف النون وهو نظير الآية الكريمة قول الآخر: [الطويل]

٤٩٨٣ ـ لَئِن تَكُ قَدْ ضَاقَتْ عليكَم بُيوتكُمْ لَيَعلَمُ ربِّي أنَّ بَيتِيَ واسِعُ[2]

الثالث: أنَّها لامُ الابتداء، وليست بلام القسم.

قال أبو البقاء: كقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ﴾ [النحل: ١٦٤]. والمعروف أنَّ لام الابتداء لا تدخل على المضارع إلاَّ في خبر «إنَّ» نحو: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ﴾ [النحل: ١٦٤] وهذه الآية نظير الآية التي في سورة يونس: ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ [يونس: ١٦] فإنهما قرآها بغير الألف. والكلام فيها قد تقدم.

ولم يختلف في قوله: «ولاَ أقسم» أنه بالألف بعد «لا»؛ لأنه لم يرسم إلاَّ كذا بخلاف الأول، فإنه رسم بدون ألفٍ بعد «لا»، وكذلك في قوله تعالى ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد: ١] لم يختلف فيه أنه بألف بعد «لا»، وجواب القسم محذوف، تقديره: لتبعثنّ، دل عليه قوله ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [القيامة: ٣].

وقيل: الجواب: «أَيَحْسَبُ».

وقيل: هو ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ﴾ [القيامة: ٤]، ويروى عن الحسن البصري.

وقيل: المعنى على نفي القسم، والمعنى: إنِّي لا أقسم على شيء، ولكن أسألك أيحسب الإنسان.

وهذه الأقوال شاذَّة منكرة، ولا تصح عن قائلها لخروجها عن لسان العرب، وإنما ذكرناها تنبيهاً على ضعفها.

فصل في معنى الآية

قال ابن عباس وابن جبير: معنى الكلام: أقسمُ بيوم القيامة[3]، وهو قول أبي عبيدة، ومثله قوله: [الطويل]

---

(١) تقدم. (٢) تقدم.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٢٥) عن سعيد بن جبير وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٦٣) عنه وزاد نسبته إلى ابن المنذر.

٤٩٨٤ ـ تَذكَّرْتُ لَيلَى فاعترتْنِي صَبَابَةٌ فَكَادَ صَمِيمُ القَلْبِ لا يَتقطَّعُ[(١)]

قوله: ﴿بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: بيوم يقوم الناس فيه لربِّهم، ولله ـ عز وجل ـ أن يقسم بما شاء، ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾، لا خلاف في هذا بين القراء، وأنه سبحانه ـ جل ذكره ـ إنَّما أقسم بيوم القيامة تعظيماً لشأنه، وعلى قراءة ابن كثير أقسَم بالأولى ولم يقسم بالثانية.

وقيل: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ ردٌّ آخر وابتداء قسم بالنفس اللوامة.

قال الثعلبيُّ: والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً، ومعنى «بالنَّفْسِ اللَّوامَةِ»: أي: نفس المؤمن الذي لا تراه يلوم إلا نفسه، يقول: [ما أردت بكذا؟ ولا تراه إلا وهو يعاتب نفسه قاله ابن عبَّاس ومجاهد والحسن وغيرهم.

قال الحسن: هي والله نفس المؤمن ما يُرى المؤمن إلاّ يلوم نفسه][(٢)]، ما أردت بكلامي هذا؟ ما أردت بأكلي ما أردت بحديثي؟ والفاجر لا يحاسب نفسه[(٣)].

وقال مجاهد: هي التي تلوم على ما فات وتندم، فتلوم نفسها على الشَّرِّ لم فعلته، وعلى الخير لِمَ لَمْ تستكثر منه[(٤)].

وقيل: تلوم نفسها بما تلوم عليه غيرها.

وقيل: المراد آدم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم يزل لائماً لنفسه على معصيته التي أخرج بها من الجنة.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أنها الملومة، فتكون صفة ذمٍّ[(٥)]، وهو قول من نفى أن يكون قسماً وعلى الأول: صفةُ مدحٍ فيكون القسم بها سائغاً.

وقال مقاتل: هي نفس الكافر يلوم نفسه ويتحسَّر في الآخرة على ما فرط في جنبِ الله تعالى[(٦)].

قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن﴾. هذه «أن» المخففة وتقدم حكمها في «المائدة» و «أن» وما في حيِّزها في موضع الجرِّ، والفاصل هنا حرف النَّفي، وهي وما في حيِّزها سادَّةٌ مسدّ مفعولي «حَسِب» أو مفعوله على الخلاف.

---

(١) ينظر القرطبي ١٩/ ٦٠. (٢) سقط من أ.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٦٤) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس».

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٢٧) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٦٤) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد.

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٦١). (٦) ينظر المصدر السابق.

والعامَّة: على «نَجْمَعَ» بنون العظمة، و «عِظَامهُ» نصب مفعولاً به.

وقتادة: «تُجْمع»[١] بتاءٍ من فوقُ مضمومةٍ على ما لم يسم فاعله؛ «عظامه» رفع لقيامه مقام الفاعل.

فصل في جواب هذا القسم

قال الزجاج: أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة ليجمعنَّ العظام للبعث، فهذا جواب [القسم.

وقال النحاس: جواب][٢] القسم محذوف، أي: لنبعثن.

والمراد بالإنسان: الكافر المكذب بالبعث.

قيل: نزلت في عدي بن ربيعة قال للنبي ﷺ حَدِّثني عن يَوم القِيامةِ مَتَى تكُونُ، وكَيْفَ أمْرهَا وحَالُهَا؟ فأخْبَرهُ النَّبيُّ ﷺ، فقال: لَوْ عَايَنْتُ ذلكَ اليَوْمَ لَمْ أصدِّقكَ يا مُحمَّدُ ولَمْ أومِنْ بِه، أو يَجْمَعُ اللَّهُ العِظامَ؟ ولهذا كان النبيُّ ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ اكفِنِي جَارَي السُّوءِ عدَيَّ بن ربيعَة، والأخنس بنَ شَريقٍ»[٣].

وقيل: نزلت في عدو الله أبي جهل حين أنكر البعث بعد الموت، وذكر العظام، والمراد نفسه كلها؛ لأن العظام قالب الخلق.

وقيل: المراد بالإنسان: كل من أنكر البعث مطلقاً.

قوله: ﴿بَلَىٰ﴾ إيجاب لما بعد النفي المنسحب عليه الاستفهام، وهو وقف حسن، ثم يبتدىء «قَادرِين»، فـ «قَادِرين» حال من الفاعل المضمر في الفعل المحذوف على ما ذكرنا من التقدير.

وقيل: المعنى بل نجمعها نقدر قادرين.

قال الفراء: «قادرين» نصب على الخروج من «نَجْمعَ» أي نقدر ونقوى «قادرين» على أكثر من ذلك.

وقال أيضاً: يَصْلُح نصبه على التكرير، أي: بلى فليحسبنا قادرين.

وقيل: المضمر «كنا» أي: كنا قادرين في الابتداء، وقد اعترف به المشركون.

وقرأ ابن أبي عبلة[٤] وابن السميفع: «قادرون» رفعاً على خبر ابتداء مضمر، أي

---

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٦٥٩، والبحر المحيط ٨/ ٣٧٦، والدر المصون ٦/ ٤٢٦.

(٢) سقط من أ.

(٣) ذكره ابن الجوزي في «تفسيره» المسمى بـ «زاد المسير» (٨/ ٤١٧) والقرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٦١).

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٢، والبحر المحيط ٨/ ٣٧٦، والدر المصون ٦/ ٤٢٦.

«بلى» نحن «قادرون» ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ والبنانُ عند العرب: الأصابع، واحدُها بنانةٌ؛ قال عنترة: [الوافر]

٤٩٨٥ ـ وأنَّ المَوْتَ طَوْعُ يَدِي إذَا مَا وَصَلْتُ بَنَانَهَا بالهِنْدُوَانِي(١)

فنبه بالبنان على بقية الأعضاء.

وأيضاً: فإنها أضعف العظام فخصها الله ـ عز وجل ـ بالذكر لذلك.

قال القتبي والزجاج: وزعموا أن الله تعالى لا يبعث الموتى، ولا يقدر على جمع العظام، فقال الله تعالى: بلى قادرين على أن نعيد السُّلاميات على صغرها، ونُؤلِّف بينها حتى تستوي، ومن قدر على هذا فهو على جميع الكبار أقدرُ.

وقال ابن عباس وعامة المفسرين: «على أنْ نُسَوي بنَانَه» أن نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخُفِّ البعير، أو كحافر الحمار، أو كظلفِ الخنزيرِ، ولا يمكنه أن يعمل به شيئاً ولكنا فرقنا أصابعه حتى يفعل بها ما يشاء.

وقيل: نقدر أن نُعيد الإنسان في هيئة البهائم، فكيف في صورته التي كان عليها، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١].

والقول الأول أشبه بمساق الآية.

فصل في الكلام على الآية

قال ابن الخطيب(٢) رحمه الله: وفي الآية إشكالات:

أحدها: ما المناسبة بين القيامة والنَّفس اللوامة حتى جمع الله بينهما في القسم؟.

وثانيها: على وقوع القيامة.

وثالثها: قال جل ذكره: أقسم بيوم القيامة ولم يقل: والقيامة، كما قال ـ عز وجل ـ في سائر السور: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ [الطور: ١] ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ [الذاريات: ١]، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ [الضحى: ١].

والجواب عن الأول من وجوه:

أحدها: أنَّ أحوال القيامة عجيبة جدًّا، ثُمَّ المقصود من إقامة القيامة إظهار أحوال النُّفوس على ما قال ﷺ: «مَنْ عَرفَ نَفْسَهُ عرفَ ربَّهُ» ومن أحوالها العجيبة قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى

---

(١) ينظر ديوان عنترة ص ١٥٠، والقرطبي ١٩/ ٩٢.

(٢) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١٩١.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وقيل: القسم وقع بالنَّفس اللوامة على معنى التعظيم من حيث إنها أبداً يستحقرُ فعلها وجدُّها واجتهادها في طاعة الله تعالى.

وقيل: إنه ـ تعالى ـ أقسم بيوم القيامة، ولم يقسم بالنفس اللوامة تحقيراً لها؛ لأن النفس اللوامة إمَّا أن تكون كافرة بالقيامة مع عظم أمرها، وإمَّا أن تكون فاسقة مقصرة في العمل، وعلى التقديرين فإنها تكون مستحقرة.

والجواب عن الثاني: أن المحقِّقين قالوا: القسم بهذه الأشياء قسم بربِّها وخالقها في الحقيقة، فكأنه قيل: أقسم برب القيامة على وقوع القيامة.

والجواب عن الثالث: أنه حيث أقسم، قال جل ذكره: «والذَّارياتِ»، وأما هنا فإنه سبحانه نفى كونه مقسماً بهذه الأشياء، فزال السؤال.

قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾. فيه وجهان:

أحدهما: أن تكون «بل» لمجرد الإضراب والانتقال من غير عطف، أضرب عن الكلام الأول وأخذ في آخر.

الثاني: أنها عاطفة. قال الزمخشري: «بل يريد» عطف على «أيحسب»، فيجوز أن يكون مثله استفهاماً، وأن يكون إيجاباً على أن يضرب عن مستفهم عنه إلى آخر، أو يضرب عن مستفهم عنه إلى موجب.

قال أبو حيان بعد ما حكى عن الزمخشري ما تقدَّم: «وهذه التقادير الثلاثة متكلَّفة لا تظهر».

وقال شهاب الدين[١]: «وليس هنا إلا تقديران، ومفعول «يُرِيد» محذوف يدل عليه التعليل في قوله تعالى: ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ والتقدير: يريد شهواته ومعاصيه فيمضي فيها دائماً أبداً و «أمامه» منصوب على الظَّرفِ، وأصله مكانٌ فاستعير هنا للزمان».

والضمير في «أمَامَه» الظاهرُ عوده على الإنسان.

وقال ابن عباس: يعود على يوم القيامة بمعنى أنه يريد شهواته ليفجر في تكذيبه بالبعث بين يدي يوم القيامة[٢].

فصل في تفسير الآية

قال مجاهد والحسن وعكرمة والسدي وسعيد بن جبير رضي الله عنهم: يقول: سوف أتوب حتى يأتيه الموت على أسوأ أحواله[٣].

---

(١) ينظر: الدر المصون ٦/٤٢٦. (٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/٦٢).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/٣٢٩) عن مجاهد والحسن والسدي وعكرمة.

وعن ابن عباس: ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾، قال: يعجل المعصية ويسوفُ بالتوبة[١] وجاء في الحديث: «قال: يقولُ: سوف أتُوبُ، ولا يتوبُ، فهُو قَدْ أَخْلفَ فكذبَ».

وقال عبد الرحمن بن زيد: ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ من البعث والحساب ودليله: يسأل أيان يوم القيامة أي يسأل متى يكون؟ على وجه الإنكار والتكذيب[٢].

وقال الضحاك: هو الأمل، يقول: سوف أعيش وأصيب من الدنيا، ولا يذكر الموت[٣].

وقيل: يعزم على المعصية أبداً وإن كان لا يعيش إلا مدة قليلة، فالهاء على هذه الأقوال الثلاثة للإنسان.

وإذا قلنا: بأن الهاء ليوم القيامة، فالمعنى: بل يريد الإنسان ليكفر بالحق بين يدي القيامة. والفجورُ: أصله الميل عن الحق.

قوله: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ﴾ هذه جملة مستأنفة.

وقال أبو البقاء رحمه الله: تفسير لـ «يفجر» فيحتمل أن يكون مستأنفاً مفسّراً، وأن يكون بدلاً من الجملة قبلها؛ لأن التفسير يكون بالاستئناف وبالبدل إلا أنَّ الثاني منه رفع الفعل، ولو كان بدلاً لنصب، وقد يقال: إنه أبدلَ الجملة من الجملة لا خصوصيَّة الفعلِ من الفعل وحده، وفيه بحث قد تقدم نظيره في «الذاريات» وغيره. والمعنى: يسأل متى يوم القيامة.

فصل فيمن أنكروا البعث

قال ابن الخطيب[٤]: اعلم أنَّ إنكار البعث يتولد تارة من الشُّبهة، وأخرى من الشَّهوة، فأما تولده من الشبهة فهو ما حكاه الله ـ عز وجل ـ بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾، وتقديره: أنَّ الإنسان هو هذا البدن، فإذا مات وتفرقت أجزاؤه، واختلطت بأجزاء التراب، وتفرَّقت بالرِّياح في مشارق الأرض ومغاربها، فيكون تمييزها بعد ذلك محالاً.

وهذه الشبهة ساقطة من وجهين:

الأول: لا نُسلِّمُ أن الإنسان هو هذا البدن، بل هو شيء مدبرٌ لهذا البدن، فإذا فسد هذا البدن بقي هو حيًّا كما كان، وحينئذ يعيد الله ـ تبارك وتعالى ـ أي بدن أراد، فيسقط

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٦٥) وعزاه إلى ابن أبي الدنيا في «ذم الأمل» والبيهقي في «شعب الإيمان».

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٣٠). (٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٣٠).

(٤) الفخر الرازي ٣٠/ ١٩٣.

السؤال وفي الآية إشارة إلى هذا، لأنه سبحانه أقسم بالنفس اللوامة، ثم قال تعالى جل ذكره: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾، وهو تصريح بالفرق بين النفس والبدن.

الثاني: سلَّمنا أنَّ الإنسان هو هذا البدن، لكنه سبحانه عالم بالجزئيات، فيكونُ عالماً بالجزء الذي هو بدن زيدٍ، وبالجزء الذي هو بدن عمرو، وهو ـ تعالى ـ قادر على كلِّ الممكنات، فيلزم أن يكون قادراً على تركيبها ثانياً، فزال الإشكال وأما إنكار البعث بناءً على الشَّهوةِ فهو قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾.

ومعناه أن الإنسان الذي يميل طبعه للشَّهوات واللَّذات والفكرةُ في البعث تنغصها عليه فلا جرم ينكره.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾. **قرأ نافع وأبان**[1] **عن عاصم**: بَرَق بفتح الراء.

والباقون: بالكسر.

فقيل: لغتان في التحيُّر والدهشة، ومعناه لمع بصره من شدَّة شخوصه، فتراه لا يطرف.

وقيل: بَرِق ـ بالكسر ـ تحيَّر فزعاً.

قال الزمخشري: «وأصله من بَرِق الرجل إذا نظر إلى البرقِ فدُهِش بصرهُ».

قال غيره: كما يقال: أسد وبقر، إذا رأى أسداً وبقراً كثيراً فتحيّر من ذلك.

قال ذو الرمة: [الطويل]

٤٩٨٦ ـ وكُنْتُ أرَى في وجْهِ ميَّةَ لَمحةً فَأبْرَقُ مَغْشِياً عَلَيَّ مَكانِيَا[2]

وأنشد الفراء رحمه الله: [المتقارب]

٤٩٨٧ ـ فَنفْسَكَ فَانْعَ ولا تَنْعَنِي وَدَاوِ الكُلُومَ ولا تَبْرقِ[3]

أي: لا تفزع من كثرة الكلوم التي بك.

و «بَرَق» بالفتح: من البريق، أي: لمع من شدَّة شُخُوصه.

---

(١) ينظر: السبعة ٦٦١، والحجة ٦/ ٣٤٥، وإعراب القراءات ٢/ ٤١٤، وحجة القراءات ٧٣٦.

(٢) ينظر ديوان ذي الرمة ٢/ ١٣٠٨، والبحر ٨/ ٣٧٣، والدر المصون ٦/ ٤٢٧. وقد نسبه أبو حيان إلى الأعشى وتابعه تلميذه السمين في الدر وهذا خطأ.

(٣) البيت لطرفة بن العبد ينظر ديوان طرفة ص ٧٠، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢٠٩، والطبري ٢٩/ ١١٢، واللسان (برق)، والقرطبي (١٩/ ٦٣)، والدر المصون (٦/ ٤٢٧).

وقال مجاهد وغيره: وهذا عند الموت[١].

وقال الحسن: يوم القيامة، قال: وفيه معنى الجواب عما سأل عنه الإنسان، كأنه قال: يوم القيامة إذا برق البصر، وخسف القمر[٢].

وقيل: عند رؤية جهنم.

قال الفراء والخليل: «برِق» ـ بالكسر ـ: فَزِع وبُهِت وتحيّر، والعرب تقول للإنسان المتحيِّر المبهوت: قد برِق فهو برِقٌ.

وقيل: «بَرِق، يَبْرَقُ» بالفتح: شق عينيه وفتحهما. قاله أبو عبيدة، وأنشد قول الكلابيِّ: [الرجز]

٤٩٨٨ ـ لَمَّا أتَانِي ابنُ عُمَيْرٍ راغِباً أعْطَيْتُه عِيساً صِهَاباً فَبرِقْ[٣]

أي: فتح عينيه. **قرأ أبو السمال**[٤]: «بَلِق» باللام.

قال أهل اللغة إلا الفرّاء: معناه «فُتِح»، يقال: بَلقْت الباب وأبلقتُه: أي: فتحتُه وفرَّجتُه.

وقال الفراء: هو بمعنى أغلقته.

قال ثعلب: أخطأ الفراء في ذلك.

ثم يجوز أن يكون مادة «بَلَقَ» غير مادة «بَرَقَ»، ويجوز أن تكون مادةً واحدة بُدِّل فيها حرف من آخر، وقد جاء إبدال «اللام» من الراء في أحرف، قالوا: «نثر كنانته ونثلها» وقالوا: «وجل ووجر» فيمكن أن يكون هذا منه، ويؤيده أن «برق» قد أتى بمعنى شق عينيه وفتحهما، قاله أبو عبيدة، وأنشد [الرجز]

٤٩٨٩ ـ لَمَّا أتَانِي ابنُ عُمَيْرٍ[٥]

البيت المتقدم.

أي: ففتح عينيه فهذا مناسب لـ «بلق».

قوله: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾.

العامةُ: على بنائه للفاعل.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٣١) عن مجاهد.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٦٣).

(٣) ينظر مجاز القرآن ٢/ ٢٧٧، وإصلاح المنطق ص ٥٢، ٢١٧، والطبري ٢٩/ ١١٢، ومجمع البيان ٥٩٦/١، والدر المصون ٦/ ٤٢٧.

(٤) ينظر: الكشاف ٤/ ٦٦٠، والبحر المحيط ٨/ ٣٧٦، والدر المصون ٦/ ٤٢٧.

(٥) تقدم.

وأبو حيوة[١]**، وابن أبي عبلة**، ويزيد بن قطيب قال القرطبي[٢]: وابن أبي إسحاق وعيسى: «خُسِف» مبنياً للمفعول.

وهذا لأن «خسف» يستعمل لازماً ومتعدياً، يقال: خُسِفَ القمر، وخسف الله القمر.

وقد اشتهر أن الخسوف للقمر والكسوف للشمس.

وقال بعضهم: يكونان فيهما، يقال: خُسِفت الشمس وكسفت، وخسف القمر وكسف، وتأيد بعضهم بقوله ﷺ: «إنَّ الشَّمسَ والقَمَرَ آيتَانِ من آيَاتِ اللَّهِ لا يخسفانِ لمَوْتِ أحدٍ»، فاستعمل الخسوف فيهما، وفي هذا نظرٌ لاحتمال التغليب، وهل هما بمعنى واحد أم لا؟ فقال أبو عبيد وجماعة: هما بمعنى واحد.

وقال ابن أبي أويس: الخسوف ذهاب كل ضوئهما والكسوف ذهاب بعضه.

قال القرطبي[٣]: الخسوف في الدنيا إلى انجلاء، بخلاف الآخرة فإنه لا يعود ضوؤه، ويحتمل أن يكون بمعنى «غاب»، ومنه قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١].

قوله تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ لم تلحقه علامة تأنيث؛ لأن التأنيث مجازي.

وقيل: لتغليب التذكير. وفيه نظر، لو قلت: «قام هند وزيد» لم يجز عند الجمهور من العرب.

وقال الكسائي: «جمع» حمل على معنى جرح النيران.

وقال الفراء والزجاج: جمع بينهما في ذهاب ضوئيهما فلا ضوء للشمس كما لا ضوء للقمر بعد خسوفه.

وقال ابن عباس وابن مسعود: جمع بينهما، أي قرن بينهما في طلوعهما من المغرب أسودين مكوَّرين مظلمين مقرَّنين كأنهما ثوران عقيران[٤].

وقال عطاء بن يسار: يجمع بينهما يوم القيامة ثم يقذفان في البحر فيكونان نار الله الكبرى[٥].

وقال عليّ وابن عباس رضي الله عنهما: يجعلان في الحُجُب وقد يجمعان في نار

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٣، والبحر المحيط ٨/ ٣٧٦، والدر المصون ٦/ ٤٢٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٦٣. (٣) السابق.

(٤) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٥٣) وينظر المصدر السابق.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٣٢) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٦٥) وزاد نسبته إلى ابن المنذر.

جهنم لأنهما قد عُبِدا من دون الله ولا تكون النار عذاباً لهما لأنهما جماد وإنما يفعل ذلك بهما زيادة في تبكيت الكفار وحسرتهم[١].

وقيل: هذا الجمع إنما يجمعان ويقرَّبان من الناس فيلحقهم العرق لشدَّة الحر فيكون المعنى: يجمع حرهما عليهم.

وقيل: يجمع الشمس والقمر، فلا يكون ثم تعاقبُ ليلٍ ولا نهارٍ.

قال ابن الخطيب[٢]: وقيل: جمع بينهما في حكم ذهاب الضوء كما يقال: يجمع بين كذا وكذا في حكم كذا، أي: كل منهما يذهب ضوؤه.

فصل في الرد على من طعن في الآية

قال ابن الخطيب[٣]: طعنت الملاحدة في الآية فقالوا: خسوف القمر لا يحصل حال اجتماع الشمس والقمر.

والجواب: أن الله ـ تعالى ـ قادر على أن يخسف القمر سواء كانت الأرض متوسطة بينه وبين الشمس، أو لم تكن؛ لأن الله ـ تعالى ـ قادر على كل الممكنات فيقدر على إزالة الضوء عن القمر في جميع الأحوال.

قوله: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾. جواب «إذا» من قوله: «فإذا برق»، و «أيْنَ المفَرُّ» منصوب المحل بالقول، و «المَفَرّ» مصدر بمعنى «الفرار» وهذه هي القراءة المشهورة.

وقرأ الحسنان ابنا[٤] علي وابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة: بفتح الميم وكسر الفاء، وهو اسم مكان الفرار، أي أين مكان الفرار.

وجوز الزمخشري أن يكون مصدراً، قال: «كالمرجع» وقرأ الحسن[٥] عكس هكذا: أي بكسر الميم وفتح الفاء، وهو الرجل الكثير الفرار؛ كقول امرىء القيس يصف جواده: [الطويل]

٤٩٩٠ ـ مِكَـرٍّ مِفَـرٍّ مُقْبِـلٍ مُـدْبِـرٍ مَـعـاً كجُلْمُودِ صَخْرٍ حطَّهُ السَّيلُ من عَلِ[٦]

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٦٣). (٢) ينظر الرازي ٣/ ١٩٤.

(٣) ينظر الرازي ٣٠/ ١٩٤.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٣، والبحر المحيط ٨/ ٣٧٧، والدر المصون ٦/ ٤٢٨.

(٥) ينظر: السابق.

(٦) ينظر ديوانه ص ١٩، وإصلاح المنطق ص ٢٥، وجمهرة اللغة ص ١٢٦، وخزانة الأدب ٢/ ٢٩٧، ٣/ ٢٤٢، ٢٤٣، والدرر ٣/ ١١٥، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٣٣٩، وشرح التصريح ٢/ ٥٤، وأوضح المسالك ٣/ ١٦٥، ورصف المباني ص ٣٢٨، وشرح الأشموني ٢/ ٢٢٣، وشرح شذور الذهب ص ١٤٠، ومغني اللبيب ١/ ١٥٤، والمقرب ١/ ٢١٥، وهمه الهوامع ١/ ٢١٠.

وأكثر استعمال هذا الوزن في الآلات.

فصل في بيان ما يقوله الإنسان يوم القيامة

يقول الإنسان يومئذ: أين المفر، أي: يقول ابن آدم، وقيل: أبو جهل: أين المفر، أين المهرب؟.

قال الماوردي: ويحتمل وجهين:

أحدهما: أين المفر من الله استحياءً منه.

والثاني: أين المفر من جهنم حذراً منها. ويحتمل هذا القول من الإنسان وجهين:

أحدهما: أن يكون من الكافر خاصة في عرصة القيامة دون المؤمن لثقة المؤمن ببشرى ربه.

والثاني: أن يكون من قول المؤمن والكافر عند قيام الساعة لهول ما شاهدوا منها.

قوله: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾. تقدم الكلام في «كلاَّ»، وخبر «لا» محذوف، أي لا وزر له.

أي لا ملجأ من النار.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لا حِصْن[1].

وقال ابن عباس: لا ملجأ[2] وقال الحسن: لا جبل[3].

وقال ابن جبير: لا مَحِيصَ[4].

وهل هذه الجملة محكيّة بقول الإنسان، فتكون منصوبة المحل، أو هي مستأنفة من الله ـ تعالى ـ بذلك.

و «الوزر»: الملجَأ من حصنٍ أو جبلٍ أو سلاح؛ قال الشاعر: [المتقارب]

٤٩٩١ ـ لَعَمْرُكَ ما لِلْفَتَى من وَزَرْ مِنَ المَوْتِ يُدرِكُهُ والكِبَرْ[5]

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٣٤).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٣٣) عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٦٥) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في «كتاب الأهوال» وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عنه.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٣٣) عن الحسن ومجاهد وقتادة. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٦٦)، عن الحسن وعزاه إلى عبد بن حميد. وذكره عن مجاهد أيضاً وزاد نسبته إلى عبد بن حميد.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٣٤) عن سعيد بن جبير وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٦٦) وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٥) البيت لربيعة بن الذئبة ينظر مجاز القرآن ٢/ ٢٧٧، والقرطبي ١٩/ ٩٨، والمؤتلف ص ١٢٠، والبحر ٨/ ٣٧٤، والدر المصون ٦/ ٤٢٨، وروح المعاني ٢٩/ ١٧٦.

قال السديُّ: كانوا في الدنيا إذا فزعوا تحصَّنوا في الجبال، فقال الله لهم: لا وزر يعصمكم يومئذٍ منِّي.

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾. أي: المنتهى. [قاله قتادة، نظيره: «وأن إلى ربك المنتهى»][(١)].

وقال ابن مسعود: إلى ربك المصير والمرجع، أي: المستقر في الآخرة حيث يقره الله.

و «المُسْتقَرُّ» مبتدأ، خبره الجار قبله، ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى الاستقرار، وأن يكون مكان الاستقرار، و «يَوْمئذٍ» منصوب بفعل مقدر، ولا ينصب بـ «مستقر» لأنه إن كان مصدراً فلتقدمه عليه، وإن كان مكاناً فلا عمل له ألبتة.

قوله: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ﴾. أي: يُخبَّر ابن آدم برًّا كان أو فاجراً يوم القيامة ﴿بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي: بما أسلف من عمل خيراً أو شرًّا، أو أخَّر من سيِّئة أو صالحة يعمل بها بعده قاله ابن عباس وابن مسعود[(٢)].

وقال ابن عباس أيضاً: بما قدَّم من المعصية، وأخَّر من الطاعة، وهو قول قتادة[(٣)].

وقال ابن زيد: «بِما قدَّمَ» مرة من أمواله لنفسه «وأخَّرَ» خلَّف للورثة[(٤)].

وقال الضحاك: «بِما قدَّم» من فرض «وأخَّرَ» من فرض[(٥)].

وقال مجاهد والنخعيُّ: يُنَبَّأ بأوَّلِ عملٍ وآخره[(٦)].

قال القشيري: وهذا الإيتاء يكون في القيامة عند وزن الأعمال، ويجوز أن يكون عند الموت.

قوله: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾. يجوز في «بَصِيرة» أوجه:

أحدها: أنها خبر عن الإنسان، و «على نفسه» متعلق بـ «بصيرة»، والمعنى: بل الإنسان بصيرة على نفسه.

---

(١) سقط من: أ.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٣٠) عن ابن عباس وابن مسعود وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٦٦) عن ابن مسعود وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر. وذكره أيضاً عن ابن عباس وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٣٥) عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٣٦).

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٦٥) عن الضحاك.

(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٣٥) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٦٦)، وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد.

وعلى هذا فلأيّ شيء أنّث الخبر.

وقد اختلف النحويون في ذلك، فقال بعضهم: الهاء فيه للمبالغة.

وقال الأخفش: هو كقولك: «فلان عِبْرة وحُجَّة».

وقيل: المراد بالإنسان الجوارح، فكأنه قال: بل جوارحه بصيرة، أي شاهدة.

والثاني: أنَّها مبتدأ، و «على نفسه» خبرها، والجملة خبر عن الإنسان.

وعلى هذا ففيها تأويلان:

أحدهما: أن تكون «بصيرة» صفة لمحذوف، أي عين بصيرة. قاله الفراء؛ وأنشد: [الطويل]

٤٩٩٢ ـ كَأنَّ عَلَى ذِي العَقْلِ عَيْناً بَصِيرَةً ... بِمَقْعَدِهِ أو مَنْظَرٍ هُو نَاظِرُهْ

يُحَاذِرُ حتَّى يَحْسبَ النَّاسُ كُلُّهُم ... مِنَ الخَوْفِ لا تَخْفَى عَلَيْهِمْ سَرائِرُهْ[(١)]

الثاني: أن المعنى جوارحُ بصيرة.

الثالث: أنَّ المعنى ملائكة بصيرة، وهم الكاتبون، والتاء على هذا للتَّأنيث.

وقال الزمخشري: «بصيرة»: حُجَّة بينة وصفت بالبصارة على المجاز كما وصفت الآيات بالإبصار في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ [النمل: ١٣].

قال شهاب الدين[(٢)]: «هذا إذا لم تجعل الحُجَّة عبارة عن الإنسان، أو تجعل دخول التاء للمبالغة أمَّا إذا كانت للمبالغة فنسبة الإبصار إليها حقيقة».

الوجه الثالث: يكون الخبر الجار والمجرور و «بصيرة» فاعل به، وهو أرجح مما قبله؛ لأن الأصل في الأخبار الإفراد.

فصل في تفسير الآية

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «بصيرة»: أي: شاهد، وهو شهود جوارحه عليه: يداه بما يبطش بهما، ورجلاه بما يمشي عليهما، وعيناه بما أبصر بهما والبصيرة: الشاهد[(٣)]، كما أنشد الفراء، ويدل عليه قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

قال الواحدي: هذا يكون من صفات الكفار، فإنهم ينكرون ما عملوا، فيُختم على أفواههم، وتنطق جوارحهم.

---

(١) يروى ذي الظنّ بدل ذي العقل.

ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٢١١، والقرطبي ١٩/ ٦٥، والبحر المحيط ٨/ ٣٧٧، والدر المصون ٦/ ٤٢٨، وروح المعاني ٢٩/ ١٧٧، وفتح القدير ٥/ ٣٣٨.

(٢) ينظر الدر المصون ٦/ ٤٢٩.

(٣) في أ: الساعة.

قوله: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾. هذه الجملة حالية، وقد تقدم نظيرها مراراً.

والمعاذير: جمع معذرة على غير قياس كـ «ملاقيح ومذاكير» جمع لقحة وذكر. وللنحويين في مثل هذا قولان:

أحدهما: أنه جمع لملفوظ به وهو لقحة وذكر.

والثاني: أنه جمع لغير ملفوظ به بل لمقدَّر، أي ملقحة ومذكار.

وقال الزمخشري: «فإن قلت: أليس قياس «المَعْذِرة» أن تجمع على معاذر لا معاذير؟.

قلت: «المعاذير» ليست جمع «معذرة» بل اسم جمع لها، ونحوه: «المناكير» في المُنْكَر».

قال أبو حيان[1]: «وليس هذا البناء من أبنية أسماء الجموع، وإنما هو من أبنية جموع التكسير» انتهى.

وقيل: «مَعاذِير» جمع مِعْذار، وهو السِّتر، والمعنى: ولو أرخى ستوره، والمعاذير: الستور بلغة «اليمن»[2]، قاله الضحاك والسديُّ؛ وأنشد: [الطويل]

٤٩٩٣ ـ ولكِنَّها ضَنَّتْ بمَنْزِلِ سَاعةٍ عَلينَا وأطَّتْ فوْقهَا بالمعَاذِرِ[3]

قال الزجاج: المعاذير: الستور، والواحد: معذار. أي وإن أرخى ستوره يريد أن يخفي عمله فنفسه شاهدة عليه، وقد حذف الياء من «المعاذر» ضرورة.

وقال الزمخشري: «فإن صح ـ يعني أن المعاذير: الستور ـ فلأنه يمنع رؤية المحتجب كما تمنع المعذرة عقوبة المذنب». وهذا القول منه يحتمل أن يكون بياناً للمعنى الجامع بين كون المعاذير: الستور والاعتذارات، وأن يكون بياناً للعلاقة المسوِّغة في التجويز.

فصل في معنى الآية

قال مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد وأبو العالية وعطاء والفراء والسديُّ: المعنى: ولو اعتذر وقال: لم أفعل شيئاً لكان عليه من نفسه من يشهد عليه من جوارحه، فهو وإن اعتذر وجادل عن نفسه فعليه شاهد يكذِّب عذرهُ[4].

---

(١) ينظر البحر المحيط ٨/ ٣٨٦.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٦٧) وعزاه إلى ابن المنذر.

(٣) ينظر القرطبي ١٩/ ٦٦، والبحر ٨/ ٣٧٨، والدر المصون ٦/ ٤٢٩.

(٤) ينظر تفسير القرطبي (١٦/ ٦٦).

وقال مقاتل: ولو أدلى بعُذرٍ أو حجة لم ينفعه ذلك، نظيره قوله تعالى ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[١] [المرسلات: ٣٦] فالمعاذير على هذا مأخوذة من العُذْر.

وحكى الماوردي عن ابن عباس: «ولو ألقى معاذيره» أي ولو تجرّد من ثيابه[٢].

قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾

قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾.

قال بعض الرافضة: عدم مناسبتها لما قبلها يدل على تغيير القرآن.

قال ابن الخطيب[٣]: وفي مناسبتها[٤] وجوه:

الأول: لعل استعجال الرسول إنما كان عند نزول هذه الآيات.

الثاني: أنه تقدم أن الإنسان يستعجل بقوله: ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ ثم بين أن العجلة مذمومة في أمر الدين، فقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾، وقال تعالى بعدها: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠].

الثالث: أنه قدم ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ وكان ﷺ إنما يستعجل خشية النسيان، فقيل له ﷺ إن الأمور لا تحصل إلا بتوفيق الله ـ تعالى ـ وإعانته، فاعتمد على الله ـ تعالى ـ واترك التعجيل.

الرابع: كأنه قيل: غرضك من هذا التعجيل أن تحفظه، وتبلغه إليهم ليظهر صدقك، وقبح عنادهم، لكنهم يعلمون ذلك بقلوبهم، فلا فائدة في هذا التعجيل.

الخامس: أن الكافر لما قال: «أين المَفر»؟ كأنه يطلب الفرار من الله تعالى، فكن أنت يا محمد على مضادة الكافر، وفر من غير الله إلى الله.

السادس: قال القفالُ: الخطاب مع الإنسان المذكور في قوله ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ فإذا قيل له: اقرأ كتابك تلجلج لسانه، فيقال له: لا تعجل، فإنه يجب علينا بحكم الوعد، أو بحكم الحكمة أن نجمع أعمالك ونقرأها عليك، فإذا قرآناه فاتّبعْ قرآنه بالإقرار «ثُمَّ إنَّ علينا بَيانَهُ»، وهذا فيه وعيد شديد وتهويل.

روى الترمذي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان

---

(١) ينظر المصدر السابق.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٣٧) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٦٧) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ينظر الفخر الرازي ٣٠/ ١٩٦.

(٤) في أ: المناسبة.

النبي ﷺ إذا نزل عليه القرآن يحرك لسانه يريد أن يحفظه، فأنزل الله تعالى ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾.

قال: وكان يحرك شفتيه، فقال لي ابن عباس: أنا أحركهما كما كان رسول الله ﷺ يحركهما، فحرك شفتيه، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ قال: جمعه في صدرك ثم نقرؤه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ فاستمع وأنصت، ثم علينا أن نقرأه، فيقال: فكان رسول الله ﷺ إذا أتاه جبريل ـ عليه السلام ـ استمع، وإذا نطق جبريل ـ عليه السلام ـ قرأه النبي ﷺ كما أقرأه. خرجه البخاري أيضاً[(١)].

ونظير هذه الآية: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤] وقد تقدم.

وقال عامر الشعبي: إنما كان يُعجِّل بذكره ﷺ إذا نزل عليه الوحي من حبّه له وحلاوته في لسانه مع الوحي مخافة أن ينساه ﷺ فنزلت: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ الآية. ونزل: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦]، ونزل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾. قاله ابن عباس. و «قرآنه» أي وقراءته عليك، والقراءة والقرآن في قول الفراء: مصدران.

وقال قتادة: «فاتّبع قرآنه» فاتّبع شرائعه وأحكامه[(٢)].

قوله: ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾، أي: قراءته، فهو مصدر مضاف للمفعول، وأما الفاعل فمحذوف، والأصل: وقراءتك إياه، والقرآن: مصدر بمعنى القراءة.

قال حسان رضي الله عنه: [البسيط]

٤٩٩٤ ـ ضَحَّوْا بأشْمَطَ عُنوانُ السُّجُودِ بِهِ يُقَطِّعُ اللَّيلَ تَسْبِيحاً وقُرآنا[(٣)]

وقال ابن عطية[(٤)]: **قرأ أبو العالية**: «إنَّ عَليْنَا جمعهُ وقَرَتَهُ، فإذَا قَرأنَاهُ فاتَّبع قَرَتهُ». بفتح القاف والراء والتاء من غير همز ولا ألف. ولم يذكر توجيهها.

فأما توجيه قوله: «جَمعَهُ وقُرآنَهُ» وقوله: «فاتَّبعْ قُرآنَهُ» فواضح ـ كما تقدم ـ في قراءة ابن كثير في «البقرة»، وأنه هل هو نقل أو من مادة «قرن»، وتحقيق القولين مذكور ثمَّة فليلتفت إليه.

وأما قوله: بفتح القاف والراء والتاء، فيعني في قوله: «فإذا قَرَتَه» يشير إلى أنه قُرِىء شاذًا هكذا.

---

(١) أخرجه البخاري في (٨/ ٥٤٧) كتاب التفسير: باب لا تحرك به لسانك لتعجل به حديث (٤٩٢٧).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٤١) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٦٨) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) تقدم.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٥، والبحر المحيط ٨/ ٣٧٩.

وتوجيهها: أن الأصل: «قَرَأتَه» فعلاً ماضياً مسنداً لضمير المخاطب، أي: فإذا أردت قراءته، ثم أبدل الهمزة ألفاً لسكونها بعد فتحة، ثم حذف الألف تخفيفاً، كقولهم: ولو ترى ما لصبيان، و «ما» مزيدة، فصار اللفظ «قَرَتَهُ».

فصل في لفظ الآية

قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ أي بمقتضى الوعد عند أهل السنة، وبمقتضى الحكمة عند المعتزلة. «جمعه» في صدرك «وقرآنه» أي: يعيده جبريل عليك حتى تحفظه وتقرأه بحيث لا تنساه، فعلى الأول: القارىء جبريل عليك، وعلى الثاني محمد ﷺ والمراد بقراءته: جمعه كقوله: [الوافر]

٤٩٩٥ ـ .... لَمْ تَقْرَأْ جَنِينَا[1]

فيحمل الجمع على جمعه في الخارج، والقرآن على جمعه في ذهنه وحفظه لئلا يلزم التكرار، وأسند القراءة لله لأنها بأمره.

وقوله: «فاتبع قرآنه» قيل: حلاله وحرامه أو لا تقارئه بل اسكت حتَّى يسكت جبريل فاقرأ أنت، وهو أظهر؛ لأن الآية تدلّ على أنه ﷺ كان يقرأ مع جبريل، وكان يسأله في أثناء قراءته عن المشكلات فنهي عن الأول بقوله «فاتبع قرآنه»، وعن الثاني بقوله: «ثم إن علينا بيانه».

قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي: تفسير ما فيه من الحدود والحلال والحرام. قاله قتادة. وقيل: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ ما فيه من الوعد والوعيد.

وقيل: إنَّ علينا أن نبينه بلسانك. والضمائر تعود على القرآن، وإن لم يجر له ذكر.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ يدل على أنَّ بيان المجمل واجب على الله ـ تعالى ـ أما عند أهل السُّنة فبالوعد والتفضل، وإما عند المعتزلة فبالحكمة. والله أعلم.

فصل في الرد على من جوّز تأخير البيان عن وقت الخطاب

احتج من جوز تأخير البيان عن وقت الخطاب بهذه الآية.

وأجاب أبو الحسين عنه بوجهين:

---

(١) جزء بيت لعمرو بن كلثوم وتمامه:

ذِراعَي عَيْطَلٍ أَدْمَاءَ بِكْرٍ ... هِجَانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينَا

ينظر اللسان (عطل)، و (هجن)، والطبري ٢٩/١١٨، والصحاح (عطل) و (هجن)، والبحر ٨/٣٧٩.

الأول: أن ظاهر الآية يقتضي وجوب تأخير البيان عن وقت الخطاب، وأنتم لا تقولون به.

الثاني: أن عندنا الواجب أن يقرن باللفظ إشعاراً بأنه ليس المراد في اللفظ ما يقتضيه ظاهره. فأما البيان التفصيلي فيجوز تأخيره فتحمل الآية على تأخير البيان التفصيلي.

وذكر القفال وجها ثالثاً: وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ ثم إنا نخبرك بأن علينا بيانه فيحمل على الترتيب، ونظيره قوله تعالى ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ إلى قوله ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البلد: ١٣ ـ ١٧].

قال ابن الخطيب(١): والجواب عن الأول: أن اللفظ لا يقتضي وجوب تأخير البيان، بل يقتضي تأخير وجوب البيان، فيكون الجواب بالمنع لأن وجوب البيان لا يتحقق إلا عند الحاجة، وعن الثاني: أنَّ كلمة «ثُمَّ» دخلت على مطلق البيان المجمل والمفصل، فالتخصيص بأحدهما تحكم بغير دليل.

وجواب القفال: بأنه ترك للظاهر بغير دليل.

فصل فيمن جوز الذنوب على الأنبياء

أورد من جوّز الذنوب على الأنبياء، بأن هذا الاستعجال إن كان بإذن، فكيف نهي عنه وإن كان بغير إذن فهو ذنب.

قال ابن الخطيب(٢): والجواب: لعله كان مأذوناً فيه إلى وقت النهي.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾

قوله: ﴿كَلَّا﴾. قال الزمخشري: «كلاَّ» ردع للنبي ﷺ عن عادة العجلة وحثّ على الأناة.

وقال جماعة من المفسرين: «كلاًّ» معناه «حقًّا» أي: حقًّا تحبّون العاجلة، وهو اختيار أبي حاتم؛ لأن الإنسان بمعنى الناس.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «كلاًّ» أي: أنَّ أبا جهل لا يؤمن بتفسير القرآن وبيانه(٣).

وقيل: «كلاًّ» لا يصلُّون ولا يزكُّون، يريد كفار «مكّة».

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ١٩٩.

(٢) السابق ٣٠/ ١٩٧.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٧٠).

«بَلْ تُحِبُّونَ». قرأ[١] ابن كثير وأبو عمرو: «يُحِبُّون، ويَذَرُونَ» بياء الغيبة حملاً على لفظة الإنسان المذكور أولاً لأن المراد به الجنس، وهو اختيار أبي حاتم؛ لأن «الإنسان» بمعنى الناس والباقون: بالخطاب فيهما، إما خطاباً لكفار قريش أي: بل تحبون يا كفار قريش العاجلة، أي: الدار الدنيا والحياة فيها ﴿وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ أي تدعون الآخرة والعمل لها، وإما التفاتاً عن الإخبار عن الجنس المتقدم والإقبال عليه بالخطاب.

واختار الخطاب أبو عبيد، قال: ولولا الكراهة لخلاف هؤلاء القراء لقرأتها بالياء، لذكر الإنسان قبل ذلك.

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ فيه أوجه:

أحدها: أن يكون «وجوهٌ» مبتدأ، و «نَاضِرَةٌ» نعتٌ له، و «يَومئذٍ» منصوب بـ «نَاضِرَةٌ» و «نَاظِرَةٌ» خبره، و «إلى ربِّها» متعلق بالخبر. والمعنى: أن الوجوه الحسنة يوم القيامة ناظرة إلى الله تعالى، وهذا معنى صحيح، والنَّاضرة: من النُّضرة وهي التنعم، ومنه غصن ناضر.

الثاني: أن تكون «وُجوهٌ» مبتدأ أيضاً، و «نَاضِرةٌ» خبره، و «يَوْمئذٍ» منصوب الخبر ـ كما تقدم ـ وسوَّغ الابتداء هنا بالنكرة كون الموضع موضع تفصيل، كقوله: [المتقارب]

٤٩٩٦ ـ .... فَثَوْبٌ لَبِسْتُ وثَوْبٌ أجُرّ[٢]

وتكون «نَاضِرةٌ» نعتاً لـ «وُجوهٌ» أو خبراً ثانياً أو خبراً لمبتدأ محذوف، و «إلى ربِّها» متعلق بـ «ناظرة» كما تقدم.

وقال ابن عطية: وابتدأ بالنكرة؛ لأنها تخصصت بقوله: «يوْمَئذٍ».

وقال أبو البقاء: وجاز الابتداء هنا بالنَّكرة لحصول الفائدة.

وفي كلا قوليهما نظر أما قول ابن عطية: فلأن قوله «تخصصت» بقوله: «يَوْمئذٍ» هو التخصيص إما لكونها عاملة فيه، وهو محال؛ لأنها جامدة، وإما لأنها موصوفة به، وهو محال أيضاً؛ لأن الجثة لا توصف بالزمان كما لا يخبر به عنها.

وأما قول أبي البقاء: فإن أراد بحصول الفائدة ما تقدم من التفصيل فصحيح، وإن عنى ما عناه ابن عطية فليس بصحيح لما تقدم.

الثالث: أن يكون «وُجوهٌ» مبتدأ، و «يَوْمئذٍ» خبره. قاله أبو البقاءِ.

وهذا غلطٌ من حيث المعنى ومن حيث الصناعة.

---

(١) ينظر: السبعة ٦٦١، والحجة ٦/ ٣٤٥، ٣٤٦، وإعراب القراءات ٢/ ٤١٦، وحجة القراءات ٧٣٦.

(٢) تقدم.

أما المعنى: فلا فائدة في الإخبار عنها بذلك، وأما الصناعة: فلأنه لا يخبر بالزمان عن الجثة، فإن ورد ما ظاهره ذلك يؤول نحو «الليلة الهلالُ».

الرابع: أن يكون «وُجوهٌ» مبتدأ و «نَاضِرةٌ» خبره، و «إلى ربِّها ناظِرةٌ» جملة مستأنفة في موضع خبر ثانٍ، قاله ابن عطية.

وفيه نظر؛ لأنه لا ينعقد منهما كلام؛ إذ الظاهر تعلُّق «إلى» بـ «نَاظِرةٌ» اللهمّ إلا أن يعني أن «ناظرة» خبر لمبتدأ مضمر، أي: هي ناظرة إلى ربها، وهذه الجملة خبر ثان وفيه تعسف.

الخامس: أن يكون الخبر لـ «وُجوهٌ» مقدَّراً، أي: وجوه يومئذ ثمَّ، و «نَاضِرةٌ» صفة وكذلك «ناظرة».

قاله أبو البقاء. وهو بعيد لعدم الحاجة إلى ذلك.

والوجه: الأول لخلوصه من هذه التعسّفات. وكون «إلى» حرف جر، و «ربها» مجروراً بها هو المتبادر إلى الذهن، وقد خرجه بعض المعتزلة على أن يكون «إلى» اسماً مفرداً بمعنى النعمة مضافاً إلى «الرب» ويجمع على «آلاء» نحو ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ [الرحمن: ١٣] ـ وقد تقدم أن فيها لغات أربعاً ـ و «ربِّهَا» خفض بالإضافة والمفعول مقدم ناصبه «ناظرة» بمعنى منتظرة والتقدير: وجوه منتظرة نعمة ربها.

وهذا فرار من إثبات النظر لله ـ تعالى ـ على معتقدهم.

وتَمحَّل الزمخشري لمذهب المعتزلة بطريق أخرى من جهة الصناعة، فقال ـ بعد أن جعل التقديم في «إلى ربها» مؤذناً بالاختصاص ـ: والذي يصح معه أن يكون من قول الناس: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي، يريد معنى التوقّع والرجاء؛ ومنه قول القائل: [الكامل]

٤٩٩٧ ـ وإذَا نَظَرْتُ إليكَ مِنْ مَلِكٍ ... والبَحْرُ دُونكَ زِدْتَنِي نِعَمَا[١]

وسمعت سُرِّيَّة مستجدية بـ «مكة» وقت الظهر حين يغلق الناس أبوابهم، ويأوون إلى مقايلهم تقول: «عُيَيْنتي نويظرة» إلى الله وإليكم، والمعنى: أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم.

قال شهاب الدين[٢]: وهذا كالحوم على من يقول إن «نَاظِرةٌ» بمعنى منتظرة، إلا أن مكيًا قد رد هذا القول، فقال: ودخول «إلى» مع النظر يدل على أنه نظر العين، وليس من الانتظار ولو كان من الانتظار لم تدخل معه «إلى»؛ ألا ترى أنك لا تقول: انتظرت

---

(١) ينظر الكشاف ٤/ ٦٢٢، والبحر ٨/ ٣٨٠، والدر المصون ٦/ ٤٣٠.

(٢) ينظر الدر المصون ٦/ ٤٣١.

إلى زيد، وتقول: نظرت إلى زيد تعني نظر العين، فـ «إلى» تصحب نظر العين، ولا تصحب نظر الانتظار، فمن قال: إن «ناظرة» بمعنى «منتظرة» فقد أخطأ في المعنى وفي الإعراب ووضع الكلام في غير موضعه.

وقال القرطبي[1]: «إن العرب إذا أرادت بالنظر الانتظار قالوا: نظرته، كما قال تعالى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ [الزخرف: ٦٦]، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣]، ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ [يس: ٤٩]، وإذا أرادت به التفكر والتدبر قالوا: نظرت فيه، فأما إذا كان النظر مقروناً بذكر «إلى» وذكر الوجه فلا يكون إلا بمعنى الرؤية والعيان».

وقال الأزهري: «إن قول مجاهد: تنتظر ثواب ربها خطأ؛ لأنه لا يقال: نظر إلى كذا بمعنى الانتظار، وإن قول القائل: نظرت إلى فلان ليس إلا رؤية عين، كذا تقوله العرب؛ لأنهم يقولون: نظرت إليه إذا أرادوا نظر العين، فإذا أرادوا الانتظار قالوا: نظرته»؛ قال: [الطويل]

٤٩٩٨ ـ فَإِنَّكُمَا إنْ تَنْظُرَا لي سَاعَةً ... مِنَ الدَّهرِ تَنْفَعْنِي لدى أمِّ جُنْدُبِ[2]

لما أرادوا الانتظار قال: تنظراني، وإذا أرادوا نظر العين قالوا: نظرت إليه.

قال الشاعر: [الطويل]

٤٩٩٩ ـ نَظَرْتُ إليهَا والنُّجُومُ كأنَّها ... مَصابِيحُ رُهبَانٍ تُشَبُّ لِقفَّالِ[3]

وقال آخر: [الطويل]

٥٠٠٠ ـ نَظَرْتُ إليْهَا بالمُحَصَّبِ من مِنى ... .[4]

والنَّضْرة: طراوة البشرة وجمالها، وذلك من أثر النعمة، يقال: نضر وجهه فهو ناضر.

وقال بعضهم: نسلم أنه من نظر العين إلا أن ذلك على حذف مضاف، أي ثواب ربها ونحوه.

---

(١) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٧١.

(٢) تقدم.

(٣) قائله هو امرؤ القيس ينظر ديوانه ص ٣١، و الهمع ١/ ٢٤٦، والدرر اللوامع ١/ ١٧٠، والقرطبي ١٩/ ٧١.

(٤) صدر بيت لعمر بن أبي ربيعة وعجزه:

لِـحَـيْـنِـي شَـمْـسٌ سُـتِّـرَتْ بِـيَـمَـانِ

ويروى أيضاً:

وَلِـي نَـظَـرٌ لَـوْلاَ الـتَّـحَـرُّجُ عَـارِمِ

ينظر ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٢٦٥، والقرطبي ١٩/ ٧١.

قال مكي: «لو جاز هذا لجاز: نظرت إلى زيد، بمعنى: نظرت إلى عطاء زيد، وفي هذا نقض لكلام العرب وتخليط في المعاني».

ونضَره الله ونضَّره، مخففاً ومثقلاً، أي: حسنه ونعمه.

قال ﷺ: «نَضَّر اللَّهُ امْرأً سَمِعَ مَقالَتِي فوَعَاهَا، فأدَّاهَا كما سَمِعهَا»[١] يروى بالوجهين.

ويقال للذهب: نُضَار من ذلك، ويقال له: النضر أيضاً.

ويقال: أخضر ناضر كأسود حالك، وقدح نضار: يروى بالإتباع والإضافة.

والعامة: «ناضرة» بألف، **وقرأ زيد**[٢] **بن علي**: «نضرة» بدونها، كـ «فرح» فهو فرح.

فصل في الرؤية

روى مسلم في قوله تعالى ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [يونس: ٢٦] كان ابن عمر يقول: أكرم أهل الجنة على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية، ثم تلى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[٣].

وقال عكرمة: تنظر إلى ربها نظراً[٤]، وحكى الماوردي عن ابن عمر وعكرمة ومجاهد: تنظر أمر ربها، وليس معروفاً إلا عن مجاهد وحده[٥].

وجمهور أهل السُّنَّة تمسك بهذه الآية لإثبات أن المؤمنين يرون الله ـ سبحانه وتعالى ـ يوم القيامة وأما المعتزلة فاحتجوا بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ويقولون: النظر المقرون بـ «إلى» ليس اسماً للرؤية، بل لمقدمة الرؤية، وهي تقليب الحدقة نحو المرئي التماساً لرؤيته، ونظر العين بالنسبة إلى الرؤية كنظر القلب بالنسبة إلى المعرفة، وكالإصغاء بالنسبة إلى السمع ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨] فأثبت النظر حال عدم الرؤية، ويقال: نظر إليه شزراً، ونظر إليه غضبان ونظر راضياً، ولا يقال ذلك في الرؤية،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٨٠، والدر المصون ٦/ ٤٣١.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٧٠) عن ابن عمر.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٤٣) عن مجاهد وأبي صالح وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٧٦) عن أبي صالح وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٤٣) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٦٩) وعزاه إلى ابن المنذر والآجري واللالكائي والبيهقي.

ويقال: وجوه متناظرة، أي: متقابلة ويقال: انظر إليه حتى تراه، فتكون الرؤية غاية للنظر، وأن النظر يحصل والرؤية غير حاصلة وقال: [الوافر]

٥٠٠١ ـ وجُوهٌ نَاظِرَاتٌ يَوْمَ بَدْرٍ إلى الرَّحمنِ تَنتظِرُ الخَلاصَا[1]

ولا رؤية مع النظر المقرون بـ «إلى»، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧] ومن قال: لا يراهم، كفر، قالوا: ويمكن أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿نَاظِرَةٌ﴾ أي: منتظرة كقولك: أنا أنظر إليك في حاجتي، أو يكون «إلى» مفرد «آلاء» وهي النعم ـ كما تقدم ـ والمراد: إلى ثواب ربها؛ لأن الأدلة العقلية والسمعية لما منعت الرؤية وجب التأويل، أو يكون المعنى أنها لا تسأل، ولا ترغب إلا إلى الله عز وجل، كقوله: «اعْبُد الله كأنَّك تَرَاهُ».

قال ابن الخطيب[2]: والجواب: لنا مقامان:

أحدهما: أن نقول: النظر هو الرؤية كقول موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فلو كان المراد تقليب الحدقة نحو المرئي لاقتضت الآية إثبات الجهة والمكان، ولأنه أخر النظر عن الإرادة فلا يكون تقليب.

المقام الثاني: سلمنا ما ذكرتموه من أن النظر تقليب الحدقة للرؤية، لكن يقدر حمله على الحقيقة، فيجب الحمل على الرؤية إطلاقاً لاسم السبب على المسبب، وهو أولى من حمله على الانتظار لعدم الملازمة؛ لأن تقليب الحدقة كالسبب للرؤية، ولا تعلق بينه وبين الانتظار.

وأما قولهم: نحمله على الانتظار قلنا: الذي هو بمعنى الانتظار، وفي القرآن غير مقرون، كقوله تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ﴾ [الحديد: ١٣]، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣]، والذي ندّعيه أن النظر المقرون بـ «إلى» ليس بمعنى الرؤية؛ لأن وروده بمعنى الرؤية، أو بالمعنى الذي يستعقب الرؤية ظاهر، فلا يكون بمعنى الانتظار دفعاً للاشتراك وقوله: «وجوه ناظرات يوم بدر». شعر موضوع، والرواية الصحيحة: [الوافر]

٥٠٠٢ ـ وجُوهٌ نَاظِرَاتٌ يَوْمَ بَكْرٍ إلى الرَّحمنِ تَنتظِرُ الخَلاصَا[3]

والمراد من هذا الرحمن: مسيلمة الكذاب؛ لأنهم كانوا يسمُّونه رحمن اليمامة، وأصحابه كانوا ينظرون إليه ويتوقعون منه الخلاص من الأعداء.

وقولهم: هو مفرد «آلاء» أي: نعمة ربها.

---

(١) يروى: فَلاَحا ـ خَلاَصا.
ينظر مجمع البيان ١٠/ ٦٠٠، والرازي ٣٠/ ٢٠٠.

(٢) الفخر الرازي ٣٠/ ٢٠١.

(٣) تقدم قريباً.

قلنا: فيصدق على أيِّ نعمة كانت.

وإن قلنا: لأنه إنما كان للماهية التي يصدق عليها أنها نعمة، فعلى هذا يكفي في تحقيق مسمّى هذه اللفظة أي جزء فرض من أجزاء النعمة، وإن كانت غاية في القلة والحقارة، وكيف يمكن أن تكون من حاله الثواب يومئذ في النعم العظيمة، فكيف ينتظرون نعمة قليلة، وكيف يمكن أن يكون من حاله كذلك أن يبشر بأنه يتوقع الشيء الذي يطلق عليه اسم النعمة، ومثال هذا: أن يبشر سلطان الأرض بأنه سيصير حاله في العظمة والقوة بعد سنة بحيث يكون متوقعاً لحصول نعمة واحدة فكما أن ذلك فاسد، فكذا هاهنا سلمنا أن النظر المتعدي بـ «إلى» المقرون بالوجوه جاء في اللغة بمعنى الانتظار، ولكن لا يمكن حمل هذه الآية عليه؛ لأن لذة الانتظار مع تعين الوقوع كانت حاصلة في الدنيا، فلا بد وأن تحصل في الآخرة زيادة حتى يحصل الترغيب في الآخرة، ولا يجوز أن يكون ذلك هو قرب الحصول.

قال القشيري: وهذا باطل؛ لأن واحد «الآلاء» يكتب بالألف لا بالياء.

وقربُ الحصول معلوم بالعقل فبطل التأويل.

وأما قولهم: المراد ثواب ربها، فهو خلاف الظاهر، هذا ما ذكره ابن الخطيب.

وروى القرطبي في «تفسيره» قال[1]: خرج «مسلم» عن جرير بن عبد الله قال: كنا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال ﷺ: «إنَّكُمْ سَتَرونَ ربَّكُمْ عياناً كَمَا تَرونَ القَمرَ لا تُضَامُونَ فِي رُؤيتِهِ، فإن اسْتَطَعْتُم ألاَّ تُغْلبُوا عَلى صلاةٍ قَبْلَ طُلوعِ الشَّمْسِ وصلاةٍ قَبْلَ غُروبِهَا فافْعَلُوا» ثُمَّ قَرأَ: «وسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وقَبْلَ الغُرُوبِ» متفق عليه[2].

وفي كتاب «النسائي» عن صهيب ـ رضي الله عنه ـ قال: «فيُكشَفُ الحِجابُ فيَنظُرونَ إليْهِ، فواللَّهِ ما أعْطَاهُمْ شَيْئاً أحبَّ إليْهِمْ من النَّظرِ، ولا أقَرَّ لأعْيُنِهِمْ»[3].

وروى أبو إسحاق الثعلبيُّ عن الزبير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «يتَجلَّى ربُّنَا ـ سُبْحانَهُ وتَعالَى ـ حتَّى يُنْظَرَ إلى وَجْهِهِ فيَخِرُّونَ لَهُ سُجَّداً، فيقُولُ اللَّهُ تعالى: ارفَعُوا رُءُوسكمْ فَليْسَ هذا بِيومِ عِبَادةٍ»[4].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٧٠.

(٢) أخرجه البخاري ٨/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣، كتاب التفسير: باب «وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب» (٤٨٥١)، ومسلم ١/ ٤٣٩؛ ٤٤٠، كتاب المساجد: باب فضل صلاة الصبح والعصر والمحافظة عليها ٢١١/ ٦٣٣، (٢١٢).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٧١).

(٤) ينظر المصدر السابق.

وقال القرطبي[١]: وقيل: أضاف النظر إلى العين؛ لأن العين في الوجه فهو كقوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥] والماء يجري في النهر لا النهر ثم قد يكون الوجه بمعنى العين، قال تعالى: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٣]، أي على عينيه، ثم لا يبعد قلب العادة غداً حتى يخلق النظر في الوجه وهو كقوله تعالى ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ [الملك: ٢٢].

فقيل: يا رسُول اللَّهِ، كيف يَمشُونَ في النَّار علَى وُجوهِهِمْ؟ قال: «الَّذي أمْشاهُمْ عَلَى أقدامِهِم قَادِرٌ على أنْ يُمشِيَهمْ على وُجُوهِهِم»[٢].

قوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾، أي: وجوه الكفار يوم القيامة شديدة كالحة.

والبَاسِر: الشديد العبوس، والباسل: أشد منه ولكنه غلب في الشجاع إذا اشتد كلوحة.

وفي «الصِّحاح»[٣]: وبسر الفحل الناقة وابتسرها: إذا ضربها، وبسر الرجل وجهه بسوراً أي: كلح، يقال: «عَبسَ وبَسَرَ».

وقال السديُّ: «بَاسِرةٌ» متغيّرة، والمعنى: أنها عابسة كالحة قد أظلمت ألوانها[٤].

قوله تعالى: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾. أي: توقن وتعلم.

قال ابن الخطيب[٥]: هكذا قاله المفسرون، وعندي أن الظن هنا إنما ذكر على سبيل التهكم، كأنه قيل لما شاهدوا تلك الأحوال حصل فيهم ظن أن القيامة حق.

والفاقرة هي الداهية العظيمة، قاله أبو عبيدة.

سميت بذلك لأنها تكسر فقار الظهر.

قال النابغة: [الطويل]

٥٠٠٣ ـ أبى لِيَ قَبْرٌ لا يَزالُ مُقَابِلِي وضَرْبَةُ فَأسٍ فوقَ رَأسِي فَاقِرَهْ[٦]

أي: داهية مؤثِّرة، يقال: فقرته الفاقرة، أي: كسرت فقار ظهره. قال معناه مجاهد وغيره، ومنه سمي الفقير لانكسار فقاره من القلّ وقد تقدم في البقرة[٧].

---

(١) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٧٠.

(٢) تقدم.

(٣) ينظر الصحاح ٢/ ٥٨٩.

(٤) ذكره القرطبي في تفسيره (١٩/ ٧٠).

(٥) ينظر الرازي ٣٠/ ٢٠٣.

(٦) يروى إن لي قبراً، مكان أبى لي قبر.
ينظر ديوانه (١٢١)، والقرطبي ١٩/ ٧٢، والبحر المحيط ٨/ ٣٧٤، والدر المصون ٦/ ٤٣١، وفتح القدير ٥/ ٣٣٩.

(٧) آية ٢٦٨.

وقال قتادة: «الفاقرة»: الشر[١]، وقال السديُّ: الهلاك[٢].

وقال ابن عباس وزيد: دخول النار[٣]، وأصلها الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى يخلص إلى العظم. قاله الأصمعي.

يقال: فقرت أنف البعير: إذا حززته بحديدة، ثم جعلت على موضع الحزّ الجرير وعليه وتر مَلْويّ لتذلله وتروضه.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ (٢٨) وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ (٣٥)﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ «كَلاَّ» ردْعَ وزَجْر، أي بعيد أن يؤمن الكافر بيوم القيامة، ثم استأنف فقال: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ أي: بلغت النفس والروح التراقي فأخبر بما لم يجر له ذكر لعلم المخاطب به كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] وقوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣].

وقيل: «كَلاّ» معناه «حقًا» إن المساق إلى الله تعالى إذا بلغت التراقي، أي إذا ارتفعت النفس إلى التراقي.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: إذا بلغت نفس الكافر التراقي[٤].
و «التراقي»: مفعول «بلغت» والفاعل مضمر، أي: النفس وإن لم يجرِ لها ذكر، كقول حاتم: [الطويل]

٥٠٠٤ ـ أَمَاوِيَّ ما يُغْنِي الثَّراءُ عن الفَتَى   إِذَا حَشرجتْ يَوماً وضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ[٥]

أي: حشرجت النفس.

وقيل في البيت: إن الدال على النفس ذكر جملة ما اشتمل عليها وهو الفتى فكذلك هنا ذكر الإنسان دال على النفس، والعامل في «إذَا بَلغت» معنى قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٣٠]، أي: إذ بلغت الحلقوم رفعت إلى الله تعالى، ويكون قوله: ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ [القيامة: ٢٧] معطوف على «بلغت».

و «التراقي»: جمع «ترقوة»، أصلها: «تراقو» قلبت واوها ياء لانكسار ما قبلها.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٤٥) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٧٧) وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٧٢). (٣) ينظر المصدر السابق.

(٤) ينظر المصدر السابق. (٥) تقدم.

والترقوة: أحد عظام الصدر. قاله أبو حيان[١]، والمعروف غير ذلك.

قال الزمخشري: ولكل إنسان ترقوتان، فعلى هذا يكون من باب: غليظ الحواجب وعريض المناكب.

وقال القرطبي[٢]: «هي العظام المكتنفة لنُقْرة النحر، وهو مقدم الدّلق من أعلى الصدر، وهو موضع الحَشْرجة».

قال دريدُ بن الصمَّةِ: [الوافر]

٥٠٠٥ ـ ورُبَّ عَظِيمةٍ دَافعْتُ عَنْهَا وقَدْ بَلغَتْ نُفوسُهُمُ التَّراقِي[٣]

وقال الراغب: «التَّرْقُوة»: عظم وصل ما بين نُقرة النحر والعاتق انتهى.

وقال الزمخشري: العظام المكتنفة لنقرة النحر عن يمين وشمال. ووزنها: «فَعْلُوة» فالتاء أصل والواو زائدة، يدل عليه إدخال أهل اللغة إياها في مادة «ترق».

وقال أبو البقاء والفراء: جمع تَرْقُوَة، وهي «فَعْلُوة»، وليست بـ «تَفْعلَة»، إذ ليس في الكلام «رقو».

وقرىء[٤]: «التراقي» بسكون، وهي كقراءة زيد: ﴿تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] وقد تقدم توجيهها.

وقد يكنى ببلوغ النفس التراقي عن الإشفاء على الموت والمقصود تذكيرهم شدة الحال عند نزول الموت.

فصل في الرد على من طعن في الآية

قال ابن الخطيب[٥]: قال بعض الطَّاعنين: إن النفس إنما تصل إلى التراقي بعد مفارقتها للقلب ومتى فارقت النفس القلب حصل الموت لا محالة، والآية تدل على أن عند بلوغها التراقي تبقى الحياة حتى يقال فيه: من راق وحتى تلتف الساق بالساق، والجواب: أن المراد من قوله: «حتَّى إذَا بَلَغَت التَّراقِي»، أي: إذا حصل بالقرب من تلك الحالة.

قوله: ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ مبتدأ وخبر، وهذه الجملة هي القائمة مقام الفاعل، وأصول البصريين تقتضي ألا يكون؛ لأن الفاعل عندهم لا يكون جملة، بل القائم مقامه ضمير المصدر وقد تقدم تحقيق هذا في البقرة.

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٨٢. (٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٧٢.

(٣) قيل البيت لدريد بن الصِّمة، وقيل لابنته عمرة ترثي أباها، وقيل لذي الرمة.
ينظر مجمع البيان ١٠/ ٦٠٥، والقرطبي ١٩/ ٧٢، والبحر ٨/ ٣٧٤، والدر المصون ٦/ ٤٣٢.

(٤) ينظر: الدر المصون ٦/ ٤٣٢. (٥) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٢٠٤.

وهذا الاستفهام يجوز أن يكون على بابه، وأن يكون استبعاداً وإنكاراً.

فالأول مروي عن ابن عباس وعكرمة وغيرهما، قالوا: هو من الرقية.

وروى سماك عن عكرمة قال: «من راق» يرقي ويشفي[١].

والثاني رواه ميمون بن مهران عن ابن عباس أيضاً: هل من طبيب يشفيه، وهو قول أبي قلابة وقتادة. وقال الشاعر: [البسيط]

٥٠٠٦ ـ **هَلْ لِلفَتَى مِنْ بنَاتِ الدَّهْرِ من وَاقِ؟ أمْ هَلْ لَهُ مِن حِمَامِ المَوتِ مِنْ رَاقِ؟**[٢]

وكان هذا على وجه الاستبعاد واليأس، أي من يقدر أن يرقي من الموت.

وعن ابن عباس أيضاً وأبي الجوزاء: أنه من رقي يرقى: إذا صعد[٣].

والمعنى: من يرقى بروحه إلى السماء؟ أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟.

وقيل: إن ملك الموت يقول: «مَن راقٍ» أي: من يرقى بهذه النفس.

قال شهاب الدين[٤]: و «راقٍ» اسم فاعل إما من «رقى يرقي» من الرقية، وهو كلام معد للاستشفاء يرقى به المريض ليشفى، قال رسول الله ﷺ: «ومَا أدْراكَ أنَّها رُقْيَة»[٥] يعني الفاتحة، وهو اسم من أسمائها، وإما من «رَقِيَ يرقَى» من الرَّقْي وهو الصعود أي أن الملائكة لكراهتها في روحه تقول: من يصعد بهذه الروح يقال: «رَقَى ـ بالفتح ـ من الرُّقية، وبالكسر من الرَّقْي»، ووقف حفص على نون «من» سكتة لطيفة، وقد تقدم تحقيق هذا في أول الكهف.

وذكر سيبويه أن النون تدغم في الراء وجوباً بغنة وبغيرها نحو «من راشد».

قال الواحدي: إن إظهار النون عند حروف الفم لحن فلا يجوز إظهار نون «من» في قوله: «من راق».

وروى حفص عن عاصم[٦]: إظهار النون واللام في قوله: «من راق» و «بل ران».

قال أبو علي الفارسي: «ولا أعرف وجه ذلك».

قال الواحدي: والوجه أن يقال: قصدوا الوقف على «من» و «بل»، فأظهروهما ثم ابتدأوا بما بعدهما، وهذا غير مرضي من القراءة.

قوله: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾، أي: أيقن الإنسان أنه الفراق، أي: فراق الدنيا، والأهل

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٤٥) عن عكرمة.

(٢) ينظر القرطبي ١٩/ ٧٣.

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٥٨) والقرطبي (١٩/ ٧٣).

(٤) الدر المصون ٦/ ٤٣٢.

(٥) تقدم.

(٦) ينظر: السبعة ٦٦١، والحجة ٦/ ٣٤٦، وإعراب القراءات ٢/ ٤١٧، وحجة القراءات ٧٣٧.

والمال والولد، وذلك حين يعاين الملائكة، وسمي اليقين هنا بالظن؛ لأن الإنسان ما دامت روحه متعلقة ببدنه فإنه يطمع في الحياة لشدة حبه لهذه الحياة العاجلة، ولا ينقطع رجاؤه عنها، فلا يحصل له يقين الموت، بل الظن الغالب مع رجاء الحياة، أو لعله سماه بالظن الغالب تهكماً.

قال ابن الخطيب[١]: وهذه الآية تدل على أن الروح جوهر قائم بنفسه باقٍ بعد موت البدنِ؛ لأن الله ـ تعالى ـ سمى الموت فراقاً، والفراق إنما يكون إذا كانت الروح باقية، فإن الفراق والوصال صفة، والصفة تستدعي وجود الموصوف.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾. الالتفاف هو الاجتماع، قال تعالى: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤] ومعنى الكلام: اتصلت الشدة بالشدة، شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة. قاله ابن عباس والحسن وغيرهما[٢].

وقال الشعبي وغيره: التفت ساقا الإنسان عند الموت من شدة الكربِ[٣].

قال قتادة: أما رأيته إذا أشرف على الموت يضرب برجله على الأخرى[٤].

وقال سعيد بن المسيب والحسن أيضاً: هما ساقا الإنسان إذا التفتا في الكفنِ[٥].

وقال زيد بن أسلم: التفت ساق الكفن بساق الميت[٦].

قال النحاس: القول الأول أحسنها، لقول ابن عباس: هو آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة فتلتقي الشدة بالشدة إلا من رحم الله[٧]، والعرب لا تذكر الساق إلا في الشدائد والمحنِ العظام، ومنه قولهم: قامت الحرب على ساقٍ.

قال أهل المعاني: إن الإنسان إذا دهمته شدة شمَّر لها عن ساقيه، فقيل للأمر الشديد: ساق، قال الجعديُّ: [الطويل]

---

(١) ينظر: الفخر الرازي ٣٠/ ٢٠٥.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٤٧) عن ابن عباس والحسن ومجاهد.
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٧٨) عن ابن عباس وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم، وعن مجاهد وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وذكره عن الحسن وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٤٨) عن الشعبي.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٤٩) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٧٨) وعزاه إلى ابن المنذر.

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٤٨) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٧٨) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٧٣).

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٤٧) عن ابن عباس وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٧٨) وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

٥٠٠٧ ـ أخو الحَرْبِ إنْ عَضَّتْ بِهِ الحَرْبُ عَضَّهَا وإنْ شَمَّرتْ عَنْ سَاقِهَا الحَرْبُ شَمَّرَا[(١)]

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾. أي: إلى خالقك يومئذ، أي: يوم الساق، أي: المرجع، و «المساق» «مفعل» من السوق وهو اسم مصدر.

قال القرطبي[(٢)]: «المساق»: مصدر ساق يسوق، كالمقال من قال يقول.

قوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ «لا» هنا دخلت على الماضي، وهو مستفيض في كلامهم بمعنى: لم يصدق ولم يصل.

قال: [الرجز]

٥٠٠٨ ـ إنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمَّا وأيُّ عَبْدٍ لَكَ لا ألَمَّا[(٣)]

وقال آخر: [الطويل]

٥٠٠٩ ـ وأيُّ خَمِيسٍ، لا أتَانَا نِهَابُهُ وأسْيَافُنَا مِنْ كَبْشِهِ تَقْطرُ الدِّمَا[(٤)]

وقال مكيٌّ: «لا» الثانية نفي، وليست بعاطفة، ومعناه: فلم يصدق ولم يصل.

قال شهاب الدين[(٥)]: «وكيف يتوهم العطف حتى ينفيه».

وجعل الزمخشري «فلا صدق وصلى» عطفاً على الجملة من قوله: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قال: وهو معطوف على قوله: «يسأل أيان» أي لا يؤمن بالبعث فلا صدق بالرسول ﷺ والقرآن الكريم.

واستبعده أبو حيان.

وقال الكسائي: «لا» بمعنى «لم» ولكنه يقرن بغيره، تقول العرب: لا عبد الله خارج ولا فلان، ولا تقول: مررت برجل لا محسن حتى يقال ولا مجمل، وقوله: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ [البلد: ١١] ليس من هذا القبيل؛ لأن معناه: فهلا اقتحم، بحذف حرف الاستفهام.

---

(١) تقدم. (٢) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٧٣.

(٣) البيت لأمية بن أبي الصلت، وقيل لأبي خراش الهذلي.
ينظر ابن الشجري ١/ ١٤٤، ٢/ ٩٤، ٢٢٨، والإنصاف ١/ ٧٦، وشرح شواهد المغني ٢/ ٦٢٥، واللسان (لمم)، وخزانة الأدب ٢/ ٢٩٥.

(٤) يروى الشطر الثاني:

وأسيافنا يقطرن من كبشه دما

ينظر ابن الشجري ٢/ ٢٢٨، ومجاز القرآن ٢/ ٢٧٨، والبحر المحيط ٨/ ٣٨١، والدر المصون ٦/ ٤٣٣.

(٥) ينظر الدر المصون ٦/ ٤٣٣.

وقال الأخفش: «فلا صدّق» أي: لم يصدق، كقوله تعالى: «فَلا اقْتَحَمَ» أي: لم يقتحم، ولم يشترط أن يعقبه بشيء آخر، والعرب تقول: لا ذهب، أي: لم يذهب، فحرف النفي ينفي الماضي كما ينفي المستقبل، ومنه قول زهير: [الطويل]

٥٠١٠ ـ .... فَـلاَ هُـوَ أبْـداهَـا ولـمْ يـتـقـدَّمِ[١]

فصل في معنى الآية

قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه لم يصدق بالرسالة[٢]، «ولا صلى» أي: دعا لربه ـ عز وجل ـ وصلى على رسوله عليه الصلاة والسلام.

وقال قتادة: «فلا صدق» بكتاب الله «ولا صلى» لله تعالى[٣].

[وقيل: لا صدق بمالٍ ذخراً له عند الله تعالى «ولا صلى» الصلوات التي أمر الله بها.

وقيل: فلا آمن بقلبه][٤] ولا عمل ببدنه.

قيل: المراد أبو جهل.

وقيل: الإنسان المذكور في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [القيامة: ٣].

قوله: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ الاستدراك هنا واضح؛ لأنه لا يلزم من نفي التصدق والصلاة، التكذيب والتولي لأن كثيراً من المسلمين كذلك فاستدرك ذلك بأن سببه التكذيب والتولي، ولهذا يضعف أن يحمل نفي التصديق على نفي تصديق الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لئلا يلزم التكرار فتقع «لكن» بين متوافقين، وهو لا يجوز.

قال القرطبي[٥]: ومعناه كذب بالقرآن، وتولى عن الإيمان.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾. أي: يتبختر افتخاراً بذلك. قاله مجاهد وغيره.

«يتَمطَّى» جملة حالية من فاعل «ذهب»، ويجوز أن يكون بمعنى شرع في التمطِّي؛ كقوله: [الطويل]

٥٠١١ ـ فَـقَـامَ يَـذُودُ الـنَّـاسَ عَـنْـهَـا بِـسَـيْـفِـهِ[٦]

---

(١) عجز بيت وصدره:

وكـان طـوى كـشـحـاً عـلـى مـسـتـكـنـه

ينظر ديوان زهير ص ٢٢، واللسان طوى، والقرطبي ١٩/ ٨٤.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٧٤). (٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٥٠).

(٤) سقط من: أ. (٥) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٧٤.

(٦) تقدم.

وتمطى ـ هنا ـ فيه قولان:

أحدهما: أنه من «المَطَا» وهو الظهر، ومعناه: يَتبختَرُ أي يمد مطاه ويلويه تبختراً في مشيته.

الثاني: أن أصله «يتمطّط» أي يتمدّد، ومعناه: أنه يتمدد في مشيته تبختراً، ومن لازم التبختر ذلك فهو يقرب من معنى الأول، ويفارقه في مادته، إذ مادة «المطا»: «م ط و»، ومادة الثاني: «م ط ط»، وإنما أبدلت الطاء الثانية ياء كراهية اجتماع الأمثال نحو: تطيبت، وقصيت أظفاري، وقوله: [الرجز]

٥٠١٢ ـ تَـقَـضِّـيَ الـبَـازِي إذا الـبَـازِي كَـسَـرْ[١]

والمطيطاء: التبختر ومد اليدين في المشي، قال رسول الله ﷺ: «المُطَيْطَاء وخدَمتهُمْ من فَارِس والرّومِ كان بَأسهُمْ بَيْنَهُمْ»[٢].

و «المطيط»: الماء الخاثر أسفل الحوض؛ لأنه يتمطّط، أي: يمتدّ فيه.

وقال القرطبي[٣]: التمطط: هو التمدد من التكسُّل والتثاقل فهو متثاقل عن الداعي إلى الحق، والتمطي يدل على قلة الاكتراث.

قوله: ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ﴾ تقدم الكلام عليه في أول سورة القتال، وإنما كررها هنا مبالغة في التهديد والوعيد، فهو تهديد بعد تهديد ووعيد بعد وعيد؛ قالت الخنساء: [المتقارب]

٥٠١٣ ـ هَـمَـمْـتُ بِـنَـفْـسِـيَ كُـلَّ الـهُـمُـومِ فَـأولَـى لِـنَـفْـسِـيَ أوْلَـى لَـهَـا[٤]

وقال أبو البقاء هنا: «وزن» أولى فيه قولان:

أحدهما: «فَعْلَى» والألف فيه للإلحاق لا للتأنيث.

والثاني: هو «أفعل»، وهو على القولين هنا «علمٌ»، ولذلك لم ينون، ويدل عليه ما حكى أبو زيد في «النوادر»: هي أولاة ـ بالتاء ـ غير مصروف، لأنه صار علماً للوعيد، فصار كرجل اسمه أحمد، فعلى هذا يكون أولى مبتدأ، و «لك» الخبر.

---

(١) تقدم.

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» رقم (١٨٧) والترمذي (٢/ ٤٢ ـ ٤٣) وابن عدي في «الكامل» (١/ ٣٢٣) من حديث ابن عمر.

وله شاهد من حديث أبي هريرة. ذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٤٠) وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» وإسناده حسن.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٧٤.

(٤) ينظر ديوانها ص ٨٣، وابن الشجري ١/ ٢٤٣، ٢/ ٣٢٥، والخصائص ٣/ ٤٤، ومجمع البيان ١٠/ ٦٠٥، ٨٤١.

والثاني: أن يكون اسماً للفعل مبنياً، ومعناه: وليك شر بعد شر، و «لك» تبيين.

فصل في نزول الآية

قال قتادة ومقاتل والكلبي: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ المَسْجِدِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فاسْتقَبلهُ أبُو جَهْل على بَابِ المَسْجِدِ ممَّا يلي باب بني مَخْزُوم، فأخذ رسول الله ﷺ بيده، فهزه مرة أو مرتين ثم قال له رسول الله ﷺ: «أوْلَى لَكَ فأوْلَى، ثُمَّ أوْلَى لَكَ فأوْلَى» فقال أبو جهلٍ: أتُهدِّدنِي؟ فواللَّهِ إنِّي لأعزُّ أهل هذا الوَادِي وأكْرمهُ، ولا تَسْتطِيعُ أنْتَ ولا ربُّكَ أن تَفْعَلا بِي شَيْئاً ثُمَّ انسَلَّ ذَاهِباً، فأنزل الله ـ تعالى ـ كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام[1].

ومعنى أوْلَى لَكَ يعني ويل لك؛ قال الشاعر: [الوافر]

٥٠١٤ ـ فأوْلَى ثُمَّ أوْلَى ثُمَّ أوْلَى وهَلْ لِلدَّرِّ يُحْلَبُ مِنْ مَرَدِّ؟[2]

وقيل: هو من المقلوب، كأنه قيل: «ويل» ثم أخر الحرف المعتل، والمعنى: الويل لك يوم تدخل النار؛ وهذا التكرير كقوله: [الطويل]

٥٠١٥ ـ .... لَكَ الوَيْلاتُ إنَّكَ مُرْجِلِي[3]

أي لك الويل ثم الويل.

وقيل: معناه الذم لك أولى من تركه.

وقيل: المعنى أنت أولى وأجدر بهذا العذب.

وقال أبو العباس أحمد بن يحيى: قال الأصمعي «أولى» في كلام العرب معناه مقاربة الهلاك كما تقول: قد وليت الهلاك، أي دانيت الهلاك، وأصله من «الولي» وهو القرب، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ [التوبة: ١٢٣] أي: يقربون منكم.

قال القرطبي: «وقيل: التكرير فيه على معنى من ألزم لك على عملك السيّىء الأول ثم الثاني والثالث والرابع».

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، أي: أيظن ابن آدم «أن يترك سُدى» أي: أن يخلى مهملاً، فلا يؤمر ولا ينهى. قاله ابن زيد ومجاهد[4].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٥١) عن قتادة. وذكره القرطبي «تفسيره» (١٩/ ٧٤).

(٢) تقدم. (٣) تقدم.

(٤) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٦/ ١٥٩) والقرطبي (١٩/ ٧٦).

وقيل: أن يترك في قبره أبداً كذلك لا يبعث. و «سدى» حال من فاعل «يترك» ومعناه: مهملاً، يقال: إبل سدى، أي: مهملة.

وقال الشاعر: [المتقارب]

٥٠١٦ ـ وأقْسِمُ باللَّهِ جَهْدَ اليَمِيـ ـنِ ما خلقَ اللَّهُ شَيئاً سُدَى[1]

أي: مهملاً، وأسديت حاجتي، أي ضيعتها، ومعنى أسدى إليه معروفاً، أي: جعله بمنزلة الضائع عند المسدى إليه لا يذكره ولا يمن به عليه.

قوله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً﴾. العامة: على الياء من تحت في «يك» رجوعاً إلى الإنسان.

والحسن[2]: بتاء الخطاب، على الالتفات إليه توبيخاً له.

وقوله: ﴿مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾. قرأ حفص: «يُمْنَى» بالياء من تحت.

وفيه وجهان:

أحدهما: أن الضمير عائد على المني ـ أي يصب ـ فتكون الجملة في محل جر.

والثاني: أنه يعود للنطفة، لأن تأنيثها مجازيّ؛ ولأنها في معنى الماء. قاله أبو البقاء.

وهذا إنما يتمشى على قول ابن كيسان.

وأما النحاة فيجعلونه ضرورة؛ كقوله: [المتقارب]

٥٠١٧ ـ .... ولا أرْضَ أبْقَلَ إبْقَالَهَا[3]

وقرأ الباقون[4]: «تُمْنَى» بالتاء من فوق على أن الضمير للنطفة، فعلى هذه القراءة وعلى الوجه المذكور قبلها تكون الجملة في محل نصب؛ لأنها صفة المنصوب.

فصل في معنى الآية

والمعنى من قطرة ما تمنى في الرحم، أي تراق فيه، ولذلك سميت «منى» لإراقة الدماء، والنُّطفة: الماء القليل، ويقال: نطف الماء، أي: قطر، أي ألم يك ماء قليلاً في صلب الرجل وترائب المرأة، فنبه تعالى بهذا على خسة قدره. ثم قال تعالى: ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي: فسواه تسوية، وعدله تعديلاً بجعل الروح فيه.

وقيل: فخلق فقدر فسوى فعدل.

---

(١) ينظر القرطبي ١٩/ ٧٦، والبحر ٨/ ٣٧٤، والدر المصون ٦/ ٤٣٤.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٤٠٧، والبحر المحيط ٨/ ٣٨٢، والدر المصون ٦/ ٤٣٤.

(٣) تقدم.

(٤) ينظر السبعة ٦٦٢، والحجة، ٦/ ٣٤٦، ٣٤٧، وإعراب القراءات ٢/ ٤١٧.

وقيل: «فخلق» أي: نفخ فيه «فسوى» فكمل أعضاءه. قاله ابن عباس ومقاتل.

﴿فَجَعَلَ مِنْهُ﴾ أي: من الإنسان.

وقيل: من المني «الزوجين، الذكر والأنثى» أي: الرجل والمرأة.

فقوله تعالى ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ يجوز أن يكونا بدلين من الزوجين على لغة من يرى إجراء المثنى إجراء المقصور، وقد تقدم تحقيقه في «طه» ومن ينسب إليه هذه اللغة والاستشهاد على ذلك [طه: ٦٣].

فصل فيمن احتج بالآية على إسقاط الخنثى

قال القرطبي(١): وقد احتج بهذه الآية من رأى إسقاط الخنثى وقد مضى في سورة «الشورى» أن هذه الآية وقرينتها إنما خرجت مخرج الغالب.

فإن قيل: ما فائدة قوله: «يمنى» في قوله تعالى: «من منيّ يمنى»؟ فالجواب فيه إشارة إلى حقارة حاله، كأنه قيل: إنه مخلوق من المني الذي يجري مجرى النَّجاسة، فلا يليق بمثل هذا أن يتمرد عن طاعة الله ـ تعالى ـ إلا أنه عبر عن هذا المعنى على سبيل الرمز، كما في قوله تعالى في «عيسى ومريم» ـ عليهما الصلاة والسلام ـ ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] والمراد منه قضاء الحاجةِ.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ﴾ أي: أليس الذي قدر على خلق هذه النسمة من قطرة ماء.

وقوله: «بقَادرِ» اسم فاعل مجرور بـ «باء» زائدة في خبر «ليس» وهذه قراءة العامة.

وقرأ زيد بن علي(٢): «يقدر» فعلاً مضارعاً.

والعامة: على نصب «يحيي» بـ «أن» لأن الفتحة خفيفة على حرف العلة.

وقرأ طلحة(٣) **بن سليمان والفياض بن غزوان**: بسكونها، فإما أن يكون خفف حرف العلة بحذف حرف الإعراب. وإما أن يكون أجرى الوصل مجرى الوقف، وجمهور النَّاس على وجوب فك الإدغام.

قال أبو البقاء: لئلا يجمع بين ساكنين لفظاً وتقديراً.

يعني أن الحاء ساكنة، فلو أدغمنا لسكنا الياء الأولى أيضاً للإدغام، فيلتقي ساكنان لفظاً، وهو متعذر النطق، فهذان ساكنان لفظاً.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٧٦.

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٨٢، والدر المصون ٦/ ٤٣٤.

(٣) ينظر: السابق، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٠٧.

وأما قوله: تقديراً؛ فإن بعض الناس جوز الإدغام في ذلك، وقراءته[١] أن يُحْيِّ، وذلك أنه لما أراد الإدغام نقل حركة الياء الأولى إلى الحاء فأدغمها فالتقى ساكنان، الحاء لأنها ساكنة في الأصل قبل النقل إليها والياء؛ لأن حركتها نقلت من عليها إلى الحاء؛ واستشهد الفراء لهذه القراءة بقول الشاعر: [الكامل]

٥٠١٨ ـ تَمْشِي بِسُدَّةِ بَيْتِهَا فَتُعِيّ[٢]

وأما أهل «البصرة» فلا يدغمونه ألبتة قالوا: لأن حركة الياء عارضة إذ هي للإعراب.

وقال مكي: وقد أجمعوا على عدم الإدغام في حال الرفع، وأما في حال النصب فقد أجازه الفرَّاء لأجل تحرك الياء الثانية، وهو لا يجوز عند البصريين، لأن الحركة عارضة.

قال شهاب الدين[٣]: ادعاؤه الإجماع مردود بالبيت الذي تقدم إنشاده عن الفراء، وهو قوله: «فتعيّ» فهذا مرفوع وقد أدغم، ولا يبعد ذلك لأنه لما أدغم ظهرت تلك الحركة لسكون ما قبل الياء بالإدغام».

فصل في معنى الآية

المعنى الذي قدر على خلق هذه النسمة من قطرة ماء قادر على أن يحيي الموتى أي: أن يعيد هذه الأجسام كهيئتها للبعث بعد البِلَى.

روي عن رسول الله ﷺ أنّه كَانَ إذَا قَرأهَا، قال: «سُبحَانَكَ اللَّهُمَّ وبَلَى»[٤].

وقال ابن عباس: من قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ إماماً كان أو غيره فليقل: «سُبْحَانَ ربِّيَ الأعْلَى» ومن قرأ: «لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيَامَةِ» إلى آخرها فليقل: سبحانك اللهم بلى، إماماً كان أو غير[٥].

روى الثعلبي عن أبيّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنَ قَرَأَ سُورةَ القِيامةِ شَهِدتُ أنَا وجِبْرِيلُ لَهُ يَوْمَ القِيامَةِ أنه كَانَ مُؤمِناً بِيوم القِيامَةِ وجَاءَ وَوجْهُهُ يُسْفِرُ عَن وُجُوهِ الخَلائقِ يَوْمَ القِيامَةِ»[٦]. والله أعلم وأحكم.

تمَّ الجزء التَّاسع عشر، ويليه الجزء العشرون

وأوّله: تفسير سورة الإنسان

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٨٢، والدر المصون ٦/ ٤٣٥.

(٢) تقدم.

(٣) الدر المصون ٦/ ٤٣٥.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٧٩) وعزاه إلى ابن مردويه.

(٥) ذكره السيوطي في «الدر المنثور (٦/ ٤٧٩) وعزاه إلى ابن أبي حاتم وابن المنذر.

(٦) تقدم تخريجه.

فهرس محتويات
الجزء التاسع عشر
من
اللباب

فهرس المحتويات

سورة الممتحنة

سورة الصف

سورة الجمعة

سورة المنافقون

سورة التغابن

سورة الطلاق

سورة التحريم

سورة الملك

سورة القلم

سورة الحاقة

سورة المعارج

سورة نوح

سورة الجن

سورة المزمل

سورة المدثر

سورة القيامة